سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض

(٧٢)

منهج السلف في الوعظ

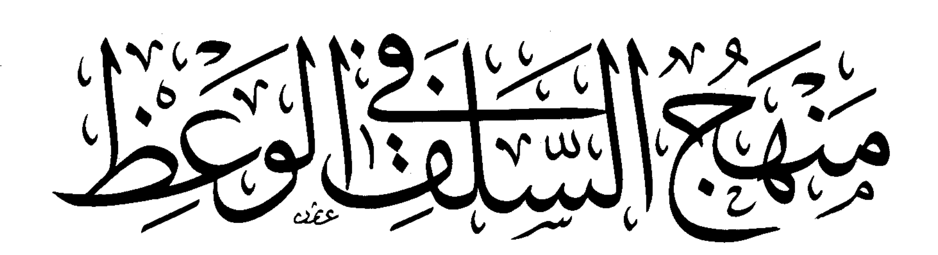
تأليف

أبي يزيد سليمان العربي بن صفية

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين







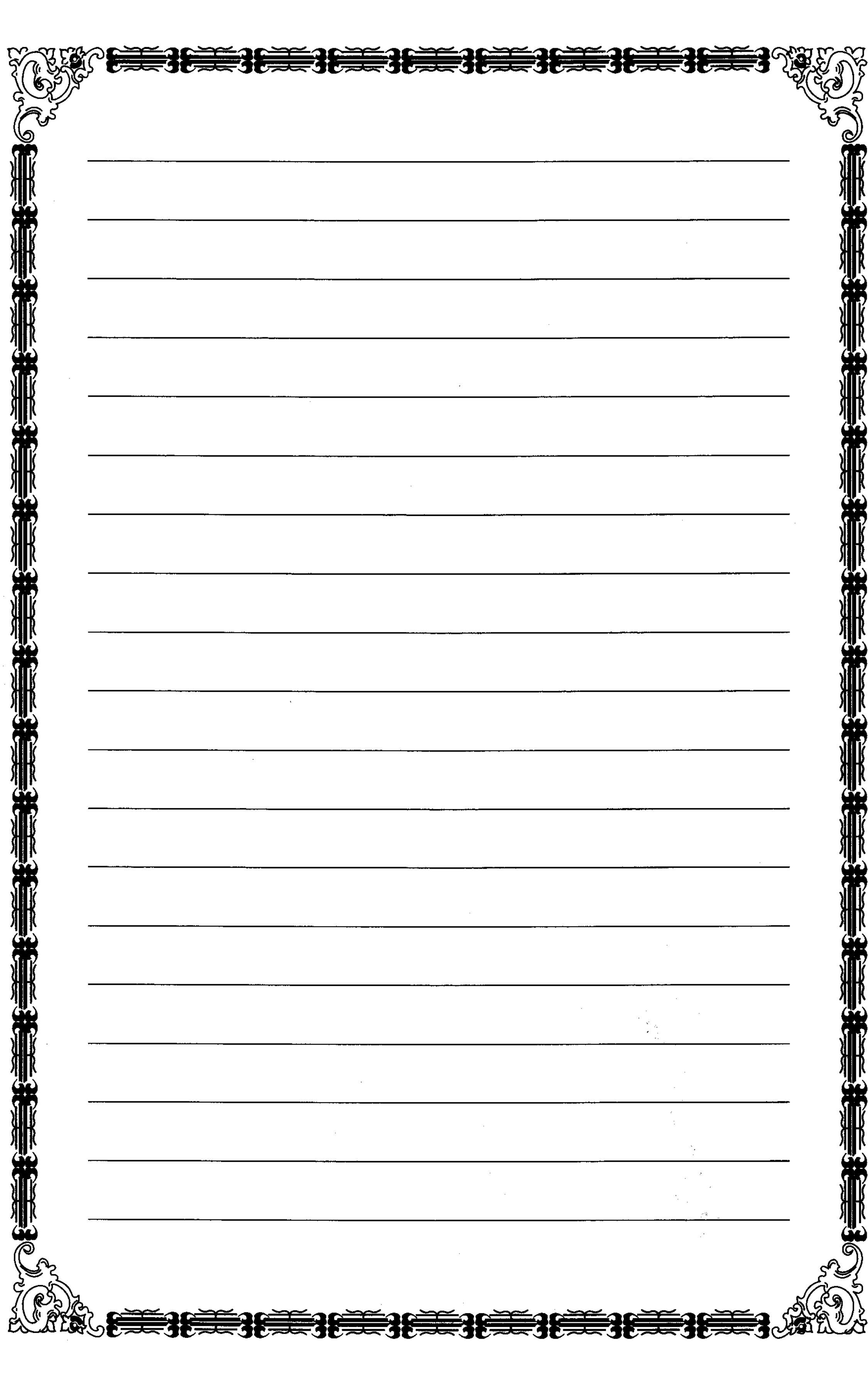
تأليف

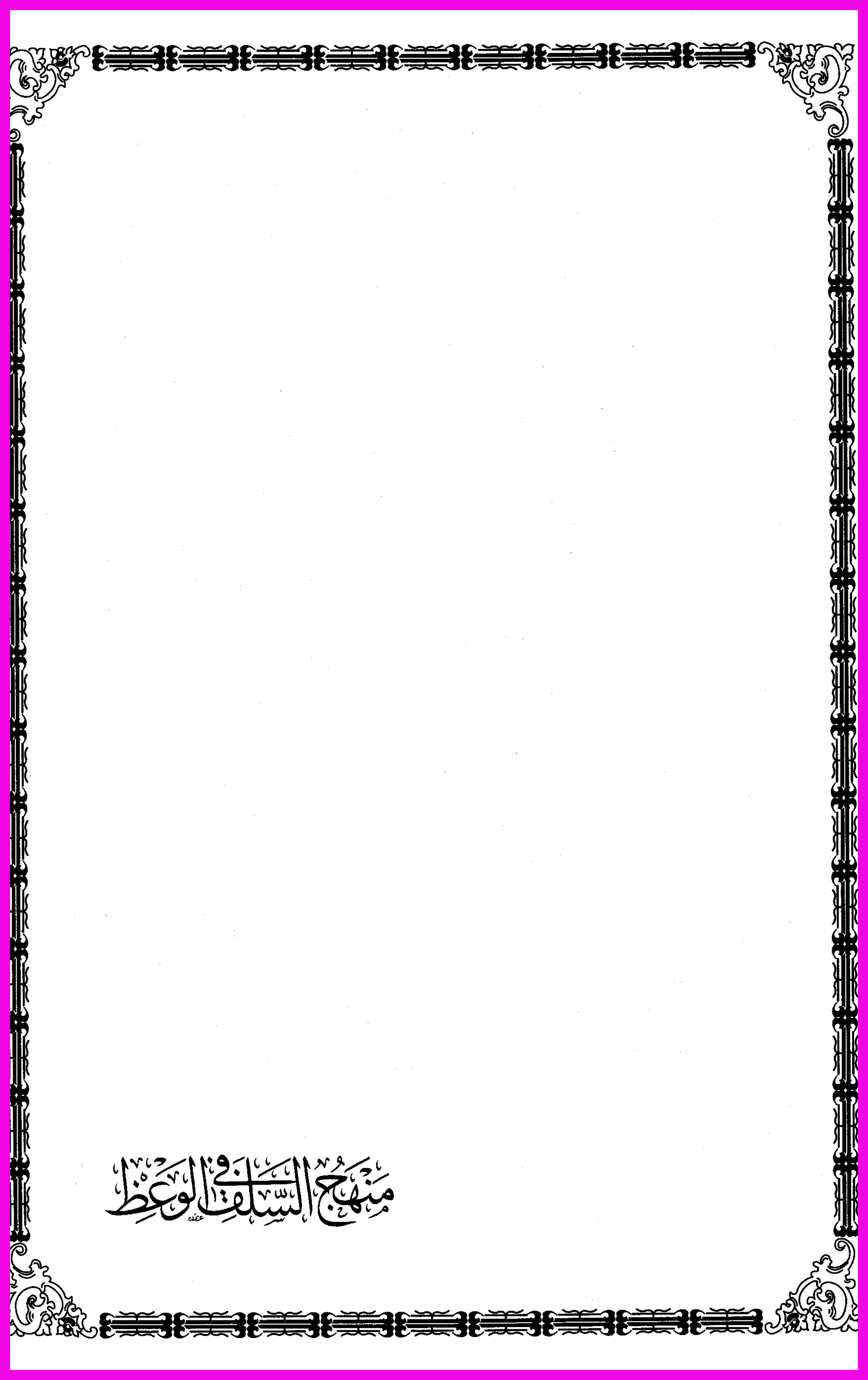
أبي يزيد سليمان العربي بن صفيّة

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



للنشر والتوزيع بالرياض




منهج السلف في الوعظ

ⓗ مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن صفية، أبي يزيد سليمان العربي
منهج السلف في الوعظ./ أبي يزيد سليمان العربي بن صفية.- الرياض، ١٤٢٩هـ
١٠٨٠ص؛ ١٧×٢٤سم.- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر؛ ٧٢)
ردمك: ٥ - ٢ - ٨٠٣٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ - الوعظ والإرشاد. أ. أبي يزيد سليمان العربي بن صفية (محقق)
ب. العنوان ج. السلسلة
ديوي ٢١٣ ١٤٢٩/٦٦١٣

الطبعة الأولى

ذو القِعدة ١٤٣١هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية. الرياض
المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص.ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقًا) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
المدينة النبوية - طريق سلطانة - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧



مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإنّ أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[١].

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه، ليجعلوها بين يدي كلامهم، رواها أبو داود ٢/ ٥٩١، كتاب: النكاح، باب: في خطبة الحاجة رقم (٢١١٨)، واللفظ له؛ والترمذي ٣/ ٤١٣، كتاب: النكاح، باب: ما جاء في خطبة النكاح، رقم (١١٠٥)؛ وأحمد ٥/ ٣١٥، رقم (٣٢٥٧)؛ وصححها الألباني في كتابه خطبة الحاجة، ص٩.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة



المقدمة


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

❖ أهمية الموضوع ❖

إنّ من نعم الله الباهرةِ، وحكمه البالغة، أن أكملَ نصابَ هذا الدين، وجعل رسالةَ سيِّدِ المرسلين عامّةً لكافة الثقلين، وأمدّها بأسباب الخلود، وسُبُلِ البقاءِ والصلاحِ إلى يوم الدين.

وإنّ من كمال هذا الدين؛ كمالِ وسائلِ تبليغه، وأساليبَ بلاغه، وشمولها وتنوّعها في خطابها، ومضمونها، ومنهجها.

ولقد حَفِلَ القرآنُ الكريم ببيانِ أساليبَ بلاغِ هذا الدِّين، في غير ما آيةٍ محكمة، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم جاءت السيرة النبويّة تُرجماناً لهذا القرآن، وممارسةً عمليّةً لتعاليمه وأحكامه، فكانت الدعوةُ المحمديةُ نبراساً للدعاة إلى يوم الدين، من معينها الصافي ينهلون، ومن موردها الزلال يستقون، منهج دعوتهم، وأساليبَ ووسائلَ تبليغِ دينهِم.

ثم حملَ لواءَ تبليغِ هذا الدين سَلَفُ هذه الأُمَّة وعدُولها من الصحابة والتابعين، فكانوا أئمةَ الهدى، وشُمُسَ الدجى، وحُجَجَ الدِّين، ونقلةَ الوحيين، جمعوا بين الإيمانِ وحسنِ المقال، وبين عملِ الصالحات وموافقةِ الأقوال للفعال، وكانوا قبل ذلك وبعدَهُ لسنةِ نبيهم ﷺ مقتفين، ولآثارهِ متبعين، على بصيرةٍ وهدى من رب العالمين.

● ولما كانت أساليبُ بلاغِ هذا الدين شاملةً في خطابها، متنوعةً في منهجها، فقد راعت مراتبَ النفوس، وأنواعَ القلوب، فَخَصَّت كلّ نوع بأسلوب يُوَائِمُه، ومنهج يُوَافقه.

فجَعلت الحكمةَ خطاباً لذوي الألبابِ والبصائرِ، واختَصَّت الموعظةَ

بذوي الغفلات والجرائر، وجعلت الجدال لأهلِ العنادِ من العشائر.

ولما كانت نفوسُ أغلبِ الناسِ كثيرةَ الانجراف وراءَ الملذات، سريعَةَ الانغماس في أوحال الشهوات، كان لسانَ الشرعِ في دعوتها، وأداة الدعاة في إصلاحها، هو النصح، والوعظ، والتذكير، فبالوعظ والتذكير تتهذّب النفوس وتنتبه العقولُ من غفلتها، وتستيقظ من رقدتها، وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي، خصوصاً في مثل هذا العصر، الذي طغت فيه الماديات، واستحوذت فيه الشهوات على عقول الناس، وأفئدتهم.

فالموعظة الحسنة، من أعظم أساليب الدعوة أثراً، وأكثرها ثماراً، وأوسعها انتشاراً.

ولهذا فقد شغَلَت الموعظة الحسنة حيزاً عظيماً من كتاب الله الكريم، فسمّى الله تعالى كتابه الكريم موعظة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

كما كَثُرَ مجيءُ الموعظةِ في القرآن الكريم، في صورِ النصح والتذكير، وفي الترغيب والترهيب، وفي ضرب الأمثال، وإيراد القصصِ ومواطنِ العبر.

ثمّ لم يزل نبيُنا ﷺ واعظاً ومذكّراً، ومرشداً ومقوّماً، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣]، فكانت أقواله وخطبه تذكيراً ووعظاً، وتنبيهاً وزجراً، لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة، ولا يرضى أن يرى في الناس خللاً واعوجاجاً.

• ولقد أدرك سلفُ هذه الأمة عظم مكانة الموعظة، وقوّة تأثيرها، فكان توجيهُ الناس ووعظهم، جلَّ شُغلهم، في حِلّهم وتِرحالهم، اشتغلوا بالوعظ خطابةً وتأليفاً، رسائلَ ووصاياً، وبرزت منهم نجومٌ زاهرة تصدّت لوعظ الناس وتذكيرهم، فانتفع بهم الخلق، وسارت مواعظهم في الآفاق.

وقد نهج السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ في وعظهم وتذكيرهم، منهجاً

قويماً، يجمع السلامة والاتباع، ونبذ الزيغ والابتداع، فكانوا لا يعظون الناسَ إلا بصحيح المنقول، وبما فيه صلاحٌ للقلوب والعقول، مُقتفين في ذلك منهج الرسول ﷺ، لا يزيدون في شرع الله ولا يُنقصون، مستعملين في ذلك وسائلَ عديدة وأساليبَ متنوعة، توصل إلى الغرض والمأمول.

• ولقد ضلّت طوائفُ كثيرةٌ في باب الوعظ والتذكير، حين تنكبت منهج السلف الأخيار، والأئمة الأبرار في الوعظ والتذكير، فوُجد الانحراف في الوعظ أوّلاً عند القصّاص، الذين ابتدعوا طرقاً منكرةً في الوعظ، واختلقوا الأحاديثَ المكذوبةَ لترغيب الناس.

ولا زال هذا الابتداع يتّسع ويتُوراث حتى تلبَّست به بعض الفرق الإسلامية التي حملت لواء الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر، فانحرف الوعظ بذلك في مضمونه ووسائله، وأساليبه.

كما اقتحم كثير من الوعّاظ ميدانَ النصح والتذكير، بغير زاد ولا عتاد، فضلّوا وأضلوّا، وغدا الوعظ بذلك مرتعاً للبدع والفساد، ومعولاً لهدم قيم العباد، وما ذاك إلّا لغياب التأصيل، والعزوفِ عن اتّباع منهج الحقّ والدليل.

وبهذا نُدركُ مسيسَ الحاجة إلى تأصيل الوعظ، منهجاً ووسيلةً وأسلوباً، ولا سبيل إلى ذلك إلّا بترسّم منهج السلف رحمهم الله الذين تمثّلوا القرآن والسنّة في دعوتهم، ووعظهم.

❖ أهداف البحث ❖

سلكت في تناول منهج السلف في الوعظ مسلكاً مغايراً لما درج عليه من كتب في الموعظة، إذ إنّ الكتابة في الموعظة كثيرة، بحيث لا يمكن عدّها أو حصرها، وجلّ من كتب في الموعظة اكتفى بسرد المواعظ وجمعها من مظانها، دون إبرازٍ للمنهج الذي سار عليه الواعظ في وعظه.

وأسعى من وراء هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف التي

تتجلّى في ثنايا الخطة المُعَدّة لهذه الدراسة، وذلك من خلال ربط كلّ هدف بمطلب محدّد، وفيما يأتي بيان لهذه الأهداف:

١ ـ بيان أسس وخصائص منهج السلف في الوعظ، إذ إنّ المتأمل في مواعظ السلف يجدهم متّفقين على أسس وخصائص في منهج وعظهم لا يحيدون عنها.

٢ ـ بيان الأساليب والوسائل التي استخدمها السلف في وعظهم، وهي أساليب ووسائل كثيرة متنوعة، تحقق المقصود من الموعظة بأحسن طريقة وأسلم منهج.

٣ ـ بيان منهج السلف رحمهم الله في التأليف في باب الوعظ، مع تناول بعض هذه المؤلفات بالتحليل والاستنباط.

٤ ـ بيان حرص السلف على سلامة منهج الوعظ، وذلك من خلال إنكارهم على من ابتدع في منهج الوعظ وسلك غير الجادة فيه.

٥ ـ إبراز صفات الوعّاظ من السلف، ليحصل الاقتداء بهم.

٦ ـ إلقاء الضوء على المخالفين لمنهج السلف في الوعظ قديماً وحديثاً، وبيان بطلان منهجهم.

❖ أسباب اختيار الموضوع ❖

لقد تضافرت عدة أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع وتناوله بالدراسة، ومن أبرز هذه الأسباب:

أولاً: حاجة الدعاة إلى تأصيل المنهج، لا سيما ما يتعلق بموضوع الدعوة وأساليبها، فأحببت أن أقدم هذا البحث ليُسهِم في حل مشكلة التأصيل عند الدعاة، إذ إن البحث يتناول تأصيل الوعظ وهو من أعظم وسائل الدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً: إبراز منهج السلف في الوعظ، حيث إنّني وجدت جلّ من كتب في الموعظة، لم يشر إلى منهج السلف الصالح في الوعظ.

ثالثاً: لقد وُجِدَت انحرافات خطيرة في منهج الوعظ وأسلوبه في هذا العصر، فكان لزاماً على كل واعظ وداعية، الرجوع إلى منهج السلف في الوعظ، ليتّخذ منه نبراساً يهتدي به في وعظه وتذكيره.

رابعاً: الوعظ يعتبر وسيلة دعوية مهمّة، خصوصاً عند فشو المنكرات وإعراض الناس عن الله تعالى ونسيان الدار الآخرة والانغماس في ملذات الدنيا الدنية، ـ وهذا هو حال كثير من الناس اليوم ـ، فبرزت بذلك الحاجة إلى الوعظ لرد الناس إلى طريق الحق، فأحببت تأصيل هذا الأسلوب الدعوي.

❖ الدراسات السابقة ❖

يمكن تقسيم الكتب والدراسات في المواعظ إلى قسمين:

* أولاً: الكتب التي جمعت المواعظ:

وهذا القسم من الكتب هو أغلب ما أُلِّف في باب الوعظ قديماً وحديثاً، ويجمعها منهج عام، وهو إيراد المواعظ وسردها، دون بيان لمراميها، فضلاً عن بيان منهج الوعظ فيها.

وهي على أنواع:

أ ـ الكتب المُسنَدة التي جمعت جملة من مواعظ الرسول ﷺ، وبعضاً من مواعظ السلف والتابعين؛ مثل:

١ ـ الزهد، لابن المبارك، (ت١٨١هـ).

٢ ـ الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، (ت٢٤١هـ).

٣ ـ الزهد، لابن أبي عاصم، (ت٢٨٧هـ).

٤ ـ الزهد وصفة الزاهدين، لأحمد بن محمد بن زياد، (ت٣٤٠هـ).

٥ ـ القناعة، لأبي بكر أحمد بن محمد الدينوري، (ت٣٦٤هـ).

٦ ـ تقبيل اليد، لمحمد بن إبراهيم بن المقري أبو بكر، (ت٣٨١هـ).

٧ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (ت٤٣٠هـ).

٨ ـ الذهب المسبوك في وعظ الملوك، لأبي محمد بن أبي نصر الحميدي، (ت٤٨٨هـ).

٩ ـ كتب ابن أبي الدنيا: الحلم، الهواتف، التواضع والخمول، الأولياء، وغيرها.

ب ـ وكتب انتقت جملة من مواعظ السلف المبثوثة في كتب التراجم.

مثل: مواعظ سلمة بن دينار، ومواعظ الحسن البصري، ومواعظ سفيان الثوري، ومواعظ عمر بن عبد العزيز، وغيرها كثير[١].

ج ـ كتب متفرقة أُلِّفت في الوعظ، ككتب ابن الجوزي وكتب ابن القيم، وكتب ابن رجب الحنبلي.

*** ثانياً: الكتب التي تناولت تحليل الوعظ:**

وهي قليلة جداً، واقتصرت في الغالب على تحليل بعض مواعظ القرآن الكريم والسنة النبوية، مع ذكر لمفهوم الموعظة الحسنة، وأثرها في الدعوة إلى الله، دون تطرق لمواعظ السلف ولا لبيان منهجهم في الوعظ، ووقفت في ذلك على رسالتين علميتين.

● الرسالة الأولى:

١ ـ **عنوان الرسالة**: «الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة».

٢ ـ **اسم المؤلف**: أحمد بن نافع بن سليمان المورعي.

٣ ـ **أصل الرسالة**: هي رسالة علمية تقدم بها مؤلفها إلى قسم الدراسات العليا الشرعية، بجامعة أم القرى سنة ١٤٠٦هـ، لنيل درجة الماجستير.

والكتاب مطبوع يقع في مجلد واحد.

(١) أخرجت مطبعة المكتب الإسلامي سلسلة أسمتها «معالم في التربية والدعوة»، وفيها جملة من الرسائل جمعت مواعظ السلف.

٤ ـ **وصف الرسالة:** قسّم الباحث الرسالة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة ثم الفهارس.

أما **التمهيد:** فقد ضمّنه، تعريف الدعوة، وخصائص الدعوة، والمدعوين وأصنافهم.

وأما **الباب الأول**، فكان موضوعه: الحكمة وبيان المراد منها، وقد ضمّنه فصلين:

الفصل الأول: تعريف الحكمة.

الفصل الثاني: بيان المراد من الحكمة.

والباب الثاني، موضوعه: الموعظة الحسنة، وبيان المراد منها، وقد اشتمل على فصلين.

الفصل الأول: تعريف الموعظة الحسنة.

الفصل الثاني: المراد من الموعظة الحسنة، ذكر فيه ثمانية أنواع من أنواع الوعظ، في القرآن الكريم؛ كالوعظ عن طريق الترغيب والترهيب، والوعظ عن طريق ضرب الأمثال، والوعظ عن طريق القصص، وغيرها.

أما **الباب الثالث:** فكان موضوعه، الجدل، واشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: مفهوم الجدل ومشروعيته.

الفصل الثاني: خصائص الجدل القرآني والنبوي.

الفصل الثالث: مناهج الجدل.

٥ ـ الفرق بين هذه الرسالة ورسالة الباحث:

ـ هذه الرسالة التي أتقدّم بها، تأتي لتأصيل منهج الوعظ عند السلف الصالح.

ـ بينما نجد الباحث قد اقتصر على ذكر بعض أساليب الموعظة في القرآن دون تعريج على منهج السلف.

ـ ثمّ إنّ حديث الباحث عن الموعظة الحسنة كان مختصراً جداً.

● **الرسالة الثانية:**

١ ـ **عنوان الرسالة:** «الموعظة الحسنة وأثرها في الدعوة إلى الله».

٢ ـ **اسم المؤلف:** بشير محمد أحمد محمد.

٣ ـ **أصل الرسالة:** بحث تكميلي تقدم به الباحث إلى قسم الدعوة والاحتساب، كلية الدعوة والإعلام بالمدينة المنورة، فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لنيل درجة العالمية الماجستير، سنة ١٤٠٤هـ.

والرسالة تقع في ١١٨ صفحة.

٤ ـ **وصف الرسالة:** قسّم الباحث رسالته إلى مقدمة وتمهيد وفصلين.

أما التمهيد، ففيه عرض موجز لأساليب الدعوة.

وأما الفصل الأول: تناول فيه معنى الموعظة الحسنة وأسلوبها.

والفصل الثاني: ذكر فيه بعض آثار الموعظة.

٥ ـ **الفرق بين هذه الرسالة ورسالة الباحث:**

ـ أسعى من خلال بحثي هذا، إلى الإلمام بجوانب الوعظ عند السلف، منهجاً ومضموناً وأسلوباً، مع الردّ على المخالفين لمنهج السلف في الوعظ.

ـ بينما نجد بحث الطالب مقتضباً جداً، تناول فيه فقط، معنى الموعظة، وبعض آثارها.

❖ حدود البحث ❖

إنّ موضوع الوعظ عند السلف رحمهم الله، موضوع مترامي الأطراف واسع الأفق متشعب المحاور، ولذلك كان لزاماً عليّ تحديد المجال الذي سيجري فيه البحث بإذن الله تعالى ويتلخّص في الآتي:

أ ـ ستقتصر الدراسة على إبراز معالم الوعظ عند السلف منهجاً وأسلوباً.

ب ـ ستهتم الدراسة بالجانب التأصيلي دون التعمّق في ذكر

التفريعات، ودون الإسهاب في ذكر نماذج من الوعظ عند السلف.

ج ـ أمّا عن الحدّ الزمني فهي تتناول منهج السلف الصالح من خلال القرون الثلاثة المفضلة.

❖ منهج البحث ❖

سأعتمد في بحثي هذا ـ بإذن الله تعالى ـ على المنهج العلمي المتعارف عليه في كتابة الرسائل العلمية، والذي سيحقق بتوفيق الله ﷻ أهداف هذا البحث.

ومن أبرز معالم هذا المنهج:

*** أولاً: فيما يتعلّق بالمناهج المستخدمة:**

سوف أعتمد ـ إن شاء الله ـ على ثلاثة مناهج، وهي:

١ ـ المنهج التاريخي[1]:

وذلك بتتبع مواعظ السلف، خلال حقبة زمنية محددة، خلال القرون الثلاث المفضلة، وقد أستعين بمواعظ من أتى بعدهم متى ما أعوزتني الحاجة لتأصيل منهج الوعظ عند السلف.

٢ ـ المنهج الاستقرائي:

ويكون بتتبع مواعظ السلف واستقرائها من مظانها، وجمع المعلومات والأدلة المتعلقة بها، وسيكون هذا المنهج متّبعاً عند جمع المادة العلمية، من الكتب والمراجع، وكذلك عند صياغتها.

٣ ـ المنهج التحليلي الاستنباطي:

وذلك بتحليل المواعظ ومحاولة استنباط منهج السلف في الوعظ من خلال مواعظهم وتراجمهم، وهذا المنهج هو الأبرز في هذه الدراسة.

---

(١) **انظر**: مناهج البحث العلمي، للدكتور: عبد الرحمٰن بدوي، ص١٢؛ وطرق البحث في الدراسات الإسلامية، للدكتور: محمد رواس قلعه جي، ص١٨ ـ ١٩.

*** ثانياً: الاعتماد على المصادر الأصيلة:**

تسعى هذه الدراسة إلى أن تكون أصيلة في عرضها ومنهجها ومصادرها، لذا فإن الباحث يسعى إلى النّقل عن المصادر الأصيلة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، مع الاستغناء عن النقل بالوسائط إلّا فيما اضطر إليه بعد استفراغ الجهد.

وأوّل ما يأتي على قائمة المصادر، كتب التفسير، وكتب الحديث وشروحه، والكتب التي اعتنت بنقل تراجم السلف الصالح ومواعظهم.

*** ثالثاً: الحواشي والتوثيق:**

١ ـ عزو الآيات القرآنية إلى سورها وأرقامها.

٢ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواردة في البحث، وسأتّبع في ذلك منهجاً، يتّضح في الآتي:

أ ـ إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، فسأكتفي بالعزو إليهما، دون تتبّع لروايات الحديث في الكتب الأخرى، ما لم يكن في تلك الروايات زيادة لها صلة بالموضوع الذي ورد فيه الحديث.

ب ـ أما الأحاديث غير المروية في الصحيحين، فسأتتبّع طرقها في كتب الحديث، مع إيراد أقوال المحققين وحكمهم عليها.

ج ـ الاقتصار على إيراد الصحيح من الروايات.

د ـ أما الآثار فسأخرجها من مظانها، مع ذكر حكم النقاد عليها متى ما وُجِد، وإن لم أجد فسأجتهد في النظر إلى رجال الإسناد ومن ثمّ الحكم على الأثر بناء على ذلك.

٣ ـ التعريف بأعلام الوعّاظ الوارد ذكرهم في الدراسة.

٤ ـ توثيق الأقوال المنسوبة إلى أهل العلم، وسأتّبع في ذلك منهجاً ملخصه:

أ ـ يذكر عند الإحالة، اسم الكتاب واسم المؤلف، والجزء والصفحة.

ب ـ إذا جرى تصرف وتعديل في النص المنقول، أو إذا رجعت إلى أكثر من مصدر، أحيل بقولي: انظر.

* **رابعاً: علامات الترقيم:**

سأستخدم علامات الترقيم المتعارف عليها في كتابة البحوث والرسائل العلمية، مع ضبط ما يحتاج إلى ضبط.

❖ المشكلات والصعوبات ❖

الكتابة والبحث ليستا مركباً مستباحاً لكلّ أحد، فمن قلّت بضاعته، وضعفت بصيرته لا بد وأن يلاقي صعوبات ومشاكل ـ وهذا الذي حدث معي ـ.

ولعلي ألخص أبرز هذه المشكلات ـ التي لربما أدت إلى وجود بعض الخلل والقصور في رسالتي هذه ـ والتي منها:

١ ـ إنّ سعة الحدود الزمنية للبحث ـ والمتمثلة في القرون الثلاثة الفاضلة ـ، جعلتني أقلب النظر في عشرات الكتب، ومئات التراجم، وآلاف المواعظ، المبثوثة في بطون هذه الكتب، وهو ما أخذ مني حيزاً زمنياً، وجهداً فكرياً وبدنياً، من حيث اختيار الأثر المناسب للاستدلال به على المطلوب.

٢ ـ إنّ أغلب الآثار والمواعظ التي وقفت عليها لم أجد للنقّاد كلاماً عن أسانيدها، ـ رغم طول البحث والتنقيب، إذ إنّ أغلب الآثار المحقّقة إنما تكون في مجالي العقيدة والأحكام، بخلاف المواعظ ـ وهو ما حملني على النظر في كلّ هذه الأسانيد، وإذا علمت أنّ عدد الآثار الواردة في الرسالة قد فاق الخمسمائة أثر أدركت عظم الجهد والعناء الذي تكبّدته.

٣ ـ شحّ المصادر الدعوية في هذا الموضوع، حيث لم أقف على أي دراسة متكاملة تحليلية تأصيلية، تبرز منهج السلف في الوعظ، وهذا ما

تطلب مني جهداً مضنياً لاستنباط منهج السلف في الوعظ، وتأصيل ذلك من خلال النصوص القرآنية، والأحاديث النبويّة، والآثار السلفية.

٤ ـ ولعلّ الناظر في رسالتي هذه يلحظ في أوّل وهلة ملحظين اثنين:

أولهما: توسعاً وتشعباً في بعض مسائل هذه الرسالة.

وثانيهما: الإكثار من النصوص القرآنية، والحديثية، والأثرية.

فأقول جواباً على هذين الملحظين:

إنّ الذي يحكم طول الرسالة من عدمها أمران اثنان:

الأوّل: طبيعة الرسالة.

والثاني: الحدود الزمنية للرسالة.

● **أما عن طبيعة الرسالة**: فإنّ الرسالة تأصيلية في المقام الأوّل، ومن شأن التأصيل أن يكون مدعّماً، ومدبّجاً بالأدلة الشرعية والآثار السلفية، وإلّا صار التقرير مجرّد دعوى لا زمام لها ولا خطام، عارية من التأصيل والتدليل.

إذ من حق معترض أن يقول: ما حجتك في كون هذا المنهج الذي ذكرته هو منهج السلف؟، فلزم بذلك التدليل على كلّ جزئية مهما صغرت بالنصوص الشرعية، والآثار السلفية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ شأن الكتابات الوعظية البسط والتوسّع والاسترسال، وفي ذلك يقول العلامة اللغوي صاحب كتاب الصناعتين أبو هلال العسكري رحمه الله: «والقول القصد أنّ الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن استعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»[1].

---

(١) «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري، ص٢٣٩.

ثم قال: «ولا شك في أنّ الكتب الصادرة في الترغيب في الطاعة، والنّهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب»[١].

- ثم إنّني قد تناولت الوعظ عند السلف بمفهومه الشامل الجامع بين الجانب العلمي، والجانب التأديبي، فلزمني بذلك تأصيل كل مسألة من خلال هذين الجانبين، فتولّد عن ذلك طول الرسالة وتشعبها.

• **أمّا عن الحدود الزمنية:** فهي تمتد لثلاثة قرون بل وأزيد من ذلك، وهذا ما جعل البحث يتشعّب في أودية هذه المساحات الزمنية الشاسعة، فهي لا تتناول جهود عَلَمٍ واحد فقط، بل جهود أعلام السلف خلال ثلاثة قرون.

ويعلم الله أنّني تركت أضعاف ما دونته خشيه الإطالة والإسهاب.

هذا والله أسأل أن يجنبني الخلل والزلل، وأن يهديني إلى الحق وصالح العمل.

❖ خطّة البحث ❖

قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول ثم الخاتمة والفهارس اللازمة.

١ ـ المقدّمة:

ذكرت في المقدمة:

أولاً: أهمية الموضوع.

ثانياً: أهداف البحث.

ثالثاً: أسباب اختيار الموضوع.

رابعاً: الدراسات السابقة.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤١.

خامساً: حدود البحث.

سادساً: منهج البحث.

سابعاً: خطّة البحث.

٢ ـ **التمهيد**: شرح مفردات عنوان الرسالة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **تعريف المنهج**، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المنهج لغة.

المطلب الثاني: لفظ المنهج في القرآن الكريم، والسنة النبويّة.

المطلب الثالث: المنهج اصطلاحا.

المبحث الثاني: **تعريف السلف**، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: السلف لغة.

المطلب الثاني: لفظ السلف في القرآن الكريم، والسنة النبويّة.

المطلب الثالث: مفهوم السلف في الاصطلاح.

المبحث الثالث: **تعريف الوعظ، وأهميته وأنواعه**، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الوعظ.

١ ـ الوعظ لغة.

٢ ـ مفهوم الوعظ في استعمالات القرآن الكريم، والسنة النبويّة.

٣ ـ مفهوم الوعظ اصطلاحاً.

٤ ـ ألفاظ ذات صلة بالوعظ.

المطلب الثاني: أنواع الوعظ.

المطلب الثالث: أهمية الوعظ في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

الفصل الأول: **مصادر وأسس ومجالات الوعظ عند السلف**، ويتضمّن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مصادر الوعظ عند السلف، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: القرآن الكريم.

المطلب الثاني: السنة النبوية.
المطلب الثالث: آثار السلف.
المبحث الثاني: أسس ومجالات الوعظ عند السلف، ويتضمن مطلبين:
المطلب الأول: أسس الوعظ عند السلف.
١ ـ التوحيد.
٢ ـ النبوة.
٣ ـ المعاد.
المطلب الثاني: مجالات الوعظ عند السلف.
١ ـ تعظيم الله، وتعظيم محارمه.
٢ ـ حث النفوس على الجد والاجتهاد في طلب ما عند الله ﷻ.
٣ ـ الدعوة إلى مكارم الأخلاق.
٤ ـ إزالة الحرص والطمع على الدنيا الفانية.
٥ ـ تسلية المصاب.
المبحث الثالث: خصائص الوعظ عند السلف، ويتضمن أربعة مطالب:
المطلب الأول: الاهتمام بالمضمون، وذم التكلّف والتشدّق.
المطلب الثاني: القصد والتخوّل بالموعظة.
المطلب الثالث: التأصيل العلمي في الوعظ.
المطلب الرابع: التعميم دون التخصيص، والابتعاد عن التشهير.
الفصل الثاني: أساليب الوعظ عند السلف، ويتضمّن ستة مباحث:
المبحث الأول: الوعظ عن طريق الترغيب والترهيب.
المبحث الثاني: الوعظ عن طريق ضرب الأمثال.
المبحث الثالث: الوعظ عن طريق القصص.
المبحث الرابع: الوعظ عن طريق التذكير بنعم الله ﷻ.
المبحث الخامس: الوعظ عن طريق التذكير بسيرة السلف الصالح.

المبحث السادس: الوعظ عن طريق طرح السؤال.

الفصل الثالث: وسائل الوعظ عند السلف، ويتضمّن أربعة مباحث:

المبحث الأول: الخطب ومجالس الذكر.

المبحث الثاني: القصص.

المبحث الثالث: التأليف.

المبحث الرابع: الشعر.

الفصل الرابع: أنواع وصفات الوعّاظ عند السلف، ويتضمّن مبحثين:

المبحث الأول: أنواع الوعّاظ عند السلف، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الواعظ المُوَلَّى.

المطلب الثاني: الواعظ المتطوّع.

المطلب الثالث: القُصّاص.

المبحث الثاني: صفات الواعظ عند السلف، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التقوى والاستقامة.

المطلب الثاني: التأصيل العلمي.

المطلب الثالث: التحلّي بمكارم الأخلاق.

الفصل الخامس: أصناف الموعوظين الذين توجّه إليهم الموعظة، وأثرها عليهم، ويتضمّن مبحثين:

المبحث الأول: أصناف الموعوظين الذين توجّه إليهم الموعظة، ويتضمن خمسة مطالب:

المطلب الأول: الحكام والولاة.

المطلب الثاني: العلماء والقضاة.

المطلب الثالث: العصاة والمذنبون من المؤمنين.

المطلب الرابع: المبتدعة.

المطلب الخامس: الكفار.

المبحث الثاني: أثر مواعظ السلف في المدعوين، ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: مظاهر تأثر الموعوظ بمواعظ السلف.

المطلب الثاني: أسباب تأثر الموعوظ بمواعظ السلف.

الفصل السادس: **المخالفون لمنهج السلف في الوعظ**، ويتضمّن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: القصاص المخالفون لمنهج السلف في الوعظ، ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: مخالفات القصاص في الوعظ قديماً، وحديثاً.

المطلب الثاني: إنكار السلف لمخالفات القصاص.

المبحث الثاني: مخالفات الصوفية لمنهج السلف في الوعظ، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التيئيس من رحمة الله.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الرهبنة وهجر الناس.

المطلب الثالث: الدعوة إلى التواكل.

المبحث الثالث: الجماعات المخالفة لمنهج السلف في الوعظ في العصر الحاضر، وبيان بطلان منهجها، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: انحرافات هذه الجماعات في جانب الوعظ.

المطلب الثاني: أسباب انحراف هذه الجماعات في جانب الوعظ.

المطلب الثالث: بيان بطلان منهج هذه الجماعات في الوعظ.

الخاتمة: وفيها:

أ ـ خلاصة البحث.

ب ـ أهم النتائج المتوصل إليها.

ج ـ التوصيات.

الفهارس:

أ ـ فهرس الآيات.

ب ـ فهرس الأحاديث.

ج ـ فهرس الآثار.

د ـ فهرس الأعلام المترجم لهم.

هـ ـ فهرس الغريب والمصطلحات.

و ـ فهرس الفرق والطوائف.

ز ـ فهرس المراجع.

ك ـ فهرس الموضوعات.



شكر وتقدير

أحمد الله ﷻ على عظيم مننه، وجزيل نعمه، وموفور عطائه، وواسع آلائه، على ما حباني به من نعم لا تحصى، وآلاء لا تعدّ، وعلى رأس هذه النعم نعمة الإيمان والإسلام، ونعمة العلم والتعلّم.

كما أحمده ﷻ على ما يسّر لي من إنهاء هذه الرسالة ـ التي خالطت أنفاسي وجلّ حركاتي بل وسكناتي، في يقظتي ومنامي طيلة ثلاث سنوات ـ.

وأرجو من الله جلّ وعلا أن أكون قد وفيت بها المطلوب، وقاربت بها المأمول والمرغوب، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

ثم لا يفوتني **أن أوجّه خالص الشكر** والعرفان، ووافر الثناء والامتنان إلى والدي الكريمين ـ أمدّ الله في عمرهما وحفظهما من كلّ سوء ـ على كريم رعايتهما وجميل عنايتهما.

وأردف الشكر للقائمين على الجامعة الإسلامية التي نلت شرف النهل من معينها، والتتلمذ على مشايخها، وأخصّ بالذكر معالي رئيس الجامعة: الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله العبود ـ حفظه الله تعالى ـ على جهوده المباركة، ورعايته، واهتمامه العلمي بأبناء هذه الجامعة الإسلامية.

وأتقدم بموفور الشكر الجزيل والثناء إلى عميد الدراسات العليا: أ. الدكتور: عبد الرزاق بن فرّاج الصاعدي.

كما أتقدم بالشكر الوافر لكلية الدعوة وأصول الدين، ممثّلة في عميدها فضيلة الدكتور: محمد بن باكريم، ووكيلي الكليّة، ورئيس قسم الدعوة سلفاً: الدكتور: أحمد بن عبد العزيز الخلف، ورئيسها الحالي الدكتور: غازي بن غزاي المطيري، وإلى كافة الأساتذة الفضلاء على ما

يبذلونه لطلاب العلم من مؤازرة، وتوجيه، وتسديد وعلم نافع.

كما أتقدّم بخالص الشكر والعرفان، وعظيم التقدير والامتنان لفضيلة شيخي: الأستاذ. الدكتور: حمود بن أحمد الرحيلي ـ حفظه الله ورعاه، وسدّد على الخير خطاه، المشرف على رسالتي ـ، لبذل وقته وعلمه، وحسن تشجيعه لي، حيث وجدت من فضيلته كلّ عون وتفهّم ورحابة صدر، مع طيب خلق، ولين عريكة، وحسن معشر، وقد كانت لملاحظاته القيّمة، وتوجيهاته الرشيدة، ونصائحه السديدة، ومتابعاته الدقيقة لكل شاردة وواردة في هذه الرسالة ـ قراءة وتأملاً وتصويباً وتوجيهاً ـ، كلّ ذلك كان له آثار طيّبة في إتمام هذه الرسالة، وإنجازها بصورة متكاملة إن شاء الله، فجزاه الله تبارك وتعالى عني خير الجزاء وأوفاه.

وأردف بالشكر: شيخي الفاضلين: أ.د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي، والدكتور: عبيد بن عبد الله السحيمي ـ حفظهما الله ـ، على تفضلهما بقبول مناقشة رسالتي، وتجشمهما العناء في قراءتها، وتقويم ما فيها من خلل وزلل، وإثرائها بتوجيهاتهما السديدة، وملاحظاتهما القيّمة الرشيدة.

كما أشكر جميع من وقف معي، وأعانني بكتاب أو توجيه أو نصيحة، في سبيل إتمام هذا البحث.

وفي الختام أسأل الله أن ينفعني بما خطّه بناني في هذه الرسالة، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يقيل ما كان فيه من العثرات والزلّات، وأن يدّخر لي ثوابه إلى يوم لقياه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

تمهيد

[شرح مفردات عنوان الرسالة]

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المنهج.

المبحث الثاني: تعريف السلف.

المبحث الثالث: تعريف الوعظ، وأهميته وأنواعه.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

تعريف المنهج

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المنهج لغة.

المطلب الثاني: لفظ المنهج في القرآن الكريم، والسنة النبويّة.

المطلب الثالث: المنهج اصطلاحاً.

المطلب الأول

المنهج لغة

المنهج لغة: مصدر مشتقٌ من: نَهَجَ يَنهَجُ نَهْجاً، ونَهَاجاً، ونُهُوجاً، ومنهجاً[(١)].

ومن معاني المنهج لغة:

• الطريق المستقيم الواضح البيّن:

كما في حديث العباس رضي الله عنه أنّه قال: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركّكم على طريق ناهجة»[(٢)] أي: واضحة بيّنة.

• الاقتفاء والاتباع:

يقال: «نَهَجْتُ الطريق: إذا سلكته، وفلان يَسْتَنْهِجُ سَبيلَ فلان؛ أي: يسلك مسلكَهُ»[(٣)].

• الثوب البالي:

أَنْهَجَ الثوبُ، إذا أخذ في البِلى ولمّا يتشقّق[(٤)].

• اللهث والبُهْرُ والرَّبو:

النَهَجُ بالتحريك: البهْر وتتابعُ النَفَس، والنَّهْجَةُ: الربو يعلو الإنسان والدابة[(٥)].

فكلمة «منهج» تطلق في اللغة العربية على الطريق المتّصف بصفات أبرزها:

الوضوح والظهور والاستقامة والاستمرار والعمارة.

سواء كان الطريق حسياً أو معنوياً.

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري مادة: «نهج» ٦/ ٦٢، ٦٣.

(٢) رواه الدارمي في سننه ١/ ٤٠ بلفظ: «إن رسول الله ﷺ ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً»، باب: في وفاة النبي ﷺ رقم (٨٣).

(٣) الصحاح للجوهري، مادة: «نهج» ١/ ٣٤٦.

(٤) الصحاح مادة: «نهج» ١/ ٣٤٦؛ ولسان العرب لابن منظور مادة: «نهج» ١٤/ ٣٠٠.

(٥) لسان العرب مادة: «نهج» ١٤/ ٣٠٠.

المطلب الثاني

لفظ «المنهج» في القرآن الكريم والسنة النبوية

إن استقراء كلمة «منهج» من خلال نصوص الكتاب والسنّة، ومن ثمّ معرفة معانيها ودلالاتها، يعطي الباحث التصوّر الأمثل لمعنى كلمة «منهج».

* أولاً: المنهج في القرآن الكريم:

لم ترد كلمة «منهج» في القرآن الكريم، بل ورد ما يرادفها ويحمل دلالتها ومعناها، وهي كلمة «منهاج»، في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد وردت عدّة أقوال في تفسير كلمة «منهاج» في الآية، يمكن إجمالها في ما يأتي:

١ ـ الطريق:

فعن نافع قال: «سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، قال: الشرعة الدِّين، والمنهاج الطريق، قلت: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون[1] بالصدق والهدى ... وبيّن للإسلام ديناً منهجا[2]

٢ ـ السُنَّة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما[3] في قوله تعالى: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، قال:

(١) والمقصود بالمأمون هنا: هو النبي ﷺ. (٢) الإتقان في علوم القرآن ١/٣٤٨.

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، البحر، حبر الأمة، وفقيه العصر، وترجمان القرآن، دعا له النبي ﷺ بالحكمة والتأويل والفقه، توفي سنة ٦٨هـ، سير أعلام النبلاء ٣/٣٣١.

«سبيلاً وسنّة»(١)، وهو مروي أيضاً عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة وأبي إسحاق السبيعي(٢).

٣ ـ السبيل:

فعن ابن عباس قال: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ «سُنَّةً وسبيلاً»، وهو مروي أيضاً عن مجاهد وعطاء الخراساني(٣).

وقد رجّح ابن كثير القول الأول ـ بعد أن أورد القولين المرويين عن ابن عباس(٤).

ولا شك أن «المنهج» ينصرف إلى جميع ما سبق ذكره، إذ لا تعارض بين المعاني المذكورة، فالمنهج هو السبيل والطريق والسنّة المتّبعة.

*** ثانياً: المنهج في السنة النبوية:**

وردت كلمة «منهج» في السنة المطهرة، وكذلك ورد ما يرادفها وهي كلمة «منهاج».

١ ـ جاء لفظ «منهج» في حديث رؤيا عبد الله بن سلام ﵁ حيث يقول: «رأيت على عهد النبي ﷺ رؤيا، رأيت كأن رجلاً أتاني فقال لي: انطلق، فذهبت معه، فسلك بي منهجاً عظيماً.... فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «**رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر**....»(٥).

وفي رواية: «فإذا جواد منهج عن يميني»(٦).

وفُسِّر المنهج في الحديث بأنّه: «الطريق الواضح البيّن المستقيم»(٧)،

---

(١) تفسير الطبري ٤/٣٦٦ فما بعدها؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٦٦؛ وتفسير ابن عباس ﵄، جمع وتحقيق د. عبد العزيز الحميدي ١/٣٣٦؛ وتفسير الثوري ١/١٠٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٦٧.

(٣) المصدر السابق ٢/٦٦.

(٤) المصدر السابق ٢/٦٦.

(٥) رواه مسلم ٤/١٩٣٠، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلّام، رقم (٣٩١٠).

(٦) رواه مسلم ٤/١٩٣١، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلّام، رقم (٣٩١١).

(٧) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ١٦/٤٤؛ والديباج للسيوطي ٥/٤٥٠.

وقال بعض أهل العلم المراد بالجواد المنهج أي: الظاهر[١].

٢ ـ ورد لفظ «منهاج» في أحاديث عدّة، منها قول النبي ﷺ: **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون... ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»**[٢].

ويلاحظ أن كلمة «المنهج» وردت في الكتاب والسنّة بالمعنى اللغوي نفسه لهذه الكلمة.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض ٧/ ٥٣٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن حذيفة بن اليمان ٤/ ٢٧٣؛ وروى البزار في مسنده قريباً منه عن أبي عبيدة بن الجراح ٤/١٠٨، رقم الحديث (١٢٨٢)؛ وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «رجاله ثقات» ٥/ ١٨٩.

المطلب الثالث

المنهج اصطلاحاً

يختلف مفهوم المنهج باختلاف العلوم والمعارف التي يرتبط بها، لذا نجد تنوّع المناهج بحسب تنوّع العلوم التي تبحث فيها، فلكل عِلْم منهج يناسبه ويتلاءم وفق قضاياه ومسائله ومسالكه وأدلته، مع وجود حدٍّ مشترك بين المناهج المختلفة، وقد تتعاون ـ وهو الغالب ـ مجموعة من المناهج لخدمة ومعالجة فن واحدٍ.

فيُعرَّف المنهج في الاصطلاح العام، بأنّه: «النظام والخطة العلميّة السليمة المرسومة للشيء، وذلك مثل مناهج الدراسة والتعليم ومناهج البحث العلمي، ومناهج العلوم»[1].

هذا من حيث الاصطلاح العام.

أما المنهج في الاصطلاح الخاص فيختلف من علم لآخر، ومن ملّة لأخرى.

فللمنهج أنواع عديدة بحسب ما يُنسَب إليه ويتعلّق به:

ـ إمّا باعتبار النشاط: كمناهج البحث، ومناهج التفكير، ومناهج العلوم، سواء كانت علوماً طبيعية أو تجريبية كعلم الطب والفلك والرياضيات. . .إلخ، أو علوماً إنسانية كالدِّين واللغة والأدب والاجتماع وغيرها، فلكل علم من هذه العلوم منهج خاص به.

ـ أو باعتبار الطريقة التي يتمّ بها ذلك النشاط: كالمنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي، والمنهج التاريخي[2].

---

(١) المعجم الوسيط، لإبراهيم أنيس وآخرون ٢/ ٩٥٧.

(٢) **انظر**: المعجم الفلسفي، ليوسف كرم وآخرون، ص١٩٥. ومنهج البحث وإعداده للدكتور طلال المجذوب، ص٢٠ ـ ٢٣.

الدلالات الدعوية للمنهج:

من أهم الدلالات الدعوية والوعظية لكلمة «منهج» ما يلي:

• المنهج هو الطريق الواضح البيّن المستقيم الذي لا لبس فيه.

• إن التمسّك بهذا المنهج هو السبيل للعصمة من الزلل، كما جاء في رؤيا عبد الله بن سلام.

• وحدة منهج الأنبياء ﷩ في الدعوة إلى الله تعالى، فدينهم واحد، ودعوتهم واحدة.

• وجوب الأخذ والتمسك بمنهج الله ﷻ الذي ارتضاه لنبيه ﷺ، في سائر الاعتقادات والعبادات والمعاملات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

• لا سبيل لمعرفة المنهج الصحيح، إلّا بالرجوع إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

• المنهج الحق الذي ارتضاه الله لعباده، في سائر شؤونهم وعباداتهم واحد، لا يقبل التعدّد أو التنوّع، ولذلك جاء إفراد المنهج في الكتاب والسنة، ولم يأت جمعها إلا على سبيل الذمّ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، والسبيل هو المنهج كما سبق بيانه، ومن هنا يتبيّن لنا خطأ دعاة تعدد المناهج الدعوية، فهي دعوة مناقضة لما جاء في الكتاب والسنة.

• أعلَمُ الناس بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، هم السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهذا العلم متضمّن للعلم بمنهج الكتاب والسنة في

الدعوة إلى الله تعالى، وحيث إن الوعظ وسيلة دعوية، وجب علينا اقتفاء منهج السلف في الوعظ، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].



المبحث الثاني

تعريف السلف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: السلف لغة.

المطلب الثاني: لفظ السلف في القرآن الكريم، والسنة النبويّة.

المطلب الثالث: مفهوم السلف في الاصطلاح.

المطلب الأول

السلف لغة

السلف لغة: مشتقٌ من: سَلَفَ، يسْلفُ ـ بكسر اللام ـ سُلُوفاً، وسَلَفاً، وسَلُفَةً[(١)].

ومن معاني كلمة «سلف» في اللغة:

- كل ما تقدّم من الآباء والقرابة[(٢)].
- كلّ شيء قدّمه العبد:

«فالسلف كل شيء قدّمه العبد من عمل صالح، أو ولد فرط يُقدِّمه»[(٣)].

- القوم المتقدّمون في السير:

فالقوم إذا أرادوا أن ينفروا فمن تقدم من نفيرهم فسبق فهو سلف لهم، والأمم السالفة الماضية أمام الغابرة[(٤)].

- التَّسوِية:

يقال: «سَلَفْتُ الأرضَ، إذا سوّيتها بالمِسلَفَة، وهي شيء تُسَوَّى به الأرض»[(٥)].

- المعجل من الطعام:

السُّلفَة: المُعَجّل من الطعام، الذي يتعلل به قبل الغذاء»[(٦)].

- على الرجلين تزوجا بأختين[(٧)].

فنلاحظ أن كلمة «السلف» ومشتقاتها، تدور في أغلب استعمالاتها المتعددة في اللغة العربية حول الدلالة على التقدم والمضي والسبق الزمني.

---

(١) لسان العرب، مادة: «سلف» ٦/ ٣٣٠.
(٢) تهذيب اللغة، مادة: «سلف» ١٢/ ٤٣١.
(٣) لسان العرب، مادة: «سلف» ٦/ ٣٣٠.
(٤) العين للخليل ٧/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.
(٥) الصحاح، مادة: «سلف» ٤/ ١٣٧٦.
(٦) لسان العرب، مادة: «سلف» ٣/ ٣٣١.
(٧) القاموس المحيط للفيروزآبادي: مادة: «سلف»، ص١٠٦٠ ـ ١٠٦١؛ والعين ٧/ ٢٦٠.

المطلب الثاني

لفظ السلف في القرآن الكريم، والسنة النبويّة

* أولاً: لفظ «السلف» في القرآن الكريم:

وردت كلمة «سلف» في ثمانية مواضع[١] من كتاب الله ﷻ، وفي ما يأتي ذكرها مقرونة بما ذكره بعض المفسرين بشأنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

أي: «ما أكل وأخذ فمضى قبل مجيء الموعظة والتحريم من ربه في ذلك»[٢].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ [النساء: ٢٢].

أي: «ولكن ما مضى من ارتكاب هذا الفعل قبل التحريم فهو معفو عنه»[٣].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ [النساء: ٢٣].

والمراد: «ما قد مضى منكم فإن الله كان غفورا»[٤].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ [المائدة: ٩٥].

---

(١) **انظر**: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٥١.
(٢) جامع البيان للطبري ٣/ ١٠٤.
(٣) «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» للشنقيطي ١/ ٣٨٠.
(٤) جامع البيان للطبري ٨/ ١٥٠. **وانظر**: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٧٢.

أي: ما سبق في جاهليتكم، وقيل: «قبل نزول الكفارة»(١).

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

قيل: «ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام»(٢).

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

أي: «ما قدمت من خير وشر»(٣).

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

وهم قوم فرعون سلف لكفار أمة محمد ﷺ(٤).

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

أي: «على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعة الله في الأيام الخالية»(٥).

فنلاحظ من خلال استعراض معاني الآيات التي وردت فيها كلمة «سلف» أنّ هذه الكلمة استخدمت في القرآن الكريم للدلالة على المضي والتقدّم والسبق الزمني.

* ثانياً: لفظ السلف في السنة النبويّة:

ورد لفظ «السلف» في السنّة النبويّة بمعانٍ متعددة، منها.

١ ـ الماضي وما سبق الحياة الحاضرة:

ومن ذلك ما جاء عن النبي ﷺ في الصحيحين، أنّه قال لابنته فاطمة رضي الله عنها عند احتضاره: «... **وما أراني إلا قد حضر أجلي وإنك أول**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣١٧؛ والدر المنثور للسيوطي ٣/ ١٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢٤٨.

(٣) أضواء البيان ٢/ ٤٨١.

(٤) وهذا القول مأثور عن مجاهد **انظر**: جامع البيان للطبري ٢٥/ ٨٥؛ ومعاني القرآن لأبي جعفر النحاس ٦/ ٣٧٣.

(٥) تفسير الطبري ٢٩/ ٦١.

أهلي لحوقاً بي ونعم السلف أنا لكِ»[١] فالسلف هنا بمعنى المتقدّم.

٢ ـ القرض:

ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه، عن النبي ﷺ: «**أنه ذكر رجلاً سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه دينار، فدفعها إليه إلى أجل مسمى**»[٢].

٣ ـ بيع السلم:

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة والناس يُسلِفون في التمر العام والعامين، فقال: «**من سلف في تمر فليُسلِف في كيلٍ معلوم ووزن معلوم**»[٣].

فكلمة «السلف» وردت في الكتاب والسنة، بمعنى التقدّم والسبق الزمني.



(١) متفق عليه: البخاري ٥/ ٢٣١٧، كتاب الاستئذان، باب: من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه، رقم (٥٨١٣)؛ ومسلم ٤/ ١٩٠٥ كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة رضي الله عنها، رقم (٢٤٥).

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٥٤، كتاب: الشروط، باب: ما يستخرج من البحر، رقم (٢٧٣٤).

(٣) متفق عليه، البخاري ٢/ ٧٨١، كتاب: السلم، باب: السلم في كيل معلوم، رقم (٢٢٣٩)؛ ومسلم ٣/ ١٢٢٦ كتاب: المساقاة والمزارعة، باب: السلم، رقم (١٦٠٤).

المطلب الثالث

مفهوم السلف في الاصطلاح

إنّ العامل الزمني المتمثّل في السبق والتقدّم هو الذي يحدّد مدلول كلمة «السلف» في اللغة، ولكنها في اصطلاح العلماء تحمل مدلولاً آخر مضافاً إلى المدلول الزمني.

١ ـ المفهوم الاصطلاحي العام لكلمة «سلف»:

جاء في كشاف اصطلاحات الفنون أنّ «السلف في الشرع اسم لكل من يُقَلد مذهبه [الصحيح] في الدين ويُتّبع أثره»[١].

فالمفهوم العام الاصطلاحي لكلمة «سلف» ذكرت حقيقة السلف، وهم المتبعون المقتدى بهم في أمور الدين، الذين هم على المنهج السويّ.

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي الخاص لكلمة «سلف»:

يتجاذب مفهوم السلف اصطلاحاً وصفان، الوصف الزمني والوصف المنهجي، فالمعنى الخاص الدقيق للفظ «السلف» اصطلاحاً يدور حول هذين المفهومين.

أ ـ السلفية الزمنية:

تطلق على المجموعة المتقدّمة من الأمة الإسلامية التي عاشت في فترة تاريخية معيّنة، وقد حصل خلاف في تحديد هذه الفترة على أقوال منها:

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٧٤٨.

١ ـ قيل: إن المراد بالسلف هم الصحابة فقط، فهو وصف لازم لهم يختص بهم عند الإطلاق ولا يشاركهم فيه غيرهم[١].

٢ ـ وقيل: إن المراد بالسلف عند الإطلاق هم الصحابة والتابعون[٢].

٣ ـ وقيل: إن المراد بالسلف هم الصحابة والتابعون، وتابعو التابعين. وهو قول الجمهور[٣].

والراجح هو قول الجمهور؛ لأن النصوص تؤيده، فقد مدح النبي ﷺ القرون التي عاش فيها الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وشهد لهم بالخيرية، كما ورد في حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»[٤].

ب ـ السلفية المنهجية:

لا شك أنه قد عاش في القرون الثلاثة المفضلة طوائف خرجت عن منهج السلف[٥]، فكان لزاماً أن يضاف إلى السبق الزمني: موافقة الكتاب والسنة نصاً وروحاً، فمن خالف رأيه الكتاب والسنة فليس من السلف، وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين.

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام[٦] في تحديد معنى «السلف»: «فإنك كنت تسألني عن الإيمان واختلاف الأمة في استكماله وزيادته

---

(١) مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ص٣ ـ ٥.

(٢) إلجام العوام عن علم الكلام، للغزالي، ص٣.

(٣) **انظر**: الشريعة للآجري، ص١٤؛ ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٧/ ١٣٤.

(٤) متفق عليه، البخاري ٢/ ٩٣٨، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٤٥٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٩٦٣، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٤٦٠١).

(٥) كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والجهمية، والمعتزلة.

(٦) أبو عبيد القاسم بن سلّام القاضي، أحد الأعلام، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، فسّر غريب الحديث وصنف كتباً، كان واسع العلم كثير الجمع، توفي سنة: ٢٢٤هـ طبقات الحفاظ ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣؛ ووفيات الأعيان ٤/ ٦٠.

ونقصه، وتذكر أنك أحببت معرفة ما عليه أهل السنة من ذلك، وما الحجة على من فارقهم فيه، فإن هذا رحمك الله خطب تكلم فيه السلف في صدر هذه الأمة وتابعيها ومن بعدهم إلى يومنا هذا»[١]. ووصفهم بقوله: «فأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهاج السلف بعد الذين هم موضع القدوة والإمامة»[٢].

فلفظ السلفية، أصبح اصطلاحاً معروفاً يطلق على الرعيل الأول ومن يقتدون بهم في تلقي العلم، وطريقة منهجهم وطبيعة الدعوة إليه، فلم يعد محصوراً في دور تاريخي معين، بل يجب أن يفهم على أنه مدلول مستمر استمرار الحياة.

٣ ـ المسمّيات التي تطلق على السلف:

يطلق على السلف عدّة أسماء، وكلّ اسم يدلّ على صفة ونعت خاص بهم، دون غيرهم من الطوائف الأخرى، ومن هذه الأسماء:

أ ـ أهل السنة والجماعة:

وهم المجتمعون على التمسك بالكتاب والسنة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى المتبعون لهم، ومن سلك سبيلهم في القول والعمل والاعتقاد إلى يوم الدين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] رحمه الله: «سُمّوا بذلك لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة»[٤].

ب ـ «أهل الحديث» و«أهل الأثر»:

وهم المعتنون بحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية والمتبعون لهديه ﷺ

---

(١) الإيمان للقاسم بن سلام، ص٩. (٢) المصدر السابق، ص١٩.

(٣) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، أبو العباس، الحراني الدمشقي، كان من أئمة السلف وبلغ المنتهى في علوم كثيرة، كالحديث والفقه والأصول والتفسير والملل، كان شديداً على أهل البدع، جاهد في سبيل الله بلسانه وسنانه، وترك تراثاً علمياً ضخماً: في الفقه والأصول والحديث والعقيدة، توفي مسجوناً سنة ٧٢٨هـ، شذرات الذهب، لابن العماد ٦/ ٨٠.

(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ١٥٧.

ظاهراً وباطناً، والمشتغلون بآثار أصحابه ﷺ تمييزاً وفهماً واحتجاجاً[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما هذا اعتقاد سلف الأمة وأئمة أهل الحديث»[٢].

ج ـ الفرقة الناجية:

وهي التي تنجوا من النار بالتزامها هدي النبي ﷺ ومنهج أصحابه ﷺ، كما جاء في الحديث: «... **وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: **هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣].

د ـ الطائفة المنصورة:

حيث وصفها النبي ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**»[٤].

٤ ـ المراد بمنهج السلف:

بعد استعراض معاني لفظتي «المنهج» و«السلف» في اللغة والاصطلاح، ومعانيهما الواردة في الكتاب والسنة، يمكننا استخلاص معنى اللفظ المركب وهو «منهج السلف» فأقول:

«منهج السلف هو المسلك الذي سلكه أعلام السلف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، في المسائل العقدية، والتشريعية، والدعوية».

---

(١) **انظر**: مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتور ناصر العقل، ص١٥.

(٢) العقود الدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢٥٨.

(٣) رواه أبو داود ٤/ ١٩٧، كتاب: السنة، باب: شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)؛ والترمذي ٥/ ٢٥، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق الأمة، رقم (٢٦٤٠) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٣٣٠ كتاب: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، رقم (٣٤٣٧)، ومسلم ٣/ ١٥٢٣ كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، رقم (١٩٢٠).

وهذا المنهج هو منهج الإسلام نفسه، وهو الطريق القويم والسبيل القاصد البيّن، وهو الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خطّ رسول الله ﷺ خطاً، ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه سبلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[1].

والمنهج السلفي هو المنهج الرباني الجامع المتكامل الهادي في التصوّر والفكر، وفي السعي والعمل، وفي الإصلاح والتربية، وفي السلوك والتزكية، الذي حفظ الله به دينه وكتابه عن طريق الالتزام به من قِبَل أعلام السلفية جيلاً بعد جيل منذ صدر الإسلام وإلى وقتنا الحاضر.



(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٨٩ ـ ٩٠، رقم (٤١٤٢)؛ والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٩ وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»؛ وحسّنه أيضاً الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (١٦٦).

المبحث الثالث

تعريف الوعظ، وأهميته وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الوعظ.

المطلب الثاني: أنواع الوعظ.

المطلب الثالث: أهمية الوعظ في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الأول

تعريف الوعظ

* أولاً: الوعظ لغة:

الوعظ لغة مشتق من: وَعَظَ، يَعِظُ ـ بكسر الظاء ـ عِظَةً، ومَوْعِظةً، ووعظاً[١].

ومن معاني كلمة «وعظ» في اللغة:

● التذكير بالخير وما يرقّ له القلب ويلين:

جاء في تهذيب اللغة: «العِظة: الموعظة. وكذلك الوعظ. والرجل يتَّعظ إذا قَبِل الموعظة حين يذَكَّرُ الخير ونحوه، مما يرقّ لذلك قلبه. يقال وعظته عظة»[٢].

وخصّ بعضهم الثواب والعقاب من جملة ما يرقّ له القلب فقال: «المَوْعَظَةُ: تذكرتك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب»[٣].

وفي التعريفات: «الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتُدمِع العيون الجامدة، وتُصلِح الأعمال الفاسدة»[٤].

وفسّر بعضهم القول اللين بأنه القول الذي لا تغليظ فيه ولا تعنيف[٥].

وعرّفها آخرون تعريفاً عاماً فقالوا، هي: «القول الرقيق»[٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «وعظ» ٦/ ١٢٦.

(٢) تهذيب اللغة مادة: «وعظ» ٣/ ١٤٦.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده مادة: «وعظ» ٢/ ٢٤٠، وكذا المخصص له، مادة: «وعظ» ٤/ ٩٥؛ وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، مادة: «وعظ» ٢٠/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) التعريفات للجرجاني ١/ ٣٠٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٩٠.

(٦) تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي؛ وجلال الدين سيوطي ١/ ٣٦٣.

- النصح والتذكير بالعواقب[١].
- الكلام الذي يلين القلب بذكر الوعد والوعيد[٢].
- التخويف والزجر:

ففي مفردات ألفاظ القرآن: «الوعظ: زجر مقترن بتخويف»[٣].

وقيل: «الوَعْظُ: هو التَّخْوِيفُ والإِنْذَارُ»[٤].

وقيل: «الوعظ: إهزاز النفس بموعود الجزاء ووعيده»[٥].

وقيل: «والموعظة مأخوذة من الاتعاظ والانزجار، والوعظ التخويف»[٦].

- الأمر بالطاعة والوصية بها:

جاء في المصباح المنير: «وعظه: أمره بالطاعة ووصّاه بها، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ أي: أوصيكم وآمركم، فاتَّعَظَ أي: ائتمر وكَفَّ نفسه»[٧].

ومن الأمثال السائرة:

قولهم: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْرِهِ والشَّقِيُّ مَنْ به اتُّعِظَ»[٨].

وقولهم: «ما وعظ امرءاً كتجاربه»[٩].

ونلاحظ أن المعاني اللّغوية المذكورة لكلمة «وعظ»، تدور حول أمور ثلاثة:

مضمون الوعظ، ووسيلته، والغاية منه.

---

(١) الصحاح مادة: «وعظ» ٣/ ١١٨١، لسان العرب مادة: «وعظ» ١٥/ ٣٤٥.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٤.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص٨٦٧.
(٤) معجم مقاييس اللغة مادة: «وعظ» ٦/ ١٢٦؛ تاج العروس مادة: «وعظ» ٢٠/ ٢٨٩.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/ ٧٢٨.
(٦) فتح القدير للشوكاني ١/ ٩٦.
(٧) المصباح المنير للفيومي ٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦.
(٨) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٤٣.
(٩) المصدر السابق ٢/ ٣٢٧.

فمن وسائل الوعظ التخويف والزجر والترغيب والترهيب، ومن مضامينه الدعوة إلى جنس الخير كلّه، والغاية من الوعظ ارتداع النفس وتحقيق الطاعة.

وكلّ هذه المعاني وردت في اللغة للفظة «وعظ».

*** ثانياً: مفهوم «الوعظ» في استعمالات القرآن الكريم، والسنّة النبويّة:**

أوّلاً: القرآن الكريم:

جاء ذكر كلمة «الوعظ» ومشتقاتها، في القرآن الكريم، في ثمان وعشرين موضعاً، في أربعة عشرة سورة من القرآن[١].

ومن أبرز المعاني التي جاءت بها كلمة «وعظ» في القرآن الكريم، ما يلي:

١ ـ التذكير:

الوعظ يأتي في القرآن الكريم غالباً بمعنى التذكير، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

قال الطبري في تفسير الآية: «وتذكرة للمتقين ليتعظوا بها ويعتبروا ويتذكروا بها»، ثمّ ذكر بسنده عن ابن عباس ﷺ أنّه قال: «وموعظة: تذكرة وعبرة للمتقين»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) **انظر**: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٩٢٣.
ولعلّ من أوجه الإعجاز العددي في القرآن، أن تذكر لفظة «الموعظة» في ثمان وعشرين موضعاً من القرآن، في أربعة عشرة سورة، وهي سور: البقرة، والنساء، وآل عمران، والمائدة، والأعراف، ويونس، وهود، والنحل، والنور، والشعراء، ولقمان. وسبأ، والمجادلة، والطلاق؛ سبع منها مكية، والسبع الأخرى مدنية.

(٢) تفسير الطبري ١/١؛ و«فتح القدير» ١/٩٦.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: ذكرى تذكركم عقاب الله وتخوفكم وعيده»(١).

٢ ـ التخويف والزجر:

التخويف والزجر من وسائل الوعظ المؤثرة في المدعو، ولذا كثر مجيء كلمة «الوعظ» في القرآن الكريم مراداً بها هذا المعنى، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وموعظة: وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال وتنبيهاً لهم عليه»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد بالموعظة هٰهنا الزاجر»(٣).

ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: زاجر عن الفواحش»(٤).

٣ ـ النصح:

والنصح متضمّن لمعنى الوعظ، وإن كانت النصيحة أعم من الموعظة.

ـ قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

جاء في تفسير أبي السعود: «أي: فانصحوهن بالترغيب والترهيب»(٥).

ـ وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ١٢٤.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٦٤؛ وتفسير ابن كثير ٢/ ٦٥.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٠٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٧٤.

قال صاحب روح المعاني: «أي: ما أرشدكم وأنصح لكم»(١).

٤ ـ الأمر والنهي:

جاء استعمال الأمر والنهي المجردين بمعنى الموعظة في كثير من آيات القرآن الكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوعظ في القرآن هو: الأمر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، فقوله: مَا يُوعَظُونَ بِهِ أي: ما يؤمرون به، وقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]؛ أي: ينهاكم عن ذلك»(٢).

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك»(٣).

٥ ـ الدعوة إلى الله بالترغيب والترهيب(٤):

كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

٦ ـ مواعظ القرآن:

يأتي لفظ «الموعظة» في بعض المواضع من كتاب الله، مراداً بها المواعظ التي اشتمل عليها القرآن الكريم، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

قيل: «يعني: مواعظ القرآن»(٥).

والموعظة من أسماء القرآن الكريم، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره(٦).

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٥٤.
(٢) الرد على المنطقيين ١/ ٤٦٨.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٤٨.
(٤) قاله البغوي في تفسيره ٣/ ٩٠.
(٥) تفسير الواحدي ١/ ٦٢٤؛ وتفسير البغوي ٣/ ٩٠.
(٦) مجموع الفتاوى ١٤/ ١.

ومن خلال استعراض معاني كلمة «وعظ» ومشتقاتها في القرآن الكريم، نلحظ أنّ الوعظ في القرآن الكريم، قد أتى في أغلب استعمالاته، مراداً به نفس المعنى اللغوي لهذه اللفظة، فالوعظ هو تذكير ونصح وتخويف وزجر وترغيب وترهيب، وأمر ونهي.

وأعظم فائدة نستخلصها، من خلال هذا العرض، أنّ أساس الوعظ وذروة سنامه وأجلّ أنواعه ووسائله، هو الوعظ بالقرآن الكريم، بكلّ ما تضمّنه من وعد ووعيد، وقصص، وأمثال، وأمر ونهي، وترغيب وترهيب، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ثانياً: السنة النبويّة:

وردت لفظة «وعظ» ومشتقاتها، في السنّة النبويّة بمعان مختلفة، من أبرزها:

١ ـ النصح والتذكير:

ـ عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم**»[1].

---

(١) رواه الترمذي ٥/ ١٤٤، كتاب: الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في مثل الله لعباده، رقم (٢٧٨٦)، وقال: «حديث حسن غريب»؛ ورواه أحمد في مسنده، مسند الشاميين حديث رقم (١٦٩٦٧) واللفظ له؛ ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ١٤٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه».

والمراد بالواعظ هنا: «هو لمّة الملك في قلب المؤمن واللّمّة الأخرى هي لمّة الشيطان»[١].

فالوعظ هنا جاء بمعنى النصح والتذكير، لقوله ﷺ: «**واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم**»، ولأن اللمّة هي الخطرة والهمّة التي يلقيها الملك في روع الإنسان على سبيل النصح والتذكير له[٢].

ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا»[٣]، وفسرت الموعظة هنا بالنصح والتذكير[٤].

٢ ـ النهي والعتاب:

ـ عن سالم بن عبد الله عن أبيه[٥] أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «**دعه، فإن الحياء من الإيمان**»[٦].

قال النووي[٧] رحمه الله: « أي: ينهاه عنه ويقبح له فعله ويزجره عن كثرته»[٨].

---

(١) تحفة الأحوذي للمباركفوري ٨/ ١٢٤.

(٢) قال شمّر: «اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب» لسان العرب ١٢/ ٥٥٢.

(٣) متفق عليه، البخاري ١/ ٣٩، كتاب: العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، رقم (٧٠)؛ ومسلم ٤/ ٢١٧٢، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٢٨٢١).

(٤) تحفة الأحوذي للمباركفوري ٨/ ١٢١.

(٥) عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٦) متفق عليه البخاري ١/ ١٧، كتاب: الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم (٢٤)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٦٣، كتاب: الإيمان، باب: بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، رقم (٣٥).

(٧) محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الشافعي، الإمام الحافظ شيخ الإسلام، من أئمة العلم والوعظ، صاحب التصانيف النافعة، كشرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، والمجموع في شرح المهذب، وغيرها، توفي سنة: ٦٧٦هـ، «البداية والنهاية» لابن كثير ١٣/ ٢٧٨.

(٨) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٢٠٤.

وقال الحافظ ابن حجر[١]: «أي: ينصح أو يخوف أو يذكر، كذا شرحوه، والأولى أن يشرح بما جاء عند المصنف[٢] في الأدب ولفظه: **«يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحي حتى كأنه يقول: قد أضر بك»**[٣] ويحتمل أن يكون جمع له العتاب والوعظ فذكر بعض الرواة ما لم يذكره الآخر»[٤].

٣ ـ الردع والزجر:

ـ عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: **«سيكون بعدي أمراء يستحلون الخمر بالنبيذ والبخس في الصدقة، والقتل بالموعظة، يقتل البريء ليوطئوا به العامة»**[٥]

والمراد بالقتل بالموعظة: هو أن يقتل البريء ليتعظ به المريب كما قال الحجاج في خطبته: «وأقتل البريء بالسقيم»[٦].

٤ ـ خطبة الجمعة:

الخطب من وسائل الوعظ، وسمّيت خطبة الجمعة موعظة لأنّه يغلب عليها الوعظ.

ـ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب امرأته إن كان لها، ولبس من صالح ثيابه، ثم لم يتخط رقاب الناس ولم يلغ عند الموعظة كانت كفارة لما بينهما، ومن**

---

(١) هو: أحمد بن عليّ بن أحمد أبو الفضل الكناني، الشافعي، من أئمة السنة، وقاضي القضاة، له مؤلفات كثيرة تدلّ على رسوخه في العلم. منها: الإصابة في أسماء الصحابة، وتهذيب التهذيب، والتقريب، ونخبة الفكر، وفتح الباري شرح صحيح البخاري. توفي سنة: ٨٥٢هـ. البدر الطالع ١/ ٨٧ ـ ٩٢.

(٢) يقصد بالمصنف: الإمام البخاري رحمه الله.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٢١٠. باب: الحياء، رقم (٦٠٢).

(٤) فتح الباري ١/ ٩٤.

(٥) رواه ابن عدي في «الكامل» ٢/ ٢٠٣، والحديث ضعيف، فيه الحكم بن عبد الله بن سعد الأيلي متروك الحديث. (الباحث).

(٦) النهاية في غريب الحديث للجزري ٥/ ٢٠٥.

لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهرا»[١]

ـ حديث عبد الله بن مسعود ﵁ السابق: وفيه: «كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا».

قال أبو الوليد الباجي ﵀: «وفيه معنى آخر: أن الخطبة وعظ، والصلاة عمل، يريد أن عملهم كثير، ووعظهم قليل»[٢]

٥ ـ الترغيب والترهيب:

الترغيب والترهيب من أبرز أساليب الوعظ، لذا كثر استعمال الوعظ بهذا المعنى.

ـ عن ابن عباس ﵄ قال: أتى النبي ﷺ العَلَم الذي عند دار كثير بن الصلت، ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهن وذكّرهن وأمرهن أن يتصدقن، فجعلت المرأة تهوي بيدها إلى حلقها تلقي في ثوب بلال، ثم أتى هو وبلال البيت»[٣].

قال ابن حجر ﵀: «واستفيد الوعظ بالتصريح من قوله في الحديث: فوعظهن، وكانت الموعظة بقوله: إني رأيتكن أكثر أهل النار لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير»[٤].

٦ ـ التعليم:

التعليم يعتبر أحد أقسام الوعظ، وأجلّ غاياته، لذا يكثر مجيء الوعظ بمعنى التعليم.

ـ عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: **«قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا**

---

(١) رواه أبو داود ١/ ٩٥، كتاب: الطهارة، باب: الغسل يوم الجمعة، رقم (٣٤٧)؛ وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ٧١.

(٢) شرح الزرقاني ١/ ٥٠٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢٩٥، كتاب: الصلاة، باب: وضوء الصبيان ومتى يجب عليهم الغسل والطهور؟ وحضورهم الجماعة والعيدين والجنائز وصفوفهم، رقم (٨٦٣).

(٤) فتح الباري ١/ ٢٣٢.

عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن..»[١].

والمقصود بالوعظ هنا: التعليم، كما صرّح بذلك الإمام البخاري في صحيحه فقال: «باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم»، ثم أورد هذا الحديث[٢].

● **الخلاصة:**

من خلال هذا العرض، يمكن أن نخلص إلى أنّ معنى الوعظ في السنة النبويّة لا يختلف عن معناه في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، فهو يدور حول النصح والتذكير والترغيب والترهيب والزجر والأمر والنهي.

ومن أخصّ معاني الوعظ في السنة النبويّة، هو: الخطابة والتعليم، كما سبق بيانه.

*** ثالثاً: مفهوم «الوعظ» اصطلاحاً:**

تضاربت أقوال العلماء في تعريف الموعظة، بين مُعمِّم ومُخصِّص، ومُطلِقٍ ومُقيِّدٍ، فمنهم من عرّف الوعظ من خلال أساليبه، والبعض الآخر عرّفه من خلال غاياته، ومنهم من جعل الوعظ شاملاً لكلّ الخطابات النافعة، ومنهم من قيّدها بالحجج الإقناعية، وفي ما يلي ذكر لهذه التعاريف.

أ ـ التعاريف العامة «للموعظة»:

١ ـ قيل هي: «الخطابات المقنعة والعبر النافعة»[٣].

ومما يؤخذ على التعريف أنّ الخطابات المقنعة، تدخل فيها المجادلات والحوارات، فكلّها تتبنّى مبدأ الإقناع بالحجة والبيان، كما أنّ التعريف لم يذكر ماهية هذه الخطابات ولا فحواها.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٠، كتاب: الصلاة، باب: هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم، رقم (١٠١).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٠.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٦؛ وتفسير أبي السعود ٥/ ١٥١.

٢ ـ عرّفها الإمام الشوكاني[١] فقال: «الموعظة الحسنة هي: المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة، باعتبار انتفاع السامع بها»[٢].

وهذا التعريف اقتصر على بيان المراد من الحُسْنِ في الموعظة، وجعل ضابط الحسن هو استحسان السامع لها وانتفاعه بها، والحقيقة أن ضابط الحسن في الموعظة ليس مَردُّهُ إلى انتفاع الموعوظ واستحسانه لها فقط، بل يرجع إلى أسلوب الوعظ ومضمون الموعظة أيضاً.

٣ ـ وعرّفها بعضهم بأنها: «مخاطبة القلوب والعواطف النبيلة لتحريكها نحو الخير»[٣].

وهذا التعريف فيه عموم وخصوص، فقد خصّ القلوب والعواطف بالخطاب، وأهمل مخاطبة العقول، كما لم يحدّد التعريف ضابط الخير المراد في الموعظة.

٤ ـ وقيل: «هي اتباع أحسن القول في عرضه على المدعوين، واللّطف فيه، والتودّد إلى صاحبه، وانتقاء العبارات المناسبة للشخص المدعو وللمقام الذي هو فيه»[٤].

وهذا التعريف بيّن السبيل الأقوم في عرض الموعظة على المدعويين، إلا أنّه لم يذكر حقيقة الوعظ، ولا مضمونه، ولا غايته.

٥ ـ وقيل: «الموعظة الحسنة هي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق، بمقدمات مقبولة»[٥]. هذا التعريف أليق أن يكون للجدال وليس للموعظة.

---

(١) **هو**: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الإمام العلامة المتقن، كان متبحراً في الفقه والأصول والتفسير، توفي سنة ١٢٥٠هـ. **انظر**: البدر الطالع ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٧.

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٢٠٣.

(٣) هذا التعريف للقرضاوي، من محاضرة ألقاها في المجلس الإسلامي الأوروبي بالسويد، مأخوذة من موقع إسلام أون لاين.

(٤) من بحث لد أ. د. فالح الصغير، بعنوان: «الدعوة ضوابط وأساليب»، موقع إسلام أون لاين.

(٥) فتح القدير ٣/ ٢٠٣.

ب ـ التعاريف الخاصة «للموعظة»:

من العلماء من قصر الوعظ على جانبي الترغيب والترهيب، ومن ذلك:

١ ـ عرّفها ابن الجوزي(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: «تخويف يرق له القلب»(٢).

٢ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الموعظة الحسنة، تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر ولهذا يجيء الوعظ في القرآن مراداً به الأمر والنهي بترغيب وترهيب»(٣).

٣ ـ وعرّفها الإمام ابن القيم(٤) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «الموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب»(٥).

٤ ـ وبنحو ذلك عرّفها السعديّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «هي ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب»(٦).

٥ ـ وعرّفها الإمام النسفي فقال: «هي أن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة»(٧).

٦ ـ وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضابط الوعظ هو الكلام الذي تلين له القلوب»(٨).

---

(١) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي، البكري، البغدادي، الواعظ المفسر، صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم، وتوفي سنة (٥٨٧هـ). **انظر**: تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ١٣٤٢ ـ ١٣٤٨.

(٢) القصاص والمذكرين لابن الجوزي، ص١٦٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٥، ٢٠/ ٢٨.

(٤) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله، المشهور بـ: ابن قيم الجوزية، الإمام المحقق الحافظ الأصولي الفقيه النحوي، كان علماً في العلم والعمل، صاحب التآليف الماتعة: كإعلام الموقعين، وإغاثة اللهفان، وزاد المعاد في هدي خير العباد، وغيرها كثير، توفي سنة: ٧٥١هـ، شذرات الذهب ٦/ ١٦٨.

(٥) مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ١٥٧.

(٦) تيسير الكريم الرحمٰن للشيخ عبد الرحمٰن السعدي، في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [المجادلة: ٣]، ص٨٤٤.

(٧) تفسير النسفي ٢/ ٢٧٦.

(٨) أضواء البيان ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

هذا تعريف حسن، غير أنّ غاية الوعظ ليست مقصورة على ترقيق القلوب فقط، بل أسمى غايات الوعظ، الإيمان بالله ﷻ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٧ ـ وقال محمد مصطفى ناصيف: «هي التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تنشطه وتجعله بصورة من يقبل الفضائل»(١).

وهذه التعاريف كلّها جعلت من الترغيب والترهيب الأسلوب الأوحد لوعظ الناس، وأهملت الأساليب الأخرى، كضرب الأمثال والقصص وغيرهما.

قال الشيخ سعود الشريم: «وبهذا يتضح غلط من قصر الوعظ على الترغيب أو الترهيب أو عليهما جميعاً، وبه تبيّن كذلك أن كلّ ما أوصل إلى التذكّر أو تصحيح الخطأ في كل شأن من شئون الناس الدينية أو الدنيوية، فهو من الوعظ»(٢).

٨ ـ وعرّفها علي محفوظ فقال: «الوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق، على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل»(٣).

وهو تعريف جيّد، غير أنّه قد أبهم ماهية الخير الذي يدعو إليه الواعظ، ولم يقيّد العمل بامتثال أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه.

٩ ـ وقيل: «هو كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح»(٤).

١٠ ـ وقيل: «هي الأقوال المشتملة على العظات والعبر التي ترقق القلوب، وتهذب النفوس، وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه، وترغبهم في الطاعة لله تعالى، وترهبهم من معصيته ﷻ»(٥).

---

(١) المجلة الإسلامية الأسبوعية منابر الدعوة العدد ١٨٠٩ ـ الاثنين ١١ رجب ١٤٢٤هـ.
(٢) وميض من الحرم للشيخ سعود الشريم، المجموعة الثانية، ص٨ ـ ٩.
(٣) **انظر**: «هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة» لعلي محفوظ، ص٨٢.
(٤) «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور ١٤/ ٢٦٠.
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٢٦٠.

وهذا التعريف من أجمع التعاريف للموعظة، إلا أنّه خصّ القول من جملة ما يوعظ به، ولا شك أنّ الوعظ يكون بالقول والفعل، فهو دائر بين المسموع والمشهود.

١١ ـ وقد عدّ بعضهم الموعظة علماً مستقلاً فقال: «علم المواعظ هو علم يعرف به ما هو سبب الانزجار عن المنهيات، والانزعاج إلى المأمورات، من الأمور الخطابية المناسبة لطباع عامة الناس»[(١)].

ج ـ التعريف المختار:

إنّ شرط التعريف الصحيح، أن يكون جامعاً مانعاً، مستوفياً لجميع المعاني والمقاصد.

والموعظة وسيلة دعوية، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولكن هذه الوسيلة، ينظر إليها من جوانب أربع:

١ ـ أساليبها.

٢ ـ مضمونها.

٣ ـ غايتها.

٤ ـ المخاطب بها.

فلا بد للتعريف المختار أن يكون جامعاً لكل هذه الجوانب، ومنه يمكن تعريف الموعظة بأنها:

«الأقوال والأفعال الشرعية، المشتملة على العظات والعبر، التي ترقق القلوب، وتهذب النفوس، وتوقظ من به غفلة، وترغب في طاعة الله تعالى، وترهب من معصيته ﷻ».

ـ فقولنا: «الأقوال والأفعال»، هذا الحدّ يجمع أساليب الوعظ الفعلية والقولية.

---

(١) «أبجد العلوم»، لصدِّيق بن حسن القنوجي ٢/٥٣٦.

ـ وقولنا: «الشرعية»، حتى تنضبط هذه الأساليب بالكتاب والسنة، وهدي السلف، فخرج بهذا الضابط جميع الأساليب المبتدعة والمخالفة للكتاب والسنة.

ـ وقولنا: «المشتملة على العظات والعبر»، هذا الحدّ يمثّل مضمون الموعظة، فهي متضمنة للعظات والعبر النافعة.

ـ وقولنا: «التي ترقّق القلوب، وتهذب النفوس، وتوقظ من به غفلة»، فيه إشارة إلى المخاطبين بالموعظة، وهم الذين تعتريهم بعض القسوة أو الغفلة في قلوبهم، والدخن في نفوسهم.

ـ وقولنا: «وترغب في طاعة الله تعالى، وترهب من معصيته ﷻ»، فهذا الضابط يعبّر عن الغاية من الوعظ، وهي امتثال أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه.

وبهذا يكون التعريف جامعاً لجوانب الوعظ، ومانعاً غيره من الدخول فيه.

د ـ ضابط الحسن في الموعظة:

قيّدت الموعظة في كتاب الله تعالى بوصف الإحسان، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولم تقيد الحكمة؛ لأن الحكمة هي تعليم لمتطلبي الكمال، من معلّم يهتم بتعليم طلابه فلا تكون إلّا في حالة حسنة فلا حاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة.

أما الموعظة الحسنة، لمّا كان المقصود منها غالباً ردع نفس الموعوظ عن أعمال سيئة أو عن توقع ذلك منه، كانت مظنّة لصدور غلظة من الواعظ، ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، ولذا ندب الله إلى عباده المؤمنين الوعظ والتناصح باستعمال الأسلوب الحسن الليّن، الذي لا غلظة فيه ولا فظاظة.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ لأن القلوب تنفر من الغلظة والتعنيف في الغالب.

قال ابن القيم رحمه الله: «أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة»(١).

والموعظة لكي تكون حسنة لا بد لها أن تستجمع قوام الحسن ومعانيه، وبذلك تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق في المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل وحسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويرشد العقول الحائرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

ومن الوعظ الحسن لين القول وترغيب الموعوظ في الخير، كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

وقال أيضاً: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، فالحُسْنُ من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله»(٢).

«فحسن الموعظة يكون في مضمونها القائم على الحق والخير والنصح المفيد، وبيان العواقب بصدق، وفي أسلوب عرضها الذي لا تنفر منه النفوس، والحسن في أسلوب العرض يتنافى مع الفظاظة والغلظة والمخاشنة في القول، ويتنافى مع السباب والشتائم والأقوال الجارحة المهينة»(٣).

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٥٧.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٢١.
(٣) «فقه الدعوة إلى الله وفقه الدعوة والنصح والإرشاد»، لعبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني ١/ ٦٣١.

هـ ـ المراد بمنهج السلف في الوعظ:

من خلال التحليل اللغوي والاصطلاحي لكلٍّ من كلمة «منهج»، و«سلف»، و«وعظ»، واستعمالاتها في القرآن الكريم والسنة النبويّة، يمكن أن نستنبط تعريفاً «لمنهج السلف في الوعظ»، فيمكن تعريفه بما يلي:

«هو الطريق والسبيل ـ المبني على أصول وقواعد صحيحة ثابتة مستمدّة من الكتاب والسنة ـ، الذي سلكه من تقدّمنا ـ من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم ـ، في نصح الناس وتذكيرهم، وترغيبهم في طاعة الله تعالى، وترهيبهم من معصية الله ﷻ».

* رابعاً: ألفاظ ذات صلة بالوعظ:

لكلمة «الوعظ» مرادفات كثيرة، في اللّغة العربية، وفي استعمالاتها الشرعية، فكثيراً ما ترد بعض المفردات مراداً بها الوعظ، كالنصح، والتذكير، والقصص، والخطابة.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله في مستهل حديثه عن الوعظ: «إنّ لهذا الفنّ ثلاثة أسماء: قصص، وتذكير، ووعظ، فيقال: قاصّ، ومذكّر، وواعظ»[1].

لذا فإنّ من تمام الإيضاح، التعريج على هذه الألفاظ، وبيان شيء من معانيها، حتى يكتمل الطوق، ويتضح معنى «الوعظ» بجلاء.

١ ـ النّصح:

أ ـ النصيحة لغة:

النصح في اللغة مشتقٌ من: نَصَحَ، يَنْصَحُ، نُصْحاً، ونَصيْحَةً[2].

قال ابن فارس: «النون والصاد والحاء، أصل يدل على ملائمة بين

---

(١) القصاص والمذكرين، ص١٥٩، ويقول ابن الأخوة: «والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قصاصاً»، معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة، ص١٨٠.

(٢) «لسان العرب»، مادة: «نصح» ٢/ ٦١٥.

شيئين، وإصلاح لهما»[١].

والناصِحُ: الخالص من العسل وغيره، مثل الناصع. وكلُّ شيء خَلَصَ فقد نَصَح. وانْتَصَحَ فلانٌ؛ أي: قبل النصيحة، ومنه التوبة النَصوح، وهي الصادقة[٢].

فمدار النصح في اللغة على الإخلاص والصدق.

ب ـ النصيحة اصطلاحاً[٣]:

النصيحة باعتبارها محاولة للإصلاح، ورغبة في تقديم الخير للغير، والدلالة عليه، فهي جزء من الدعوة إلى الله تعالى ووسيلة من وسائله.

ومن جملة ما عرّفت به النصيحة اصطلاحاً:

ـ عرّفها أبو عمرو ابن الصلاح، فقال: «النصيحة كلمة جامعة تتضمّن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً»[٤].

وبهذا التعريف يلتقي النصح مع الوعظ، في المضمون والغاية، فكلٌّ منهما فيه دعوة إلى وجوه الخير كلّها وفي مقدمتها الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، كما قال الله تعالى على لسان نبيه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

ـ وقيل: «النصيحة أن يرغبه في الطاعة ويحذّره من المعصية، ويسعى في تقرير ذلك الترغيب بأبلغ الوجوه»[٥].

والوعظ كما تقدّم معنا، هو: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

وكثيراً ما يفسّر الوعظ بالنصح، في الكتاب والسنة كما سبق بيانه[٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «نصح».

(٢) الصحاح للجوهري، مادة: «نصح».

(٣) للاستزادة **انظر**: «الفرق بين النصيحة والتعيير»، لابن رجب الحنبلي؛ «النصيحة، شروطها وآدابها» للدكتور: عبد الرب نواب الدين؛ «والنصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة» للباز محمد عبد الفتاح الدميري.

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ص٧٦.

(٥) مفاتح الغيب للرازي ٧/ ١٥٧.

(٦) **انظر**: ص٥٣ و٥٥ من هذا البحث.

٢ ـ التذكير:

أ ـ التذكير لغة:

تدور معاني الذكر في اللغة العربية على الحفظ، والاسترجاع، والجريان.

جاء في تهذيب اللّغة: «الذِّكْرُ: الحفظ للشيء تَذكُرُه، والذِّكْرُ: جري الشيء على لسانك، وقال الفراء: يكون الذِّكْرَى بمعنى الذِّكْر، ويكون بمعنى التّذكير في قوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [صٓ: ٤٦]»[(١)].

ب ـ التذكير اصطلاحاً:

عرّفه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّه: «تعريف الخلق نِعَمَ الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم، وحثّهم على شكره، وتحذيرهم من مخالفته»[(٢)].

فالمذكّر وإن اشترك مع الواعظ، في دلالة الناس على الخير وحثّهم على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، إلّا أنّ الواعظ، برأي ابن الجوزي، هو الذي يسعى إلى ترقيق القلوب بواسطة التخويف والترهيب، فالفرق بين التذكير والوعظ فرق جوهري، فالأوّل: تعريف وحثّ، والثاني: تخويف وترقيق.

وكثيراً ما يأتي الوعظ في القرآن الكريم والسنّة النبويّة مراداً به التذكير، وقد سبق بيانه[(٣)]، كما يرد التذكير أيضاً في بعض نصوص القرآن الكريم بمعنى الوعظ، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧١].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقول: ووعظي إياكم بحجج الله وتنبيهي إياكم على ذلك»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ في فعل الله ذلك كالذي وصف، لذكرى وموعظة لأهل العقول والحجا، يتذكرون به»[(٥)]

---

(١) تهذيب اللغة، مادة: «ذكر» ١٠/ ٣٤.
(٢) القصاص والمذكرين، ص١٦١.
(٣) **انظر**: ص٥٢ و٥٥ من هذا البحث.
(٤) تفسير الطبري ١١/ ١٤١؛ وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٧.
(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٠٨.

٣ ـ القصص:

أ ـ القصص لغة:

«القصّ» في اللغة: القطع والتتبّع وإيراد الخبر المقصوص.

يقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: تتبّعي أثره[١]. والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث.

وقد اقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه، والقَصَص ـ بالفتح ـ الخبر المقصوص[٢].

ب ـ القصص اصطلاحاً:

عرِّف القصص بأنّه: «فن مخاطبة العامّة، ووعظهم بالاعتماد على القصّة»[٣].

ج ـ وقد قصّ الله ﷻ قصص الأمم السابقة والقرون الغابرة، لأخذ العبرة والعظة منها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

قال ابن جرير ؒ: «يقول تعالى ذكره: لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجا والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها»[٤]

وقال ﷻ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، والمعنى: «لعلهم يتفكرون تفكراً يؤدّي بهم إلى الاتعاظ»[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٢؛ وتفسير القرطبي ٩/ ١١٩.

(٢) لسان العرب ٧/ ٧٣، مادة: «قصص»؛ ومختار الصحاح، ص٥٦٠، مادة: «قصص».

(٣) ذكر هذا التعريف محقق كتاب القصاص والمذكرين، د.محمد بن لطفي الصباغ، في مقدمته، ص٤٩.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٧٥.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]، قال ابن كثير: «ما فيه مزدجر؛ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك»[(١)].

فالقصص بهذا يعتبر من أهم أساليب الوعظ متى ما انضبط بالضوابط الشرعية.

كما يمكن اعتبار القصص قسيماً للوعظ، إذ القاص والواعظ والمُذَكِّر أسماء تطلق على مسمّى واحد.

قال ابن الجوزي: «وقد صار كثير من الناس يطلقون على الواعظ اسم القاص، وعلى القاص اسم المذكر، فصار اسم القاص عاماً للأحوال الثلاثة»[(٢)(٣)].

٤ ـ الخطابة[(٤)]:

أ ـ الخطابة لغة:

الخطابة مصدر فعله خَطَبَ. قال الأزهري: «الخطْبَةَ: اسمٌ للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر، وقال الليث: الخطابُ: مراجعة الكلام، وجمعُ الخطيب خُطباء، وجمعُ الخاطب خُطاب»[(٥)].

والخُطبة عند العرب هي الكلام المنثور المسجّع ونحوه[(٦)].

ب ـ الخطابة اصطلاحاً:

وضع العلماء عدّة تعريفات للخطابة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤.

(٢) القصاص والمذكرين، ص١٦٢.

(٣) قال محمد شمس الحق أبادي: «وقد قيل إن المتكلمين على الناس ثلاثة أصناف مذكر وواعظ وقاص، فالمذكر الذي يذكر الناس آلاء الله ونعمائه ويبعثهم به على الشكر له، والواعظ يخوفهم بالله وينذرهم عقوبته فيردعهم به عن المعاصي، والقاص هو الذي يروي لهم أخبار الماضين ويسرد لهم القصص، فلا يأمن أن يزيد فيها أو ينقص، والمذكر والواعظ مأمون عليهما ذلك» عون المعبود شرح سنن أبي داود ١/ ٧١ ـ ٧٢.

(٤) ونقصد بها «الخطابة الوعظية»، أو التي يسميها البعض «خطابة دينية».

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ١١١، مادة: «خطب»؛ ومختار الصحاح، ص١٩٦، مادة: «خطب».

(٦) **انظر**: لسان العرب مادة: «خطب» ١/ ٣٦١.

ـ التعريف العام:

قيل: «هي قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأشياء المفردة»[(١)].

وعرّفها بعضهم بأنها: «فن مشافهة الجمهور للتأثير عليهم واستمالتهم»[(٢)].

فمحور الخطابة هو الإقناع.

ـ التعريف الخاص:

ويعرفّ الجرجاني[(٣)] الخطابة الوعظية أو الدينية، بقوله: «هي قياس مركّب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم، ومعادهم، كما يفعله الخطباء والوعّاظ»[(٤)].

وبهذا فإن «الخطابة الدينيّة» تعدّ في عرف الناس لوناً من ألوان الوعظ.

يقول علي محفوظ رحمه الله[(٥)]: «وقد يطلق الوعظ والإرشاد في عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية، سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية، أو العلميّة، أو الخلقيّة، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار»[(٦)].

---

(١) تلخيص الخطابة لابن رشد، ص٢٤.

(٢) **انظر**: قواعد الخطابة، د. أحمد غلوش، ص٨.

(٣) علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني: فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مصنفاً، منها: «شرح مواقف الإيجي» و«شرح السراجية» في الفرائض، و«الكبرى والصغرى في المنطق»، توفي سنة: ٨١٦هـ. **انظر**: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي ٥/ ٢٧٩.

(٤) «التعريفات»، ص٩٩.

(٥) **هو**: الشيخ علي محفوظ، الأستاذ بقسم التخصص للأزهر الشريف وعضو جماعة كبار العلماء، كان له نشاط واسع في الوعظ والإرشاد إلقاءً وتأليفاً، من مؤلفاته: «سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة»، و«الإبداع في مضار الابتداع»، و«الخطابة». **انظر**: مقدمة كتابه: «هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة»، ص٧ ـ ١٢.

(٦) هداية المرشدين، ص٩٩.

المطلب الثاني

أنواع الوعظ

الموعظة الحسنة كانت ولا زالت لسان الدعوة إلى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهي تخاطب جميع طبقات المدعوين وشرائحهم، على اختلاف مِللهم، ونحلهم، وتوجهاتهم، وآمالهم، متخذّة في ذلك أساليب متنوّعة، ووسائل متعدّدة، غايتها نصح الناس وتذكيرهم، بدفعهم إلى الخير والمعروف تارة، وزجرهم عن الشر والمنكر تارة أخرى.

فمن هذا المنطلق تعدّدت أنواع الوعظ وتباينت، بحسب مضمون الوعظ والغاية منه، وبحسب أصناف المدعوين وأساليب وعظهم.

فيمكن تقسيم أنواع الوعظ بحسب هذه الاعتبارات إلى الأنواع الآتية:

*** أولاً: أنواع الوعظ باعتبار مضمونه وغايته:**

لقد أرسل الله رسله وأنزل كتبه، لهداية الخلق ودلالتهم إلى الحق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقسط هو الحق والعدل، وهو «اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به»[(١)]، والدعوة إلى الحق والعدل هي وظيفة الدعاة إلى الله ﷻ إلى قيام الساعة.

فالوعظ بهذا الاعتبار قَسِيمٌ للدعوة الإسلامية في غاياتها ومراميها، والتي من أجلّها تعليم الناس أمور دينهم، وتقويم ما اعوجّ من سلوكهم.

---
(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٥.

كما قال تعالى مبيّناً الغاية من الوعظ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فالغاية من الوعظ، هي الإعذار إلى الله تعالى بالقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعي إلى هداية الخلق إلى الحق وإلى الرشاد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

فالوعظ بهذا الاعتبار نوعان: تعليم وتأديب.

أ ـ وعظ التعليم:

ويشتمل وعظ التعليم على أمور منها:

ـ **أوّلاً**: بيان عقيدة التوحيد، وهذا البيان هو أَجلُّ مضامين الوعظ وغاياته، بل هو أعظم واجبات الدعوة إلى الله تعالى، وهو وظيفة الأنبياء والمرسلين، وأسّ رسالتهم إلى أقوامهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله ـ في بيان مضمون الوعظ والخطب، والغاية منهما ـ: «وكذلك كانت خطبته ﷺ، إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وذكرِ الجنة، والنار، وما أعدَّ الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب مِن خُطبته إيماناً وتوحيداً، ومعرفة بالله وأيامه، لا كخُطب غيره التي إنما تُفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النَّوح على الحياة، والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يُحصِّلُ في القلب إيماناً بالله، ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة، غير أنهم يموتون، وتُقسم أموالهم، ويُبلي الترابُ أجسامهم، فيا ليت شعري أيّ إيمان حصل بهذا؟! وأيِّ توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به؟!»[(١)].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية ١/ ٤٠٩.

وبهذا ندرك عظم الخطأ الذي وقع فيه بعض الوعاظ اليوم، حين انحرفوا عن هذا الأصل وحادوا عنه، فلا تكاد تجد في وعظهم تأسيساً للتوحيد في نفوس الناس، ولا تصحيحاً للأخطاء العقدية التي يقع فيها كثير من الناس.

- **ثانياً**: بيان الأحكام الشرعية الخمسة، من الواجب والحرام والمسنون والمكروه والمباح، مقرونة بحكمة التشريع البالغة، ومشفوعة بالحث على التمسك بها، والتحذير من التهاون فيها.

ويأتي اقتران الوعظ بالتعليم في نصوص كثيرة من الكتاب والسنّة.

ففي القرآن الكريم كثيراً ما تقرن الأحكام بالعظة ترغيباً وترهيباً، كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]؛ أي: «يعظكم بما ذكره في هذه الآية، مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير»[١].

ومنه قوله تعالى - في معرض ذكر أحكام الطلاق -: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وفي سورة الطلاق: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، والمعنى: أنّ الذي تقدّم من الأحكام والحدود المقرونة بالحِكَم والمشفوعة بالوعد والوعيد، يوعظ به أهل التصديق بالله وبيوم الجزاء على الأعمال، فهؤلاء هم الذين يتقبلونه ويأتمرون به وينفعلون له، فتخشع قلوبهم ويسارعون للعمل به[٢].

ويأتي ذكر الوعد والوعيد عقيب ذكر الأحكام الشرعية، وهذا من أجل الاتعاظ والاعتبار والامتثال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٦٣؛ وفتح القدير ٣/ ١٨٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ١٣٧؛ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٨٣.

حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣]، فإنّ الأمر بالتقوى بعد النهي عن إتيان النساء في المحيض، والأمر بإتيانهن في موضع الحرث، والأمر بالتقديم لأنفسنا، تحذير من مثل مخالفة هذا الهدي الإلهي، فذكّر الله عباده بلقائه يوم لا ينفع مال ولا بنون، وبشّر الممتثلين لحكمه، وهذا كلّه شحذاً للهمم ودفعاً للنفوس إلى امتثال أمر ربها، فالوعظ بهذا يعدّ من أعظم الوسائل التي تدفع النفوس إلى قبول حُكْمِ الله ﷻ وامتثال أمره.

ومن تدبّر أسلوب القرآن الحكيم، علم أنّ أحكام الدّين حتى المعاملات منها ينبغي أن تساق إلى الناس مساق الوعظ الذي يلين القلوب ويبعثها على العمل، لا أن تسرد سرداً خالياً من وسائل التأثير.

فكثيراً ما يأتي الوعظ في القرآن مراداً به الأمر والنهي؛ «لأن ضابط الوعظ: هو الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيه، فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم امتثاله وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله، وإذا سمعوا النهي خافوا سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه، فحداهم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً»(١).

كما أنّ امتثال العبد لأوامر ربه واجتنابه نواهيه، من أكبر الأسباب التي تليّن القلوب وتهذّب النفوس، يقول الله ﷻ عن الصلاة ـ وهي آكد ما أمر الله به عباده ـ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي السنّة المطهّرة اقترن الوعظ بالتعليم أيضاً.

---

(١) أضواء البيان ٣/٣٤٩ ـ ٣٥٠.

حيث وردت أحاديث تبيّن أنّ وعظ الجاهل يكون بالتعليم وبيان الأحكام الشرعية.

فمن ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «**قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن..**»[١].

والمقصود بالوعظ هنا: التعليم، كما صرّح بذلك الإمام البخاري في صحيحه فقال: «باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم»[٢].

ومنه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «أنّ رسول الله ﷺ استند إلى بيت فوعظ الناس وذكّرهم قال: «**لا يصلي أحد بعد العصر حتى اللّيل ولا بعد الصبح حتى تطلع الشمس...**» الحديث[٣].

فالوعظ في هذا الحديث جاء ببيان بعض الأحكام المتعلقة بالصلاة، وبسفر المرأة.

ومن ذلك حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ـ في المفاضلة بين من هاجر إلى الحبشة ومن هاجر إلى المدينة ـ وفيه: «**قالت أسماء بنت عميس لعمر بن الخطاب: كلّا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنّا في دار ـ أو في أرض ـ البعداء الحبشة...**» الحديث[٤].

فدلّ الحديث على أنّ وعظ الجاهل يكون بالتعليم وبيان الأحكام الشرعية.

فالوعظ بهذا يعدّ من طرائق التعليم، بل إنّ التعليم لا يؤتي أكله ولا يثمر الاستجابة والقبول من العبد، إلّا إذا سيق مساق الوعظ.

---

(١) تقدّم تخريجه، ص٥٩.
(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٩٥.
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٨٢ رقم (٦٤٢٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: رواته كلهم ثقات.
(٤) متفق عليه، البخاري ٧/ ٤٨٤، ٤٨٥ كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم (٣٩٠٥)؛ ومسلم ١٦/ ٦٤ ـ ٦٦ كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس، رقم (٤٥٥٨).

وكانت عناية السلف بهذا الجانب من الوعظ عظيمة جداً، بلاغاً وامتثالاً، فكانوا رحمهم الله، أشدّ النّاس حِرصاً على الوقوف عند حدود الله، مع الاجتهاد في امتثال كلّ ما أمر، واجتناب كل ما نهى عنه وزجر، والشواهد على ذلك كثيرة جداً، وسيأتي ذكر طرف منها في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

كما كانت عنايتهم بتعليم الناس وإرشادهم ودلالتهم إلى الحق، كبيرة جداً، بذلوا في ذلك زهرة الأوقات ونفيس الأقوات، وقطعوا الفيافي وجابوا الأمصار، ونشروا العلم وذادوا عن حياض هذا الدين، وردّوا شبه المغرضين، وكشفوا دسائس المارقين والحاقدين، كلّ ذلك مع كمال الاحتساب، وعظيم الرجاء من ربّ الأرض والسماء، شعارهم في ذلك: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

ب ـ وعظ التأديب:

وهذا النوع يعدّ الميدان الرحب الواسع للوعظ، وهو المشتهر بين الناس، والنفوس إليه أميل، والدعاة إليه أقبل.

ومفهوم الأدب يشمل أدب العبد مع ربه ورسوله، وأدبه مع نفسه، وأدبه مع عموم الخلق(١).

وجماع الأدب، تزكية النفس وتهذيب الأخلاق، والأنبياء أتوا بتزكية النفوس وتهذيبها، وتطهير الأخلاق من الرذائل(٢).

ـ فأمّا تزكية النفس، فهي أكثر أنواع الوعظ اشتهاراً، وإذا أطلق الوعظ، انصرف في الغالب إلى تزكية النّفوس وترقيق القلوب.

وتزكية النفس من أعظم الأعمال خطراً وأقواها أثراً؛ لأنها تتعامل مع القلوب، وفي صلاح القلب صلاح الجوارح وفلاح العبد وسعادته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٨٤ ـ ٣٩٠.
(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٢٣٩.

مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. ويقول نبيّ الهدى ﷺ: **«ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»**(١).

وتزكية النفس من أكثر أنواع الوعظ التي حصل فيها الاضطراب قديماً وحديثاً، بين المغالي والجافي، بين دعاة العزلة والرهبنة، ودعاة التحرر وعبدة الشهوات، كما كثر في هذا الباب الزغل ودست فيه الأحاديث المكذوبة والروايات الملفّقة بدعوى أنّه ليس في هذا الباب تحريم حلال أو تحليل حرام، ونسي هؤلاء أنّ الله قد أكمل دينه وأتمّ شريعته، وما ترك في كتابه الكريم، ولا في سنّة سيد المرسلين، أمراً فيه خيرٌ إلا دعا إليه عباده بأفضل الطرق وأسلم الوسائل، وقُلْ مثل ذلك فيما فيه شر ومضرة على العباد، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال في تمام سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولذلك سيأتي التركيز في هذه الرسالة على هذا النوع من الوعظ، فلذا سأرجئ التفصيل فيه إلى حينه وبالله التوفيق.

وأما الدعوة إلى مكارم الأخلاق فهي من أسس دعوة النبي المصطفى ﷺ، يدلّ على ذلك قوله ﷺ: **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**(٢).

فينبغي لكلّ داعية حصيف أن يدرك، أنّ وعظ التأديب والدعوة إلى

---

(١) متفق عليه، البخاري ٢٨/١، كتاب: الإيمان، باب: من استبرأ لدينه وعرضه، رقم (٥٢)؛ ومسلم ١٢١٩/٣ كتاب: المساقاة والمزارعة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٣٢؛ وأحمد في مسنده ٢/ ٣٨١؛ والبخاري في الأدب المفرد، ص٢٧٣؛ وفي التاريخ الكبير ١٨٨/٧؛ والحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٣، وصححه على شرط مسلم؛ ووافقه الذهبي؛ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٦٩٠ بلاغاً؛ وقال ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، وهذا حديث يتّصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ.

الأخلاق، هي أساس هذا الدين وركنه المتين، ولا يمكن لأمّة أن ترتقي في سلم السؤدد والتمكين، إلّا إذا حافظت على هذه الأسس الأخلاقية.

كما يقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا(١)

وينبغي للداعية - في مقام وعظ التأديب، والدعوة إلى مكارم الأخلاق -، مراعاة أمور ثلاثة:

أولها: التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل ظاهراً وباطناً، وإلا كان ممن توعّدهم الله - تعالى - بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، ولأن النفوس لا تقتدي إلا إذا رأت موافقة الأقوال للفعال، ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

والثاني: بذل الوسع والنصح، في دعوة الناس إلى فضائل الأخلاق، واجتناب رذائلها، بدءاً بالأقربين فمن بعدهم، وقد قص الله عز وجل قصة لقمان وموعظته لابنه، وخصّ تعالى من جملة ما وعظ لقمان به ابنه دعوته إياه إلى التوحيد وإلى الأخلاق، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩].

والثالث: ينبغي للداعية أن يؤصل دعوته الأخلاقية، من خلال الاستشهاد والاسترشاد بنصوص الكتاب والسنّة، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأحوالهم في ذلك رضي الله عنهم أجمعين، فإن لهذا شأناً عظيماً لا يستهان به في الوصول إلى الغاية والمأمول.

---

(١) البيت لأمير الشعراء أحمد شوقي، الشوقيات، ص٩٧.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تعرّف بمكارم الأخلاق، وتبيّن فضلها، وعظيم أجر من تخلق بها، كما تذكر الآيات مساوئ الأخلاق على سبيل الذمّ، وسوء عاقبة من تلبّس بها.

كما في سورتي الحجرات والنور وغيرهما، بل إنّ تأسيس الأخلاق بدأ في مرحلة متقدّمة من الدعوة المحمديّة، كما هو الشأن في سور الإسراء، ولقمان، والقلم، وهي سور مكيّة.

ومن ذلك تمثيلاً لا حصراً، قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فجعل الدعوة إلى العدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر من الوعظ، والمقصود به هنا وعظ التأديب.

ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إلى قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

فهذه الآيات جاءت مقرّرة وداعية إلى جملة من أخلاق عباد الله المؤمنين حقّاً؛ كخلق التواضع، وترك المراء، وخلق التوسط في الإنفاق، وخلق الصبر والأمانة، كما جاء فيها التحذير من مساوئ الأخلاق، كشهادة الزور، والإسراف والإقتار في الإنفاق.

وكذا الشأن في سنّة المصطفى ﷺ، فقد تمثلّ صلوات الله وسلامه عليه الأخلاق الفاضلة في سلوكه وحياته، في منامه ويقظته في غضبه وفرحه، ودعا الناس إليها بلسان حاله ومقاله، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم أخلاقاً، وخياركم خياركم لنسائهم**»(١).

وقوله ﷺ: «**لا تحقرنّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**»(٢).

وأما سيرة السلف وآثارهم فهي من الكثرة بمكان، فإنّ القوم قد تمثلوا كتاب الله وسنّة نبيّه في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، قال تعالى واصفاً صحابة رسوله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عن التابعين لهم بإحسان: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وسيأتي الحديث عن أخلاقهم وفضائلهم في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

* ثانياً: أنواع الوعظ باعتبار أصناف الموعوظين:

إنّ من أبرز خصائص الدعوة الإسلامية، شمولها وعمومها، فهي رسالة عامة للثقلين، موجّهة لكافة الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأهوائهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، وجاء في حديث جابر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت**

---

(١) رواه الترمذي ٣/٤٦٦، كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في إكثار المرقة، رقم (١٧٥٦)؛ وابن حبان في صحيحه ٩/٤٣٨ كتاب: النكاح، باب: ما جاء في عشرة النساء رقم (١٣٠٨)؛ والحاكم في المستدرك ١/٤٣، رقم (٢)، وقال هذا حديث صحيح ولم يخرج في الصحيحين وهو على شرط مسلم.

(٢) رواه مسلم ٤/٢٠٢٦، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم (٢٦٢٦).

لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[١].

وهذه الخصيصة تشمل الوعظ باعتباره وسيلة دعوية، فالواعظ يخاطب عموم المدعوين، يخاطب الكبير والصغير، الرجل والمرأة، العالم والجاهل، التقي والفاجر، المؤمن والكافر، الراعي والرعيّة، ولا شك أنّ لكل صنف من هؤلاء خصائص تميّزه عن غيره، ومن ثمّ لا بد أن يتمايز الخطاب الموجّه لكل صنف منهم.

ولقد ذكر الله تعالى في كتابه دعوة الأنبياء لأقوامهم، ووعظهم لهم، ثمّ خصّ بالذكر، وعظ الأنبياء لشرائح معينة من المدعوين؛ كالملوك والسلاطين، كما في قصة موسى وهارون مع فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

ووعظ الأغنياء والمتكبرين، كما في قصة قارون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

ووعظ الأبناء والمقربين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ووعظ الأخيار والمصطفين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

---

(١) متفق عليه: البخاري ١/١٢٨، كتاب الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، رقم (٤١٩)؛ ومسلم ١/٣٧٠، كتاب الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله، رقم (٣٦٥٩).

ووعظ الكفار والمنافقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣].

وفي السنّة المطهّرة، خصّ النبي ﷺ النساء بالوعظ يوم العيد وفي أيام مخصوصة، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «**قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن..**»[(١)]، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما - في خطبة العيد -، وفيه: «... **ثم أتى النساء فوعظهن وذكّرهنّ وأمرهنّ أن يتصدقنّ**»[(٢)].

كما خصّ الشباب بالوعظ أيضاً، في مثل حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...**» الحديث[(٣)].

ووجّه رسائل الدعوة والوعظ إلى الملوك، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كتب النبي ﷺ إلى كلّ جبار يدعوهم إلى الله»، وسمّى منهم كسرى وقيصر والنجاشي، قال: وليس النجاشي الذي أسلم[(٤)].

ولقد سار السلف الصالح رحمهم الله على نهج القرآن والسنّة، فنقلت إلينا كتب التراجم الكثير من مواعظهم الموجّهة إلى شرائح معيّنة من المدعوّين؛ كالملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، والقرابة والأبناء، والرجال والنساء، وسيأتي في ثنايا البحث ذكر نماذج من هذه المواعظ، والله الموفق.

- ومما يدلّ على ضرورة تمايز الخطاب الوعظي، أنّ لكل صنف من

---

(١) تقدّم تخريجه، ص٥٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢٩٥، كتاب: العلم، باب: عظة الإمام النساء وتعليمهن، رقم (٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٦٧، رقم (٢٤٤٠) وقال: حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده ٢٦٦، ٢٦٢٧، ٢٥٣٧؛ والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٢٤، رقم (٦٣٠٤).

(٤) رواه مسلم ٣/ ١٣٩٧، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ، رقم (٣٣٢٣).

المدعوين خصائص تميّزه عن غيره، كما أنّ المدعو نفسه تتغير حاله من بيئة لأخرى ومن زمن لآخر، بل ومن ساعة لأخرى.

فللمدعو ثلاث حالات[١]:

- إما أن يكون راغباً في الخير مقبلاً عليه، لكنه قد يجهله ويخفى عليه.

- أو أن يكون عنده فتور وكسل عن الخير أو إقبال ورغبة في الشر.

- أو أن يكون عنده إعراض عن الخير، واندفاع إلى الشر ومحاجة في ذلك.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وذلك لأن الإنسان له ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده.

فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به، والثاني أن يعرفه لكن نفسه تخافه فلا توافقه على العمل به، والثالث من لا يعرفه بل يعارضه، فصاحب الحال الأول: هو الذي يدعى بالحكمة فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيدعون، بالحكمة والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة فهاتان هما الطريقان الحكمة والموعظة، وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا، فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة والى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا»[٢].

فلا بد من مراعاة حال المدعو في ذلك، وتكييف الموعظة مضموناً وأسلوباً بحسب إقبال المدعو وإعراضه، ونشاطه وفتوره، وهذه حال الناس جميعاً كما قال النبي ﷺ: **«إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان**

(١) «مفتاح دار السعادة»، لابن القيم ١/ ١٥٣؛ و«الصواعق المرسلة» ٤/ ١٢٧٦.

(٢) الرد على المنطقيين، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٤٦٨؛ **وانظر**: مجموع الفتاوى له ٢/ ٤٥.

صاحبها سدّد وقارب فأرجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه»[(١)].

كما أنّ المدعوين يتباينون في سماتهم، بين معاند مكابر، وبين غافل ضال، بين مستغرق في الشهوات، وآخر قد أعمت بصيرته الشبهات، ولا شك أنّ الموعظة تشمل هؤلاء جميعاً، إما تعليماً أو تأديباً أو تأسيساً أو تفنيداً، وعلى ضوء ذلك يتغير مضمون الموعظة وأسلوبها[(٢)].

*** ثالثاً: أنواع الوعظ باعتبار مصادره وأساليبه:**

يذكر ابن القيم ﵀: «أنّ الموعظة نوعان ـ باعتبار مصادرها وأساليبها ـ: العظة بالمسموع، والعظة بالمشهود.

أ ـ فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل ﵈، وما أوحى إليهم، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

ب ـ والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالّة على صدق رسله»[(٣)].

فقد ذكر ابن القيم ﵀، وسيلتين للموعظة الحسنة، وسيلة سمعية، ووسيلة بصرية، وذلك لأنّ السمع والبصر هما منفذا القلب وموارده، وبهما يحصل تأثر القلب والجوارح معاً، سلباً وإيجاباً، إقداماً وإحجاماً، إقبالاً ونفوراً، ولذا ذمّ الله في كتابه الكريم من لم ينتفع بسمعه وبصره انتفاع هداية، فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»؛ وله شاهد عند أحمد ١١/ ٩٨ (٦٤٣٧).

(٢) سيأتي الحديث عن خصائص كلّ صنف من المدعوين وكيفية وعظهم في الفصل الخامس من هذا البحث، ص٦٦١ إن شاء الله.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٤٤.

﴿أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، كما جعل ﷻ من شروط الانتفاع بالذكر، إلقاء السمع وشهود القلب، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ومن خلال ما ذكره ابن القيم رحمه الله آنفاً، يمكن تقسيم الموعظة باعتبار مصادرها وأساليبها إلى أقسام وهي:

أ ـ العظة بما جاء في كتاب الله عز وجل[1]:

لقد سمّى الله كتابه الكريم موعظة، لما أودع فيه من العظات التي تليّن القلوب وتشفي الصدور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فكتاب الله هو أعظم مصادر الوعظ التي ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن لا يحيدوا عنها وأن لا يرضوا عنها بديلاً.

وتأتي الموعظة في القرآن الكريم، في صور وأشكال متعددّة.

١ ـ في صورة الأمر والنهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

٢ ـ وفي ذكر قصص الأنبياء والأمم الغابرة عظة للمتّعظين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣ ـ وتأتي أيضاً بذكر الوعد والوعيد، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

٤ ـ أو بضرب الأمثال، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وغيرها من الصور.

---

(١) سيأتي مزيد بيان لهذا المطلب، في الفصل الأول من هذا البحث، ص١٠٢، إن شاء الله تعالى.

ب ـ العظة بما جاء على لسان الرسل عليهم السلام:

والمقصود به لسان الحال والمقال، وقد كان الوعظ لسان دعوة الرسل عليهم السلام وأسلوبهم الأنجع في قرع القلوب وتهذيب النفوس، كما قال تعالى ـ مخبراً عن دعوة هود عليه السلام، لقومه عاد ـ: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، وقال عز وجل على لسان نبيّه نوحاً عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وسنّة نبينا صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، قد حفلت بالمواعظ، بل إنّ مدار خطبه صلى الله عليه وسلم على الوعظ وتقرير أصول الإيمان وتحبيب الخلق إلى خالقهم، واتّخذ النبي في ذلك أساليب متعدّدة؛ كالقصة وضرب الأمثال وطرح السؤال وغيرها من الأساليب(١).

ج ـ العظة بكلام وأحوال الناصحين والمرشدين:

وعلى رأسهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة الإسلام، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

والأقسام الثلاثة المتقدّم ذكرها، وهي: العظة بكلام الله، وبما جاء على لسان رسله، والعظة بأقوال الناصحين، هذه الأقسام تتّخذ من وسيلة القول أداة لإيصال الموعظة إلى عموم الموعوظين.

ووسيلة القول لها أساليب متنوّعة ومتعدّدة؛ كالوعظ بالترغيب والترهيب، والوعظ بضرب الأمثال، والوعظ بالقصة المؤثرة.

د ـ العظة بمشاهدة مواقع العبر وأحكام القدر:

وموقع المشاهدة والعبرة، إما أن يكون في التفكر والتبصّر في خلق الله عز وجل، وإما أن يكون بالاعتبار من مشاهدة آثار الأمم السابقة وما حلّ بهم بسبب جحودهم وإعراضهم، أو بما يحدثه الله في كل وقت وآن.

فيندرج تحت هذا الصنف من العظة أنواع، منها:

(١) سيأتي مزيد بيان لهذا المطلب، في الفصل الأول من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

١ ـ العظة بالمُشَاهَد من آيات الخَلْق:

فمن الآيات الأفقيّة والأرضية[١] ما نراه في الأرض والسماء، وفي الأنفس والآفاق، من زيادة ونقصان، وإحياء وإماتة، وصحة وسقم، ومن خلق وتصوير، وتصريف وتدبير، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وفي هذا النوع من العظة يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ حصول التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختياراً ومشيئة فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئاً بعد شيء من أظهر الدلالات.

وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

٢ ـ العظة بمآل الأمم السابقة:

فمشيئة الله النافذة وحكمته البالغة وسنّته الثابتة، اقتضت مجازاة المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسرف الظالم على تقصيره وعدوانه، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وذكرى للمعتبرين تحكي مصارع الظالمين وسوء منقلب المسرفين، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولا يزال الناس يبصرون ويشاهدون نهاية الظالمين، وفي هذا عبرة وعظة لمن أراد الله أن يهديه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالآيات أفقية وأرضية وقرآنية وهي أدلة العلم»، مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٨٥.

أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٦].

ـ العظة بما يحدثه الله في الأرض في كلّ وقت:

«فمن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم وأدلة نبوتهم يحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لا بد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر فنبه باليسير منها على الكثير»(١).

• ومن خلال هذا العرض يتبيّن لنا أنّ خطاب الوعظ شامل، واسع الأفق، فهو خطاب تأديب وتعليم، موجّه لعموم الخلق مؤمنهم وكافرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

شامل في مصادره وأساليبه، فهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله، وكلام الناصحين من الأنبياء والصدّقين، يعظ بالمشهود تارة، وبالمتلوِّ تارة أخرى.

(١) التبيان في أقسام القرآن ١/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

المطلب الثالث

أهمية الوعظ في مجال الدعوة إلى الله تعالى

لا ريب أنّ للموعظة الحسنة، أهميّة بالغة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، سواء اتّخذت صفة النصح أو التذكير أو الترغيب والترهيب، أو غير ذلك من صفات وأساليب الموعظة الحسنة[(١)].

وتتّضح أهميّة الموعظة، من خلال: عِظَم مكانتها، وقُوَّةِ أثرها، وتنوّع أساليبها.

* أولاً: أهمية الوعظ باعتبار عظم مكانته:

من أوضح الأمور الدالّة على أهميّة الموعظة الحسنة في مجال الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ، عظم مكانتها في الدّين، ومما يبيّن ذلك، أمور منها:

أ ـ احتفاء القرآن الكريم بالموعظة وعنايته بها، وهذا من أعظم الأمور الدالة على عظم مكانة الموعظة وأهميتها في الدعوة إلى الله.

ـ فقد سمّى الله تعالى كتابه الكريم موعظة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

ـ كما كثر مجيء الموعظة في القرآن الكريم، في صور متعدّدة، إما في صورة النصح والتذكير، أو بضرب الأمثال، أو بإيراد القصص ومواطن العبر، أو بالترغيب والترهيب، وإلى غير ذلك من الصور التي سبق ذكر طرف منها.

---

(١) **انظر:** «وسائل الدعوة»، لـ أ.د عبد الرحيم بن محمد المغذوي، ص٧١.

ـ وجاء الأمر الصريح من الله ﷻ في كتابه الكريم، باستعمال الموعظة في الدعوة إلى الله تعالى، فقال جلّ جلاله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

ب ـ احتفاء السنّة المطهّرة بالموعظة الحسنة، قولاً وفعلاً.

ـ فقد ثبت أنّ النبي ﷺ كان يباشر الموعظة، ويتخوّل أصحابه بها[١]، فكان يعظ الناس في الجمع والأعياد، وفي الاستسقاء والنوازل وغيرها من المواطن، يعظ الكبير والصغير، العالم والجاهل، الرجل والمرأة[٢].

ـ كما كان ﷺ يحثّ على تذكير الناس ونصحهم، ويرغب في ذلك، ويجعله من مهمات الدين ولوازمه، حيث جعل النصيحة أساس الدين، فقال: «**الدين النصيحة**»[٣]، والنصيحة مرادفة للوعظ كما سبق بيانه.

ـ ومن ذلك مبايعة النبي ﷺ الصحابة عليها، كما في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم**»[٤].

ـ كما كان النبيّ ﷺ يرسل الوعّاظ إلى الأمصار، من أجل تعليم

---

(١) كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا»، متفق عليه، البخاري ١/ ٣٩، كتاب: العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، رقم (٧٠)؛ ومسلم ٤/ ٢١٧٢، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٢٨٢١).

(٢) فقد خص النبي ﷺ النساء بالوعظ في الأعياد، وجعل لهنّ يوماً يعظهن فيه ويعلمهن، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. **انظر**: ص٨٣ من هذا البحث.

(٣) متفق عليه، البخاري ١/ ٣٠، كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، رقم (٨٢)؛ ومسلم ١/ ٧٤، كتاب الإيمان، باب: بيان أنّ الدين النصيحة، رقم (٨٢).

(٤) متفق عليه، البخاري ١/ ٣١ كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، رقم (٥٥)؛ ومسلم ١/ ٧٤، كتاب الإيمان، باب: بيان أنّ الدين النصيحة، رقم (٨٣).

الناس وتذكيرهم، حيث أرسل معاذاً وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن، فقال لهما: «**بشرا ولا تنفرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»(١)، وقال لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله لليمن: «**إنّك تقدّم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس**»(٢).

ج ـ الوعظ هو وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ومن على سننهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعظماء المجاهدين، فقد اختار الله لهذه المهمّة خيرة خلقه وصفوة عباده، فإنّهم إنّما بعثوا لهداية العالم وسنّ طريق السعادة للناس في الدارين، بتعليمهم عند الجهالة، وإيقاظهم من الغفلة، ووقفهم عند حدود الأدب، عند التمرّد لينقذوهم من حضيض الجهل والرذيلة، إلى ذروة العلم والفضيلة(٣).

فأخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنّه قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وعن هود عليه السلام قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

د ـ والوعظ مسلك السلف رحمهم الله في استكمال تربيتهم لأنفسهم، ولهذا فاضت سيرهم بالقيام بهذا الركن من أركان بيعتهم الإيمانية، فكانت عنايتهم بالوعظ كبيرة جداً، فكم نقلت إلينا كتب التراجم والرقائق من

---

(١) متفق عليه، البخاري ٦/ ١١٣: كتاب: الجهاد، باب: باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب؛ ومسلم ٣/ ١٣٥٩، كتاب: الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣).

(٢) متفق عليه، البخاري ٢/ ٥٢٩، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٣٦٥)؛ ومسلم ١/ ٥١، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (٢٨).

(٣) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ص٧٢ ـ ٧٣.

مواعظهم التي فتحت القلوب المقفلة، وألانت الأفئدة القاسية، ونقلت الأنفس من غياهب الجهل والرذيلة إلى أنوار العلم والفضيلة.

قال صاحب المنار: «فالنصح العام ـ الوعظ ـ ركن من الأركان المعنويّة للإسلام، به عزّ السلف وبزّوا، وبتركه ذلّ الخلف وابتزّوا»(١).

هـ ـ وممّا يدللّ أيضاً على عظم مكانة الموعظة، أنّها «من سمات المجتمع الإيماني وميزاته التي تميّزه عن غيره من المجتمعات الأخرى»(٢)، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [الطلاق: ٢].

و ـ والموعظة خصيصة من خصائص المتّقين، يتناصحون بها وينتفعون(٣)، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

ز ـ تعدّ الموعظة الحسنة، من أبلغ وأفضل صور التواصي بالحق، الذي وصف الله به عباده المفلحين، حيث قال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

* ثانياً: أهمية الموعظة باعتبار تنوّع أساليبها:

والموعظة الحسنة تميّزت بكثرة أساليبها، وتنوّع أشكالها، وسهولة عبارتها.

أ ـ الموعظة الحسنة تتنوّع في أساليبها ووسائلها، مراعية في ذلك

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا ١٠/٥٨٧. (٢) وسائل الدعوة، ص٦٦.
(٣) وسائل الدعوة، ص٦٦.

مقام الموعوظ وما يقتضيه حاله، وهذه الخصيصة تفتح للداعية أفقاً واسعاً وميداناً رحباً، يتخيّر من خلاله أنسب الوسائل وأنجع السبل، لوعظ الناس وتذكيرهم.

ب ـ كما أنّ الموعظة الحسنة، تمتاز بسهولة عبارتها، ويسر أسلوبها، ممّا يجعلها أنفذ للقلوب، وأوقع في النفوس، ولذلك كثر الوعاظ من الناس، وعمّ نفعهم القاصي والداني.

ج ـ الموعظة الحسنة، من أعظم أساليب الدعوة أثراً، وأكثرها ثماراً، وأوسعها انتشاراً.

- لأنّ الموعظة الحسنة تخاطب أشرف شيء في الإنسان وهو قلبه وروحه، وبصلاح القلب يصلح سائر البدن، كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

- ولأنّ الموعظة لها أثر عجيب في تهذيب النفوس وإصلاح القلوب، فالقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفئ نورها، وقد يفقدها حياتها، وذلك بورودها موارد الغي والضلال، وانهماكها في اللذات والشهوات، والتهاون بالأوامر والنواهي، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور، وسيئات البدع، ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمديّة.

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ولا دواء لهذه الأدواء إلا مراهم الشريعة الغراء، المركبة من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح، من الكتاب والسنة، فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصحّ النفوس، وتسلم القلوب من المخاطر، وترجع من غيّها إلى رشدها، وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوي.

---

(١) متفق عليه، البخاري ٢٨/١ كتاب: بدء الوحي، باب: فضل من استبرأ لدينه رقم (٥٢)؛ ومسلم ١٢١٩/٣، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (٢٩٩٦).

وبالوعظ والتذكير تتهذّب النفوس وتنتبه العقول من غفلتها، وتستيقظ من رقدتها، وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي.

وفي هذا السياق يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «اعلم أنّ الطباع لمّا خلقت مائلة إلى حب الشهوات المردية، والبطالة المؤذية، افتقرت إلى مقوّم، ومثقف، ومحذّر، فهي في ضرب المثل كالماء يجري بطبعه، فإذا رُدَّ بسَكْر وقف عن جريانه ثم أخذ يعمل في فتح طريق، فكما ينبغي أن يتعاهد ذلك السَكْر بالإحكام فكذلك ينبغي أن تتعاهد الطباع بالزواجر، ولا ينبغي أن يطول أمد التعاهد، فإن عمل الماء في باطن السكر دائم وإن خفي، وكذلك الطباع في ميلها إلى ما يؤذيها»[١].

د ـ وعموم الخلق ينتفعون بالموعظة، خاصة العوام، «لذا تجد في الناس استعداداً لسماعها والإنصات إليها، والجلوس حول الواعظ بدون ضجر أو ملل، مع ما في ذلك من تعطيل لكثير من مصالحهم الدنيوية، وهذا كلّه راجع لما في الموعظة من خير وبشرى للناس، وأخذ بأيديهم إلى طريق الحق والصواب، وهداية لمنافع الدنيا والآخرة»[٢].

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وقد كان العلماء كلّهم يذكّرون بفتاويهم وعلمهم، غير أنّ القصّاص ترسّموا بهذا الأمر لخطاب العوام، فالعوام ينتفعون بهم ما لا ينتفعون بالعالم الكبير»[٣].

هـ ـ ومن عظيم أثر الموعظة، أنّ الإسلام فتح البلاد والحصون بالموعظة والكلمة الطيّبة، ذلك لأنّ القلوب متى ما لانت وأذعنت انقاد لها سائر الجوارح.

وما كان الوعظ شائعاً في بيئة إلا صلحت وأصلحت، وعرف الناس المعروف وأمروا به، وعلموا المنكر ونهوا عنه، وبذلك ينزل الله تعالى رحمته وفضله، فيعمّ العلم والمحبّة والوحدة والقوة والتواضع والبذل

---

(١) **انظر**: القصاص والمذكرين، ص١٧٥. (٢) وسائل الدعوة، ص٧٢.

(٣) القصاص والمذكرين، ص١٧٦.

والإيثار، إذ النفوس زاكية والعيون باكية والقلوب وجلة والألفة ظاهرة والأرواح طاهرة صافية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

و ـ تعدّ الموعظة ضرورة أكيدة لحفظ الدين واستمراره وسلامة شرائعه ومبادئه، وإهمالها يؤذن بزواله واندراسه وضعفه واندثاره، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**»[١]، فجعلها الدين كلّه، قال المناوي: «قال غير واحد من العلماء هذا «الحديث» ربع الإسلام»[٢]، قال النووي: «بل المدار عليه وحده»[٣].

ز ـ الموعظة من أكبر أسباب الهداية ـ بعد توفيق الله تعالى ـ، وقد جاءت النصوص مبيّنة عظم هذا الأثر، ومن ذلك قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**»[٤].

وقوله ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر، مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئاً**»[٥].

فلا شك أنّ الموعظة من أجلّ العبادات وأفضل القربات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنّ أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه»[٦].

وقد سئل عبد الله بن المبارك[٧] رحمه الله: «أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله»[٨].

---

(١) تقدّم تخريجه ص٩١.
(٢) فيض القدير للمناوي ٣/ ٥٥٥.
(٣) شرح صحيح مسلم ١/ ٣٧.
(٤) رواه مسلم ٤/ ١٨٧٢، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٦).
(٥) رواه مسلم ٤/ ٢٠٦٠، كتاب: العلم، باب: من سنّ سنّة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى، رقم (٤٨٣١).
(٦) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦١٥.
(٧) عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمٰن الحنظلي، الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الحديث في وقته، الحافظ الغازي أحد الأعلام، صاحب التصانيف والرحلات، توفي سنة (١٨١هـ)؛ سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٧.
(٨) «جامع العلوم والحكم لابن رجب» الحنبلي ١/ ٢٢٥.

ك ـ الموعظة وسيلة من وسائل محاصرة الفساد، ومنع انتشاره واستفحاله.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كم من مبتعدٍ عن الجادّة، تكفيه في العودة إليها نصيحة ناصح، أو وصية زاجر، فإذا هو راجع إلى رشاده»[1].

● فإذا أدرك الداعية والواعظ أهمية الموعظة، وعلم أنّها خطاب القرآن والسنة، والأنبياء كافّة لهداية الخلق، وعلم أنّه متى أجاد هذه الوسيلة الدعوية، وأحاط علماً بأركانها وشروطها وآدابها ووسائلها، كان ذلك سبيلاً لنجاح دعوته، وانتفاع الموعوظين بها.



(١) نقلاً عن كتاب: «الرائد، دروس في التربية والدعوة» لمازن بن عبد الكريم الفريح ١٦/٤.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الأول

أسس ومصادر ومجالات الوعظ عند السلف

ويتضمّن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مصادر الوعظ عند السلف.

المبحث الثاني: أسس ومجالات الوعظ عند السلف.

المبحث الثالث: خصائص الوعظ عند السلف.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

مصادر الوعظ عند السلف

وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: القرآن الكريم.

المطلب الثاني: السنة النبويّة.

المطلب الثالث: آثار السلف.

المطلب الأول

القرآن الكريم

إنّ من قواعد السلف الثابتة وأصولهم الراسخة، أنّهم لا يتلَقَّون علومهم ومعارفهم إلا من الكتاب والسنة، مسترشدين بفهم الصحابة والتابعين لهذه النصوص، وقد استُصحِب هذا الأصل في وعظهم وتذكيرهم.

ولا يخفى على كلّ ذي لبّ أنّ القرآن الكريم هو المصدر الأوّل للدعوة الإسلامية، وهو الركن الركين الذي يستمدّ منه الدعاة إلى الله منهج دعوتهم وأساليبها ووسائلها وأهدافها في كل العصور، بل إنّ الدعوة الإسلامية تستمد خلودها وبقاءها ونقاءها من خلود القرآن العظيم وحفظ الله له، إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد أدرك السلف رحمهم الله هذا الأمر، فجعلوا من القرآن الكريم مصدراً لدعوتهم ووعظهم وتذكيرهم، منه ينهلون وبنوره يستضيئون، وعلى نهجه يسيرون.

* أوّلاً: تعريف القرآن الكريم:

١ ـ القرآن في اللغة:

اختلفت آراء اللغويين حول أصل كلمة (القرآن) وتنحصر تحت اتجاهين اثنين:

ـ الاتجاه الأول: أنّ القرآن اسم علمي لكتاب الله تعالى، وأنّه غير مشتق.

ـ الاتجاه الثاني: أنّ لفظ القرآن مشتق، واختلفوا في مصدره على ثلاثة وجوه:

أ ـ إمّا من قرأ بمعنى تلا، وسمّي بالمقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر.

ب ـ أو أنّه وصف مشتق من القرء، بمعنى الجمع[١].

ج ـ أو أنّه من القرائن[٢].

٢ ـ القرآن في الاصطلاح:

«هو كلام الله المنزّل على محمد ﷺ بواسطة جبريل، الموجود بين الدفتين»[٣].

* ثانياً: منهج القرآن الكريم في الوعظ:

لقد نظر السّلف رحمهم الله في كتاب ربهم، نظر تدبّر وتفكّر، فلاحت لهم أنواره، واستبانت لهم أسراره، فاستنبطوا منه منهج دعوتهم، وترسّموا مسلكه في وعظهم وتذكيرهم، فأمنوا من الزلل وسلموا من الخلل.

فحريٌّ بالدعاة إلى الله أن ينهلوا من حيث نهل سلفهم الصالح، ويأخذوا من حيث أخذوا، فكتاب ربّهم هو المعين الذي لا ينضب والحبل الذي لا ينقطع.

١ ـ مجالات الوعظ في القرآن الكريم:

ساق الله تعالى في كتابه الكريم، كثيراً من قواعد الدين ومسائل الإيمان وأحكام التشريع، في قالب الوعظ؛ ـ لأنه أنفذ للقلوب وأدعى للقبول ـ، فتعدّدت بذلك مجالات الموعظة، واتّخذت مناحٍ كثيرة، ومن تلك المجالات:

---

(١) وسمّي بذلك لأنه يجمع السور أو يجمع القصص أو يجمع الأمر والنهي، تفسير الطبري ١٨٩/٢٩.

(٢) وسمّي به لأنه يجمع الآيات التي هي قرائن إذ يشبه بعضها بعضاً ويصدّق بعضها بعضاً. **انظر**: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٥٠ ـ ٥١.

(٣) **انظر**: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية ١/ ٤١٩.

أ ـ تأسيس العقيدة وغرس الإيمان:

من أعظم مجالات الوعظ في القرآن الكريم، تأسيس العقيدة الحنيفية السمحة، وتثبيت الإيمان في القلوب، وهذا الأمر من أسمى غايات الموعظة، وأوسع مجالاتها.

فالله تعالى خاطب القلوب والعقول بلسان الوعظ والنصح والتذكير، ودعاها إلى الإيمان والإسلام، وإلى نبذ الشرك والأوثان، وذكّرها بواسع نعمه وعظيم مننه، وبديع خلقه وإحكام صنعه، حتى تهتدي القلوب إلى ربها وتُقبِل على خالقها.

كما أنّ في ذكر صفات الله ﷻ وأفعاله، خشوع للقلب ورقّة له، وإيقاظاً له من سنة الغفلة[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن أوجه تأسيس العقيدة في القرآن الكريم:

١ ـ إثبات وجود الله ووحدانيته:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ ـ ٤]، فانظر كيف خاطب الله عباده مذكّراً إياهم بعظيم مننه وجزيل إحسانه، حيث سخّر لهم ما في الأرض والسماء، وأجرى لهم الأنهار،

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي، ص٤٦.

وأخرج لهم الطيبات، وفي هذا من العظة البليغة ما يحرك القلوب والعقول للتفكر في إلٰهها وخالقها[١].

وقال تعالى ـ معدّداً بعض نعمه على عباده ـ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٢]، وتعداد النعم من أقوى أساليب الترغيب والوعظ[٢]، إذ إنّ التعريف بالنعمة يوجب الطاعة والامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

٢ ـ الأمر بتقوى الله وعبادته وحده:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٦]، فقد سمّى الله دعوة هود عليه السلام لقومه ـ وأمره إياهم بتقوى الله وطاعته ـ وعظاً، لما فيها من تذكير بنعم الله وآلائه، وتحريكاً للقلوب والعقول نحو التفكّر والتدبر والاعتبار[٣].

٣ ـ الترغيب في الطاعات والحث على المسارعة إلى الخيرات:

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٩٣؛ وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٠.

(٢) انظر: كلاماً نفيساً لأبي السعود في تفسيره ٨/ ١٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٧؛ وتفسير النسفي ٣/ ١٩٣.

ندب الله عباده المؤمنين للمبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات[١]، مرغباً إيّاهم بعظيم الدرجات وبالغ المنح والأعطيات، وهذا هو مسلك الوعظ بالترغيب[٢].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فوعظ الله عباده ورغبهم إلى الطاعة مع إخلاص النية والقصد، حتى ينالوا الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الجزيل في الآخرة[٣].

ولا شك أنّ في الإقبال على الطاعات بأنواعها زيادة للإيمان[٤]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

٤ ـ بيان خطر الشرك والترهيب من المعصية:

الموعظة من أعظم الأمور التي تزجر القلوب عن التلبس بالكفر والعصيان، لما فيها من قرع وتخويف، وترهيب وإنذار، لذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بوعظ المنافقين والكافرين فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

قال النسفي رحمه الله في تفسير الآية: «فأعرض عن قبول الأعذار وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار، أو أعرض عن عقابهم، وعظهم في عتابهم، وبلّغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بارتكابهم، والبلاغة أن يبلغ بلسانه كنه ما في جنانه و﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يتعلق بقل لهم؛

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٥.

(٢) سيأتي مزيد بيان لهذا المسلك في الفصل الثاني من هذا البحث، ص٢٨٣، إن شاء الله تعالى.

(٣) تفسير النسفي ٢/ ٢٧٠.

(٤) **انظر**: كتاب الإيمان، لابن منده ٢/ ٥٤١؛ وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي المعز الحنفي، ص٣٣٥؛ وشرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ٢/ ٢٣٣.

أي: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم»[1].

فالموعظة من أعظم السبل في اجتثاث الكفر والعصيان، ولذا كثر مجيء الوعظ في القرآن لهذا الغرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٥، ١٦٦]، وفي هذا زجر عن اتخاذ الأنداد من دون الله تعالى، بحكاية خصومة الأتباع والمتبوعين يوم الدين، ومعاينة المشركين لعذاب رب العالمين، وفي ذلك أبلغ العظة لمن أراد أن يتّعظ[2]، قال أبو السعود رحمه الله: «إذ به ـ أي: ذكر مآل المشركين ـ يتأتّى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت»[3].

وقال تعالى في النهي عن العصيان: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فالموعظة هي السبيل الأنجع للأمر بالطاعة والنهي عن الفحشاء والمنكر.

قال الشوكاني رحمه الله: «أي: يعظكم بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به»[4].

ب ـ بيان الأحكام الشرعية:

سبقت الإشارة إلى أنّ التعليم والبيان، من مجالات الوعظ وغاياته[5]، ولذا كثر اقتران الموعظة ببيان الأحكام الشرعية في القرآن

---

(١) تفسير النسفي ١/ ٢٣٠؛ وقريب منه ما فسرها به الألوسي. **انظر**: تفسير الألوسي ٥/ ٦٩.

(٢) **انظر**: تفسير النسفي ١/ ٨٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ١٠٠.

(٤) فتح القدير ٣/ ١٨٨.

(٥) في التمهيد، المبحث الثالث: في أنواع الوعظ، ص٧٢.

الكريم، إذ الأمر والنهي إذا قُرِنَ بالوعظ أثمر الاستجابة والقبول لدى العبد.

يقول العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قيل يكثر في القرآن إطلاق الوعظ على الأوامر والنواهي، كقوله هنا: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] مع أن ما ذكر إلا الأمر والنهي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] إلى قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، وكقوله في سورة البقرة بعد أن ذكر أحكام الطلاق والرجعة: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] قوله: في الطلاق في نحو ذلك أيضا: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢] قوله في النهي عن مثل قذف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] الآية[(١)]، مع أن المعروف عند الناس: أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك، لا بالأمر والنهي.

فالجواب أن ضابط الوعظ: هو الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيه، فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم امتثاله وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله، وإذا سمعوا النهي خافوا سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه، فحداهم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً»[(٢)].

واقتران الوعظ بالأمر والنهي في القرآن يأتي على ضربين:

١ ـ إمّا أن يأتي التصريح بلفظ الوعظ ـ وهو قليل ـ.

٢ ـ أو أن تضمّن الموعظة في ثنايا بيان الأمر والنهي، وهو كثير.

فمن أمثلة التصريح بلفظ الوعظ، عند بيان الأمر والنهي، قوله تعالى في النهي عن الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي

---

(١) قال مجاهد: «أي ينهاكم». **انظر**: تفسير الثوري ١/ ٢٢٢؛ ومعاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس ٤/ ٥١٠.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠

يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال الشوكاني رحمه الله: «أي: من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا، فانتهى أي: فامتثل النهي الذي جاءه وانزجر عن المنهي عنه»(١).

ويقول المولى تبارك وتعالى عند بيان أحكام الطلاق: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وجاء التصريح بالوعظ في هذه الآية وفي آية الطلاق(٢)؛ لأن الطلاق مظنّة الجور والحيف، فنبّه الله عباده ووعظهم، كي لا يحملهم الشنآن على الظلم.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: هذا الذي نهيناكم عنه... يأتمر به ويتعظ به وينفعل له، من كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر»(٣).

- ومن أمثلة اقتران الأمر والنهي بالموعظة، دون التصريح بلفظها، قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣].

فانظر كيف قرن الله النهي عن إتيان النساء في المحيض، والأمر بإتيانهن في موضع الحرث، بالعظة ترغيباً وترهيباً، من أجل المحافظة عليها والالتفات إليها، وهذه سنّة القرآن الكريم في قرن العظة بالأمر والنهي(٤).

- ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ

---

(١) فتح القدير ١/ ٢٩٥.
(٢) سورة الطلاق، الآية ٢.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٣.
(٤) هداية المرشدين، ص١٤٥.

رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، وهذا تهديد وترهيب في تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام[١]، مع بيان العلل الأربعة في تحريمها، بكونها رجس، وموجبة للعداوة والبغضاء، وصادّة عن ذكر الله وعن الصلاة، وبيان العلل مع سلوك مسلك الترهيب عند الأمر والنهي، من أعظم مسالك الوعظ، ولذلك أثمر سرعة استجابة الصحابة لأمر ربهم عند نزول هذه الآية.

فعن أنس رضي الله عنه قال: «**كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فقال لي أبو طلحة: أخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة**»[٢].

ج ـ الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

الدعوة إلى مكارم الأخلاق من أعظم أسس الدعوة الإسلامية ومراميها، فلذا جاء القرآن الكريم حافلاً بالآيات التي تعرّف بمكارم الأخلاق وتبيّن فضلها وعظيم أجر من تخلّق بها، كما تذكر الآيات مساوئ الأخلاق على سبيل الذم وسوء عاقبة من تلبّس بها.

والدعوة إلى مكارم الأخلاق تندرج تحت وعظ التأديب الذي سبق بيانه[٣]، ومن ثمّ ارتبط الوعظ بالدعوة الأخلاقية في القرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً، فقلّما تأتي آية تدعو إلى مكارم الأخلاق إلّا وتساق مساق الوعظ ترغيباً وترهيباً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٣؛ **وانظر** مزيد تفسير لهذه الآيات في روح المعاني للألوسي ٧/ ١٦؛ وتفسير أبي السعود ٣/ ٧٦.

(٢) متفق عليه، البخاري ٢/ ٨٦٩، كتاب: المظالم والغصب، باب: صب الخمر في الطريق، رقم (٢٢٨٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/ ١٥٧٠، كتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب، رقم (٣٣٦٢).

(٣) **انظر**: وعظ التأديب، ص ٧٧ من هذا البحث.

- ومن أمثلة الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ففي هذه الآية الكريمة دعوة إلى خُلُقَيْ الأمانة والعدل، وقد سمّى الله هذه الدعوة وعظاً لاندراجها ضمن التأديب الذي هو من أعظم مجالات الوعظ، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعظكم به؛ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

ففي هذا الأمر الإلهي عظة وذكرى للمؤمنين، فانظر كيف ارتبط الوعظ بالدعوة إلى خُلُقَيْ الحياء والاستئذان، قال أبو السعود في تفسيره: «أو قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه»(٢).

- ومن أمثلة النهي عن مساوئ الأخلاق في القرآن الكريم:

قوله تعالى في النهي عن البخل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فأردف الله النهي عن البخل بذكر مآل البخلاء المانعين حق الله في المال، المعرضين عن أداء الزكاة الواجبة، متوعّداً إياهم بتعذيبهم بأموالهم التي بخلوا بها في الدنيا، والجزاء من جنس العمل، فالعبد إذا سمع هذا الوعيد وعَلِمَ أنّ مَالَهُ سيكون عليه حسرة يوم القيامة، ارعوى وانزجر، وفي هذا أبلغ العظة للبخلاء(٣).

٢ ـ أساليب الوعظ في القرآن الكريم:

جاءت الموعظة في القرآن الكريم بأساليب شتى، تجمع بين اللين

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ١١٥.

والشدة، ومخاطبة القلوب والعقول، والحثّ على النظر والتأمّل، وذكر الأشباه والنظائر.

وفي هذا التنوّع أكبر دليل على عظم منزلة الوعظ في الدعوة إلى الله تعالى، كما أن فيه مندوحة للدعاة كي يتخيروا من أساليب الوعظ ما يتّفق مع حال الموعوظ وخصائصه.

ومن أبرز الأساليب التي جاءت بها الموعظة في القرآن الكريم، ما يلي[(١)]:

أ ـ الوعظ بالترغيب والترهيب:

ويأتي هذا الأسلوب في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

١ ـ إمّا بالترغيب وحده.

٢ ـ أو بالترهيب وحده.

٣ ـ أو بالترغيب والترهيب معاً.

ـ فمن أمثلة الترغيب وحده، قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

ـ ومن أمثلة الترهيب وحده، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٢ ـ ١٤].

ـ ومن أمثلة الترغيب والترهيب معاً، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

(١) آثرت الاختصار في ذكر هذه الأساليب تحاشياً للتطويل والتكرار، إذ سيأتي تفصيل لها في الفصل الثاني، ص٢٨٣ من هذا البحث إن شاء الله.

كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

ب ـ الوعظ بضرب الأمثال:

المَثَلُ أسلوب من أساليب الوعظ في القرآن الكريم، وهو أسلوب مؤثر يقرّب المعنى ويوصل إلى المراد والمغزى، مع ما فيه من تشويقٍ واستثارةٍ للمستمع.

ومن الأمثال التي ضربها الله تعالى عظة لعباده، ما يلي[1]:

١ ـ مثل المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠].

«ففي الآية تشبيه لاستبدال المنافقين الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، بمن استوقد ناراً وأبصر بها حيناً، ثم انطفأت فصار في ظلام وعمى»[2].

وفي ذلك ترهيب وتحذير للمنافقين، وموعظة لكلّ من تلبّس بصفاتهم.

٢ ـ مثل الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ

---

(١) للاستزادة في هذا الباب يرجع إلى كتاب الإمام ابن القيم: الأمثال في القرآن الكريم، ص٩ ـ ٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤.

ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

«وهذا مثل ضرب للمتباهين في الدنيا والمتفاخرين بزينتها وأموالها مع ما قد وكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص والزوال بالفناء والموت؛ كالأرض التي أخرجت ثمارها وفرح أهلها بها ثم أصابتها الجوائح فجعلتها حصيداً»[١].

ج ـ الوعظ بالقصص:

تأتي القصة في القرآن الكريم، من أجل التفكر والتدبّر وأخذ العبرة والعظة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن أمثلة هذه القصص:

١ ـ الوعظ بقصص المكذبين والمعرضين:

فقد قصّ الله قصة أصحاب السبت وما حلّ بهم من العقوبة، ثم قال تعالى عقب ذلك: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بالموعظة هٰهنا الزاجر؛ أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال، في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم»[٢].

٢ ـ الوعظ بقصص الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

لقد قصّ الله في كتابه أحسن القصص عظة وعبرة، لتثبيت فؤاد

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١/١٠٨.

النبي ﷺ، وذكرى للمؤمنين الذين يكابدون شؤون الدعوة إلى الله تعالى، ويخوضون غمار معالجة الإصلاح والوقوف في وجه الفساد العقدي والخلقي.

قال القرطبي رحمه الله: «وقوله تعالى: «﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]: الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون، وخصّ المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء»[1].

٣ ـ الوعظ بقصص الأتقياء والصالحين:

قصّ الله ﷻ قصص الصالحين ليُتَّخَذَ منهم عبرة وأسوة، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

ومن أمثلة هذا النوع من القصص في القرآن:

قصة لقمان مع ابنه، فقد ذكر الله في ثناياها جملة من المواعظ القيّمة المتعلّقة بالتوحيد والعبادة والأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٦ ـ ١٨].

د ـ الوعظ بالتذكير بنعم الله[2]:

إنّ التذكير بنعم الله منهج أصيل من مناهج الدعوة إلى الله، قرّره القرآن في غير ما آية.

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١١٦؛ **وانظر**: فتح القدير ٢/ ٥٣٥.

(٢) سيأتي تفصيل هذا المسلك في الفصل الثاني من هذا البحث، ص٣٥٥، إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

*** ثالثاً: اعتماد السلف على القرآن الكريم في وعظهم:**

يتبوأ القرآن الكريم المكانة الأولى والمقام الأسمى عند السلف رحمهم الله؛ لأنه كلام الله العظيم[١]، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ورسالته الخالدة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل بما فيه هُدي إلى صراط مستقيم، أنزله الله ﷻ على نبيه ﷺ تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وجعله شفاء للناس، وشفيعاً يوم القيامة لأصحابه، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ويقول أيضاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ويقول ﷺ: **«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»**[٢].

فأوّل ما يميز السلف رحمهم الله ـ ومن سار على نهجهم ـ هو منهج التلقي لعلومهم، ومصدر الحق الذي ينهلون منه عقائدهم وتصوراتهم، وعباداتهم ومعاملاتهم، وسلوكهم وأخلاقهم، ودعوتهم ووعظهم.

فمصدر العلم والحق في سائر فروع المعرفة الشرعية والدعوة الإسلامية عند السلف هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فلا كلام لأحد قبل كلام الله، ولا هدي لأحد قبل هدي محمد ﷺ.

---

(١) فالسلف رحمهم الله متفقون على أنّ القرآن كلام الله على الحقيقة ليس بمخلوق، وأنّ الله تكلّم به بحرف وصوت مسموع، وأنّه محفوظ من التحريف والتبديل، ولا يجوز إنكار حرف منه ومن فعل ذلك فهو كافر. **انظر**: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي ١/ ٢٧٢.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٢٥٥، كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ، رقم (٢٨٥٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف منهج السلف: «هم أهل الكتاب والسنّة: لأنهم يؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدّمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، ويتّبعون آثاره ﷺ باطناً وظاهراً»[1].

وتتجلّى مصدرية القرآن الكريم عند السلف في وعظهم وتذكيرهم، من خلال ما يلي:

١ ـ بعض الآثار المروية عن السلف، في اعتمادهم على القرآن في وعظهم:

لا ريب أنّ السلف رحمهم الله قد اتخذوا من القرآن منهلاً لهم ونبراساً لوعظهم وتذكيرهم، وهذا يتبيّن من واقع حالهم ووعظهم.

وقد جاءت الآثار عن السلف تؤكد هذا الأصل، ومن ذلك:

أ ـ قال أبو سليمان الداراني[2] رحمه الله: «ربما يقع في قلبي النكتة[3] من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنّة»[4].

ب ـ وقال أبو حفص النيسابوري[5] رحمه الله: «من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنّة، ولم يتّهم خواطره، فلا تعدّه في ديوان الرجال»[6].

ج ـ وقال الجنيد بن محمد[7] رحمه الله، ـ وكان من سادات الوعاظ ـ: «علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنّة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٤٥٧.

(٢) هو: عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية العنسي، كان صاحب حديث وعبادة، توفي سنة ٢٠٥هـ. **انظر**: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٨٨.

(٣) أي: كلمة الحكمة، والموعظة المؤثرة في القلب. **انظر**: مختار الصحاح، ص٦٨٨، مادة: «نكت».

(٤) مجموع الفتاوى ١١/ ٢١٠؛ وتعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٣٤٩.

(٥) أبو حفص عمرو بن سلم النيسابوري، الإمام القدوة شيخ خراسان، توفي سنة ٢٦٤هـ، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥١٠.

(٦) الاستقامة لابن تيمية ١/ ٩٥.

(٧) الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم القواريري النهاوندي البغدادي، اشتهر بالعلم والورع والعبادة والوعظ، توفي سنة ٢٨٣هـ؛ تاريخ بغداد ٧/ ٢٤١.

يصلح له أن يتكلّم في علمنا»[١].

د ـ وقال أبو زرعة الرازي[٢] رحمه الله: «من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب[٣] عبرة»[٤].

هـ ـ وقال الإمام الأصبهاني[٥] رحمه الله ـ واصفاً منهج السلف ـ: «وأما أهل الحق فجعلوا الكتاب والسنّة إمامهم، وطلبوا الدين من قِبَلهما، وما وقع لهم من عقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنّة، فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم إليه، وإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم»[٦].

٢ ـ اقتباس السلف منهج وعظهم من القرآن الكريم:

يجد الناظر في مواعظ السلف أنّهم اقتبسوا منهج وعظهم من كتاب ربهم، وهذا هو ديدن السلف رحمهم الله في جميع شؤونهم ومعارفهم ومداركهم، ودعوتهم.

ويتّضح هذا الاقتباس، من خلال الأمور التالية:

أ ـ مجالات الوعظ:

لا تكاد تجد مجالاً من مجالات الوعظ في القرآن إلا وتجد مثله في مواعظ السلف، فمدار وعظهم كما سيأتي بيانه[٧] ـ إن شاء الله ـ، حول:

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٢١٠؛ والصفدية لابن تيمية ١/ ٢٥٤.

(٢) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ أبو زرعة الرازي، إمام حافظ ثقة مشهور، توفي سنة ٢٦٤هـ؛ تقريب التهذيب، ص٣١٣.

(٣) يشير إلى كتب الحارث المحاسبي وغيره، مما ألّف في الخطرات والوساوس.

(٤) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ٨/ ٢١٥؛ وتلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص١٨٦.

(٥) إسماعيل بن محمد بن الفضل، أبو القاسم القرشي الأصبهاني، الملقب بـ(قوام السنة)، من أئمة التفسير والحديث واللغة، من كتبه «الجامع» في التفسير؛ و«شرح الصحيحين» وغيرهما، توفي سنة ٥٣٥هـ؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٨٠.

(٦) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، للأصبهاني ٢/ ٢٢٤.

(٧) في الفصل الأول، المبحث الثاني من هذا البحث، ص٢٠٠.

تأسيس العقيدة، وغرس الإيمان، والحث على الجد والاجتهاد في طلب مرضاة الله، والدعوة إلى أركان الإسلام، وتزكية النفس، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

فهذه المجالات في جملتها تتفق مع مجالات الوعظ في القرآن، والتي سبق الإشارة إليها(١).

ب ـ أساليب الوعظ:

تدور أساليب الوعظ عند السلف حول(٢):

الترغيب والترهيب، وضرب الأمثال، والقصص، والتذكير بنعم الله ﷻ، والتذكير بسير الصالحين، وبطرح السؤال.

وهي في جملتها تتفق مع أساليب الوعظ في القرآن الكريم، والتي سبق الإشارة إليها(٣).

٣ ـ استشهاد السلف بالقرآن الكريم في وعظهم:

من خلال تتبع مواعظ السلف، يمكن القول أنّ السلف كانوا يسترشدون بمواعظ القرآن ويستشهدون بها، في جلّ مواعظهم، وخطبهم، ونصحهم وتذكيرهم.

ويمكن تقسيم طرائق استشهادهم بالقرآن الكريم في وعظهم إلى أقسام، وهي:

١ ـ الاستشهاد الصريح:

وذلك عن طريق الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم، وهذا النوع على قسمين أيضاً:

أ ـ إمّا بإيراد نص الموعظة كما جاءت في القرآن الكريم، ومن ثمّ التعليق عليها:

ومن أمثلتها:

---

(١) **انظر**: مجالات الوعظ في القرآن الكريم، ص١٠٣ من هذا البحث.

(٢) سيأتي تفصيل هذه الأساليب في الفصل الثاني من هذا البحث، ص٢٧٥، إن شاء الله.

(٣) **انظر**: أساليب الوعظ في القرآن، ص١١١ من هذا البحث.

- قول الحسن البصري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ضرب الله مثلاً، فأقلّ الناس من انتفع به وأبصره، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ثم قال: هذا الإنسان حين كبرت سنّه وكثر عياله ورقّ عظمه، بعث الله على جنته ناراً فأحرقتها، وأحوج ما كان إليها، فهذا مثل ضربه الله ليوم القيامة، يوم يقوم ابن آدم عريان ظمآن، ينتظر ويحذر شدة ذلك اليوم، فأيكم سرّه أن يذهب عمله أحوج ما كان إليه؟»[٢].

- قول أبي سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لطائف المعاريض، قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] تهديد بلطف»[٣].

يشير إلى تتمّة الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ب - الاستشهاد بآي القرآن في ثنايا الموعظة، ومن أمثلة ذلك:

- قول أبي عبد الله جعفر الصادق[٤] لسفيان الثوري[٥]: «يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قال في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]،

---

(١) الحسن بن يسار مولى الأنصار سيد التابعين، كان ثقة في نفسه حجة رأسا في العلم والعمل، من سادات الوعاظ، توفي سنة ١١٠هـ؛ التاريخ الصغير للبخاري ١/ ٢٤٤.

(٢) التذكرة الحمدونية، لبهاء الدين ابن حمدون البغدادي ٧/ ١٠.

(٣) طبقات الصوفية، للسلمي، ص٧٩.

(٤) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله، صدوق فقيه إمام، توفي سنة ١٤٨هـ؛ تقريب التهذيب، ص٨٠.

(٥) أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي، إمام في علم الحديث وغيره، وأجمع الناس على دينه وورعه، وهو أحد الأئمة المجتهدين، توفي سنة ١٦١هـ؛ تقريب التهذيب لابن حجر، ص١٨٤.

وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] في الآخرة»[١].

ـ قول سعيد بن جبير[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعطه الأنبياء قبلهم، وهو: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ولو أعطيه الأنبياء، لأعطيه يعقوب إذ يقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]»[٣].

ـ وقول الفضيل بن عياض[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس لأحد أن يقعد مع من شاء؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ويقول: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وليس لأحد أن ينظر إلى من شاء؛ لأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وليس له أن يقول ما لا يعلم، أو يسمع إلى ما شاء، أو يهوَى من شاء؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]»[٥].

٢ ـ الاستشهاد الضمني:

وذلك بأخذ مضمون الموعظة التي جاءت في القرآن، وصياغتها بأسلوب الواعظ، ومن أمثلة ذلك:

ـ قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ النعمة موصولة بالشكر، وإنّ الشكر يتعلّق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٦].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/١٩٣؛ وصفة الصفوة ٢/٥١٣، ورجال إسناده ثقات.
(٢) سعيد بن جبير الأسدي مولاهم أبو محمد، الكوفي إمام ثقة حجة، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ. **انظر**: تقريب التهذيب، ص١٧٤.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٢٦؛ وذكره الذهبي في الكبائر، ص١٩٥، وإسناده حسن.
(٤) فضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، أصله من خراسان، وسكن مكة، ثقة عابد إمام، توفي سنة ١٨٧هـ؛ تقريب التهذيب، ص٣٨٣.
(٥) الزهد الكبير للبيهقي، رقم الأثر (٩٣٢).
(٦) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم، ص١٩٢.

وهذه الموعظة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ـ يقول الأوزاعي(١) رحمه الله في موعظة له: «أيها الناس، تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فخددوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا»(٢).



(١) عبد الرحمٰن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي، أبو عمرو، الفقيه، ثقة جليل، توفي سنة ١٥٧هـ؛ تقريب التهذيب، ص٢٨٩.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

المطلب الثاني

السنة النبويّة

* أوّلاً: تعريف السنة:

أ ـ السنّة في اللغة:

هي السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة[١]، وإنما سميت بذلك لأنها تجري جرياً[٢].

ويؤيد هذا المعنى ما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء**»[٣].

وقد ورد في الكتاب العزيز إطلاق السنّة على العادة المستمرة والطريقة المتّبعة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ب ـ السنّة في الاصطلاح:

للسنّة في الاصطلاح عدّة إطلاقات:

ـ فالسنّة عند المحدثين والأصوليين هي: «ما أثر عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته»[٤].

---

(١) لسان العرب، مادة: «سنن» ١٣/ ٢٢٥.
(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: «سنن» ٣/ ٦١.
(٣) رواه مسلم ٢/ ٧٠٥، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٧).
(٤) فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٢٤٥؛ شرح الكوكب المنير لابن النجار ٢/ ١٦٠.

ـ أما عند الفقهاء فتطلق على ما يقابل الفرض وغيره من الأحكام الخمسة[(١)].

ـ وتطلق السنّة في مقابل البدعة، فتكون شاملة للدين سواء كان اعتقاداً أو عملاً أو قولاً[(٢)].

ـ وقد خصّ كثير من السلف لفظ (السنّة) بالأمور الاعتقادية دون التعبدية، وذلك لكثرة المخالفين في أمور العقيدة[(٣)].

*** ثانياً: هدي النبي ﷺ في الوعظ:**

لقد منّ الله على هذه الأمة ببعثة محمد ﷺ، ليقوم بأداء الرسالة ويزكي النفوس المؤمنة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فكانت تزكية النفوس وتطهير القلوب من صميم دعوته.

بل إنّ المتأمل لأحاديث النبي ﷺ التي يعلّم فيها أصحابه شرائع الإسلام، يجد دوماً اقتران التعليم بالتزكية.

وأمر الله نبيّه ﷺ بالوعظ والتذكير، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

كما نجد القرآن يقصر وصف رسول الله ﷺ على صفة التذكير فيقول عز من قائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فذكر يا محمد عبادي بآياتي وعظهم بحججي وبلغهم رسالتي، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكرا لتذكرهم نعمتي عندهم، وتعرفهم اللازم لهم،

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٤٥.
(٢) الموافقات للشاطبي ٤/ ٤٩٠.
(٣) الاستقامة ٢/ ٣١٠.

وتعظهم»[١].

١ ـ مجالات الوعظ في السنّة النبويّة:

تتّفق السنّة النبوية مع القرآن الكريم في منهج الوعظ، مضموناً وأسلوباً وغايةً.

فكان ﷺ يعظ الناس بالقرآن، ويذكّرهم به، امتثالاً لأمر الله إذ يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: فعظ بالقرآن من يخاف وعيد»[٢].

ومما يدلّ على اتفاق القرآن والسنّة في شأن الموعظة، قوله ﷺ: **«أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر»**[٣].

ومجالات الوعظ في السنّة النبويّة تدور حول ثلاثة محاور: العقيدة، والشريعة، والأخلاق.

أ ـ المحور العقدي:

إنّ الله بعث نبيه ﷺ ليقيم راية التوحيد، ويدعو الناس إلى عبادة الله وحده، أسوة بالأنبياء من قبله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فعالج النبي ﷺ منذ بعثته الانحراف العقدي، وأسّس التوحيد الخالص، وأقام دعائمه، سواء في المجتمع المكيّ أو المدنيّ، واستخدم في ذلك أسلوب الوعظ والتذكير، فكانت أغلب خطبه ﷺ مواعظ للتذكير والدعوة إلى التوحيد.

---

(١) تفسير الطبري ١٦٦/٣٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٢٦/٨.

(٣) رواه أبو داود ٤٣٦/٣، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات، رقم (٢٦٥٢)؛ وحسنه الألباني، السلسلة الصحيحة ٥٤١/٢.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ـ في بيان مضمون خطب النبي ﷺ ومواعظه ـ: «وكذلك كانت خطبته ﷺ، إنما هي تقرير لأصول الإيمان، من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائِه، وذكرِ الجنة، والنار، وما أعدَّ الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب مِن خُطبته إيماناً وتوحيداً، ومعرفة بالله وأيامه»[1].

وقد بادر النبي ﷺ منذ الوهلة الأولى لدعوة قومه إلى التوحيد، ناصحاً ومذكراً وواعظاً.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**لما أنزلت هذه الآية** ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] **دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ، فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[2].

واستمر هذا التأسيس العقدي في المدينة النبوية، وإن اتّخذ منحى آخر، بظهور الكتابيين والمنافقين.

فسارت الدعوة العقدية بذلك في اتجاهات ثلاث:

١ ـ ترسيخ العقيدة في نفوس الصحابة:

وتصحيح ما بدر منهم من هفوات وأخطاء في العقيدة:

فكان النبي ﷺ، لا يدع مناسبةً ولا مجلساً، إلّا وذكّر الناس بالله، ورسخ في نفوسهم معالم التوحيد، يشهد لذلك الكمّ الهائل من الأحاديث الواردة في هذا الشأن، ومن ذلك تمثيلاً لا حصراً:

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٩.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٧٨٧، كتاب: تفسير القرآن، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك وألن جانبك، رقم (٤٣٩٧)؛ ومسلم ١/ ١٩٢، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٣٠٣)، واللفظ له.

- حديث جبريل - المشهور -، وفيه: قال: «**فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

وهذا يندرج ضمن الوعظ بطرح السؤال.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[٢].

وفي هذا من الترغيب ما يدفع النفوس المؤمنة إلى معرفة ربها بنعوت الكمال وصفات الجلال، ومعرفة أسمائه الحسنى، والعمل بمقتضاها.

- وقال البخاري رحمه الله - في صحيحه -: باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ثمّ أورد جملة من الأحاديث، منها:

حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال له: «**يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه لا يشكروا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم**»[٣].

وفي هذا دعوة إلى التوحيد عن طريق الوعظ بالترغيب وطرح السؤال.

- وإلى جانب هذا التأسيس العقدي، كان النبي ﷺ يحرص على تصحيح الأخطاء العقدية التي كانت تصدر من أصحابه أحياناً، ومن ذلك:

- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تطروني**

---

(١) رواه مسلم ١/٣٧، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

(٢) متفق عليه، البخاري ٦/٢٦٩١، كتاب التوحيد، باب: إنّ لله مائة اسم إلا واحداً، رقم (٦٨٤٣)؛ ومسلم ٤/٢٠٢٦، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٤٨٣٥)، واللفظ له.

(٣) متفق عليه: البخاري ٦/ ٢٦٨٥، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمّته إلى توحيد الله، رقم (٦٩٣٨)، واللفظ له؛ ومسلم ١/٥٨، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (٣٠).

كما أطرت النصارى، عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»[(١)].

ـ وثبت أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: **«ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: أجعلتني واللهَ عدلاً؟! بل ما شاء الله وحده»**[(٢)].

وهذا نهي مقترن بترهيب، وهو من مسالك الوعظ.

٢ ـ دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى التوحيد:

دعا النبي ﷺ أهل الكتاب إلى تجريد التوحيد لله رب العالمين، ممتثلاً أمر الله تعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد خاطبهم النبي ﷺ بلسان الوعظ، مذكراً إياهم بنعمة الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

ومن جملة الأحاديث الواردة في وعظ أهل الكتاب ودعوتهم إلى التوحيد.

ـ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، فقال له: **«إنّك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»**[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٢٧١، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣١٨٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢١٤، رقم (١٨٣٩)؛ وابن ماجه ٢/ ٥٥٠، كتاب: الكفارات، باب: النهي أن يقال ما شاء الله وشئت، رقم (٢١٠٨)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٦٦.

(٣) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٦٨٥، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته =

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

وهذا فيه وعظ لأهل الكتاب، ودعوة لهم باستخدام أسلوب الترهيب والزجر.

٣ - وعظ المنافقين وتذكيرهم بالله:

كما قال تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا**﴾ [النساء: ٦٣].

قال الطبري رحمه الله: «عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم»(٢).

ومن المواعظ الموجّهة للمنافقين ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً**»(٣).

في هذا تحذير من الرياء - وهو صنو النفاق -، ووعظ وترهيب من أن يصرف شيء من العبادة لغير الله تبارك وتعالى.

ب - المحور التشريعي:

وعظ الله عباده بأوامره ونواهيه، وبما شرعه لهم من أمور دينهم ودنياهم، وفرض عليهم أنواع العبادات تزكية لنفوسهم وتهذيباً لها.

= إلى التوحيد، رقم (٦٩٣٧)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٥١، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (٢٧).

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، رقم (٢١٨).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ١٥٦.

(٣) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٨٧١، كتاب: التفسير، باب: يوم يكشف عن ساق، رقم (٤٥٣٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٦٨١، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، رقم (٢٦٧).

واقترن التشريع بشقيه: العبادات والمعاملات، بالوعظ والترغيب والترهيب.

ومن أمثلة ذلك[١]:

- ما ورد في شأن الصلاة: قوله ﷺ: «**إن العبد المسلم ليُصَلِّ الصلاة يريد بها وجه الله، فتهافت عنه ذنوبه، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة**»[٢]، وفي هذا وعظ بالترغيب وضرب المثل.

- ومما ورد في الزكاة، والصدقة: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع**»[٣]، وفي هذا وعظ بالترغيب والترهيب وضرب المثل.

- ومما جاء في الصيام: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدّم من ذنبه**»[٤].

- ومما جاء في الحج: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[٥].

---

(١) **انظر**: المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، لشرف الدين الدمياطي، ص٥ - ١٠٠٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٣٥/ ٤٤٠، رقم (٢١٥٥٦)؛ قال شرف الدين الدمياطي، إسناده حسن.

(٣) متفق عليه، البخاري ٣/ ٣٠٥، كتاب: الزكاة، باب: مثل المتصدق والبخيل، رقم (١٣٥٢)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٧٠٩، كتاب: الزكاة، باب: مثل المتصدق والبخيل، رقم (١٦٩٥).

(٤) متفق عليه، البخاري ٤/ ١١٥، كتاب: الصوم، باب: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، رقم (٣٧)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٥٢٤، كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم (١٢٦٨).

(٥) متفق عليه، البخاري ٣/ ٣٨٢، كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، رقم (١٤٢٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٩٨٣، كتاب: الحج، باب: في فضل الحج والعمرة، رقم (٢٤٠٤).

ـ ومما جاء في المعاملات: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من غش فليس مني**»[١]، وهذا فيه ترهيب ووعيد.

ج ـ المحور الأخلاقي[٢]:

إنّ الدعوة الأخلاقية تعدّ أساس الدعوة الإسلامية، فهي مطلب للداعية في المقام الأول، ولذا جبل الله نبيه ﷺ على الخلق القويم، قبل بعثته، فكان يُعرَف بالصدق والأمانة[٣]، وهذا ما مهّد لدعوته ورسالته فيما بعد.

وقد أفصح النبي ﷺ عن كُنْهِ دعوته الأخلاقية، حينما ربط الأخلاق بالعقيدة، مؤكِّداً أنّ الإيمان هو الرافد الأول للأخلاق الفاضلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[٤].

ودعا النبي ﷺ أمّته إلى الأخلاق بلسان الحال والمقال، كما قالت عائشة رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلقه ﷺ ـ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[٥].

وسلك النبي ﷺ في دعوته الأخلاقية مسلك الوعظ والترغيب، فكان يحث الناس على الخلق الفاضل مرغباً، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ خياركم أحاسنكم أخلاقاً**»[٦]، وعن

---

(١) رواه مسلم ١/ ٩٩، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غش فليس منا»، رقم (١٤٧).

(٢) للاستزادة **انظر**: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ، لمجموعة من المؤلفين بإشراف د. صالح بن حميد.

(٣) كما يدل على ذلك قصة بناء الكعبة. **انظر**: سيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٤) متفق عليه، البخاري ١/ ١٧، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان، رقم (٨)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٦٣، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، رقم (٥٠).

(٥) رواه أحمد في مسنده ٤٢/ ١٨٣، رقم (٢٥٣٠٢)، قال محققوا المسند: صحيح على شرط الشيخين.

(٦) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٤٥، كتاب: الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، رقم (٥٥٧٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٨١٠، كتاب: الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ، رقم (٤٢٨٥).

جابر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»**[١].

ويحذّر من الخلق السيئ مرهباً، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**[٢]، وعن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى، قال: كل عتل جواظ مستكبر»**[٣].

٢ ـ أساليب الوعظ في السنّة النبويّة:

كانت أساليب النبي ﷺ في الوعظ، موافقة لأساليب القرآن الكريم، فهو مأمور بوعظ الناس بكتاب الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وفيما يلي ذكر لأساليب الوعظ في السنة النبوية:

أ ـ الوعظ بالترغيب والترهيب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني؟ قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو**

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٣٧٠، كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (١٩٤١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٢٧، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٦)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٨١، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، رقم (٩٧).

(٣) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٤٥٢، كتاب: تفسير القرآن، باب: عتل بعد ذلك زنيم، رقم (٤٥٣٧)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢١٩٠، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٥٠٩٢).
قال النووي رحمه الله: «(العُتُل): هو: الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظ الغليظ، و(الجُوَاظ): هو: الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته، شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

عدته لوجدتني عنده؟، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني؟ قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[1].

ب ـ الوعظ عن طريق ضرب الأمثال:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[2].

ففي الحديث حث على تعظيم حقوق المسلمين، وحث على التراحم والملاطفة والمعاضدة فيما بينهم، وأن يكونوا كالجسد الواحد.

ج ـ الوعظ عن طريق القصص:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله، فقال له هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»**[3].

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٩٩٠، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: فضل عيادة المرض، رقم (٤٦٦١).

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٣٨، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم (٥٥٥٢)؛ ومسلم ٤/ ١٩٩٩، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٤٦٨٥)، واللفظ له.

(٣) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٢٨، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم (٣٢١١)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢١١٨، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩٦٧).

ففي الحديث ترغيب وحث على الإسراع إلى التوبة من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، حتى قتل النفس، وبيان سعة رحمة الله.

د ـ الوعظ عن طريق طرح السؤال:

ـ عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إنّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»(١).

فهكذا كان النبي ﷺ يستخدم هذا الأسلوب إيقاظاً لانتباه صحابته، وتحريكاً لعقولهم، حتى يستقبلوا هديه وتعاليمه بنفوس عطاش، وقلوب ظماء، فيستقر فيهم أثبت استقرار.

٣ ـ وسائل الوعظ في السنّة النبوية:

تعدّدت وسائل الوعظ في السنّة النبويّة وتباينت، مما كان له أبلغ الأثر في انتشار هذه المواعظ وبلوغها القاصي والداني، وهذا الأمر نابع من عالمية هذه الرسالة، حيث يقول المولى ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

واستخدم النبي ﷺ في وعظه ثلاثة أنواع من الوسائل، وهي: الوسائل البيانية، والوسائل المادية، والوعظ بالسيرة الحسنة.

أ ـ الوسائل البيانية:

تتنوّع الوسائل البيانية، بين الخطابة، والوصيّة.

ـ أمّا الخطابة: فهي أشهر الوسائل البيانية التي استخدمها النبي ﷺ

---

(١) رواه مسلم ٤/١٩٩٧: كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم (٤٦٧٨).

في مواعظه، سواء في ذلك الخطب الموسميّة، كخطب الجمعة والأعياد، أو الخطب العارضة، كخطب الاستسقاء، والكسوف، وغيرهما مما يعرض للناس من حوائج دينهم ودنياهم.

وقد مضى معنا[١] وصف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطب النبي ﷺ وما كانت عليه، من تأسيس للإيمان وتذكير للعباد ووعظ لهم في أنفسهم.

ومن أشهر هذه الخطب:

خطبة حجة الوداع، وجاء فيها قوله ﷺ: «**الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **أليس ذو الحجة** قلنا: بلى، قال: **فأي بلد هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **أليس البلدة** قلنا: بلى، قال: **فأي يوم هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **أليس يوم النحر،** قلنا: بلى، قال: **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، قال ألا هل بلغت مرتين**»[٢].

ـ أمّا الوصية: فقد كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بين الفينة والأخرى بما يعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم، ومن هذه الوصايا:

ما رواه العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد

---

(١) **انظر:** ص١٢٦ من هذا البحث.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/١٥٩٩، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، رقم (٤٠٥٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٣٠٥، كتاب: القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (٣١٧٩).

صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ**»(١).

ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه»(٢).

ب ـ الوسائل الحسِّية:

استخدم النبي ﷺ الوسائل المتاحة في عصره لإيصال الموعظة إلى الناس، ومن بين هذه الوسائل:

١ ـ الوعظ عن طريق الرسم والتمثيل، وغيرهما من وسائل الإيضاح:

وهذا الأسلوب من الوعظ يشتمل على أنواع عديدة، من أبرزها:

أ ـ الوعظ بالرسم والتمثيل، ومن ذلك: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطّ النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: **هذا الإنسان وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا**

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٤٤، كتاب: العلم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الأخذ بالسنّة واجتناب البدع، رقم (٢٦٠٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، واللفظ له؛ وأبو داود ٤/ ٢٠٠، كتاب: السنة، باب: لزوم السنة، رقم (٣٩٩١)؛ وابن ماجه ١/ ١٦ في مقدمة سننه، باب: إتباع سنّة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، وصححه الألباني، صحيح أبي داود ٤/ ٢٠٠.

(٢) رواه أبو داود ٤/٣٣٩، كتاب: الأدب، باب: في حق المملوك، رقم (٤٤٨٩)، واللفظ له؛ وابن ماجه ٢/ ٩٠٠، كتاب: الوصايا، باب: هل أوصى رسول الله ﷺ، رقم (٢٦٨٨)؛ وأحمد في مسنده ١٩/ ٢٠٩، رقم (١٢١٦٩)، وصححه الألباني، صحيح أبي داود ٤/ ٣٣٩.

الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[١].

وفي هذا الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل، والاستعداد لبغتة الأجل[٢].

ب ـ الوعظ باستخدام حركات اليد، ومن أمثلتها: ما رواه سهل بن سعد ﵁ أنّ النبي ﷺ قال: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**، وأشار بالسبابة والوسطى، **وفرّج بينهما شيئاً»**[٣].

وفي هذا إيماء إلى عظم منزلة كافل اليتيم، وهذا التشبيه من أقوى وسائل الترغيب والموعظة.

٢ ـ الوعظ باستخدام الكتب والرسائل:

كانت وسيلة الرسائل والكتب، من أنفع الوسائل وأنفذها آنذاك، ومن أمثلتها:

الرسائل والكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء والرؤساء، وكانت مشتملة على الدعوة إلى الإسلام والتذكير بنعم الله ﷿، ككتابه إلى هرقل عظيم الروم[٤]، وكسرى عظيم الفرس، والمقوقس ملك مصر، وغيرهم من الملوك[٥].

فمن أمثلة رسائله المشتملة على الوعظ والإرشاد، رسالته ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وفيها: **«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، مِنْ محمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلى المُنْذِرِ بن سَاوى، سَلامٌ عَلَيْكَ؛ فإني أحمد إليك الله**

---

(١) رواه البخاري ٥/ ٢٣٥٩، كتاب: الرقائق، باب: في الأمل وطوله، رقم (٥٩٣٨).

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٨.

(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٠٣٢، كتاب: الطلاق، باب: اللعان، رقم (٤٨٩٢)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢٢٨٧، كتاب: الزهد والرقائق، باب: الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم (٥٢٩٦).

(٤) مضى معنا ذكر هذا الكتاب في صفحة (٨٣) من هذا البحث.

(٥) زاد المعاد ٣/ ٦٠٠ ـ ٦٠٩.

الذي لا إله إلَّا هو، وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُه، أمَّا بَعْدُ: فإني أُذَكِّرُكَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، فإنَّه مَنْ يَنْصَحْ فإنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِه، وإنَّه مَنْ يُطِعْ رسلي، ويَتَّبِعْ أَمْرَهُم، فَقَدْ أطاعني، ومَنْ نَصَحَ لَهُمْ، فَقَدْ نَصَحَ لي، وإنَّ رسلي قد أَثْنَوْا عَلَيْكَ خيراً، وإني قَدْ شَفَعْتُكَ في قَوْمِكَ، فاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنوبِ فاقْبَلْ مِنْهُم، وإنَّكَ مَهْما تَصْلُحْ، فلن نَعْزِلَكَ عن عَمَلِكَ، ومَنْ أَقَامَ عَلى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الجِزْيَةُ»[(١)].

ج ـ الوعظ بالسيرة الحسنة:

إنّ في هدي النبي ﷺ وسمته أكبر عظة لمن أراد الهدى والرشاد، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والوعظ بالسيرة الحسنة، أو بلسان الحال، اتّخذ مناحٍ كثيرة في سيرة المصطفى ﷺ، ومن أبرز هذه المناحي: العبادات والمعاملات الظاهرة، وإزالة المنكر الظاهر.

١ ـ العبادات والمعاملات الظاهرة:

كانت عبادته ﷺ ومعاملاته محلّ قدوة وعظة للناس، وكان الصحابة يقتدون به ﷺ في كلّ شيء في صلاته وصومه وحجه وسائر عباداته، لذا كان ﷺ حريصاً على إظهار عبادته للناس؛ لأنّه محلّ القدوة والأسوة، فقال ﷺ في الصلاة ـ كما في حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٢)]، وفي الحج: «كان يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: **لتأخذوا مناسككم**»[(٣)].

ومن مظاهر اتّعاظ الصحابة رضي الله عنهم بعبادات ومعاملات النبي ﷺ الظاهرة:

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٤٥، زاد المعاد ٣/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥.

(٢) رواه البخاري ٥/ ٢٢٣٨، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم (٥٥٤٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب: الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً وبيان قوله ﷺ: «**لتأخذوا مناسككم**»، رقم (٢٢٨٦).

أ ـ كان الصحابة رضي الله عنهم لا يصدرون في أقوالهم وأفعالهم إلا من سنة المصطفى ﷺ، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه «توضأ ومسح على النعلين ثم قال: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت، لرأيت أن باطن القدمين هو أحق بالمسح من ظاهرهما»[(١)].

ب ـ كما كان في الصحابة والتابعين حرص شديد على معرفة أحوال النبي ﷺ وعبادته، فكانوا يسألون أزواجه أمهات المؤمنين، عن سمته وعبادته وخلقه، كما في قصة النفر الثلاثة الذين أتوا بيوت أزواج النبي ﷺ سائلين عن عبادته.

فعن أنس رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، **فحمد الله وأثنى عليه فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(٢)].

وعن علقمة[(٣)] رحمه الله أنه قال: «سألت أم المؤمنين عائشة، قلت: يا أم المؤمنين كيف كان عمل النبي ﷺ هل كان يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا كان عمله ديمة[(٤)] وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع»[(٥)].

---

(١) رواه أبو داود ١/ ٤٢، كتاب: الطهارة، باب: كيف المسح، رقم (١٤٠)، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده ٢/ ٤١٤، رقم (١٢٦٤)؛ وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود ١/ ٤٢.

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/ ١٩٤٩، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، رقم (٤٦٧٥)؛ ومسلم ٢/ ١٠٢٠، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة رقم (٢٤٨٧)، واللفظ له.

(٣) علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ثقة ثبت فقيه، من سادات التابعين، توفي سنة ٦٠هـ، تقريب التهذيب، ص٣٣٧.

(٤) قال ابن حجر رحمه الله: «أي: كان مستداماً مستمراً» فتح الباري ٤/ ٢٣٦.

(٥) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٣٧٣، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، رقم (٥٩٨٥)؛ ومسلم ١/ ٥٤١، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم (١٣٠٤).

ج ـ وكان الصحابة ﷺ يتابعون النبي ﷺ ويقتدون به في كل شيء، فيما عرف سببه وفيما خفي، وهذا من كمال الإتباع، ومن أمثلة ذلك:

ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: **ما حملكم على إلقاء نعالكم؟** قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: **إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قذراً** أو قال أذى، وقال: **إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر، فإن رأى في نعليه قذراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما**»(١).

د ـ وكان الصحابة ﷺ يبكون لبكائه، ويتأثرون لتأثره ﷺ، فقد دخل عمر بن الخطاب ﷺ يوماً فوجد النبي ﷺ وأبا بكر يبكيان فقال: «يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما»(٢).

٢ ـ إزالة المنكر الظاهر:

إنّ إزالة المنكر الظاهر، من أهم وسائل الوعظ العملي، لما فيه من تحقيق للمصالح ودرء للمفاسد، وفيه أيضاً سد الذرائع عن الوقوع في ذلك المنكر.

لهذا حرص النبي ﷺ على إزالة المنكرات الظاهرة، عظة للعباد ومحاربة للفساد.

وكان يصحب هذا التغيير ـ في العادة ـ موعظة ممهّدة، ترقق القلوب، كي تصبح طيّعة منقادة لأمر الله وأمر رسوله.

---

(١) رواه أبو داود ١/ ١٧٥، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في النعل، رقم (٥٥٥)، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده ١٨/ ٣٧٨، رقم (١١٨٨٤)؛ وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود ١/ ١٧٥.

(٢) مسلم ٣/ ١٣٨٥، كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم (٣٣٠٩).

ومن أمثلة ذلك، ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاث مائة وستون نصباً، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]»[1].

* ثالثاً: اعتماد السلف على السنّة النبويّة في وعظهم:

١ ـ مكانة السنّة عند السلف رحمهم الله:

السنّة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وتتبوأ المرتبة الثانية عند السلف بعد كتاب الله عز وجل من حيث الاحتجاج بها.

وممّا يدلّ على عظم مكانة السنّة في نفوس السلف رحمهم الله، أمور منها:

أ ـ تعظيمهم لكلام النبي ﷺ:

كان السلف رحمهم الله لا يعارضون بقول النبي ﷺ أحداً، ويرون وجوب اتباعه فيما أمر والانتهاء عما زجر، ومن شواهد ذلك:

● عن أبي قتادة رحمه الله قال: «كنا عند عمران بن حصين رضي الله عنه في رهط منا، وفينا بشير بن كعب فحدثنا عمران يومئذ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحياء خير كله»**، قال أو قال: **«الحياء كله خير»**، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة: أن منه سكينة ووقارا لله ومنه ضعف، قال: فغضب عمران حتى احمرتا عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه؟! قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه إنه منا يا أبا نجيد إنه لا بأس به»[2].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٤/١٧٤٩، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ يَزْهَقُ يَهْلِكُ، رقم (٤٣٥١)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٤٠٨، كتاب: الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، رقم (٣٣٣٣).

(٢) رواه مسلم ١/٦٤، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، رقم (٥٤).

• وقال أبو يزيد[١] مرة لخادمه: «قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح ـ والوعظ ـ لنزوره، فلما دخلا عليه المسجد، تنخع[٢] ثم رمى بها نحو القبلة، فرجع ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه»[٣].

ب ـ شدّة تمسكهم بهدي السنّة:

اشتهر عن السلف ـ رحمهم الله ـ إجلالهم للسنّة وشدة تمسكهم بها، في جميع شؤونهم وأحوالهم، فكانوا لا يحركون ساكناً ولا يلفظون قولاً إلّا إذا كان على هدي السنة، ولا يذكّرون ولا يعظون إلا بما وافق السنّة، ومن شواهد ذلك من كلام كبار وعّاظ السلف رحمهم الله:

• قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطرق كلّها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتّبع سنّته ولزم طريقته، فإنّ طرق الخير كلها مفتوحة عليه»[٤].

• وقال أبو عثمان النيسابوري[٥] رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أمَّر السنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة»[٦].

• وقال ابن عطاء[٧] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من ألزم نفسه آداب السنة، نور الله قلبه

(١) طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، من سادات الوعاظ، له كلام حسن في المعاملات، ويحكى عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح ويكون مقولاً عليه، توفي سنة ٢٦١هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦.

(٢) قال ابن منظور: «النُّخاعةُ، بالضم: ما تَفَلَه الإنسان كالنُّخامةِ» لسان العرب ٨/ ٣٤٩، مادة: «نخع».

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٥.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٤.

(٥) سعيد بن أبي سعيد أحمد بن محمد بن نعيم بن إشكاب النيسابوري المعروف بالعيار، مشهور بالعبادة والوعظ، توفي سنة ٣٦٩هـ؛ حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩؛ وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٨٦.

(٦) حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤.

(٧) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي البغدادي، أبو العباس، مشهور بالوعظ =

بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه»[١].

• وقال أبو حمزة البغدادي[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله»[٣].

ج ـ الاعتماد على السنّة الصحيحة:

كان السلف رحمهم الله لا يأخذون الحديث إلّا ممن ظهرت عدالته وقوي حفظه.

قال محمد بن سيرين[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»[٥].

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[٦].

د ـ جمع سنّة النبي ﷺ ومواعظه:

من منهج السلف رحمهم الله العناية بالسنّة النبوية تحمّلاً وروايةً وجمعاً وتصنيفاً.

وهذا ظاهر بيّن من مصنفاتهم الكثيرة، التي جمعت كلّ ما يتعلّق

= والتذكير، توفي سنة ٣٠٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥٥.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٦.

(٢) محمد بن إبراهيم أبو حمزة البغدادي، جالس بشراً الحافي والامام أحمد، وكان بصيراً بالقراءات وكان كثير الرباط والغزو، وكان له كرسي وعظ بمسجد بغداد، توفي سنة ٢٦٩هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦٥.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٧.

(٤) محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر بن أبي عمرة البصري، ثقة ثبت كبير القدر واسع العلم، توفي سنة ١١٠هـ؛ تقريب التهذيب، ص٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم في مقدّمة صحيحه ١/ ١٢.

(٦) أخرجه مسلم في مقدّمة صحيحه ١/ ١٢.

بسنته ﷺ، ومن ذلك جمع المواعظ الواردة عنه ﷺ، سواء في مؤلفات مستقلة، أو ضمن كتب السنن والجوامع والمسانيد[١].

٢ ـ ترسّم السلف منهج النبي ﷺ في الوعظ:

من كمال الاقتداء والاتباع، موافقة النبي ﷺ في دعوته ونصحه وإرشاده.

وقد أدرك السلف الصالح رحمهم الله ذلك، لذا نراهم في وعظهم ونصحهم يسيرون وفق هدي السنّة، سواء تعلّق الأمر بمضمون المواعظ أو أساليبها ووسائلها.

فنجد أنّ مجالات الوعظ وأساليبه ووسائله عند السلف متوافقة مع ما جاء في السنّة النبوية، وهذا أكبر دليل على شدة تمسك السلف بهدي النبي ﷺ في وعظه ونصحه.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان الوعّاظ ـ من السلف ـ على قدر كبير من الأخلاق والاستقامة على الدين، وكان سمتهم يشبه سمت النبي ﷺ، وصفاتهم تشبه صفاته، ومن شواهد ذلك:

ما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إن أشبه الناس هدياً ودلّاً[٢] وقضاءً وخطبةً برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله، لعبد الله بن مسعود»[٣].

٣ ـ استشهاد السلف بالسنّة النبويّة في وعظهم:

السنّة النبويّة هي المعين والرافد بعد ـ القرآن الكريم ـ لوعظ السلف

---

(١) سيأتي ذكر مصنفات السلف في الوعظ في الفصل الثالث من هذا البحث، ص٤٨١، إن شاء الله.

(٢) قال الجزري: «الدلّ هو: الهدْيُ والسّمْتُ، وهو عبارةٌ عن الحالة التي يكونُ عليها الإنسانُ من السَّكينة والوَقار وحُسْن السِّيرة والطَّريقة»؛ النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٣١، مادة: «دلل».

(٣) أخرجه البخاري ٥/ ٢٢٦٢، كتاب: المناقب، باب: مناقب عبد الله بن مسعود، رقم (٣٤٧٨).

وتذكيرهم، وهذا واضح جليٌّ لمن وقف على مواعظهم وخطبهم رحمهم الله.

وطرائق استشهاد السلف رحمهم الله بالسنّة النبويّة في وعظهم على ضربين:

استشهاد بأقوال المصطفى ﷺ، واستشهاد بأفعاله وأحواله وسيرته.

أ ـ الاستشهاد بأقوال النبي ﷺ ومواعظه:

كانت أقوال النبي ﷺ ومواعظه النبراس الذي يستضيء به السلف، والمعين الذي ينهلون منه في مواعظهم وتذكيرهم، إذ إنّ أقواله وحي يوحى وتشريع يتّبع، مع ما أوتيه ﷺ من بليغ القول وجوامع الكلم.

وسلك السلف رحمهم الله في استشهادهم ـ بأقوال المصطفى في مواعظهم ـ مسلكين اثنين:

١ ـ الاستشهاد الصريح:

والمقصود بذلك إيراد قوله ﷺ أو موعظته في ثنايا الخطبة أو الموعظة.

ومن أمثلة ذلك:

ـ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[(١)].

ـ وعن عباس بن سهل قال: «سمعت ابن الزبير على المنبر بمكة في خطبته يقول: يا أيها الناس إن النبي ﷺ كان يقول: **لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملئاً من ذهب، أحب إليه ثانياً، ولو أعطي ثانيا، أحب إليه ثالثاً، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه، البخاري ١/ ٣، كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم (١)؛ ومسلم ٣/ ١٥١٥، كتاب: الإمارة، باب: قوله إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره، رقم (٣٥٣٠).

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٣٦٤، كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال، رقم =

ـ ويدخل في ذلك كل حديث رواه الصحابة ﷺ وتابعوهم وتابع التابعين عن رسول الله ﷺ سواء كان متعلّقاً بالأمر والنهي، أو بالمواعظ والرقاق، وهذا يمثل جميع السنّة القولية عن رسول الله ﷺ.

٢ ـ الاستشهاد الضمني:

لقد أشربت قلوب السلف رحمهم الله سنّة نبيهم ففاضت ينابيع الحكمة من أفواههم، فلا تكاد تقف على موعظة لهم إلا وتجد لها شاهداً من سنّة النبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك:

ـ وعظ الحسن البصري يوماً فكان مما قال: «إنّ الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فقال: كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله ﷻ»[١]، وقد فسر الحسن هذه الآية بنحو ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

فعن عائشة ﷺ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»[٢].

ـ وعن يحيى بن معاذ الرازي[٣] قال: «الكيس من فيه ثلاث خصال: من بادر بعمله، وتسوف بأمله، واستعدّ لأجله»[٤].

= (٥٩٥٦)؛ ومسلم ٢/ ٧٢٥، كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً، رقم (١٧٣٧).

(١) رواه الإمام أحمد الزهد، ص٢٣٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٣٢٧، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة المؤمنون، رقم (٣٠٩٩)؛ وابن ماجه ٢/ ١٤٠٤، كتاب: الزهد، باب: التوقي على العمل، رقم (٤١٨٨)؛ وأحمد ٤١/ ١٨٥، رقم (٢٤٦٤١)، وحسنه الألباني في تخريجه على شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٦٥.

(٣) أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي، حكيم زمانه وواعظ عصره، كان من أوعية العلم والمعرفة، توفي سنة ٢٥٢هـ، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥.

(٤) حلية الأولياء ١٠/ ٥٨.

وهذا مستنبط من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**[1].

ب ـ الاستشهاد بأحوال النبي ﷺ وسيرته:

كان النبي ﷺ داعية وموجِّهاً وواعظاً، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

فكانت حياته وأعماله وأقواله ﷺ كلّها دعوة ووعظاً ونصحاً وتذكيراً، لذا فقد أخذ السلف رحمهم الله سيرته وأحواله ﷺ، سراجاً وضياءاً يسيرون وفقه في دعوة الناس ووعظهم.

فكانت سيرته ﷺ مادة خصبة لوعظهم، يذكرون الناس بما كان عليه في عبادته ومعاملاته وأخلاقه وزهده وتقواه، كي تحصل به الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن شواهد ذلك:

ـ كان الحسن إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «أكرم ولد آدم على الله عز وجل، أعظم الأنبياء منزلة عند الله، أتي بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله، كان يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض ويقول: **إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**، وكان يلبس المرقوع والصوف، ويركب الحمار ويُردف خلفه، ويأكل الجَشب[2] من الطعام، ما شبع من خبز برٍّ يومين متواليين حتى لحق الله، من دعاه لباه، ومن صافحه لم يدع

---

(١) رواه الترمذي ٤/٦٣٨، كتاب: صفة القيامة والرقائق عن رسول الله، باب: ومن سورة المؤمنون، رقم (٣٠٩٩)، واللفظ له؛ وابن ماجه ٢/١٤٢٣، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٥٠)؛ والحديث قد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة

(٢) الجشب: ما غلظ مأكله وخشن، لسان العرب ١/٢٦٦، مادة: جشب.

يده من يده حتى يكون هو الذي يدعها، يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجالس الفقراء، أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله ﷻ بدناً، وأجدّهم في أمر الله، لا تأخذه في الله لومة لائم»[١].

- وقال سهل بن عبد الله[٢]: «التوكّل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن بقى على حاله، فلا يتركن سنّته»[٣].

- ويدخل في ذلك كلّ ما رواه الثقات من حال النبي ﷺ وسيرته، فإنّ ذلك داخل في جملة الوعظ بسيرته وحاله.

● ومن خلال ما سبق نخلص إلى أنّ الكتاب والسنّة هما عمدة مصادر الوعظ عند السلف رحمهم الله، ويتّضح ذلك من خلال اقتباس السلف رحمهم لمنهج وعظهم، ولأساليبه، بل ومضامينه، من هذين المصدرين، مستشهدين بمواعظ القرآن تارة، وبمواعظ السنة، وأحوال المصطفى تارة أخرى، يشهد لذلك مواعظهم وخطبهم.

فحريّ بالوعّاظ أن يسلكوا سبيل سلفهم الصالح إن أرادوا التوفيق والسداد.



(١) المستطرف من كل فن مستظرف، لأبي الفتح الأبشيهي ١/ ١١٥؛ والتذكرة الحمدونية ٣/ ٢٦٨.

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التستري، الواعظ، صاحب سنة وعبادة، توفي سنة ٢٨٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠.

(٣) الرسالة القشيرية، لعبد الكريم القشيري، ص٨٤.

المطلب الثالث

آثار السلف رحمهم الله(١)

* أوّلاً: وجوب اتِّباع السلف الصالح رحمهم الله:

لقد أوجب الله تعالى على هذه الأمة اتباع سلفها الصالح، ومن الأدلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ـ أي: اتّباع الرسول ﷺ ـ ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم»(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، والمقصود أن يكون الإيمان كإيمان الصحابة في الكيفية والمنهج(٣).

٣ ـ أنّ النبي ﷺ أمر باتّباع سنة الخلفاء الراشدين، كما في قوله: **«فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة»**(٤).

---

(١) مضى معنا في التمهيد تعريف السلف لغة واصطلاحاً، ص٣٩.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٦.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي ١/١٥٠.
(٤) تقدّم تخريجه، ص٩٤.

٤ ـ أنّه لما كانت الهداية والنجاة مقصورة في اتباع الكتاب والسنّة ـ كما قال النبي ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض**»[(١)].

ولما كان السلف رحمهم الله أعرف الناس بمراد الله ومراد رسوله ﷺ، كان اتباعهم واقتفاء أثرهم واجباً.

قال الإمام النووي رحمه الله: «والسلف علمهم أتم وأحكم، وأسد وأبين وأسلم، فلهذا كلّه صار أئمة الهدى على دربهم، ومصابيح الدجى على طريقهم، وهم القوم لا يشقى جليسهم، ولا يخاف تابعهم، ولا يضل متّبعهم، ولا يهتدي مخالفهم»[(٢)].

*** ثانياً: الاقتداء بالسلف الصالح في منهج وعظهم:**

حرص المتأخّر من السلف على الاقتداء بالمتقدّم منهم، ويشهد لذلك أمورٌ منها:

١ ـ ما أُثِر عن بعضهم من أقوال تدلّ على فضيلة التأسي بالسلف:

ـ كقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإنّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ، أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم»[(٣)].

ـ وقول الإمام الشافعي رحمه الله ـ في كلام له عن السلف ـ: «هم فوقنا في كلّ علم وعقل ودين وفضل، وكلّ سبب يُنال به علم أو يُدرك به هدى،

---

(١) رواه الحاكم ١/ ٩٣، كتاب العلم، رقم (٣١٩)؛ والبيهقي في الكبرى ١٠/ ١١٤، كتاب الدعاوى والبينات، باب: باب ما يقضي به القاضي ويفتي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١/ ٥٦٦.

(٢) المجموع للنووي ١/ ١٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٢/ ٩٤٧، رقم (١٨١٠).

ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا»[١].

٢ ـ اتفاق السلف رحمهم الله ـ المتقدّم منهم والمتأخر ـ على منهج واحد:

فالسلف رحمهم الله على مدّ عصورهم وتباعد أقطارهم، كانوا على منهج واحد، في الدعوة والعقيدة وأصول الدين، وذلك ليس بغريب لأنهم ينهلون من معين واحد ويعتمدون على رافد واحد لمعرفتهم وهو الكتاب والسنّة.

ولذلك تجد اتفاقهم في أصول الوعظ ومنهجه، بل هم متفقون في أساليب الوعظ ووسائله، ومن وقف على مواعظهم علم ذلك بالاضطرار.

يقول أبو القاسم الأصفهاني[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما يدلّ على أنّ أهل الحديث ـ وهم جمهور السلف ـ كانوا على الحق، أنّك إذا طالعت جميع كتبهم المصنّفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم من الديار. . . وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، ونمط واحد يجرون فيها على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرقاً في شيء ما وإن قلّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنّه جاء من قلب واحد، وعلى لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا»[٣].

٣ ـ تشبه بعضهم ببعض في السمت والهدي والأخلاق والفضائل:

فكان الواحد منهم حريصاً على أخذ الأدب والفضل والخلق من شيخه قبل أن يأخذ منه العلم، ولذا تجد منهم عزوفاً عن أخذ العلم ممن ساء خلقه، وقلّ أدبه، وإن علت رتبته في العلم والسماع، فقد أثر عن

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم ١٣/ ٣٦٩.
(٢) عبد الواحد بن أبي المطهر القاسم بن الفضل أبو القاسم الأصبهاني الصيدلاني، الشيخ الجليل المسند الرحالة، توفي سنة ٦٠٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٥.
(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم الأصبهاني ٢/ ٢٥٥.

إبراهيم النخعي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: «إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يدك منه»[٢]، يشير بذلك إلى تلازم العلم والعبادة والأدب.

لهذا تجد الوعاظ من السلف يقتدي بعضهم ببعض في الهدي والزهد والورع وسائر الفضائل، بل لا تكاد تميّز بين تراجمهم لشدة تشابههم وتوافقهم في الفضائل والأخلاق.

٤ ـ سؤال بعضهم بعضاً عن مسائل الزهد والرقائق:

كان في السلف حرص شديد على تذاكر أبواب الزهد والرقائق، سعياً منهم للاستزادة من هذا الباب العظيم، الذي يعدّ من أعظم أبواب العلم لتعلّقه بالقلوب والأرواح.

ومن أمثلة ذلك:

ـ قال أحمد بن أبي الحواري[٣] قلت لسفيان بن عيينة[٤]: «يا أبا محمد! أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: من إذا أنعم الله عليه نعمة فشكرها وابتلي ببليّة فصبر، فذلك الزهد، قلت له: يا أبا محمد فإن أنعم عليه بنعمة فشكر وابتلي فصبر وهو ممسك للنعمة، كيف يكون زاهداً؟ قال: اسكت فمن لم تمنعه البلوى من الصبر والنعمة من الشكر فذلك الزاهد»[٥].

٥ ـ رواية مواعظ السلف:

حرص السلف على نقل مواعظ المتقدمين، وكان لكلّ واعظ منهم تلاميذ ينقلون مواعظه، ويبثونها بين الناس رجاء أن يعمّ نفعها وينتشر

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران اليماني ثم الكوفي، الإمام الحافظ فقيه العراق، توفي سنة ٩٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠.
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣/ ٥٨.
(٣) أحمد بن أبي الحواري أبو الحسن الدمشقي، من كبار المحدثين، وأجل أصحاب أبي سليمان الداراني، توفي سنة ٢٦٤هـ؛ العبر في خبر من غبر، للذهبي ١/ ٤٤٦.
(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة، من أئمة الحديث وسادات الفقهاء، توفي سنة ١٩٨هـ؛ تقريب التهذيب، ص١٨٤.
(٥) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٣.

خيرها، ولولا هذه الرواية لضاعت تلك المواعظ، ولما وصلت إلينا.

وكان من السلف من يتتبع المواعظ بالجمع والرواية ثم يودعها في المصنفات النافعة، كصنيع عبد الله بن المبارك في كتابه الزهد، وكذا الإمام أحمد في كتابه الزهد أيضاً، وككتب ابن أبي الدنيا رحم الله الجميع[1].

*** ثالثاً: استشهاد المتأخر من السلف بمواعظ المتقدّم:**

كانت مواعظ المتقدمين من السلف مادة خصبة ومعيناً فياضاً، لذا كثر استشهاد المتأخرين بمواعظ المتقدمين، ومن أوجه هذا الاستشهاد:

١ ـ الاستشهاد بما ثبت من مواعظ السلف:

أ ـ وهذا إما على سبيل الرواية، كنقل التلاميذ لمواعظ شيوخهم، وهذا كثير جداً، بل لا سبيل إلى الوقوف على هذه المواعظ إلا من طريق الرواية، ومن أمثلة ذلك:

ـ عن مهاجر بن عمير قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»[2].

ب ـ أو تذكر الموعظة على سبيل الاستشهاد:

ومثل هذا المسلك يكثر في الخطب والمواعظ، ويكون بذكر أقوال المتقدمين أو مواعظهم، ومن أمثلته:

ـ قال ثابت البناني[3] رحمه الله في موعظة له ـ في ذمِّ التنعم في الدنيا ـ:

---

(١) سيأتي ذكر هذه المصنفات على وجه التفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث إن شاء الله، ص٤٨٨.

(٢) رواه البخاري تعليقاً ٥/٢٣٥٨، كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله.

(٣) ثابت بن أسلم البناني أبو محمد البصري، ثقة، من أئمة العلم والعمل، وكان من وعاظ المحدثين وسادات التابعين، توفي سنة ١٢٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/٢٢٠؛ وتقريب التهذيب، ص٧١.

«قال أبو هريرة رضي الله عنه: البيت الذي يتلى فيه كتاب الله كثر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، وإنّ البيت الذي لم يُتل فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقلَّ خيره، وحضرته الشياطين وخرجت منه الملائكة»[١].

٢ ـ الوعظ بذكر أحوال السلف وما كانوا عليه من تألّه وعبادة:

كان السلف رحمهم الله على قدر كبير من التقوى والعبادة والزهد، وكانت حياتهم وسيرتهم عظة لكل متّعظ، وهذا ما أدركه السلف رحمهم الله فكان الواحد منهم يذكر في موعظته أحوال سلفه، كي يحصل بهم الاقتداء والأسوة، ومن أمثلة ذلك:

ـ صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً الغداة، ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح، فمكث كأن عليه كآبة، ثم قال: «لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، فإذا أصبحوا ذكروا الله عز وجل، فمادوا[٢] كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين»[٣].

ـ وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت»[٤].

---

(١) الزهد لابن المبارك، ص٢٧٣، رقم (٧٩٠).
(٢) قال الجزري: «مادَ يَميد إذا مالَ وتحرَّكَ» النهاية في غريب الحديث ٤/٣٧٩، مادة: «ميد».
(٣) حلية الأولياء ١/٧٦؛ والبداية والنهاية لابن كثير ٨/٦.
(٤) الزهد لابن المبارك، ص٤٥، رقم (١٤٠).

وقال بلال بن سعد[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أدركتهم يشتدون بين الأغراض، ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهباناً»[٢].

• فانظر رحمك الله إلى شدّة تمسك السلف رحمهم الله بآثار من سبقهم، بعد أن علموا منزلتهم في الدين والإيمان، فجعلوا من مواعظهم وخطبهم زاداً ومنهلاً عنه يصدرون، وإليه يردون، فاستقامت دعوتهم، وسدّدت مواعظهم.



(١) بلال بن سعد بن تميم السكوني الأشعري، أبو عمرو الدمشقي، ثقة فاضل، من وعاظ المحدثين، قال الذهبي توفي سنة نيف وعشرة ومائة؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٩١؛ وتقريب التهذيب، ص٦٦.

(٢) الزهد لابن المبارك، ص٤٧، رقم (١٤٤).


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الثاني

أسس ومجالات الوعظ عند السلف

- وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسس الوعظ عند السلف

المطلب الثاني: مجالات الوعظ عند السلف.

المطلب الأول

أسس الوعظ عند السلف

*** [مفهوم أسس الوعظ]:**

أ ـ تعريف كلمة (أسس):

ـ لغة:

الأُسُسُ جمع أَسَاس، وهو مصدر من أَسَّ، وأَسَسَ[1].

والأساس في اللغة يرد بعدّة معانٍ، أبرزها:

• مبتدأ الشيء[2].

• أصل الشيء: فالأساس: أصل البناء، ومنه أُسُّ الإنسان؛ أي: أصله[3]، قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ أي: بني أصله[4].

• المساواة: ومنه: قول عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما: «أَسِّس بين الناس في وجهك وعدلك» أي: سوِّ بينهم[5].

• الإفساد: يقال أسَّ بين الناس؛ أي: أفسد بينهم، ورجلٌ أَسَّاسٌ؛ أي: مُفسِدٌ[6].

(١) مختار الصحاح، ص١٦، مادة: «أسس».
(٢) لسان العرب ١/١٤١ ـ ١٤٣، مادة: «أسس».
(٣) تاج العروس ١٥/٣٩٩، مادة: «أسس».
(٤) تفسير الواحدي ١/٤٨١؛ وتفسير أبي السعود ٤/١٠٢.
(٥) النهاية في غريب الأثر، للجزري ١/٤٨.
(٦) تاج العروس ١٥/٣٩٩، مادة: «أسس».

الخلاصة: أن الأساس في اللغة يراد به الأصل، والمبتدأ، والشيء الوطيد الثابت[١].

ـ اصطلاحاً:

(الأساس) في الاصطلاح يرد بمعنيين:

- القاعدة الكليّة، كقولهم: الإيمان أساس الدين.
- كلّ ما له فرع[٢].

ب ـ المراد بأسس الوعظ عند السلف:

هي الأصول الموضوعية، والقواعد الكليّة، التي يقوم عليها الوعظ عند السلف ـ على مدّ عصورهم وتباعد أمصارهم ـ.

وأساس الوعظ ـ كما سبق ـ هو الدعوة إلى العقيدة، فالوعظ ليس مقصوراً على التخويف والإنذار وذكر منازل الأموات وأحوال الأجداث، بل إنّ أسمى غايات الوعظ هي تقرير التوحيد وإيصاله للناس نقياً غير مشوب بأدران الشرك وأرجاس الوثنية.

والسلف رحمهم الله قد استمدّوا هذه الأصول من الكتاب والسنّة، اللّذين ذكرا أصول الدعوة والوعظ والإرشاد، والتي تقوم على: التوحيد، والنبوّة، والمعاد.

وهذه الأسس تمثل الأصول العقدية التي يجب أن يبتدأ بها في كلّ دعوة ونصح ووعظ، أسوة بالأنبياء ﷺ الذين أسسوا دعوتهم ووعظهم على هذه الأصول.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «أس».

(٢) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، للأنصاري ١/٨؛ والفروق في اللغة، د. الحسن بن سهيل، ص٢٧٣.

والقرآن الكريم أفاض في تقرير هذه الأصول الثلاثة، سواء في ذلك السور المكيّة والمدنية[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «وليس تحت أديم السماء كتاب متضمّن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً»[٢].

ومثال ذلك ما جاء في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فذكر هنا التوحيد، ثم ذكر النبوّة فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم ذكر المعاد فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

● **ملاحظة:**

الكلام عن هذه الأسس سوف يسير في اتجاهين اثنين:

١ ـ اتجاه علمي تقريري تأصيلي؛ تذكر فيه الضوابط العلمية لهذا الأساس.

٢ ـ واتجاه وعظي تأديبي؛ تذكر فيها المنهج الوعظي للسلف في هذا الأساس.

وهذا جمعاً بين نوعي الوعظ: وهما وعظ التعليم، ووعظ التأديب.

* [أسس الوعظ عند السلف] *

* أوّلاً: التوحيد:

١ ـ تعريفه:

ـ لغة: (التوحيد) مصدر على وزن (تفعيل): من وحّد يُوحِّد

---

(١) مثل سور: الفاتحة، والأنعام، والحجر، ويس، والزلزلة، وهي سور مكية، وكسورة البقرة، وهي سورة مدنية.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم ١/ ٥٤.

توحيداً[١].

يدلُّ التوحيد في الأصل على الانفراد[٢]، وقد يرد بمعنى: الحكم والعلم بالشيء بأنّه واحد[٣].

والمقصود من التفعيل النسبة لا الجعل، فمعنى وحّدت الله: نسبته إلى الوحدانية لا جعلته واحداً؛ لأن وحدانيته سبحانه صفة له، لا بجعل جاعل[٤].

ـ شرعاً:

• التوحيد: «هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً»[٥].

• وقيل: هو إفراد الله تعالى بما يختصّ به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات»[٦].

٢ ـ أقسام التوحيد[٧]:

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ توحيد الربوبية:

وهو: «إفراد الله ﷻ، بالخلق والملك والتدبير»[٨].

• فإفراد الله بالخلق: «أن يعتقد العبد أنّه لا خالق إلا الله، فلا يستقلّ شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[٩]، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) الصحاح ٢/٥٤٧، مادة: «وحد».
(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: «وحد».
(٣) القاموس المحيط ١/٣٤٣، مادة: «وحد»؛ ولسان العرب ١٥/٢٣٠، مادة: «وحد».
(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/٥٦.
(٥) المصدر السابق ١/٥٧.
(٦) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين ١/٨.
(٧) نظر في مسألة تقسيم التوحيد: أضواء البيان ٤/٣٠٩؛ و«القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» د.عبد الرزاق البدر، ص٤ ـ ٢٩.
(٨) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/٩.
(٩) مجموع الفتاوى ١٠/٣٣١.

• وإفراده بالملك: «أن تعتقد أنّه لا يملك الخلق إلا خالقهم»[1]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

• وإفراده بالتدبير: «أن يعتقد المرء أنّه لا مدبّر إلا الله وحده»[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

٢ ـ توحيد الألوهية[3]:

«هو العلم والاعتراف بأنّ الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده تعالى بالعبادة كلّها، وإخلاص الدين له وحده»[4].

وهذا النوع من التوحيد من أهمّ مهمات الرسل إلى أممهم، ومن أجله حصل الجدال وشرع الجهاد، وأنزلت الكتب وأرسلت الرسل.

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات:

«وهو إفراد الله عزّ وجل بما له من الأسماء والصفات»[5].

وهذا القسم من التوحيد يتضمّن شيئين:

أ ـ الإثبات: وذلك بأن تثبت لله ﷻ جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ.

ب ـ النفي: وذلك بأن لا تجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته[6]، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/٩.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/١١.

(٣) ويسمّى أيضاً: توحيد العبادة، وتوحيد القصد والإرادة. **انظر**: بدائع الفوائد، لابن القيم ١/١٤٦.

(٤) مدارج السالكين ٣/٥١٠.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد، ص١٨.

(٦) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/١٧.

٣ ـ منهج السلف في تقرير التوحيد[1]:

إنّ دعوة السلف رحمهم الله قامت على أصول راسخة وقواعد ثابتة، في الأخذ بهذه القواعد أمن من الزلل ونجاة من العطل، ومن أبرز هذه القواعد:

أ ـ الأثرية:

والمقصود بذلك أنّ السلف رحمهم الله اقتصروا على الوحي ـ من الكتاب والسنّة ـ في إثبات الحقائق العقدية، ولم يَكِلوا ذلك إلى العقول القاصرة والأهواء المضلّة، ومن أبرز معالم هذه الأثرية:

١ ـ توحيد مصدر التلقي:

وذلك بتجريده من كلّ شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي مبتدع، بالاعتماد على الكتاب والسنّة في تلقي العقيدة والدين كلّه، بفهم الصحابة المرضيين، والثقات الأثبات من علماء خير القرون، والتعويل على إجماعهم واتفاقهم في هذا الباب، فهم أعمق علماً بمعانيها، وأدق فهما لمراميها، وما أجمعوا عليه هو الحق ولا بد، وما اختلفوا فيه فإنّ الحق لا يجاوز أقوالهم، فمن آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ألا لا يقلدن رجل رجلاً دينه فإنّ آمن آمن وإن كفر كفر، فإنّ كان مقلداً لا محالة فليقلد الميت ويترك الحي، فإنّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة»[2].

٢ ـ تقديم النقل على العقل:

والمراد بالنقل: الأدلة والنصوص الشرعية، من الكتاب والسنة،

---

(١) **انظر** في هذا الموضوع: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، للالكائي ٩/١؛ ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، الجزء (٣ ـ ٤ ـ ١٣)؛ ومنهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، لمحمد الأمين الشنقيطي، ص٣ ـ ٤.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ١١٦/١٠، وإسناده لا بأس به.

والمراد بالعقل: الأدلة العقلية التي ابتدعها علماء الكلام واتّخذوها ديناً لهم، وأخضعوا النصوص الشرعية لها.

وليس معنى هذا أنّ السلف يعطلون عقولهم، بل المراد أنّهم لا يسلكون في تقرير العقيدة مسلك أهل الكلام في الاستدلال بالعقل وحده.

قال البربهاري[1] رحمه الله: «اعلم رحمك الله أنّ الدين إنما جاء من قِبَل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم»[2].

وقال السمعاني[3] رحمه الله: «أهل السنة ـ السلف ـ قالوا: الأصل في الدين الإتباع والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي»[4].

٣ ـ الإيمان بظواهر النصوص:

خلافاً للمبتدعة الذين لووا أعناق النصوص وتأولوها وصرفوها إلى غير مرادها.

فمن منهج السلف الصالح الإيمان بما دلّت عليه ظواهر النصوص من غير تشبيه ولا تكييف ولا تأويل.

قال ابن كثير رحمه الله: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا

---

(١) الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري شيخ الحنابلة الإمام الفقيه، كان صاحب سنّة وعبادة، توفي سنة ٣٢٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠.

(٢) شرح السنة، للبربهاري ٢/ ٢٢٠.

(٣) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، من أئمة السلف، وأعيان العباد، إمام في اللغة والتفسير وعلوم كثيرة، توفي سنة: ٥٣٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٨٠.

(٤) «الحجة في بيان المحجة» لإسماعيل بن محمد الأصبهاني ١/ ٣١٥.

تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم: نعيم بن حماد الخزاعي قال: «من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر»، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفي عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى»[(١)].

٤ ـ الاحتجاج بالسنّة في العقائد:

يرى السلف الصالح أنّ السنة بقسميها: المتواتر والآحاد، حجّة في الأحكام والعقائد.

قال ابن القيم رحمه الله: «لم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنّة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم يُنقل عن أحد منهم البتة أنّه جَوّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته»[(٢)].

ب ـ **الوسطية والاعتدال:**

من نعمة الله تعالى على هذه الأمة أن جعلها أمّة وسطاً بين سائر الأمم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكذلك كان شأن السلف الصالح رحمهم الله، فهم وسط وعدل بين سائر فرق هذه الأمة، ومنهجهم هو المنهج العدل الوسط.

ومن هذه الوسطية، الوسطية في الاعتقاد والأقوال والعبادة.

ومن أمثلة هذه الوسطية:

١ ـ توسط منهجهم في باب الأسماء والصفات الإلهية بين أهل التعطيل[(٣)]

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٢.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم ٢/ ٤١٢.

(٣) المعطلة: هم الذين عطّلوا الله تعالى عن كماله المقدّس، والتعطيل قسمان: =

وأهل التمثيل[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومذهب السلف بين مذهبين، وهدى بين ضلالتين: إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على أهل النفي والتعطيل، فالممثل أعشى، والمعطل أعمى، الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً»[٢].

٢ ـ توسّط منهجهم في باب القدر، بين الجبرية الذين قالوا بأنّ الإنسان مجبور على أفعاله ليس له فيها أي قدرة أو إرادة، وبين القدرية الذين اثبتوا للعبد مطلق الحرية في أفعاله وتصرفاته[٣].

٣ ـ توسّط منهجهم في باب الأسماء والأحكام بين الخوارج والمعتزلة الذين كفروا مرتكب الكبيرة وخلّدوه في النار، وبين المرجئة الذين قالوا بأنّ مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان.

ج ـ محاربة الشرك ومظاهره:

تقوم الدعوة إلى العقيدة عند السلف على أساسين متلازمين، وهما: التحلية والتخلية، بمعنى: تأسيس العقيدة الصحيحة في النفوس، وإزالة ما يضادها من الشرك والكفر، وهذا هو منهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٤]، ومنهج نبينا ﷺ والصحابة من بعده.

= ١ ـ تعطيل كليّ: كتعطيل الجهمية الغلاة والقرامطة، الذين أنكروا أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

٢ ـ وتعطيل جزئي: كتعطيل الأشاعرة والماتريدية والكلابية وغيرهم، الذين أثبتوا بعض الصفات الإلهية وأنكروا صفات أخرى؛ **انظر**: الجواب الكافي لابن القيم، ص٣٠٩ ـ ٣١٤.

(١) الممثلة: ويسمون المشبّهة، وهم الذين أثبتوا بعض صفات الله تعالى للمخلوقين، كادعاء علم الغيب، أو التصرف في ملكوت الله، أو النفع والضر، وغير ذلك من الصفات الإلهية؛ **انظر**: الجواب الكافي، ص٣٠٩ ـ ٣١٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١٩٦/٥.

(٣) **انظر**: خلق أفعال العباد للإمام البخاري، ص٢٩ ـ ١١٩.

(٤) **انظر**: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، لربيع بن هادي المدخلي، ص٣٣ ـ ١٩٨.

فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، يبتدئ دعوته لقومه ببيان قبح الشرك وعجز الأوثان، ثم يردف ذلك بالدعوة إلى توحيد الواحد الأحد الذي بيده ملكوت كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ . . . ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

وكذا كانت دعوة النبي ﷺ قائمة على تأسيس التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره، والسور المكية كلّها في تقرير هذا الشأن، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

بل كان التحذير من الشرك من أواخر وصايا النبي ﷺ.

فعن عائشة وابن عباس[(١)] رضي الله عنهم قالا: **«لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال: وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا»**[(٢)].

وكذا الشأن عند الصحابة، فقد دأبوا على محاربة الشرك ومظاهره، ومن أمثلة ذلك:

عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلّا سويته»[(٣)].

---

(١) عبد الله بن عباس أبو العباس ابن عم رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب، الصحابي الجليل البحر حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، ترجمان القرآن، من أوعية العلم وحفاظ الحديث، توفي سنة: ٦٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ١٦٨، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، رقم (٤١٧)؛ ومسلم ١/ ٣٧٧، كتاب: المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٢٢).

(٣) رواه مسلم ٢/ ٦٦٦، كتاب: الجنائز، باب: في تسوية القبر، رقم (١٦٠٩).

د ـ الوضوح والبيان والسلامة من التناقض والاضطراب[١]:

سار السلف رحمهم الله في تقرير العقيدة، على منهج واضح بيِّنٍ لا اضطراب فيه ولا التباس، وذلك لأنّ منهجهم مستمدّ أساساً من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنّة رسول الله ﷺ الواضحة البيّنة، ولقوة صلة أصحابه بالله ﷻ، وقوة يقينهم بما معهم من الحق، فسلموا بذلك من الشك والحيرة، التي وقع فيهما المبتدعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

٤ ـ العظة بالتوحيد:

* من أجلّ مقاصد الوعظ وغاياته: ترقيق القلوب، وتطويع الجوارح للطاعات والقربات، واجتناب المعاصي والمنكرات.

وإنّ أجل ما يحقق هذا المقصود، هو توحيد الله ﷻ وذاك لأنّ:

١ ـ التوحيد يولّد في القلب أموراً ثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء.

فبالمحبة: يحصل اطمئنان القلب واستقرار النفس وإقبالها على ربها وخالقها.

وبالخوف: تجمح الجوارح عن الآثام، والقلوب عن التطلع لغير الخالق العلّام.

وبالرجاء: تقبل النفس والجوارح على الطاعة وتشمّر عن ساعد الجد والاجتهاد.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[٢].

---

(١) المنهج السلفي، د. مفرح القوسي، ص٤٣٨.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٧.

٢ ـ أنّ معرفة الله ﷿ بنعوت جلاله وصفات كماله يكسب النفس إيماناً ويقيناً وإقبالاً على الله تعالى، إذ كلّ صفة من صفات الله توجب عبادات خاصة، وتقتضي آثاراً[1].

٣ ـ أنّ معرفة الله ﷿ وإخلاص العبادة له وحده، تزيد في اليقين والإيمان، وغاية الوعظ زيادة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

* وممّا يلاحظ من منهج السلف في تقرير التوحيد ودعوة الناس إليه، أنّهم نهجوا في ذلك منهجاً فريداً، جمعوا فيه بين الجانب العلمي التقريري، والجانب الوعظي التذكيري.

ففي الجانب التقريري: يتمّ عرض مسائل التوحيد مفصّلة مقرونة بأدلتها الشرعية.

وفي الجانب الوعظي: يتمّ ترقيق القلوب وتحبيب الخلق إلى خالقهم.

والجمع بين هذين الجانبين يثمر فوائد عظيمة جداً:

ـ يثمر توحيداً خالصاً لله تعالى، وعقيدة راسخة لا تؤثر فيها عواصف الشبهات والشهوات.

ـ كما يثمر في القلب محبة لله تعالى وتعظيماً له، وتشميراً وجِّداً ومسارعة في الطاعة والعبادة.

وهذا المسلك العظيم نجده في مواعظ السلف وخطبهم ودروسهم وكتاباتهم، لذا كثر النفع بعلمهم، وكثر الاتعاظ بكلامهم رحمهم الله.

وفي ذلك يقول العلامة ابن القيم ﵀: «ومن تأمل خطب النبي ﷺ، وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الربِّ ﷻ، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي

(١) انظر هذه الآثار مفصلة في كتاب: «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى»، لمحمد النجدي ١/ ٧٥ فما بعدها.

تُحبِّبه إلى خلقه وأيامه التي تخوِّفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يُحبِّبهم إليه، فيذكرون مِن عظمة الله وصفاته وأسمائه، ما يُحبِّبه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يُحبِّبهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم»(١).

وهذا المنهج الذي سار عليه السلف ليس بِدعاً، بل مستنبطاً من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإنّ الناظر إلى الآيات التي قرر فيها سبحانه التوحيد والإيمان، نجدها في كثير من الأحوال تساق مساق الوعظ، كما في قوله تعالى ـ مقرراً توحيد الألوهية بلازم الربوبية ـ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٤].

فانظر كيف قرّر الله سبحانه توحيد الألوهية والربوبية، وكيف ساق هذا التقرير مساق الوعظ، فلا يكاد يستمع لهذه الآيات من أراد الله به هدى إلا رقّ قلبه وتحركت بواعث الخير في نفسه.

وقد ذكر الله ﷻ في مستهلّ موعظة لقمان لابنه أعظم أسس الوعظ ومقاصده، ألا وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فقال جلّ وعــلا: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه

(١) زاد المعاد ١/ ٥٢٣.

عن الشرك بالله؛ لأنّ النفس المعرضة عن التزكية والكمال يجب أن يقدَّم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإنّ إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل»[(١)].

وقد حفلت السنّة النبويّة ببيان التوحيد والدعوة إليه، تجمع في أسلوب ومنهج دعوتها بين التقرير والوعظ، ومثال ذلك:

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً ليلةً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: **إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ:** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]»[(٢)].

وللأسف نجد بعض الدعاة والوعّاظ اليوم، حين يعرضون مسائل التوحيد، يجرّدون هذه المسائل عن الرقائق والترغيب، فلا تكاد تجد في دروسهم وخطبهم زيادة للإيمان بسبب هذا العرض المفرّغ من الرقائق والله المستعان.

٥ ـ نماذج من مواعظ السلف المشتملة على التوحيد:

مواعظ السلف المتضمنة تقرير التوحيد كثيرة، لذا سأورد نماذج من هذه المواعظ على أبواب التوحيد ليسهل فهمها ومعرفة وجه الدلالة منها:

أ ـ منزلة التوحيد:

● قال الإمام مالك رحمه الله ـ في بيان أهمية التوحيد ومنزلته ـ: «محال أن يظن النبي ﷺ، أنه علّم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٩٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٨٣٦، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، رقم (٤٤٧٣)؛ ومسلم ١/ ٤٣٩، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (١٠٠٢).

ما قاله النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[١] فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد»[٢].

ب ـ توحيد الربوبية:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء، مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر، فقال لهم: أدخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] ثم أخذ منهم الميثاق فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فأعطاه طائفة طائعين، وطائفة كارهين، فقالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] فلذلك ليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن ربه الله، ولا مشرك إلا وهو يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] فلذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وذلك حين يقول: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وذلك حين يقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] قال: يعني يوم أخذ عليهم الميثاق»[٣].

ففي هذه الموعظة إشارة لربوبية الله تعالى، فهو المتصرف في ملكه كيف يشاء، والخلائق كلهم له خاضعين.

فالخلائق كلّها خاضعة لله تسبح بحمده، وهذا مقتضى ربوبيته سبحانه.

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/ ٢٦٣، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)؛ ومسلم ١/ ٥١، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٣٢٤).

(٢) «ذم الكلام وأهله، للهروي» ٢/ ٩٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٥، وأورده ابن القيم في أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٥٤. **قلت**: وإسناده حسن.

ج ـ توحيد الألوهية:

١ ـ الإخلاص:

• قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عباد الرحمٰن! إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها، فما زال الشيطان يمنيه فيها، ويزين له حتى ما يرى شيئاً دون الجنة، فقبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ما تريدون بها، فإن كانت خالصة لله فأمضوها، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم، فلا شيء لكم، فإنّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، فإنه تعالى قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

٢ ـ العبادة:

• عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إنّ المؤمنين عجلوا الخوف في الدنيا، فأمّنهم الله يوم القيامة، وإنّ المنافقين أخّروا الخوف في الدنيا، فأخافهم الله يوم القيامة»[١].

وفي هذه الموعظة بيان لفضيلة الخوف من الله، وهي من أجلّ العبادات القلبية.

٣ ـ الشرك ومظاهره:

• عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «صوتان فاجران فاحشان ملعونان: صوت عند النعمة، وصوت عند المصيبة، فأما الصوت عند المصيبة: فخمش الوجوه، وشق الجيوب، ونتف الأشعار، ورن الشيطان، وأما الصوت عند النعمة، فلهو باطل، ومزمار الشيطان»[٢].

• وفي هذا الأثر ترهيب من القنوط من الله، والقنوط من الشرك وسوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد، رقم (١٦٨). **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، ص٤٣. **قلت**: وإسناده حسن.

د ـ توحيد الأسماء والصفات:

١ ـ صفة العلو:

كان شريح بن عبيد[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في مستهلّ خطبته: «ارتفع إليك ثغاء التسبيح، وارتفع إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبروت، بيدك الملك والملكوت، والمفاتيح والمقادير، وملكك الدنيا والآخرة، تعاليت وتجبّرت في مجلس وقار وكرسي عرشك، وترى كلّ عين وعين لا تراك، تدرك كل شيء وشيء لا يدركك»[(٢)].

٢ ـ صفة الكلام:

عن الضحاك عن بلال بن سعد أنّه كان يقول فيما يعظ به: «عباد الرحمٰن إنكم اليوم تتكلمون والله عَزَّ وَجَلَّ ساكت، ويوشك الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتكلم وتسكتون، ثم يثور عن أعمالكم دخان تسود منه الوجوه، ف ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][(٣)].

٣ ـ صفة اليد:

عن مجاهد[(٤)] رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إنّ الله عَزَّ وَجَلَّ غرس جنّة عدن بيده، ثم قال حين فرغ منها: قد أفلح المؤمنون، ثم أعلقه، فلم يدخلها أحد من شاء إلا من شاء الله أن يأذن في دخولها، فإذا كان كل سحر فتحت كلّ مرة، ثم يقال عند ذلك: قد أفلح المؤمنون»[(٥)].

---

(١) شريح بن عبيد بن شريح أبو الصلت الحضرمي، الحمصي، ثقة من سادات أهل الشام وصالحيهم، توفي بعد المائة؛ مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان البستي ١/١١٦؛ وتقريب التهذيب، ص٢٠٧.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة، رقم (١٠٧). **قلت**: وإسناده مقبول.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٠/٤٩٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي شيخ القراء والمفسرين، ثقة إمام في التفسير وفي العلم، توفي سنة ١٠١هـ؛ تقريب التهذيب، ص٤٥٣.

(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور، رقم (٢٣٧). **قلت**: وإسناده صحيح.

* ثانياً: النبوة:

١ ـ تعريفها:

ـ لغة: النبوّة ترد في اللّغة بثلاث معانٍ:

• الإخبار: وسمِّي النبيّ نبياً لأنه مُخبِرٌ ومُخبَرٌ، مخبر عن الله تعالى أمره ووحيه، ومُخبَر من الله بوحيه إليه[(١)].

• الارتفاع: ومنه النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض[(٢)].

• أَعْلَام الأرض التي يُهْتَدَى بها[(٣)].

ـ شرعاً: «هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس بإنبائه الوحي ودعوة الناس إلى شريعة رسول قبله»[(٤)].

٢ ـ منهج السَّلف في تقرير النبوّة:

النبوّة هي حبل الله الممدود إلى عباده، والطريق لمعرفة الشرائع وإقامة الحدود، وهي حجة الله على خلقه، ومناط الحساب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والنبوّة تمثّل الجانب التطبيقي العملي للدعوة والإرشاد والوعظ، فهي تعطي للدعاة إلى الله صورة حيّة لما ينبغي أن يكون عليه الداعية من خلق وعلم وإخلاص، فبالأنبياء تحصل الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والنبوّة متضمّنة لأصلي الدعوة الإسلامية وهما: التوحيد والمعاد، إذ لا طريق لمعرفة الشرع والخبر إلا من طريق الرسالة.

وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله سبحانه

---

(١) الصحاح، مادة: «نبأ».
(٢) لسان العرب ٣/ ٥٦١، مادة: «نبأ».
(٣) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٨٥، مادة: «نبأ».
(٤) النبوات لابن تيمية، ص٢٨١؛ ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني ١/ ٤٩.

جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

ـ فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

ـ والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

ـ والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلّا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومَنْ يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه»[(١)].

ومن هذا المنطلق أدرك السلف رحمهم الله عظم أمر النبوّة وجسامة دورها، فكانت النبوّة محور وعظهم استرشاداً واستمداداً.

وقامت دعوة السلف رحمهم الله وبيانهم لهذا الأصل العظيم على أصول راسخة وقواعد ثابتة، مستمدة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وفيما يلي عرض لأبرز هذه القواعد:

أ ـ النبوّة اصطفاء واختيار:

النبوّة منحة إلٰهية، لا تُنَال بمجرد التشهي والرغبة، ولا تُنَال بالمجاهد والمعاناة، وقد كَذَب الفلاسفة الذين زعموا أنّ النبوّة تُنال بمجرد الكسب

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٣.

بالجد والاجتهاد[١] وتكلّف أنواع العبادات، واقتحام أشقّ الطاعات، والدأب في تهذيب النفوس، وتنقية الخواطر، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس والبدن[٢].

وقد نوّه الله تعالى في كثير من آي القرآن الكريم إلى هذا الأصل، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٧].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موعظة له: «إنّ الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذِكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله فإنما تعظيم الأمور ما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل»[٣].

والنبوّة منحصرة في الرجال من أهل القرى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

والنبوّة منحصرة في ذرية نوح وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) وقد نقل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفلاسفة في مواضع كثيرة من كتبه قولهم بأنّ النبوّة مكتسبة، وطلب كبرائهم لها، ومما حكاه من قولهم: «إنّ النبوّة مكتسبة، ولهذا كان أكابر هؤلاء يطمعون في النبوّة، فكان السهروردي المقتول يقول: لا أموت حتى يُقال لي: قم فأنذر، وكان ابن سبعين يقول: لقد زَرَب ابن آمنة حيث قال: «**لا نبي بعدي**»؛ درء تعارض العقل والنقل ١/٣١٨؛ **وانظر**: من كتب ابن تيمية: «النبوات» ٢/٧٠٣؛ ومجموع الفتاوى ١٢/٣٩٣.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/٢٦٧.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٢٧.

نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

والنبوّة هبة إلٰهية أسداها الله لعباده، فهي مقتضى رحمته سبحانه وفضله، وليست واجبة عليه كما ادعت ذلك المعتزلة حين أوجبوا على الله إرسال الرسل وإنزال الكتب(١).

ب ـ النبوّة ركن من أركان الإيمان:

الإيمان بالأنبياء والرسل أصل من أصول الإيمان التي قرّرها القرآن الكريم والسنّة النبوية، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال جلّ ذكره: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال ﷺ ـ في حديث جبريل المشهور حينما سئل عن الإيمان ـ: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**(٢).

ويندرج تحت هذا الأصل أمور كثيرة منها:

١ ـ وجوب الإيمان بجميع الرسل والأنبياء دون تفريق بينهم؛ لأنّ الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

---

(١) قال السفاريني رحمه الله: «ذهبت المعتزلة إلى أنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب واجب على الله تعالى، والحق أنّ ذلك تفضل من الله تعالى على عباده، ورحمة بهم، والقول بالوجوب يتّجه إذا قلنا: أوجبه هو تعالى على نفسه»؛ لوامع الأنوار البهية ـ بتصرف ـ ٢/٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/١٧٩٣، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: إنّ الله عنده علم الساعة، رقم (٤٤٠٤)، واللّفظ له؛ ومسلم ١/٣٦، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

وفي ذلك يقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «من سبّ أحداً من الأنبياء والرسل أو جحد ما أنزل عليه أو جحد منهم أحداً أو جحد ما جاء به فهو بمنزلة من سبّ رسول الله ﷺ يصنع فيه ما يصنع فيه هو»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمسلمون آمنوا بهم كلهم، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فإنّ الإيمان بجميع الأنبياء فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلّهم»(٢).

٢ ـ يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين تفصيلاً فيمن ذكرت أسماؤهم في الكتاب والسنّة، وإجمالاً فيمن لم تذكر أسماؤهم، ويجب الإيمان بما أنزل عليهم إيماناً مجملاً، وأمّا نبوة محمد ﷺ فإنّ الإيمان بها يكون إيماناً مفصّلاً، وذلك باتّباعه والعمل بما جاء به.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونصّ على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]»(٣).

٣ ـ الإيمان بأنّ الرسل هم أكمل الخلق علماً وعملاً، وأصدقهم وأكملهم خلقاً، وأنّ الله ﷻ خصّهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأنّ الله عصمهم ونزّههم عن الكذب والخيانة وكتمان الوحي، والتقصير في التبليغ، ومن الذنوب الكبائر، وأما الصغائر فقد تقع منهم نادراً، على وجه الخطأ والنسيان، ولا يقرون عليها بل يسارعون إلى التوبة منها(٤).

(١) البيان والتحصيل، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي ١٦/ ٤١٥.
(٢) الصفدية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٣١١.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٨٨.
(٤) **انظر** كلاماً مفصلاً في: مجموع الفتاوى ٤/ ٣١٩.

٤ ـ الإيمان بأنّ الرسل لا يملكون شيئاً من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون النفع والضر لا لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، قال تعالى ـ لنبيه ﷺ ـ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ج ـ الإيمان بنبوة محمد ﷺ:

الإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعين لا يصح إيمان إلا به، ولا إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ [الفتح: ١٣].

قال الطبري رحمه الله: «ومن لم يؤمن أيها الأعراب بالله ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدقه على ما أخبر به، ويقرّ بما جاء به من الحق من عند ربه، فإنا أعددنا لهم جميعاً سعيراً من النار»[1].

ويتضمّن الإيمان بنبوّة محمد ﷺ أموراً كثيرة منها:

• تصديقه ﷺ فيما يخبر عن الله عز وجل، وطاعته فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول جلّ وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

فبتصديق الرسول وامتثال أمره واجتناب نهيه، يحقق العبد رضا الله عز وجل، ويحصل على سعادة الدنيا والآخرة.

وفي هذا الصدد يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوقَ كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في

(١) تفسير الطبري ٢٦/٧٩.

الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيلَ إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا مِن جهتهم. . . .

وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلَّقةً بهدي النبي ﷺ، فيجِب على كلٍّ من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين به، ويدخل به في عِداد أتباعه وشِيعته وحِزبه، والناس في هذا بين مستقِل، ومستكثِر، ومحروم، والفضلُ بيد الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

• محبته ﷺ، والمحبة هي دليل على صدق الإيمان، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده والناس أجمعين»**[2].

• متابعة الرسول ﷺ، ومعنى المتابعة أن يكون اعتقاد العبد وقوله، وعمله تابعاً لاعتقاد رسول الله وعمله، فلا يخالفه في شيء من ذلك بتقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان.

فمتابعة الرسول هي الدين كلّه، ومخالفته هي خروج عن الدين كلّه، والمتابعة هي سبيل الهداية، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال ابن تيمية رحمه الله: «قد ذمّ أهل العلم والإيمان من أئمة العلم والدين، من جميع الطوائف من خرج عما جاء به الرسول ﷺ في الأقوال والأعمال، باطناً وظاهراً، ومدحهم هو لمن وافق ما جاء به الرسول ﷺ»[3].

• توقيره وتعظيمه ﷺ، والمقصود بذلك احترام وإكبار كلّ ما له تعلّق

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٥.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ١٤، كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول من الإيمان، رقم (١٤)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٦٧، كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والوالد، رقم (٦٣).

(٣) الفتاوى الكبرى ٥/ ٥٥٢.

به ﷺ، كاسمه، وحديثه، وسنته، وشريعته، وآل بيته، وصحابته، وأفراد أمته، لقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

• الإيمان بما خصّ الله به نبيه ﷺ من خصائص دون سائر الرسل عليهم السلام، فلقد فاضل الله عز وجل بين الأنبياء عليهم السلام، حيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأفضل الرسل والأنبياء محمد ﷺ الذي خصّه ربه بخصائص، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**فضّلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»(١).

٣ ـ العظة بالنبوّة:

* النبوّة تعتبر رافداً ومصدراً عظيماً للمواعظ، ولهذا كثر الاستدلال والاسترشاد بها في مواعظ السلف رحمهم الله ويتجلّى ذلك من خلال:

أ ـ الوعظ بحال وأقوال الأنبياء عليهم السلام:

أورد القرآن الكريم كثيراً من قصص وأخبار الأنبياء عليهم السلام، والتي تنضوي على مواعظ جمّة، من خلال سيرة الأنبياء وصبرهم واحتسابهم وحسن عاقبتهم ـ ومن اتبعهم وآمن بهم ـ.

وفيما يلي إشارة إلى بعض مقامات الوعظ من خلال سيرة الأنبياء عليهم السلام:

١ ـ اقتداء الواعظ بسمت الأنبياء عليهم السلام:

الأنبياء عليهم السلام هم سادة الوعاظ والمبلغين، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم في مقام الدعوة والنصح والتبليغ، قال جلّ وعلا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ

---

(١) رواه مسلم ١/ ٣٧١، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٨١٢).

حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤]. قال الشوكاني رحمه الله: «قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله»(١).

فالداعية والواعظ يتأسى في المقام الأول بصفات الأنبياء عليهم السلام، وبأخلاقهم وصبرهم واحتسابهم وتوكّلهم في جميع أمورهم ودعوتهم على الله الواحد الأحد.

والواعظ يستمدّ آداب الموعظة من خلال ما قصّه الله علينا من قصص الأنبياء ووعظهم لأقوامهم، ومن ذلك تمثيلاً لا حصراً:

- قصّ الله تعالى علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٥].

فالواعظ يستفيد من هذه الموعظة عدّة آداب منها(٢):

- التدرج في الموعظة، والبدء بالأهم وهو الدعوة إلى التوحيد.
- التلطف والترفق في الموعظة، حيث خاطب إبراهيم عليه السلام أباه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ استجداء وترفقاً.
- البدء بوعظ الأقرب فالأقرب من الأهل والقرابة.
- الوعظ يحتاج إلى بصيرة وعلم، ولذا قال إبراهيم لأبيه: ﴿إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.
- استعمال أسلوب الترغيب والترهيب في الموعظة، فالترغيب في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، والترهيب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٢١٢.

(٢) انظر هذه الآداب في التفاسير الآتية: تفسير الطبري ١٦/ ٩٠؛ تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٤؛ فتح القدير ٣/ ٣٣٦.

٢ ـ الاستشهاد بمواعظ الأنبياء عليهم السلام:

كان السلف رحمهم الله يستشهدون بأحوال الأنبياء عليهم السلام ومواعظهم، في خطبهم وتذكيرهم، أسوة بسيد الخلق محمد ﷺ الذي ذكر طرفاً من مواعظ الأنبياء في خطبه وتذكيره.

فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت**»[(١)].

قال ابن رجب الحنبلي[(٢)] رحمه الله: «يشير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأنّ الناس تداولوه بينهم وتوارثوه عنهم قرناً بعد قرن، وهذا يدل على أن النبوة المتقدمة جاءت بهذا الكلام، وأنه اشتهر بين الناس حتى وصل إلى أول هذه الأمة»[(٣)].

نماذج من مواعظ السلف رحمهم الله المشتملة على مواعظ الأنبياء عليهم السلام:

● عن أبي حماد مولى إبراهيم بن سام قال: وعظ سفيان الثوري رحمه الله يوماً علي بن الحسن السليمي رحمه الله، فكان مما قال له: «... فكن يا أخي كيساً حذراً على ما زال منك ومضى، لا تدري ماذا يفعل بك ربك فيه، وما بقي من عمرك لا تدري ماذا يحدث لك فيها، فإن إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن حذر على نفسه فسأل ربه فقال: ﴿**وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [يوسف ١٠١]، وقال موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ [القصص: ١٧]، وقال شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا**﴾ [الأعراف: ٨٩]، فهؤلاء أنبياؤه خافوا على أنفسهم»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٥١٥، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم (٣٣٢٤).

(٢) عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب البغدادي، الحنبلي الحافظ، مهر في فنون الحديث، وكان صاحب عبادة وتهجد، ومن مؤلفاته «شرح الترمذي» و«شرح صحيح البخاري»، توفي سنة: ٧٩٥هـ؛ إنباء الغمر لابن حجر ٣/ ١٧٥.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص٣٧٥.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٥. **قلت**: وإسناده حسن.

• عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر: «أنّ داود عليه السلام كان يُعَاتَب في كثرة البكاء، فقال: ذروني أبكي قبل يوم البكاء، قبل تحريق العظام، واشتعال اللِّحى، قبل أن تؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[١].

والملاحظ أنّ أغلب المواعظ الواردة عن الأنبياء عليهم السلام، هي من الإسرائيليات، وأكثر أسانيدها واهية، ولا يثبت منها إلا النزر القليل[٢].

ب ـ العظة بحال وأقوال النبي المصطفى محمد ﷺ:

* تقدّم معنا في المبحث السابق، ـ عند الكلام عن مصادر الوعظ ـ، أنّ سنّة النبي ﷺ هي المصدر الثاني من مصادر الوعظ، وقد بُسط الكلام حينها عن اعتماد السلف الصالح رحمهم الله على السنّة النبوية في مواعظهم واسترشادهم بها، مع اتصافهم بصفات المصطفى ﷺ في سمته وأساليب ووسائل وعظه.

* ويندرج تحت هذا الأصل النصيحة للرسول ﷺ، باعتبار أنّ النصيحة والموعظة تشتركان في الغاية والمعنى[٣].

ومن هنا كانت النبوّة أساساً من أسس الوعظ، باعتبارها أوّلاً مصدراً أصيلاً من مصادر الوعظ، وباعتبارها مقصداً من أجلّ مقاصد الوعظ.

وبهذا اشتغل السلف رحمهم الله تعالى بسنّة المصطفى ﷺ نصيحة له، إذ إنّ النصيحة للرسول ﷺ تكون بأمور منها:

• إحياء سنته ﷺ: وذلك باستثارة علوم السنّة، والعمل على نشرها وتعليمها، ويدخل في ذلك نشر السلف رحمهم الله لمواعظ النبي ﷺ وتعويلهم عليها في خطبهم وتذكيرهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد»، ص٦٩؛ وابن المبارك في «الزهد» رقم (٩٨٣)؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٨٥. **قلت**: وإسناده صحيح، وهو من الإسرائيليات.

(٢) سيأتي مزيد بيان للروايات الإسرائيلية، ص٣٣٩.

(٣) **انظر** في الفرق بين الموعظة والنصيحة، ص٦٨ من هذا البحث.

• الاهتداء بهديه ﷺ: وذلك بالتأسي بخصاله ومكارم أخلاقه، وحسن معاملته، والتأدب بآدابه في السر والعلانية، في المنشط والمكره.

* ومن محاور الوعظ المتعلّقة بهذا الأصل، الردّ على أدعياء النبوّة ومنكريها، وذلك من خلال كشف شبهاتهم ودحضها بالحجة والبرهان مع بيان الحق في هذا الباب.

وهم ثلاثة أصناف:

أ ـ منكرو النبوات من المشركين والملاحدة:

وتركّزت شبه منكري النبوة في (البشرية، والمثلية)، حيث استنكروا أن يكون الرسول بشراً مثلهم، ورأوا أن مقام النبوّة أكبر من درجة البشرية[١].

ب ـ أدعياء النبوة:

ادعى النبوّة طائفة من غلاة الفلاسفة والصوفية، وشبهتهم في ذلك أنّ مقام النبوّة يكتسب بأنواع الرياضات والمجاهدة والرياضة، وقد فند السلف رحمهم الله مزاعمهم وردوا شبههم[٢].

ج ـ الفرق الإسلامية التي ضلّت في باب النبوّة:

الذين ضلوا في باب النبوة ـ من الفرق الإسلامية ـ ثلاثة أصناف:

١ ـ الأشاعرة[٣]: «حيث جوَّزوا بعثة كلّ مكلف، والنبوّة عندهم مجرّد إعلام النبي بما أوحاه الله إليه، والرسالة مجرّد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه، وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٣. (٢) «النبوات» لابن تيمية ٢/ ٧٠٢.

(٣) هم أتباع أبي الحسن الأشعري الذين هم على مذهبه ـ قبل أن يرجع إلى معتقد أهل السنة ـ وهم في الجملة لا يثبتون من الصفات إلّا سبعاً، ويؤولون بقية الصفات بتأويلات عقلية، والأشاعرة يوافقون أهل السنّة في غالب أصول الاعتقاد، عدا الصفات. **انظر**: «الملل والنحل» ١/ ١٣٨ ـ ١٥٨.

(٤) «منهاج السنة النبويّة» لابن تيمية ٢/ ٤١٤.

٢ ـ المعتزلة[١]، والشيعة[٢]: يذهب المعتزلة إلى أنّ إرسال الرسل واجب على الله تعالى بناءً على أصلهم في التحسين والتقبيح العقليين، وتبعهم في ذلك الشيعة[٣].

٣ ـ الفلاسفة[٤] والصوفية[٥]: النبوة عند الفلاسفة والصوفية عبارة عن فيض يفيض على الإنسان بحسب استعداده، ونفوا أن ينزل الملَك بالوحي على النبي، وهي مكتسبة عندهم[٦].

وقد تولى السلف رحمهم الله الردّ على هؤلاء الأصناف كلّهم، بالموعظة والحكمة وبإقامة الحجة على بطلان دعواهم، وببيان الحق في هذا

---

(١) ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، وتبنى عقيدة المعتزلة على أصولهم الخمسة وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين، وإثبات الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد افترقت المعتزلة إلى عشرين فرقة، كل فرقة تكفر سائر الفرق الأخرى. **انظر**: مقالات الإسلاميين للأشعري ٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) هم الذين ادعوا مشايعة علي بن أبي طالب على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وانقسم الشيعة إلى عدّة طوائف يجمعها القول بوجوب التعيين والتنصيص على الإمامة، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي، والتبري قولاً وفعلاً وعقداً إلا في حالة التقية. **انظر**: الملل والنحل للشهرستاني ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٣) «مجموع الفتاوى» ٨/ ٧٢؛ و«منهاج السنة النبوية» ٢/ ٤١٥.

(٤) الفلاسفة: نسبة إلى الفلسفة وهي كلمة يونانية معناها: محبة الحكمة، والفلسفة تتسع دائرتها طوراً فتدخل في جميع فروع العلم، وتضيق طوراً فلا تتسع لغير بحث ما وراء الطبيعة، وزلت أقدام الفلاسفة في مسألة الإلهيات وأنكروا علم الله بالجزئيات، كما أنكروا النبوات والمعاد. **انظر**: «الملل والنحل» ٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٩.

(٥) اختلف في نسبة الصوفية، والأرجح نسبتها إلى لبس الصوف، وأول ما ظهر التصوف في الكوفة بسبب قربها من بلاد فارس، والتأثر بالفلسفة اليونانية، وبلغ ذروته في القرن الثالث الهجري، وكانت الصوفية في أول أمرها تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، وكان أقطابها على مذهب أهل السنة، وكانت مخالفاتهم محصورة في بعض صور التعبّد، ثم انحرفت الصوفية بعد ذلك، في عقيدتها وعبادتها، فظهر فيها عقيدة الحلول والاتحاد، والإباحية، ودب الشرك وعبادة القبور إلى أكثر معتنقيها، والصوفية فرق كثيرة، كلّ فرقة تنتسب إلى شيخها، كالقادرية والتجانية، والرفاعية، وغيرها. **انظر**: «الفصل في الملل والنحل» ٤/ ٢٢٦.

(٦) «درء تعارض العقل والنقل» ٥/ ٣٥٣.

الباب ودعوة هذه الطوائف للإيمان بالنبوّة[1].

*** ثالثاً: المعاد[2]:**

١ ـ تعريفه:

ـ لغة: «المعاد» لغة مشتق من: عادَ يَعودُ عَوْدَةً وعَوْداً، قال ابن فارس: «العين والواو والدال أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على تثنيةٍ في الأمر، والآخر جنسٌ من الخشب»[3].

و«المعاد» يرد في اللغة بعدّة معانٍ منها:

- المصير: قال ابن فارس: «والمعاد كل شيء إليه المصير»[4].
- المرجع: ومنه قولهم: «رَجَعَ عَوْدَه على بَدْئه: أي: في الطّريق الذي جاء منه»[5].
- الآخرة: قال الأزهري: «والآخرةُ مَعادُ الخَلْقِ»[6].

ـ شرعاً:

«هو الاعتقاد الجازم بإحياء الله تعالى الموتى، وإعادة خلقهم كهيئتهم يوم ابتدَأَهم، وبعثهم يوم القيامة للجزاء والحساب»[7].

٢ ـ منهج السَّلف في تقرير المعاد:

لقد أولى السلف رحمهم الله عقيدة المعاد والبعث والنشور، عناية بالغة، وبيّنوا الحق الواجب اعتقاده في هذه المسألة، وردّوا شبه من أنكر

---

(١) وللسلف رحمهم الله كتب كثيرة بسطت هذه المسألة؛ منها: «دلائل النبوّة» لإسماعيل بن محمد الأصبهاني؛ و«دلائل النبوّة» لأبي نعيم الأصبهاني؛ و«النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) من الألفاظ المرادفة للفظ «المعاد» شرعاً: البعث، والنشور، والحشر. **انظر**: «المفردات للراغب»، ص٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤/ ١١، مادة: «عود».

(٤) المصدر السابق ٤/ ١١.

(٥) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٤.

(٦) الصحاح ١/ ٤٣٥، مادة: «عود».

(٧) «دقائق التفسير»، لابن تيمية ٣/ ٢٦؛ و«تفسير ابن كثير» ٥/ ٣٩٤؛ و«تفسير أبي السعود» ٧/ ٥٨.

المعاد، سواءً كان الإنكار كلّياً أو جزئياً، وأقاموا الحجج والبراهين على ذلك.

* ويلخّص الإمام الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدة السلف في المعاد فيقول: «ويؤمن أهل الدين والسنّة بالبعث بعد الموت يوم القيامة، وبكلّ ما أخبر الله سبحانه، من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق، فيما يرونه ويلقونه هنالك في ذلك اليوم الهائل، من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل، والإجابة عن المسائل، إلى سائر الزلازل والبلابل[1] الموعودة في ذلك اليوم العظيم، والمقام الهائل، من الصراط، والميزان، ونشر الصحف التي فيها مثاقيل[2] الذر من الخير والشر وغيرها.

ويؤمن أهل الدين والسنّة بشفاعة الرسول ﷺ لمذنبي أهل التوحيد، ومرتكبي الكبائر، كما ورد به الخبر الصحيح [في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**[3]].

ويؤمنون بالحوض[4]، والكوثر[5]، وإدخال فريق من الموحدين الجنة بغير حساب، ومحاسبة فريق منهم حساباً يسيراً، وإدخالهم الجنّة، بغير سوء يمسهم، وعذاب يلحقهم، وإدخال فريق من مذنبيهم النار، ثم إعتاقهم وإخراجهم منها، وإلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنّة، ولا يخلدون في النار.

---

(١) البلابل: هي الهموم والأحزان؛ النهاية لابن الأثير ١/ ١٥٠.
(٢) جمع مثقال، ومثقال الشيء: ميزانه من مثله؛ مختار الصحاح ١/ ٣٦، مادة: «ثقل».
(٣) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٦٢٥، كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٣٥)، واللفظ له؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه؛ ورواه أبو داود ٤/ ٢٣٦، كتاب: السنة، باب: في الشفاعة، رقم (٤١١٤).
(٤) وهو حوض في الجنة، أعطيه النبي ﷺ، آنيته عدد نجوم السماء، يسقى منه المؤمنون في أرض المحشر، ويذاد عنه المنافقون، من شرب منه فلا يظمأ أبداً؛ «تفسير ابن كثير» ٤/ ٥٥٧.
(٥) نهر أعطيه ﷺ في الجنة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل؛ «تفسير الطبري» ٣٠/ ٣٢٠.

فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبداً، ولا يترك الله من عصاة أهل الإيمان أحداً.

ويشهد أهل السنّة: أنّ المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم، وينظرون إليه، على ما ورد به الخبر الصحيح، عن رسول الله ﷺ في قوله: «**إنكم ترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر**»[١][٢].

* ولعلّ من الأسباب التي حَدَت بالسلف إلى تولية هذا الأصل مزيد عناية وبيان، أمورٌ منها:

• عناية الكتاب والسنّة بالإيمان باليوم الآخر: فالمتتبّع لطريقة القرآن الكريم في مجادلة خصوم العقيدة، يجد أنّ الاهتمام باليوم الآخر أخذ قسطاً واسعاً من تلك الحجج والبراهين الدامغة لمنكري اليوم الآخر، وكذا في السنّة المطهرة، فكثرت بذلك مسالك الاستدلال على المعاد، كما كثرت أسماء هذا اليوم العظيم.

• إنّ المعاد وما فيه من أهوال وأحوال، يعتبر من أعظم وسائل الوعظ والترغيب والترهيب، ولذا كثر اقتران الأوامر والنواهي في القرآن الكريم والسنّة النبويّة بالوعد والوعيد.

• إنّ الحياة الدنيا جُعِلَت لهدف أعلى وغاية أسمى، ولولا الوعد والوعيد الأخروي، لما كان هناك فرق بين الخير والشر، ولا كانت ثمة فضائل ولا رذائل.

قال الراغب الأصفهاني[٣] رحمه الله: «لو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهماً وحزناً، ولا يكون بعدها

---

(١) رواه البخاري ١/ ٢٠٣، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، رقم (٥٢١).

(٢) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث»، ص٢٥٧.

(٣) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهاني، الملقب بالراغب، العلامة الماهر المحقق الباهر كان من أذكياء المتكلمين، له تصانيف كثيرة، توفي في رأس المائة الخامسة؛ سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠.

حال مغبوطة[١]، لكان أخس البهائم أحسن حالاً من الإنسان»[٢].

* والسلف رحمهم الله إذ يقررون عقيدة المعاد يقتصرون على الأدلة النقلية والعقلية الواردة في الكتاب والسنّة، اللذين سلكا مسلكاً فريداً في تقرير هذا الأصل، وفيما يلي إشارة إلى المعالم الكبرى لمسلك القرآن والسنّة[٣] في تقرير المعاد:

أ ـ التنوية بأهمية المعاد وأثره في استقامة الحياة الدنيا والآخرة:

إنّ الإيمان بالمعاد له أثر عظيم في تهذيب النفس وتزكيتها واستقامة أحوالها، وفي تحقيق اطمئنانها وسعادتها في الدارين، ومن أبرز آثار الإيمان بالمعاد[٤]:

• حجز الإنسان عن المعاصي وتقوية الوازع الديني في قلبه وضبط هوى النفس بمقتضى الشرع: وذلك بعلم الإنسان أنه مؤاخذ ومجازى على أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

• المسارعة إلى الطاعة والعمل الصالح: إذ إنّ المؤمن كلما زاد تطلّعه إلى اليوم الآخر وشوقه لما أعد الله لعباده المتقين في الجنّة، كان أكثر مسارعة إلى العمل الصالح، قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) أي: حال فيها نعمة وفرح وسرور؛ «لسان العرب» ٧/٣٥٩، مادة: «غبط».

(٢) «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، للراغب الأصفهاني، ص١٠٧.

(٣) الأحاديث النبويّة الواردة في تقرير المعاد كثيرة جداً، لا يتسع المقام لذكرها وحصرها، ولقد عنيت كتب الصحاح والسنن والمسانيد بذكرها وجمعها، وأفردت لها كتباً وأبواباً؛ كما في صحيح البخاري، كتاب: «الرقاق»، وكتاب: «التوحيد»؛ وصحيح مسلم، كتاب: «الرقاق»، وكتاب: «صفة القيامة والجنة والنار»، وكتاب: «الجنة وصفة نعيمها»، وكتاب: «الفتن وأشراط الساعة».

(٤) **انظر**: «منهج الإسلام في تزكية النفس» د. أنس أحمد، ص١٣٣.

• الاطمئنان وانشراح الصدر: فالمؤمن يعلم أنّ الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء، فمن أجل ذلك تجده راضياً بقضاء الله محتسباً الأجر عنده يوم الدين، كما جاء في حديث صهيب بن سنان ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[(١)].

• السعادة في الآخرة: إنّ المؤمنين خافوا ربهم بالغيب ووطنوا نفوسهم للقائه، فأمنهم الله يوم الفزع الأكبر، وأعد لهم نزلاً ومدخلاً كريماً[(٢)]، قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٣ ـ ٣٥].

ب ـ عرض مقولات المنكرين للمعاد[(٣)]، وإيراد شبههم وتفنيدها:

ومن أبرز شبه المنكرين: استحالة عودة الحياة للإنسان وقد استحال تراباً، واستحالة جمع ما تفرّق من الجسد، قال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، فردّ الله تعالى شبهتهم ببيان كمال قدرته وسعة علمه الذي أحاط بكل شيء[(٤)].

ج ـ ذكر أهم أشراط الساعة تلميحاً وتصريحاً:

ثم عرض مشاهد يوم القيامة من حيث النفخ في الصور ثم الخروج

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٢٩٥، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، رقم (٥٣١٨).

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٢٨٣.

(٣) قسّم الشيخ حافظ حكمي رحمه الله منكري البعث إلى أربعة أصناف: جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية، وطائفة من الدهرية يقال لهم الدورية، والدهرية من مشركي العرب، وملاحدة الجهمية؛ «معارج القبول» ٢/ ١٩٩.

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٩.

من الأجداث إلى الخلود في الجنة أو النار[١] فمن الآيات التي ذكرت أشراط الساعة قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٥]، ومن مشاهد يوم القيامة يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١].

د ـ إيراد براهين المعاد الحسيّة والمعنويّة وهي أنواع[٢]:

• الإقسام على وقوع البعث[٣]؛ كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

• تقرير كمال علم الرب سبحانه[٤]، كما قال تعالى في جواب من قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

• تقرير كمال قدرته ﷻ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ويندرج تحت هذا الأصل:

ـ الاستدلال بمظاهر الكون العظمى من خلق السمٰوات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ـ الاستدلال بمن أماتهم الله ثم أحياهم في الدنيا، قال تعالى ـ عن قتيل بني إسرائيل ـ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

---

(١) قال السفاريني رحمه الله: «اعلم أنّ مراتب المعاد: البعث، والنشور، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم السؤال والحساب والميزان»؛ لوامع الأنوار البهية، ص٤٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٩/ ٢٢٤.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١١٠.

(٤) «بدائع التفسير»، لابن القيم ٤/ ١٩٤.

- الاستدلال بالنشأة الأولى(١).

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

- تقرير كمال حكمته جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

٣ ـ العظة بالمعاد:

إنّ قسوة القلوب وقحط العيون داء وأي داء!، إنه يورث في الجوارح كسلاً وفي النفوس أملاً زائفاً غير مقرون بصالح العمل.

ومن أنجع الأساليب وأنفع الأدوية لعلاج هذا الداء العضال: تذكر الموت وسكرته، والقبر وظلمته، والموقف وشدته، والقيامة وأهوالها.

ولهذا كثرت عناية السلف بأمور الآخرة، تذكيراً لأنفسهم وشحذاً لهممهم، ووعظاً لغيرهم.

ومواعظ السلف رحمهم الله حافلةٌ بذكر أمور الآخرة والمعاد، وفيما يلي ذكر لأبرز محاور الوعظ بالمعاد عند السلف رحمهم الله، مشفوعة ببعض غُرَر هذه المواعظ:

أ ـ تقرير عقيدة المعاد:

الإيمان بالمعاد أحد أركان الإيمان، التي وردت في الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وجاء في حديث جبريل عليه السلام: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٢).

ولذا فقد سارت مواعظ السلف رحمهم الله في تقرير هذا الأصل في

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، لابن القيم ١/ ١٤٢.

(٢) سبق تخريجه، ص١٧٨.

النفوس أوّلاً ـ على نحو ما سبق بيانه[١] ـ لأنّ الإيمان بالمعاد مفتاح كلّ خير، والتغافل عنه مفتاح كلّ شر.

ولأنّ المواعظ والآيات والنذر لا ينتفع بها إلا من كمل إيمانه بالمعاد والبعث والنشور.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطَّل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتة، والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدَّق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم»[٢].

• عن أبي حفص الصيرفي أنّ عمر بن ذر[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا تلا: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] قال: «ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت، أتراك تجمع بين القسمين في دار واحدة، قال أبو بكر ـ ابن أبي الدنيا ـ: وبكى أبو حفص بكاء شديداً»[٤].

• وعن القعقاع بن عجلان أنّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطب في الناس فقال: «أيها الناس إنّكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى، وإنّ لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم»[٥].

ب ـ الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد:

إنّ النفس البشرية مجبولة على حُبِّ ما ينفعها وبغض ما يضرها، ولذلك فمن حكمة الله البالغة أن جعل للأعمال الصالحة جزاءً موفوراً يناله

---

(١) **انظر** ص١٨٨ من هذا البحث. (٢) إعلام الموقعين ١/ ١٤٥.

(٣) عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة أبو ذر الهمذاني ثم المرهبي الكوفي، الإمام، كان واعظاً بليغاً، وقد رمي بالإرجاء، توفي سنة ٢٥٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٥.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في: «حسن الظن بالله»، ص٢٧؛ وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٦٣؛ وأورده ابن رجب الحنبلي، في: «التخويف من النار»، ص١٩١. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل»، ص٦٦؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٢٦٦. **قلت**: ورجال إسناده ثقات.

العبد في دنياه وآخرته، وفي المقابل جعل للأعمال المنكرة السيئة نكالاً وثبوراً.

وذكر الوعد والوعيد يهزّ النفوس ويوقظ من به سنة وغفلة، وقد كثر مجيئه في الكتاب والسنّة، بل إنّ رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يعظ بالسور المشتملة على ذكر الوعد والوعيد، ومن أمثلة ذلك:

• عن أم هشام بنت حارثة بن نعمان رضي الله عنها قالت: «أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] من فِي رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة»[١].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء سبب اختيار ق أنها مشتملة على البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة»[٢].

نماذج من مواعظ السلف التي قرن فيها الترغيب والترهيب بالوعد والوعيد:

• عن عمران بن عمر ثنا سفيان الثوري قال: قام أبو ذر الغفاري رضي الله عنه[٣] عند الكعبة فقال: «يا أيها الناس أنا جندب الغفاري هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم، قالوا: ما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حرّه لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين مجلساً في طلب الآخرة ومجلساً في طلب الحلال، اجعل المال

---

(١) رواه مسلم ٢/ ٥٩٥، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (١٤٤٠).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ١٦١.
(٣) جندب بن جنادة الغفاري أحد السابقين الأولين من نجباء أصحاب محمد ﷺ، تأخرت هجرته فلم يشهد بدراً، ومناقبه كثيرة جداً، توفي سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان؛ سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦.

درهمين درهماً تنفقه على عيالك من حله ودرهماً تقدمه لآخرتك»[١].

فضمّن رضي الله عنه موعظته ذكر منازل الآخرة وهي من جملة الوعد والوعيد.

ج ـ مداواة أدواء النفس بتذكر أمور المعاد:

النفس تصاب بأدواء كثيرة، وأنفع العلاج أحياناً أمرّه، فحرص النفس وطمعها وجزعها لا يداويه إلا تذكر محلّ الأجداث، ومصارع الأموات.

• فعن عبد الملك بن عمير عن أبي الدرداء رضي الله عنه[٢] قال: «من أكثر ذكر الموت قلّ فرحه وقلّ حسده»[٣].

• وعن الأوزاعي قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله برسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول أما بعد: «فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه فيما لا ينفعه»[٤].

د ـ العظة بذكر منازل المعاد وما يحدث فيها من أهوال:

إنّ رحلة الإنسان إلى الدار الآخرة تبدأ من خروج الروح، وفي هذه الرحلة يلاقي المرء أهوالاً وعظائم، حتى يستقر قراره في الجنة أو النار، وذكر هذه الأهوال من أبلغ العظات.

ومن هذه المنازل التي ذكرت في مواعظ السلف رحمهم الله:

• العظة بالموت: ـ والموت أعظم رادع، وأكبر زاجر ـ.

ـ فعن أبي عفان قال: سمعت يزيد بن تميم[٥] رضي الله عنه يقول: «من لم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٥ ورجاله ثقات؛ وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٥٩١.

(٢) عويمر بن زيد بن قيس أبو الدرداء الأنصاري، الإمام القدوة قاضي دمشق وصاحب رسول الله ﷺ، جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ، وشهد أُحداً، واشتهر بالزهد والعبادة، توفي في أواخر خلافة عثمان؛ سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٥.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد، ص٣٧؛ وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص٦١. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٥) يزيد بن تميم مولى أبي ربية، قال الحافظ ابن حجر: « كذا ذكره يحيى بن يونس في الصحابة» الإصابة في معرفة الصحابة ٦/ ٦٤٩، ولم أجد من ترجم له غير الحافظ ابن حجر.

يردعه القرآن والموت، ثم تناطحت الجبال بين يديه، لم يرتدع»[١].

ـ وعن مفضل بن يونس قال: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد نغص هذا الموت على أهل الدنيا ما هم فيه من نضارة الدنيا وزهرتها، فبينا هم كذلك، وعلى ذلك، إذ أتاهم حادٍ[٢] من الموت فاخترمهم[٣] مما هم فيه، فالويل والحسرة هنالك لمن لم يحذر الموت ويذكره في الرخاء، فيقدم لنفسه خيراً يجده بعدما يفارق الدنيا وأهلها، قال: ثم بكى عمر حتى غلبه البكاء فقام»[٤].

- **العظة بالقبر:**

والقبر أوّل منازل الآخرة والنظر فيه يوجب أعظم العظة، ومن النماذج في ذلك:

ـ عن إبراهيم بن بشار[٥] قال: «قيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى محلَّة[٦] الأموات»[٧].

ـ وعن ابن عبد الحكم قال: خطب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «...في كل يوم وليلة تشيعون غادياً أو رائحاً إلى الله تعالى، وتضعونه في صدع من الأرض، ثم في بطن الصدع غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وأسكن التراب، وواجه الحساب، فقير إلى ما قدم أمامه، غني عما ترك بعده...»[٨].

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد»، ص٢٨٧. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) الحَدْوُ: سَوْقُ الإبِل والغِناء لها، وحَدَا الشيءَ يَحْدُوه حَدْواً: تبعه؛ لسان العرب ١/ ٥٥، مادة: «حدا».

(٣) اخْتُرِمَ فُلانٌ عَنَّا: مات وذهب، واخْتَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ من بين أَصحابه: أَخَذَتْهُ من بينهم؛ لسان العرب ١٢/ ٢٧٢، مادة: «خرم».

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٤٦. **قلت**: ورجال إسناده ثقات.

(٥) إبراهيم بن بشار الخرساني، صاحب إبراهيم بن أدهم، وثقه ابن حبان، توفي سنة: ٢٣٠هـ؛ تقريب التهذيب، ص٢٨.

(٦) المَحَلَّةُ: منزل القوم؛ مختار الصحاح١/ ٦٣، مادة: «حلل».

(٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٨) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٩٤ بإسناد حسن.

• **العظة بأهوال يوم القيامة:**

ـ عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان[(١)] رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنّ الدنيا قد آذنت بصرم[(٢)]، وولت حَذَّاء[(٣)]، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منقلبون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكر لنا أنّ الحجر يُلقى من شفير جهنم، فيهوى فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً، ووالله لتملأن الجحيم، أفعجبتم؟ ولقد ذُكر لنا أنّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ[(٤)] من الزحام»[(٥)].

ـ ومن خلال هذا العرض ندرك أنّ الأسس التي قامت عليها دعوات الرسل جميعاً: وهي الدعوة إلى التوحيد، والنبوّة، والمعاد، هي نفسها الأسس التي قامت عليها مواعظ السلف رحمهم الله، ومن هنا تتجلى أثرية مواعظ السلف وعمق تأصيلها.

والسلف قد سلكوا لتقرير هذه الأسس مسلكين كما سبق، وهما المسلك العلمي التقريري، والمسلك الوعظي التأديبي، فثقفوا بمواعظهم الأذهان، وألانوا بها الأفئدة، فأثمرت مواعظهم تلك الثمرات اليانعات، فأخرجوا الخلق إلى نور الهدى بعد أن كانوا في غياهب الظلمات.

❁ ❁ ❁

---

(١) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب أبو غزوان المازني، أسلم سابع سبعة في الإسلام، وهاجر إلى الحبشة ثم شهد بدراً والمشاهد، وكان أحد الرماة المذكورين، ومن أمراء الغزاة، توفي سنة: ١٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ١/ ٣٠٤.

(٢) أي: أعلمت بانقطاع؛ «النهاية في غريب الحديث» ٣/ ٢٦، مادة: «صرم».

(٣) أي: ولّت مسرعة؛ «النهاية في غريب الحديث» ١/ ٣٥٦، مادة: «حذذ».

(٤) أي: ممتلئ، «النهاية في غريب الحديث» ٤/ ١٧٧، مادة: «كظظ».

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص١٨٨؛ وهناد بن السري في «الزهد» ٢/ ٣٩٦. **قلت**: وإسناده حسن.

المطلب الثاني

مجالات الوعظ عند السلف

* [مفهوم مجالات الوعظ] *

أ ـ مفهوم المجالات:

المجالات: جمع مجال، وهو اسم مفعول من: جَالَ يجُولُ جَوَلاناً وجَولةً.

قال ابن عَبّاد: «والمَجالُ: مَوضِعُ الجَوَلان، ويقال: لم يَبقَ مَجالٌ في الأمرِ، وهو مَجازٌ».

والمجال: هو ميدان السير والطواف والحركة(١).

ب ـ المقصود بمجالات الوعظ:

إنّ الألفاظ والتراكيب الاصطلاحية تستجلب معانيها ومدلولاتها، من مفهومها اللّغوي، لذا فإنّ مجالات الوعظ لها ارتباط بالجانب الموضوعي للموعظة.

فهي: الموضوعات التي يتطرق إليها كلّ واعظ ويجول فيها بمنطقه ولسانه ونصحه وإرشاده.

ومجالات الوعظ بهذا كثيرة جداً، بل إنّ في كل زمان ومكان تستجدّ مجالات في الوعظ، بحسب ما يستجدّ للناس من غفلة وانحراف عن شريعة الله ﷻ، ولكن ثمة محاور رئيسة يدور الوعظ في فلكها مهما امتدت الأزمان وتباعدت الأوطان.

---

(١) انظر: تاج العروس ٢٨/٢٤٧، مادة: «جول».

قال الغزالي(١) رَحِمَهُ اللهُ - في بيان مجالات الوعظ المحمود -: «وكان كلام الحسن البصري في علم الآخرة، والتفكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس، وآفات الأعمال، وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعرِّف حقارة الدنيا وعيوبها، وتصرمها، ونكث عهدها، وخطر الآخرة وأهوالها، فهذا هو التذكير المحمود شرعا»(٢).

ووجه كون هذه الأمور محاور رئيسة للوعظ، هي أنّ الناصح والواعظ يسعى بنصحه إلى تحقيق العبودية الكاملة لله ﷻ، وهذه الغاية لا تتحقق، إلا بمعرفة الله ﷻ حق المعرفة، ومن ثمّ تعظيمه وتعظيم محارمه، والسعي الحثيث في استجلاب عفوه ومرضاته.

ويسعى الواعظ أيضاً إلى إزالة العقبات والعوارض التي تعتري الإنسان في سيره إلى ربه، وأعظم هذه العوارض حب الدنيا، والتعلّق بما فيها من نعيم زائل.

المجال الأوّل: تعظيم الله، وتعظيم محارمه:

١ - تعظيم الله ﷻ:

إنّ تعظيم الله ﷻ وتوقيره وتقديره حقّ قدره، مفتاح كلّ خير وفلاح، وسبيل كل رشد وسداد، وعلى الضد، فإنّ الاستخفاف بأمر الله تعالى وعدم توقيره سبب كلّ وزر ومعصية، وعلّة كلّ منكر وبليّة.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وما عظموا الله حق تعظيمه»(٣).

---

(١) زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، من مؤلفاته: ياقوت التأويل في تفسير القرآن، وإحياء علوم الدين وغيرها، توفي سنة ٥٠٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٧.

فعظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد، وتعظيم حرماته هي التي تحول بين العبد وبين الذنوب، والمتجرؤن على معاصيه ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجلّه من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل[(١)].

* إنّ معرفة الله ﷻ بنعوت جلاله وصفات كماله هي السبيل الأوحد لتقدير الله حقّ قدره، من أجل هذا سعى السلف رحمهم الله إلى تأصيل هذه المعرفة في نفوس الموعوظين في كلّ خطبهم ومواعظهم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك بما لا مزيد عليه[(٢)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً»[(٣)].

* ولا يتمّ للعبد تعظيم ربه ومولاه، وتعظيم محارمه إلا بأمور ثلاث: تعظيم أمر الله ونهيه، وتعظيم حكمه الكوني، وتعظيم الحق سبحانه[(٤)].

١ ـ تعظيم أمر الله تعالى ونهيه:

والمقصود بتعظيم أمر الله ونهيه، أن يكون العبد وقافاً عند حدود الله، مبادراً إلى امتثال أمر ربه في منشطه ومكرهه، ولهذا فإنّ ثمة أمور تقدح في كمال الانقياد لأمر الله ونهيه، ومن هذه القوادح:

- الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.
- والغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط، والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه.

---

(١) **انظر**: الجواب الكافي، ص٤٦.

(٢) **انظر**: ص١٦٠، من هذا البحث.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٩٥.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.

٢ ـ تعظيم قضاء الله وقدره وحكمه الكوني:

فقضاء الله وقدره كلّه حق، ومن كمال العبودية لله، الإيمان بقدره والانقياد لحكمه والتسليم له ﷻ.

٣ ـ تعظيم الله جلّ وعلا:

وهذا الأصل قائم على النفي والإثبات، فيثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه من صفات الجلال ونعوت الكمال، مع تنزيه الله تعالى عن كلّ عيب أو نقص.

* وتعظيم الله ﷻ وتوقيره، هو عنوان التقوى، وتقوى الله ﷻ هي جماع الخير كلّه، ولهذا فإنّ التقوى هي وصية الله لجميع خلقه ووصية رسول الله ﷺ لأمته.

قال ابن رجب رحمه الله: «وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً[(١)]، ولما خطب ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم[(٢)]، ولما وعظ الناس قالوا له كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة»**[(٣)].

ثم قال: «ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبه: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإنّ الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم ٣/١٣٥٨، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم، رقم (٣٢٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٢/٥١٦، كتاب: الجمعة عن رسول الله، رقم (٥٥٩)، وقال: «حسن صحيح».

(٣) تقدم تخريجه، ص١٣٦.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/٢٥٨؛ وأبو نعيم في الحلية ١/٣٥. **قلت**: وفي بعض رجال إسناده ضعف.

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإنّ الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين»[١][٢].

ومن هنا يتبين أنّ الوصية بتقوى الله وتعظيمه، كانت ديدن السلف في خطبهم ووصياهم.

٢ ـ تعظيم محارم الله عَزَّ وَجَلَّ:

أما تعظيم محارم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنها من لوازم تعظيم الله جلّ وعلا، فلا يتمّ للعبد تعظيم الله إلا إذا اتقى محارمه ووقف عند أمره ونهيه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، قال ابن كثر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، فهو خير له عند ربه أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل»[٣].

* وفي المراد بتعظيم الحرمات يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحرمات جمع حرمة وهي ما يجب احترامه وحفظه، من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن فتعظيمها: توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة»[٤].

* وإنّ من تمام النصيحة لله عَزَّ وَجَلَّ الغيرة على محارمه أن تنتهك.

وقد كان النبي ﷺ أغير الناس على حرمات الله أن تنتهك، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: **«ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه حتى ينتهك من حرمات الله فينتقم لله»**[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٦٧. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص٢٩٨ ـ ٣٠٠.

(٣) مدراج السالكين ٢/ ٤٩٦.

(٤) مدارج السالكين ١/ ٧٤.

(٥) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٥١٣، كتاب: الحدود، باب: التعزير والأدب، رقم (٦٣٤٧)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٨١٣، كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، رقم (٤٢٩٤).

وغيرة العبد لربه: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، وعلى قدر محبة العبد لربه تكون غيرته على محارمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمُحبُ الله ورسوله، يغار لله ورسوله، على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله، فهو من المحبة أخلى، وإن زعم أنه من المحبين، فكَذَب من ادعى محبة محبوب من الناس، وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه، ويسعى في أذاه ومساخطه، ويستهين بحقه، ويستخف بأمره، وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد، فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله، وهو لا يغار لمحارمه إذا انتُهكت، ولا لحقوقه إذا ضُيعت»[١].

ومَن كان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، كانت غيرته لله أتمّ وأكمل[٢].

* ومن نماذج مواعظ السلف رحمهم الله، المشتملة على الوصية بتعظيم الله وتعظيم محارمه:

• قال بشر الحافي[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو فكّر الناس في عظمة الله ما عصوه»[٤].

• وعن سفيان بن عيينة قال: قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأسرعها ردءاً اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم، ومن انتهاك المحارم يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ، وغضب الله ليس له دواء»[٥].

---

(١) روضة المحبين ١/ ٢٧٤.
(٢) الاستقامة، لابن تيمية ٢/ ٣٧.
(٣) بشر بن الحارث بن عبد الرحمٰن بن عطاء أبو نصر المروزي، المشهور بالحافي، الإمام العالم المحدث شيخ الإسلام، كان رأساً في الورع والإخلاص، توفي سنة ٢٢٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٩.
(٤) أورده ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مفتاح دار السعادة»، ص١٨٠. بلا إسناد.
(٥) رواه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٤١.

المجال الثاني: حث النفوس على الجدِّ والاجتهاد في طلب ما عند الله ﷻ:

لقد ندب الله ﷻ عباده إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات[١]، فقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، وقال جلّ وعلا: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وأثنى ﷻ على عباده السبّاقين إلى الخيرات[٢]، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وكذا الشأن في السنّة النبويّة، فقد دعا النبي ﷺ أمته إلى المسارعة إلى الخيرات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضا مفسداً، أو هرما مُفنداً**[٣] **أو موتا مُجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»[٤].

- **اجتهاد السلف في أنواع الطاعات والقربات:**

«لقد فقه سلفنا الصالح عن الله أمره، وتدبّروا في حقيقة الدنيا، فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وارتفعت همتهم عن سفاسفها، فلا تراهم إلّا صوّامين وقوّامين.

وقد حفلت تراجم السلف بأخبار زاخرة تشيد بعلو همتهم، في التوبة والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات، وفي الوقوف على أحوالهم أكبر موعظة للنفوس المتخاذلة»[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٥. (٢) فتح القدير ٣/ ٤٨٨.

(٣) من الفَنَد، وهو الخرف؛ «الغريب لابن قتيبة» ١/ ٣١١.

(٤) رواه الترمذي ٤/ ٥٥٢، كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل، رقم (٢٢٢٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ وابن المبارك في «الزهد»، ص٣؛ والبيهقي في الشعب ٧/ ٣٥٧.

(٥) «علو الهمة»، ص١٢٣؛ وسيأتي مزيد تفصيل في اجتهاد السلف، في المبحث الخامس =

● **تواصي السلف رحمهم بالجد والاجتهاد:**

النفوس قد تعتريها الغفلة، ويصيبها الوهن، ويقعد بها الكسل عن المطالب العالية، فكان لزاماً والحال هذه، من مُحَفِّز يشحذ همتها، وواعظ يوقظها من غفلتها، كي تدرك الركب، وتزاحم الأخيار، في طلب ما عند الله الواحد القهار.

وقد سارت مواعظ السلف في الحث على الاجتهاد، في اتجاهين اثنين:

● الترغيب في الجد والاجتهاد والترهيب من التكاسل والاتكال.

● التحذير من الآفات التي تعتري المجدّين والمجتهدين.

١ ـ مواعظ السلف في الحث على الجد والاجتهاد:

كان التواصي بالجد والاجتهاد ديدن السلف رحمهم الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان الشيخ عبد القادر[1] ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحظور والصبر والرضا بالأمر المقدور»[2].

*** ومن نماذج هذه المواعظ:**

ـ كان مطرف بن عبد الله[3] يقول: «اجتهدوا في العمل، فإن يكن الأمر ما نرجو من رحمة الله وعفوه، كانت لنا درجات، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر، لم نقل ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، نقول قد عملنا فلم ينفعنا ذلك»[4].

= من الفصل الثاني، ص٣٨٥، إن شاء الله.

(١) هو: الشيخ الزاهد العارف بالله، عبد القادر الجيلاني.

(٢) «الزهد والورع والعبادة»، ص١٠١.

(٣) مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله البصري، الإمام القدوة الحجة، ثقة صاحب فضل وورع وعقل وأدب، وعبادة، توفي سنة: ٩٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل»، ص٢٩؛ وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٣/ ٢٢٣. ورجاله ثقات.

- وعن ابن بشار عن إبراهيم بن أدهم[١] رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «عليكم بالمبادرة والجد والاجتهاد، سارعوا وسابقوا، فإنّ نعلاً فقدت أختها، لسريعة اللحاق بها»[٢].

٢ ـ التحذير من الآفات التي تعتري المجدّين والمجتهدين:

إنّ من حرص السلف رحمهم الله على نصيحة الخلق، أن نبهوا في - سياق الحث على المسارعة إلى الطاعات ـ، على الآفات التي تعتري أعمال المجدين والمشمرين فتمحقها وتبطلها، وهي أربع آفات:

اثنتان تصيبان العمل، واثنتان تصيبان العامل.

أ ـ الآفات التي تصيب المجتهدين:

ثمة آفات تصيب المجتهدين والمشمرين، فتقعد بهم عن ركب الأخيار والمخبتين، وهما آفتان: الرياء والعجب.

- **الرياء:**

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأكثر ما يلبس به إبليس على العباد، والزهاد، خفي الرياء، وأما الظاهر من الرياء فلا يدخل في التلبيس»[٣].

والرياء هو: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، وحمدهم صاحبها[٤].

وهو من أعظم قوادح الإخلاص، وهو داء خطير ومرض عضال، ينتشر في القلوب كما تنتشر النار في الهشيم.

والأعمال إذا خلت من الإخلاص، صارت نفاقاً متوعّداً عليه بسوء العاقبة، إذ الإخلاص هو الوسيلة إلى صحة الإيمان والأعمال جميعاً[٥].

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد أبو إسحق العجلي، الإمام، كان من العلماء العاملين، ومن الوعّاظ المخبتين، توفي سنة: ١٦٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ١٥٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) «تلبيس إبليس»، ص١٧٥.

(٤) فتح الباري ١١/ ٣٣٦.

(٥) «إتحاف السادة المتقين»، للزبيدي ١٠/ ٤٢.

ونصوص الكتاب والسنة الآمرة بالإخلاص والمحذرة من الرياء كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وعن جندب رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**من سمَّع، سمَّع الله به، ومن يرائي، يرائي الله به**»[١].

* ومن مواعظ السلف المحذرة من الرياء:

- عن سعيد بن عثمان الحناط قال: سمعت ذا النون[٢] يقول: «اعلموا أنه لا يصفو لعامل عمل، إلا بإخراج الخَلق من القلب في عمله، وهو الإخلاص، فمن أخلص لله لم يرج غير الله، فكن على علم أنه لا قبول لعمل يُراد به غير الله، فمن أراد طريق التجريد إلى الإخلاص، فلا يدخلن في إرادته أحد سوى الله عز وجل، فشمِّر عن ساقك، واحذر حذر الرجل أن يدخل في العظمة لله، تعظيم غير الله، واجعل الغالب على قلبك ذلك، وقد صفا قلبك بالإخلاص»[٣].

- **العُجْب:**

العُجْب هو اعتداد بالنفس واستكثار بالعمل، وازدراء للخَلْق، وهو ممحقٌ للعمل.

قال بشر الحافي رحمه الله: «العُجْب أن تستكثر عملك، وتستقلّ عمل الناس، أو عمل غيرك»[٤].

وللعجب آفات كثيرة، ذكر الإمام الغزالي رحمه الله طرفاً منها، فقال ما ملخّصه: «اعلم أن آفات العُجْب كثيرة، فإنّ العُجْب يدعو إلى الكبر، ويدعو

---

(١) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٣٨٣، كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة، رقم (٦٠١٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٢٢٨٩، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، رقم (٥٣٠٢).

(٢) ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض ذو النون المصري، شيخ الديار المصرية، من مشاهير الوعاظ والقصاص، توفي سنة: ٢٤٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢.

(٣) رواه البيهقي في الشعب ٥/ ٣٥٣. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٣٤٨

إلى نسيان الذنوب وإهمالها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، وأما العبادات والأعمال فإنّه يستعظمها ويتبجح بها ويمنّ على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان»(١).

ولهذا جاء التحذير من العجب في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، وقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

واشتدّ خوف السلف من داء العُجْب، وحذروا منه في خطبهم ومواعظهم.

ومن نماذج ذلك:

- قال سفيان الثوري رحمه الله يعظ أخاً له: «...وإياك وما يفسد عليك عملك، فإنما يفسد عليك عملك الرياء، فإن لم يكن رياء، فإعجابك بنفسك حتى يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك، وعسى أن لا تصيب من العمل مثل الذي يصيب، ولعله أن يكون هو أورع منك عما حرم الله، وأزكى منك عملاً، فإن لم تكن معجباً بنفسك، فإياك أن تحب محمدة الناس، ومحمدتهم أن تحب أن يكرموك بعملك، ويروا لك به شرفاً ومنزلة في صدورهم، أو حاجة تطلبها إليهم»(٢).

- وعن يحيى بن زكريا المقابري قال: سمعت يحيى بن معاذ رحمه الله يقول: «إياكم والعجب، فإن العجب مهلكة لأهله، وإن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٧٠.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٣٩١. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) رواه البيهقي في الشعب ٥/ ٤٥٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

ب ـ التحذير من الآفات التي تصيب أعمال المجتهدين:

إنّ أعمال المجدّين قد تعتريها آفات ومفسدات، تحول دون وصول المجدِّ إلى بغيته، ورضوان ربه، فليس كلّ مريد للخير يدركه، فالركب كثير والحجيج قليل.

ومن أعظم هذه الآفات: البدعة، والغلو.

● **البدعة:**

البدعة هي: «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها، المبالغة في التعبّد لله سبحانه»[(١)].

فالمجتهد العابد رام ببدعته ـ التي لم يشرعها الله ورسوله ـ إلى المبالغة في عبادة الله ﷻ، من أجل السبق والفوز، ولكن قبول الأعمال منوط بتحقيق أصلين اثنين، وهما: الإخلاص، والمتابعة.

قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أخلصه وأصوبه، فإنّه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يُقبَل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يُقبَل حتى يكون خالصاً، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد»**[(٣)].

وقد انحرفت طائفة من العباد والزهاد عن الجادة، وابتدعوا عبادات وأحوالاً ما أنزل الله بها من سلطان، وعلى رأس هؤلاء الصوفية، وقد بيّن العلماء زيغهم وضلالهم في هذا الباب، وعلى رأس هؤلاء العلماء: الإمام

---

(١) «الاعتصام»، للشاطبي ١/ ٣٧.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٩٥، وإسناده صحيح.

(٣) متفق عليه، البخاري ٢/ ٧٥٣، كتاب: البيوع، باب: النجش، رقم (٢٠٣٤)؛ ومسلم ٣/ ١٣٤٣، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، واللفظ له.

ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «تلبيس إبليس»[(١)].

وليس هذا مقام سردٍ لبدعهم وخزعبلاتهم، فسيأتي ذلك مفصلاً في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى[(٢)].

حفلت مواعظ السلف بالتحذير من البدعة، ومن نماذج ذلك:

- عن سفيان الثوري قال: بلغني عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه كتب إلى بعض عماله فقال: «أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله، وترك ما أحدث المحدثون بعده، مما قد جرت سنته، وكفوا مؤنته، واعلم أنه لم يبتدع إنسان قط بدعة، إلّا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، وعبرة فيها، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أنّ من سنّ السنن، قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والتعمق والحمق، فإنّ السابقين الماضين عن علم، وقفوا وببصرنا قد كفوا»[(٣)].

● **الغُلُو:**

الغلو هو الإفراط ومجاوزة الحدّ، والمبالغة في الشيء[(٤)].

وقد ذمّ الله عَزَّ وَجَلَّ الغلو والإسراف، في كثير من آي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وكذا الشأن في السنّة النبويّة، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«هلك المتنطعون[(٥)] قالها ثلاثاً»**[(٦)].

---

(١) **انظر**: الباب العاشر: تلبيسه على الصوفية من جملة الزهاد، ص١٨٥. من كتاب: «تلبيس إبليس».

(٢) **انظر**: ص٨٦٢.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/٣٣٨. **قلت**: وإسناده صحيح إلى سفيان الثوري.

(٤) تفسير الطبري ٦/٣٤.

(٥) وهو تكلّف القول والعمل، والتعمّق والمغالاة؛ «النهاية في غريب الحديث» ٥/٧٣، مادة: «نطع».

(٦) رواه مسلم ٤/٢٠٥٥، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، رقم (٤٨٢٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل، إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ، وترك أقوال الناس وآراءهم، لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم، وهذا أن المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم.

ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير، وخوفوا من بلي بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو الحال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطاً في بعض دينه، غالياً متجاوزاً في بعضه والمهدي من هداه الله»(٢).

والغلو في العبادة نوعان:

- نوع يخرج العابد عن كونه مطيعاً، كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً أو نحو ذلك عمداً.

- وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي والجور على النفوس في العبادات والأوراد(٣).

● ومن نماذج مواعظ السلف المشتملة على التحذير من الغلو في العبادة:

- عن يحيى بن المختار عن الحسن رحمه الله قال: «إنّ هذا الدين دين

---

(١) رواه البخاري ١/٢٣، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، رقم (٣٨).

(٢) الروح ١/٢٥٧.

(٣) مدارج السالكين ٢/٤٩٦.

واصب[١]، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإنّ الحق ثقيل، وإنّ الإنسان ضعيف، فليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، وإنّ العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلّف نفسه ما لا يطيق، أوشك أن يسيب ذلك كلّه، حتى لعلّه لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف، وكلّف نفسه ما تطيق، كان أكيس»[٢].

ـ وعن إسحاق بن سويد قال: تعبّد عبد الله بن مطرف فقال له مطرف: «يا عبد الله العلم أفضل من العمل، والحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقحقة[٣]»[٤].

قال الأصمعي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: (الحسنة بين السيئتين)، يعني: أنّ الغلو في العبادة سيئة، والتقصير سيئة، والاقتصاد بينهما حسنة»[٥].

المجال الثالث: الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

سبق الحديث عن اهتمام السلف رحمهم الله بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والتحذير من سيئها، عند حديثنا عن وعظ التأديب[٦].

والحديث عن الأخلاق متشعب، ولذلك أكتفي ببعض معالم هذا المجال، ممّا لم تسبق الإشارة إليه، في «وعظ التأديب».

أ ـ ارتباط الأخلاق بالإيمان:

إنّ المؤمن ينطلق في التحلّي بالأخلاق الفاضلة، والتخلي عن الأخلاق الذميمة من منطلق إيماني بحت، خوفاً من عذاب الله ورجاء لمثوبته، فكلّما قوي إيمان العبد حسن خلقه وعلى الضد كلما ضعف إيمانه

---

(١) أي: دائم؛ مختار الصحاح ١/٣٠١، مادة: «وصب».

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٤٦٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) الحَقْحَقَة: هو أن يُلحَّ في شدة السير، حتى تعطب راحلته فيبقى منقطعاً به؛ «الغريب» لابن سلام ٤/٣٨٨.

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٤٦٨؛ وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٠٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) «الغريب» لابن سلام ٤/٣٨٨.

(٦) ص٧٧، من هذا البحث.

ساء خلقه[١].

وعليه فإنّ ترسيخ الإيمان متضمن للدعوة إلى مكارم الأخلاق، وكثيراً ما كان السلف رحمهم الله يجمعون بين الإيمان والدعوة إلى الأخلاق في مواعظهم وخطبهم، كما سيأتي[٢].

ب ـ اكتساب الأخلاق:

الأخلاق من الممكن اكتسابها، أو التخلي عنها، فذلك داخل في مكنة الإنسان[٣].

ووسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة كثيرة ومتنوِّعة، منها: أداء العبادات المفروضة، ومجاهدة النفس وترويضها وحملها على الخلق القويم، والقدوة الحسنة، والجليس الصالح، وغيرها من الوسائل[٤].

ومن أعظم هذه الوسائل وأكثرها تأثيراً: التعليم والإرشاد: إذ معرفة الأخلاق حسنها وقبيحها ضروري لاكتسابها، فمن جهل الشيء عاداه، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٥].

ولذا نجد مواعظ السلف رحمهم الله زاخرة بالحث على الأخلاق الفاضلة وبيان منافعها، وكذا ذمّ الأخلاق السيئة وبيان مساوئها.

---

(١) نضرة النعيم ١/ ٨٢.

(٢) سيأتي ذكر نماذج من مواعظ السلف في الأخلاق، ص١٦٧.

(٣) «الأخلاق الإسلامية وأسسها»، لعبد الرحمٰن الميداني، ص١٦٦ ـ ١٦٩.

(٤) **انظر**: نضرة النعيم ١/ ١٤٠؛ و«تربية الإنسان الجديد»، لمحمد فاضل الجمالي، ص١٣٥.

(٥) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٢٨٧، كتاب: المناقب، باب: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، رقم (٣٢٣٤)؛ ومسلم ٤/ ٢٠٣١، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: الأرواح جنود مجندة، رقم (٤٧٧٤)، واللفظ له.

ج ـ أصول الأخلاق[١]:

للأخلاق أصول تجمعها، سواء كانت حسنة أم سيئة، ولذا نرى السلف رحمهم الله يركِّزون على هذه الأصول، لما لها من بالغ الأثر على سائر الأخلاق:

• أصل الأخلاق الحسنة ومنشؤها:

حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

ـ فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكفِّ الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة....

ـ والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل، والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة....

ـ والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، وعلى كظم الغيظ والحلم....

ـ والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها، بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء، الذي هو توسط بين الذل والقِحَة[٢]، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور...

• أصل الأخلاق السيئة ومنشؤها:

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

ـ فالجهل: يُريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

---

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩؛ و«الفوائد» ١/ ١٤٣.

(٢) القحة: بكسر القاف: هي: قلّة الحياء، مختار الصحاح ١/ ٣٠٤، مادة: «وقح».

ـ والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل.

ـ والشهوة: تحمله على الحرص، والشح، والبخل، وعدم العفة، والنهمة، والجشع، والذل، والنداءات كلها.

ـ والغضب: يحمله على الكبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه.

د ـ نماذج من مواعظ السلف المشتملة على الدعوة إلى الأخلاق:

مواعظ السلف في الأخلاق كثير جداً، لذا سأقتصر على ذكر بعض الشواهد على ما سبق الإشارة إليه من أصول الأخلاق الحسنة والذميمة:

١ ـ الحث على مكارم الأخلاق:

ـ عن عطاء عن أم الدرداء قالت: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما يوضع في الميزان يوم القيامة شيء أثقل من حسن الخلق، وإنّ حسن الخلق ليبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم»[١].

• الصبر:

الصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخّط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش[٢].

ـ عن أبي جعفر الخطمي أن جدّه عمير رضي الله عنه[٣] أوصى بنيه فقال: «...ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فليوطّن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق

---

(١) رواه هناد في «الزهد» ٢/ ٥٩٤. **قلت**: وإسناده حسن، ورواه البيهقي في الشعب مرفوعاً بإسناد ضعيف ٦/ ٢٥٧.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٥٤.

(٣) عمير بن حبيب بن خماشة الأنصاري الخطمي، وقيل عمير بن قتادة، صحابي، بايع تحت الشجرة؛ «التاريخ الكبير»، للبخاري ٦/ ٥٣١؛ و«الثقات»، لابن حبان ٣/ ٢٩٩؛ و«التقريب»، ص٣٦٧، ولم يذكروا سنة وفاته.

بالثواب من الله، فإنّ من وثق بالثواب، لم يجد مس الأذى»[١].

• العفة:

العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف هو المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر[٢].

- عن عبيد الله بن شميط بن عجلان قال: قال أيوب السختياني[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم»[٤].

• الشجاعة:

الشجاعة هي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف مع الاستهانة بالموت[٥].

- عن أحمد بن نصير عن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال لقمان لابنه: ثلاثة لا يُعرَفوا إلّا في ثلاثة مواطن، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا في الحرب إذا لقي الأقران، ولا أخاك إلا عند حاجتك إليه»[٦].

• العدل:

العدل: هو بذل الحقوق الواجبة، وتسوية المستحقين في حقوقهم[٧].

- عن محمد بن عيسى قال كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» ١/ ١٨٦؛ وابن أبي الدنيا في «الحلم»، ص٣٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) المفردات للراغب، ص٣٣٩.

(٣) أيوب بن أبي تميمة، أبو بكر كيسان العنزي مولاهم البصري السختياني، الإمام الحافظ سيد العلماء، من كبار الفقهاء، توفي سنة: ١٩٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥؛ تقريب التهذيب، ص٨٧.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق»، ص٢٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) «تهذيب الأخلاق»، للجاحظ، ص٢٧.

(٦) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٣٨٩. **قلت**: وإسناده حسن إلى إبراهيم بن أدهم.

(٧) «الرياض الناضرة؛ والحدائق النيرة الزاهرة»، لعبد الرحمٰن السعدي، ص٢٥٣.

عماله: «أما بعد: فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أنّ مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فحَصِّنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنّه مرمتها والسلام»(١).

٢ ـ التحذير من مساوئ الأخلاق:

ـ عن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون رَحِمَهُ اللهُ يقول: «علامة أهل النار خمسة: سوء الخلق، وقلب قاسي، وارتكاب المعاصي، ولسان غليظ، ووجه حامض ـ عبوس ـ»(٢).

• الجهل:

ـ قال الراغب: «الجَهْلُ علَى ثلاثَةِ أَضْرُبٍ: الأول: هو خُلُوُّ النَّفْسِ مِن العِلْم، والثاني: اعتقادُ الشيء بخِلافِ ما هو عليه، والثالث: فِعْلُ الشيء بخلاف ما حَقه أن يُفْعَلَ»(٣).

ـ عن عباس بن عبد الله قال: قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «لو أنّ رجلاً اتقى مائة شيء، ولم يتورع عن شيء واحد، لم يكن ورعاً، ومن كان فيه خلّة من الجهل، كان من الجاهلين، أما سمعت الله تعالى قال لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] فقال الله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]»(٤).

• الظلم:

ـ الظلم هو: «وضع الشيء في غير موضعه، والتصرّف في حقِّ الغير، ومجاوزة حدّ الشارع»(٥).

ـ عن أبي جهم بن فضالة عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦) قال: «يجيء الظالم

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٠٥. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ٢٥٦. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) المفردات للراغب، ص١٠٢.
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٦٧. **قلت**: وإسناده حسن.
(٥) «الكليات»، للكفوي، ص٥٩٤.
(٦) **هو**: صدي بن عجلان أبو أمامة الباهلي، صاحبي مشهور سكن الشام، ممن بايع تحت =

يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم، بين الظلماء والوعرة، لقيه المظلوم وعرفه وعرف ما ظلمه به، فما يبرح الذين ظُلموا بالذين ظَلموا حتى ينتزعوا ما في أيديهم من الحسنات، فإنّ لم يجدوا حسناتهم رُدَّ عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا، حتى يوردوا في الدرك الأسفل من النار»[١].

• **الشهوة:**

الشهوة حركة في النفس طلباً للملذات[٢].

ـ عن إسحاق بن سويد قال: سمعت العلاء بن زياد[٣] رَحِمَهُ اللهُ يقول: «لا تتبع بصرك حسن ردف المرأة، فإنّ النظر يجعل الشهوة في القلب»[٤].

• **الغضب:**

ـ قال الجرجاني: الغضب تغيّر يحصل عند فوران دم القلب، ليحصل عنه التشفِّي في الصدر»[٥].

ـ قال سهل رَحِمَهُ اللهُ: «الغضب أشد في البدن من المرض، إذا غضب دخل عليه من الإثم أكثر مما يدخل عليه في المرض»[٦].

المجال الرابع: ذمّ التعلّق بالدنيا الفانية:

الحديث عن الدنيا وطمع الناس فيها وحرصهم عليها، حديث ذو شجون، واسع متشعب، والإلمام بجوانبه متعذِر، ولكن حسبي إيضاح بعض المعالم المتعلّقة بمطلبي هذا.

= الشجرة، صاحب كرامات وزهد وعبادة، توفي سنة: ٨١هـ؛ سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٩؛ وتقريب التهذيب، ص٢١٧.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٤٩٩. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) «التعريفات»، ص١٢٩.

(٣) العلاء بن زياد بن مطر بن شريح، أبو نصر العدوي البصري، كان قانتا لله، بكاء من خشية الله، توفي سنة: ٩٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٢.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الورع»، ص٦٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) «التعريفات»، ص٨٠.

(٦) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٩٦. **قلت**: وإسناده حسن.

أ ـ الحرص على الدنيا مفهومه وأنواعه:

• تظاهرت نصوص الكتاب والسنّة في التحذير من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وتصوير حقيقة الدنيا وحقارتها؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومن السنّة: ما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**»(١).

• والذم الوارد في الكتاب والسنّة ـ للدنيا ـ ليس راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإنّ الله تعالى جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً.

وكذلك ليس الذم راجعاً إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض، التي جعلها الله لبني آدم مهاداً ومسكناً، ولا لما أودع فيها من خيرات، فإنّ ذلك كله من نعمة الله على عباده، بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانية صانعه وقدرته وعظمته.

وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأنّ غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، بل يقع على ما تضر عاقبته(٢).

• وقد بيّن السلف رحمهم الله حقيقة مذمة الدنيا:

ـ فعن أحمد بن أبي الحواري قال: «قلت لأبي صفوان الرعيني(٣):

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٠٩٨، كتاب: الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، رقم (٤٩٢٥).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٢٩٢.

(٣) القاسم بن يزيد الجرمي أبو يزيد، وأبو صفوان الموصلي، الشيخ الإمام، كان حافظاً للحديث متفقهاً، توفي سنة: ١٩٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٨١.

أي شيء الدنيا التي ذمها الله تعالى في القرآن الذي ينبغي للعاقل أن يجتنبها؟ قال: كلّما أصبت فيها تريد به الدنيا فهو مذموم، وكلما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس منها»(١).

ـ وعن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «متاع الغرور هو ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منها»(٢).

فالذم بهذا متوجه إلى الاشتغال بالدنيا والحرص على جمعها ونسيان أمر الآخرة، وهو الحرص المذموم في الكتاب والسنة.

• **أنواع الحرص على الدنيا:**

الحرص على الدنيا نوعان: حرص على جمع المال، وحرص على نيل الشرف فيها، وهما من أضرِّ الأمور على دين العبد وآخرته، فعن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه»**(٣).

١ ـ الحرص على المال: وهو أيضاً على نوعين:

ـ **أحدهما**: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة، والمبالغة في ذلك، وهذا النوع مضرٌ بآخرة العبد؛ لأنّ فيه صرف لأنفس الأوقات في تحصيل الأقوات، مع تضييع التزوّد للآخرة.

ومن المواعظ في ذلك:

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الرضا أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/٥؛ وأبو سعيد في «الزهد وصفة الزاهدين»، ص٣١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٣٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) رواه الترمذي ٤/٥٨٨، كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (٢٢٩٨)، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده ٢٥/٦٢، رقم (١٥٧٨٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ وصححه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» ٤/٥٨٨.

تحمد أحداً على رزق الله، ولا تلم أحداً على ما لم يؤتك الله، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[١].

ـ **الثاني**: هو طلب المال من الوجوه المحرّمة، مع منع الحقوق الواجبة، والإيغال والحرص الشديد على جمعه، وفي هذا منقصة للدين والإيمان، وانتهاك للحرمات.

قال السلف رحمهم الله: «الشحُّ هو الحرص الشديد، الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها من حقوقها»[٢].

٢ ـ الحرص على الشرف: وهو على قسمين:

ـ **أحدهما**: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطير جداً، ـ وهو الغالب ـ، وهو يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها؛ لأنه يحمل العبد على التكبر والجور.

عن وهب بن منبه رَحِمَهُ الله قال: «أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردى اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم»[٣].

وقال يزيد بن عبد الله[٤] رَحِمَهُ الله: «من أحب المال والشرف، وخاف الدوائر، لم يعدل فيها»[٥].

---

(١) رواه هناد في «الزهد» ١/ ٣٠٤؛ والبيهقي في «الشعب» ١/ ٢٢١؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٤/ ١٢١. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) ذكره ابن رجب في رسالته: «شرح حديث ما ذئبان جائعان» ١/ ٦٩، ضمن مجموعة رسائل ابن رجب.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد»؛ وأبو سعيد في «الزهد وصفة الزاهدين»، ص٧١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) يزيد بن عبد الله بن موهب، قاضي الشام، من ثقات التابعين وصالحيهم؛ «الثقات» لابن حبان ٧/ ٦٢١.

(٥) ذكره ابن رجب في رسالته: «شرح حديث ما ذئبان جائعان» ١/ ٧١.

ـ **والثاني**: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية؛ كالعلم والعمل والزهد، وهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد فساداً وخطراً؛ لأنّ العلم زاد الآخرة لم يجعل في حظوظ الدنيا، لأجل هذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كانت هذه حاله.

وقد حذّر السلف رحمهم الله من هذا الصنيع أشدّ التحذير.

فعن علي ﵁ قال: «يا حملة العلم، اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم، فوافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إنّ الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله ﷻ»[١].

وعن سفيان بن عيينة قال: قال مطرف ﵀: «إنّ أقبح القبح: الرغبة في الدنيا، أن تطلب بعمل الآخرة»[٢].

ب ـ زهد السلف رحمهم الله في الدنيا:

إنّ معرفة السلف رحمهم الله بحقيقة الدنيا وخستها وسرعة زوالها، وبحقيقة الآخرة وما فيها من نعيم مقيم لا ينفذ، حملهم على الزهد في الفاني والتعلّق بالباقي.

والوقوف على زهد السلف رحمهم الله يعدّ من أعظم المواعظ، إذ المرء يتّعظ بحال غيره، وهو ما يندرج تحت الموعظة بلسان الحال

فمدمن النظر في سيرهم وورعهم وزهدهم وعبادتهم، حريّ به أن يلحق بركبهم.

١ ـ مفهوم الزهد ودرجاته عند السلف رحمهم الله:

لقد فهم بعض الناس الزهد على غير حقيقته، فجعلوه في ترك الدنيا بالكليّة، والقعود عن العمل والكسب، والفرح بالفقر، ولباس الرث من

(١) المصدر السابق ١/ ٧٤.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٣٥٧. **قلت**: وإسناده حسن.

الثياب، واعتزال الناس، كما فعلت الصوفية[١].

ولكن حقيقة الزهد عند السلف رحمهم الله ليس في اطّراح الدنيا وهجرها، ولكن في إخراجها من القلوب، وعدم الانشغال بها عن الدار الآخرة.

فعن يونس بن حليس عن أبي مسلم الخولاني[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله، أوثق مما في يديك، وإذا أُصبت بمصيبة، كنت أشد رجاء لأجرها وذخرها من أنها لو بقيت لك»[٣].

ومن أجمع ما عرِّف به الزهد أنّه: «سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة»[٤].

• وللزهد درجات ومراتب ذكرها الإمام أحمد فقال: «الزهد على ثلاثة أوجه، الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين»[٥].

٢ ـ صور من زهد السلف رحمهم الله:

ضرب السلف رحمهم الله أروع الأمثلة في الزهد والورع، فطابقت فعالهم بذلك أقوالهم، ومن صور هذا الزهد:

• التقلّل من ملاذ الدنيا:

هانت الدنيا في قلوب السلف رحمهم الله فأخذوا منها ما يقيم

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص١٧٣.

(٢) عبد الله بن ثوب أبو مسلم الخولاني الداراني، سيد التابعين، أسلم في أيام النبي ﷺ ودخل المدينة في خلافة الصديق، ألقاه الأسود العنسي في النار فنجاه الله منها، كان حافظاً عالماً واعظاً، توفي زمن يزيد بن معاوية؛ سير أعلام النبلاء ٤/٧.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الزهد ١/١٨؛ وأبو سعيد في «الزهد وصفة الزاهدين»، ص٢٠. **قلت:** وإسناده صحيح.

(٤) مدارج السالكين ٢/١٢.

(٥) أورده الإمام ابن القيم في «مدراج السالكين» ٢/١٢.

الصلب، ويستر البدن، وتركوا فضول المآكل والمشارب والملابس وغيرها.

ـ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قالت حفصة بنت عمر لعمر ﷺ: يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك، فقد وسَّع الله ﷻ من الرزق، فقال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ من شدة العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها: والله إن قلت ذلك، أما والله لئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد، لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي»[١].

● **الزهد فيما في أيدي الناس:**

قطع السلف رحمهم الله الطمع في الخَلْق من قلوبهم، وتعلّقوا بالرازق المعطي ﷻ.

ـ قال سفيان: «قيل لأبي حازم[٢] ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله تعالى، وإياسي مما في أيدي الناس»[٣].

ـ عن الأصمعي قال: «وعظ عطاء بن أبي رباح[٤] عبد الملك بن مروان، فلمّا همّ بالانصراف، قال له: «يا أبا محمد: إنما سألت حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة»[٥].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٢٠١؛ وهناد في «الزهد» ٢/ ٣٦١؛ وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٤٨؛ والبيهقي في «الشعب» ٥/ ١٥٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) سلمة بن دينار، أبو حازم المديني المخزومي مولاهم الأعرج، الإمام الحافظ الواعظ، شيخ المدينة النبوية، القاص، توفي سنة: ١٤٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٦.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ١٠٦؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٣٢. **قلت**: إسناده حسن.

(٤) عطاء بن أبي رباح أسلم، أبو محمد القرشي مولاهم المكي، الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم، كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، توفي سنة: ١١٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٨.

(٥) رواه الحميدي في «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، ص١٦٥. **قلت**: وإسناده حسن.

• أما زهدهم عن الحرام، فهذا مما استقرّ في الأذهان، فقد كانوا على درجة عظيمة من التقوى وخوف الله ﷻ، يحول بينهم وبين الوقوع في المحرمات.

فعن خارجة بن مصعب قال: «صحبت عبد الله بن عون أربعاً وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة»[١].

ج ـ نماذج من مواعظ السلف في التحذير من الحرص على الدنيا:

ـ عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن دينار قال: قال عمر ؓ لرجل: «أوصيك بتقوى الله، فإنها ذخيرة الفائزين، وحرز المؤمنين، وإياك والدنيا أن تفتنك، فإنها قد فعلت ذلك بمن كان قبلك، إنها تغرُّ المطمئنين إليها، وتفجع الواثق بها، وتسلم الحريص عليها، ولا تبقى لمن استبقاها، ولا يُدفع التلف عنها من حواها، لها مناظر بهجة ما قدمت منها أمامك لم يسبقك، وما أخرت منها خلفك لم يلحقك»[٢].

ـ وعن أبي أحمد بن حمدان أن أبا عثمان[٣] ؒ قال: «أهل العداوة من ثلاثة أشياء: من الطمع في المال، والطمع في إكرام الناس، والطمع في قبول الناس»[٤].

ـ وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: «إذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحّلت الآخرة منه، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تجئ الآخرة تزحمها؛ لأن الدنيا لئيمة، والآخرة عزيزة»[٥].

المجال الخامس: تسلية المصاب:

إنّ الدنيا دار بلاء ونصب، فهي لا تصفو لأحد، إن أضحكت قليلاً

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٣٧. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٤١. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور، أبو عثمان الحيري، الشيخ الإمام المحدث الواعظ شيخ الإسلام، مجمع على علو مرتبته، توفي سنة: ٢٩٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢.
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٤٥. **قلت**: وإسناده لا بأس به.
(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ٢٦٠. وإسناده حسن.

أبكت كثيراً، وما ملئ بيت فرحة إلا ملئ ترحة، أفراح وأحزان، وآهات وأشجان.

ومن السنّة تعزية المصاب وتسليته عن فاجعته، فعن عمرو بن حزم رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة، إلّا كساه الله سبحانه من حُلَل الكرامة يوم القيامة»**(١).

والتعزية: هي التصبير، وذكر ما يسلّي صاحب المصيبة، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته.

وهي مستحبة؛ لأنها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهي أيضا داخلة في قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢](٢).

وقد بيّن السلف رحمهم الله الأحكام المتعلّقة بالتعزية، سواء تعلّق الأمر بوقتها، أو بمكانها، أو بكيفيتها، وسأقتصر على الأمور ذات الصلة بالبحث.

أ ـ أنواع المصائب:

لقد أطلق الله تعالى لفظ المصيبة في كتابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. والمصيبة قسمان:

● مصيبة في الدين: وهي من أعظم مصائب الدنيا والآخرة، وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا طمع معه، إذ كلّ المصائب تجبر إلّا مصيبة الدين(٣).

ومما يدلّ على عظم المصيبة في الدين، ما جاء في حديث ابن

---

(١) رواه ابن ماجه ١/٥١١، كتاب: ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في ثواب من عزى مصابا، رقم (١٥٩٠)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٣٨٧.

(٢) «الكبائر» للذهبي ١/١٨٨؛ و«الكتاب في تسلية المصاب» لابن منصور المقدسي، ص٢٣.

(٣) «تسلية أهل المصائب» لأبي عبد الله المنبجي، ص٢٤.

عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «**من فاتته العصر، فكأنما وتر أهله وماله**»[١]، فتفويت صلاة واحدة تعادل أعظم مصائب الدنيا كلّها.

وعن الشعبي أن شريحا[٢] رحمه الله قال: «إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني»[٣].

وعن قتادة قال: «سأل عبيد الله بن زياد أبا بكرة[٤] ما أعظم المصيبة؟ قال: مصيبة الرجل في دينه»[٥].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «كان صالحونا: إذا فاتتهم الصلاة بالجماعة، يُعَزَّون أسبوعاً، وإذا فاتتهم التكبيرة الأولى يُعَزَّون ثلاثة أيام، وإذا فاتهم الصف الأول يُعَزَّون يوماً»[٦].

• والنوع الثاني من المصائب: هي المصيبة التي تصيب العبد في دنياه، من نقص في الأموال والأولاد والأنفس والثمرات، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/١٣١٨، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته العصر، رقم (٥١٩)؛ ومسلم ١/٤٣٦، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: التغليظ في تفويت صلاة العصر، رقم (٩٩٢). واللفظ له.

(٢) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم أبو أمية الكندي، الفقيه القاضي، ولّاه عمر رضي الله عنه قضاء الكوفة، مخضرم، وقيل له صحبة، توفي سنة: ٧٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/١٠٠.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٧/١٩٨؛ وناظم هذه الأبيات هو: أبو العتاهية كما في «نثر النظم وحل العقد» للثعالبي، ص٢٠٨.

(٤) نفيع بن الحارث أبو بكرة الثقفي، مولى النبي ﷺ، من فقهاء الصحابة، توفي سنة: ٥١هـ؛ سير أعلام النبلاء ٣/٥.

(٥) رواه القاسم بن هبة الله في «تعزية المسلم»، ص٢٢.

(٦) ذكره الفاريابي في «خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق» ١/١٨٣، ولم يذكر له إسناداً.

وأعظم هذه المصائب، مصيبة الموت، كما قال تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ب ـ الأصول التي سار عليها السلف في تعزية المصاب:

إنّ أصول التعزية عند السلف رحمهم الله مستمدة من كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلّا أخلف الله له خيراً منها**»[1].

فأصول التعزية عند السلف رحمهم الله تدور على خمسة أصول[2]:

ـ **الأصل الأول**: أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده، ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذها منه، فهو كالمعير يأخذ عاريته من مستعيره.

ـ **الأصل الثاني**: أنّ مصير العبد، ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً.

ـ **الأصل الثالث**: الإيمان بالقضاء والقدر، فما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ـ **الأصل الرابع**: تذكر عظيم الأجر الذي أعده الله لمن صبر على مصيبته، فقد أعطى الله لمن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة.

---

(١) رواه مسلم ٢/ ٦٣١، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة، رقم (١٥٢٥).
(٢) هذه الأصول سبرتها من خلال ما ذكره أهل العلم، ومن خلال النظر في تعازي السلف. **انظر**: «الكبائر» ١/ ١٩٠؛ «وتسلية أهل المصائب» ص١٨؛ و«عدّة الصابرين» لابن القيم، ص٨٠.

ـ **الأصل الخامس**: إطفاء نار المصيبة ببرد التأسي بأهل المصائب، ففي كلّ عصر ومصر، مصاب وهالك، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ومن نظر في مواعظ السلف في التعزية وجدها تدور على هذه الأصول، ولا تكاد تخرج عنها إلّا نادراً.

ج ـ نماذج من مواعظ السلف رحمهم الله في التعزية:

ـ توفي ولد لأبي طلحة فقالت له زوجه معزيّة: «أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم، قال: لا، قالت أم سليم: فاحتسب ابنك»[١].

ـ وقال علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس: «إنّك إن صبرت إيماناً واحتساباً، وإلّا سلوت كما تسلو البهائم»[٢].

ـ وعزَّى ابن أبي السماك[٣] رحمه الله رجلاً فقال: «عليك بالصبر، فيه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع»[٤].

ـ وعن ابن الأنباري قال: عزى إبراهيم بن يحيى[٥] رحمه الله بعض الخلفاء فقال: «إنّ أحق من عرف حق الله فيما أخذ منه من عظم حق الله عنده فيما أبقى، واعلم أن الماضي قبلك، الباقي لك، وأن الباقي بعدك المأجور فيك، إنّ أجر الصابرين فيما يصابون به، أعظم من النعمة عليهم فيما يعانون فيه»[٦].

---

(١) رواه مسلم ٤/١٩٠٩، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي طلحة الأنصاري، رقم (٤٤٩٦).

(٢) ذكره الذهبي في «الكبائر»، ص١٩٠.

(٣) هو: محمد بن أبي السماك، لم أجد له ترجمة، ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» ٥/٢١٩.

(٤) ذكره ابن القيم في «عدّة الصابرين»، ص٨٠.

(٥) إبراهيم بن يحيى بن عثمان أبو إسحاق الكلبي الغزي، شاعر خراسان، وصاحب الديوان، توفي سنة: ٥٢٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٩/٥٥٤.

(٦) رواه البيهقي في «الشعب» ٧/٢٤٩. **قلت**: وإسناده حسن.

ـ وبعد هذا التقرير، يبرز لنا معلمٌ من معالم شمولية مواعظ السلف، فهي تغطي جميع مجالات العبد، سواء في علاقته بربه، وتعظيمه لمولاه، أو في حثه على البدار للتزوّد لدار القرار، أو بتهذيب أخلاقه لتلين عريكته لإخوانه وخلّانه، ، أو بكشف حقيقة هذه الدنيا التي يعيش فيها مع بيان الغاية التي خلق لأجلها، أو بتخفيف ما يعتريه من مصائب.

فهي مواعظ تحيط بالإنسان، وتفي بكلّ أغراضه، وتحقق له السعادة في الدارين.



المبحث الثالث

خصائص الوعظ عند السلف

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

التمهيد: مفهوم خصائص الوعظ.

المطلب الأول: الاهتمام بالمضمون، وذمّ التكلّف والتشدّق.

المطلب الثاني: القصد والتخوّل بالموعظة.

المطلب الثالث: التأصيل العلمي في الوعظ.

المطلب الرابع: التعميم دون التخصيص، والابتعاد عن التشهير.

تمهيد

* مفهوم خصائص الوعظ:

أ ـ مفهوم الخصائص:

الخصائص: جمع خَصِيصَة، وهي مصدر من: خَصَّ، يَخُصُّ، خَصّاً، وخُصُوصاً، وخُصُوصِيَّةً[١].

ومن معانيها:

- التَّفرُدُ ببَعْضِ الشَّيْءِ، مِمَّا لا تُشَارِكُهُ فِيهِ الجُمْلَةُ والعَامَّةُ.
- الِافتقَارُ والفَاقَةُ والحَاجَةُ[٢].

ب ـ المقصود بخصائص الوعظ:

«هي الأمور التي يتميّز بها الوعظ في شكله، وأسلوبه، وآدابه، ومضمونه، ويتفرَّد بها، عن سائر أساليب الدعوة الأخرى، ولا يُتَصَوَّر قيام الوعظ إلا بها».

وخصائص الوعظ بهذا تدور حول أربعة أمور:

- الاهتمام بالمضمون، وذمّ التكلّف والتشدّق.
- القصد والتخوّل بالموعظة.
- التأصيل العلمي.
- التعميم دون التخصيص، والابتعاد عن التشهير.

---

(١) «مختار الصحاح»، ص١٩٦، مادة: «خصص».
(٢) «تاج العروس» ١٧/ ٥٥٠، مادة: «خصص».

فالوعظ لا يستجمع قوام الحسن، إلّا إذا كانت الموعظة حسنة في أسلوبها، وفي مضمونها، وفي طريقة عرضها، وفي آدابها.

وفيما يلي تفصيل لخصائص الوعظ:



المطلب الأول

الاهتمام بالمضمون، وذمّ التكلّف والتشدّق

حين أخلص السلف رحمهم الله النصح لعباد الله، ترفَّعوا عن التكلّف والتصنّع والرياء، وصرفوا جلّ همهم وفكرهم في تعليم الناس ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

*** أوّلاً: الاهتمام بمضمون الموعظة:**

بلغت عناية السلف بمضمون الموعظة الغاية القصوى.

ويتجلّى ذلك من خلال أمرين اثنين:

١ ـ الاهتمام بمحتوى الموعظة:

لقد سبقت الإشارة إلى شمولية مواعظ السلف رحمهم الله لكلّ مناحي حياة العبد الدنيوية والأخروية[١]، سواء تعلّق الأمر بصلة العبد بربه ومولاه، أو بتعامله مع الخلق، أو بحقيقة الحياة الدنيا وسرعة زوالها، أو بالأهوال التي يلقاها العبد في رحلته إلى ربه.

٢ ـ تأصيل الموعظة بذكر الشواهد من الكتاب والسنّة:

فهذا الأمر شغل حيزاً كبيراً في مواعظ السلف رحمهم الله، كما سبقت الإشارة إليه[٢]، فكانت مواعظهم مدبّجة بنصوص الكتاب والسنّة، مؤصّلة تأصيلاً شرعياً، خالية من الرأي المذموم، ومن البدع المحدثة.

---

(١) ص٢٠٠ من هذا البحث.

(٢) ص١٠٢، ١٢٣ من هذا البحث.

*** ثانياً: الفصاحة والبلاغة والبيان في مواعظ السلف رحمهم الله:**

إنّ قوّة البيان وفصاحة اللسان، نعمة من الله الواحد المنان، اختصّ بها الإنسان عن سائر الحيوان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ومن استجمع الفصاحة والبيان استحوذ على القلوب، واستولى على العقول، وأثّر في النفوس أيما تأثير، ولذا جاء في حديث عمار رضي الله عنه قوله ﷺ: «...**وإنّ من البيان سحراً**»[1].

قال القاضي عياض رحمه الله: «فيه تأويلان: أحدهما: أنه ذمٌّ؛ لأنه إمالة القلوب، وصرفها بمقاطع الكلام إليه، حتى يكسب من الإثم به، كما يكسب بالسحر، والثاني: أنه مدحٌ؛ لأنّ الله تعالى امتن على عباده بتعليمهم البيان، وشبهه بالسحر، لميل القلوب إليه»[2].

وقد أمر الله ﷻ رسوله الكريم والدعاة من بعده، بعظة الناس بالقول البليغ الفصيح، قال تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

أي: «مؤثِّرا واصلاً إلى كُنْه المراد، مطابقاً لما سيق له من المقصود»[3].

وقد استحب السلف رحمهم الله البيان والفصاحة في المواعظ والتذكير، ويشهد بذلك مواعظهم الكثيرة، التي تنبئ عن رسوخهم في البلاغة والبيان، كما أشاد كثير منهم بالفصاحة، واستحسنوها في مقام الوعظ.

قال ابن سيرين رحمه الله: «لا شيء أزين على الرجل من الفصاحة والبيان»[4].

---

(١) رواه مسلم ٢/٥٩٤، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (١٤٣٧).

(٢) شرح صحيح مسلم ٦/١٥٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/١٩٦.

(٤) ذكره ابن عبد البر في «أدب المجالسة»، ص٤٥.

وكان يقال: «في اللسان عشر خصال محمودة: أداة يظهر بها البيان، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ ينتهي به عن القبيح، ومُعَزٍّ تسكن به الأحزان، وملاطف تذهب به الضغينة، وموفّق يلهى به الأسماع»[١].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم ويعرفهم الطريق الحق»[٢].

* والفصاحة في المواعظ تقوم على ركنين:

أ ـ تخيّر الألفاظ السهلة العذبة:

ومن شأن هذا الأمر أن يستجلب مسامع الموعوظين، ويؤثّر فيهم غاية التأثير؛ لأنّ القلوب تكون مقبلة على سماع الموعظة، مشتهية لها، محيطة بمراميها ومقاصدها.

قال أبو هلال العسكري[٣] رَحِمَهُ اللهُ: «فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيُّرُه أصعب من جمعه وتأليفه»[٤].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «والبلاغة في الموعظة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة: هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين، بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها وأحلاها لدى الأسماع، وأوقعها في القلوب»[٥].

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «أدب المجالسة»، ص٤٧.
(٢) «صيد الخاطر» ١/ ١٠٠.
(٣) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد، أبو هلال العسكري، كان عالماً باللغة والأدب والتفسير، كثر التصنيف، من مؤلفاته: «الأوائل، جمهرة الأمثال، الفروق في اللغة»، توفي سنة: ٣٩٥هـ؛ «طبقات المفسرين»، للسيوطي ١/ ٤٣.
(٤) كتاب الصناعتين، ص٥٨.
(٥) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٥٩.

ب ـ الترسّل في الكلام:

إنّ من متممات الفصاحة، ألّا يعجل الواعظ بالكلام، بل يلقي الكلمات مفصّلة حتى تقع في الأذن كأنها عقد جِيْد أُحْكِمَ تَنْسيقُه.

وكان النبي ﷺ يترسّل ويتمهّل في كلامه ووعظه، ويُلقي الكلام مفصّلاً.

فعن عائشة رضي الله عنها: «**أنّ النبي ﷺ كان يحدث حديثاً، لو عدَّه العادُّ لأحصاه**»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «قولها: (**لو عدّه العادّ لأحصاه**) أي: لو عدَّ كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل، والتفهيم»[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**إنّ رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم**»[3].

قال ابن حجر رحمه الله: «قولها: (**لم يكن يسرد الحديث كسردكم**) أي: يتابع الحديث استعجالاً، بعضه إثر بعض لئلّا يلتبس على المستمع»[4].

• واستحب السلف رحمهم الله للواعظ أن يتوسط في إلقائه، بين الإبطاء المملّ، الذي يجلب السآمة للسامعين، وبين التعجيل الذي يفوت عليهم فقه ما يتحدّث به.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «علامة سكون نفس الخطيب، ورباطة جأشه، هدوء كلامه، وتمهله في منطقه»[5].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/١٣٠٧، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي، رقم (٣٣٠٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/٢٢٩٨، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم (٥٣٢٥).

(٢) فتح الباري ٦/٥٧٨.

(٣) رواه البخاري ٣/١٣٠٧، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي، رقم (٣٣٠٣).

(٤) فتح الباري ٦/٥٧٨.

(٥) «كتاب الصناعتين»، لأبي هلال العسكري، ص٢٢ ـ ٢٣.

وقال ثمامة[١]: «كان يحيى بن جعفر[٢] أنطق الناس، فقد جمع الهدوء، والتمهّل، والجزالة، والحلاوة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه»[٣].

وقال ابن جماعة[٤] رَحِمَهُ اللهُ في أدب المتكلّم: «ولا يسرد الكلام سرداً، بل يرتّله ويرتّبه، ويتمهّل فيه، ليفكِّر فيه هو وسامعه»[٥].

*** ثالثاً: ذمّ السَّلف ـ رحمهم الله ـ للتكلّف والتشدّق في الوعظ:**

إنّ التكلّف والتشدّق والتقعّر في الموعظة، مدعاة لنفرة الناس منها، وعدم قبولها، لافتقادها للإخلاص، وعزفوها عن الفصاحة والبيان.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ، أو زخرفة نطق، ومن تأمل مواعظ الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيره، علم ما أشرت إليه»[٦].

ومن مظاهر التكلّف التي ذمّها السلف رحمهم الله في الوعظ:

١ ـ ذمّ التشدّق والتقعّر في الوعظ:

التشدّق: «هو التوَسُّع في الكلام، من غير احتياطٍ واحترازٍ»[٧].

والتقعّر: «هو التعمّق في الكلام، والتكلّف فيه»[٨].

---

(١) لم أهتد إلى ترجمته.

(٢) يحيى جعفر بن عبد الله بن الزبرقان، أبو بكر البغدادي، الإمام المحدث العالم، توفي سنة: ٢٧٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦١٩.

(٣) ذكره أبو هلال العسكري في «كتاب الصناعتين»، ص٢٣.

(٤) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني، الحموي، الشافعي (بدر الدين)، المفسر، الفقيه، الأصولي، المحدث، ولي الحكم والخطابة بالقدس، والقضاء بدمشق، من تصانيفه: «المنهل الروي في علوم الحديث النبوي»؛ و«إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل» وغيرها، توفي سنة ٧٣٣هـ؛ «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لأبي الفضل ١/ ٢١٨.

(٥) «تذكرة السامع والمتكلّم»، لابن جماعة، ص٥٧.

(٦) «المنتخب من المواعظ» لابن الجوزي، ص٩٥.

(٧) «النهاية في غريب الحديث» ٢/ ٤٥٣، مادة: «شدق».

(٨) «لسان العرب» ٥/ ١٠٨، مادة: «قعر».

* والنبي ﷺ ذمّ التكلّف في الكلام والتعمّق فيه، خصوصاً إذا كان الأمر متعلّقاً بالوعظ والخطب.

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلّل بلسانه، كما تخلّل الباقرة بلسانها**»(٢).

«(البليغ) أي: المبالغ في فصاحة الكلام وبلاغته، (الذي يتخلل بلسانه) أي: يدير لسانه حول أسنانه مبالغة في إظهار بلاغته»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**ألا هلك المتنطعون، ثلاث مرات**»(٤).

«المُتَنَطِّعون: هم المُتَعَمِّقون المُغَالُون في الكَلام، المُتَكَلمُون بِأقصى حُلوقِهم، مأخوذ من النَّطع، وهو الغَار الأعْلَى من الفمِ، ثم استُعْمِل في كلِّ تَعَمّق قولاً وفعلاً»(٥).

وقال الخطابي رحمه الله: «المتنطع المتعمق في الشيء، المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٣٧٠، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (١٩٤١)، واللفظ له؛ وأحمد ٢٩/ ٢٦٧، رقم (١٧٧٣٢)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه؛ وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» ٤/ ٣٧٠.

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٣٠١، كتاب: العلم، باب: ما جاء في المتشدق بالكلام، رقم (٤٣٥٢)، واللفظ له؛ والترمذي ٥/ ١٤١، كتاب: الأدب عن رسول الله، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان، رقم (٢٧٨٠)؛ وأحمد ١١/ ١٠١، رقم (٦٥٤٣)؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه؛ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» ٤/ ٣٠١.

(٣) عون المعبود ١٣/ ٢٣٧.

(٤) رواه مسلم ٤/ ٢٠٥٥، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، رقم (٤٨٢٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث ٥/ ٧٣، مادة: «نطع».

تبلغه عقولهم»[١].

* فلهذا ذمّ السلف رحمهم الله التقعّر والتشدّق في الكلام، وكرهوا ذلك في الوعظ والنصح والتذكير.

ومن الآثار الواردة عنهم في هذا الباب:

ـ عن أنس أنّ عمر رضي الله عنهما قال: «إنّ كثرة الكلام في الخطب من شقاشق الشيطان»[٢].

«الشقاشق واحدتها شِقْشِقَة، وهي التي إذا هدر الفحل من الإبل خرجت من شدقه شبيهة بالرِئة».

قال أبو عبيد: «فشبّه عمر إكثار الخاطب من الخطبة، بهدر البعير في شِقشِقته، ثم نسبها إلى الشيطان، وذلك لما يدخل فيها من الكذب، وتزوير الخاطب الباطل عند الإكثار من الخطب، وإن كان الشيطان لا شقشقة له، إنما هذا مثل»[٣].

ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: كنّا عند عمر رضي الله عنه فقال: «نهينا عن التكلّف»[٤].

ـ وقال في «الكبائر»: «ويكره التغيير في الكلام بالتشدق، وتكلّف السجع بالفصاحة بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون، فكلّ ذلك من التكلف المذموم، بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظاً يفهمه جلياً ولا يثقله»[٥].

٢ ـ ذمّ السلف رحمهم الله لفضول الكلام:

إنّ فضول الكلام، هو الكلام الزائد عن الحاجة مما لا منفعة فيه، بل

---

(١) «عون المعبود في شرح سنن أبي داود»، لشمس الحق أبادي ١٢/٢٣٦.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، ص٣٠٢؛ وابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص١١٢.
قلت: وإسناده حسن.
(٣) «الغريب» لابن سلام ٣/٢٩٧.
(٤) رواه البخاري ٦/٢٦٥٩، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، رقم (٦٧٤٩).
(٥) الكبائر، ص٢٢٣.

قد يضر سامعه، ويلبس عليه أمر دينه، ويُوْقعُه في شَرَك الشبهات.

ومن الآثار الواردة عنهم في ذلك:

ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أنذرتكم فضول الكلام، بحسب أحدكم ما بلغ حاجته»[1].

ـ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لا خير في فضول الكلام»[2].

٣ ـ ذمّ السجع في المواعظ:

يحدّ السَّجْعُ بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول، أو اتفاق فواصل الجمل على حرف واحد[3].

كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

وهو نوعان: حسن وقبيح.

• فالحسن: ما توفرت فيه شروط ثلاثة:

١ ـ أن يكون بعيداً عن التكلّف والتعسّف والتصنّع.

٢ ـ أن تكون كلّ سجعة دالّة على معنى مغاير لمعنى غيرها.

٣ ـ أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق، وبهذا يكسب الكلام حُسناً وجمالاً.

• والقبيح: ما خلا من هذه الشروط، كقول الكاهن: «والسماء والأرض، والقرض والفرض، والغمر والبرض» ففيه تكلّف بيّن[4].

وقد كره السلف رحمهم الله السجع في المواعظ، لا سيما إذا كان فيه تكلّف وتصنّع، وخروج عن مقصود الكلام.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» ١/١٢٧؛ وابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص٨٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ١/٤٤٣. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) «سر البلاغة» لابن سنان الخفاجي، ص٢٤٢.

(٤) «كتاب الصناعتين»، ص٤٩٦.

- فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإنّي عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون، إلّا ذلك - يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب -»(١).

قال ابن حجر: «(وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه) أي: لا تقصد إليه، ولا تشغل فكرك به، لما فيه من التكلّف المانع للخشوع المطلوب في الدعاء»(٢).

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للسائب: «إياك والسجع، فإنّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يسجعون»(٣).

قال الغزالي رحمه الله: «ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدِّ العادة، وكذلك التكلّف بالسجع في المحاورات.

وأُنكر السجع في المحاورات لما فيه من التكلف والتصنع، فينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم»(٤).

فيُحمَل كلام السلف المتقدّم على السجع القبيح، المتكلّف المتصنّع، الخارج عن حدِّ الإفهام.

وأمّا السجع الحسن، فإنّه محمود ومرغوب فيه في المواعظ والخطب، يشهد لذلك مجيئه في القرآن والسنّة، وفي مواعظ السلف رحمهم الله.

قال الغزالي رحمه الله: «ولا يدخل - السجع المذموم - في تحسين ألفاظ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٥/ ٢٣٣٤، كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، رقم (٥٨٦٢)؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، حديث رقم (٢٥٢).

(٢) فتح الباري ١١/ ١٣٩.

(٣) رواه أبو نعيم في كتاب: «الرياضة» بإسناد صحيح، نقلاً عن «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٢٠.

(٤) «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٢٠.

الخطابة والتذكير، من غير إفراط وإغراب، فإنّ المقصود منها تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها، وبسطها، فلرشاقة اللّفظ تأثير فيه، فهو لائق به»[(١)].

ومن نماذج ذلك:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين بهذه الكلمات: «**أعوذ بكلمات الله التامَّة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة**»[(٢)].

ـ وعن إبراهيم بن حماد عن الحسن رحمه الله قال: «كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه»[(٣)].

ـ وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «ما ضرَّكَ ما غرَّك، إذا أعقبك ما سرَّك»[(٤)].

٤ ـ كراهية السلف رحمهم الله لتحديث الناس بما لا يفقهونه:

إنّ الموعظة لا تؤتي ثمارها، إلّا إذا كانت واضحة المعالم مفهومة لدى سامعيها، مواكبة لقدراتهم وإدراكهم، وإلّا صارت مدعاة للاستهجان والتكذيب.

ومن ثمَّ فقد ندب الشرع الحكيم إلى مخاطبة الناس على قدر عقولهم، حتى لا تكون فتنة.

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ها هنا يؤخذ

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٢٢.

(٢) رواه البخاري ٣/ ١٢٣٣، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم (٣١٢٠).

(٣) رواه أحمد في «الزهد»، ص٢١٧؛ وابن أبي عاصم في «الزهد»، ص٢٦٧، وإسناده صحيح.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ٢٢٥.

الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله»[١].

* وكره السلف رحمهم الله مخاطبة الناس بما لا تدركه عقولهم.

قال علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجل يحدِّث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم، إلّا كان فتنة لبعضهم»[٣].

وينبغي تخيّر قدر الكلام وجنسه بحسب حال المستمعين، كما قال ابن وهب رحمه الله: «ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق، يعمل لكلّ قوم ما يشتهون من الطعام»[٤].

ومّما ينبغي مراعاته عند تحديث العوام أمرين اثنين:

١ ـ أن لا يكون الحديث في المسائل التي لا تدركها عقولهم، كمسائل القدر، والتعليل، أو ما شجر بين الصحابة، مما قد يساء فهمه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله عقولهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده»[٥].

وقال: «فالله الله أن تحدّث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله، دون احتيال وتلطّف، فإنّه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر المحدِّث له بنفسه»[٦].

وقال الغزالي رحمه الله: «وليحذر الواعظ حكايات أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات، يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات، متداركة بحسنات، تغطي عليها، فإنّ العامي يعتصم بذلك في مساهلاته، وهفواته، ويمهِّد لنفسه عُذراً»[٧].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠١.

(٢) رواه البخاري ١/ ٥٩، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة أن لا يفهموا، رقم (١٣٤).

(٣) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٠

(٥) «صيد الخاطر»، ص٧٤.

(٦) المصدر السابق، ص٧٥.

(٧) إحياء علوم الدين ١/ ٣٦.

وقال ابن مفلح[١] رحمه الله: «وكان ابن عباسٍ يُسِر إلى قوم ولا يُحَادِثُ قوماً، وقال عَمَّنْ وَعَظَ العوامَّ: لِيَحْذَرَ الْخَوْضَ فِي الأُصُولِ، فإِنَّهم لا يَفْهَمُونَ ذلِكَ، لَكِنَّهُ يُوجِبُ الفِتَنَ، وَرُبَّمَا كَفَّرُوهُ مَعَ كَوْنِهِمْ جَهَلَةً»[٢].

٢ ـ واستحب السلف رحمهم الله ابتعاد الواعظ عن مواطن الخلاف؛ لأنّه لا يناسب طبيعة الموعظة، ولأنّ ذلك قد يكون مضلّة لأفهام العوام، ومبعداً لهم عن الهدى والرشاد.

قال ابن مفلح رحمه الله: «ومِن التغفِيلِ تَكلمِ القصَّاصِ عِند العوام الجهلةِ بِما لا ينفعهم، وإِنما ينبغِي أن يخاطب الإِنسان على قدرِ فهمِهِ ومخاطبة العوامّ صعبةٌ فإِنَّ أحدهم ليرى رأياً يخالِف فِيهِ العلماء ولا ينتهِي»[٣].

٣ ـ واستحبوا أيضاً ابتعاد الواعظ عن الكلمات الغريبة والتراكيب الغامضة، التي تُوهم خلاف المقصود والمراد من الكلام.

يقول الغزالي رحمه الله في هذا الصدد: «.... فهذه الكلمات؛ إمّا أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبط في عقله، وتشويش في خياله، لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر.

وإما أن تكون مفهومة له، ولكنه لا يقدر على تفهيمها، وإيرادها بعبارة تدلّ على ضميره، لقلّة ممارسته للعلم، وعدم تعلّمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة.

ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلّا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه»[٤].

---

(١) عبد الله بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي، الإمام علامة الزمان، برع في الفقه والأصول والتفسير والحديث، توفي سنة: ٧٦٣هـ؛ «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، لبرهان الدين بن مفلح ٢/ ٦٠.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٨٩.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٩.

(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٣٧.

• ومن خلال هذا السرد ندرك أنّ غاية السلف إنما كانت هداية الناس إلى الحقِّ، وحين جعلوا ذلك أسمى أمانيهم، ومبلغ قصدهم، جاءت مواعظهم خالية من كلّ تكلّف وتشدّق وسجع وإطناب، مدخرين جهدهم لإيضاح المعنى وبيان الحقِّ.

ورغم ذلك لم تخلوا مواعظهم من فصاحة وبلاغة جاءت على مقتضى السليقة، دون تكلّف، ولا تشدّق.



المطلب الثاني

القصد والتخوّل بالموعظة

إنّ المواعظ بمثابة السياط تقرع بها القلوب الغافلة، والأنفس اللاهية، ومن ثمّ كان التوسط في الوعظ أمرٌ لازم، وإلّا حصلت نفرة ورغبة عن سماع الذكر.

واستحب السلف رحمهم الله، القصد والتخوّل في الموعظة، خشية السآمة والملل.

١ ـ القصد في الموعظة:

القصد هو التوسط والاعتدال في الموعظة، بين الإسهاب المملّ، والتفريط المخلّ[(١)].

وممّا يعين الواعظ على القصد والإيجاز في موعظته دون إخلال، تخير الألفاظ ذات الدلالات الواسعة، أو بالأحرى جوامع الكلام.

ولقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**بعثت بجوامع الكلم**»[(٢)].

قال الزهري[(٣)] رحمه الله: «وجوامع الكلم ـ فيما بلغنا ـ أن الله يجمع الأمور الكثيرة، التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد

---

(١) **انظر**: مختار الصحاح، ص٥٦٠، مادة: «قصد».

(٢) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٥٧٣، كتاب: التعبير، باب: المفاتيح في اليد، رقم (٦٤٩٦)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٣٧١، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٨١٢).

(٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب أبو بكر القرشي الزهري المدني، الإمام العلم حافظ زمانه، الفقيه الثبت الحجة، متفق على جلالته وإتقانه، كان رأساً في العلم والعمل، توفي سنة: ١٢٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦.

والأمرين، أو نحو ذلك»(١).

وقال ابن رجب رحمه الله: «وجوامع الكلم نوعان: أحدهما: ما هو في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: الحسن: «لم تترك هذه الآية خيراً إلّا أمرت به، ولا شراً إلّا نهت عنه»(٢)، والثاني: ما هو في كلامه ﷺ»(٣).

ولهذا كانت مواعظ النبي ﷺ وخطبه قصداً، وقد فقه السلف رحمهم الله عنه ذلك، وتأسَّوا به، في وعظهم وتذكيرهم.

يظهر ذلك من خلال قصدهم في وعظهم، وبغضهم للإسهاب والتكلّف.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «**كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً**»(٤).

قال النووي رحمه الله: «قصداً: أي: بين الطول الظاهر، والتخفيف الماحق»(٥).

وعن الحكم بن حزن رضي الله عنه قال: «**شهدت الجمعة مع رسول الله ﷺ فقام متوكئاً على قوس أو عصا، فحمد الله وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات**»(٦).

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٥، وذكر البخاري هذا القول في صحيحه بعد إيراده لحديث أبي هريرة، ولم ينسبه للزهري.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ١/ ١٦١؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص٥.

(٤) رواه مسلم ٢/ ٥٩١، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (١٤٣٣).

(٥) شرح صحيح مسلم ٦/ ١٥٣.

(٦) رواه أبو داود ١/ ٢٨٧، كتاب: الصلاة، باب: الرجل يخطب على قوس، رقم (٩٣٤)؛ وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» ١/ ٢٨٧.

وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هن كلمات يسيرات**»[١].

ولهذا نجد السلف رحمهم الله قد كثر فهمهم، وقلّ كلامهم في تذكيرهم ومواعظهم، حين أشربت قلوبهم وعقولهم بمواعظ الكتاب والسنّة، فنطقوا بالحكمة، وأوجزوا في الموعظة.

ومن الآثار المروية عن السلف رحمهم الله في أمرهم بالقصد وتحذيرهم من الإسهاب في الوعظ:

ـ عن عمر ﷺ أنّه كان يقول على المنبر: «أيها الناس: لا تُبَغِّضُوا الله إلى عباده، قالوا: وكيف ذاك أصلحك الله؟ قال: يكون أحدكم إماماً فيطول على القوم حتى يبغض إليهم ما هو فيه، ويقعد أحدكم قاصاً فيطول على القوم حتى يبغض إليهم ما هم فيه»[٢].

ـ وعن عائشة ﷺ أنها قالت لعبيد بن عمير: «ألم أُحدَّث أنك تَجلس ويُجلَس إليك، قال: بلى يا أم المؤمنين، فقالت: فإياك وإملال الناس وتقنيطهم»[٣].

قال الخطيب البغدادي[٤] ﷺ ـ تعقيباً على أثر عائشة ـ: «ومعلوم أنّ إملالهم إنما يكون بالإطالة عليهم في الكلام والزمان، ومعلوم أنّ قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ وحضور قلبه، خير من كثير وافق من الأسماع إعراضاً، ومن القلوب ملالة»[٥].

---

(١) رواه أبو داود ١/ ٢٨٩، كتاب: الصلاة، باب: إقصار الخطبة، رقم (٩٣٣)؛ وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» ١/ ٢٨٩.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ٢٧٦؛ وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»، ص١٠٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ٢١.

(٤) أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي، الإمام الأوحد العلامة المفتي الحافظ الناقد محدث الوقت صاحب التصانيف وخاتمة الحفاظ، من أشهر كتبه: «تاريخ بغداد»، توفي سنة: ٤٦٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٧٠.

(٥) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للخطيب البغدادي ٢/ ١٢٨.

ـ وعن أبي وائل قال: خطبنا عمار بن ياسر[(١)] رضي الله عنه فأوجز وأبلغ، فلمّا نزل، قلنا يا أبا اليقظان: لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تَنفَّسْت[(٢)]، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ طول صلاة الرجل، وقصر خطبته، مَئِنَّةٌ[(٣)] من فقهه، فأطيلوا الصلاة، واقصروا الخطبة، وإنّ من البيان سحراً**»[(٤)].

وقال الزهري رحمه الله: «إذا طال المجلس، كان للشيطان فيه نصيب»[(٥)].

وعن أبي أيوب سليمان بن داود عن سفيان بن عيينة رحمه الله قال: «كان يقال: إنّ العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة، لم يزدد على الكثير منها إلّا شراً»[(٦)].

ومن نماذج اقتصادهم في مواعظهم رحمهم الله:

قال الحسن رحمه الله: «ما أطال عبد الأمل، إلا أساء العمل»[(٧)].

وقال محمد بن واسع[(٨)] رحمه الله: «أربع من علم الشقاء: طول الأمل، وقسوة القلب وجمود العين، والبخل»[(٩)].

* وتنبغي الإشارة إلى أنّ الوعظ قد يقتضي في بعض الأحايين إسهاباً وبسطاً، تقتضيه طبيعة الموعظة، وإقبال الموعوظين، ومكانة الواعظ.

---

(١) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة أبو اليقظان العنسي المكي، أحد السابقين الاولين والأعيان البدريين، وفي الحديث: «عمار تقتله الفئة الباغية»، فقتل في وقعة صفين سنة: ٣٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ١/٤٠٦.

(٢) أي: أطلت قليلا، شرح مسلم ٦/١٥٦.

(٣) أي: علامة، شرح مسلم ٦/١٥٦.

(٤) رواه مسلم ٢/٥٩٤، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (١٤٣٧).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/٣٦٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/٢٧٧. **قلت**: وإسناده جيد.

(٧) رواه البيهقي في «الشعب» ٧/٤٠٧؛ وأبو نعيم في «الحلية». **قلت**: وإسناده حسن.

(٨) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس أبو عبد الله الأزدي البصري، الإمام، أحد الأعلام، من الثقات، وسادات الوعاظ، توفي سنة: ١٢٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/١١٩.

(٩) رواه البيهقي في «الشعب» ٧/٤٠٧. **قلت**: ورجاله ثقات.

فمع أنّ النبي ﷺ قد ندب إلى القصد في الموعظة، إلّا أنه كان يطيل في بعض الأحيان متى اقتضى الحال الإطالة.

فعن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فَأَعْلَمُنا أَحْفَظُنا**»(١).

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «والقول القصد أنّ الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن استعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»(٢).

وقال أيضاً: «ولا شك في أنّ الكتب الصادرة في الترغيب في الطاعة، والنّهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب»(٣).

٢ ـ التخوّل بالموعظة:

إنّ التخوّل بالموعظة أدعى للاشتياق إليها، وأحرى لقبولها والانتفاع بها، ولهذا كره السلف رحمهم الله أن يكثر الواعظ من وعظ أناس بأعيانهم، أو يتابع عليهم الوعظ مراراً قريباً بعضها من بعض، فإنّ النفس شرود، وإنّ كثرة الوعظ تفقده أثره.

ولهذا كان من حكمة نبينا محمد ﷺ في الدعوة أنّه لا يجعل الوعظ ركاماً، بل كان يتحرّى بالموعظة وقت حاجة الناس إليها ووقت نشاطهم لسماعها.

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٢١٧، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، رقم (٥١٤٩).

(٢) كتاب الصناعتين، ص٢٣٩.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤١.

والتخوّل والتعهّد بالموعظة، يشمل أموراً عديدة، تجتمع في غاية واحدة، وهي الترويح عن النفس، وترك السآمة والملل، ومن هذه الأمور:

أ ـ تخصيص أيام معلومة للوعظ:

فكان النبي ﷺ لا يديم وعظ أصحابه، بل يتعهَّدهم أحياناً، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أنه كان يُذَكِّرُ الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمٰن لَوَدِدْتُ أنك ذَكَّرْتَنَا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أَكْرَهُ أن أُمِلَّكُمْ، وإني أَتَخَوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»(١).

قال ابن حجر رحمه الله: «والمعنى: كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل»(٢).

وعلى هذا السمت سار السلف رحمهم الله في وعظهم وتذكيرهم، وأوصوا بذلك الوعاظ من بعدهم، ومن الآثار الواردة عنهم في ذلك:

ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدِّث الناس ما أقبلت عليك قلوبهم، إذا حدقوك بأبصارهم، وإذا انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدثهم، وذلك إذا اتكأ بعضهم على بعض»(٣).

ـ وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن»(٤).

والتخوّل بالموعظة ليس بلازم في كلّ حال، بل مبناه وضابطه كما قال

---

(١) متفق عليه، البخاري ١/ ٣٩، كتاب: العلم، باب: من جعل للعلم أياما مخصوصة، رقم (٦٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢١٧٢، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٥٠٤٧).

(٢) فتح الباري ١/ ١٦٢.

(٣) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» ٢/ ١٠٢، ولم يذكر له إسناداً.

(٤) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٥/ ٢٣٣٤، كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، رقم (٥٨٦٢)؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، حديث رقم (٢٥٢).

ابن حجر: «الحاجة مع مراعاة وجود النشاط»[١].

وكان بعض السلف رحمهم الله يديم الوعظ لظروف اقتضت ذلك.

فعن أبي شهاب قال: «كان يقصّ لنا سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ كلّ يوم مرتين، بعد الفجر، وبعد العصر»[٢].

ب ـ ترك الوعظ عند من لا يرغب:

فمما يحسن بالواعظ أن يحفظ على نفسه كرامتها، وألّا يبذل علمه، وينشره عند من لا يقدّره، أو لا يرغب فيه.

ومن الحكمة في ذلك ألّا يلقي موعظته إلا في مكان مناسب، وفي وقت يحسن الإلقاء فيه.

أما إذا كان المكان والزمان غير مناسبين، أو كان الناس عنه منصرفين، وعن حديثه راغبين، فلا يحسن به أن يلقي.

وهذا مما قرره السلف رحمهم الله، يشهد لذلك آثارهم وأفعالهم:

فعن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقصّ عليهم، فتقطع عليهم حديثهم، فتملُّهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه»[٣].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وفيه كراهة التحديث عند من لا يُقبل عليه، والنهي عن قطع حديث غيره، وأنه لا ينبغي نشر العلم عند من لا يحرص عليه، ويحدِّث من يشتهى بسماعه؛ لأنه أجدر أن ينتفع به»[٤].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٦٢.

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٣٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٥/ ٢٣٣٤، كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، رقم (٥٨٦٢)؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، حديث رقم (٢٥٢).

(٤) فتح الباري ١١/ ١٣٩.

ـ عن مسروق[١] رَحِمَهُ اللهُ قال: «لا تنشر بزَّك، إلّا عند من يبتغيه».

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «يعني: الحديث»[٢].

ج ـ التجوُّز في الموعظة عند ملاحظة الملل والفتور:

مما يليق بالواعظ أن يتجوّز في موعظته، أو أن يقطع حديثه إذا لاحظ أنّ الملل والفتور قد دبّا في السامعين.

وعلامة ذلك أن يرى منهم أو من بعضهم تحفُّزاً، أو تمطّياً، أو تثاؤباً، أو التفاتاً، أو نحو ذلك، مما لا يخفى.

ـ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال: «حدث القوم ما حدّجوك[٣] بأبصارهم، وأقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدثهم».

قيل: وما علامة ذلك، قال: إذا التفت بعضهم إلى بعض، ورأيتهم يتثاءبون فلا تحدثهم»[٤].

ـ وعن أبي خلدة قال: سمعت أبا العالية[٥] رَحِمَهُ اللهُ يقول: «حدّث الناس ما حملوا.

قلت: ما حملوا؟ قال: ما نشطوا»[٦].

● فالمواعظ حمل ثقيل تنفر من كثرة ترداده النفوس، فالواعظ الحصيف هو الذي يتلمّس رغبة الناس ونشاطهم، وليس الذي يملّهم بكثرة الزجر والتأنيب وإن كان ذلك حقاً، فحريٌّ بالدعاة أن يفقهوا منهج سلفهم في الوعظ إذا أردوا التوفيق والسداد.

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية، أبو عائشة الوادعي الكوفي، الإمام القدوة العلم، من كبار التابعين ومن المخضرمين، من أخص أصحاب ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، توفي سنة: ٦٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/٦٣.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ١/٣٢٧.

(٣) أي: وجهوها نحوك؛ «النهاية في غريب الأثر» ١/٣٥٢.

(٤) رواه البغوي في «شرح السنة» ١/٣١٤. **قلت**: وسنده حسن.

(٥) رفيع بن مهران أبو العالية البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر أحد الأعلام، توفي سنة: ٩٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/٢٠٧.

(٦) ذكره الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/٣٣١، ولم يذكر له إسناداً.

المطلب الثالث

التأصيل العلمي في الوعظ

قامت الدعوة إلى الله ﷻ - في مضامينها ووسائلها - على أصول علمية راسخة، أقام دعائمها النبي ﷺ وتَبِعَهُ في ذلك صحبه الكرام، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم، من العلماء العاملين، والدعاة الناصحين.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالبصيرة هي سبيل النبي ﷺ في دعوته ووعظه، وكذا سبيل من اتبع هديه واستن بسنته[(١)].

والبصيرة هي: أعلى درجات العلم، وهي التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر[(٢)].

وعرّفها الجرجاني بأنّها: «قوة للقلب المنوّر بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء، وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى بها صور الأشياء، وظواهرها»[(٣)].

وقيل: البصيرة هي الدليل الواضح، الذي لا لبس في الحق معه[(٤)].

والبصيرة في الدعوة والموعظة، شرط في مضمونها وأسلوبها، فلا بد أن يكون الواعظ بصيراً بما يعظ به، بصيراً بما يعظ إليه.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٨٠؛ و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم ١/ ١٥٤.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٢، وقد قسّم ابن القيم رحمه الله البصيرة إلى ثلاثة مراتب، فقال: «والبصيرة على ثلاث درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات؛ وبصيرة في الأمر والنهي؛ وبصيرة في الوعد والوعيد». «مدارج السالكين» ١/ ١٢٤.

(٣) التعريفات، ص٤٦.

(٤) أضواء البيان ١/ ٤٦٣.

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في بيان اشتراط التأصيل العلمي في مضمون الدعوة وأساليبها ـ: «.... وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلّا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بدّ في كمال الدعوة، من البلوغ في العلم إلى حدٍّ يصل إليه السعي»[١].

أ ـ نهي السلف عن إيراد الأحاديث الواهية في المواعظ والخطب:

نهى السلف رحمهم الله عن رواية الأحاديث الموضوعة والمنكرة في المواعظ والخطب، وأنكروا على من أورد ذلك في وعظه وتذكيره أشدّ الإنكار، ورأوا أنّ فاعل ذلك داخل في الوعيد الوارد في حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: **«من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»**[٢].

قال الإمام الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في بيان معنى هذا الحديث ـ: «توّعد الله بالنار من كذب عليه، بعد أمره بالتبليغ عنه، وفي ذلك دليل على أنه إنما أمر أن يبلغ عنه الصحيح دون السقيم، والحق دون الباطل، لا أن يبلغ عنه جميع ما روي؛ لأنّه قال: **«كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمع»**[٣]، فمن حدّث بجميع ما سمع من الأخبار المروية عن النبي ﷺ ولم يميّز صحيحها من سقيمها، وحقها من باطلها، باء بالإثم، وخيف عليه أن يدخل في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ بحكم رسول الله ﷺ أنه منهم»[٤].

ولا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ ما كان في الأحكام، وما لا حكم فيه كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك، فكلّه حرام من أكبر الكبائر وأقبح القبائح، بإجماع المسلمين الذين يعتد بهم في الإجماع، كما

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٧٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٤٣٤، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم (١٠٤)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ١٠، في المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤).

(٣) رواه مسلم ١/ ١١، في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم (٦).

(٤) «الضعفاء والمتروكين»، للدارقطني ١/ ١٠.

قال الإمام النووي[١].

ب ـ حكم العمل بالحديث الضعيف[٢] في فضائل الأعمال:

إنّ مما شاع بين الوعّاظ والخطباء قديماً وحديثاً، التساهل في رواية الأحاديث الضعيفة، والعمل بها في فضائل الأعمال، وفي الترغيب والترهيب، والرقائق، زاعمين أنّ هذا ممّا اتفق عليه السّلف رحمهم الله.

فكان لزاماً تحرير القول في هذه المسألة وبيان رأي السلف رحمهم الله فيها.

• اتفق السلف رحمهم الله على عدم جواز العمل بالحديث شديد الضعف[٣]، في الأحكام وفي الترغيب والترهيب وفي غيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يقل أحد من الأئمة: إنه يجوز أن يُجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع»[٤].

• ووقع الخلاف بين السلف رحمهم الله في رواية الحديث ـ الذي خفّ ضعفه[٥] ـ، والعمل به في الفضائل والرقائق والترغيب والترهيب على ثلاثة أقوال:

---

(١) شرح صحيح مسلم ١/ ١٩.

(٢) الحديث الضعيف: هو الحديث الذي فقد شرطاً فأكثر من شروط الحديث المقبول، وهي خمس شروط: ١ ـ عدالة الرواة، ٢ ـ تمام ضبطهم، ٣ ـ اتصال السند، ٤ ـ سلامته من الشذوذ، ٥ ـ سلامته من العلّة القادحة.

وهو أنواع: المعلق، والمنقطع، والمعضل، والمرسل، والمدلس. **انظر**: تدريب الراوي في شرح تقريب النووي للسيوطي ١/ ١٩٥.

(٣) **هو**: الحديث الذي لا يمكن جبره، لشدة القادح، كالضعف الشديد في أحد رواته، أو النكارة الشديدة في إسناده، وغيرها من القوادح، وله ألقاب معروفة عند أهل الحديث: ضعيف جداً، واه، منكر، وغيرها. **انظر**: «تدريب الراوي» ١/ ١٩٧.

(٤) «قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة»، ص١٦٢.

(٥) **هو**: ما كان ضعفه يسير محتمل، بحيث يمكن جبر الضعف، بوجود الشواهد والمتابعات؛ «تدريب الراوي» ١/ ١٩٧.

• **القول الأول**: جواز رواية الحديث الضعيف والعمل به ـ مطلقاً ـ، في الأحكام، وفي الفضائل، والترغيب والترهيب، وغيرها، بشرطين:

الأول: أن يكون ضعفه غير شديد؛ لأنّ ما كان ضعفه شديداً، فهو متروك عند كافة العلماء.

الثاني: أن لا يوجد في الباب غيره، وأن لا يكون ثمة ما يعارضه[١].

ودليلهم في ذلك:

ـ أنّ الحديث الضعيف لمّا كان محتملاً للإصابة، ولم يعارضه شيء قوي جانب الإصابة في روايته فيعمل به.

ـ ولأنّ الحديث الضعيف أقوى من رأي الرجال[٢].

وهو قول أبي حنيفة[٣]، ومالك[٤]، والشافعي[٥]، وأبي داود السجستاني[٦].

وينسب هذا القول للإمام أحمد[٧].

• **القول الثاني**: عدم جواز العمل بالحديث الضعيف مطلقاً، لا في الأحكام، ولا في غيرها من الفضائل، والترغيب والترهيب.

---

(١) «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل»، لابن بدران، ص٤٣.
(٢) «أعلام الموقعين» لابن القيم ١/ ٨١ ـ ٨٢.
(٣) «الأحكام في أصول الأحكام» لابن حزم ٧/ ٩٢٩.
(٤) «التمهيد» لابن عبد البر ١/ ٢.
(٥) «الرسالة» للشافعي، ص٤٦٥.
(٦) «علوم الحديث» لابن الصلاح، ص٣٤.
(٧) قال الخلال: «إنّ الحديث إذا ضعف إسناده عن رسول الله ﷺ ولم يكن له معارض قال به، فهذا مذهبه ـ يعني الإمام أحمد ـ، الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٨٨، والتحقيق أنّ مذهب الإمام أحمد عدم الاحتجاج بالحديث الضعيف، لأنّ المراد بالحديث الضعيف عند أحمد هو الحديث الحسن، قال ابن القيم رحمه الله: «ليس المراد بالضعيف عنده ـ يعني الإمام أحمد ـ الباطل والمنكر، ولا ما في روايته متهم، بحيث لا يسوغ الذهاب إليه والعمل به، فالحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح، وقسم من أقسام الحسن، ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، بل إلى صحيح وضعيف؛ أعلام الموقعين» ١/ ٣١ ـ ٣٢.

ودليلهم في ذلك:

ـ أنّ الحديث الضعيف إنما يفيد الظنّ المرجوح، والله ﷻ قد ذم الظن في كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

ـ ولأنّ في الأحاديث الصحيحة غنية عن الضعيف.

وهو قول يحيى بن معين(١)، والبخاري(٢)، ومسلم(٣)، وأبي حاتم الرازي(٤)، وابن حزم(٥)، وابن العربي(٦)، وابن تيمية(٧)، وغيرهم.

● **القول الثالث**: الاحتجاج بالحديث الضعيف في الفضائل والترغيب والترهيب، دون الأحكام والحلال والحرام، واشترطوا في ذلك أربعة شروط:

١ ـ أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب، ومن فحش غلطه، وهو شرط متفق عليه(٨).

٢ ـ أن يكون الضعيف مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج ما يخترع، بحيث لا يكون له أصل معمول به أصلاً(٩).

٣ ـ أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ بل يعتقد الاحتياط(١٠).

٤ ـ أن يكون موضوع الحديث الضعيف في فضائل الأعمال(١١).

ودليلهم في ذلك:

ـ ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من بلغه عني**

---

(١) «عيون الأثر» لابن سيد الناس ١/ ١٥. (٢) «قواعد التحديث» للقاسمي، ص١١٣.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٧٦. (٤) «المراسيل» لابن أبي حاتم، ص٧.
(٥) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٢/ ٨٤.
(٦) «عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي» لابن العربي ٥/ ٢٠١.
(٧) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة»، ص٨٤.
(٨) «القول البديع» للسخاوي، ص٢٥٨. (٩) «تدريب الراوي»، ص١٩٦.
(١٠) «القول البديع» للسخاوي، ص٢٥٨. (١١) «علوم الحديث»، ص٩٣.

ثواب عمل، فعمله حصل له أجره، وإن لم أكن قلته»[١].

ـ أنّ الحديث الضعيف إن كان صحيحاً في نفس الأمر، فقد أعطي حقه من العمل به، وإلّا لم يترتب على العمل به تحليل ولا تحريم، ولا ضياع حق للغير[٢].

وهو قول جمهور العلماء.

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم، يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف، ما لم يكن موضوعاً، وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق، وغير ذلك، فلا يعمل فيها إلّا بالحديث الصحيح أو الحسن»[٣].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «أحاديث الفضائل تسامح العلماء قديماً في روايتها عن كلٍّ، ولم ينتقدوا فيها كانتقادهم في أحاديث الأحكام»[٤].

● ومن الآثار المروية عن السلف في التساهل في رواية الحديث الضعيف في باب الرقائق والفضائل:

ـ عن عبدة بن سليمان، قال: قيل لابن المبارك، وروى عن رجل حديثاً، فقيل: هذا رجل ضعيف، فقال: «يحتمل أن يروى عنه هذا القدر أو مثل هذه الأشياء».

قال أبو حاتم الرازي: قلت لعبدة: مثل أي شيء كان؟ قال: « في أدب، في موعظة، في زهد، أو نحو هذا»[٥].

ـ وعن عبد الرحمٰن بن مهدي[٦] رحمه الله، قال: «إذا روينا عن النبي ﷺ

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» وهو حديث موضوع. **انظر**: «تذكرة الموضوعات» للفتني، ص٢٨؛ و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني ٥/ ٦٨.

(٢) «الفتح المبين في شرح الأربعين» لابن حجر الهيتمي، ص٣٦.

(٣) «الأذكار» للنووي، ص١٣.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» ١/ ٣٠ ـ ٣١. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٦) عبد الرحمٰن بن مهدي بن حسان أبو سعيد العنبري، مولاهم البصري، الإمام الناقد =

في الحلال والحرام والأحكام شدّدنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات، تساهلنا في الأسانيد»(١).

ـ وقال أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري(٢): «الخبر إذا ورد لم يحرم حلالاً، ولم يحل حراماً، ولم يوجب حكماً، وكان في ترغيب أو ترهيب، أو تشديد أو ترخيص، وجب الإغماض عنه والتساهل في رواته»(٣).

• معنى العمل بالحديث الضعيف في الفضائل:

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنّ العمل بالضعيف عند هؤلاء الأئمة، هو مجرد رجاء الثواب المترتب عليه وخوف العقاب، لا أنّه مُلزم لأحد، حيث يقول: «العمل به بمعنى أنّ النفس ترجو ذلك الثواب وتخاف ذلك العقاب، كرجل يعلم أن التجارة ربح، لكن بلغه أنها تربح ربحاً كثيراً، فهذا إن صدق نَفَعَه، وإن كذب لم يضره، ومثال ذلك: الترغيب والترهيب بالإسرائيليات، والمنامات، وكلمات السلف والعلماء، ووقائع العالم، ونحو ذلك، مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف»(٤).

• المناقشات والترجيح:

ـ القول الأول: المروي عن الأئمة الأربعة، ليس فيه نصوص من

= المجود سيد الحفاظ، كان إماماً حجة قدوة في العلم والعمل، توفي سنة ١٩٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٢.

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١/ ٣٤؛ والخطيب في «الجامع»، رقم (١٢٦٧). **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) يحيى بن محمد بن عبد الله بن عنبر أبو زكريا، مولاهم العنبري النيسابوري، الإمام الثقة المفسر المحدث الأديب العلامة، توفي سنة ٣٤٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٣٣.

(٣) أخرجه الخطيب في «الكفاية»، ص٢١٣. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى ١٨/ ٦٦.

كلامهم، إلّا مجرد إلزامات، ولازم القول لا يعتبر حجّة، ما لم يرد التصريح.

- أما القول الثالث: فالحديث الذي استدلوا به حديث موضوع منكر، كما سبق بيانه.

- ثم إنّ الأمر إذا ثبتت فضيلته من طريق صحيح، لم يحتج إلى الروايات الضعيفة، فلنا في صحيح الحديث ما يغنينا عن سقيمه.

- أما الشروط التي ذكرها أصحاب القول الثالث: فهي في حقيقة أمرها شروط يعجز عن تطبيقها عامة الناس، فهي لا تتيسر إلّا للمتضلع المتمرّس في علم الحديث(١).

- ثمّ إنّ أولئك المرخصين في رواية الضعيف من أئمة السلف، معلوم عنهم سياق الإسناد، كما يدل عليه المعهود من صنيعهم، وما تشير إليه عباراتهم المتقدمة من تعيين التساهل في الأسانيد، فيحدثون بالشيء من تلك الأخبار بأسانيدها، ومن أسند فقد أحال، والإسناد لمن يفهمه، لا لمن لا يفهمه.

«وهذا المعنى بهذا القدر لم يجر عليه حال المتساهلين من المتأخرين في هذه المسألة، بل إنهم جاوزوا طريقة أولئك العلماء من السلف في ثلاثة أمور ضرورية:

أولها: أنهم حذفوا الإسناد غالباً، وكان السلف يسوقون الأسانيد.

وثانيها: أنهم ترخصوا في التحديث به للعامة منسوباً إلى النبي ﷺ، دون بيان، والعامة ربما اعتقدوا بسماعه أو قراءته في الكتب صحة نسبته إلى النبي ﷺ.

وثالثها: أنهم جاوزوا فيه الضعيف الصالح للاعتبار، إلى الواهي والمنكر والموضوع.

---

(١) **انظر**: «تمام المنة في تخريج فقه السنة» للألباني، ص٣٢ ـ ٣٨.

فمن فعل هذا لم يصح له دعوى الاقتداء بترخيص من ترخص بذلك من السلف، لتجاوزه الصفة التي قصدوا[١].

ـ كما أنّ التساهل برواية الحديث الضعيف له آثار سيئة ونتائج وخيمة[٢]:

منها: توسيع دائرة الضعيف الذي خفّ ضعفه، إلى الأحاديث الواهية المكذوبة.

ومنها: إثبات بعض الأحكام الشرعية التعبدية، بالاستناد إلى الأحاديث الموضوعة، كما هو الشأن في فضائل الأوقات وغيرها.

ومنها: رواية الحديث الضعيف والمنكر، دون بيان حُكمه، كما يفعله كثير من الوعاظ والخطباء، وفي هذا إلباس على العوام أمر دينهم، وغش لهم.

ومنها: انتشار البدع والخرافات، بسبب انتشار هذه الأحاديث الضعيفة.

فالراجح: هو قول المانعين من رواية الأحاديث الضعيفة والاحتجاج بها ـ مطلقاً ـ:

ـ لورود النهي الشديد والوعيد الأكيد، في حق من روى الأحاديث المكذوبة الباطلة.

ـ ولأنّ الحديث الصحيح يغني عن الروايات الضعيفة، والأحاديث الواهية.

ـ ولقلّة معرفة الناس بعلوم الحديث في هذا الزمن، فلا يمكنهم التمييز بين الصحيح والسقيم، فلزم الاقتصار على ما صحّ وثبت من الأخبار والروايات.

ـ ولأنّ في منع رواية الأحاديث الضعيفة والاحتجاج بها، قطع للطريق أمام أهل الأهواء والبدع؛ كالصوفية وغيرهم، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «تحرير علوم الحديث»، لعبد الله الجديع ٢/١١١٣.

(٢) **انظر**: «صحيح الترغيب»، للألباني ١/١٦ ـ ٣٦.

المطلب الرابع

التعميم دون التخصيص، والابتعاد عن التشهير

إنّ حرص الواعظ على صلاح الموعوظ واستقامته، لا بد أن يكون مقروناً بأدبٍ جمٍّ، وخلق رفيع، حتى يتسنّى له تقويم المعوج، وإصلاح الفاسد، وإلّا حصل في الموعوظ إعراض وتماد في الغيِّ والفساد.

ورأس الأدب في النصيحة والموعظة، هو إخلاص النصح للموعوظ، وتجنّب إحراجه والتشهير به، ويتفرَّع عن هذا الأدب جملة من الآداب، التي ندب إليها الشرع الحكيم، وحثّ عليها السلف الصالح رحمهم الله.

* أوّلاً: صرف الموعظة إلى غير معين:

إنّ النصح بالتعريض دون التصريح، وبالتعميم دون التخصيص، يُعَدُّ من أعظم آداب الموعظة، ومن أكبر عوامل قبولها لدى الموعوظ؛ لأنّ النفس البشرية مجبولة على الأنفة والكبر والاعتداد بالذات، فهي لا تحبّ أن يواجهها أحد كائناً من كان بعيوبها صريحة مكشوفة؛ لأنها تعتبر ذلك إهانة لها وتحقيراً، فتلجأ إلى العناد والمحادّة والمشاقّة.

وإننا نجد القرآن الكريم، والسنّة النبوية، قد استخدما هذا الأدب في الوعظ والتذكير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

قال الزركشي رحمه الله: «المقصود: التعريض بذمّ من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أنه لفرط عناده، كأنه ليس له أُذنٌ تسمع، ولا قلبٌ

يعقل، وأنّ الإنذار له كلاً إنذار»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن قتيبة رحمه الله: «والمعنى إنّا لضالون أو مهتدون، وإنّكم أيضاً لضالون أو مهتدون، وهو جلّ وعزّ يعلم أنّ رسوله ﷺ المهتدي وأنّ مخالفه الضال، وهذا كما تقول للرجل يكذبك ويخالفك: إنّ أحدنا لكاذب وأنت تعنيه، فكذبته من وجه، وهو أحسن من التصريح»[2].

وفي السنّة النبويّة، نجد هذا الأدب ديدنُ النبي ﷺ في الوعظ والنصح، فكان إذا بلغه عن أصحابه شيء يُنْكَر، يقول: **«ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»**.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: **«كان رسول ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل: لم قلت كذا وكذا، ولكنه يَعُمُّ فيقول: ما بال أقوام»**[3].

وعن أنس رضي الله عنه أنّ نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على الفراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال ﷺ: **«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[4].

قال النووي في شرحه: «وهو موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا، أنّه إذا كره شيئا فخطب له، ذكر كراهيته ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ فإنّ المقصود من ذلك الحاضرين وغيرهم، ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ»[5].

---

(١) «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي ٢/ ٣١٤.

(٢) «تأويل مشكل القرآن»، لابن قتيبة، ص٢٦٩.

(٣) رواه أبو بكر القرشي في «مكارم الأخلاق»، ص٣٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه مسلم ٢/ ١٠٢٠، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم (٢٤٨٧).

(٥) شرح صحيح مسلم ٩/ ١٧٦.

وقد أشاد السلف رحمهم الله بهذا الأدب العظيم، والتزموا بهديه في خطبهم ومواعظهم.

قال ابن حزم[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن وعظ ببشر وتبسم ولين، وكأنه مشير برأي، ومخبرٌ عن غير الموعوظ، بما يستفتح من الموعوظ، فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة، وكان ﷺ لا يواجه بالموعظة، لكن كان يقول: **«ما بال أقوام يفعلون كذا»**[٢].

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن دقائق صناعة التعليم ـ والوعظ ـ، أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرِّح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإنّ التصريح يهتك حجاب الهيئة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

والتعريض يُمَيِّل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه، رغبة في العلم به، ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته»[٣].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يبلغ التعريض للمنصوح، ما لا يبلغه التصريح»[٤].

ووجه حسن التعريض ظاهر؛ لأنّه يتضمّن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر كأنّك لم تعنه، وهو أعلى محاسن الأخلاق، وأقرب للقبول، وأدعى للتواضع[٥].

*** صور التعريض:**

التعريض في النصح والموعظة يأتي بأشكال عديدة وأنماط كثيرة، وقد

---

(١) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد الأندلسي القرطبي، ذو الفنون والمعارف، تبحر في الفقه والحديث واللغة، كان ظاهرياً في الفروع، مأوّلاً في الأصول، توفي سنة: ٤٥٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤.

(٢) «الأخلاق والسير» لابن حزم، ص٦٣.

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٥٧.

(٤) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ١١٦.

(٥) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٣.

أَكْثَرَ السلف رحمهم الله من التعريض في مواعظهم، متخذين أساليب شتى وطرق عدّة، فمن ذلك:

١ ـ تعميم الخطاب بقولهم: يا ابن آدم، ونحوه، وهو كثير جداً:

ومن نماذج ذلك:

قول الحسن البصري رحمه الله: «ابن آدم، ما أوهنك وأكثر غفلتك، تعيب الناس بالذنوب، وتنساها من نفسك، وتبصر القذى في عين أخيك، وتعمى عن الجذع معترضاً في عينك، ما أقلّ إنصافك، وأكثر حيفك»[١].

٢ ـ توحيد الخطاب، ليعمَّ الواعظ والموعوظ:

ومن نماذج ذلك:

عن إبراهيم بن بشار قال سمعت إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: «ما بالنا نشكوا فقرنا إلى مثلنا، ولا نطلب كشفه من ربنا»[٢].

٣ ـ الثناء بحضرة المسيء، على مَنْ فَعَلَ خلاف فعله:

قال ابن حزم رحمه الله: «ومما ينجع في الوعظ أيضاً الثناء بحضرة المسيء، على من فعل خلاف فعله، فهذا داعية إلى عمل»[٣].

ومن نماذج ذلك:

عن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: «أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة»[٤].

٤ ـ توجيه الواعظ الإنكار إلى نفسه تصريحاً، وهو يعني السامع تلميحاً:

كان عامر بن عبد قيس رحمه الله يقول: «ما لي لا أبكي، ومن أحق

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٧٠؛ وابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص١٣٣. **قلت:** وإسناده صحيح.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٣٢. **قلت:** ورجاله ثقات.

(٣) الأخلاق والسير لابن حزم، ص٦٣.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٠٨. **قلت:** وإسناده حسن.

بالبكاء مني، والله ما أبكي حرصاً على الدنيا، ولا جزعاً من الموت ولكن لبعد سفري، وقلّة زادي، وإني أمسيت في صعود وهبوط، جنة أو نار، فلا أدري إلى أيهما أصير»[١].

*** ثانياً: الإسرار بالموعظة:**

إنّ النصح والوعظ في السرِّ دون العلانية، من أنجع طرق الدعوة والإصلاح، وأنفعها، وأشدها وقعاً على القلوب.

وقد استعمل هذا الأسلوب الحكيم الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٩].

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: «وهذا هو حال من ينصح في السر، فإنّه جدير أن يقبل منه»[٢].

والموعظة في السرِّ فيها مندوحة عن التجريح وفضح عيوب الناس، وقد استحبها السلف رحمهم الله، وأشادوا بها.

وقال ابن عبد البر[٣] رحمه الله: «وكان السلف يكرهون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على هذا الوجه، ويحبون أن يكون سراً، فيما بين الآمر والمأمور، فإنّ هذا من علامات النصح، فإنّ الناصح ليس له غرض، في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها.

سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال: «إن كنت فاعلاً ولا بد، ففيما بينك وبينه»[٤].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٨٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) «البحر المحيط»، لأبي حيان الأندلسي ٨/ ٣٣٩.

(٣) يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر، أبو عمر الأندلسي القرطبي المالكي، الإمام العلامة حافظ المغرب، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف الفائقة، كان فقيهاً عابداً متهجداً، من مصنفاته: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، و«الاستذكار»، وغيرهما من الكتب، توفي سنة: ٤٦٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، ص٨٢.

وقالت أم الدرداء[(١)] ﵂: «من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه»[(٢)].

وقال عبد العزيز بن أبي رواد[(٣)]: «كان من كان قبلكم، إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه ويهتك ستره»[(٤)].

وعن عبد الرحمٰن بن مطرف قال: «كان الحسن إذا أراد أن ينصح أخاً له، كتبه في ألواح وناوله»[(٥)].

والستر من خصال المؤمنين الكمّل كما قال الفضيل بن عياض ﵀: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعيِّر»[(٦)].

وأنشد الشافعي ﵀ في وجوب الستر في النصيحة فقال:

تَعَمَّدني بِنُصحِكَ في اِنفِرادي ... وَجَنِّبني النَصيحَةَ في الجَماعَه

فَإِنَّ النُصحَ بَينَ الناسِ نَوعٌ ... مِنَ التَوبيخِ لا أَرضى اِستِماعَه

وَإِن خالَفتَني وَعَصَيتَ قَولي ... فَلا تَجزَع إِذا لَم تُعطَ طاعَه[(٧)]

وأما إشاعة وإظهار العيوب، فهو مما حرمه الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى

---

(١) هجيمة وقيل: جهيمة، الأوصابية الحميرية الدمشقية، أم الدرداء الصغرى، السيدة العالمة الفقيهة، روت علماً جماً عن زوجها أبي الدرداء، وطال عمرها واشتهرت بالعلم والعمل والزهد، توفيت سنة: ٨١هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٧.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ١١٢؛ ويروى هذا القول عن الشافعي أيضاً، حلية الأولياء ٩/ ١٤٠.

(٣) عبد العزيز بن أبي رواد ـ واسم أبيه ميمون ـ الأزدي المكي، شيخ الحرم، أحد الأئمة، قال ابن المبارك: كان من أعبد الناس، وكان مرجئا، توفي سنة: ١٥٩هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٤.

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ص٨٢.

(٥) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ١١٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ص٨٢.

(٧) «ديوان الإمام الشافعي»، ص٥٦.

ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وكان يقال: «من أمر أخاه على رؤوس الملأ، فقد عيَّره»[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد، وعظوه سراً».

حتى قال بعضهم: «من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه»[٢].

ومواجهة الموعوظ بالنصيحة والموعظة، لا بدّ أن يكون مقروناً بالرفق واللين؛ لأنّ الغلظة والجفاء تورث الضغينة والإعراض عن قبول الموعظة والنصيحة.

وقد ندب الله إلى الرفق في وعظ الجاهل كافراً كان أو مسلماً.

قال تعالى ـ في خطاب موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ـ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب، فيكون يريد ينتصر لنفسه»[٣].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاتساء بالنبي ﷺ في وعظ أهل الجهل، والمعاصي والرذائل واجب، فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار[٤]، فقد أخطأ، وتعدى طريقته ﷺ، وصار في أكثر الأمر مغرياً للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجاً[٥]، وحَرَداً[٦]، ومغايظة للواعظ الجافي، فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً.

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير، لابن رجب، ص٤١١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص٨٢.
(٣) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ص٣٢٥.
(٤) هو: عبوس الوجه وانقباضه؛ لسان العرب ٥/ ١٥١، مادة: «كفهر».
(٥) هو: التمادي في الخصومة، مع ثقل اللسان، ونقص الكلام؛ لسان العرب ٢/ ٣٥٥، مادة: «لجج».
(٦) وهو: الغضب؛ مختار الصحاح ١/ ٥٥، مادة: «حرد».

فإن لم يتقبل فلينتقل إلى الموعظة بالتحشيم[1]، وفي الخلاء، فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ، فهذا أدب الله في أمره بالقول واللين.

وقد أثنى النبي ﷺ على الرفق، وأمر بالتيسير، ونهى عن التنفير، وكان يتخول بالموعظة خوف الملل، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الغلظة والشدة، فإنما تجب في حدٍّ من حدود الله تعالى، فلا لين في ذلك للقادر على إقامة الحدِّ خاصة»[2].

فالرفق ولين الخطاب هو المتعيّن حال الموعظة، وهو الأليق بحال الواعظ؛ لأنّ حال الموعظة غير حال الردِّ، والمناظرة والمجادلة.

● وبهذا ندرك أنّ مفاتيح القلوب إنما هي في اللين والرفق، والإسرار والتلطّف، ولهذا كان السلف لا يعيبون أحداً، ولا يجرحون مخطئاً، بل يسرون في وعظهم إسراراً، ويكتفون بالإشارة عن صريح العبارة.



(١) من الحشمة، وهي: الاستحياء، مختار الصحاح ١/ ٥٨، مادة: «حشم».
(٢) الأخلاق والسير، ص٤٥.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الثاني

أساليب الوعظ عند السلف

ويتضمّن تمهيداً وستة مباحث:

التمهيد: مفهوم أساليب الوعظ وخصائصها.

المبحث الأول: الوعظ عن طريق الترغيب والترهيب.

المبحث الثاني: الوعظ عن طريق ضرب الأمثال.

المبحث الثالث: الوعظ عن طريق القصص.

المبحث الرابع: الوعظ عن طريق التذكير بنعم الله تعالى.

المبحث الخامس: الوعظ عن طريق التذكير بسيرة السلف الصالح.

المبحث السادس: الوعظ عن طريق طرح السؤال.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهـــيد

* أوّلاً: مفهوم أساليب الوعظ:

١ ـ تعريف الأساليب لغة:

الأساليب: جمع أُسْلُوب، وهو مشتق من: سَلَبَ، يَسْلب، سَلْباً، وسَلُوباً[(١)].

و(سلب): السين واللام والباء أصلٌ واحدٌ، وهو أَخْذُ الشَيء بخفّة واختطاف[(٢)].

ومن معاني الأسلوب لغة:

- الطريق الممتدّ[(٣)].
- الوجهُ، والمَذْهَبُ؛ يقال: أَنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ.
- الفَنُّ؛ يقال: أَخَذ فلانٌ في أَساليبَ من القول أَي: أَفانِينَ منه[(٤)].

٢ ـ تعريف الأسلوب اصطلاحاً:

أ ـ في الاصطلاح العام: «هو فنّ القول[(٥)]، وطريقة الإنشاء واختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني، قصد الإيضاح والتأثير»[(٦)].

وقيل: «الأساليب: هي القوالب والتراكيب التي تصاغ فيها

---

(١) «الصحاح» ١/١٦٧، مادة: «سلب».
(٢) «معجم مقاييس اللغة» ٣/٩٢، مادة: «سلب».
(٣) «التوقيف على مهمات التعاريف»، للمناوي، ص٩٨.
(٤) «لسان العرب» ١/٤٧١، مادة: «سلب».
(٥) «الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية»، لمجيد ناجي، ص١٢.
(٦) «الأسلوب»، لأحمد الشايب، ص٤٤.

المعاني»[١].

ب ـ في اصطلاح الدعاة: هناك تعاريف متنوعة للأسلوب عند الدعاة، فعرَّفه بعضهم فقال: «هو ما بُلِّغَت به أوامر الله تعالى وإرشاداته إلى المدعوين»[٢].

وقيل: «هو العلم الذي يتّصل بكيفية مباشرة التبليغ، وإزالة العوائق»[٣].

أمّا أساليب الوعظ، فيمكن تعريفها، بأنها:

«الطرق الشرعية، والأفانين القولية، ـ الملائمة لحال الموعوظين ـ، التي يستخدمها الواعظ في وعظه، من أجل ترقيق قلوب الناس، وترغيبهم في طاعة الله ﷻ، وترهيبهم من معصيته».

*** ثانياً: خصائص أساليب الوعظ عند السلف رحمهم الله:**

للوعظ جانبان، جانب المعاني والمضامين، وهو الذي يشمل قضايا الوعظ ومبادئه وأهدافه. . ، وجانب الأساليب والعبارات، وهو الذي تصاغ فيه هذه المعاني. . .

ولكل من الجانبين خصائصه التي تميزه عن الآخر.

وقد اهتمّ السلف رحمهم الله بأساليب الوعظ والتذكير، فتخيّروا منها الأساليب النافعة الحكيمة، المستنبطة من الكتاب والسنّة، المتنوعة في أشكالها، والملائمة لحال الموعوظين.

وتميّزت هذه الأساليب بجملة من الخصائص، من أبرزها:

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» ٢/ ١٢٧٩.

(٢) «أساليب الدعوة إلى الله تعالى القرآن الكريم»، لأبي المجد سيد نوفل، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد رقم (٤٩)، ص١٢٧.

(٣) «الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى»، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص١٨٨؛ **وانظر**: «الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، للدكتور عبد الرحيم المغذوي، ص٣٥٢.

أ ـ الأثرية:

إنّ أساليب الوعظ عند السلف مستمدّة من الكتاب والسنّة[(١)]، متفقة معها شكلاً ومضموناً ـ كما سبق بيانه[(٢)] ـ.

وذاك لأنّ السلف رحمهم الله أدركوا أنّ الهداية التامّة موجودة في القرآن الكريم والسنّة النبوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فلم يستعيضوا عنها بالأساليب البدعية التي لم يشرعها الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنّ في ذلك طعن في كمال الدين وكمال الدعوة إليه[(٣)]، وربما تضمّنت مفاسد وشرور وفتن تزيد على نفعها.

ب ـ الشمولية والتنوّع:

أساليب الوعظ عند السلف متنوّعة وشاملة لكلّ أحوال الموعوظين وأصنافهم، فهي تتنوّع بتنوّع مقاصد الوعظ وأحوال الموعوظ[(٤)]، وهذا ما يعطي الواعظ مجالاً رحباً لتنويع الأساليب قصد الوصول إلى التأثير في الموعوظ وإقناعه.

ج ـ الوضوح والبيان:

أساليب الوعظ هي أساليب قولية بيانية، تقوم على الوضوح في فكرتها، والتناسق في عبارتها، والقوة في تركيبها، والانسجام بين أسلوبها ومضمونها، ممّا يجنبها اللّبس والاضطراب، والغموض والإبهام، وهذا ما يُحْدثُ أثراً بالغاً في نفس الموعوظ[(٥)].

د ـ الواقعية:

أساليب الوعظ عند السلف أساليب واقعية في طرحها ومعالجتها

---

(١) «الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى»، ص١٨٨.
(٢) انظر: ص٩٩، من هذا البحث. (٣) مجموع الفتاوى ١١/٦٢٣.
(٤) «علم الأسلوب»، لصلاح فضل، ص٩٦.
(٥) «الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب»، لمحمد خير يوسف، ص٦٩.

للأمور، بعيدة عن خيال الشعراء، وفن الأدباء، وغيرهما مما يبعد عن الحقيقة ويضرب في أودية الوهم والخرافة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

«ولا يدخل في هذا الخيال، ما اشتملت عليه هذه الأساليب من تشبيهات وتراكيب بلاغية؛ لأنّ هذه وإن احتوت على ضروب من التصويرات، فإنما هي لتقريب المعنى وإبرازه في صورة المحسوس، وكشفه، وتوضيحه وإظهار الحقيقة، دون زيادة أو نقصان»[١].

هـ ـ الحكمة:

فهي أساليب تجمع بين الرفق في الخطاب، وتخيّر الأنسب لحال الموعوظ، دون خدش لكرامته، أو فضحاً لعيوبه، بل تجمع بين حسن التبليغ، وحسن اختيار الوقت والحال، وحسن تخيّر الأسلوب الأنجع[٢].

و ـ الاعتدال:

أساليب الوعظ عند السلف تتّسم بالاعتدال في الطرح، بعيدة عن التهويل والتهوين، وهذا ممّا يدلّ على رجحان عقل الواعظ، وحرصه على الحقيقة.

فمن هدي السلف في الوعظ عدم الإسراف في المدح والذمّ، ولا في الوعد والوعيد؛ لأنّ الإسراف مظنَّةُ الكذب، والاعتدال مظنة الصدق.

● وهذه الأساليب تدور حول الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، والسؤال وغيرها مما سيرد، وفي هذا يقول المحدث ولي الله

---

(١) «أساليب الدعوة إلى الله تعالى القرآن الكريم»، لعبد الكريم سيد نوفل، ص١٢٩.

(٢) «الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى»، ص١٩٠؛ و«الدعوة بين تنويع الأساليب وتمييع الحقائق»، لحسن محمد قائد، مقال نشر بموقع «مفكرة الإسلام» بتاريخ: ٨ صفر ١٤٢٥هـ.

الدهولي رَحِمَهُ الله: «وأما أركان الموعظة فهي الترغيب والترهيب، والتمثيل بالأمثال الواضحة، والقصص المرققة، والنكات النافعة، فهذا طريق التذكير، والشرح والمسألة التي يذكرها»[1].



(١) «القول الجميل في بيان سواء السبيل»، لأحمد ولي الله الدهلوي، نقلاً عن «أبجد العلوم»، للقنوجي ٢/٥٣٦.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

الوعظ عن طريق الترغيب والترهيب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الترغيب والترهيب، وأهميته، وضوابطه.

المطلب الثاني: مسالك الوعظ بالترغيب والترهيب.

المطلب الأول

مفهوم الترغيب والترهيب، وأهميته، وضوابطه

* أوّلاً: مفهوم الترغيب:

١ ـ الترغيب لغة:

الترغيب مصدر من: رَغِب يرغَبُ رَغْباً ورُغباً ورَغْبَةً ورَغْبَى.

و(رغب): الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلبٌ لشيء، والآخر سَعَةٌ في شيء[١].

ومن معاني الترغيب لغة: السؤال والدعاء، وطلب الشيء، والحرص عليه، والطمع فيه[٢].

٢ ـ الترغيب اصطلاحاً:

قيل: «هو كلّ ما يشوق المدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه»[٣].

وقيل: «هو الخطاب المفيد في حمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة»[٤].

* ثانياً: مفهوم الترهيب:

١ ـ الترهيب لغة:

الترهيب مصدر من: «رهَب ورهِب ـ بكسر الهاء ـ، يرهب، رُهْباً، ورَهَباً، ورَهْبَة».

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» ٢/ ٤١٥، مادة: «رغب».
(٢) «لسان العرب» ١/ ١١٨٩، مادة: «رغب».
(٣) «أصول الدعوة»، لعبد الكريم زيدان، ص٤٣٧.
(٤) «هداية المرشدين»، ص١٩٢.

و(رهب): الراء والهاء والباء أصلان: أحدهما يدلُّ على خوفٍ، والآخَر على دِقّة وخِفَّة[١].

ومن معاني الترهيب لغة: الإخافة والوعيد والإزعاج، والإفزاع[٢].

٢ ـ الترهيب اصطلاحاً:

قيل: «هو كلّ ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، وعدم الثبات عليه، وعدم قبوله»[٣].

*** ثالثاً: أهمية الترغيب والترهيب في مجال الوعظ:**

إنّ أسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب التي حرص السلف رحمهم الله على نشر الإسلام وتذكير الناس ووعظهم من خلاله، فَكَمْ من قلوب مقفلة، ونفوس غافلة، وهمم خائرة، عولجت أدواؤها بالترغيب والترهيب.

وتظهر أهمية الترغيب والترهيب في مجال الوعظ من خلال ما يلي:

١ ـ أسلوب الترغيب والترهيب هو أصل أساليب الوعظ وأُسَّها، فكلّها تدور في محوره وتسير في فَلَكه، ولهذا نجد أكثر السلف يجعلون الترغيب والترهيب اسماً جامعاً للموعظة[٤]، وما ذاك إلّا لأنّ الأصل في الوعظ هو ترغيب الناس في طاعة ربهم، وترهيبهم من معصيته.

وأشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

ففي هذه الآيات بيان لهداية القرآن، ـ وهي هداية إرشاد وبيان ـ، وهي محصورة في الترغيب والترهيب[٥].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» ٢/ ٤٤٧، مادة: «رهب».

(٢) «لسان العرب» ١/ ١٢٣٧، مادة: «رهب».

(٣) «أصول الدعوة»، ص٤٣٧.

(٤) انظر: ص٥٨ من هذا البحث.

(٥) «هداية المرشدين»، ص١٩٢.

وكثيرٌ من الدعاة يعتبر الأمثال والقصص وغيرها من الأساليب جزءاً من أسلوب الترغيب والترهيب[١]؛ لأنّ هذه الأساليب تقوم على أصلي الترغيب والترهيب، وإن تعدّدت أنماطها وتباينت أشكالها.

٢ ـ إنّ الترغيب والترهيب من أكثر أساليب الوعظ شمولية وتنوّعاً، وذاك لأنّ النفس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترهيب، ومنها ما يخيفه الترهيب[٢]، بل إنّ حال الفرد الواحد تتقلب بين دواعي الترغيب ودواعي الترهيب.

وأسلوب الترغيب والترهيب أسلوب متعدّد الأشكال، يعطي الواعظ مجالات رحبة في استخدام الأمثل منها في هداية الموعوظين، وفق ظروفهم، ومراعاة لاختلاف أحوالهم.

٣ ـ وممّا يوضِّح أهمية الترغيب والترهيب في مجال الوعظ، أنّ القرآن الكريم والسنة النبويّة تزخران بالوعظ بالترغيب والتبشير وبيان يُسْر هذا الدين، وبالترهيب والتخويف ممّا يناقض هذا الدين ويضادّه[٣].

بل إنّ كلّ أوامر القرآن ونواهيه مصطبغة بصبغة الترغيب والترهيب.

٤ ـ إنّ الوعظ بالترغيب والترهيب هو أساس دعوة الرسل عليهم السلام، فما بعث الرسل عليهم السلام إلّا مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]. «ففي هذه الآيات بيان للغرض من إرسال الرسل عليهم السلام وهو: الترغيب والترهيب»[٤].

---

(١) «تزكية النفس في منهج الإسلام»، د. أنس كرزون، ص٣٦٠.
(٢) «فقه الدعوة»، د. بسام العموش، ص٨٦.
(٣) «معالم الدعوة في القصص القرآني» للديلمي ١/ ٤٩٤؛ و«هداية المرشدين»، ص١٩٢.
(٤) «تفسير القرطبي» ٦/ ٤٢٩؛ و«فتح القدير» ٢/ ١١٧.

وقال تعالى عن نبيه محمداً ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة وردت في وعظ الرسل عليهم السلام لأقوامهم بالتبشير والإنذار، ومن ذلك قوله تعالى ـ في دعوة نوح عليه السلام قومَه ـ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]، ففي هذا ترغيب لمن استغفر ربه وآمن به.

وقال تعالى ـ لرسوله محمداً ﷺ ـ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وفي هذا ترهيب وإنذار للمعاندين المعرضين عن سبيل رب العالمين.

٥ ـ إنّ الوعظ بالترغيب والترهيب يعتبر أحد طرائق الإنكار والتأديب، وهو يأتي بعد درجة التعريف[١]، ولهذا كان الترغيب والترهيب من أعظم الأساليب التي تزال بها المنكرات وتحفظ بها الحدود، وتُعصَم بها النفوس والدماء والأموال.

قال الغزالي رحمه الله ـ عند حديثه عن درجات إنكار المنكر ـ: «الدرجة الثالثة النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصرّ عليه بعد أن عرف كونه منكراً؛ كالذي يواظب على الشرب، أو على الظلم، أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتحكى له سيرة السلف، وعبادة المتقين»[٢].

٦ ـ إنّ النفس البشرية تتطلّع دائماً إلى ما يحقق لها السعادة والنجاح، ويكفل لها الفوز والفلاح، فالإنسان مجبول على حب الخير والرغبة في الحصول على كلّ محبوب، كما أنّ النفس طبعت على بغض الشرِّ وما يعود عليها بالضرر والهم والنكد.

---

(١) «الترهيب في الدعوة»، ص٨٤.
(٢) «إحياء علوم الدين» ٢/ ٣٣٠.

ومن هنا كان للترغيب والترهيب أثره البالغ في هداية البشرية إلى الحق والخير والسعادة والفضيلة، وإبعادها عن طريق الباطل والشر والتعاسة والرذيلة، فهناك نفوس لا تستجيب إلّا إذا رغبت وبيّن لها جزاء عملها، وهناك نفوس لا تستجيب إلّا إذا رهبت وخوّفت[١].

ومن هنا صار الطريق ممهّداً أمام الواعظ لاستثمار هذه الفرصة وتخوّل الموعوظ بها.

٧ ـ إنّ خلط الرغبة بالرهبة، والرجاء بالخوف، من أكمل صفات عباد الرحمٰن جلّ وعلا، وهي صفة أنبيائه ورسله عليهم السلام، فقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه ورسله عليهم السلام لكمال رغبتهم ورهبتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٨ ـ إنّ التواصي بعبادة الله رغبة ورهبة هي جماع وصيّة السلف رحمهم الله، ومدار وعظهم ونصحهم، ويشهد لذلك وصيّة الصديق رضي الله عنه وموعظته، فعن عبد الله بن عُكَيْم قال: «خطبنا أبو بكر رضي الله عنه فقال: أما بعد: أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإنّ الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾»[٢].

وعن حصين بن عبد الرحمٰن قال: كان كردوس[٣] يقول ـ ويقصّ علينا زمن الحجاج ـ: «إنّ الجنة لا تنال إلا بعمل، فأخلطوا الرغبة بالرهبة، ودوموا على صالح الأعمال، واتقوا الله بقلوب سليمة، وأعمال صادقة،

---

(١) «الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى»، ص٧٦٤.
(٢) رواه هناد في «الزهد» ١/ ٢٨٣؛ وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٥. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) كردوس بن هانئ وقيل ابن عياش التغلبي، يعرف بالقاص، كان يقص على التابعين، روى عن حذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعائشة والمغيرة بن شعبة وغيرهم، كان من وعاظ المحدثين؛ حلية الأولياء ٤/ ١٨٠.

ومن خاف أدلج[(١)]، ومن خاف أدلج، ومن خاف أدلج»[(٢)].

٩ - إنّ الخوف والرجاء من أعظم مقامات السالكين، فبهما يصل العبد إلى كمال القوة العلمية والعملية، التي يقطع بهما سفره إلى ربه ومولاه[(٣)].

«فالرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمٰن، وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب، ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمّة الرجاء، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات، وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف»[(٤)].

ولذلك كانت مهمة الواعظ تنمية هذين المقامين، وتعاهدهما لدى الموعوظ، وشحذ همته من خلالهما حتى يستقيم سيره إلى ربه.

١٠ - إنّ الخوف والرجاء من أعظم الأدوية التي تداوى بها علل القلوب وأدوائها، فأمراض القلوب بين أمرين، إمّا أمن واغترار موجب للكسل، أو يأس وقنوط موجب لترك العمل، فكان لا بد للواعظ الحصيف من تعاهد الموعوظين وإمدادهم بالدوائين في كل حين[(٥)].

١١ - ومن أعظم الأمور الدالة على أهمية الترغيب الترهيب في الوعظ، هو أنّ الله ﷻ جعل الخوف من وعيده وعذابه، ورجاء عفوه وإحسانه، شرطاً في الانتفاع بالموعظة، فكلّما اشتدّ خوف العبد من الوعيد، وكمل رجاؤه في وعد الله وعطائه، عظم انتفاعه بما يوعظ به.

---

(١) الدلجة، هي: السير أوّل الليل، وتطلق كناية على الحزم والجدّ والاجتهاد؛ «النهاية في غريب الحديث»، مادة: «دلج» ٢/ ١٢٩.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» ١/ ٣٦٦؛ وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٨٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) «طريق الهجرتين»، لابن القيم ١/ ٢٨٧.

(٤) «إحياء علوم الدين» ٤/ ١٤٢.

(٥) «إحياء علوم الدين» ٤/ ١٦٤.

وفي هذا المقام يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما تذكر الوعد والوعيد: فإنّ ذلك يوجب خشيته، والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره، شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه»(١).

ويقول رحمه الله في موضع آخر: «الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء، فيتحرك للعمل طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجو، والعظة هي: الأمر والنهي المعروف بالترغيب والترهيب»(٢).

١٢ ـ وممّا يُوضح أهمية أسلوب الترغيب والترهيب، ومكانته عند السلف، اعتناؤهم بتأليف الكتب والمصنفات في الترغيب والترهيب(٣)، ومن ذلك تمثيلاً لا حصراً(٤):

- الترغيب: لأبي الحسن التميمي نضر بن شميل المازني البصري، ت: ٢٠٤هـ.
- الترغيب والترهيب: لابن زنجويه حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي، ت: ٢٤٨هـ.
- الترغيب والترهيب: لقوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، ت: ٥٣٥هـ
- الترغيب والترهيب: لزكي الدين أبي محمد بن عبد العظيم المنذري، ت: ٦٥٦هـ.

---

(١) «مدارج السالكين» ١/ ٤٤٧. (٢) «المصدر السابق» ١/ ٤٤٤.
(٣) سيأتي مزيد بيان في مصنفات السلف في الوعظ والترغيب والترهيب، في الفصل الثالث من هذا البحث، ص٤٩٢، إن شاء الله.
(٤) «كشف الظنون»، لحاجي خليفة ١/ ٤٠٠.

* رابعاً: ضوابط الوعظ بالترغيب والترهيب عند السلف:

وضع السلف رحمهم الله جملة من الضوابط التي ينبغي لكلّ واعظ أن يسلكها في وعظه وتذكيره، ومن هذه الضوابط ما هو متعلّق بأسلوب الوعظ بالترغيب والترهيب.

وقد كثر الزلل والانحراف في الوعظ بالترغيب والترهيب قديماً وحديثاً[1]، لقلّة العلم بمنهج القرآن والسنة في الوعظ بالترغيب والترهيب، ولسوء فهم النصوص الواردة في هذا الأسلوب، وفي ما يلي ذكر لأهم الضوابط المتعلقة بالوعظ بالترغيب والترهيب عند السلف:

١ ـ الوعظ بما جاء في الكتاب والسنّة:

اقتصر السلف رحمهم الله على العظة بالوعد والوعيد الثابتين في نصوص الكتاب والسنّة، ولم يجاوزوهما إلى غيرهما من المصادر المبتدعة، كما سبق بيانه[2].

٢ ـ الوعظ بصحيح الترغيب والترهيب:

كثرت الأحاديث الواهية والموضوعة في باب الترغيب والترهيب، وتساهل جملة من الوعاظ في إيرادها في خطبهم ومواعظهم، وتقدّم معنا تحرير القول في هذه المسألة، وبينّا الراجح من أقوال السلف في ذلك، وخلصنا إلى أنّه لا يجوز الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة في الخطب والمواعظ[3].

٣ ـ المفاضلة بين الترغيب والترهيب:

الترغيب والترهيب مبناهما على الخوف والرجاء، لذا نجد اقترانهما في كثير من آيات القرآن الكريم، وقلّ أن ينفرد أحدهما عن الآخر.

---

(١) «القول الجميل في بيان سواء السبيل»، لولي الله الدهلوي، نقلاً عن «أبجد العلوم»، لصديق بن حسن القنوجي ٢/٥٣٦.

(٢) **انظر**: ص١٨٨ من هذا البحث.

(٣) **انظر**: ص٢٥٩ من هذا البحث.

وأقوال السلف رحمهم الله متباينة في المفاضلة بينهما، وأيهما أولى بالتقديم عند الموعظة والنصح والتذكير، واختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

• **القول الأول**: أنّ الخوف والرجاء يستويان، لا يرجح أحدهما على الأخر.

وهو قول جمهور السلف رحمهم الله.

ودليلهم في ذلك: ـ أنّ الله جمع بينهما في أكثر آي القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال النووي رحمه الله: «ويجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقترنتين أو آيات أو آية»[(١)].

وكذا الشأن في السنة النبوية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**[(٢)].

ـ ولأنّ في الجمع بين الخوف والرجاء، سلامة من القنوط والاتكال.

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: يستحب للواعظ أن يجمع في موعظته بين الخوف والرجاء، لئلّا يقنط أحد ولا يتّكل»[(٣)].

ومن آثار السلف رحمهم الله الواردة في ذلك:

ـ عن يحيى بن أبي كثير أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لو نادى مناد من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلّا رجلاً واحداً لخفت أن أكون هو، ولو نادى مناد أيها الناس إنكم داخلون النار

(١) «رياض الصالحين» ١/ ١٣٣، للنووي.
(٢) رواه مسلم ٤/ ٢١٠٩، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٤٩٤٨).
(٣) «شرح صحيح مسلم» ١٧/ ٧٢.

إلّا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون هو»[١].

ـ وعن ابن هانئ قال: قال لي أبو عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ رحمه الله: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً، فأيهما رجح صاحبه هلك»[٢].

ـ وعن منصور بن عبد الله قال: سمعت أبا علي الروذباري[٣] رحمه الله يقول: «الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمَّ طيرانه، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا جميعاً صار الطائر في حدِّ الموت، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»[٤].

ـ وقال بعض السلف: «من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ[٥]، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[٦]، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحِّد مؤمن»[٧].

قال ابن رجب رحمه الله: «وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بدّ له من جميعها، ومن أخلّ ببعضها فقد أخلّ ببعض واجبات الإيمان»[٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٥٣. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٢) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» ٢/ ٣٢.

(٣) أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، سكن مصر، وصحب الجنيد، كان من أئمة العلم والعمل، اشتهر بالحديث، توفي سنة: ٣٢٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٦.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ١٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) نسبة إلى الإرجاء، وقد تقدّم بيان حقيقة الإرجاء. **انظر**: هامش، ص٤٥، من هذا البحث.

(٦) نسبة إلى الحرورية، وهو لقب للخوارج. **انظر**: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، لأبي الحسن الأشعري ١/ ١٢٧.

(٧) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «التحفة العراقية» ١/ ٧٥؛ وابن القيم في «بدائع الفوائد» ٣/ ٥٢٢.

(٨) «التخويف من النار»، لابن رجب الحنبلي، ص١٧.

• **القول الثاني**: ترجيح الخوف على الرجاء، والترهيب على الترغيب.

وهو قول الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، والحسن البصري.

ودليلهم في ذلك:

أنّ غلبة الترغيب والإرجاء تجريء العبد على المعاصي، بخلاف الخوف والترهيب فهما يبعثان على الجدِّ والحزم.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومهما كان كلام الواعظ مائلاً إلى الإرجاء، وتجرئة الناس على المعاصي، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة، وبعفو الله وبرحمته وثوقاً، يزيد بسببه رجاؤهم على خوفهم فهو منكر، ويجب منعه عنه؛ لأنّ فساد ذلك عظيم، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج»(١).

ومن الآثار الواردة عن السلف رحمهم الله في ذلك:

ـ سأل المغيرة بن محاوش الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «يا أبا سعيد، لقينا علماء يذكروننا، ويخوفوننا، يكاد يخلعون قلوبنا، وآخرون في حديثهم سهولة، قال الحسن: يا عبد الله، إنه من خوفك حتى تلقى الأمن، خير ممن أمّنك حتى تلقي المخافة»(٢).

• **القول الثالث**: التفصيل بحسب حال الموعوظ.

حيث ذهب بعض المحققين من السلف رحمهم الله إلى عدم إطلاق المفاضلة بين الترغيب والترهيب، ولكن يُنْظَر إلى حال الموعوظ، ومن ثَمَّ يتبيّن الواعظ الأصلح له، وهو الراجح بإذن الله تعالى.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب،

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٢/ ٣٣٧.

(٢) رواه أحمد في «الزهد»، ص٢١٠؛ وابن أبي عاصم في «الزهد»، ص٢٥٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل»[١].

وهناك أحوالٌ أخرى ذكرت في المفاضلة بين الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب:

قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف أفضل من الرجاء ما كان الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف، وذاك لأنه إذا كان في صحته محسناً عظم رجاءه عند الموت وحسن ظنه بربه، وإذا كان في صحته مسيئاً ساء ظنه عند الموت ولم يعظم رجاءه»[٢].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحّض الرجاء»[٣].

٤ ـ الاعتدال في الترغيب والترهيب:

غلت طوائف في الترغيب والترهيب، وخرجت بهما عن الحدّ المحمود، كغلو الخوارج في الترهيب، وغلو المرجئة في الترغيب.

ومذهب السلف رحمهم الله وسط بين الغلو والتفريط.

فلا غلو في الترجية لأنّ ذلك قد يكون باعثاً على الاتكال والكسل، وربما جرّأ العبد على المعاصي، ولا إفراط في الترهيب لأنّه قد يورث اليأس والقنوط.

ولهذا استحب السلف للواعظ أن يتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء، بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة؛ لأنه إن لم يراع ذلك

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٤/ ١٦٤.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ١٢؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٨٩. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٣) «رياض الصالحين»، للنووي ١/ ١٣٣.

كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلح»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يحلّ لأحدٍ أن يَقنَط من رحمة الله، ولا أن يُقَنِّط الناس من رحمته، ولذا قال بعض السلف: إنّ الفقيه كلّ الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله»[٢].

والقدر الواجب من الخوف والترهيب، «ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محموداً، فإن تزايد على ذلك، بأن أورث مرضاً أو موتاً أو هماً لازماً، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله ﷻ لم يكن محموداً»[٣].

• **والخلاصة**: أنّ الترغيب والترهيب وإن كان من أنجع أساليب الوعظ وأكثرها تأثيراً إلّا أنه منضبط بضوابط تصونه عن الخلل؛ كالاعتدال في مقداره، والموازنة فيما بينه، والاقتصار على الثابت الصحيح منه.



(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥١.
(٢) «الاستقامة» لابن تيمية ٢/ ١٩٠.
(٣) «التخويف من النار»، ص١٩.

المطلب الثاني

مسالك الوعظ بالترغيب والترهيب عند السلف

الأصل في الترغيب هو: الوعد الكريم من الله تعالى، والبشارة المحقَّقَة لكل من آمن واهتدى، وعمل صالحاً، بالخير العظيم في الدنيا، والأجر والثواب الكبير في الآخرة.

والأصل في الترهيب: التخويف بالله تعالى، والإنذار من الوعيد الشديد، والعقاب الأليم، لزجر كلّ من أعرض ونأى عن الإيمان والطاعة، بالضيق والضنك والعذاب العاجل في الدنيا، والترهيب في الآخرة بغضب الله تعالى وأليم عقابه[1].

والسلف رحمهم الله اقتفوا سبيل القرآن والسنة في أساليب وعظهم كما سبق بيانه[2]، ومن ذلك الوعظ بالترغيب والترهيب، ولذا نجد مواعظهم زاخرة بمسالك متنوعة في الوعظ بالترغيب والترهيب، جلّها مستنبطة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، بل ما كان السلف رحمهم الله يخرجون في وعظهم وترغيبهم وترهيبهم عن الكتاب والسنّة، وفيما يلي عرض لأبرز هذه المسالك:

* أولاً: مسالك الوعظ بالترغيب عند السلف:

الترغيب عند السلف شاملٌ لكلِّ مراضي الله ومحابِّه، من أنواع الطاعات، وأصناف القربات، ولكن يمكن تقسيم هذه المرغبات إلى قسمين، من حيث جنسها، وأنواعها:

(١) «هداية المرشدين»، ص١٩٣.

(٢) **انظر**: ص١٠١ من هذا البحث.

القسم الأول: الترغيب في جنس الطاعات:

المقصود بجنس الطاعات: هي جملة العبادات والطاعات المتشاكلة، التي تندرج تحت مسمًّى واحد[١]؛ كالعمل الصالح، والتقوى، والتمسك بالدين، والإيمان.[٢]....

وهذا القسم له أنواع كثيرة، وصور عديدة، وتندرج تحته جملة من المرغبات، منها:

● **النوع الأول: الترغيب بالوعد بالخير العاجل في الدنيا:**

إنّ الله وعد المؤمنين بالخير العاجل في الدنيا، شكراً لسعيهم، وشحذاً لهممهم، وتثبيتاً لقلوبهم، ونكالاً لأعدائهم، وفي هذا أعظم الترغيب في التزوّد بالأعمال الصالحة، ومن صور هذه الخيرات والمرغبات:

١ ـ الترغيب بالوعد بالحياة الطيّبة والسلامة من كلّ مكروه في الدنيا:

كما قال تعالى مرغباً في صالح العمل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فعن عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك[٣] رحمه الله يقول: «من عمل عملاً صالحاً وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن، ولم يعمل صالحاً، كانت عيشته ضنكة لا خير فيها»[٤].

٢ ـ الترغيب بالوعد بالاستخلاف في الأرض والتمكين:

كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) «لسان العرب» ٦/٤٣، مادة: «جنس». (٢) «هداية المرشدين»، ص١٩٣ ـ ١٩٤.
(٣) الضحاك بن مزاحم أبو محمد الهلالي، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وله باع كبير في التفسير والقصص، مات بعد المائة؛ سير أعلام النبلاء ٤/٥٩٨.
(٤) رواه الطبري في تفسيره ١/٨٤. **قلت**: ورجاله ثقات.

ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الله ﷻ وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً وهو الذي إذا وعد وفى فقد مكنني في أرضه وأمنني بعد خوفي»[1].

٣ ـ الترغيب بالإمداد بأنواع الخيرات في الدنيا:

ومن ذلك: قول أبي عبد الله جعفر الصادق لسفيان الثوري: «يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله ﷻ قال في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يعني في الدنيا: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] في الآخرة»[2].

٤ ـ الوعد بمحبة عباد الله للمؤمنين:

فعن عبد الله بن رباح عن كعب[3] رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «أجد في التوراة أنه لم تكن محبة لأحد من أهل الأرض، حتى يكون بدؤها من الله، ينزلها على أهل السماء، ثم ينزلها على أهل الأرض، ولم يكن بغض لأحد من أهل الأرض، حتى يكون بدؤها من الله ﷻ، ينزلها على أهل السماء، ثم ينزلها على أهل الأرض، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦][4].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ٨٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ١٩٣؛ وصفة الصفوة ٢/ ٥١٣. **قلت**: ورجال إسناده ثقات.

(٣) كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار، من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب أسلم في زمن أبي بكر وقدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم؛ تذكرة الحفاظ ١/ ٥٤.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» ١/ ١٩. **قلت**: وإسناده حسن.

● **النوع الثاني: الترغيب بالوعد بالخير الآجل الأعظم في الآخرة:**

حفل كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ، ببيان ووصف النعيم المقيم، والأمن التام، والمغفرة والرضوان من وقت خروج الروح إلى الاستقرار في جنّة الخلد، كلّ ذلك لمن تحقَّق فيه شرط الإيمان والعمل الصالح.

ولقد حذا السلف حذو الكتاب والسنّة، فاستعملوا ما ورد فيهما من أخبار ووصف للنعيم المقيم الأخروي، ترغيباً للموعوظين، وحثاً لهم إلى استباق الخيرات.

وهذا باب واسع جداً يصعب حصره، ولكن سأورد نماذج منه، تمثيلاً وتلميحاً:

١ ـ الترغيب بذكر المبشرات التي يلقاها المؤمن عند الاحتضار:

وهي مبشرات عظيمة، يلقاها المؤمن حال النزع وخروج الروح، منها التثبيت، والأمن، والبشارة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فعن ابن المبارك قال: سمعت سفيان رحمه الله يقول: «قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، عند الموت، أن لا تخافوا ما أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلفتم من ضيعاتكم، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فيبشرون بثلاث تبشيرات: عند الموت، وإذا خرجوا من القبر، وإذا فزعوا»[١].

٢ ـ الترغيب بذكر المبشرات التي يلقاها المؤمن في قبره:

الموت تحفة المؤمنين، والقبور بيوت الأفراح، ورياض الجنان، أعدّها الله لعباده المؤمنين، وفتح لهم فيها من رحمته، وذكر نزلها ونعيمها، يحرك القلوب، ويشحذ الهمم للتشمير والاجتهاد.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص١١١. **قلت**: ورجاله ثقات.

فعن الأوزاعي أنّ بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «بلغني أنّ المؤمن إذا وضع في لحده كلمته الأرض من تحته فقالت: والله لقد كنت أحبك وأنت على ظهري، فكيف وقد صرت في بطني، فإذ وليتك فستعلم ما أصنع فتتسع له مد بصره»(١).

٣ ـ الترغيب بذكر المبشرات في عرصات يوم القيامة:

يُؤَمِّن الله المؤمنين يوم القيامة من الفزع الأكبر، ويخفف عنهم الحساب، ويظلّل طائفة منهم تحت ظلّ عرشه، والآيات والأحاديث في ذكر هذه المقامات كثيرة جداً، وهي من أكبر المواعظ وأفضل المرغبات.

عن جعفر قال: «سمعت ثابتاً قرأ حم السجدة حتى بلغ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] فوقف، فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد، قال: فيُؤَمِّنُ الله خوفه، ويقر الله عينه، فما من عظيمة تغشى الناس يوم القيامة، إلّا والمؤمن في قرة عين، لما هداه الله له، ولما كان يعمل له في الدنيا»(٢).

٤ ـ الترغيب بذكر أحوال المؤمنين في الجنّة وما أعدّ الله لهم:

وهذا النوع يُعَدُّ من أعظم المرغبات، لذا نجد الكتب والسنّة يزخران بهذا النوع، فلا سبيل لحصر ما أعدّ الله لعباده المؤمنين في جنات النعيم، من النعيم المقيم، ولذا جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(٣).

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» ١/ ٤١؛ والبيهقي في «الشعب» ١/ ٣٦١. **قلت**: وإسناده حسن إلى بلال بن سعد.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٢٥. **قلت**: وإسناده صحيح إلى ثابت البناني.

(٣) متفق عليه، البخاري ٣/ ١١٨٥، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها =

وهذا الترغيب العظيم، يجعل العاقل يشمِّر عن ساعد الجدّ، ليسعد بهذا النعيم الأبدي.

وجاء الوصف الدقيق المفصّل لنعيم أهل الجنة، كذكر أنهارها كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥]، ومساكن أهلها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وزوجاتهم، قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٧٠ ـ ٧٤]، وشرابهم، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧]، ولباسهم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، والنظر إلى وجه ربهم الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وهو أعظم النعيم.

وقد وجد السلف ـ في ما ذكر في الكتاب والسنة من وصف لنعيم أهل الجنة ـ، أنجع أسلوب وأوسعه في وعظ الناس وتشويقهم للجد والسعي لنيل مرضات ربهم.

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما علم الموفقون ما خلقوا له، وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم، فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم، فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم

= مخلوقة، رقم (٣٠٠٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/٢١٢٧، كتاب: الجنة وصفة ونعيمها وأهلها، رقم (٥٠٥٠).

الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام»[١].

ومن هذه المواعظ:

عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «إنّ أرض الجنة من الورق[٢] وترابها مسك، وأصول شجرها ذهب وورق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والورق، والثمر تحت ذلك، فمن أكل قائماً لم يؤذه، ومن أكل جالساً لم يؤذه، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه، وذللت قطوفها تذليلاً»[٣].

وعن العلاء بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «حائط الجنة لبنة ذهب، ولبنة فضة، ودرجها اللؤلؤ والياقوت»[٤].

القسم الثاني: الترغيب في أنواع الطاعات:

والمراد بهذا القسم، الترغيب في آحاد الطاعات والقربات، وهو مسلك عظيم، يراد به تشويق الموعوظين بذكر ما أعده الله للعبد من الثواب العاجل والآجل على آحاد العبادات؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وأنواع البر، وغير ذلك.

ويدخل في ذلك أيضاً الترغيب في أنواع الفضائل النفسية؛ كالشجاعة، والعفة، والصدق، والحلم، والتواضع، والعدل، والإحسان[٥].

وقد اعتنى السلف رحمهم الله بهذا النوع من الترغيب عناية فائقة، يظهر ذلك في مواعظهم، وفي مصنفاتهم، حيث جرت عادة السلف رحمهم الله في تواليفهم، ـ خاصة كتب السنن والأحكام ـ على ذكر الفضائل الثابتة للعبادة المعينة، في مستهلّ كل باب من أبواب الأحكام

---

(١) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، لابن القيم، ص٤.

(٢) الوَرِق: الدراهم المضروبة؛ مختار الصحاح، ص٧٤٠، مادة: «ورق».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٦٧. **قلت**: وإسناده حسن إلى مجاهد.

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد». **قلت**: وإسناده لا بأس به، إلى أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) «هداية المرشدين»، ص١٩٩.

والعبادات والمعاملات، وهذا من باب الترغيب في هذه العبادة.

ومن نماذج مواعظ هذا القسم:

عن محمد بن قيس قال: «جاء رجل إلى أبي الدرداء وهو في الموت، فقال: يا أبا الدرداء عظني بشيء لعلّ الله ينفعني به، قال: إنك في أمة مرحومة، أقم الصلاة المكتوبة، وآت الزكاة المفروضة، وصم رمضان، واجتنب الكبائر ـ أو قال المعاصي ـ، وأبشر»(١).

وقال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الله تعالى لم يرد بتجويع الصائم إهانته، ولا تعذيبه، ولكن الله تعالى اتّخذ وليمة في الجنة فأحبَّ أن يكرم من أطاعه بالإفطار عنده»(٢).

وقال عمرو بن عبد الغفار القهندري(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا شيء أقوى على الورع من الصوم، ولا شيء أنور للقلب من كثرة الصلاة، ولا شيء أنجى من عذاب الله من الصدقة، والمعروف والإحسان إلى الناس، ولا شيء أسلم من الصمت والهرب من المعاصي، وأعزّ الخلق أعزهم لأمر الله»(٤).

* ثانياً: مسالك الوعظ بالترهيب عند السلف(٥):

الترهيب عند السلف يشمل التخويف من جميع ما يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ ويغضبه من المعاصي والمنكرات والآثام الظاهرة والباطنة، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الترهيب بذكر الوعيد على جنس المعاصي والذنوب:

المقصود بجنس المعاصي: هي المعاصي المتشاكلة التي تندرج تحت

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٥٥٤. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) ذكره الفاريابي في «خالصة الحقائق» ١/ ٢١٤، ولم يذكر له إسناداً.

(٣) قال أبو عبد الله المروزي: «عمرو بن عبد الغفار رجل من أهل الكوفة»، يحدّث عن جعفر بن برقان، ومعقل بن عبيد الله الجزري، والأعمش وغيرهم. **انظر**: «البر والصلة» لأبي عبد الله الروزي، ص٢١؛ و«حلية الأولياء» ٣/ ٣١٤.

(٤) ذكره الفاريابي في «خالصة الحقائق» ١/ ٢١٤، ولم يذكر له إسناداً.

(٥) **انظر**: «هداية المرشدين»، ص٢١١؛ و«الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى»، ص٧٨٠.

نوع واحد؛ كالمعاصي المتعلقة بالجوارح، والمتعلقة بالقلوب، وغيرها..

وهذا القسم له أنواع وصور عديدة، منها:

● **النوع الأول: الترهيب بذكر الوعيد بالحرمان من الخير العاجل:**

أو الأخذ بالعذاب العاجل:

ما من مصيبة تصيب العبد في دنياه، ـ من نقص في الأموال والأولاد والثمرات، أو من الحرمان من الخيرات العاجلة والآجلة ـ، إلّا ويكون سببها الذنوب والمعاصي، وفي هذا أكبر العظة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتحلّ النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلّا لسبب ذنب، ولا حلَّت به نقمة إلّا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلّا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة»، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد، حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير، غُير عليه جزاءً وفاقاً»[١].

وعن عبد الله بن أبي ذهل قال: أنشدني أبو الحسن الكندي[٢]:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإنّ المعاصي تزيل النعم
وخطّها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم[٣]

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم، ص٤٩.

(٢) محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد أبو الحسن الكندي، الإمام الحافظ الرباني شيخ الإسلام، كان مضرب المثل في الزهد والعبادة والورع، شديد التمسك بالأثر، توفي سنة: ٢٤٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٥.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٤/ ١٣٢. **قلت**: وإسناده صحيح؛ وذكره ابن القيم في «الجواب الكافي» ١/ ٤٩، مع زيادة البيتين الأخيرين.

ويندرج تحت هذا النوع من الترهيب، ذكر ما حلّ بالأمم المكذبة المعرضة عن صراط الله القويم، فإنّ ذلك مما يهز القلوب، ويبعث على الرهبة، من حلول النقمة وتعجيل العذاب.

ويذكر ابن القيم رحمه الله أنواع المصائب التي حلّت بالأمم المكذبة ـ ليعتبر بها العبد ـ فيقول: «فما الذي أغرق أهل الأرض كلّهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم، وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق»[1].

● **النوع الثاني: الترهيب بالوعيد بالعذاب الآجل في الآخرة:**

إنّ ذكر أنواع الوعيد الذي يلقاه العبد من لحظة وداعه للدنيا، وما يمرّ به من أهوال وشداد تشيب لها رؤوس الولدان، ليحرك النفوس ويملأ القلوب رهبة، وهذا من أعظم الروادع، ويندرج تحتها:

١ ـ وصف حال الكفار والمنافقين وعصاة المؤمنين حال النزع وخروج الروح:

ومن ذلك تبشير الكافر والمنافق بالعذاب والسخط وغضب الرب، وقبض روحهما بأبشع صورة، واستقبال روحهما أسوأ استقبال.

٢ ـ وصف أحوال المذنبين في قبورهم:

ومن ذلك سؤال الملكين، وأنواع العذاب الحسي، والنفسي الذي يلقاه المذنب في قبره.

٣ ـ الترهيب بذكر أهوال يوم القيامة:

ومن ذلك قدوم المذنب مهاناً إلى أرض المحشر، مع شدة الحساب

---

(١) «الجواب الكافي»، ص٢٧.

والسؤال، والمرور بالصراط، وغيرها من الأهوال، يضاف إلى ذلك العذاب النفسي الذي يحيط به.

٤ ـ الترهيب بذكر عذاب جهنم:

ومن ذلك وصف النار وجحيمها قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٣] ووصف لباس أهلها قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وطعامهم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦]، وشرابهم قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥].

• ومواعظ السلف في هذا النوع كثيرة جداً، ومن نماذجها:

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «خلق الله النار رحمة، يخوف بها عباده لينتهوا»(١).

وعن مغيث الأسود(٢) رحمه الله أنه كان يقول: «زوروا القبور كل يوم بفكركم، وتوهموا جوامع الخير كل يوم في الجنة بعقولكم، وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة والنار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»(٣).

وكان سعيد الجرمي(٤) رحمه الله يقول: «إنّ الخائفين إذا مروا بآية من ذكر النار، صرخوا منها فَرَقاً، كأن زفير النار في آذانهم، وكأن الآخرة

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٢٧٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) قال أبو نعيم: مغيث الأسود: الواعظ بالأجود والمذكر، وكان من خيار موالي بني أمية؛ «حلية الأولياء» ١٠/ ١٤٣ ـ ١٦٠، ولم أجد من ترجم له غير أبي نعيم.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ١٤٣. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٤) سعيد بن محمد بن سعيد أبو عبيد الله الجرمي الكوفي، الإمام المحدث الصدوق، توفي سنة: ٢٣٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٣٨.

نصب أعينهم»(١).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، ووالله ما صدّق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدِّق بها حتى يهجم عليها»(٢).

القسم الثاني: الترهيب بذكر الوعيد على أنواع الذنوب وآحادها:

إنّ التقصير من العباد حاصل في كل زمان ومكان، والتلبس بآحاد الذنوب متوقّع منهم، وهو دائر بين ترك المأمور وفعل المحظور، وثمة عقوبات وردت في الكتاب والسنة على آحاد تلك المعاصي؛ كالتهاون في الصلاة والصوم والزكاة، وسائر الأركان والواجبات، وكمقارفة ما حرّم الله؛ كالزنا وشرب الخمر والنميمة، والتعلق بالأولياء، وغير ذلك من أنواع المعاصي.

ويدخل في ذلك أنواع الرذائل الخُلُقية؛ كالجبن، والكذب، والخيانة، والحسد، وغيرها.

وقد اعتنى السلف رحمهم الله بترهيب الخلق من هذه المعاصي، وحفلت بذلك مصنفاتهم، قديماً وحديثاً، ومن هذه المصنفات:

«الترغيب والترهيب» للمنذري، و«الكبائر» للذهبي، و«تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الهالكين» لابن النحاس، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيثمي، وغيرها كثير.

ومن نماذج مواعظ السلف في هذا الشأن:

عن سفيان الثوري أنّ علي بن الحسن المسلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في وصيته: «إياك والطمع فيما في أيدي الناس فإن الطمع هلاك الدين، وإياك والرغبة

---

(١) ذكره ابن رجب في «التخويف من النار»، ص٣٤، ولم يذكر له إسناداً.
(٢) المصدر السابق، ص٣٤.

فإن الرغبة تقسي القلب، وإياك والحرص على الدنيا فإن الحرص مما يفضح الناس يوم القيامة، وكن طاهر القلب نقي الجسد من الذنوب والخطايا، نقي اليدين من المظالم، سليم القلب من الغش والمكر والخيانة، خالي البطن من الحرام، فإنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت»(١).

وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «يا ابن آدم أيّ شيء يعز عليك من دينك، إذا هانت عليك صلاتك، وأنت أول ما تسأل عنها يوم القيامة»(٢).

وعن أبي بحرية قال: دخلت مسجد حمص فسمعت معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «من سره أن يأتي الله عَزَّ وَجَلَّ آمناً ـ يوم القيامة ـ فليأت هذه الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، فإنهن من سنن الهدى، ومما سنه لكم نبيكم ﷺ، ولا يقل إن لي مصلى في بيتي فأصلي فيه، فإنكم إن فعلتم ذلك تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم ﷺ لضللتم»(٣).

● وبعد هذا العرض نتبيّن أنّ الترغيب والترهيب شغل حيزاً كبيراً من مواعظ السلف، وأتت مسالكه متنوّعة بالترغيب في جنس الطاعات، وفي أنواعها وآحادها تارة، وبالترهيب من جنس المعاصي، وآحادها تارة أخرى.



---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٨٤. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٢) ذكره الذهبي في «الكبائر»، ص٢٨، ولم يذكر له إسناداً.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٣٥. **قلت**: وإسناده حسن.



المبحث الثاني

الوعظ عن طريق ضرب الأمثال

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الأمثال وأنواعها ومصادرها وضوابطها.

المطلب الثاني: العظة بضرب الأمثال.

المطلب الأول

مفهوم الأمثال وأنواعها ومصادرها وضوابطها

* أوّلاً: مفهوم الأمثال:

١ ـ لغة:

الأمثال: جمع «مَثَل»، والمَثَلُ والمِثْلُ والمَثِيْلُ: كالشَبَه والشبْه والشَبيْه لفظاً ومعنًى[(١)].

وقد وردت معان كثيرة جداً للفظة «مَثَل» في اللغة العربية، من أبرزها:

• يطلق لفظ «مثل» عَلَماً على كل قول اشتهر، وتناقلته الألسن، وكثر تمثل الناس به[(٢)].

• بمعنى: وصف الشيء[(٣)].

• بمعنى: «المِثْل» وهو النظير[(٤)]، قال الراغب: «والمَثَل يقال على وجهين: أحدهما: بمعنى المِثْل، نحو شِبْه وشَبَه... والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني»[(٥)].

• المثال[(٦)]، وهو: مقابلة الشيء بشيء هو نظيره، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل[(٧)].

٢ ـ اصطلاحاً:

تدور المعاني الاصطلاحية للفظة: «مثل»، حول ما تقدّم ذكره من المعاني اللغوية:

(١) لسان العرب ٤٧/٦١١، مادة: «مثل».
(٢) الصحاح ٥/١٨١٦، مادة: «مثل».
(٣) لسان العرب ٤٧/٦١١، مادة: «مثل».
(٤) تاج العروس ٨/١١٠، مادة: «مثل».
(٥) المفردات في غريب القرآن، ص٤٦٢.
(٦) لسان العرب ٤٧/٦١١، مادة: «مثل».
(٧) المفردات في غريب القرآن، ص٤٦٣.

فعرّفه الراغب الأصفهاني، فقال: «المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: «الصيف ضَيَّعتِ اللبن[(١)]»[(٢)].

وقيل: «المثل جملة من القول مقتضية من أصلها، أو مرسلها بذاتها، تتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها»[(٣)].

٣ ـ المراد بضرب المثل:

ضرب المثل يرجع إلى خمسة معان رئيسية، هي:

أ ـ نصب المثال وإظهاره للمخاطبين، لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم[(٤)].

ب ـ التقدير: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ضرب المثل للشيء تقديره له»[(٥)].

ج ـ ضرب المثل: بمعنى قوله وإطلاقه والتمثل به في الحالات التي تشبه الحالة الأولى[(٦)].

د ـ الضرب للمثل بمعنى التلقيح: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وضرب المثل لما كان جمعاً بين عِلْمين يطلب منهما علم ثالث، كان بمنزلة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد»[(٧)].

هـ ـ بمعنى التشبيه والتقريب: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في تعريف ضرب الأمثال ـ: «إنه تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من

---

(١) يضرب لمن يضع المعروف في غيره أهله، ولمن يُكافَأُ بالسوء على إحسانه. **انظر**: «مجمع الأمثال» ٢/ ١٤٤.
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص٤٦٢.
(٣) «زهر الأكم في الأمثال والحكم»، للحسين اليوسي ١/ ٢٠.
(٤) «الأمثال العربية»، د. عبد المجيد قطامش، ص١٢.
(٥) «دقائق التفسير»، لابن تيمية ١/ ٢٠٣. (٦) «الأمثال العربية»، ص١٢.
(٧) «دقائق التفسير» ١/ ٢٠٣.

المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر»[١].

* ثانياً: أنواع الأمثال:

للأمثال أنواع عديدة، وأنماط كثيرة، ترجع إلى أسلوبها، وطريقة إيرادها.

وهي ثلاثة أنواع:

• النوع الأول: الأمثال القياسية:

وهي على قسمين:

أ ـ الأمثال المصرَّحة:

وهي ما يجري فيها القياس، بتشبيه شيء بشيء[٢]، وهذا النوع يقوم فيه المتكلم بإجراء القياس بتشبيه الفرع بالأصل، وبيان وجه المشابهة، وغالباً ما يوجد فيه أداة من أدوات التشبيه، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

ب ـ الأمثال النموذجية:

وهذا النوع من الأمثال يبرز فيه الأنموذج أو الشاهد أو الحجة أو القصة، ويترك للسامع تدبرها وإجراء القياس بإلحاق النظير بالحكم أو الوصف العام المدلول عليه بالمثل؛ كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

• النوع الثاني: الأمثال المرسلة:

وهي جُمل أُرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، ثم جرت مجرى الأمثال؛ كقولهم: «لا ناقتي في هذا ولا جملي»[٣]، يضرب عند

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، لابن القيم ١/١١٦.
(٢) «دقائق التفسير» ١/٢٠٣.
(٣) أصل المثل للحارث بن عباد حين قتل جساس بن مرة كليباً، وهاجت الحرب بين الفريقين، وكان الحرث اعتزلهما؛ «مجمع الأمثال»، للميداني ٢/٢٢٠.

التبري من الظلم والإساءة(١).

● **النوع الثالث: الأمثال القصصية:**

وهي التي تُجْعَلُ فيها سيرة أو قصة شخص ما أو جماعة ترتضى طريقتهم مثلاً يُقتدى به، أو ضدهم ليحذر من طريقتهم وسلوكهم، مثال ذلك لو قيل: «أيوب عليه السلام مَثَلٌ في الصبر على الابتلاء»، و«فرعون مَثَلٌ للطغيان والاستكبار»(٢).

ويكثر ورود هذا النوع من الأمثال في القرآن الكريم، وذلك أن الله سبحانه يضرب للمؤمنين المطيعين أمثالهم من الأمم السالفة ليقتدوا بهم في استقامتهم على نهج ربهم، وصبرهم وثباتهم عليه، كما يضرب للكافرين والمنافقين وغيرهم من الضلال أمثالهم ليعظهم وينذرهم ويحذر من طريقتهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣](٣).

وقد أشار الزمخشري في كشّافه إلى الأنواع الثلاثة السالفة الذكر فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى: المثل والنظير، ثم قيل: للقول السائر الممثل به مضربه بمورده مَثَلٌ، ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو القصّة أو الصفة إذا كان لها شأن وفيها غرابة»(٤).

*** ثالثاً: مصادر الأمثال:**

إنّ مصادر الأمثال كثيرة ومتعدّدة، وذاك لأنّ الأمثال لا زالت تتوالد في كلّ عصر ومصر، بحسب ما يجدّ للناس من مواقف وأحداث، وهذه المصادر ترجع في مجملها إلى:

---

(١) اعتنى علماء اللغة بجمع الأمثال المرسلة، ومن ذلك: «جمهرة الأمثال»، لأبي هلال العسكري؛ و«الأمثال»، لأبي عبيد القاسم بن سلام؛ و«الأمثال»، للمفضل الضبي؛ و«المستقصى في أمثال العرب»، للزمخشري، وغيرها كثير.

(٢) «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع تأملات وتدبر»، لعبد الرحمن بن حسن حبنكه الميداني، ص٢٤.

(٣) **انظر**: «أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم»، لأحمد بن محمد طاحون، ص٢٠.

(٤) «الكشاف»، للزمخشري ١/ ٣٤.

١ ـ القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو أعظم المصادر التي اشتملت على جملة من الأمثال التي ضربها الله ﷻ لعباده، عظة وزجراً، واعتباراً وتذكراً وتفكراً، حيث يقول ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى ممتناً على عباده بما ضرب لهم من أمثال في كتابه فقال: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

فضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، وأقام بها دلائل ربوبيته وألوهيته.

وقد اعتنى العلماء بأمثال القرآن فمنهم من أفردها بالتأليف، ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردي، وعقد لها باباً السيوطي في كتابه «الإتقان» وابن القيم في كتابه: «إعلام الموقعين»، حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحكم فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

٢ ـ السنّة النبوية:

استعان النبي ﷺ بأسلوب ضرب المثل في دعوته وبلاغه وتذكيره، فجاء المثل في السنة النبوية متعدد الأغراض، شاملاً لأمور العقيدة والعبادة، والأخلاق والزهد، والعلم والدعوة، وفضائل الأعمال، والترغيب والترهيب، وغير ذلك.

والمتأمل للأمثال النبوية يجد التنويع صفة ظاهرة فيها، حيث نوّع ﷺ في الممثِّل وضارب المثل نفسه، فتارة يسند ضرب المثل إلى نفسه ﷺ، وتارة يسند ضرب المثل لله ﷻ، وتارة يسند ضربه للملائكة[1].

(١) انظر: «الأمثال في الحديث النبوي»، ص٢٩ ـ ٤٦٧، لأبي الشيخ الأصفهاني.

٣ ـ كلام العرب:

وكلام العرب بكلّ أنواعه وأغراضه، يعدّ منبعاً فياضاً للأمثال، ويدخل في ذلك ما يسمى بالأمثال الشعبية، وقد قيض الله من جمع هذه الأمثال في كتب مستقلّة[١].

٤ ـ الأحداث والقصص العجيبة:

القصص التاريخية، والأحداث المتلاحقة، تعتبر مصدراً مهماً للأمثال، لما تحمله من الدلائل الواضحة البيّنة، على سنّة الله ﷻ في خلقه، مؤمنهم وكافرهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: «ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار»[٢].

٥ ـ الحكم والأمثال الواردة على لسان الأمم المختلفة:

ثمة أمثال وحكم جاءت على لسان الأمم المتعاقبة؛ كالأمثال الهندية، واليونانية، وغيرهما، وفيها من العبر ما لا يخفى، وقد اعتنى بجمعها وشرحها كثير من العلماء، قديماً وحديثاً[٣].

٦ ـ الأمثال المولَّدَة[٤]:

فللوعاظ والدعاة في كلّ زمان ومكان، أن يولّدوا أمثالاً من واقع الموعوظين، قياساً على ما ورد من الأمثال القرآنية والنبوية، لتكون مأخوذة من مشاهد الحياة المعاصرة[٥].

* رابعاً: ضوابط الأمثال[٦]:

للأمثال وقع في الأسماع، وتأثير في القلوب، لا يكاد الكلام

---

(١) «الأمثال العربية، ومصادرها في التراث»، لمحمد أبو صوفة، ص١٨.
(٢) «دقائق التفسير» ١/ ٢٠٥.
(٣) «الأمثال العربية، ومصادرها في التراث»، ص٤٥.
(٤) كذا سمّاها الميداني في «مجمع الأمثال» ٢/ ١٧١.
(٥) **انظر**: «منهج الإسلام في تزكية النفس، وأثره في الدعوة إلى الله تعالى»، ص٣٧٨.
(٦) **انظر**: «جمهرة الأمثال» للعسكري ١/ ٥.

المرتل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها واقعة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة.

وحتى يؤتي المثل أكله ويثمر ثماره في نفس السامع، لا بدّ أن يستجمع أربعة ضوابط، وهي:

● **أحدها: صحة التشبيه:**

فلا بد أن يكون هناك قدر من الاشتراك بين المشبّه والمشبّه به، ويعبر عنه العلماء بتوافق مضرب المثل بمورده(١).

ولا بد أن يكون المثل فيما يجوز فيه التمثيل، فلا تضرب الأمثال لذات الله وصفاته ﷻ(٢)، لقوله جلّ وعلا: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

قال الطبري رحمه الله: «أي: فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل له، ولا شبه»(٣).

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

● **والثاني: أن يكون العلم بها سابقاً، والكلّ عليها موافقاً:**

لأنّ المثل يقوم مقام الحجة، فلا بد أن يكون السامع للمثل قد أحاط علماً بمورد المثل حتى يفقه مضربه، ويستنبط وجه الدلالة منه(٤).

● **والثالث: أن يسرع وصولها للفهم:**

ويعجّل تصوّرها في الذهن، من غير ارتباك في استخراجها، ولا كدّ في استنباطها.

---

(١) «الأمثال العربية، دراسة تحليلية تاريخية»، د عبد المجيد قطامش، ص١٤.
(٢) **انظر**: «منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية ٢/ ١٨٥.
(٣) «تفسير الطبري» ١٤/ ١٤٨.
(٤) «دقائق التفسير» ١/ ٣١٢.

• **والرابع: أن تناسب حال السامع:**

لتكون أبلغ تأثيراً، وأحسن موقعاً.

فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الضوابط الأربعة، كانت زينة للكلام وجلاء للمعاني، وتدبّراً للأفهام.



المطلب الثاني

مسالك الوعظ بضرب الأمثال

* أوّلاً: أهمية ضرب المثل في مجال الوعظ:

لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار، فهي أوقع في النفوس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر[(١)]، وتظهر أهمية ضرب الأمثال في الوعظ، من خلال دقة المثل ووضوحه وقدرته على الإقناع، ومن خلال أغراضه وأثره في الموعوظين، فأهمية الأمثال في الوعظ تظهر من خلال ما يلي:

١ ـ الأمثال من أقوى الأساليب البلاغية إقناعاً وحجة، ودقة ووضوحاً، فالمثل قد استحوذ على جملة من الخصائص قلّ أن تجتمع في غيره من الأساليب البيانية.

قال إبراهيم النظام[(٢)]: «يجتمع في الأمثال أربعة لا تجتمع في غيرها من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية»[(٣)].

فللمثل أثر كبير في جعل الحقائق الخفية واضحة، والمعاني الغريبة مألوفة، وذاك لأنّ الأمثال تستمدّ عناصرها من الطبيعة، لتظلّ قريبة من الإنسان تعيش معه، قريبة من فهمه، تستنزل المعاني الصعبة وتجعلها في متناول العقل.

---

(١) «هداية المرشدين»، ص١٧٧.

(٢) إبراهيم بن سيار أبو إسحاق النظّام، أحد شيوخ المعتزلة، وتنسب إليه فرقة النظامية، أخذ بدعة الاعتزال عن خاله أبي هذيل العلاف، توفي ما بين سنة: ٢٢١ ـ ٢٢٣هـ؛ «الفرق بين الفِرق»، ص١٣١.

(٣) الأمثال في الحديث النبوي، للحافظ أبي الشيخ الأصبهاني، ص (١٨).

والقرآن الكريم قد استمد كثيراً من أمثاله من خلال الطبيعة، فمن نباتها نرى الشجرة الطيبة والخبيثة، ومن حيواناتها نرى الخيل والجمال والحمير والكلاب، ومن حشراتها النحل والنمل والبعوض والعنكبوت، وغيرها[١].

وهكذا يُستفاد من ضرب الأمثال في تجلية الحقائق وتصويرها بشكل محسوس، حتى تبدو وكأنها ماثلة للعيان، وخاصة إذا كان المثل مأخوذاً من بيئة المخاطبين ومنتزعاً من واقعهم، فإنّ ذلك المعنى المراد يعود إلى الذهن من جديد كلّما مرّ بالمخاطب المشهد الذي صيغ منه المثل، فتصير هذه المشاهد مواعظ متكررة تؤثر في النفوس في كلّ حين[٢].

٢ ـ إنّ في حفظ الأمثال وتعلّمها قوة وحجة لدى الواعظ، الذي يريد أن يؤيّد حديثه بالحجج والبراهين، ويقيم تذكيره على أساس متين.

ولهذا جعل الله الأمثال جزءاً من حجته البالغة، التي بلّغها الرسل لأقوامهم.

وقد بيّن الله تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

قال الماوردي[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة»[٤].

---

(١) «**انظر**: الدعوة الإسلامية»، د.أحمد غلوش، ص٣٧٥.

(٢) **انظر**: «منهج الإسلام في تزكية النفس»، ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الملقب بالماوردي، الشافعي، القاضي، من مؤلفاته: النكت والعيون في التفسير؛ والأحكام السلطانية، توفي في بغداد سنة ٤٥٠هـ. سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٤.

(٤) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ص٢٧٥.

٣ ـ وتعدّ الأمثال من أعظم سبل التعليم والتفهيم؛ لأنّ بالمثال يتّضح المقال، فهي من أعظم وسائل الإيضاح والبيان؛ لأنها تجسد المعاني، وتضرب لها أسبابها ليسهل إدراكها، وليبرز كنهها.

قال ابن القيم رحمه الله: «فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإنّ النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»[(١)].

ويقول العلامة السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣]: «أي لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنها تقرب الأمور المعقولة، بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس»[(٢)].

٤ ـ إنّ الأمثال لها وقع كبير في النفوس، وتأثير بالغ على القلوب والعقول، ولهذا نجد النفوس تستأنس بالمثل، ويقع منها حسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئناناً، فهي أسلوب فعّال يستطيع الواعظ من خلاله التأثير في الموعوظين ترغيباً وترهيباً، حثاً وزجراً[(٣)].

ولهذا استعير وصف الضرب للمثل، لقوة تأثيره في النفوس، ولبالغ أثره على القلوب والعقول.

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، لابن القيم ١/ ٢٣٩.
(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، ص٨٥١.
(٣) «زهر الأكم في الأمثال والحكم»، للحسن اليوسي ١/ ٣١.

وفي ذلك يقول الماوردي رحمه الله: «وللأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب، لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة[1]، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة»[2].

٥ ـ الأمثال تستوعب جميع أصناف الموعوظين، على اختلاف طبقاتهم، وتوجهاتهم، واعتقاداتهم، والمتأمل في أمثال القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، يجدها تصف أحوال المحسنين والمسيئين، وأحوال الكفار والمنافقين والمؤمنين، فتضرب لكلٍّ مثلاً، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ [الفرقان: ٣٩].

فضرب للمؤمنين مثلاً، في نحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: ٢٩].

وضرب للكفار مثلاً، فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي المنافقين قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وكذا الشأن في السنة النبوية، فقد مُثِّل المؤمن بالتمرة والأترجة، والمنافق بالريحانة والحنظلة، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب**

(١) أي: مقبلة محبة، مختار الصحاح، مادة: «ومق» ١/ ٣٠٧.

(٢) «أدب الدنيا والدين»، ص٢٧٥.

وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»[١].

ومُثِّل الكافر بالأرزة المجذية[٢]، كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها، لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها**[٣] **مرة واحدة»**[٤].

٦ ـ يهدف المثل إلى التأثير في الموعوظين عن طريق ترغيبهم في الخير والثواب وترهيبهم من الشرِّ والعقاب.

وذلك أنّ الممثَّل له قد يكون معنًى أو ذاتاً يجهلها المخاطَب، ويتعذر إحضارها إليه لمشاهدتها، وقد يكون في التعريف بها مباشرة بذكر أوصافها إطالة قد تؤدي إلى تشتيت ذهن المخاطَب، أو التباس الأمر عليه، فيحسن عند ذلك ضرب المثل له لتقريب المعاني الوجدانية، أو الأفكار، أو الذوات المحسوسة الغائبة إلى ذهن المخاطَب بمثال محسوس له إحساساً مادياً أو إحساساً وجدانياً.

فمن ذلك أنّ المثل يُضرب للترغيب في المُمثَّل به، حيث يكون مما تستحسنه النفوس وترغب فيه؛ كالترغيب في الإنفاق في سبيل الله، بضرب المثل على الخير الذي يعود على المنفق؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد يضرب المثل للترغيب في الوعد والجزاء الأخروي؛ كضرب

---

(١) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٠٧٠، كتاب: الأطعمة، باب: ذكر الطعام، رقم (٥٠٠٧)، واللفظ له؛ ومسلم ١/ ٥٤٩، كتاب: صلاة المسافرين وحفظها، باب: فضيلة حافظ القرآن، رقم (١٣٢٨).

(٢) المجذِية: هي الثَّابتَة المُنْتَصَبة؛ «النهاية في غريب الحديث» ١/ ٢٥٣.

(٣) أي: انقلاعها، المصدر السابق ١/ ٢٧٦.

(٤) رواه مسلم ٤/ ٢١٦٣، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجرة الأرز، رقم (٥٠٢٥).

المثال لما يكون في الجنة من النعيم المادي المحسوس الذي ليس بمقدور المخاطَبين إدراكه بحواسهم فيقربه الله بمثال محسوس لهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] ونحوها.

وقد يضرب المثل للتنفير من العمل، بإبراز جوانب قبح المرهب منه، وكشفه عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد يأتي المثل بغرض الذم والتحقير، وذلك بتشبيه من ضرب به المثل بصورة تحمل منظر الحقارة، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وقد يضرب المثل لإثارة جانب الخوف والحذر من سوء عاقبة الفعل؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويبيّن الإمام ابن القيم رحمه الله عظم مزية ضرب الأمثال في الترغيب والترهيب، فيقول: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر»[(١)].

ويقول الجرجاني رحمه الله: «والتمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، ضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، فإن كان مدحاً،

(١) «بدائع الفوائد»، لابن القيم ٤/ ٨١٥.

كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرح، وإن كان ذمّاً، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشد، وَحدُّه أحَدّ، وإن كان وعظاً، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل»(١).

٧ ـ و«الأمثال من أفضل السبل للتربية، وتقويم المسالك، وإصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتنمية الفضائل السامية»(٢).

ويكون ذلك بتقديم النماذج البشرية الصالحة والنماذج البشرية الطالحة، بقصد توجيه النفوس المخاطبة إلى الاقتداء بالصالحين وتنفيرها من الطالحين.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

*** ثانياً: نماذج من مواعظ السلف المشتملة على ضرب الأمثال:**

● اهتم السلف رحمهم الله بضرب الأمثال وأشادوا بها، وتمثّلوا بها في مواعظهم وخطبهم، وممّا يدلّ على ذلك:

ـ ما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كتب إلى أهل الأمصار: «علّموا أولادكم العوم والفروسيّة، وروُّوهم ما سار من المثل، وما حسن من الشعر»(٣).

فهذا حض على تعلم الأمثال، خصوصاً السائرة(٤).

ـ ومن ذلك قول عبد الله بن عمرو بن العاص(٥) رضي الله عنهما: «حفظت عن

---

(١) «أسرار البلاغة»، لعبد القادر الجرجاني، ص١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) «أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم»، لأحمد بن محمد طاحون، ص٥.
(٣) رواه ابن عبد البر في «بهجة المجالس»، ولم يذكر له إسناداً.
(٤) «الزهر الأكم في الأمثال والحكم» ١/ ٣٥.
(٥) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل، القرشي، الصحابي الجليل، أحد السابقين، =

النبي ﷺ ألف مثل»[١]، وفي هذا أكبر دليل على عظم عناية السلف رحمهم الله بجمع الأمثال وحفظها.

• وقد تعدّدت مجالات الأمثال وأغراضها عند السلف رحمهم الله، فتارة يأتي المثل مبيّناً لأوصاف الصالحين، ليُقتَدى بهم، وتارة يأتي مبيّناً لأوصاف المذنبين ليُحذر منهم، وقد يضرب المثل لبيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها، كما يضرب المثل في وجوه الترغيب في الأعمال الصالحات، أو الترهيب من المنكرات والسيئات، وغير ذلك.

وفيما يلي ذكرٌ لنماذج من مواعظ السلف المشتملة على ضرب الأمثال:

١ ـ بيان مراتب الناس وأوصافهم:

• عن حاتم قال: سمعت شقيقا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن يحمل شوكاً، ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكاً وهو يطمع أن يحصد تمراً هيهات هيهات، كل من عمل حسناً فإن الله لا يجزيه إلا حسناً، ولا تنزل الأبرار منازل الفجار»[٢].

وهذا مثل يضرب لخوف المؤمن مع حسن عمله، ورجاء المنافق مع سوء عمله.

• قال أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما مثل الصحابة والتابعين في الناس كمثل المعادن والجواهر، الذين لا يعرف مقامهم ومراتبهم إلا المستنبطون والأكابر من السادة والخواص»[٣].

= الإمام الحبر العابد، له مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل، توفي سنة: ٦٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٠.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٠٩؛ وقال الهيثمي: إسناده حسن، مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٧١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) «الحلية الأولياء» ٦/ ١٤٨.

• وعن محمد بن يزيد قال: سمعت وهيباً[١] رَحِمَهُ اللهُ يقول: «ضُرب مثل لعلماء السوء فقيل: إنما مثل عالم السوء كمثل الحجر في الساقية، فلا هو يشرب الماء ولا هو يخلي الماء إلى الشجرة فتحيى به[٢]».

وهذا مثل يضرب لبيان خطر عالم السوء وعظيم وباله على أمته.

٢ ـ بيان حقيقة الدنيا وهوانها، وحقيقة الآخرة وخطر شأنها:

• عن عبد العزيز بن جوران قال: سمعت وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ يقول: «مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان، إن أرضى أحدهما أسخط الأخرى»[٣].

وهذا مثل يضرب لمن كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، كيف يتسنى له العمل لآخرته.

• وعن ابن يمان قال: سمعت سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ يقول: «إنما الدنيا مثل رغيف عليه عسل، مَرَّ به ذباب فقطع جناحه، ومثل رغيف يابس من مرَّ به مر سليماً»[٤].

وهذا مثل يضرب لفضيلة التخفف من الدنيا والزهد في ملاذها وشهواتها.

• وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عقبة بن غزوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنّ الدنيا قد آذَنَتْ بِصَرْمٍ[٥] وَوَلَّتْ حَذَّاءَ[٦] ولم يبق منها إلا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإناء يَتَصَابُّهَا صاحبها»[٧].

---

(١) وهيب بن الورد أبو أمية المكي، من أئمة الحديث، كان يقال له: طبيب القلوب، توفي سنة: ١٥٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/١٩٨.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/٤٩. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» ١/٢١٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) رواه أبو سعيد في «الزهد وصفة الزاهدين»، ص٤٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) أي: بانقطاع؛ «النهاية في غريب الحديث» ٣/٢٦.

(٦) أي: خفيفة سريعة؛ المصدر السابق ١/٣٥٦.

(٧) رواه مسلم ٤/٢٢٧٨، كتاب: الزهد والرقائق، رقم (٥٢٦٨).

وهذا مثل يضرب لبيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها.

٣ ـ أحوال القلوب وأوصافها:

عن أبي البختري عن حذيفة رضي الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب مصفَّح فذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل القرحة يمدها قيح ودم، فأيهما ما غلب عليه غلب»[١].

٤ ـ الترغيب في وجوه الخير:

• عن عبد الله بن هبيرة أنّ أبا هريرة[٢] رضي الله عنه كان يقول: «إنما مثل الصلاة كمثل رجل أراد من إمام حاجة فأهدى له هدية، ومثل الصدقة كمثل رجل أُسر ففدى نفسه، ومثل الصيام كمثل رجل لقي عدواً وعليه جنة حصينة»[٣].

وهذا مثل يضرب للحث على المسارعة إلى الخيرات واجتناب المنكرات، وعاقبة كلٍّ.

٥ ـ الترهيب من المنكرات والسيئات:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «إياكم والذين يحرِّفون القرآن، وإياكم والهذاذين[٤] بالقرآن الذين يهذُّون القرآن، ويسرعون بقراءته، فإنما مثل ذلك كمثل الأكمة لا أمسكت ماء ولا أنبتت كلأً»[٥].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) عبد الرحمٰن بن صخر أبو هريرة الدوسي اليماني، الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، سيد الحفاظ الأثبات، روى عن رسول الله ﷺ علماً كثيراً، لم يجتمع لغيره من الصحابة، توفي سنة: ٥٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٨.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» ١/ ٣٨١. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) أي: المسرعين في التلاوة؛ «النهاية في غريب الحديث» ٥/ ٢٥٤.

(٥) رواه البيهقي في الشعب ٢/ ٥٤١. **قلت**: وإسناده صحيح.

وهذا مثل يضرب للترهيب من هذّ القرآن والسرعة في قراءته دون تدبر وتفهّم لمعانيه.

عن أبي حازم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذاك من الحر والبرد والثلج والمطر»(١)، وفي هذا ترهيب من كفران النعم، ومن اجتراح المعاصي والآثام.

• **والخلاصة**: أنّ الأمثال وسيلة لتقريب المعاني بجعل المعقول بمنزلة المحسوس، وهي من أعظم سبل التعليم والتفهيم، ولهذا كثر استعمال السلف لها في مواعظهم لشدة أثرها، ونجاعتها في إيصال المعنى.



(١) رواه أبو بكر القرشي في «الشكر»، ص٤٤؛ والبيهقي في الشعب ٤/ ١٣٤. **قلت**: وإسناده حسن.

المبحث الثالث

الوعظ عن طريق القِصَص

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم القِصَص وأنواعها ومصادرها وضوابطها.

المطلب الثاني: العظة بالقصص.

المطلب الأول

مفهوم القِصَص وأنواعها ومصادرها وضوابطها

* أوّلاً: مفهوم القصص:

١ ـ لغة:

(القصص) ـ بكسر القاف ـ جمع قصَّة، وهي مصدر من: قَصَّ، يَقُصُّ، قصاً، وقصَصاً[١].

ومن معاني القصص في اللغة العربية:

• تتبّع الأثر: يقال: قصصت الشيء، إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: اتبعي أثره[٢].

• الخبر: فالقصص هو الخبر المقصوص، وضِع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه[٣].

• الأمر والحديث: يقال: اقتصصت الحديث، إذا رويته على وجه، كأنك تتبع معانيه وألفاظه[٤].

• وقد يأتي القصُّ والقصصُ والقصَصُ، مراداً به الصدر من كل شيء، وقيل: وسطه[٥].

٢ ـ اصطلاحاً:

للقصة تعاريف كثيرة لدى العلماء:

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٠٢، مادة: «قصص». (٢) تهذيب اللغة ٨/ ٢٥٤، مادة: «قصص».
(٣) لسان العرب ٣/ ١٠٤، مادة: «قصص». (٤) الصحاح ٣/ ١٠٥١، مادة: «قصص».
(٥) لسان العرب ٣/ ١٠٤، مادة: «قصص».

منها ما ذكره الرازي بأنها: «مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة»[١].

وقيل: «هي كلام حسن في لفظه ومعناه، مشتمل على أحداث حقيقية سابقة، ومتضمّن على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الأخلاق»[٢].

● **الفرق بين القصَص ـ بكسر القاف ـ والقَصَص ـ بفتح القاف ـ:**

القَصَص ـ بالفتح ـ: هو فعل القاصِّ، وهو: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها.

أمّا القصص ـ بالكسر ـ فهي: الأمر والحديث الذي يُقَص.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «...وليس القَصَصُ ـ بالفتح ـ جمع قصَّة كما يظنه بعض العامة، فإن ذلك يقال في قِصَصٍ ـ بالكسر ـ واحده قصَّة، والقصَّة: هي الأمر والحديث الذي يقص، فعله بمعنى مفعول، وجمعه قِصَصٍ بالكسر، وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] بالفتح لم يقل: أحسن القِصَصُ بالكسر، ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد: أحسن القِصَص بالكسر، وأن تلك القصة قصة يوسف، وذكر هذا طائفة من المفسرين»[٣].

ومن هنا يمكن اعتبار القصص ـ بالكسر ـ أسلوباً من أساليب الوعظ، لاعتماده على الإخبار والبيان، كما يمكن اعتبار القَصَص ـ بالفتح ـ وسيلة من وسائل الوعظ، باعتبارها وسيلة وطريقة لعرض القصص.

* ثانياً: أنواع القِصَص:

للقصص أنواع كثيرة، بحسب تنوّع أساليبها، وتعدّد أغراضها، ومضامينها:

---

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي ٥/ ٧٠٢.

(٢) «الدعوة الإسلامية»، د.أحمد غلوش، ص٢٨٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٨.

١ ـ أقسام القصة باعتبار أساليبها:

يقسِّم الأدباء القصة من حيث أسلوبها، وطولها وقصرها إلى أربعة أقسام[١]:

الرواية[٢]، والقصة[٣]، والقصة القصيرة[٤]، والأقصوصة[٥].

٢ ـ أقسام القصة باعتبار أغراضها:

يقسِّم بعض المحققين القصة من حيث أغراضها إلى قسمين:

• القصص الدينية الوعظية: ومادتها القصص الدينية الواردة في الكتاب والسنة والسيرة، وكتب التفسير، وشروح الحديث، والإسرائيليات وكتب التصوف، وغايتها الوعظ والإصلاح وترقيق القلب والتخويف من المعاصي، والتحذير من الانسياق وراء الدنيا.

• القصص الشعبية: ومادتها القصص التاريخية والأدبية والحكايات الشعبية، والنوادر المسلية[٦].

٣ ـ أقسام القصص من حيث مضمونها:

تنقسم القصص الوعظية الدينية من حيث مضمونها إلى أربعة أقسام[٧]:

• **القسم الأول**: قصص الأنبياء، وهو متضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة

---

(١) **انظر**: «القصة والرواية»، د. عزيزة مريدان، ص١٢.

(٢) وهي قصة مكتملة العناصر متعددة الفصول وتتميز بامتداد زمنها ومكانها وتركز نسبياً على التفاصيل الدقيقة.

(٣) تتميز الرواية بتعدد الأهداف والأحداث في تتابع زمني طويل ومستمر وهي أرحب من القصة القصيرة وأوسع من الرواية تركيزاً على التفاصيل الدقيقة.

(٤) وهي التي تعالج حدثاً واحداً في زمن قصير ومحدد وبيئة واحدة ولا تحتاج لوقت طويل لقراءتها.

(٥) وهي أقصر من القصة القصيرة وتتجه إلى الإيجاز وقوة الإيحاء والتصوير والانتقال السريع في المواقف، والحادثة فيها ليست مهمة جداً.

(٦) القصاص المذكرين، ص٧٣ ـ ٧٤.

(٧) «مباحث في علوم القرآن»، لمناع القطان، ص٣٠٦.

وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين؛ كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

• **القسم الثاني**: قصص تتعلق بحوادث غابرة، قبل بعثة النبي ﷺ، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، ونحوهم.

• **القسم الثالث**: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد، وحنين وتبوك، وغزوة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

• **القسم الرابع**: قصص السلف الصالح من هذه الأمة المباركة، ففي قصصهم وعباداتهم ومواقفهم أكبر العبر، لمن أراد أن يتذكر[١].

والذي يهمّ الواعظ ـ من هذه الأقسام السالفة الذكر ـ، هي القصص الواقعية ذات العبر، التي تتحدّث عن الأنبياء وأقوامهم، وعن سنة الله في من آمن به واتقاه، وفيمن خالف أمره وعصاه، وعن سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحبه ﭫ وسلف هذه الأمة رحمهم الله.

* ثالثاً: مصادر القصص الوعظية:

مصادر القصص الوعظية ومواردها عديدة ومتنوّعة، ويمكن إجمالها فيما يلي:

---

(١) وهناك تقسيمات أخرى للقصة، فيقسمها البعض باعتبار واقعيتها وخيالها إلى قسمين:
القصة الواقعية: وهي القصة التاريخية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها.
والقصة التمثيلية: وهي التي لا تمثل واقعة بذاتها ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور، ويندرج تحتها القصص الخيالية الناطقة على لسان الحيوان كقصص كليلة ودمنة. **انظر**: «القصة والرواية»، د. عزيزة مريدن، ص١٢ وما بعدها.

١ ـ القرآن الكريم:

لقد شغلت القصة القرآنية من كتاب الله مساحة واسعة، قاربت الربع، جاء فيها ذكر كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم.

فجاء تفصيل قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيان لدعوتهم وما جرى لهم مع أقوامهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، كما يقصّ علينا القرآن الكريم قصص أقوام صالحين وكيف تولاهم الله برحمته وأيّدهم بنصره، كقصة أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، وبالمقابل يقدّم القرآن نماذج من قصص العصاة والمفسدين، وكيف أهلكهم الله تعالى بذنوبهم؛ كقصة قارون، وأصحاب السبت، وغيرهم، ويعطي القرآن صورة واضحة بيّنة لسيرة المصطفى ﷺ وما جرى له مع قومه، ومع أهل الكتاب والمنافقين.

وتميّز القصص القرآني بخصائص لا توجد في غيره من قصص البشر، ومن أبرزها:

● القصة القرآنية حقيقية في وقوعها وصادقة في خبرها فليست خيالاً ولا كذباً[(١)].

● حسن الاختيار بعرض الوجه الأحسن من القصة، والإعراض عما لا فائدة فيه، ولذلك تسمى القصص القرآنية أحسن القصص، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣][(٢)].

● التفاوت في العرض طولاً وقصراً فمثلاً سورة نوح في قصة واحدة وهذه القصة ذكرت في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

● التقطيع بعرض المشاهد منفصلة غير متصلة وغير متسلسلة وهذا

---

(١) **انظر**: مجموع الفتاوى ١٧/٢١ وما بعدها.

(٢) **انظر**: مجموع الفتاوى ١٧/١٨.

يعني عدم مراعاة التسلسل التاريخي والترتيب الزمني لحوادث القصة، ولا بأسماء الأماكن والأشخاص، كما هو شأن كتب التاريخ.

• تكرير القصة لفظاً ومعنى، أو التكرير بالمعنى، والثاني هو الغالب، والذي يسوغ التكرار تنوّع السياق سباقاً ولحاقاً، وهو من أوجه البلاغة والإعجاز[١].

وفي هذا يقول إمام أهل السنة اللغوي ابن قتيبة[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ: تنبيهاً لهم من سنة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمُتَجَدِّد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ، استعباداً لهم، واختباراً لبصائرهم»[٣].

٢ ـ السنّة النبويّة:

القصص النبوي الثابت بسند صحيح، لا يقلّ أهميَّة عن القصص القرآني.

ولقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصّ القصص على عموم المدعوين، لما في ذلك من العبرة والعظة[٤]، قال تعالى: ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ولهذا حفلت السنّة النبوية، بقصص عظيمة، تحوي في طياتها دروساً وعبراً كثيرة جداً.

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٥٣٧.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري، العلامة الكبير، من أئمة اللغة والأدب، من مؤلفاته: «غريب القرآن»، و«غريب الحديث»، و«كتاب مشكل القرآن»، وغيرها، توفي سنة: ٢٧٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦.

(٣) «تأويل مشكل القرآن»، لابن قتيبة، ص٢٣٢.

(٤) تفسير القرطبي ٧/ ٣٢٤.

والقصص النبوي على نوعين:

النوع الأوّل: ما قصّه النبي ﷺ من أحوال الأنبياء والصالحين والمفسدين أيضاً من الأمم السابقة.

والنوع الثاني: سيرته ﷺ العطرة وسجاله مع معسكر الكفر والطغيان، وما جرى في عهده من أحداث ومواقف مختلفة.

وقد اتّخذ النبي ﷺ من القصص أسلوباً تربوياً عملياً يكبح به جماح الشهوات المنطلقة، ويشد من أزر المتمسكين بالحق والثابتين عليه، أسوة بمن سبقوهم.

ومن أغراض القصص النبوي، بيان سعة عفو الله ورحمته، وبيان فضيلة العلم وسوء الجهل، كما في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس[1].

ومن أغراضه أيضاً الترغيب في محاسن الأخلاق والترهيب من مساوئها كما في قصة الأعمى والأبرص والأقرع[2]، وغير ذلك من أغراض القصص النبوي.

٣ ـ سيرة السلف الصالح:

إنّ سيرة السلف الصالح من هذه الأمة المباركة، تعدّ منبعاً فياضاً في مجال الوعظ، وذلك لما حوته من القصص الكثيرة والعبر العديدة، تبيّن عظم ثقة السلف بالله وشدة تعبّدهم له، وتبيّن أيضاً خذلان من ناوأهم وعاداهم.

وقد اعتنى العلماء بجمع سيرهم وأخبارهم، كما هو صنيع أبي نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء»، وابن الجوزي في «صفة الصفوة»، والذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وغيرهم.

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٢٨٠، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم (٣٢١١)؛ ومسلم ٤/٢١١٨، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩٦٧).

(٢) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٢٧٦، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث أقرع وأعمى وأبرص في بني إسرائيل، رقم (٣٢٠٥)؛ ومسلم ٤/ ٢٢٧٦، كتاب: الزهد والرقائق، رقم (٥٢٦٥).

ويدخل في هذا قصص الأشقياء من هذه الأمة، وذكر ما جرى لهم من النكال وسوء العاقبة، واعتنت كتب التواريخ بذكر حوادثهم؛ كتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرهما.

٤ ـ القصص المعاصرة:

للواعظ أن يوشِّح مواعظه، بما يقف عليه من أحداث وقصص ذات عبر، أو بما ينقل إليه من طريق الثقة المأمون، فإنّ ذلك أشدّ وقعاً على النفوس، خصوصاً إذا كانت فصول هذه القصة، وآثارها منصوبة ماثلة أمام أعين الناس.

٥ ـ الإسرائيليات[١]:

والمقصود بالإسرائيليات: «هي القصص والأخبار والحكايات الدخيلة على تفسير القرآن الكريم والحديث، مصدرها أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما من الملل السابقة الأخرى»[٢].

ولقد حوت الإسرائيليات كمّاً هائلاً من قصص الأنبياء عليهم السلام وقصص بني إسرائيل، وقد انتشرت هذه القصص بين الوعاظ والقصاص، وتداولوها، واشتهر طائفة من السلف بجمعها وروايتها، كوهب بن منبه، وكعب الأحبار رحمهما الله، وغيرهما.

* وتنقسم الإسرائيليات من حيث القبول والردّ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: ما يعلم صحته، بأن نقل عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده، فهذا القسم مقبول.

القسم الثاني: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرف في شرعنا، أو كان

---

(١) الإسرائيليات: جمع إسرائيلة، نسبة إلى بني إسرائيل، وإسرائيل: لقب لنبي الله يعقوب عليه السلام. **انظر**: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، لمحمد بن شهبة، ص١٢.

(٢) «الإسرائيليات في التفسير والحديث»، لمحمد حسين الذهبي، ص١٣ ـ ١٥.

لا يتفق مع العقل السليم، وهذا النوع لا يصحّ قبوله، ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، وهذا القسم لا يصدّق ولا يكذّب، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، و﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾** [البقرة: ١٣٦]»[١].

* حكم رواية الإسرائيليات والاستشهاد بها في المواعظ:

اختلف علماء السلف في ذلك على قولين:

- **القول الأول**: المنع من قبول ورواية الإسرائيليات مطلقاً، سواء كان الأمر متعلقاً بالعقائد أو الأحكام، أو المواعظ، ودليلهم في ذلك:

● ما جاء في القرآن الكريم من آيات تبيّن أنّ أهل الكتاب قد بدّلوا دينهم وحرّفوه، ممّا أذهب الثقة فيها وفيما يحدثون به منها، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

● ومنه ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أنّه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: أَمُتَهَوِّكُونَ**[٢] **فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني**»[٣].

● ومنها بعض الآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم في النهي عن سؤال أهل الكتاب، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب فإنّهم لن يهدوكم، وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبوا بالحق، أو تصدِّقوا بالباطل»[٤].

---

(١) رواه البخاري ٤/ ١٦٣٠، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، رقم (٤١٢٥).

(٢) من التهوّك، وهو: التَّهور والوُقُوع في الأمر بِغَير روية؛ «النهاية في غريب الحديث» ٥/ ٣٨١.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٨٧؛ وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح ١/ ٣٨، رقم الحديث (١٧٧).

(٤) أخرجه ابن حبان في كتابه: «الثقات» ٤/ ١٧٤؛ وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن»، فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

ـ **القول الثاني**: جواز رواية الإسرائيليات، ودليلهم في ذلك:

• آيات تدلّ على جواز الرجوع إلى أهل الكتاب وسؤالهم عما في أيديهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

• ومنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

• وثبت رجوع بعض الصحابة رضي الله عنهم إلى بعض مَسْلَمة أهل الكتاب؛ كأبي هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، وغيرهما.

• وثبت أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّه أصاب يوم اليرموك زاملتين[٢] من كتب أهل الكتاب، فكان يحدّث منهما[٣].

والراجح: هو جواز رواية ما ثبت صدقه وصحته، وما لم يعلم أنه كذب من الإسرائيليات؛ لأنّ الكتاب والسنّة قد أوردا كثيراً من أخبار بني إسرائيل[٤].

وأما النهي الوارد في الكتاب والسنة فيحمل على ما ثبت أو غلب الظن أنّه كذب.

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٢٧٥، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما جاء عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٠٢).

(٢) مفرده زاملة، وهو البَعير الذي يُحْمَل عليه الطعامُ والمتاع؛ لسان العرب ١١/ ٣١٠، مادة: «زمل».

(٣) ذكره الدارمي في كتابه: «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد» ٢/ ٦٣٤، وأنكر ذلك أشد الإنكار؛ ولكن أكثر أئمة السلف يثبتون هذا الأمر، كابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٦؛ وابن كثير في تفسيره ١/ ٥، وغيرهما.

(٤) **انظر**: «نقض الدارمي» ٢/ ٣٦٥.

للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: **أحدها**: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، **والثاني**: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، **والثالث**: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدّم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه»[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا كالإسرائيليات؛ يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب، فيما علم أن الله تعالى أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا»[2].

ويقول في موضع آخر: «ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا أنه حدثنا به عن بني إسرائيل»[3].

* رابعاً: ضوابط القصص الوعظية:

إنّ القصص الوعظية لن تؤتي ثمارها، وتبلغ مرادها، إلّا إذا انضبطت بجملة من الضوابط، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ الالتزام بالصدق والواقعية عند إيراد القصص، والابتعاد عن خيال الأدباء، وكذب الشعراء، وقد نبّه الله تعالى عباده إلى ذلك في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٢ ـ لا بد أن تساق القصة الوعظية، مساقاً حسناً، يجمع بين براعة أسلوبها، وحسن إيرادها، وأن تقصد منها العبرة والعظة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥.
(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٢٥٤.
(٣) «الزهد والورع والعبادة»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٢٠.

فيبتعد الواعظ عما لا خير فيه ولا فائدة، من التفاصيل المملّة، وإن أبهم ذكر أسماء الأشخاص ومساكنهم كان ذلك أنفع وأشد وقعاً.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، والقَصَص بالفتح: هو طريقة إيراد القصة، فالحسن منصرف في المقام الأول إلى أسلوب إيراد القصة[١].

٣ ـ لا بد أن تُعرَض القصة الوعظية وتُستخدَم في الخطاب والموعظة بالقدر المعقول؛ فلا تكون هي اللغة الوحيدة في الخطاب، أو تكون على حساب غيرها من أساليب الوعظ، كما هو شأن القُصّاص قديماً وحديثاً[٢].

٤ ـ الحذر من القصص الواهية والأخبار التي لا زمام لها ولا خطام؛ إذ أنّ النفوس كثيراً ما تتعلق بالغرائب وتجنح إليها، والقليل منها هو الذي يثبت عند التحقيق والنقد العلمي[٣].

٥ ـ أن تأخذ قصص القرآن، وأخبار النبي ﷺ وقصصه، وأخبار الرعيل الأول من سلف الأمة مكانها الطبيعي، وألا تطغى أخبار من بعدهم من المتأخرين ممن تعرف منهم وتنكر.

٦ ـ إنّ البشر مهما علا شأنهم وارتفع قدرهم، فلن تكون أعمالهم حجة مطلقة، بل لا بد من عرضها على هدي النبي ﷺ؛ فيأخذ منها ما وافق هديه ﷺ، ويرد منها ما خالف سنته[٤].



(١) **انظر**: مجموع الفتاوى ١٧/١٨.
(٢) **انظر**: «القصاص والمذكرين»، لابن الجوزي، ص٢٠١.
(٣) **انظر**: «تحذير الخواص من أحاديث القصاص»، للسيوطي، ص١٩٥.
(٤) **انظر**: «تلبيس إبليس»، ص٣٩٣.

المطلب الثاني

مسالك الوعظ بالقصص

* أوّلاً: أهمية القصص في مجال الوعظ:

إنّ القصة طريقة من طرق البشارة والإنذار، والهداية والإرشاد، والترغيب والترهيب، وهي إحدى الوسائل الناجحة، والسبل الناجعة، لعرض تعاليم الدعوة سهلة واضحة، فهي تجذب النفوس، وتؤثِّر في القلوب، وممّا يؤكِّد أهمية القصة في مجال الوعظ، أمور أبرزها ما يلي:

١ ـ إنّ الوعظ بالقصص من أعظم أساليب الوعظ، ولذلك أمر الله نبيه الكريم والوعّاظ من بعده، بالدعوة والوعظ من خلال القصص، فقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]؛ أي: يتعظون بالفهم، والتدبّر، فيهتدوا إلى الحقّ والصواب(١).

ولذلك أولى القرآن الكريم والسنّة النبويّة هذا الأسلوب عناية عظيمة، لم يحظ بها أي أسلوب دعوي آخر، كما سبق بيانه.

٢ ـ النفس البشرية مجبولة على محبة القصص، والميل إليها، وربطها بالواقع المعايش، وهي أكثر تأثيراً من غيرها من الأساليب في الغالب، ولذلك تجد بمجرد سردها تقبل الأسماع إليها، وتنشط النفوس معها، وتتأثر بمضامينها تأثراً عظيماً، فالنفوس مولعة بمتابعة القصة، لا سيما جنس العامة(٢).

---

(١) **انظر**: التفسير الكبير، للرازي ١٥/٤٨؛ وفتح القدير ٢/٢٦٦.

(٢) ومن بلايا ورزايا هذا العصر، ما أحدثه دعاة الضلال من الأفلام المغرية، وهي لون من ألوان القصص، فتجد الناظر إليها والمستمع لها، في اندماج تام وانفعال عظيم مع أحداثها، مستغرقاً في متابعتها، مع التأثر الشديد الذي يتّسم بالقلق والحزن وذرف الدموع =

ثمّ إنّ غريزة حب الاستطلاع تعلِّق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتي القصصي البارع، استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

٣ ـ لقد اختُصَّ أسلوب القصص بجملة من الخصائص ـ التي أهلته لتبوء مكانة عظيمة في مجال الوعظ ـ، وذلك من خلال جمعه بين سهولة الأسلوب، وعنصر التشويق.

كما أنّ القصة تجسّد الأحداث على شكل أشخاص يتحرّك معها القلب، ويدور معها الفؤاد، وتنشط لها العقول والآذان، وبذلك تتفاعل الحواس وتتأثر بمضامين هذه القصة.

٤ ـ القصة تعتبر من أنفع أساليب الترغيب والترهيب، وذاك لأنّ في القصة تصديق للتبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق؛ كالذي جاء في سورة «الحجر»، في قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فتصديقاً لهذا وذاك، جاءت القصص على النحو التالي:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾... [الحجر: ٥١ ـ ٥٣] إلخ.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦١ ـ ٦٦] وفي هذه القصة يبدو «الترغيب في الخير والوعد بالرحمة» في جانب لوط، ويبدو «الترهيب من الشر والوعيد بالعذاب الأليم» في جانب قومه المهلكين.

ثمّ إنّ ذكر الواقعة المرغبة أو المخوفة، مع ذكر سببها، أجدى وأنفع

= أحياناً، أو شدة الفرح والسرور أحياناً أخرى، فلا ينقضي المشهد، إلّا وقد تغلغل في وجدان الناظر، وفكره، فإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

في تحقيق الهدف، وحصول العبرة والعظة[١].

قال الحليمي[٢] رحمه الله: «القصص إنما أريد بها تأكيد الأمر والنهي والإنذار والتبشير ولا غنى بالناس عن هذه الأمور»[٣].

٥ ـ إنّ القصة من أعظم مواطن التفكر ومسالك التدبّر، ولذلك يختم القصص القرآني عادة بالدعوة إلى التدبّر والتفكّر، لأخذ العبرة والعظة؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وغيرهما من الآيات.

ففي القصص الوعظية بيان لسنن الله في خلقه من الأمم والجماعات والأفراد، وهي سنن جرت على الماضين، وتجري على اللاحقين ليعتبر بها المؤمنون، فلهذا لا يراد بالقصص الوعظية السرد التاريخي للأمم والأشخاص والجماعات، وإنما يذكر منها مواضع العبرة والاتعاظ والتذكر، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

قال الغزالي رحمه الله: «فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار»[٤]، وقال أيضاً: «وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل»[٥].

وقال الرازي رحمه الله: «إنّ في القصص تخويف من الآخرة، وذلك ملاحظ من قصص الأنبياء، وعاقبة المكذبين والمؤمنين، فإذا تكررت الأقاصيص على السمع، فلا بد أن يلين القلب وتخضع النفس، وتزول العداوة، ويحصل في القلب خوف»[٦].

---

(١) **انظر**: بحوث في قصص القرآن، لعبد الحافظ عبد ربه، ص٩٦.

(٢) الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم أبو عبد الله البخاري الحليمي الشافعي، رئيس أهل الحديث بما وراء النهر، وكان من أذكياء زمانه ومن فرسان النظر، له يد طولى في العلم والأدب، توفي سنة ٤٠٣هـ؛ تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٣٠.

(٣) ذكره البيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ٥١٥.

(٤) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤١.

(٥) المصدر السابق ٤/ ٣٤٣.

(٦) مفاتيح الغيب، للرازي ١٧/ ٥٦.

٦ ـ تعدّ القصة من أكبر وسائل التعليم والنصح العملي، وذاك لأنّ الأوامر والنواهي إذا كانت ظنية فقط، دون أن يكون لها من الواقع ما يؤيدها، فإنها حينئذ تكون مدعاة للتفلت من الالتزام بها تحت ستار أنها فوق الطاقة ودون الوسع.

فكانت القصص هي أسلوب التربية العملية، الذي يكبح جماح الشهوات المنطلقة، ويشد من أزر المتمسكين بالحق والثابتين عليه، أسوة بمن سبقوهم على الطريق.

وبالقصة يحصل الاقتداء والأسوة؛ لأنّ النفس مولعة بمحاكاة من تأنس إليه، رجاء مشاركته في الخير الذي أكرمه الله به.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير»[1].

ولذلك استهلّ الله قصّة إبراهيم عليه السلام مع قومه، بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال الرازي رحمه الله: «إنّما قصّ الله تعالى قصص الأنبياء لأسباب منها: أن يكون للرسول ﷺ ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء عليهم السلام»[2].

ومن فوائد القصص أيضاً أنها تُعَرِّف الوعّاظ بمنهج الأنبياء في الوعظ والنصح والتذكير.

كما أنّ في القصص بيان لما جبلت عليه النفس الإنسانية من غرائز وميول ورغبات، وكيف عالج الأنبياء عليهم السلام أحوال الناس وفقاً لهذه الميول والرغبات.

* ثانياً: نماذج من مواعظ السلف المشتملة على القصص:

الوعظ بالقصص سمة بارزة في مواعظ السَّلف، أشاد بها كثير منهم، وأولوها عناية بالغة في مواعظهم وخطبهم، قال الإمام أحمد: «ما أحوج

(١) إعلام الموقعين ١/ ٢٣٩.
(٢) مفاتيح الغيب ٥/ ٢١.

الناس إلى قاص صدوق»[١].

وقد برز طائفة منهم في هذا الأسلوب الوعظي؛ كتميم الداري رضي الله عنه، وعبيد بن عمير رحمه الله وغيرهما كثير.

وتنوّعت أشكال هذا الأسلوب الوعظي في مواعظ السلف رحمهم الله.

ومن نماذج ذلك:

١ ـ الوعظ بقصص القرآن الكريم:

لقد كانت قصص القرآن مادة خصبة لمواعظ السلف، منها ينهلون وبمواعظها يستشهدون، ولهم في ذلك طريقتان:

● **إحداهما:** أن تذكر القصة كما وردت في القرآن الكريم، ومن ثمّ تُستَخلص منها العظات والعبر، على عادة المفسرين، ومن نماذج ذلك:

عن قتادة رحمه الله أنّه تلا قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] ثم قال: «هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه»[٢].

● **والثانية:** أن تذكر القصة القرآنية، على وفق ما جاء في الروايات الإسرائيلية.

ومن نماذج ذلك:

ما رواه حزم بن أبي حزم قال: سمعت الحسن رحمه الله تلا قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال: ذُكر لي أنه أماته ضحوة، ثم بعثه حين سقطت الشمس من قبل أن تغرب، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال: إن حماره لبجنبه وطعامه وشرابه قد منع منه الطير والسباع من طعامه

(١) تلبيس إبليس، ص١٤٦.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ٦/ ١٢٣. **قلت**: وإسناده حسن.

وشرابه، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، قال: لقد ذكر لي أن أول ما خلق منه عيناه فجعل ينظر إلى العظام عظماً عظماً كيف يرجع إلى مكانه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩](١).

٢ ـ الوعظ بقصص السنّة النبوية:

والقصة النبوية إمّا أن تذكر كما جاءت على لسان المصطفى ﷺ، وهذا صنيع المحدثين في رواياتهم وكتبهم.

وإمّا أن يذكر معنى القصة النبوية بأسلوب الواعظ، ومن أمثلة ذلك، قول ابن مسعود رضي الله عنه: «بينما رجل فيمن كان قبلكم في قوم كفار، وكان فيما يليهم قوم صالحون، فقال الرجل: طال ما كنت في كفري، والله لآتين هذه القرية يعني الصالحة فأكونن رجلاً منهم، فانطلق فأدركه أجله، واحتج فيه الملك والشيطان، قال هذا: أنا أولى به، وقال هذا: أنا أولى به، فقيض الله تعالى لهما بعض جنوده فقال: قيسوا ما بين القريتين فإلى أيتهما كان أقرب فهو من أهلها، فقاسوا ما بينهما فكان أقرب إلى القرية الصالحة بشبر فكان منهم»(٢).

وأصل هذه القصة، هي قصة الرجل الذي قتل مائة نفس.

٣ ـ الوعظ بقصص الأنبياء:

لقد قصَّ الله تعالى قصص الأنبياء والمرسلين ليُتّخذ منهم الأسوة والعبرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وطريقة السلف في إيراد قصص الأنبياء عليهم السلام في مواعظهم على ضربين:

- فإمّا أن تذكر قصص الأنبياء الواردة في الكتاب والسنة، وهذا كثير جداً.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه: «من عاش بعد الموت»، ص٤٨. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٣٧٣. **قلت**: وإسناده صحيح.

● أو أن تذكر قصص الأنبياء عليهم السلام كما وردت في الإسرائيليات.

ومن نماذج ذلك:

ما رواه عبد الله بن أبي الهذيل عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: «أنّ أصحابه كانوا ينتظرونه، فلما خرج قالوا ما أبطأك عنا: حدِّثنا أيها الأمير، قال: أما إني سأحدثكم أنّ أخاً لكم ممن كان قبلكم وهو موسى؛ قال: يا رب حدثني بأحب الناس إليك، قال: عبد في أقصى الأرض أو في طرف الأرض سمع به عبد آخر لا يعرفه، فإن أصابته مصيبة فكأنما أصابته، وإن شاكته شوكة فكأنما شاكته، لا يحبه إلّا لي فذلك أحب خلقي إليّ»(١).

٤ ـ الوعظ بقصص الأتقياء والصالحين:

قد يحدث هذا النوع من القصص تأثيراً بليغاً في بعض النفوس، أكثر مما تحدثه قصص الأنبياء عليهم السلام؛ لأنه قد ترد على بعض القلوب شبهة، مفادها أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون ومؤيدون بالوحي، فلا يمكن مجاراتهم والاقتداء بهم، وهي شبهة واهية.

ويكثر هذا النوع في مواعظ السلف، ويأتي على أنماط كثيرة:

● إمّا أن تذكر قصص أقوام صالحين من الأمم السابقة، ومن أمثلة ذلك:

عن وهب بن منبه رحمه الله قال: «كان جبار في بني إسرائيل يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير، فلم يزل الأمر حتى بلغ إلى عابد من عبّادهم، قال: فشَقَّ ذلك على الناس، فقال له صاحب الشرطة: إني أذبح لك جَدْياً، فإذا دعاك الجبار لتأكل فَكُلْ فلما دعاه ليأكل أبى أن يأكل، قال: أخرجوه فاضربوا عنقه، فقال له صاحب الشرطة: ما منعك أن تأكل وقد أخبرتك أنه جَدْيٌ، قال: إني رجل منظور إليَّ، وإني كرهت أن يُتَأَسَّى بي في معاصي الله، قال: فقتله»(٢).

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٧. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الورع»، ص١١٤. **قلت**: وإسناده حسن.

● أو أن تذكر قصص الأتقياء من هذه الأمّة، وهذا النوع يرد بأشكال عديدة:

ـ منها ذكر أحوال قوم مبهمين من الأتقياء والصالحين، كقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «لقد أدركت أقواماً كانوا آمر الناس بالمعروف وآخذهم به، وأنهى الناس عن منكر وأتركهم له، ولقد بقينا في أقوام آمر الناس بالمعروف، وأبعدهم منه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه فكيف الحياة مع هؤلاء»[١].

ـ أو أن تذكر قصص أعيان من الصالحين من هذه الأمّة، وهذا صنيع كتب التراجم والسير، ومن ذلك: قول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «كان صفوان بن محرز المازني[٢] يقول: إذا أويت إلى أهلي وأصبت رغيفاً أكلته فجزى الله الدنيا عن أهلها شراً والله ما زاد على رغيف حتى فارق الدنيا يظل صائماً ويفطر على رغيف ويشرب عليه من الماء حتى يتروى ثم يقوم فيصلي حتى يصبح فإذا صلى الفجر أخذ المصحف فوضعه في حجره يقرأ حتى صفة العصر وضع المصحف في حجره فلا يزال يقرأ حتى تصفر الشمس»[٣].

٥ ـ الوعظ بقصص المكذبين والمعرضين:

إنّ في إهلاك الأمم المكذبة، ومعاقبة المسرفين عظة وعبرة، خصوصاً إذا كانت آثارهم لا تزال ماثلة وشاخصة للناس، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

ـ فقد تذكر قصص المكذبين من الأمم الماضية، ومن نماذج ذلك:

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٥. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) صفوان بن محرز بن زياد المازنى البصري، أحد الأعلام، كان واعظا قانتاً لله، وقال الذهبي: ثقة بكاء خاشع واعظ، توفي سنة: ١٧٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٦.
(٣) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٣/ ٢٢٧. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

له، وكان يخرج فإذا رأى غلاماً من غلمان بني إسرائيل عليه حليّ يخدعه حتى يدخله فيقتله ويلقيه في مطمورة له، فبينا هو كذلك إذ لقي غلامين أخوين عليهما حليّ لهما فأدخلهما فقتلهما، وكانت له امرأة مسلمة تنهاه عن ذلك، فتقول له: إني أحذرك النقمة من الله ﷻ، وكان يقول: لو أن الله آخذني على شيء، آخذني يوم فعلت كذا وكذا، فتقول: إن صاعك لم تمتلئ بعد، فلما قتل الغلامين الأخوين خرج أبوهما فطلبهما فلم يجد أحداً يخبره عنهما فأتى نبياً من أنبياء بني إسرائيل، فذكر ذلك له فقال له النبي: هل كانت لهما لعبة يلعبان بها، قال: نعم كان لهما جرو، فأتي بالجرو فوضع النبي خاتمه بين عينيه ثم خلّى سبيله، فأقبل الجرو يتخلل الدور حتى دخل داراً، فدخلوا خلفه فوجدوا الغلامين مقتولين، فانطلقوا به إلى النبي فأمر به أن يصلب، فلما رفع على خشبته أتت امرأته فقالت: يا فلان قد كنت أحذرك هذا اليوم، وأخبرك أن صاعك بعد لم تمتلئ، ألا وإنها قد امتلأت»[1].

- أو أن تذكر قصص البائدين من هذه الأمّة، ومن أمثلة ذلك:

عن مالك بن دينار قال: «كنت عند بلال بن أبي بردة[2] وهو في قبة له، فقلت: قد أصبت هذا خالياً، فأيّ قصص أقصُّ عليه، فقلت في نفسي ما له خير من أن أقص عليه ما لقي نظراؤه من الناس، فقلت له: أتدري من بنى هذا الذي أنت فيه، بناها عبيد الله بن زياد وبنى البيضاء وبنى المسجد فوَلي ما وَلي فصار من أمره أن هرب فطلب فقُتل، ثم وَلي البصرة بشر بن مروان، فقالوا: أخو أمير المؤمنين فمات بالبصرة، فحملوه وحشد الناس في جنازته، ومات زنجي فحمله الزنج على طُنٍّ[3] من قصب، فَذُهب بأخي

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٤٦٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري الكوفي، أمير البصرة وقاضيها، من صغار التابعين، وكان جليلاً كريماً، ذا سيرة حسنة، توفي سنة: مائة ونيف وعشرين؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٦.

(٣) الطُّنُّ: بالضم حُزمة القصب؛ «مختار الصحاح» ١/ ١٦٧، مادة: «طنن».

أمير المؤمنين فدفنوه، وذُهب بالزنجي فدفنوه، ثم جعلت أقصُّ عليه أميراً أميراً، حتى انتهيت إليه، فقلت في نفسي: قد بنيت داراً بالكوفة فلم ترها حتى أخذت فسجنت فعذبت حتى قُتل فيها»[1].

● وبعد هذا الإيضاح والبيان لمفهوم القصص وضوابطه، ومجالاته، يتبيّن لنّا أنّ القصة أسلوب فعّال بيد الواعظ إذا انضبطت بالشروط الشرعية وابتعدت عن الكذب والتلفيق، واستعملت بقدر الحاجة، واقتصرت على الوارد في كتاب الله وسنة رسوله وأثر السلف الصالح.

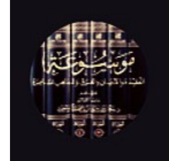


(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٨٠. **قلت**: وإسناده صحيح.



تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة



معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

المبحث الرابع

الوعظ عن طريق التذكير بنعم الله تعالى

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حقيقة النعمة وأقسامها عند السلف.

المطلب الثاني: العظة بالتذكير بنعم الله تعالى عند السلف.

المطلب الأول

حقيقة النعمة وأقسامها عند السلف

*** أوّلاً: حقيقة النعمة عند السلف:**

إنّ نعمَ الله ﷻ على الإنسان كثيرة، نعمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

فأخبر الله تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها[(١)]، كما قال طلق بن حبيب[(٢)] رحمه الله: «إنَّ حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإنّ نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[(٣)]».

وقال تعالى ـ ممتنّاً على عباده ـ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وإسباغ النعم هو: إتمامها وإكمالها من كل وجه[(٤)].

* والأصل في النعمة هي: «ما قُصد به الإحسان والنفع، لا لغرض ولا لعوض»[(٥)].

وقيل: «النعمة اسم لكلّ نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ: هو الذي تُدْرَكُ راحته في الحال، والنافع: هو الذي يُفيدُ في المآل، والجميل: هو الذي

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٧١١.
(٢) طلق بن حبيب العنزي البصري، من العلماء العاملين، كان طيب الصوت بالقرآن براً بوالديه، يعدّ من أئمة وعاظ السلف، وكان يضرب به المثل في العبادة، توفي قبل المائة؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١.
(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٤/ ١٢٣. **قلت**: وإسناده حسن.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٤٣.
(٥) «التعريفات»، للجرجاني، ص٢٤٢.

يُسْتَحْسَنُ في سائر الأحوال»(١).

وكثير من الناس يقصر النعمة على نعم مخصوصة: من ملبس ومأكل ومشرب، دون النظر في النعم الحقيقية المفضية إلى السعادة الأخروية الأبدية.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لا يرى لله نعمة إلّا في مطعم، أو شرب، أو لباس، فقد قصر علمه، وحضر عذابه»(٢).

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلّ نعمة لا تُقرِّب من الله عَزَّ وَجَلَّ فهي بليّة»(٣).

بل إنّ كثيراً من السلف يعدُّ البلاء، وضيق العيش من جملة النعم.

فعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: «رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، قال: فكأنه رأى ما شقَّ عليّ منها، فقال: أتدري ماذا لله تعالى عليّ من هذه القرحة من نعمة؟ فأُسْكِتُّ، قال: إذ لم يجعلها على حدقتي، ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذَكَري، فهانت عليَّ قرحته»(٤).

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا، أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قوماً فهلكوا»(٥).

فضابط النعمة عند السلف: أن تكون هذه النعمة وسيلة لمرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ وطاعته، ومحبته وخوفه ورجائه، ولذلك كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدّها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين في سورة الرحمٰن.

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٠٠.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٦٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص١١؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٣٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٥٢؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٥٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٤٢؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٣٣. **قلت**: وإسناده حسن.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «خلق الله النار رحمة، يخوف بها عباده لينتهوا»[١].

ويبيّن الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة النعمة فيقول: «اعلم أن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر، فإنّه يسمى نعمة.

ولكن النعمة بالحقيقة هي: السعادة الأخروية، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، ولذلك قال رسول الله ﷺ ـ كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «**لا عيش إلَّا عيش الآخرة**»[٢]، وقال ﷺ أيضاً ـ في حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «**تمام النعمة دخول الجنة**»[٣][٤].

وأصل النعم ومصدرها من الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

* ثانياً: أقسام النعمة عند السلف:

للنعم أنواعٌ كثيرة، وشُعَبٌ عديدة، ولكن يمكن حصر أنواع هذه النعم، ضمن أقسام تنتظم تحتها، وقد اجتهد السلف رحمهم الله في حصر هذه الأقسام وبيانها.

ومن جملة ما قيل في ذلك:

١ ـ أقسام النعم من حيث الظهور والضمور:

النعم قسمان: نعم ظاهرة، ونعم باطنة.

---

(١) «التخويف من النار»، ص٢٠.

(٢) متفق عليه، البخاري ٣/١٠٨١، كتاب: الجهاد والسير، باب: البيعة في الحرب أن لا ينفروا، رقم (٢٧٤١)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٤٣١، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب، رقم (٣٣٦٦).

(٣) رواه الترمذي ٥/٥٤١، كتاب: الدعوات من رسول الله ﷺ، رقم (٣٤٥٠)، وقال: حديث حسن.

(٤) إحياء علوم الدين ٤/٩٩.

وقد أشار الله ﷻ إلى ذلك في كتابه فقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، واختلف السلف رحمهم الله، في تحديد النعم الظاهرة، والباطنة، وممّا قيل في ذلك:

- قيل: الظاهرة: الإسلام والرزق، والباطنة: ما ستر من العيوب والذنوب.

وبه قال: ابن عباس[١] ومجاهد[٢]، ومقاتل بن حيان[٣].

- وقيل: الظاهرة: ما يُدْرَك بالعقل أو الحسِّ ويعرفه من يتعرَّفه، والباطنة: ما لا يُدْرَك للناس، ويخفى عليهم[٤].

- وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخُلُق، والباطنة: المعرفة والعقل[٥].

- وقيل: الظاهرة: ما يُرَى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات[٦].

- وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة[٧].

٢ ـ أقسام النعم من حيث عمومها وخصوصها:

النعم قسمان: نعمٌ عامّة يشترك فيها جميع الخلق، ونعمٌ خاصة يستأثر بها العبد دون غيره.

والطباع مائلة إلى الاعتداد بالنعمة الخاصة دون العامة، ولذا تجد أكثر الناس لا يشكرون إلّا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

---

(١) الدر المنثور، لابن الجوزي ٦/ ٥٢٦.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٩٤.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٦٢. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٤٣.
(٥) «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، للواحدي ١/ ٨٤٩.
(٦) فتح القدير ٤/ ٣٤٣.
(٧) تفسير القرطبي ٦/ ٢٢٤.

أ ـ النعم العامّة:

وهي النعم التي تتهيّأ أسبابها لجميع الناس، وإن كان تواجدها متفاوت في الخلق بين مكثر ومقلٍّ، وهذه النعم العامة ترجع إلى أربعة أنواع:

• **النوع الأول**: الفضائل النفسية، ويرجع حاصلها إلى: الإيمان، وحسن الخلق.

وينقسم الإيمان إلى: العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة.

وحسن الخُلُق ينقسم إلى قسمين: ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة، ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات، أو الميل بها عن حدِّ الاعتدال.

• **النوع الثاني**: وهو الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر.

• **النوع الثالث**: وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي أربعة: المال، والأهل، والجاه، وكرم العشيرة

• **النوع الرابع**: وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة، وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده[1].

ب ـ النعم الخاصّة:

هي النعم التي تخص العبد، ولا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يشاركه فيها أحد، وهي في ثلاثة أمور: في العقل والخُلُق ـ والخَلْقُ ـ والعلم.

• **أما العقل**: فما من عبد لله تعالى إلّا وهو راض عن الله في عقله،

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٩٩.

يعتقد أنه أعقل الناس وقلّ من يسأل الله العقل، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه، كما يفرح به المتصف به.

• **وأما الخُلُق** ـ والخَلْق ـ: فما من عبد إلّا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها.

فعن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يكثر النظر في المرآة، وتكون معه في الأسفار، فقلت: ولم؟ قال: أنظر فما كان في وجهي زين، وهو في غيري شين، أحمد الله عليه»[1].

• **وأما العلم**: فما من أحد إلّا ويعرف بواطن أمور نفسه، وخفايا أفكاره، وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح[2].

فعن يونس بن عبيد قال: قال رجل لأبي تميمة[3] كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيهما أفضل؟ ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد ولم يبلغها عملي»[4].

٣ ـ أقسام النعم من حيث ديمومتها وتجدّدها:

النعم تنقسم إلى قسمين من حيث دوامها وتجدّدها:

أ ـ النعمة الدائمة:

وهي النعم المستقرّة التي تصحب العبد في حياته، سواء كانت متعلّقة بشخصه، كتهيئة أسباب المأكل والمشرب والحركة وغيرها، أو كانت خارجة عنه؛ كتسخير الأنعام، وتسخير السماوات والأرض لصالح العبد.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٦١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ١٢٤.

(٣) **هو**: طريف بن مجالد السلي، أبو تميمة الهجيمي البصري، من أئمة الحديث، توفي قبل أو بعد سنة ٩٧هـ؛ «تهذيب الكمال»، للمزي ١٣/ ٣٨٠.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص١٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

ب ـ النعم المتجدّدة:

وهي نعم تحلّ بالعبد إذا تهيّأت أسبابها الكونية والشرعية؛ كالنصر على الأعداء، وحصول الشفاء، وغيرها، والنعم المتجددة لها وقع في النفوس، والقلوب بها أعلق، ولهذا يهنى بها، ويعزى بفقدها، وهي توجب فرح النفس وانبساطها[1].

• **والخلاصة**: أنّ النعم شعب كثيرة وأنواع متعدّدة، منها الدائم، ومنها المتجدّد، ومنها العامة لجميع الخلق، ومنها ما استأثر به بعض الخلق، ولكن النعم الحقيقية هي النعم المفضية إلى السعادة الأخروية الأبدية.



(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، لابن القيم، ص١١٢.

المطلب الثاني

العظة بالتذكير بنعم الله تعالى عند السلف

* أوّلاً: مفهوم التذكير بالنعم عند السلف:

التذكير بالنعم هو دعوة الخلق إلى النظر في النعم، والتفكّر في المنعم المتفضّل بها، والقيام بشكره بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والتذكير بالنعم يقوم على أصلين اثنين:

أحدهما: التعريف بحقيقة النعمة، وبيان عظم نفعها، وخطر زوالها، إذ إنّ كثيراً من الخلق يكون في نعمة، ولكن لا يدرك ذلك، فيحتاج إلى من ينبهه، ويبيّن له حقيقة ما هو فيه من النعيم.

والثاني: التعريف بجهة النعمة ومُسديها، والمتفضِّل بها على الخلق، مع بيان عجزهم عن جلب ما ينفعهم، أو دفع ما يضرهم.

فإذا استقرت هاتين المعرفتين في عقول المدعوين، أثمرت في القلب محبة لله تعالى، وحياء منه، وسعياً لمرضاته، وتجنب سخطه(١).

* ثانياً: أهمية التذكير بالنعم في مجال الوعظ:

إنّ التذكير بنعم الله تعالى منهج أصيل من مناهج الدعوة إلى الله، ويكتسي أهمية بالغة في مجال الوعظ والتذكير، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

---

(١) **انظر**: «إحياء علوم الدين» ٦/ ٦٢؛ و«مدارج السالكين» ١/ ١٤٤.

١ - قد قرّر القرآن الكريم أسلوب التذكير بنعم الله تعالى، في غير ما آية، وجعل من هذا الأسلوب طريقاً لتلقيح العقول، وقرع القلوب، وتنبيهها إلى عظم منن الله تعالى عليها، ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

قال البقاعي رحمه الله: «لقد صدّر الله تعالى قصة بني إسرائيل بالتذكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم، يوم تجمع الأمم، ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم، ليعلم أن ذلك فذلكة القصة، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة»(١).

٢ - التذكير بنعم الله هو منهج الأنبياء جميعاً من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، فما من نبي بعث في قومه إلّا وذكّرهم بنعم الله عليهم، وجعل ذلك مسلكاً في وعظهم ونصحهم.

فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

وصالح عليه السلام يذكّر قومه بنعم الله عليهم فيقول لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٥٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم نقم الله أن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٣١.

تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم، فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم الجنات»[(١)].

ومحمد ﷺ يذكّر قومه بنعم الله عليهم فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

٣ ـ إنّ التذكير بنعم الله ﷻ فيه ترغيب في شكر المنعم ووعد بالمزيد، وترهيب من كفران النعم وتوعّد بزوالها وانتقالها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمعنى: «لئن شكرتم إنعامي عليكم، لأزيدنكم نعمة إلى نعمة، ولأزيدنكم من طاعتي ومن ثوابي، ولئن كفرتم نعمة الله، فجحدتموها بترك شكره عليها، وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي»[(٢)].

٤ ـ إنّ التذكير بالنعم يدفع إلى الاتعاظ والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأيام الله هي: وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياماً؛ لأنها ظرف لها.

ومعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته»[(٣)].

٥ ـ إنّ التذكير بالنعم يوقظ القلوب الغافلة، ويهدي العقول الشاردة، ويفتح أبواب النفوس المغلقة، وينبهها إلى التفكّر في حقيقة النعم، وعظم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٣.

(٢) **انظر**: تفسير الطبري ٧/ ٤١٩؛ وفتح القدير ٣/ ١٣٧.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٤٩.

مُوهبها، وهذا الأمر يولِّد في القلب محبة لله تعالى وإجلالاً، ومسارعة إلى مرضاته، والابتعاد عن جميع سخطه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وممّا يحرك القلوب إلى خالقها وبارئها: مطالعة آلائه ونعمائه، فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً»(١).

٦ ـ التذكير بالنعم يوجب الحياء من إظهار مخالفة المنعم، فما جزاء الإحسان إلّا الإحسان.

ولذلك قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه ـ بعد أن ذكّرهم بأصناف النعم التي منحهم الله إياها ـ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤]؛ أي: «ما لكم لا تخشون لله عقاباً، وترجون منه ثواباً، ولا تعرفون لله حقاً، ولا تقدرون له قدراً، ولا تشكرون له نعمة، وقد أسبغ عليكم نعمه، وسخّر لكم ما في السماوات والأرض»(٢).

فالنعم من موجبات الحياء، ومن لوازم الحياء موافقة المنعم، وطاعته واستعباد القلوب والجوارح له، وفي ذلك يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان(٣)

* ثالثاً: منهج السلف في الوعظ عن طريق التذكير بالنعم:

لقد كان السلف رحمهم الله يتذاكرون نعم الله تعالى عليهم في مجالسهم وأنديتهم، وكانوا يعدّون الفكرة في نعم الله تعالى من أفضل العبادة، كما كانوا يتواصون بتذاكر النعم فيما بينهم، وممّا نقل عنهم في ذلك:

ـ عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: «الفكرة في نعم الله عَزَّ وَجَلَّ من

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٩٦. (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٦١.

(٣) «نثر النظم وحلّ العقد»، لأبي منصور الثعالبي، ص٢٤٦، والبيت لعلي بن محمد بن الحسين، المعروف بأبي افتح البستي، المتوفى سنة: ٤٠٠هـ.

أفضل العبادة»[١].

ـ وقال أيضاً: «تذاكروا نعم الله فإن ذكرها شكرها»[٢].

ـ وعن مسمع بن عاصم قال: «شهدت عبد الواحد بن زيد[٣] عاد مريضاً من إخوانه، فقال: ما تشتهي؟ قال: الجنة، قال: فعلام تأس من الدنيا إذا كانت هذه شهوتك؟ قال: آسى والله على مجالس الذكر، ومذاكرة الرجال بتعداد نعم الله»[٤].

ـ وقد سار السلف رحمهم في وعظهم وتذكيرهم بنعم الله تعالى، وفق منهج فريد متكامل، ومن معالم هذا المنهج وضوابطه، ـ التي ينبغي لكلِّ واعظ أن يسلكها ـ، ما يلي:

* **الضابط الأوّل**: ينبغي للواعظ أن يعرِّف الموعوظين بنعم الله تعالى عليهم؛ لأنّ طريق الشكر إنما انسد على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة، والخاصة والعامة.

ولذا فإنّ الطريق إلى علاج هذه القلوب الغافلة، حتى تشعر بنعم الله تعالى، فتؤدِّي شكرها، يختلف باختلاف أنواعها:

ـ أما القلوب البصيرة: فعلاجها التأمل في أصناف نعم الله تعالى العامة، التي سبق الإشارة إليها.

ـ وأما القلوب البليدة: التي لا تعدّ النعمة نعمة، إلّا إذا خصَّتها، أو شعرت بالبلاء معها، فسبيلها أن تنظر أبداً إلى من دونها، فالأمور تعرف بأضدادها، فيعرف العبد نعمة الصحة بذكر أصحاب البلاء، ويعرف نعمة

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣١٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٥٠٣. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) عبد الواحد بن زيد، أبو عبيدة البصري، كان بليغاً واعظاً، وله تأثير عجيب على نفوس الموعوظين، وقد نسب إلى شيء من القدر ولم يشهر، توفي بعد ١٥٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧٨.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ١٥٧. **قلت**: وإسناده حسن.

الأمن بالنظر في من ابتلي بالخوف وانعدام الأمن، وهكذا[١].

* **الضابط الثاني**: ينبغي على الواعظ أن يربط التذكير بنعم الله تعالى بالدعوة إلى التوحيد؛ لأنّ من أعظم دلائل وحدانية الله تعالى تفرّده بالخلق والملك والتدبير، ولهذا نجد القرآن كثيراً ما يجعل من التذكير بالنعمة طريقاً ودليلاً وحجّة على انفراد الله تعالى بالتصرف بالخلق والتدبير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ من وجد نفسه مُؤثَراً بآثار الصنعة، مستغرقاً في أنواع النعمة، لم يستبعد أن يكون له صانع صنعه، وتولى تدبيره، وأنعم عليه، وأنه إن لم ينظر في حقيقة ذلك ليتوصل إلى الاعتراف له، والتزام شكره عوقب على ما أغفل من النظر، وضيع من الاعتراف والشكر»[٢].

فإذا استقرّ في نفس الموعوظ وحدانية الله تعالى وتفرّده بالخلق والملك والتدبير، كان ذلك طريقاً إلى دعوته لإفراد الله تعالى بالألوهية والعبادة، وهذا الأمر ثمرة الوعظ ولبّه وأساسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلٰهية، فإنه إذا تيقَّن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، كلّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلِّب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، وأنه لا موفَّق إلّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأنّ أصحَّ القلوب وأسلمها وأقومها وأرقّها وأصفاها وأشدها وألينها من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً، فكان أحب إليه من كل ما سواه وأخوف عنده من كل ما سواه وأرجى له من كل ما سواه فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب فتنساق المحاب تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان»[٣].

* **الضابط الثالث**: ينبغي للواعظ أن يعرِّف الموعوظين بضروب شكر

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ١/ ٩٦؛ و«إحياء علوم الدين» ٤/ ١٢٦.
(٢) «درء تعارض العقل والنقل» ٤/ ٣٩٩. (٣) «مدارج السالكين» ١/ ٤١٠.

نعم الله ﷻ، إذ كثيرٌ من الخلق يعتقد أن الشكر قاصرٌ على لهج اللسان بحمد الله تعالى.

وحقيقة الشكر هي تواطؤ القلب واللسان والجوارح على شكر هذه النعم.

كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[١]

وقد بيّن السلف رحمهم الله ضروب شكر النعم فقالوا:

إنّ شكر النعم يكون بأمور:

«**منها**: اعتقاد أنّ الله ﷻ قد أنعم فأكثر وأجزل، وأنّ كل ما بنا من نعمه فمنه.

ومنها: الثناء على الله ﷻ وحمده، وإظهار ما في القلب من حقوق هذه النعم باللسان، والجمع فيها بين الاعتقاد والاعتراف بها كذلك في الإيمان.

ومنها: الاجتهاد في إقامة طاعته فعلاً بما أمر به، وكفاً عما نهى عنه، فإنّ ذلك هو الذي يقتضيه تعظيمه، ولا تعظيم كالطاعة.

ومنها: أن يكون العبد مشفقاً في عامة أحواله، من زوال نعم الله تعالى عنه، وَجلاً من مفارقتها إياه، مستعيذاً بالله تعالى من ذلك، سائلاً إياه، متضرعاً إليه أن يديمها له، ولا يزيلها عنه.

ومنها: أن ينفق مما أتاه الله في سبيل الله، ويواسي منه أهل الحاجة، ويعمّر المساجد والقناطر، ولا يدع باباً من أبواب الخير إلا أتاه.

ومنها: أن لا يفخر بما أتاه الله على غيره، ولا يتبذّخ، ولا يزهو، ولا يتكبر»[٢].

---

(١) «الفتاوى الكبرى»، لابن تيمية ٢/٣٧٨.

(٢) شعب الإيمان ٤/٨٨.

* **الضابط الرابع**: الترغيب والترهيب عن طريق التذكير بالنعم.

فللواعظ أن يرغِّب الناس في طاعة الله ﷻ، ببيان وجه استقرار النعم، ونمائها وزيادتها، وأنّ ذلك متعلِّق بشكر النعمة من كل الوجوه التي سبق بيانها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

كما أنّ النعم تزول بالذنوب والمعاصي والآثام، وفي هذا أعظم الترهيب، وأبلغ التخويف والزجر.

ولله درّ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، فقد بيّن هذا الأمر أحسن البيان، وأوضحه أحسن الوضوح، فقال: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب.

وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد، حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غُيِّر عليه جزاء وفاقاً.

وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رَبِّ العباد ... فرَبُّ العباد سريع النقم[1]»[2].

* **رابعاً: نماذج من مواعظ السلف المشتملة على التذكير بالنعم:**

كان السلف رحمهم الله يتذاكرون نعم الله تعالى عليهم، ويذكِّرون بها بعضهم بعضاً، فكانت مجالسهم عامرة بذكر الله تعالى وذكر آلائه ونعمه.

---

(١) هذه الأبيات، لأبي الحسن الكندي القاضي رَحِمَهُ اللهُ؛ كما في «شعب الإيمان» ٤/ ١٣٢.
(٢) «الجواب الكافي»، ص٤٩.

فعن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال لزيد الرقاشي وزياد النميري: «لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقصُّ أحدكم وعظه على أصحابه، ويسرد الحديث سرداً، إنما كنّا نقعد، فنذكر الإيمان، ونتدبر القرآن، ونتفقه في الدين، ونعد نعم الله علينا تفقهاً»[١].

ومن نماذج هذه المواعظ، ما يلي:

١ ـ الترغيب في الطاعة عن طريق التذكير بالنعم:

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٢] رحمه الله أنّه قال: «لينظر العبد في نعم الله عليه؛ في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، وليس من هذا شيء إلّا وفيه نعمة من الله ﷻ، حقٌّ على العبد أن يعمل بالنعمة التي في بدنه لله ﷻ في طاعته، ونعمة أخرى في الرزق حقٌّ عليه أن يعمل لله ﷻ فيما أنعم عليه من الرزق في طاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بحزم الشكر وأصله وفرعه»[٣].

٢ ـ التعريف بالنعمة بالنظر إلى أهل البلاء والمحن:

قال سلَّام بن أبي مطيع[٤] رحمه الله: «دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئنّ فقلت له: أذكر المطروحين على الطريق، أذكر الذين لا مأوى لهم، ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: أذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له، ولا له من يخدمه»[٥].

---

(١) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» ١/ ٣٢، ولم يذكر له إسناداً.

(٢) عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، العمري المدني، كان صاحب قرآن، وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة: ١٨٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٩.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٦٤، وإسناده حسن.

(٤) سلام بن أبي مطيع، أبو سعيد الخزاعي، مولاهم البصري، الإمام الثقة القدوة، قال أحمد بن حنبل: كان ثقة صاحب سنة، وهو يعد من خطباء أهل البصرة ومن عقلائهم، توفي سنة: ١٦٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٨.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٤٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

٣ ـ الحياء من الله ﷻ بذكر نعمه وآلائه:

قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: «يا أبا إسحاق إني مسرف على نفسي، فأعرض عليّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي، قال: إن قبلت خصالاً وقدرت عليها، لم تضرك معصية، ولم توبقك لذة، قال: هات يا أبا إسحاق، قال: فإذا أردت أن تعصي الله ﷻ فلا تأكل رزقه، قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه، قال له: يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟! قال: لا، قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده، قال الرجل: هذه أعظم من الأولى، يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟! قال: يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟!...»(١).

ومرَّ محمد بن المنكدر(٢) رحمه الله بشاب يغامز امرأة فقال: «يا فتى! ما هذا جزاء نِعم الله عليك»(٣).

٤ ـ التعريف بقدر النعمة:

عن سعيد بن عامر قال: «جاء رجل إلى يونس بن عبيد(٤) يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فذكَّره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئات آلاف، وأنت تشكو الحاجة»(٥).

---

(١) ذكره ابن قدامة المقدسي في كتاب: «التوابين»، ولم يذكر له إسناداً.

(٢) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير، أبو عبد الله القرشي التيمي المدني، الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام، كان من معادن الصدق، وكان بكاءً من سادات القرّاء والوعّاظ، توفي سنة: ١٣٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٣.

(٣) ذكره ابن القيم في «عدة الصابرين» ١/ ١٥٠، ولم يذكر له إسناداً.

(٤) يونس بن عبيد بن دينار أبو عبد الله العبدي مولاهم البصري، الإمام الحجة، من صغار التابعين وفضلائهم، مشهور بالورع، وله كلمات حسان في مواعظ والرقائق، توفي سنة: ١٤٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٨.

(٥) رواه البيهقي في «الشعب» ٤/ ١١٢.

٥ ـ النعمة الحقيقية هي ما كانت وسيلة إلى طاعة الله ﷻ:

وعظ الأوزاعي يوماً فقال في موعظته: «أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار، الثواء فيها قليل، وأنتم مؤجلون خلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا آنفاً»[١].

٦ ـ النعمة حجة على العبد:

عن ابن السمَّاك[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه كتب إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء: «أما بعد فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله في كل نعمة عليك لقلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن النعمة حجة، وفيها تبعة، فأما الحجة فيها بالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق»[٣].

٧ ـ ثبات النعم بشكر المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

عن سليم بن عامر قال: سمعت عبد الله بن قرط الأزدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤] ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ على المنبر، وهو يقول في يوم أضحى أو فطر، ورأى على الناس ألوان الثياب فقال: **«يا لها من نعمة ما أسبغها، ويا لها من كرامة ما أظهرها، وإنه ما زال عن جادة قوم أشدّ من نعمة لا يستطيعون ردَّها، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم»**[٥].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص١٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) محمد بن صبيح بن السمَّاك، أبو العباس العجلي مولاهم الكوفي، اشتهر بوعظ الأمراء والخلفاء، توفي سنة: ١٨٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ٨/٣٢٨.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٣٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»، ص٣٥؛ والبيهقي في «الشعب» ٣/٣٤٧. **قلت**: وإسناده حسن.

• ومن خلال ما سبق يتبيّن لنا أنّ التذكير بالنعم يقوم على أصلين: تعريف بالنعمة أوّلاً، وبيان لعظم حقِّ المنعم المتفضِّل وضروب شكر نعمه ثانياً، وهذا الذي سار عليه السلف في وعظهم.



المبحث الخامس

الوعظ عن طريق التذكير بسيرة السلف الصالح

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السلف الصالح، والقدوة الحسنة.

المطلب الثاني: العظة في التذكير بسيرة السلف الصالح.

المطلب الأول

السلف الصالح، والقدوة الحسنة

إنّ الله أكرم هذه الأمة برجال أطهار، وعلماء وصالحين أبرار، كانوا نجوماً يُهتدى بهم، ومصابيح يستضاء بهديهم، رجال هانت عليهم نفوسهم، وغمرت حلاوة الإيمان قلوبهم، واشتدّ شوقهم وحنينهم إلى لقاء ربهم، فشمّروا عن ساعد الجدّ، وسارعوا إلى الخيرات، وتنافسوا في أنواع الطاعات، فكانوا هداة مهتدين، وأئمة يُقتدى بهم، كما قال الإمام مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، قال: أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويُقتدى بنا من بعدنا»[(١)].

فالغرض من ذكر سيرهم، ورواية أخبارهم، حصول القدوة بهم، ولقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بالأخيار ـ بعد أن ذكر سير طائفة منهم ـ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ أي: «فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم؛ اقتده»[(٢)].

ولقد اجتمعت في السلف الصالح رحمهم الله سمات القدوة، وصفات الإمامة، في القول والعمل، ويتّضح ذلك من خلال بيان مفهوم القدوة الحسنة، وأصولها، ومن ثمّ بيان استحقاق السلف رحمهم الله لهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة السامية.

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٦/ ٢٦٥٤، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن الرسول ﷺ؛ ورواه الطبري في تفسيره ٩/ ٤٢٤؛ وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٥١: «أخرجه الفريابي والطبري وغيرهما بسند صحيح».

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٦١.

* أوّلاً: مفهوم القدوة الحسنة:

القدوة: «هي الاسم من الاقتداء، وكلاهما مأخوذ من مادة (ق د و) التي تدل على اقتباس بالشيء واهتداء»(١).

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «القدوة هي الاقتداء بالغير ومتابعته، والتأسي به»(٢).

وقيل: «الأسوة كالقدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة»(٣).

فالمقصود بالقدوة الحسنة، هي: «السير والاتباع على طريق المقتدى به؛ من أهل الخير والفضل والصلاح، في كلّ ما يتعلق بمعالي الأمور وفضائلها، من العبادات والمعاملات والأخلاق».

* ثانياً: أصول القدوة الحسنة(٤):

تقوم القدوة الحسنة على ثلاثة أصول:

الصلاح، وحسن الخلق، وموافقة القول العمل.

فلا يصلح لمقام القدوة والأسوة إلّا من اجتمعت في هذه الأصول الثلاثة، وفيما يلي تفصيلٌ لهذه الأصول، وبيان حقيقتها:

* الأصل الأول: الصلاح:

الصلاح هو عنوان استقامة المقتدى به، فلا يصلح لتبوء منزلة القدوة والإمامة إلّا من كان صالحاً في نفسه، عفيفاً تقياً نقياً.

كما قال الله ﷻ ـ عن أئمة الهدى من ذريّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «قدو».

(٢) «التوقيف على مهمات التعريف» للمناوي، ص٥١؛ و«الكليات» للكفوي، ص١١٤.

(٣) أضواء البيان ٣/ ١٢٠.

(٤) **انظر**: «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٧٤؛ و«حادي الأرواح»، ص٢٩١؛ «مبادئ ونماذج في القدوة»، د. صالح بن حميد، ص٦ ـ ١١.

بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣] ، وعطف الله تعالى لفظ (أئمة) على (الصالحين) اهتماماً بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للناس، بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم»[١].

ومدار الصلاح على ثلاثة أركان:

ـ الركن الأول: الإيمان:

وذلك بتحقيق معنى التوحيد ومقتضياته؛ من معرفة الشهادتين، والعمل بمقتضاهما.

ومنزلة السلف رحمهم الله في التوحيد غير خفيّة، حيث كانوا أعرف الخلق بالله ﷻ بعد الأنبياء ﵈، وأبعد الناس عن أدران الشرك، وأوهاد البدعة، فجمعوا بين العلم والسلامة، والخشية والإنابة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

يقول الإمام أبو نعيم ﵀ في وصف حال السلف رحمهم الله: «... لقد عظم في قلوب العارفين من السلف قدره ﷻ، وقدر جلالته وهيبته، ونفاذ قدرته، وأليم عذابه، وشدة بطشه، وجزيل ثوابه وكرمه وجوده بجنته، وتحننه وكثرة أياديه ونعمه وإحسانه ورأفته ورحمته؛ فلما عظمت المعرفة بذلك، عظم القادر في قلوبهم فأجلّوه وهابوه وأحبوه واستحيوا منه، وخافوه ورجوه، فقاموا بحقه واجتنبوا كل ما نهى عنه، وأعطوه المجهود من قلوبهم وأبدانهم»[٢].

ـ الركن الثاني: العبادة:

إنّ من أعظم لوازم القدوة والإمامة؛ بذل الوسع في طاعة الله ﷻ واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، وقال

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٠٩.
(٢) حلية الأولياء ١٠/٢٥٨.

تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمة: هو القدوة المأتم بفعاله وأقواله، والقانت والحنيف: هو المطيع لله تعالى[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين»[٢].

وقد كان السلف رحمهم الله مضرب المثل في العبادة والجدّ والاجتهاد، مسابقين للخيرات، ومسارعين للطاعات.

ـ الركن الثالث: الإخلاص:

الإخلاص من أعمال القلوب، ولا يطلّع عليه إلّا علّام الغيوب، ولكن كلّ إناء بما فيه ينضح، وللإخلاص علامات؛ كاستواء المدح والذم في عين العبد، وكذا الإسرار بأنواع الطاعات.

وهذا كان ديدن السلف رحمهم الله، والآثار في ذلك كثيرة، وفي ذلك يقول الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»[٣].

وعن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله قال: «نظر الأكياس في الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن يكون حركاته وسكوته في سره وعلانيته لله وحده لا شريك له، لا يمازجه شيء نفس ولا هوى ولا دنيا»[٤].

* الأصل الثاني: حسن الخلق:

إذا كان الصلاح يتوجه إلى ذات المقتدى به ليكون صالحاً في نفسه قويماً في مسلكه؛ فإنّ حسن الخلق يتوجه إلى طبيعة علاقته مع الناس، وأصول تعامله معهم.

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٦٥٩؛ و«مفتاح دار السعادة» ١/ ١٧٤.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٣٩٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٣٤٧. **قلت**: وإسناده حسن.

والكلام في حسن الخلق واسع متشعب، ولكن الحديث سينحصر في عناصره الكبرى، التي لها تعلّق بمقام القدوة والإمامة:

١ ـ الصدق:

تبرز أهمية الصدق وعظم أثره في مسلك القدوة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في تفسير الآية ـ: «قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فهو يأتم في صدقه بهم بل حقيقة صدقه إتباعه لهم وكونه معهم»[١].

فكان السلف رحمهم الله أئمة الصدق، في فعالهم وأقوالهم.

٢ ـ الصبر:

والصبر من معالم العظمة المحمودة، وشارات الكمال العالي، ودلائل التحكم في النفس وهواها وهو عنصر من عناصر الرجولة الناضجة.

فأثقال الحياة وأعباؤها لا يطيقها الضعاف المهازيل والحياة لا ينهض بأعبائها ورسالتها إلا الأكفاء الصابرون، وقد استحقت فتية من بني إسرائيل الإمامة والريادة بصبرهم وحسن بلائهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين»[٢].

ولهذا فإنّ نصيب ذوي القدوة والأسوة من العناء والبلاء مكافئاً لما أوتوا من مواهب وما تحملوا من مشاق.

ومن نماذج صبر السلف على البلاء، حرصاً على سلامة الاقتداء، صبر الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتنة خلق القرآن.

فعن أبي جعفر الأنباري[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه قال للإمام أحمد ـ لمّا حمل إلى

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٣٢.
(٢) «الاستقامة»، ص٤٠.
(٣) محمد بن علي بن الحسين أبو جعفر الأنباري الطحان؛ «تاريخ بغداد» ٣/ ٧٦.

المأمون ـ: «يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله إن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإنّ الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء، فجعل أحمد يبكي وهو يقول: ما شاء الله ما شاء الله»(١).

٣ ـ التواضع:

جبلت النفوس على كره من يستطيل عليها ويستصغرها، كما جبلت على النفرة ممن يتكبر عليها ويتعالى عنها، حتى ولو كان ما يقوله حقاً وصدقاً، فالتواضع خلق يكسب صاحبه رضا أهل الفضل ومودتهم.

وسير السلف رحمهم الله عامرة بشواهد تواضعهم وخمولهم(٢)، ومن ذلك ما ذكره حماد بن زيد قال: «ما رأيت محمد بن واسع إلّا وكأنه يبكي، وكان يجلس مع المساكين والبكائين»(٣).

* **الأصل الثالث: موافقة القول العمل:**

إنّ النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بمن علمت أنه يقول ولا يعمل، أو يعلم ثم لا يعمل، ولهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

قال عبد الواحد بن زياد(٤) رحمه الله: «ما بلغ الحسن البصري ما بلغ، إلّا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥/ ٣١٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) ألّف الإمام ابن أبي الدنيا رحمه الله كتاباً سمّاه: «التواضع والخمول»، جمع فيه نماذج من تواضع السلف رحمهم الله.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»، ص١٤٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) عبد الواحد بن زياد، أبو عبيدة العبدي مولاهم البصري، الإمام الحافظ، توفي سنة: ١٧٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ٧

أبعدهم عنه»[١].

* ثالثاً: أهمية الاقتداء بالسلف الصالح:

إنّ الاقتداء بهدي السلف الصالح، وتتبّع آثارهم، والسير على منهاجهم، في العبادات والمعاملات والأخلاق، يكتسي أهمية بالغة، يتّضح ذلك من خلال ما يلي:

١ - لقد ندب الله ﷻ إلى عباده اتباع سبيل المؤمنين، وتوعّد من تنكب سبيلهم بالخسران المبين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال الدارمي رحمه الله: «فإن كنتم من المؤمنين، وعلى منهاج أسلافهم، فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدى في سبيلهم»[٢].

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: «فكانوا - أي: الصحابة والتابعين - عدول الأمة، وأئمة الهدى، وحجج الدين، ونقلة الكتاب والسنة، وندب الله ﷻ إلى التمسك بهديهم، والجري على منهاجهم، والسلوك لسبيلهم، والاقتداء بهم، فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾»[٣].

٢ - إنّ الاقتداء بالسلف الصالح رحمهم الله، فيه الأمن من الزلل، والسلامة من الخطل؛ لأنهم كانوا أعلم هذه الأمة بمراد الله، ومراد رسوله ﷺ، فمنهجهم أعلم وأحكم وأسلم.

وفي هذا يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإنّ الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسّكوا بهديهم،

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٢٤٧. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) «الرد على الجهمية»، للدارمي، ص١٢٧.

(٣) «الجرح والتعديل»، لابن أبي حاتم ١/ ٧.

فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[١].

وإنّ من أعظم أسباب البدع والمعاصي، هو الجهل بمنهج السلف رحمهم الله وبهديهم وسمتهم، وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «وأكبر أسباب ـ المعاصي ـ قلّة علم هؤلاء بسيرة السلف، وما كان عليه رسول الله ﷺ إنهم يجهلون الجملة، ويتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة، وليس يعنيهم سماع حديث، ولا نظر في سير السلف»[٢].

٣ ـ إنّ النظر في سير السلف رحمهم الله، واقتفاء آثارهم من أعظم ما تداوى به القلوب، وتقوّم به الأخلاق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

٤ ـ النظر في أخبار السلف، ومحاكاتهم في جدّهم واجتهادهم، يعتبر من أعظم أساليب الوعظ والتذكير، كما سيأتي بيانه.

٥ ـ الوعظ بالسيرة الحسنة، من أبلغ أساليب الوعظ وأكثرها تأثيراً في الناس؛ لأنّ القرين بالمقارن يقتدي، ومن أجل ذلك جعل الله تعالى في نبيه ﷺ القدوة الحسنة لجميع الناس[٣]، كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ[٤].

• ومن خلال ما سبق نخلص إلى أنّ القدوة الصالحة هي مثال منتصب تسعى النفوس إلى محاكاته ومشاكلته ومجاراته، ولا يصلح لهذا الانتصاب إلّا من جمع أصول القدوة ـ التي اجتمعت في السلف في أكمل

---

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ٢/٩٤٧، رقم (١٨١٠). **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) صيد الخاطر، ص٣٦٨.

(٣) منطلقات الدعوة ووسائل نشرها، لحمد حسن قريط، ص٩٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٦٢٦.

وجوهها ـ وهي: الصلاح، وحسن الخلق، وموافقة القول للفعل.

فإذا اجتمعت هذه الأصول في المقتدى به عظم الانتفاع بسمته ودلّه، وكانت سيرته أسلوباً فعالاً في حث همم الناس ووعظهم.



المطلب الثاني

العظة في التذكير بسيرة السلف الصالح

*** أوّلاً: أهمية التذكير بسيرة السلف رحمهم الله في مجال الوعظ:**

إنّ التذكير بسير السلف رحمهم الله يعدّ من أعظم أساليب الوعظ.

ويتّضح ذلك من خلال ما يلي:

١ ـ لقد جاءت العظة بسير الصالحين من الأنبياء والصدّقين، في مواضع كثيرة من كتاب الله.

فالقرآن الكريم حين يعرض سير هؤلاء، فإنّه يقدّم نموذجاً يحتذى به، ولذلك أمر الله ﷻ عباده بالاقتداء بهم، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وكذا الشأن في السنّة النبوية، فقد ضرب الرسول ﷺ العديد من مواقف القدوة للمؤمنين الصادقين، وأولياء الله المتقين، واستخدم هذا الأسلوب في وعظ أصحابه.

ومن شواهد ذلك:

عن خباب بن الأرث رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف**

إلا الله ـ زاد بيان ـ والذئب على غنمه»[١].

وكذا قصّ عليهم خبر أصحاب الأخدود الذي جاء مجملاً في سورة البروج، ونحوها من المواقف.

٢ ـ إنّ النظر في سير الصالحين، والتأمّل في أخبارهم، تكسب المرء الصلاح والتقوى، وترقى بالعبد إلى مدارج الكمال، وتُعدُّ سياجاً واقياً من آفات النفس ومكائد الشيطان.

يقول الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ في سماع أخبار الأخيار مقوياً للعزائم، ومعيناً على اتباع تلك الآثار، وقال بعض العارفين: الحكايات جند من جنود الله، تقوى بها قلوب المؤمنين، ثم تلا قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]»[٢].

ويقول الإمام الصفدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ النفس تستروح إلى مطالعة أخبار من تقدّم، والمطّلع على أخبار من درج... يعود كأنّه عاصر أولئك، وجلس معهم.. فأفاد حزماً وعزماً، وموعظة وعلماً، وهمّة تُذهب هماً، وبياناً يزيل وهناً ووهماً»[٣].

٣ ـ إنّ التذكير بسير السلف الصالح يعطي العبد قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، إذ قد يشتبه على البعض ـ عند ذكر سمت الأنبياء وهديهم ـ استحالة مجاراتهم في هديهم ودلّهم.

٤ ـ إنّ النظر في سير السلف الصالح، يؤدي إلى يقظة القلب وطرد الغفلة، وانشراح الصدر.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **«قيل: يا رسول الله: أيّ جلسائنا**

---

(١) رواه البخاري ٣/١٣٩٨، كتاب: المناقب، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين في مكة، رقم (٣٥٦٣).
(٢) «سيرة عبد الملك بن عبد العزيز»، لابن رجب، ص٢٧.
(٣) «الوافي بالوفيات» للصفدي ١/٣.

خير؟ قال: من ذكّركم اللهَ رؤيتُه، وزاد في علمكم منطقه، وذكّركم في الآخرة علمه»[١].

ولهذا حرص السلف رحمهم الله على مجالسة الصالحين، والأنس بمطالعة أخبارهم.

- فعن نعيم بن حماد قال: «كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!»[٢].

- وعن خلف بن هشام قال: «كان محمد بن سيرين، قد أعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً، فكان الناس إذا رأوه ذكروا الله»[٣].

- وعن جعفر قال: «كنت إذا رأيت من قلبي قسوة، نظرت إلى وجه محمد بن واسع وكان وجهه كأنه وجه ثكلى»[٤].

٥ - «إنّ مجالسة الصالحين، والنظر في أخبارهم لها تأثير كبير في الاقتداء بأفعالهم، والاستفادة من أقوالهم، والتأثر بسمتهم ووقارهم، ممّا يدفع النفس إلى محاكاتهم والتأسي بهم.

بحيث لا يرضى العبد لنفسه أن يقصر عنهم، أو أن يكون في الخير دونهم، فيصيرون سبباً لسعادته، وباعثاً على استزادته»[٥].

* ثانياً: ضوابط التذكير بسير السلف الصالح:

إنّ التذكير بسيرة السلف الصالح، ينبغي أن يضبط بجملة من الضوابط.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء»، ص١٧؛ والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٥٧؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٩): «رواه أبو يعلى، وفيه مبارك بن حسان وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ١٣٦، ولم يذكر له إسناداً.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء»، ص١٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٢٨٨. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) «أدب الدنيا والدين» للماوردي، ص١١٢.

ومن أبرز هذه الضوابط ما يلي:

١ ـ ينبغي للواعظ أن يتحرّى نقل الصحيح من أخبار الأخيار والصالحين من سلف هذه الأمة، ويبتعد عن القصص الواهية، لا سيما إذا كانت منافية لأصول الشريعة ومقاصدها؛ لأنّ النفوس قد تفتن بهذه القصص، وتتّخذ منها أسوة في سلوك سبل الردى.

٢ ـ إنّ السلف رحمهم الله مهما علت رتبتهم، وسمت هممهم، إلّا أنهم عرضة للخطأ والزلل، فيحذر الواعظ من نقل هفواتهم؛ لأنّ ذلك قد يكون دافعاً للبعض إلى التجرؤ على المعاصي والآثام.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «فليحذر القاص حكايات أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات، يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات، متداركة بحسنات تغطي عليها، فإنّ العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته، ويمهِّد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدرى»[1].

٣ ـ ينبغي للواعظ أن يحرص على تقديم النماذج المضيئة من السلف الصالح، ممن اجتمع فيهم أصول القدوة التي سبق بيانها، وهي: الصلاح، وحسن الخلق، وموافقة القول للعمل.

وقد حفلت ولله الحمد كثير من كتب التراجم بذكر سير هؤلاء الأئمة الأعلام، وفي ذلك مندوحة عن ذكر أخبار من دونهم في العلم والفضل، خصوصاً من عرف ببدعة، أو تساهل وإخلال بأوامر الله عز وجل.

*** ثالثاً: نماذج من المواعظ المشتملة على التذكير بسير السلف الصالح:**

حفلت مواعظ السلف رحمهم الله بذكر أخبار الصالحين والأبرار من

---

(١) «إحياء علوم الدين» ١/ ٣٥.

هذه الأمة، ويظهر ذلك من خلال نقل أحوالهم ورواية أخبارهم، إذ المقصود بذلك الاتعاظ بهديهم وسمتهم.

ـ عن محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت الثوري رحمه الله يقول: «جلست ذات يوم أحدِّث، ومعنا سعيد بن السائب الطائفي، فجعل سعيد يبكي حتى رحمته، فقلت: يا سعيد ما يبكيك؟ وأنت تسمعني أذكر أهل الخير وفعالهم، فقال: يا سفيان وما يمنعني من البكاء إذا ذكرت مناقب أهل الخير، وكنت عنهم بمعزل، قال: يقول سفيان: حق له أن يبكي رحمه الله»[1].

ومن شواهد أحوال السلف التي خرجت مخرج الوعظ والتذكير، ما يلي:

١ ـ تقوى السلف رحمهم الله وشدّة خوفهم من الله:

عن عبد الله بن عيسى قال: «كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء، وكان يمرّ بالآية في دوره فتخنقه العبرة، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً»[2].

وعن محمد بن المنكدر أنه بينما هو ذات ليلة قائم يصلي، إذ استبكى وكثر بكاؤه حتى فزع أهله وسألوه ما الذي أبكاه فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، قال: يا أخي ما الذي أبكاك، قد رعت أهلك، أفمن علة، أم ما بك؟ قال: فقال إنه مرت بي آية في كتاب الله عز وجل، قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] قال فبكى أبو حازم أيضاً معه، واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرج عنه فزدته»[3].

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٢/ ٢٨٣. **قلت**: ولم يذكر له إسناداً.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٥١. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ١٤٦. **قلت**: وإسناده حسن.

٢ ـ زهدهم وورعهم:

كان السلف رحمهم الله مضرب المثل في الزهد، والتجافي عن الدنيا الفانية، والأخبار عنهم في ذلك كثيرة جداً، أفردت في مصنفات مستقلة، ومن نماذج ذلك:

عن عروة بن الزبير قال: «لما قدم عمر الشام، فتلقاه عظماء أهل الأرض، وأمراء الأجناد فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: أتاك الآن، فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه، ثم ساءله، ثم قال للناس: انصرفوا عنا، قال: فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه فلم ير في بيته إلا سيفه وقوسه ورحله، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً أو قال شيئاً، قال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل»[(١)].

٣ ـ إنفاقهم في سبيل الله:

عن سعيد بن عبد العزيز قال: «كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه ماله، فكان يقسمه كل ليلة، ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء»[(٢)].

وعن نافع قال: «كان ابن عمر لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله ﷻ، وكان ربما تصدّق في المجلس بثلاثين ألفاً»[(٣)].

• والخلاصة أنّ التذكير بالقدوة الصالحة مقتصر على ما صحّ من أخبار الصفوة المختارة، مع تحاشي نقل هفواتهم وزلاتهم.



(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد»، ص١٨٥؛ وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٦٥؛ والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٣٧٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٩٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٩٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

المبحث السادس

الوعظ عن طريق عرض السؤال

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الوعظ بعرض السؤال وأهميته.

المطلب الثاني: أقسام الوعظ بعرض السؤال وآدابه.

المطلب الأول

مفهوم الوعظ بعرض السؤال وأهميته

* أوّلاً: مفهوم الوعظ بعرض السؤال:

إنّ السؤال عبارة عن جملة من الاستفهامات الموجهة توجيهاً صحيحاً، قصد الاطلاع على مجهول، أو التأكيد على معلوم.

مضبوطة بحدود الأدب، ولا تجر السائل إلى متاهات أو تدخلات لا تعنيه[1].

ومن هنا يمكن أن يحدد مفهوم الوعظ بطرح السؤال، فيقال:

«هو الاستفهام الذي يوجهه الواعظ للموعوظين حول أمر معين؛ قصد ترسيخ بعض الحقائق في نفوسهم، أو إيضاح بعض المفاهيم الغامضة، أو تحذيرهم من بعض الأمور المضرّة بهم، أو تعليمهم ما ينفعهم، أو تذكيرهم بما يُصلحهم.

أو استثمار الواعظ أسئلة الموعوظين لتوجيههم، ونصحهم، وتذكيرهم».

فالسؤال يعتبر مفتاحاً ومدخلاً يستخدمه الواعظ؛ قصد شدّ انتباه الموعوظ، وتهيئته لاستيعاب الموعظة، وتقبّلها.

* ثانياً: أهمية السؤال في مجال الوعظ:

للسؤال أهمية بالغة في مجال التربية والتعليم، والوعظ والتذكير، وقد كان السؤال وما زال من أفضل الطرق التربوية، وأنجع السبل التقويمية،

(١) انظر: «أساسيات في طرق التدريس العامة»؛ د. محب الدين أبو صالح، ص٨٤.

وأحسنها أثراً، وأعظمها نفعاً[١].

وفيما يلي بيان لأهمية السؤال بالنسبة للواعظ والموعوظ:

١ ـ أهمية السؤال بالنسبة للواعظ:

• إنّ الوعظ عن طريق الحوار والسؤال والمناقشة يتيح للداعية آفاقاً كبيرة، ومنافذ كثيرة، وأبواباً واسعة، في مجال النصح والتربية والتعليم.

• كما أن السؤال يكشف للواعظ نواحي اهتمام الموعوظين وقدراتهم، ومواطن قصورهم وغفلتهم، ومن ثمّ يحرص على تركيز وعظه، من خلال ما يراه من ذلك[٢].

• والسؤال أيضاً يكسب الواعظ يقظة وثقة بالنفس، وحضور البديهة، واستعداداً لحل أي مشكلة ـ تعرض أثناء الموعظة، أو الدرس ـ، حلاً سريعاً وموفقاً[٣].

• والسؤال يقويّ ملكة الواعظ، ويعدّ من أفضل طرائق التعلم الفاعلة، والتي ترافق الفرد في جميع مراحل حياته[٤].

قال الخليل[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لم تعلِّم الناس ثواباً، فعلِّمهم لتدرس بتعليمك علمك، ولا تجزع من تقريع السؤال فإنّه ينبهك على علم ما لم تعلم»[٦].

٢ ـ أهمية السؤال بالنسبة للموعوظ:

• يعدّ السؤال من أكبر المحفزات لتلقي الموعظة، واستماعها، إذ إنه

---

(١) **انظر**: «المعلم والمناهج وطرق التدريس»؛ د. محمد عبد العليم مرسي، ص١٩١.

(٢) **انظر**: «فن التدريس للتربية اللغوية»، لمحمد صالح سمك، ص٩٣٣.

(٣) «الرسول العربي المربي»، د. عبد الحميد الهاشمي، ص٤٦٢.

(٤) «الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية»، عبد العليم إبراهيم، ص٤٢٨.

(٥) الخليل بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمٰن البصري، منشئ علم العروض، أحد الأعلام، وكان رأساً في لسان العرب، ديناً ورعاً قانعاً متواضعاً كبير الشأن، مفرط الذكاء، توفي سنة: ١٧٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/٤٢٩.

(٦) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/١٠٧، ولم يذكر له إسناداً.

يطرد الملل من نفوس الموعوظين، ويثير فضولهم، ويجدّد نشاطهم، كما يحفزهم السؤال لإخراج كوامن نفوسهم، أو ما يعانونه من ضيق وحرج[١].

• تؤدي طريقة الأسئلة والمناقشة إلى ثبات المعلومات واستمرارها لدى الموعوظين حيث يلاحظ أن المعلومات التي يصل إليها الموعوظ بجهده عن طريق السؤال، تتصف بالثبات والاستمرار فترة أطول، من المعلومات التي تصله عن طريق التلقي، ولا يبذل جهداً في معرفتها والتوصل إليها[٢].

• يؤدي السؤال إلى تركيز انتباه الموعوظين وإثارة اهتمامهم، نحو الحقائق التي يراد الوصول إليها، فالأسئلة تثير مزيداً من الانتباه والنشاط والحيوية، ولا سيما إذا كان الموضوع مما يتصل بميولهم وحاجاتهم ومشكلاتهم[٣].

• يساهم السؤال الذي يكون بين يدي الموعظة، في تثبيت الموعظة، وقوة تأثيرها في قلوب الموعوظين[٤].

• إنّ في الوعظ عن طريق الحوار والمناقشة إطلاقٌ لبعض الألسنة الجامدة لتنطق وتبدي عما يدور بداخلها، فالحوار يبرز المكنون، ويظهر المستور، ويكشف خلجات الصدور، وما خفي من القلوب، وهو يفتح العقول، ويطلقها من إسارها، ويوسع مدارك الفهم فيها.

• والحوار في الموعظة فيه تحريك للذكاء، وإسقاء للمواعظ في قالب الإقناع والمحاجة، وإيقاظاً للهمم، ودعوة للتفكير وتقليب النظر والعقل، للبحث فيما يعرض من كلام، لجعل المدعو بقطف الثمار والنتائج بنفسه، ليعمل بها وهو موقن.

---

(١) **انظر**: «فن التدريس للتربية اللغوية»، ص٩٣٣.

(٢) **انظر**: «أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية»؛ د. عبد الحميد الصيد الزنتاني، ص٢٠٦.

(٣) **انظر**: «الرسول العربي المربي»، ص٤٥٢.

(٤) «عون المعبود» ٥/ ٣٠١.

ومن نماذج ذلك:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: **«إنّ فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»**[١].

٣ ـ اهتمام السلف رحمهم الله بالسؤال في مجال التعليم والوعظ:

إنّ أسلوب طرح السؤال كان معروفاً وشائعاً لدى الصحابة والتابعين، ولأهميته في التعلم والتعليم، والوعظ والتذكير، فقد عدّه بعض العلماء مفاتيح العلم، كما عدّه بعضهم نصف العلم.

قال ابن شهاب الزهري رحمه الله: «إنّ هذا العلم خزائن تفتحها المسألة»[٢].

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «حسن المساءلة نصف العلم، وبالرفق يصف العيش»[٣].

ـ ومن أوائل من طبق هذا الأسلوب علي بن أبي طالب رضي الله عنه والذي

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٦/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦، رقم (٢٢٢١١ ـ ٢٢٢١٢)؛ والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٦٢، رقم (٧٦٧٩)؛ وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على المسند ٣٦/ ٥٤٦.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٣٦٣ **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ١٠٨، ولم يذكر له إسناداً.

أثر عنه قوله: «العلم خزائن، ومفتاحه السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلم، والمستمع، والمحب لهم»(١).

كما اشتهر بهذا الأسلوب: عبد الله بن عباس والحسن البصري، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وعكرمة رحمهم الله(٢).

وخلصت آراؤهم إلى أن الواعظ إذا لم يتح للموعوظين أن يسألوه ويسألهم، ينقص علمه، ويتوقف نموه، وينتهي بهم جميعاً إلى ركود في التفكير، ومن هنا اهتموا بصياغة السؤال وحسن طرحه، وقرروا أن ذلك نصف العلم(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الناس من يحرم العلم لعدم حسن سؤاله، إما أنه لا يسأل بحال، أو يسأل عن شيء وغيره أهم منه»(٤).

٤ ـ السؤال يعتبر من أعظم الأساليب التربوية، والتقويمية، التي تقوّم بها الأخلاق والسلوك، ويشهد لذلك:

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»(٥).

فانظر إلى سيد الخلق ﷺ كيف استخدم أسلوب الاستفهام، وجعل منه أسلوباً تربوياً، فقد كان استفساره ﷺ سبباً في معرفة ما يدور في أذهان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تساؤلات حول قضية «الغيبة»، وبالتالي استطاع ﷺ تقديم العون والنصح لهم في هذا الشأن من خلال توضيح رأي الشرع فيه.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية، مرفوعاً ٣/ ١٩٢. **قلت**: ولا يصح.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٠٩. (٣) المصدر السابق.
(٤) «العلم فضله وشرفه»، لابن قيم الجوزية، ص٢٣٠.
(٥) رواه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، رقم (٤٦٩٠).

٥ ـ السؤال شفاء العيِّ:

كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أنّ رجلاً أصابه جرح في عهد رسول الله ﷺ ثم أصابه احتلام، فأمر بالاغتسال فمات، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «قتلوه قتلهم الله ألم يكن شفاء العي السؤال**»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل العيَّ وهو عيُّ القلب عن العلم، واللسان عن النطق به، مرضاً وشفاؤه سؤال العلماء، فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأنّ غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما»[٢].

• وعليه فإنّ السؤال يكتسي أهمية بالغة بالنسبة للواعظ والموعوظ على حدّ سواء، فعن طريقه تستثار الأذهان، وتوضّح المعاني، ويزال الالتباس، ولهذا كثر مجيؤه في مواعظ السلف رحمهم الله.



(١) رواه أبو داود ١/ ١٤٥، كتاب: الطهارة، باب: في المجروح يتيمم، رقم (٢٨٤)؛ وابن ماجه ١/ ١٨٩، كتاب: الطهارة وسننها، باب: في المجروح تصيبه جنابة فيخاف على نفسه، رقم (٥٦٥)؛ وأحمد ٥/ ١٧٣، رقم (٣٠٥٦)، واللفظ له؛ وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ٩٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١١١.

المطلب الثاني

أقسام الوعظ بعرض السؤال وآدابه

يتنوّع الوعظ بعرض السؤال، وتتعدّد أقسامه، باعتبار السائل، أو باعتبار مضمون السؤال ومجالاته.

ولهذا فإنّ أقسام الوعظ بطرح السؤال، ينظر إليها باعتبارين:

أ ـ أقسام الوعظ بعرض السؤال باعتبار السائل:

إنّ السائل يُعَدُّ أحد أركان السؤال[1]، فهو المخوّل إليه توجيه السؤال، بحسب ما يقتضيه الحال، ولهذا فإنّ السائل في مجال الوعظ يتنوّع إلى ثلاثة أنواع:

*** النوع الأوّل: الواعظ:**

إنّ طرح السؤال يعتبر من أنجع السبل والأساليب لتوجيه الموعوظين، وتعليمهم، وتأديبهم.

فينبغي للواعظ أن يستثمر هذه الأداة الفاعلة، من أجل إثارة نفوس الموعوظين، وتشويقهم، لتلقي الموعظة.

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الحوار والسؤال كوسيلة فاعلة ومؤثرة في تعليم أصحابه أمور دينهم، وركائز عقيدتهم، وفي وعظهم وتذكيرهم، وتوضيح كثير من الأمور الدينية والدنيوية التي تهمهم، ومن أمثلة ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إنّ المفلس من أمتي:**

---

(١) أركان السؤال أربعة: السائل، والمسؤول، وصيغة السؤال، ومضمون السؤال. **انظر**: «فن التدريس للتربية اللغوية»، لمحمد صالح سمك، ص٩٣٣.

يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار»(١).

فقوله: (أتدرون؟) أي: أتعلمون، وهذا سؤال إرشاد لا استعلام(٢)، أراد به توجيه أصحابه وترهيبهم من ظلم الناس بجميع أنواعه، وكان لافتتاحه الموعظة بالسؤال أعظم الأثر في تقبل أصحابه رضوان الله عليهم لهذه الموعظة البليغة.

كما استخدم الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله هذا الأسلوب الناجع في وعظ الناس وتذكيرهم، كما سيأتي بيانه(٣).

ـ وهنا ينبغي التنبيه على جملة من الآداب التي ينبغي أن يراعيها الواعظ عند توجيه السؤال للموعوظين:

- إنّ الوعظ بطرح السؤال يليق إذا صدر من كبير لمن دونه، أو ممن له مكانة، وقبول عند الناس عموماً، أو عند من يلقي عليهم موعظته.

أما من كان في بداية وعظه، أو حداثة سنّه، أو من ليست له مكانة عند من يلقي عليهم ـ فقد لا يليق به هذا الأسلوب؛ لأنّ النفوس قد لا تستسيغ أن يوجه إليها السؤال من كلّ أحد.

- يجب على الواعظ ألّا يوجّه أكثر من سؤال في وقت واحد؛ لأن التجارب دلت على أن توجيه سؤالين أو ثلاثة في وقت واحد، من شأنه إرباك الطرف الثاني الذي لا يكون قادراً على أن ينظم بياناته وأجوبته بالشكل الذي توخته الأسئلة أصلاً.

- ينبغي أن تكون صيغة السؤال محددة، ومختصرة ليسهل استيعابها.

---

(١) رواه مسلم ٤/١٩٩٧، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: صلة الأرحام، رقم (٤٦١٨).

(٢) تحفة الأحوذي ٧/٨٦.

(٣) انظر: ص٤٠٤.

• كما ينبغي توفير عنصر الوضوح في السؤال والإثارة.

• وعلى الواعظ أن يبتعد عن الأسئلة التي تحمل في طياتها التشكيك والاتهام.

• انتقاء الأسئلة ذات الفائدة العلمية والتربوية.

• وينبغي للواعظ أن يحسن الأدب مع الموعوظ، فلا يتهكم من سوء جوابه، بل يكون رحيماً به، مشفقاً عليه[١].

* النوع الثاني: الموعوظ:

السؤال في مجال الوعظ والتعليم، ليس حكراً على الواعظ فقط، بل إنّ للموعوظ نصيب وحظ وافر منه، فينبغي للواعظ أن يستثمر أسئلة الموعوظين كي يبثّ من خلالها نصائحه، ومواعظه، وهذا النوع له أثر بالغ في نفوس الموعوظين لكونه مبنياً على رغبتهم، فهم أكثر استعداد لاستماع ما يلقى عليهم حينها.

وكان ﷺ حريصاً على أن يكون أصحابه هم البادئون بالسؤال في بعض الأحيان:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أنّ رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر أنّ فيها أموراً عظاماً، ثم قال: من أحبّ أن يسأل عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلّا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا، فأكثر الناس في البكاء وأكثر أن يقول: سلوني**»[٢].

وكانت طريقة السؤال تروق أصحاب النبي ﷺ.

---

(١) **انظر**: «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»، لبدر الدين بن جماعة، ص١٠١؛ و«العلم فضله وشرفه» لابن قيم الجوزية، ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٢٠٠، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: وقت الظهر عند الزوال، رقم (٥٠٧)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٨٣٢، كتاب: الفضائل، باب: توقيره وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، رقم (٤٣٥٣).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع...»[١].

وكان السلف رحمهم الله يحثون عموم الموعوظين على طرح الأسئلة، ويستثمرون أسئلتهم، لأجل وعظهم نصحهم، ويرون ذلك من تمام النصح والإرشاد[٢].

قيل لجعفر الصادق رحمه الله: «ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لم تعرفونه فلو عرفتموه حق معرفته لاستجاب لكم»[٣].

ـ وينبغي للموعوظ أن يلتزم بجملة من الآداب أثناء سؤاله للواعظ، منها:

● **التلطف في السؤال:**

ومن آداب المتعلم التلطف والتواضع والاستئذان عند سؤال العالم والواعظ، وقد كان نبي الله موسى عليه السلام في غاية التلطف عند سؤال الخضر في اتباعه والتعلم منه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: «في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في حسن الأدب؛ لأنه استأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم»[٤].

وفي الآداب التي اشتملتها الآية يقول الإمام الرازي رحمه الله:

«اعلم أن هذه تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر، فأحدها: أنه جعل نفسه تابعاً له

---

(١) رواه مسلم ١/ ٤١، كتاب: الإيمان، باب: السؤال عن أركان الإسلام، رقم (١٣).
(٢) **انظر**: «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ١٠٨.
(٣) ذكره السيوطي في «فضل الدعاء»، ص٢٦.
(٤) فتح القدير ٣/ ٢٩٩.

لأنه قال ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، فإنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع»[(١)].

وقال الإمام ابن القيم: «كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف لابن عباس في السؤال، فيعزه بالعلم عزاً»[(٢)].

- **السؤال عن العلم النافع:**

والعلم النافع هو العلم الذي يهدي إلى الحق والخير والصواب والهدى، «فكل علم يكون فيه علم وهداية لطريق الخير، وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضاراً أو ليس فيه فائدة»[(٣)].

فينبغي للمتعلم ألا يسأل عمّا لا فائدة عملية أو مصلحة حقيقية ترجى من ورائه؛ لأن ذلك لا يعود عليه بفائدة في دينه أو دنياه، وقد ذكر القرآن أنواعاً من الأسئلة بعضها عن المشركين، مثل: السؤال عن الساعة، وبعضها عن اليهود مثل: السؤال عن الروح، وهي أسئلة لا ثمرة لها، لذلك كان الجواب أن ذلك من أمر الله ولا يعلمه سواه.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

- **الابتعاد عن الأسئلة التعجيزية:**

التي يراد منها إظهار عدم قدرة المعلم والواعظ، على الإحاطة والإلمام بضروب المعرفة.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «السؤال اليوم لا يخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله، فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن

---

(١) تفسير الرازي ١١/ ١٥٢. (٢) العلم فضله وشرفه، ص٢٣٠.
(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، لعبد الرحمٰن السعدي ٥/ ٣٤.

نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به فشفاء العيِّ السؤال، ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره»(١).

ولهذا نهى السلف رحمهم الله عن شذاذ المسائل وصعابها، ورأوا أن ذلك من عيوب السائل.

قال الحسن البصري رحمه الله: «شرارُ عباد الله ينتقون شرار المسائل يعمون بها عباد الله»(٢).

*** النوع الثالث ـ من أنواع السؤّال ـ: سؤال النفس ومحاسبتها:**

وهو حوار داخلي مع النفس بمحاسبتها وحملها على الحق، ويكون بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة حتى يصل الإنسان للاطمئنان.

ومحاسبة النفس تعدّ من أعظم طرائق إصلاحها وتقويمها، وردّها عن غيها، وهي من سبل التزكية المشروعة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «هذه الآية تدلّ على وجوب محاسبة النفس»(٣).

وقد وردت آثار كثيرة عن السلف الصالح رحمهم الله في وجوب محاسبة النفس، ومن ذلك:

قول الحسن البصري رحمه الله: «لا تلقى المؤمن إلّا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشريتي؟ والعاجز يمضي قُدُماً لا يعاتب نفسه»(٤).

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٢١/ ٢٩٢.

(٢) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٧٧؛ وابن رجب في جامع العلوم والحكم، ص٩٣.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٦٤.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس»، ص٣١. **قلت**: وإسناده حسن.

وقوله أيضاً: «إنّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»[١].

وقال مالك بن دينار[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها[٣]، ثمّ ألزمها كتاب الله فكان لها قائداً»[٤].

ب ـ أقسام الوعظ بعرض السؤال باعتبار مجالاته:

مجالات الوعظ بطرح السؤال كثيرة ومتنوّعة، من أبرزها:

١ ـ لفت أنظار المسلمين:

إلى بعض الأفعال التي يؤدي الوقوع فيها إلى سوء العاقبة والتي لا ينفع معها القيام بأعمال صالحة، كقوله ﷺ: **«أتدرون ما المفلس؟....»**[٥].

وعن محمد بن سلام قال: سمعت الربيع بن عبد الرحمٰن[٦] يقول في كلامه: «قطعتنا غفلة الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى لا ننتبه من رقدة إلّا أعقبتنا في أثرها غفلة.

فيا إخوتاه نشدتكم بالله، هل تعلمون مؤمناً بالله أغر ولنقمه أقل حذراً؟ من قوم هجمت بهم الغير على مصارع النادمين فطاشت عقولهم وضلت حلومهم عندما رأوا من العبر والأمثال ثم رجعوا من ذلك إلى غير

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٣٨٩؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/١٤٦. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) مالك بن دينار البصري، من سادات التابعين، إمام في العلم والعمل، توفي سنة: ١٣٠هـ؛ تقريب التهذيب، ص٤٥٠.

(٣) الخطام هو: الحبل الذي يقاد به البعير، والمراد: أنّه أمسكها بقيادها لوم يدع هواها يسيطر عليه.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس»، ص٣٤، وإسناده حسن.

(٥) تقدّم تخريجه، ص٣٩٩.

(٦) **هو**: ربيع بن عبد الرحمٰن السلمي البصري، ويعرف بالربيع بن وبرة؛ «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ٣/ ٤٦٧.

عقله ولا نقله، فبالله يا إخوتاه هل رأيتم عاقلاً رضي من حاله لنفسه بمثل هذه حالاً؟ والله عباد الله لتبلغن من طاعة الله تعالى رضاه، أو لتنكرن ما تعرفون من حسن بلائه وتواتر نعمائه، إن تحسن أيها المرء يحسن إليك، وإن تسئ فعلى نفسك بالعتب فارجع، فقد بيّن وحذر وأنذر، فما للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً»[1].

٢ ـ التنبيه على بعض المفاهيم والحقائق الأساسية:

كحقيقة الإيمان، والتوكّل على الله تعالى، وحقيقة الصبر والاحتساب، ونحو ذلك، ومن نماذج ذلك:

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان لأبي طلحة ابن من أم سليم فمات، فقالت لأهلها: لا تخبروا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاءه وشرابه فأكل وشرب، قال: ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع له قبل ذلك، فلما شبع وروي وقع بها، فلما عرفت أنه قد شبع وروى وقضى حاجته منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن أهل بيت أعاروا عاريتهم أهل بيت آخرين فطلبوا عاريتهم ألهم أن يحبسوا عاريتهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك....»[2].

٣ ـ تصحيح مفاهيم وسلوكيات خاطئة قد تصدر من الموعوظين:

ومن نماذج ذلك:

يذكر أنّ امرأة جميلة كانت بمكة وكان لها زوج، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن به، قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك، قال فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٢٩٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي طلحة الأنصاري، رقم (٤٤٩٦).

فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك.

قال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتني، نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلّا صدقتك.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو دخلت قبرك وأجلست للمسألة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال؟: صدقت.

قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمسألة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا قال صدقت.

قال: اتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك.

قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال، ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروساً فصيرها راهبة»[١].

٤ ـ التنبيه على حسن صنيع الله تعالى بالعبد وجليل نعمائه، وواسع عطائه:

ومن نماذج ذلك:

عن عبد الله بن أبي نوح قال: «قال رجل لي في بعض السواحل: كم

---

(١) ذكره ابن القيم في «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، ص٣٤٠، ولم يذكر له إسناداً.

عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصي ذلك كثرة، قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إلي، وأعانني، قال: فهل سألته شيئاً قط فما أعطاك؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلّا أعانني، قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء، قال: فربك تعالى أحق وأحرى أن تدأب نفسك في أداء شكر نعمه عليك وهو قديماً وحديثاً يحسن إليك والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي بالحمد من العباد شكراً»(١).

٥ ـ التنبيه على أسباب الخذلان وتخلف توفيق الله تعالى عن العبد:

قال شقيق بن إبراهيم: «مرَّ إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة، فاجتمع الناس إليه فقالوا له: يا أبا إسحاق إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا؟ قال: فقال إبراهيم: يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء:

أولها: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، والثاني: قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، والثالث: ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته، والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه، والخامس: قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، والسادس: قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها، والسابع: قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، والثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم، والتاسع: أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، والعاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم»(٢).

٦ ـ تحويل المعنى من أمر الدنيا إلى أمر الآخرة:

ومثال ذلك قوله ﷺ ـ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: **«ما تعدون**

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٢٩٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٥. **قلت**: وإسناده حسن.

الرقوب فيكم؟ قال: قلنا الذي لا يولد له، قال: ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً، قال: فما تعدون الصرعة فيكم؟ قال: قلنا الذي لا يصرعه الرجال، قال: ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»(١).

ومنه أيضاً حديث المفلس المتقدِّم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لكن في هذه الأحاديث المقصود بيان ما هو أحق بأسماء المدح والذم مما يظنون، فإنّ الإفلاس حاجة وذلك مكروه، فبيّن أن حقيقة الحاجة إنما تكون يوم القيامة، وكذلك عدم الولد تكرهه النفوس لعدم الولد النافع، فبيّن أن الانتفاع بالولد حقيقة إنما يكون في الآخرة لمن قدم أولاده بين يديه، وكذلك الشدّة والقوة محبوبة فبيّن أنّ قوة النفوس أحقُّ بالمدح من قوة البدن، وهو أن يملك نفسه عند الغضب»(٢).

وجاء في عون المعبود: « فنقل النبي ﷺ ـ هذه الألفاظ ـ عن أمر الدنيا إلى أمر الآخرة، وحوَّلها عن باب الطبيعة إلى باب الشريعة، وهذا كقوله حين سئل عن الرقوب فقال: هو الذي لم يمت له ولد، ومعلوم أن الرقوب في كلام العرب هو الذي لا يعيش له ولد، وكقوله: ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: هو الذي يغلب الرجال، فقال: بل هو الذي يملك نفسه عند الغضب، وكقوله: من تعدون المفلس فيكم؟. . . .

وكل هذا إنما هو على معنى ضرب المثل، وتحويله عن أمر الدنيا إلى معنى أمر الآخرة»(٣).

ومن نماذج مواعظ السلف الصالح رحمهم الله في ذلك:

ـ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعظ أخاً له: «إنّ الذي يعيش من أيدي

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٠١٤، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم (٤٧٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٨٠.

(٣) عون المعبود ١٠/ ٢٥٤.

الناس كالذي يغرس شجرة في أرض غيره، فاتق الله يا أخي، فإنه ما نال أحد من الناس شيئاً إلّا صار حقيراً ذليلاً عند الناس، والمؤمنون شهود الله في الأرض، وإياك أن تكسب خبيثاً فتنفقه في طاعة الله، فإن تركه فريضة من الله واجبة، وإنه طيب لا يقبل إلا طيباً، أرأيت رجلاً أصاب ثوبه بول، ثم أراد أن يطهره فغسله ببول آخر أترى كان ذلك؟»[1].

ـ وعن سفيان الثوري قال: «قام أبو ذر الغفاري عند الكعبة فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري هلمّوا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم، قالوا: ما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حرّه لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدَّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث: يضرك ولا ينفعك لا تريده، اجعل المال درهمين درهماً تنفقه على عيالك من حلِّه، ودرهماً تقدِّمه لآخرتك، والثالث: يضرك ولا ينفعك لا تريده، ثم نادى بأعلى صوته: يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبداً»[2].



(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٧١. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٦٥. **قلت**: وإسناده حسن.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الثالث

وسائل الوعظ عند السلف

ويتضمّن تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد: مفهوم وسائل الوعظ وضوابطها.

المبحث الأول: الخطب ومجالس الذكر.

المبحث الثاني: القَصَص.

المبحث الثالث: التأليف.

المبحث الرابع: الشعر.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهيد

* أوّلاً: مفهوم وسائل الوعظ:

١ ـ تعريف الوسائل لغة:

الوسائل: جمع وسيلة، على وزن فعيلة، وقد تجيء الفعيلة بمعنى الآلة[(١)].

وهي مشتقّة من: وسَلَ يَسِلُ وَسْلاً ووَسِيلَة، وتجمع على: وَسِيْل، ووَسَائِل[(٢)].

ـ ومن معاني الوسيلة في لغة العرب:

• الرَّغبةُ والطلب: يقال وَسَلَ، إذا رغِب؛ والواسِل: الراغب إلى الله ﷻ[(٣)]، قال الراغب الأصفهاني: «الوسيلةُ: التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخصُّ من الوصيلة؛ لتضمّنها لمعنى الرغبة»[(٤)].

• الْمَنْزِلَة، والدَّرَجة، والقُرْبة؛ قال ابن منظور: «الوسيلةُ: الْمَنْزِلَة عند الْمَلِك، والوَسِيلة: الدَّرَجة، والوَسِيلة: القُرْبة، ووَسَّل فلانٌ إلى الله وسِيلةً؛ إذا عَمِل عملاً تقرَّب به إليه»[(٥)]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه»[(٦)].

---

(١) الصحاح ٥/١٨٤١، مادة: «وسل».
(٢) «الهادي إلى لغة العرب»، للكرمي ٤/٤٨٧.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١١٠، مادة: «وسل».
(٤) «مفردات القرآن»، للراغب الأصفهاني ١/ ١٥٨٠.
(٥) لسان العرب ١١/ ٧٢٤، مادة: «وسل».
(٦) رواه الطبري في تفسيره ٥/٦٦، وإسناده حسن.

• الواسطة؛ الوَسِيلَة إلى الشيء: واسطة إليه يُوصَل إليه عن طريقها؛ كالوسيلة إلى الأمير، وقد تكون الوسيلة شخصاً وسيطاً، أو عملاً يكون فيه تقرّب[١].

٢ ـ تعريف الوسائل اصطلاحاً:

مصطلح الوسائل له معنيان: أحدهما عام، والآخر خاص.

ـ أما الوسائل بالمعنى العام: فهي: «الأفعال التي يُتوصَّل بها إلى تحقيق المقاصد»[٢].

وبناء على هذا المفهوم العام؛ تدخل جميع أفعال العباد في مصطلح الوسائل؛ لأنها يُتوصَّل بها إلى تحقيق المقاصد، سواء كانت مصالح أم مفاسد[٣].

ـ أما الوسائل بالمعنى الخاص: «فهي الطرق المفضية إلى المقاصد»[٤].

ولفظ الوسائل بهذا المعنى؛ يدلّ على مدلول مبهم ـ من حيث النوع والأفراد ـ، وإنما يتميّز بإضافة اللفظ إلى المقصود منه، فيقال: «وسائل التعليم»، و«وسائل الاتصال». . . وهكذا[٥].

والذي يهمّنا في هذا معرفة المقصود بوسائل الوعظ.

٣ ـ المقصود بوسائل الوعظ:

مما سبق بيانه في تعريف الوسائل في اللغة والاصطلاح، يتّضح لنا مدلول وسائل الوعظ، فيقال: «هي مجموع الطرق الحسيّة والمعنويّة

---

(١) «الهادي إلى لغة العرب» ٤/ ٤٨٧.
(٢) «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، للجزري، ص٢٥٣.
(٣) «قواعد الوسائل»، د. مصطفى مخدوم، ص٤٨.
(٤) «الفروق»، للقرافي ٢/ ٣٣.
(٥) لفظ «الوسائل» يطلق خاصة في عصرنا على الأعيان والآلات التي تستخدم في الوصول إلى مقاصد متعدّدة، كوسائل الإعلام، ووسائل الاتصال، ونحو ذلك.

ـ الشرعية ـ، التي يستعين بها الواعظ، للوصول إلى ترقيق القلوب، وتهذيب النفوس، والترغيب في طاعة الله تعالى، والترهيب من معصيته ﷻ».

فالواعظ يتخيّر من الطرق الحسيّة والمعنوية ما يوائم حال الموعوظ، ويوصل إلى المقصود، بشرط انضواء هذه الطرق تحت لواء الشرع.

* ثانياً: الفرق بين الوسائل والأساليب:

تباينت آراء العلماء والدعاة في التفرقة بين الأساليب والوسائل، في مجال الدعوة الإسلامية:

فبعضهم يرى أنّ الأساليب والوسائل، أسماء لمسمى واحد، فهي مجموع الطرق المؤدية إلى إيصال الدعوة الإسلامية إلى عموم المدعوين.

بينما يرى البعض الآخر، أن بين الوسائل والأساليب الدعوية عموم وخصوص؛ فالوسائل الدعوية ـ في حقيقتها ـ هي أوعية للأساليب الدعوية، فهناك ترابط كبير بين الوسيلة والأسلوب.

فالخطبة مثلاً ـ باعتبارها وسيلة دعوية ـ، تحمل في طياتها أساليب دعوية عديدة كالوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب والحكمة وغير ذلك.

فحصل التداخل بينهما والتكامل، والفرق بينهما دقيق، فالوسائل تأخذ شكل الأدوات، والآلات والأوعية الحسية والمعنوية، لنقل مضمون الدعوة، فهي أداة وقناة يعبر منها المعنى إلى الناس، أما الأساليب فهي تأخذ شكل الصيغ والتعبيرات، ولذا يعبر عنها بأنها فن القول[(١)].

وهذا الرأي الأخير أقرب إلى الصواب، والله تعالى أعلم.

* ثالثاً: أقسام وسائل الوعظ:

قسّم العلماء الوسائل أقساماً متعدّدة، بحسب الاعتبارات والحيثيات، فباعتبار تأصيلها الشرعي تنقسم إلى:

---

(١) **انظر**: «ركائز الإعلام في دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام»، د. سيد ساداتي، ص١٢٤.

١ ـ وسائل أصيلة.

٢ ـ وسائل تبعية[١].

أ ـ الوسائل الأصيلة: هي كل وسيلة ثبت مشروعية العمل بها في كتاب الله، وفي سنة وسيرة الرسول ﷺ، وأجمع عليها سلف الأمة الصالح، وسلكوها في دعوتهم ووعظهم؛ كخطب الجمع، والرسائل وغيرها[٢].

ب ـ الوسائل التبعية: وهي وسائل مستحدثة طرأت مع تجدد العصور وتطور وسائل الاتصال الحديثة، ولها في نشر الدعوة تأثير ملاحظ، وشمولية أكبر، ونطاق أوسع.

والوسائل التبعية لم يرد نص في اعتبارها أو إلغائها، وقد تنازع العلماء في حكمها، تبعاً لاختلافهم في وسائل الدعوة هل هي توقيفية أم اجتهادية، كما سيأتي بيانه إن شاء الله[٣].

وهذان النوعان يشملان أنواعاً من الوسائل الأخرى منها:

وسائل الوعظ المباشرة وغير المباشرة:

أ ـ الوسائل المباشرة: وهي التي يتمّ فيها اتصال الواعظ ولقائه بالموعوظين، بوسيلة الخطب أو مجالس الذكر، «وميزة هذا النوع أنّ الواعظ يعرف مدى قبول الموعوظين وانشراح صدورهم للموعظة من ملامح

---

(١) ويقسّم البعض وسائل الوعظ ـ باعتبار تأصيلها الشرعي ـ إلى ثلاثة أقسام:
١ ـ وسائلُ معتبرةٌ شرعاً: وهي الوسائلُ التي ورد نصٌّ شرعيٌّ خاصٌّ باعتبارها؛ كخطبةِ الجمعة.
٢ ـ ووسائل ملغاةٌ شرعاً: وهي الوسائلُ التي ورد نصٌّ شرعيٌّ خاصٌّ بإلغائها؛ كالوعظ بالمعازف والأغاني.
٣ ـ ووسائلُ مسكوت عنها: وهي الوسائلُ التي لم يرد نصٌّ شرعيٌّ خاصٌّ باعتبارها، أو إلغائها.

(٢) «قواعد الوسائل»، د. مصطفى مخدوم، ص٣٣٦.

(٣) سيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الفصل السادس من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وجوههم، ليعاملهم بما تقتضيه حالهم، ويتمكن من المحاورة بينهم وبينه حتى يصل إلى حال القبول والاقتناع»[١].

ويتّسم هذا النوع من الوسائل بالألفة ورفع الكلفة بين الواعظ والموعوظ، حيث تنشأ بينهما علاقة مبناها النصح والودّ والتحابب.

ولهذا أكثر النبي ﷺ من هذه الوسيلة في وعظه لصحابته في الجمع والمجامع والأعياد[٢].

ب ـ الوسائل غير المباشرة: وهي التي يتمّ فيها إيصال الموعظة إلى الموعوظين بدون التقاء الواعظ بهم مباشرة، بل عبر وسائط أخرى كالرسائل أو الكتب أو من خلال وسائل الإعلام سواء وسائل سمعية، أو بصرية، أو سمعية بصرية.

ولهذا النوع أثر فعال في شمولية وسرعة وصول الموعظة إلى أكبر عدد من الموعوظين[٣].

*** رابعاً: ضوابط وسائل الوعظ:**

لوسائل الوعظ ضوابط تصونها عن الاضطراب، وشروط تحفظها عن الخلل والفساد.

وهذه الضوابط لا بد من مراعاتها، حفاظاً على الاعتدال، وسداً لباب التوسع غير المحمود، ومن هذه الضوابط ما يلي:

١ ـ أن تكون هذه الوسائل نابعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمة الصالح رحمهم الله.

فإن كانت الوسيلة مخالفة لنصوص الشرع وقواعده العامة، فلا يشرع التوسل بها إلى المقاصد والغايات.

---

(١) «الصحوة الإسلامية»، للشيخ محمد العثيمين، ص١٥٠.
(٢) «الإعلام الإسلامي، المرحلة الشفهية»، د. إبراهيم إمام ص٥١ ـ ٥٢.
(٣) «الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب»، لمحمد خير يوسف، ص٢٦.

٢ ـ أن يكون المقصود من الوسيلة مشروعاً، فإن كان ممنوعاً شرعاً فلا يتوسَّل إليه بأي وسيلة، لأنّ النهي عن المقصد نهي عن جميع وسائله المؤدية إليه[١].

٣ ـ أن تؤدي الوسيلة إلى المقصد المشروع، إما على سبيل القطع أو الظن أو الاحتمال المساوي[٢].

ومن ذلك مثلاً: وعظ المجنون، فإن الوسيلة هٰهنا لا تؤدي إلى مقصد شرعي، والوسائل إنما شرعت لتحصيل مقاصدها، فإذا انتفى المقصود كان تحصيل الوسيلة عبثاً[٣].

٤ ـ أن لا يترتب على الأخذ بتلك الوسيلة مفسدة أكبر من المصلحة المقصودة منها، فإن كانت تؤدي إلى مفسدة أكبر فلا يشرع التوسل بها، لأنّ درء المفسدة الراجحة أولى من جلب المصلحة المرجوحة.

٥ ـ ألّا يَعْلَق بالوسيلة وصف ممنوع شرعاً.

فالوسيلة قد لا تكون في ذاتها مخالفة للشرع، ولكن يعلق بها وصف خارجي ممنوع شرعاً، مثل كونها شعاراً للكفار، فتمنع مباشرتها لأجل ذلك الوصف[٤].

*** خامساً: أهمية وسائل الوعظ:**

إنّ الارتباط الشرعي والكوني بين المقاصد والوسائل من أعظم الدلالات على أهميتها، فمن سنة الله تعالى أنّ المقاصد لا تحصل إلّا بالوسائل.

ولذلك أمر الله تعالى بمباشرة الوسائل واتّخاذ الأسباب، فقال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

قال ابن القيم ﵀: «لما كانت المقاصد لا يتوصّل إليها إلّا بأسباب

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ١١/ ٦٢٠.
(٢) «الموافقات» للشاطبي ١/ ٢٥٠.
(٣) «قواعد الوسائل»، ص٣٤٨.
(٤) **انظر**: المدخل للبيانوني، ص٢٩٧.

وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها، معتبرة بها...»[١].

ومن الأمور الدالة على عظم أهمية الوسائل في مجال الوعظ ما يلي:

١ ـ الوسائل الشرعية المنتزعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي التي هدى الله تعالى بها الخلق، وهي أساس تقويم الواعظ وبناء الموعوظ بناءً مستقيماً في عقيدته وعباداته ومعاملاته، ولذا كانت الوسائل الشرعية من أعظم أسباب نجاح دعوة السلف رحمهم الله.

٢ ـ التنوّع الكبير للوسائل يعطي الواعظ مجالاً خصباً في اختيار ما يناسب الموعوظين رجاء القبول وحسن الاقناع[٢].

٣ ـ تمتاز الوسائل الشرعية بأنها وسائل فطرية موصلة إلى عين المقصود[٣]، فالله ﷻ هو الذي أقام هذه الدعوة وأمر بها، ونصب لها من الوسائل المنسقة مع مدارك الإنسان القلبية والعقلية والنفسية.

٤ ـ تحقق وسائل الاتصال الحديثة مزيداً من السرعة الفائقة في انتشار الموعظة، وكونها تشمل عدداً كبيراً من المدعوين، تمشياً مع عموم الدعوة وخطابها لكافة الناس.

٥ ـ للكتاب والرسائل مزايا منفردة، حيث تمكن الواعظ من إدراك ما يدعو إليه، بالقراءة مرة بعد أخرى والتمعن في فضائله وثمراته[٤].

٦ ـ الاتصال المباشر يعدّ أبرز وسائل الوعظ وأعظمها تأثيراً في الموعوظين، بحيث يجعل الواعظ على بصيرة بالموعوظين، ومعرفة أهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم.

۞ ۞ ۞

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٣٥.
(٢) «وسائل الدعوة»، د. المغذوي، ص٢٢.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٢/ ١٢.
(٤) «ضوابط الصحوة الإسلامية»، ص١٥٠.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

الخطب ومجالس الذكر

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الخطابة الوعظية.

المطلب الثاني: الموعظة في مجالس الذكر.

المطلب الأول

الخطابة الوعظية[١]

* أولاً: أهمية الخطابة في مجال الوعظ والإرشاد:

تُعَدّ الخطبة إحدى وسائل الأداء البياني في الإسلام، للدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ دينه، والتذكير بأصوله وفروعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد إلى الخيرات، والفضائل الفكرية والسلوكية الباطنة والظاهرة.

ومما يدل على أهميتها البالغة في مجال الوعظ ما يلي:

١ ـ لا تزال الخطب منذ القدم، الوسيلة المثلى لتوجيه الناس، ووعظهم وإرشادهم وحثهم على الفضائل، وزجرهم عن الرذائل.

وقد حفظ لنا التاريخ كثيراً من خطب العرب ـ قبل الإسلام ـ والتي كان مدارها على الوعظ والإرشاد، كخطب قس بن ساعدة الإيادي[٢]، وخطب أكثم بن صيفي[٣]، وغيرهما.

---

(١) تقدّم تعريف «الخطبة» لغة واصطلاحاً. **انظر**: ص (٧٠) من هذا البحث.

(٢) وكان يخطب في المواسم يعظ الناس ويرشدهم، ومن خطبه المشهورة التي قالها في سوق عكاظ: «أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكلما هو آت آت، نبات ومطر وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات جميع وأشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات ارتياج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟....»، ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٣١.

(٣) عزى أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال له: «إن أهل هذه الدار سفر، لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام =

٢ ـ إنّ الأنبياء عليهم السلام باشروا دعوتهم لأقوامهم عن طريق وسيلة الخطابة، وكانت الخطبة هي الوسيلة الأولى في الوعظ والإرشاد.

قال تعالى ـ ممتناً على نبيه داود عليه السلام ـ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [صۤ: ٢٠].

وفصل الخطاب هو: البلاغة والبيان والإيجاز، حيث يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل[١].

قال الطبري رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية ـ: «أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «والأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة»[٣].

٣ ـ استخدم النبي ﷺ وسيلة الخطابة لوعظ الناس وإرشادهم، بل كانت أوّل وسائله الدعوية لمخاطبة الجموع والحشود، ووعظهم وتذكيرهم بالله، حيث صدع النبي ﷺ بين ظهراني قريش بعدما أنزل الله عليه قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فصعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: **يا بني فهر يا بني عدي**، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فقال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟** قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ

= فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدري من أهله وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله» «جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة» ١/٣٧، لأحمد زكي صفوت.

(١) تفسير القرطبي ١٥/١٤٣. (٢) تفسير الطبري ١٠/٥٦٣.

(٣) «مفتاح دار السعادة» ١/١٤٥.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢]»[١].

وكانت جلّ مواعظه ﷺ عن طريق هذه الوسيلة الفعالة.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكان مدار خطبه ﷺ على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه»[٢].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وكان النبي ﷺ كثيراً ما يعظ أصحابه في غير الخطب الراتبة كخطب الجمع والأعياد، وقد أمره الله ﷻ بذلك فقال تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]»[٣].

٤ ـ إنّ ألصق الوسائل بالموعظة هي: الخطابة، ولذلك درج كثير من العلماء على تسمية الخطبة بالموعظة[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «والموعظة الحسنة هي طريقة الخطابة»[٥].

٥ ـ الخطابة تعدّ من شعائر الإسلام.. ففي كل جمعة يجتمع المسلمون في جامع يسمعون خطيباً يعظهم ويرشدهم.. وفي كلّ عيد يجتمعون بحشد أكبر للغرض نفسه وكذا الشأن في الحج في يوم عرفة.

فيتهيأ للواعظ في الخطب، من اجتماع الناس، واستعدادهم وتقبلهم للوعظ والإرشاد، ما لا يتهيأ له في غيرها من وسائل الوعظ المختلفة.

٦ ـ الخطابة هي صلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصيانة

---

(١) متفق عليه، البخاري ٤/١٧٨٧، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم (٤٣٩٧)، واللفظ له؛ ومسلم ١/١٩٢، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٣٠٣).

(٢) زاد المعاد ١/١٧٩.

(٣) «جامع العلوم والحكم» ١/٢٥٩.

(٤) سبق بيان ذلك عند الحديث عن الألفاظ ذات الصلة بلفظ «الموعظة». **انظر**: ص٧٢ من هذا البحث.

(٥) «مدارج السالكين» ١/٤٤٦.

جسد الأمة من الهدم والتحلّل، كما أنها لازمة لطرد الأهواء وعلاج الأمراض الدخيلة والمتوطنة.

ولهذا تجد الواعظ يستخدم هذه الوسيلة لعلاج الآفات التي يراها في أمته، وهكذا كان المصطفى ﷺ يخطب في الناس كلما رأى فيهم منكراً أو اعوجاجاً.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكان يأمرهم ﷺ بمقتضى الحال في خطبته»[(١)].

وقال أيضاً: «وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم»[(٢)].

ويقول الشيخ علي محفوظ: «إنّ الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها، وكثيراً ما تودي بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها واشتداد خطرها.

والقلوب كالأجساد يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفئ نورها، وما يفقدها حياتها، وذلك بورودها موارد الغي والضلال، وانهماكها في اللذات والشهوات، وعدم مبالاتها بأنواع الفسق والفجور وسيئات البدع، فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها، ولا دواء لها إلّا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ»[(٣)].

*** ثانياً: خصائص الخطابة الوعظية:**

الخطابة ـ بشكل عام ـ تختلف عن غيرها من أساليب التعبير البياني؛ كالشعر والكتابة وغيرهما، فقد استأثرت بخصائص ومزايا عديدة، من أبرزها:

١ ـ تعدّ الخطابة الوعظية من أكثر الوسائل البيانية قدرة على إثارة العواطف، وتحريك المشاعر، والتأثير في النفوس.

(١) «زاد المعاد» ١/ ٤١١.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٩.
(٣) «هداية المرشدين»، ص٧٣.

ولذلك أرسل الله تعالى الرسل ﷺ بألسنة أقوامهم، لبيان الحجة، وهداية الخلق، ووعظهم وإرشادهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

كما نجد قادة الجيوش يلهبون حماس جنودهم، من خلال الخطب والمواعظ التي تقال بيني يدي المعارك والفتوح.

٢ ـ تمتاز الخطابة ـ لا سيما الوعظية ـ بقوة العبارة، وجزالة اللفظ ووضوح المعنى وظهوره، وبالتالي فهي أنسب الوسائل التي يستخدمها الواعظ في مخاطبة جماهير الناس.

فالخطابة الوعظية تستدعي فصاحة اللسان وقوة البيان.

قال الإمام البغوي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستحب أن يخطب مترسلاً، مبيناً، ومعرباً لا يأتي بكلمات مبتذلة لا تنجع[٢] في القلوب، ولا يغرب، بحيث لا يفهم، ولا بما ينكره العوام لقصور فهمهم، ولا يمد الكلمات مدّاً يجاوز الحد، ولا يعجل عن الأفهام، ويحترز عن التغني وتقطيع الكلام، ولا يطول فيمل الناس بل تكون خطبته قصداً بليغاً جامعاً»[٣].

وقال أبو هلال العسكري: «رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام، وحليُها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ»[٤].

٣ ـ الخطبة الوعظية أقدر على الإقناع من الشعر وغيره من الأساليب البيانية؛ لأنها لا تعتمد على تكلّف القوافي أو الأوزان، وتستطيع أن توضّح كل جوانب الموضوع بغير تكلّف، وأن تمزج الأحاسيس بغير عناء، وأن

---

(١) الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء أبو محمد البغوي الشافعي، الشيخ الإمام الحافظ شيخ الإسلام المفسر صاحب التصانيف، كالسنة؛ ومعالم التنزيل؛ والمصابيح؛ وكتاب: التهذيب في المذهب، توفي سنة: ٥١٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩.

(٢) نجع فيه الخطابُ والوعظُ، والدواءُ؛ أي: دخل وأثّر. مختار الصحاح، ص٦٨٨ مادة: «نجع».

(٣) «المهذب»، للشيرازي ٢/ ٣٤٢.

(٤) «الصناعتين» ١/ ١١٥.

تدخل القصّة والمثل والحكمة في ثناياها بغير أن يختلّ المعنى، كما تستطيع أن تستوعب النصوص بغير تبديل ولا تغيير ولا تحريف[١].

٤ ـ الخطابة الوعظية يستطيع إجادتها جموع كثيرة وفئات مختلفة، بخلاف الكتابة والشعر، فهما غير متيسران إلا لذوي القرائح والمواهب.

ولهذا كثر الخطباء من الوعاّظ، في حين نجد أنّه لم يقتحم الوسائل الأخرى للموعظة إلّا النزر القليل من الوعّاظ.

*** ثالثاً: أنواع الخطب الوعظية[٢]:**

للخطب الوعظية أنماط كثيرة، وأنواع عديدة، وهي في مجملها تنقسم إلى قسمين:

● **أولاً** ـ خطب وعظية تتحدَّد بأوقات معينة أو ظروف طارئة، وهي ما يأتي:

١ ـ خطبة الجمعة:

وهي أعلا أنواع الخطب، وذروة سنامها، وتلقى في كلّ يوم جمعة عندما تزول الشمس عن كبد السماء، وهي شرط في صحة صلاة الجمعة، ويتمّ فيها وعظ المسلمين وحملهم على شرع الله، وردّهم إلى دينه القويم.

ومن أدلة مشروعيتها، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»[٣].

٢ ـ خطبة يوم عرفة:

ويؤديها إمام المسلمين في الحج يوم عرفة بعد زوال الشمس، حيث يجتمع للخطيب من أعداد الناس وأصنافهم، ما لا يجتمع له في موضع

---

(١) «الخطابة وإعداد الخطيب»، د. توفيق الواعي، ص٢٥.

(٢) **انظر**: «خصائص الخطبة والخطيب»، لنذير محمد كتبي، ص١٨٣.

(٣) متفق عليه، البخاري ١/٣١٦، كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، رقم (٨٨٢)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/٥٣٨، كتاب: الجمعة، باب: في الإنصات يوم الجمعة في الخطبة، رقم (١٤٠٤).

آخر، وهي فرصة سانحة، لتذكير الناس بآلاء الله ونعمه، وحضهم على الطاعة والاستقامة، كما فعل النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع.

ومن أدلة مشروعيتها: ما رواه أبو داود في سننه عن سلمة بن نبيط عن أبيه قال: «**رأيت رسول الله ﷺ يخطب على جمل أحمر بعرفة قبل الصلاة**»(١).

٣ ـ **خطبة العيد:**

وهي خطبة شرعت عقب صلاة عيد الفطر، وعيد الأضحى كذلك، وهي ميدان رحب لتذكير الناس بكثير من القضايا التي ينبغي ألّا يغفلوا عنها، وهي ذات دور فعال في إيقاظ الناس وتوجيههم، وتذكيرهم بأيام الله تعالى.

بدليل: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال...**»(٢).

٤ ـ **خطبة الاستسقاء**(٣):

وقد شرعت عند انحباس المطر وشحّ المياه طلباً للسقيا بعد صلاة ركعتين، ولها أهمية بارزة في ميدان التذكير وتهيئ النفوس للتوبة والرجوع إلى الله تعالى؛ لأنها تلقى في موطن الخضوع والابتهال والتضرع والتذلل بين يدي الله سبحانه.

---

(١) رواه أبو داود في سننه ١/ ٥٩٢، كتاب: المناسك، باب: الخطبة على المنبر بعرفة، رقم (١٦٣٧)؛ والنسائي في سننه ٥/ ٢٥٣، كتاب: مناسك الحج، باب: الخطبة بعرفة قبل الصلاة، رقم (٢٩٥٧)، واللفظ له؛ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ١٨٩.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٣٢٧، كتاب: الجمعة، باب: موعظة الإمام النساء يوم العيد، رقم (٩٢٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٦٠٣، كتاب: صلاة العيدين، رقم (١٤٦٦).

(٣) اختلف العلماء في مشروعية خطبة الاستسقاء، فذهب الجمهور إلى مشروعيتها وأنها تقام بعد صلاة ركعتين، وقيل بل يخطب قبل الصلاة وهو قول الليث بن سعد وغيره، وقيل هو مخير في ذلك، إن شاء خطب قبل الصلاة وإن شاء خطب بعدها، وذهب ابن عباس إلى أن خطبة الاستسقاء غير مشروعة، والراجح هو قول الجمهور لوفرة الأدلة في الباب. **انظر**: «المغني على مختصر الخرقي»، لابن قدامة المقدسي ٢/ ٢٧٣.

ومن أدلة مشروعية خطبة الاستسقاء: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**خرج نبي الله ﷺ يوماً يستسقي، فصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة، ثم خطبنا ودعا الله وحوّل وجهه نحو القبلة رافعاً يده، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر، والأيسر على الأيمن**»(١).

● **ثانياً** ـ خطب وعظية لا ترتبط بوقت معيّن ولا بظروف محدَّدة:

وهذا النوع من الخطب الوعظية يخضع لحاجة الناس في وعظهم وإرشادهم على اختلاف الأحوال وتفاوت الظروف والدواعي، فغرضها إيقاظ الهمم وتقوية العزائم، وحث العباد على طاعة ربهم واجتناب نواهيه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكان ﷺ يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم»(٢).

* رابعاً: عناية السلف رحمهم الله بالخطابة الوعظية:

أولى السلف رحمهم الله الخطابة ـ بكل أنواعها وفروعها ـ، عناية بالغة.

ويظهر ذلك من خلال:

١ ـ ممارسة السلف رحمهم الله للخطابة الوعظية:

كانت الخطابة في العصور الزاهرة تُوكَل إلى الأئمة الأعلام، ممن اشتهروا بالعلم والعمل، والزهد والورع، ولذا لا تكاد تجد عَلَماً من أعلام هذه الأمة إلّا وقد مارس الخطابة الوعظية ردحاً من الزمن، وقد نقلت لنا كتب التراجم ذلك عنهم، كما في «سير أعلام النبلاء»، وغيره، بل صار كثير منهم مشتهراً بلقب الخطيب، حيث ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في كتابه: «سير أعلام النبلاء» أكثر من مائة عَلَم ممن لقب بالخطيب.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١٤/ ٧٣، رقم (٨٣٢٧)؛ وابن ماجه في سننه ١/ ٤٠٣، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة الاستسقاء، رقم (١٢٥٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

(٢) «زاد المعاد» ١/ ١٧٩.

وإنّ جلّ المواعظ المنقولة عن السلف رحمهم الله إنما قيلت في خطب الجمعة أو خطب المناسبات والأعياد.

ولم تكن الخطابة الوعظية في الصدر الأول مركباً مستباحاً لكلّ من يهواها، بل كان لها فرسانها وساداتها.

واشتهر في أمة الإسلام خطباء كثيرون يصعب حصرهم، غير أن من أشهرهم:

علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس ﷺ، وهو الذي قالوا عنه: «إنّ ابن عباس: خطب بمكة وعثمان ﷺ محاصر، خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا»(١).

وكان من الخطباء أيضاً عطارد بن حاجب بن زرارة، وقد قال فيه الفرزدق:

ومنا خطيب لا يُعاب وحاملٌ أغرُّ إذا التفَّت عليه المجامع(٢)

وكان من الخطباء المشاهير أيضاً عبد الله بن عروة بن الزبير، وزيد بن علي بن الحسين، والفضل بن عيسى الرقاشي، وعمرو بن سعيد الأشدق، وأبو الأسود الدؤلي، ومنهم أيضاً: شبيب بن أبي شيبة، والحسن البصري، وبكر بن عبد الله المزني، ومالك بن دينار، ويزيد الرقاشي، ومحمد بن واسع الأزدي، رحمهم الله، وغيرهم كثير وكثير(٣).

٢ ـ شدّة اهتمام السلف رحمهم الله بما يعرضونه للناس في الخطب:

فالسلف رحمهم الله كانوا ينقِّحون خطبهم، ويدبجونها بحلل الألفاظ ودرر المعاني، حتى غدت بعض الخطب كالأمثال السائرة، كلّ هذا لعلمهم بمكانة الخطبة وشدة أثرها على النفوس والقلوب والعقول.

روى ابن عبد البر القرطبي رحمه الله أنّ عثمان بن عفان ﷺ صعد المنبر فارتج عليه فقال: «إنّ أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم

(١) «تفسير ابن كثير» ١/ ٥.

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ، ص١٧٤.

(٣) انظر: «جمهرة خطب العرب».

إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب»[١].

وقيل لعبد الملك بن مروان رحمه الله[٢]: «عجّل بك الشيب؟ قال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة»[٣].

٣ ـ ولقد كان للسلف رحمهم الله منهجاً فريداً في خطبهم الوعظية، يجمع بين البلاغة، والاستدلال، وقوة التأثير.

وفي ذلك يقول العلامة جمال الدين القاسمي[٤] رحمه الله: «كانت الخطب في الصدر الأول لها المكانة العالية والمقام الأسنى. . .كانوا ينتقون من جواهر الألفاظ أعذبها وأظرفها وأحلاها، ومن المعاني أرقها وأدقها وأغلاها، ومع ذلك فكانوا يضمنونها آيات من كتاب الله تعالى لتزداد حلاوة وطلاوة، حتى إنه ليعاب على خطبة ليس فيها آية من القرآن الكريم.

كان الخطيب إذا قام لأمر ما سحر الألباب وملك بمرصعات الوعظ ما لا يملك بمرهفات السيوف والرماح، يؤلِّف بين من تفرق، ويسكن الفتن، ويزيل المخاصمات، ويقطع المنازعات، ويقيمهم إن شاء، ويقعدهم إن أراد بقوة اقتداره وشدة تأثيره»[٥].

● ومن خلال ما تقدّم بيانه، ندرك أنّ الخطابة الوعظية هي أساس الأساليب القولية البيانية للوعظ، وهي أنواع كثيرة ـ راتبة، ومستجدّة ـ حيث

---

(١) «بهجة المجالس» ١/ ٥٦، ولم يذكر له إسناداً.

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة الفقيه أبو الوليد الأموي، كان عابداً ناسكاً غزير العلم، من رجال الدهر ودهاة الرجال، توفي سنة: ٨٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤٨.

(٤) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم، المعروف بالقاسمي، أبو الفرج، علّامة الشام، كان من دعاة الاجتهاد ونبذ التعصب والتقليد، وتصفية العقيدة مما علق بها من أفكار دخيلة، من تصانيفه البديعة: محاسن التأويل، ودلائل التوحيد، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، توفي سنة: ١٣٣٢هـ.

(٥) «إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، لجمال الدين القاسمي، ص٦٧.

برزت عند السلف كأداة فاعلة لوعظ الناس وتذكيرهم، بحيث لا تكاد تجد علماً من أعلام السلف إلا وقد مارسها.

وهي تمتاز بقوة عبارتها، وقدرتها على إثارة العواطف، وعلى الاقناع والتأثير.



المطلب الثاني

الموعظة في مجالس الذكر

* أوّلاً: المقصود بمجالس الذكر:

«هي المجالس التي تعقد للتذكير بالله ﷻ وتعريف الخلق نِعَمَ الله ﷻ عليهم، وحثّهم على شكره، وتحذيرهم من مخالفته»[١].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ الله: «كانت مجالس النبي ﷺ مع أصحابه؛ عامتها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب؛ إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما ينفع في الدين»[٢].

ويقول الإمام الخطابي[٣] رَحِمَهُ الله - في بيان وظيفة المُذَكِّر -: «المذكِّر: الذي يذكِّر الناس آلاء الله ومنته ونعمائه، ويبعثهم به على الشكر له»[٤].

ولأجل هذا كان كثير من علماء السلف يعدّون مجالس الذكر، من جملة وسائل الوعظ، لاتفاق وظيفة المُذَكِّر والواعظ، في حمل الناس على الطاعة وحثهم عليها، عن طريق ترقيق القلوب، وتذكيرهم بنعم الله وآلائه.

قال الحافظ ابن عساكر - في ترجمة أبي عبد الله الفراوي[٥] -:

---

(١) القصاص والمذكرين، ص١٦١.

(٢) «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» لابن رجب، ص٤٥.

(٣) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب، أبو سليمان، البستي الخطابي، الإمام العلامة الحافظ اللغوي، من تصانيفه: «شرح الأسماء الحسنى» وكتاب: «الغنية عن الكلام وأهله»، وغيرهما، توفي سنة: ٣٨٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣.

(٤) «معالم السنن»، للخطابي ٤/ ٧٢.

(٥) هو: محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي، أبو عبد الله النيسابوري الشافعي، الإمام الفقيه المفتي مسند خراسان فقيه الحرم، كان من الأئمة العاملين الناصحين، توفي سنة ٥٣٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٩/ ٦١٥.

«...وله مجالس الوعظ والتذكير المشحونة بالفوائد والمبالغة في النصح»(١).

* ويرى بعض أئمة السلف رحمهم الله أنّ مجالس الذكر، تعُمُّ كل ما له صلة بالدِّين، سواء كان ترقيقاً للقلوب، أو بياناً لنصوص الشرع وأحكامه.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: «لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه؛ يقصّ أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنّا نقعد فنذكر الإيمان، ونتدبر القرآن، ونتفقه في الدين، ونعد نعم الله علينا تفقهاً»(٢).

وقال عطاء الخراساني(٣) رحمه الله: «مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن مجالس الحلال والحرام ونحو ذلك مما فيه ذكر أمر الله ونهيه ووعده ووعيده ونحو ذلك، هي من مجالس الذكر»(٥).

* **الفرق بين الخطب الوعظية ومجالس الذكر:**

ثمة فروق جوهرية بين الخطب الوعظية ومجالس الذكر، من حيث منهجها، ومضمونها، ومن أبرز هذه الفروق ما يلي:

١ ـ الخطب الوعظية محدّدة بأوقات معينة أو ظروف طارئة، فمن شأنها أن تكون متباعدة وغير متسلسلة، خلافاً لمجالس الذكر فهي تقام دورياً على مدار الأسبوع.

---

(١) «تبيين كذب المفتري»، لابن عساكر ١/ ٣٢٤.
(٢) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» ١/ ٣٢، ولم أجد من خرّجه.
(٣) هو: عطاء بن أبي مسلم، أبو أيوب الخراساني، المحدث الواعظ، توفي سنة ١٣٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٠.
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩٥، وإسناده حسن.
(٥) «مجموع الفتاوى» ٣٢/ ٣٣٣.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن»[(١)].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يُذَكِّرُ الناس في كل خميس[(٢)].

٢ ـ البلاغة والفصاحة من لوازم الخطابة الوعظية ومن أبرز مقوماتها، كما قال الإمام النووي رحمه الله: «يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة»[(٣)].

أما مجالس الوعظ فإنها تقام بلسان القوم، ولو جانب الواعظ الفصاحة فلا جناح عليه.

٣ ـ الخطبة الوعظية تكون وفق مقتضى الحال، وحاجة الموعوظين، أما مجالس الوعظ فللواعظ أن يتخيّر نوعيّة معيّنة من الآيات والأحاديث، التي تتعلّق بموضوع وعظي معيّن، يقوم بشرحها وإيضاحها تباعاً.

٤ ـ الأصل في الخطب الوعظية أن تقام في المسجد أو المصلى، أما مجالس الوعظ فإنّها تقام في أي مكان يتفق الناس على الاجتماع فيه.

* ثانياً: فضل مجالس الذكر وأثرها:

لمجالس الذكر فضل عظيم، وأثر عميم، ذكرت في نصوص السنة المطهرة، وآثار السلف رحمهم الله، ومن ذلك:

١ ـ نزول السكينة: والمراد بالسكينة هنا: الرحمة، وقيل: الطمأنينة والوقار[(٤)]، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٥/ ٢٣٣٤، كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، رقم (٥٨٦٢)؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، حديث رقم (٢٥٢).

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٣٩، كتاب: العلم، باب: من جعل للعلم أياما مخصوصة، رقم (٦٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢١٧٢، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٥٠٤٧).

(٣) «المجموع»، للنووي ٤/ ٣٥٨.

(٤) «شرح صحيح مسلم» ١٧/ ٢١.

٢ ـ غشيان الرحمة من الله تعالى على الحاضرين؛ أي: نزولها عليهم.

٣ ـ إحفاف الملائكة للجالسين فيها.

٤ ـ يذكرهم الله فيمن عنده، وهم أهل السماء الدنيا.

وقد ذكرت هذه الفضائل الأربعة في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «... **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...**»[(١)].

وفي رواية أخرى: «**لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[(٢)].

وهذا الحديث والذي قبله أحاديث عامة تشمل الاجتماع في المسجد وفي غيره[(٣)].

٥ ـ يباهي الله تعالى بالحاضرين الملائكة:

فعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة**»[(٤)].

يقول الإمام النووي ﷺ في شرحه لهذا الحديث: «قوله ﷺ:

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٧٤، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٤٨٦٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٧٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٤٨٦٨).

(٣) «شرح صحيح مسلم» ١٧/ ٢١.

(٤) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٧٥، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٤٨٦٩).

«**إن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة**» معناه: يظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم ويثني عليكم عندهم»[(١)].

٦ ـ مغفرة الذنوب وتبديل السيئات حسنات:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**ما جلس قوم يذكرون الله تعالى فيقومون حتى يقال لهم: قوموا قد غفر الله لكم ذنوبكم، وبدّلت سيئاتكم حسنات**»[(٢)].

قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله: «من جلس مجلساً من مجالس الذكر، كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل»[(٣)].

٧ ـ رقّة القلب، والزهد في الدنيا:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلنا يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهالينا، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك؛ لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد كي يذنبوا فيغفر لهم**»[(٤)].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رضي الله عنهم ـ كما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث ـ رقة القلب والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

فأما رقة القلوب: فتنشأ عن الذكر؛ فإنّ ذكر الله يوجب خشوع

---

(١) «شرح صحيح مسلم» ١٧/ ٢٣.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٢/ ١٥٤؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٥٦١٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٣١٣، وإسناده حسن.

(٤) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٦٧٢، كتاب: صفة الجنة عن رسول الله، باب: ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، رقم (٢٢٤٩)؛ وأحمد في مسنده؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٤/ ٦٧٢.

القلب، وصلاحه ورقته، ويذهب بالغفلة عنه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. . . .

وأما الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة؛ فبما يحصل في مجالس الذكر من ذكر عيوب الدنيا وذمها والتزهيد فيها، وذكر فضل الجنة ومدحها، والترغيب فيها وذكر النار وأهوالها والترهيب منها»[(١)].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجلس الذكر محياة العلم، ويحدث في القلب الخشوع.

القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر»[(٢)].

وقال عون بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالس الذكر شفاء القلوب»[(٣)].

ـ بل إنّ مجالس الذكر حياة للقلوب، وغذاء للأرواح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن، فسل الله أن يَمُنَّ عليك بقلب، فإنه لا قلب لك»[(٤)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى، مجالس الذكر مارستان[(٥)] الذنوب، تداوى فيها أمراض القلوب، كما تداوي أمراض الأبدان، في مارستان الذكر نزه لقلوب المؤمنين، يتنزه فيها

---

(١) «لطائف المعارف»، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٢) ذكره ابن رجب في «لطائف المعارف»، ص٤٥، ولم يذكر له إسناداً.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٢٤١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) «الفوائد لابن القيم»، ص١٤٨.

(٥) «المارَسْتانُ»: دار المرْضَى، وهو لفظ مُعَرَّبٌ؛ «القاموس المحيط»، ص٧٤١، مادة: «مرس».

بسماع كلام الحكمة كما يتنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها، مجلسنا هذا خضرة في روضة الخشوع، طعامنا فيه الجوع، وشرابنا فيه الدموع.

نسقى فيه ترياق الذنوب، وفاروق المعاصي، فمن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع، كم أفاق فيه من المعصية مصروع؟ وبريء فيه من الهوى ملسوع، ووصل فيه إلى الله مقطوع»(١).

* ولأجل هذه الفضائل العظيمة، والآثار النافعة العميمة، جاء الترغيب النبوي في ارتياد مجالس الذكر وتعاهدها، للنهل من معينها الصافي.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر**»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «إن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفي به ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة»(٣).

* كما جاء الوعيد النبوي لمن أعرض عن حلق الذكر ومجالس الوعظ.

فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم:**

---

(١) «لطائف المعارف»، ص٨١.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٥٣٢، كتاب: الدعوات عن رسول الله، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٤٣٢)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»؛ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٥/ ٥٣٢.

(٣) «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، لابن القيم ١/ ١١٠.

فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»[١].

* ثالثاً: عناية السلف رحمهم الله بمجالس الذكر:

اعتنى السلف رحمهم الله بمجالس الذكر وحلق الوعظ، ويدلّ على ذلك أمور منها:

١ ـ انتشار مجالس الذكر وحلق الوعظ عند السلف:

لا سيما بعد فتح الأمصار وكثرة المغانم ورغد العيش، فخشي السلف رحمهم الله من انسياق الناس وراء الدنيا كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**إني مما أخاف عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**»[٢].

فانتشرت بذلك مجالس الوعظ وحلق الذكر، وصار الصحابة والتابعون كلّهم من الوعاظ والمذكرين.

قال ابن الجوزي ﵀ ـ بعد أن ذكر مشاهير المذكرين من الصحابة ـ: هذا آخر ما نذكره من المشتهرين من أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كان كلّ الصحابة كانوا يذّكرون ويعظون، وكذلك التابعون من بعدهم»[٣].

٢ ـ نبوغ السلف في مجال الوعظ والتذكير:

برز من السلف أئمة أعلام كانت لهم حلق ذكر، ومجالس وعظ،

---

(١) متفق عليه، البخاري ١/٣٦، كتاب: العلم، باب: من قعد حيث ينتهي به المجلس، رقم (٦٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/١٧١٣، كتاب: السلام، باب: من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها، رقم (٤٠٤٢).
قال النووي: «أعرض الله عنه»؛ أي: لم يرحمه، وقيل: سخط عليه «شرح صحيح مسلم» ١٤/١٥٩.

(٢) متفق عليه، البخاري ٢/٥٣٢، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، رقم (١٣٧٢)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/٧٢٧، كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٧٤٤).

(٣) «القصاص والمذكرين»، ص٢٢٨.

وبعد صيتهم وانتفع الخلق بمواعظهم وتذكيرهم، وإن كان الصحابة والتابعون كلّهم من المذكرين والوعاظ.

وقد عقد الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه: «القصاص والمذكرين» فصلاً ذكر فيه: أعيان المذكرين من الصحابة، والتابعين من أهل الأمصار المختلفة، وبلغ عدد من ذكرهم خمس وسبعون عَلماً، وفيما يلي ذكر لبعض هذه النماذج:

أ ـ من أعيان المذكرين من الصحابة:

ـ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فعن عبد الله بن مرداس قال: «كان عبد الله يخطبنا كل خميس فيتكلّم بكلام، فيسكت حين يسكت ونحن نشتهي أن يزيدنا»[(١)].

ـ معاذ بن جبل رضي الله عنه: فعن يزيد بن عميرة قال: «كان معاذ لا يجلس مجلساً للذكر إلّا قال حين يجلس: الله حكمٌ عدلٌ قسطٌ، تبارك اسمه، هلك المرتابون»[(٢)].

ـ أبو هريرة رضي الله عنه: فعن سنان بن أبي سنان قال: «سمعت أبا هريرة يقول قائماً في قصصه ـ تذكيره ـ: إنّ أخاً لكم كان لا يقول الرفث. . . .»[(٣)].

ومنهم أيضاً: عتبة بن غزوان، وسلمان الفارسي، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء، وتميم الداري، وعبد الله بن عباس، والأسود بن سريع، رضي الله عنهم وأرضاهم[(٤)].

ب ـ ومن أعيان المذكرين من التابعين:

ـ عبيد بن عمير المكي رحمه الله: من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة، وكان

(١) رواه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٥٧، ورجاله ثقات.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٣. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٣) ذكره ابن الجوزي في كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص١٩٤. **قلت**: وإسناده جيد.
(٤) **انظر** تفصيل أخبارهم في كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص٢٠٩ وما بعدها.

يذكر الناس فيحضر ابن عمر رضي الله عنهما مجلسه[١].

ـ أبو حازم سلمة بن دينار المدني رحمه الله: فعن محمد بن سعيد قال: «كان أبو حازم يقصّ ـ يذكر ـ بعد الفجر وبعد العصر في مسجد المدينة»[٢].

ـ علقمة بن قيس النخعي الكوفي رحمه الله: فعن منصور بن إبراهيم قال: «كان علقمة إذا رأى من القوم أشاشاً[٣] ذكرهم في الأيام، يعني نشاطاً»[٤].

ومنهم أيضاً: الحسن البصري، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وسعيد بن جبير، وإبراهيم التيمي، وعمر بن ذر، وداود الطائي، ومحمد بن المنكدر، ويزيد الرقاشي، وبلال بن سعد، وحاتم الأصم، ومنصور بن عمار، وغيرهم كثير، رحمهم الله جميعاً[٥].

٣ ـ حرص السلف رحمهم الله على حضور مجالس الذكر:

كان السلف رحمهم الله يسعون إلى ذكر الله تعالى، ويسارعون إلى حلق الذكر، تعاهداً لقلوبهم، وزيادة لإيمانهم، وأخبارهم في ذلك مستفيضة.

وفي ما يلي ذكر طرف منها:

ـ عن عون بن عبد الله قال: «كنا نجلس إلى أم الدرداء رضي الله عنها فنذكر الله عز وجل عندها، فقالوا: لعلنا قد أمللناك؟ قالت: تزعمون أنكم قد أمللتموني، فقد طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت شيئاً أشفى لصدري، ولا أحرى أن أصيب به الدين، من مجالس الذكر»[٦].

ـ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٦.
(٢) ذكره ابن الجوزي في كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص٢٣٨. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) الأشاش والأشاشة: هو النشاط والارتياح؛ لسان العرب ٦/ ٢٤٦، مادة: «أش».
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٠٠. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٥) **انظر** تفصيل أخبارهم في كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص٢٢٩ وما بعدها.
(٦) رواه ابن أبي عاصم في الزهد ١/ ١٦٥. **قلت**: ورجاله ثقات.

لقيت الله؛ لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما ينقى جيد التمر، أو أن أسير في سبيل الله ﷻ»[١].

ـ وكان كثير من السلف رحمهم الله يتحصرون ـ عند احتضارهم ـ على مجالس الذكر، لشدة تعلّقهم بها.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه لما حضره الموت قال: «.. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»[٢].

وعاد عبد الواحد بن زيد مريضاً من إخوانه فقال: «ما تشتهي؟ قال: الجنة، قال: فعلام تأس من الدنيا إذا كانت هذه شهوتك؟ قال: آسى والله على مجالس الذكر، ومذاكرة الرجال بتعداد نعم الله، قال عبد الواحد: هذا والله خير الدنيا، وبه يدرك خير الآخرة»[٣].

كما اشتهر السلف ـ رجالاً ونساءً ـ بملازمة حلق الذكر[٤]، ومن نماذج ذلك:

ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله في ترجمة أبي البقاء الحراني[٥]، فقال: «كان من أماثل التجار، كثير الصدقة ملازماً لمجلس الذكر، كثير الخشوع والبكاء، متعصباً لأهل السنة»[٦].

وعن عمار الراهب قال: «رأيت مسكينة الطفاوية[٧] في منامي،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٥١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٣٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) المصدر السابق ٦/ ١٥٧. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) ذكر ابن الجوزي رحمه الله في طائفة من سادات السلف الذين كانوا يواظبون على حضور حلق الذكر. **انظر**: «القصاص والمذكرين»، ص١٩٣.

(٥) **هو**: عمار بن سلامة أبو البقاء الحراني، توفي سنة: ٥٧٤هـ؛ «المنتظم» ١٠/ ٢٨٩.

(٦) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، لابن الجوزي ١٠/ ٢٨٩.

(٧) لم أجد لها ترجمة.

وكانت من المواظبات على حلق الذكر، فقلت: مرحباً يا مسكينة، فقالت: هيهات يا عمار! ذهبت المسكنة وجاء الغنى الأكبر، قلت: هيه! قالت: ما تسأل عمن أبيح الجنة بحذافيرها، يطلّ منها حيث شاء، قال: قلت وبم ذاك يرحمك الله، قالت: بمجالس الذكر، والصبر على الحق»[(١)].

ـ ومن ذلك أيضاً ترغيب السلف في حلق الذكر وتواصيهم بلزومها:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: «نعم المجالس المجلس الذي تنشر فيه الحكمة، وترجى فيه الرحمة، هي: مجالس الذكر»[(٢)].

وقال رجل للحسن البصري رحمه الله: «أشكو إليك قساوة قلبي، فقال: أدنه من مجالس الذكر»[(٣)].

ـ ومن تواصي السلف رحمهم الله على تعاهد مجالس الذكر، ودعوة بعضهم بعضاً لذلك: ما رواه كعب الأحبار قال: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وأنا عنده: يا كعبُ خوِّفنا! قلت: يا أمير المؤمنين! أو ليس فيكم كتاب الله وحكمة رسوله؟ قال: بلى ولكن خوِّفنا!...»[(٤)].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد كان عمر رضي الله عنه يستدعي من كعب الموعظة»[(٥)].

وعن الأسود بن هلال قال: «كنا نمشي مع معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال لنا: اجلسوا بنا نؤمن ساعة»[(٦)].

وعن بلال بن سعد أن أبا الدرداء قال: «كان ابن رواحة[(٧)] رضي الله عنه يأخذ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «المنامات»، ص٨٢. **قلت**: وإسناده جيد.
(٢) ذكره ابن رجب في «لطائف المعارف»، ص٤٥، ولم يذكر له إسناداً.
(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ١/ ٤٥٦. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٦٩. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٥) «القصاص والمذكرين»، ص١٩٤.
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٥. **قلت**: وإسناده جيد.
(٧) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة، أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب، الأمير السعيد الشهيد، الشاعر، الصحابي الجليل، صاحب المناقب العظيمة، توفي سنة: ٨هـ =

بيدي ويقول: تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً»[١].

* رابعاً: منهج السلف في مجالس الذكر:

إنّ الناظر في مجالس الذكر عند السلف، يجد بوناً شاسعاً بينها وبين مجالس الذكر عند غيرهم من متصوِّفة الزمان، فقد أحدثوا بدعاً منكرة أخرجت هذه المجالس عن مقصودها الشرعي.

فالاجتماع على ذكر الله مستحب مندوب إليه بمقتضى الأحاديث الواردة في فضله[٢]، ولكن على الوجه المشروع الذي فهمه الصحابة والتابعون وعملوا به.

وفيما يلي ذكر لأبرز معالم منهج السلف في مجالس الذكر:

١ ـ الذكر والتذكير عبادة توقيفية، منضبطة بما ورد في الكتاب والسنة.

والإحداث في مجالس الذكر قد يكون في توقيتها أو مكانها أو حال صاحبها أو كيفيتها، فكلّ ذلك من البدع المحدثة.

٢ ـ التذكير المشروع هو ما كان فيه اجتماع على مدارسة القرآن وتعلم أحكام الدين، والتعريف بالله ﷻ وتعداد نعمه وآلائه، وترقيق القلوب وإيقاظ الهمم.

كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «...إنما كنّا نقعد فنذكر الإيمان، ونتدبر القرآن، ونتفقه في الدين، ونعد نعم الله علينا تفقهاً»[٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ، والناس يستمعون، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأبي

= بمؤتة؛ سير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٠.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٤٩٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) «الأذكار» للنووي ١/ ٢٠.

(٣) سبق تخريج الأثر. **انظر**: ص٤٣٤، من هذا البحث.

موسى رضي الله عنه: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون لقراءته»[١].

أما الاجتماع على استماع القصائد والترنّم بها فهو من البدع المحدثة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما ذُكِر من السماع؛ فالمشروع الذي تصلح به القلوب ويكون وسيلتها إلى ربها بصلة ما بينه وبينها، هو سماع كتاب الله الذي هو سماع خيار هذه الأمة، لا سيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»**[٢]، وقال: **«زينوا القرآن بأصواتكم»**[٣] وهو السماع الممدوح في الكتاب والسنة.

لكن لما نسي بعض الأمة حظاً من هذا السماع الذي ذُكِّروا به أُلْقيَ بينهم العداوة والبغضاء، فأحدث قوم سماع القصائد والتصفيق والغناء مضاهاةً لما ذمَّه الله من المكاء[٤] والتصدية[٥]، والمشابهة لما ابتدعه النصارى، وقابلهم قوم قست قلوبهم عن ذكر الله وما أنزل من الحق، وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة مضاهاةً لما عابه الله.

والوسط هو ما عليه خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً، والله أعلم»[٦].

٣ ـ التذكير المشروع هو ما كان على هيئة التدارس أو الاستماع

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٥٣٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٦/ ٢٧٢٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، رقم (٦٩٧٣).

(٣) رواه أبو داود ١/ ٤٦٤، كتاب: الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة، رقم (١٢٥٦)؛ والنسائي ٢/ ١٧٩، كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت، رقم (١٠٠٥)؛ وابن ماجه ١/ ٤٢٦، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في حسن الصوت بالقرآن، رقم (١٣٣٢)، كلهم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه؛ والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/ ٤٠١.

(٤) المكاء هو الغناء والصفير؛ مختار الصحاح، مادة: «مكا» ١/ ٢٦٣.

(٥) التصدية هي: التصفيق؛ مختار الصحاح، مادة: «صدي» ١/ ١٥١.

(٦) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٢٢.

للمذكِّر أو الواعظ، أما الذكر الجماعي بصوت واحد، وأنغام متوافقة فهذا مما ابتدعه متصوفة الزمان.

قال الإمام الشاطبي[١] رَحِمَهُ اللهُ ـ في بيان البدع الإضافية ما نصه ـ: «كالجهر والاجتماع في الذكر المشهور بين متصوفة الزمان، فإنّ بينه وبين الذكر المشروع بوناً بعيداً إذ هما كالمتضادين عادة»[٢].

٤ ـ لا بد أن تكون مجالس التذكير غباً[٣] غير راتبة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الاجتماع لذكر الله واستماع كتابه والدعاء عمل صالح، وهو من أفضل القربات والعبادات في الأوقات، . . . لكن ينبغي أن يكون هذا أحياناً في بعض الأوقات والأمكنة، فلا يجعل سنة راتبة يحافظ عليها إلا ما سنَّ رسول الله ﷺ المداومة عليه في الجماعات من الصلوات الخمس في الجماعات، ومن الجُمُعات والأعياد ونحو ذلك»[٤].

• ومما سبق إيضاحه نخلص إلى أنّ مجالس الذكر عند السلف رحمهم الله هي مجالس يُذكر فيها الإيمان ويُتذاكر فيها القرآن، ويتفقه فيها في دين الله، وليست مجالس سمر وترنّم بالأشعار، كما يفعله البعض.

ولها فضائل عظيمة جاءت ببيانها النصوص الشرعية، ولقد كانت عناية السلف بها بالغة، فاشتهر المذكِّرون وعمّ نفعهم.



---

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي، الشهير بالشاطبي، العلامة الأصولي، كان له القدم الراسخ في سائر الفنون والمعارف، توفي سنة: ٧٩٠هـ؛ **انظر**: «شجرة النور الزكية، لمحمد بن محمد مخلوف» ص٢٣١.

(٢) الاعتصام ٤/٣١٨.

(٣) أي: أحياناً غير مستمرة بصفة دائمة؛ مختار الصحاح، مادة: «غبب» ١/١٩٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٢/٥٢١.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة



المبحث الثاني

القَصَص

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم القَصَص، ونشأته، وحكمه.

المطلب الثاني: منهج السلف في القَصَص.

المطلب الأول

مفهوم القَصَص، ونشأته، وحكمه

* أولاً: مفهوم القَصَص[١]:

القَصَص هو فعل القاص، وقد عرّف العلماء القاصّ بتعاريف كثيرة، نورد منها ما يلي:

١ ـ تعريف الخطابي رحمه الله:

قال: «القاصّ هو الذي يروي لهم أخبار الماضين، ويسرد لهم القصص»[٢].

٢ ـ تعريف ابن الجوزي رحمه الله:

قال: «القاصّ هو الذي يتتبّع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها، وذلك القَصَص، وهو في الغالب مستعمل فيمن يروي أخبار الماضين»[٣].

٣ ـ تعريف تاج الدين السبكي رحمه الله:

قال: «القاصّ هو من يجلس في الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف»[٤].

وتخصيص القَصَص بالطرقات خلاف المشتهر عند السلف، فقد كان القُصَّاص ـ كما سيأتي ـ يترددون على المساجد، ويقفون على رؤوس الناس عقيب الصلوات.

---

(١) سبق تعريف القصة لغة واصطلاحاً. **انظر**: ص٣٣٢ من هذا البحث.

(٢) «معالم السنن»، للخطابي ٤/ ٧٢. (٣) «القصاص والمذكرين»، ص١٥٩.

(٤) «معيد النعم ومبيد النقم»، لتاج الدين السبكي، ص١١٤.

* الفرق بين القاص والمذكِر والواعظ:

ـ من العلماء من قصر مهمة القاصِّ على تتبع الأخبار الماضية، وحكايتها على وجه يلين القلوب، ويثير النفوس، كما تقَّدم في تعريف الخطابي وابن الجوزي رحمهما الله.

وبهذا يتضح الفرق بين القاصّ والواعظ والمذكِّر، فالمذكر: الذي يذكر الناس آلاء الله ونعمائه ويبعثهم به على الشكر له، والواعظ يخوفهم بالله وينذرهم عقوبته فيردعهم به عن المعاصي، والقاص هو الذي يروي لهم أخبار الماضين ويسرد لهم القصص[(١)].

ـ ويرى بعض السلف أنّ القاص والمذكر والواعظ أسماء لمسمى واحد، فهذه الأسماء إذا انفردت دلّ كل واحد منها على الآخر، وإذا اجتمعت انفرد كلّ منها بوصف زائد.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد صار كثير من الناس يطلقون على الواعظ اسم القاص، وعلى القاص اسم المذكر. . . فصار اسم القاص عاماً للأحوال الثلاثة»[(٢)].

وقال ابن الأخوة رَحِمَهُ اللهُ: «والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قصّاصاً»[(٣)].

* ثانياً: نشأة القصَص:

لا شك بأنّ ظاهرة القَصَص بدأت مبكرة في تاريخنا الإسلامي، ولكن تباينت آراء العلماء في تحديد أوّل ظهور للقَصَص كوسيلة وعظية، وسوف أورد مجمل هذه الآراء:

الرأي الأول: أنّ القصَصَ ظهر بصورة نادرة على عهد النبي ﷺ[(٤)].

(١) «معالم السنن» ٤/ ٧٢؛ و«القصاص والمذكرين»، ص١٥٩ ـ ١٦١.
(٢) «القصاص والمذكرين»، ص١٦٢.
(٣) «معالم القربة في أحكام الحسبة»، لابن الأخوة، ص١٨٠.
(٤) «القصاص والمذكرين»، ص١٧٧.

واستدلّ أصحاب هذا الرأي بحادثتين:

الأولى: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قاصٍّ يقصّ فأمسك، فقال: «**رسول الله ﷺ قصّ، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحبّ إلي من أن أعتق أربع رقاب، وبعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب**»[(١)].

والثانية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ رسول الله ﷺ خرج من منزله فدخل المسجد، فإذا عبد الله بن رواحة يقصّ على قوم قد اجتمعوا إليه، فأتاهم النبي ﷺ فقعد في طرف القوم، فسكت عبد الله، فقال النبي ﷺ: «**اقصص أيها الرجل!**»، قال: بأبي أنت تقصّ! فأمره مراراً، فلما فرغ قال: «**الحمد لله الذي جعل من أمتي من يذكرهم بأيام الله، والذي نفسي بيده! لأن أصبر على هذا طرفي النهار أحبّ إلي من أن أعتق أربع رقاب من بني إسماعيل، وبهذا بعثت وبهذا أمرت**»[(٢)].

الرأي الثاني: أنّ بداية القَصَص يرجع إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم اختلف أصحاب هذا الرأي على قولين:

- فقيل: أن أوّل من قصّ على عهد عمر هو تميم الداري رضي الله عنه[(٣)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٦/ ٥٩٠، رقم (٢٢٢٥٤)؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم (٨٠١٣)؛ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٤٥٢: «ورجاله موثقون، إلّا أن فيه أبا الجعد عن أبي أمامة؛ فإن كان هو الغطفاني فهو من رجال الصحيح، وإن كان غيره فلم أعرفه».

(٢) الحديث أورده ـ بهذا السياق ـ ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، والحديث ضعيف، لأنّ في سنده فرات بن أبي السائب وهو متروك؛ ميزان الاعتدال ٣/ ٣٤١، ولم أجد من روى هذا الحديث بهذا اللفظ، غير أنّ الطبراني قد أورد حديثاً مقارباً لهذا الحديث، وفيه: عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بعبد الله بن رواحة وهو يذكر أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «أما إنكم الملأ الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معكم»، قال الهيثمي: «وفيه محمد بن حماد الكوفي وهو ضعيف»؛ مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦.

(٣) «القصاص والمذكرين»، ص١٧٧.

فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «إنه لم يكن يُقَصُّ على عهد رسول الله ﷺ ولا زمن أبي بكر ولا زمن عمر؛ حتى كان أوّلُ من قصّ تميماً الداري، استأذن عمر بن الخطاب أن يقصّ على الناس فأذن له»(١).

• وقيل: أن أوّل من قصّ هو عبيد بن عمير رحمه الله.

قال ثابت البناني رحمه الله: «أوّل من قصّ عبيد بن عمير على عهد عمر بن الخطاب»(٢).

الرأي الثالث: أنّ القَصَص ظهر زمن الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لم يُقَصّ على عهد رسول الله ﷺ، ولا أبي بكر، ولا عمر، ولكنه شيء أحدثوه، بعد عثمان»(٣).

وفي رواية: «لم يُقَصّ على عهد رسول الله، ولا أبي بكر، ولا عمر، وإنما كان القصص حين كانت الفتنة»(٤).

وقال ابن سيرين رحمه الله: «أوّل من قصّ الحرورية أو قال: الخوارج»(٥).

*** الترجيح:**

ـ إنّ البداية الفعلية للقَصَص كانت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأوّل قاصٍ: هو تميم الداري رضي الله عنه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢٤/ ٤٨٩، رقم (١٥٧١٥)؛ والطبراني في «المعجم الكبير»، رقم (٦٦٥٦)، وقال الهيثمي: «وفيه بقية بن الوليد وهو ثقة مدلس»؛ مجمع الزوائد ١/ ٤٥١؛ والأثر له شاهد من حديث ابن عباس عند ابن أبي شيبة ٨/ ٧٤٥؛ وآخر من حديث نافع أخرجه ابن المبارك في «الزهد»؛ وله شاهد ثالث من حديث عمرو بن دينار عند الطبراني في «المعجم الكبير»، رقم (١٢٤٩)، وشاهد رابع من حديث الزهري عند ابن عساكر في «الأوائل» ٢/ ١٢٧، فيكون الأثر حسناً لغيره بجموع طرقه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٥/ ٤٦٣، وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٩١؛ وابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٥/ ٤٦٣. **قلت:** وإسناده قوي.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٩٠؛ وابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٩. **قلت:** وإسناده صحيح.

(٥) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٩. **قلت:** وإسناده لا بأس به.

لصحة الرواية الواردة في ذلك، واشتهارها بين العلماء.

ـ أمّا ما قيل عن بداية القَصَص في العهد النبوي؛ فإحدى الحادثتين ضعيفة، أما الحادثة الأخرى على فرض ثبوتها، فهي محمولة على التذكير لا على القصص، إذ لو كان القصص معهوداً في زمن النبي ﷺ لما تردّد عمر رضي الله عنه في الإذن لتميم في القَصَص.

ـ وأما عن الرأي القائل ببداية القصص زمن الفتنة؛ فهو محمول على أحد أمرين:

إمّا أن يحمل على اشتهار القصص وشيوعه، كما قال ابن الجوزي[1].

أو أن يحمل على بداية ظهور القَصَص المذموم.

* ثالثاً: حُكْم القَصَص:

تضاربت أقوال السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في حُكْم القَصَص، وفيما يلي عرض لمجمل هذه الأقوال:

القول الأول: أنّ القَصَص بدعة محدثة غير مشروعة.

ويرى أصحاب هذا القول أنه لا يجوز الجلوس إلى القصّاص، وأنّه يجب على الحاكم أن يحجر عليهم، ويخرجهم من المساجد.

• وهو قول: ابن مسعود، وابن عمر، وصلة بن الحارث رضي الله عنهم، وغضيف بن الحارث، وسفيان الثوري، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، والأعمش رحمهم الله جميعاً.

• واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ ـ أنّ القَصَص بدعة محدثة لم تكن على عهد النبي ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لم يُقَصّ على عهد رسول الله ﷺ، ولا أبي

(١) «القصاص والمذكرين»، ص١٧٩.

بكر، ولا عمر، ولكنه شيء أحدثوه، بعد عثمان»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه وقف على عمرو بن زرارة[٢] وهو يقصّ، فقال: «يا عمرو لقد ابتدعت بدعة ضلالة، أو إنك لأهدى من محمد ﷺ وأصحابه»[٣].

وعن غضيف بن الحارث[٤] قال: «بعث إلي عبد الملك بن مروان فقال: يا أبا أسماء! إنا قد جمعنا الناس على أمرين، قال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقَصَص بعد الصبح والعصر. . . فقال: أما إنهما أمثل بدعتكم عندي، ولست مجيبك إلى شيء منهما، قال: لم؟ قال: لأن النبي ﷺ قال: **«ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة.. فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة»**[٥].

٢ ـ أنّ القُصَّاص اشتهروا بالكذب ووضع الحديث، والجهل بأحكام الدين، والرياء، وطلب الجاه، والجشع، وغير ذلك من الصفات الذميمة[٦].

٣ ـ أنّ القَصَص لأخبار المتقدمين تندر صحته، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل، وفي شرعنا غنية.

٤ ـ أنّ التشاغل بالقَصَص يُشْغل عن المهم من قراءة القرآن، ورواية

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٥/ ٤٦٣. **قلت**: وإسناده قوي.

(٢) عمرو بن زرارة بن قيس بن الحارث، النخعي الكوفي، كان ممن سيّره عثمان بن عفان من الكوفة إلى دمشق، من كبار التابعين، وكان من الوعاظ المذكرين؛ «تاريخ دمشق» ٤٦/ ١٦.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ٩/ ١٢٧، رقم (٨٦٣٧)؛ قال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح»، مجمع الزوائد ١/ ٤٥١.

(٤) غضيف بن الحارث بن زنيم السكونى الكندي، أبو أسماء الحمصي، مختلف في صحبته، توفي سنة: بضع وستون للهجرة؛ «الإصابة في تمييز الصحابة» ٥/ ٣٤٦.

(٥) رواه أحمد في سننه ٢٨/ ١٧٢، رقم (١٦٩٧٠)؛ وقال الهيثمي: «وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكر الحديث»؛ مجمع الزوائد ١/ ٤٤٧.

(٦) **انظر**: «تلبيس إبليس»، ص١٥١؛ و«الموضوعات» لابن الجوزي ١/ ٤٤.

الحديث، والتفقه في الدين[١].

٥ ـ أنّ مجالس القَصَص تجري فيها مناكير عظيمة، كاختلاط الرجال بالنساء، ورؤية بعضهم لبعض، كما قال ابن الجوزي[٢] وابن الأخوة[٣].

٦ ـ أنّ مجالس القَصَص نفعها قليل، وضررها كثير.

قال أبو قلابة[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أمات العلم إلا القصّاص؛ يجالس الرجل الرجل القاصّ سنة فلا يتعلق منه بشيء، ويجلس إلى العالم فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء»[٥].

القول الثاني: أنّ القَصَص جائز ومشروع.

وهو قول: عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والحسن البصري، والأوزاعي رحمهما الله[٦].

● واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ ـ أنّ الله تعالى قد أمر بالقَصَص في كتابه، فقال: ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وما كان مأمور به شرعاً لا يكون بدعة[٧].

٢ ـ إقرار النبي ﷺ وامتداحه للقَصَص، كما في قصة عبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٨].

٣ ـ إذن عمر بن الخطاب لتميم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بالقَصَص، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أُمرْنا باتباع سنتهم وسلوك طريقهم.

٤ ـ أنّ القَصَص ظهرت فائدته، وعمّت منفعته، كما قال الحسن

---

(١) «القصاص والمذكرين»، ص١٣٠ ـ ١٦١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٥٣.

(٣) «معالم القربة في أحكام الحسبة»، ص١٨٠.

(٤) عبد الله بن زيد بن عمرو، أبو قلابة الجرمي البصري، الإمام شيخ الإسلام، كان من أئمة الهدى، وكان ثقة كثير الحديث، توفي سنة: ١٠٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/٤٦٨.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/٢٧٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٦) «الآداب الشرعية» ٢/٨٣.

(٧) «الآداب الشرعية» ٢/٨٥.

(٨) **انظر**: ص٤٥٢ من هذا البحث.

البصري رحمه الله: «القَصَص بدعة ونعمة البدعة، كم من دعاء مستجاب، وأخ مستفاد»[(١)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «يعجبني القصّاص لأنهم يذكِّرون الميزان وعذاب القبر»[(٢)].

القول الثالث: أنّ القَصَص نوعان: محمود مشروع، ومذموم مكروه.

فالمحمود منه ما كان صحيحاً منضبطاً بضوابط الشرع، والمذموم ما كان فيه كذب وافتراء[(٣)].

وهو قول: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأحمد بن حنبل رحمه الله[(٤)].

● ودليلهم في ذلك:

١ ـ أنّ القصَصَ لا يُذَم لنفسه لأنّ الله عز وجل قد قصّ في كتابه كثيراً من أخبار الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والأشقياء والصالحين[(٥)]، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

كما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالقَصَص، فقال: **﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٦].

٢ ـ أنّ القَصَصَ إذا سَلم من المحاذير الشرعية، كالكذب والافتراء، كان فيه أعظم النفع، وأبلغ الأثر.

ـ قال المروزي رحمه الله: «سمعت أبا عبد الله[(٦)] يقول: يعجبني القصّاص لأنهم يذكِّرون الميزان وعذاب القبر؛ قلت لأبي عبد الله: أفترى الذهاب إليهم؟ قال: أي لعمري إذا كان صدوقاً؛ لأنهم يذكرون الميزان

(١) رواه أبو المظفر السمعاني في كتاب: «الانتصار الأصحاب الحديث»، ص٢٨، ولم يذكر له إسناداً.
(٢) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٤. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) «القصاص والمذكرين» ص٥٠، وسيأتي ذكر ضوابط القصص المحمود في المطلب الثاني من هذا المبحث إن شاء الله.
(٤) **انظر**: «الآداب الشرعية» ٢/ ٨٣.
(٥) «تلبيس إبليس»، ص١٥٠.
(٦) يعني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

وعذاب القبر»[١].

ـ وعن جعفر بن محمد قال: «قال أحمد: ما أحوج الناس إلى قاصٍ صدوق»[٢].

ـ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما ذم القصّاص لأنّ الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال، فأما إذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً فهو ممدوح»[٣].

٣ ـ أنّ كثيراً من الصحابة ممن أنكروا القَصَص كانوا يحضرون مجالس القَصَص[٤].

فيحمل إنكارهم على القَصَص المذموم، الذي فيه كذب وافتراء.

٤ ـ أنّ بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يمتحنون القصّاص، فيقرِّون العلماء منهم، وينكرون على الجهال.

ـ فقد مرّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قاصّ فقال له: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هل تعرف المحكم من المتشابه؟ قال: لا، قال: هل تعرف الزجر من الأمر؟ قال: لا.

فأخذ بيده فرفعها وقال: إنّ هذا يقول: اعرفوني اعرفوني»[٥].

ـ ومرّ على قاصّ آخر فسأله: «علمت الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت»[٦].

---

(١) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٤. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٤. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٣) «تلبيس إبليس»، ص١٥٠.

(٤) «القصاص والمذكرين»، ص١٩٣.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ١٢/ ٢٦٤؛ قال الهيثمي: «وفيه يحيى البكاء وهو متروك» ١/ ٤٥٠.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٩٠؛ والبيهقي في «السنن الكبرى» ١٠/ ١١٧؛ وأبو خيثمة في «العلم»، ص٣١. **قلت**: وإسناده صحيح.

ـ وهذا الخبر مرويٌّ أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما[١].

ـ وعن شريح قال: «كنت مع علي رضي الله عنه في سوق الكوفة، حتى انتهى إلى قاصٍّ يقصّ، فوقف عليه فقال: أيها القاصّ! تقصّ ونحن قريب العهد، أما إني أسألك فإن تخرج عما سألتك، وإلّا أدبتك، قال القاصّ: سل يا أمير المؤمنين عما شئت، فقال: علي رضي الله عنه ما ثبات الإيمان وزواله؟ فقال القاص: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع، قال علي رضي الله عنه فمثلك يقصّ»[٢].

* **الترجيح**: والراجح هو القول الثالث لأنّ:

القَصَص لا يُذَمّ لنفسه؛ لأنّ في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتّبع، وقد قصّ الله كثيراً من القصص في كتابه وندب نبيه ﷺ لقصّ القَصَص[٣].

فإذا كانت القصّة صحيحة الإسناد، ذات عبرة وعظة، كان القَصَص محموداً، وإذا كانت القصة مكذوبة مختلقة، أو خلت من العبرة والعظة؛ كان القَصَص مذموماً[٤].

ـ أمّا القول ببدعية القَصَص ـ وهو القول الأول ـ، فالمقصود بالبدعة هنا ـ كما قال الحافظ ابن رجب رحمه الله ـ هو الاجتماع في وقت معيّن لاستماع القَصَص.

قال رحمه الله: «وإنما عنى هؤلاء بأنه بدعة: الهيئة الاجتماعية عليه في وقت معين، فإن النبي ﷺ لم يكن له وقت معين يقصّ على أصحابه فيه غير خطبته الراتبة في الجمع والأعياد، وإنما كان يذكّرهم أحياناً، أو عند حدوث أمر يحتاج إلى التذكير عنده»[٥].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ١٠/ ٢٥٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٤/ ١٣٦، وإسناده حسن.

(٣) «القصاص والمذكرين»، ص١٥٩.

(٤) سيأتي ذكر ضوابط القَصَص المحمود في المطلب الثاني من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

(٥) «جامع العلوم والحكم»، ص١٩٦.

ولكن يجاب على هذا الإشكال بأنّ الصحابة قد أجمعوا على تعيين أوقات للقَصَص والتذكير.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ثم إن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم اجتمعوا على تعيين وقت له كما سبق عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يذكّر أصحابه كل يوم خميس، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: حدّث الناس في كل جمعة مرة فإن أبيت فمرتين فإن أكثرت فثلاثاً ولا تمل الناس، وفي المسند عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها وصّت قاصَّ أهل المدينة بمثل ذلك»[1].

ـ وأمّا ما قيل عن المحاذير الموجودة في القَصَص فهو محمول على القَصَص المذموم لا على المحمود.

ـ أمّا القول بجواز القَصَص مطلقاً ـ وهو القول الثاني ـ فيه فتح للباب أمام القصّاص الدجالين.



(١) المصدر السابق، وقد سبق تخريج هذه الآثار؛ **انظر**: ص٢٥٤ من هذا البحث.

المطلب الثاني

منهج السلف في القَصَص

* أولاً: ضوابط القَصَص المحمود عند السلف:

ثمة ضوابط تحكم القَصَص المحمود، سار عليها السلف رحمهم الله في قَصَصهم.

وهذه الضوابط منها ما يتعلّق بالقصة ـ أو موضوع القَصَص ـ، ومنها ما يتعلّق بالقاصّ، ومنها ما يتعلّق بمنهج القَصَص وطريقته، وفيما يلي ذكرٌ لأبرزها:

أ ـ ضوابط القَصَص المتعلّقة بالقصّة:

سبق معنا ـ عند الحديث عن أساليب الوعظ عند السلف ـ ذكر ضوابط القصّة الوعظية، وهي في مجملها ترجع إلى أربعة ضوابط[(١)]:

١ ـ صحة القصة. ٢ ـ واقعية القصّة. ٣ ـ أن تكون القصة ذات عبرة وعظة. ٤ ـ أن تكون القصّة مستمدّة من قصص الكتاب والسنة، وأخبار الرعيل الأول.

ويقرّر ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ ضوابط القصّة في قوله: «وإنما ذم القصّاص لأنّ الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال، فأما إذا كان القَصَص صدقاً ويوجب وعظاً؛ فهو ممدوح»[(٢)].

---

(١) انظر تفصيل هذه الضوابط، في ص٣٤٢ من هذا البحث.

(٢) «تلبيس إبليس»، ص١٥٠.

ب ـ ضوابط القَصَص المتعلّقة بالقاصّ:

كان السلف رحمهم الله يشدّدون على القصّاص ويمتحنونهم، بغية التمييز بين الصالح منهم لهذه المهمة العظيمة، وبين الدخيل الذي لا يصلح، ونستطيع أن نستنبط من خلال كلام السلف ومواقفهم مع القصّاص أبرز السمات والضوابط التي اشترطوها في القاصّ:

١ ـ الصدق:

إنّ عموم القصّاص لا يتحرّون الصدق، وكثير منهم يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، ويزعم أنّ قصده دعوة الخلق إلى الحقّ[(١)].

وقد أعرض أغلب السلف عن القصّاص لشيوع الكذب والافتراء في الحديث بينهم[(٢)].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقصّاص يميّلون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير، والغريب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاصِّ ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول»[(٣)].

ومما نُقل عن السلف رحمهم الله في اشتراط صدق القاصّ:

ـ قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صَدق»[(٤)].

وقال أيضاً ـ وقد سُئل عن مجالسة القصّاص ـ: إذا كان القاصّ صدوقاً فلا أرى بمجالسته بأساً»[(٥)].

ـ قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن كانت القصّة من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيما

---

(١) «إحياء علوم الدين» ١/ ٣٥.

(٢) «القصّاص والمذكرين»، ص١٦١.

(٣) «تأويل مختلف الحديث»، لابن قتيبة ١/ ٢٧٩.

(٤) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» ص١٧٤، بسند حسن؛ وذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٨٣.

(٥) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» ص١٧٥، بسند لا بأس به؛ وذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٨٣.

يتعلّق بأمور دينهم، وكان القاصّ صادقاً صحيح الرواية، فلست أرى به بأساً»[١].

٢ ـ العلم:

العلم هو عدّة العلماء والوعّاظ والمذكِّرين، ولكن حينما عزّ وجوده بين القصّاص بالغ السلف رحمهم الله في اشتراطه، وامتحان القصّاص من أجله.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا ينبغي أن يقصّ على الناس إلّا العالم المتقن فنون العلم، لأنه يُسأل عن كلّ فنّ»[٢].

وسبق معنا[٣] إيراد جملة من الحوادث التي امتحن فيها الصحابة رضي الله عنهم القصّاص في علمهم وفهمهم، وهذا من أعظم الشواهد الدالّة على أهمية العلم بالنسبة للقاصّ.

٣ ـ التقوى والورع:

• إنّ القاصّ كلّما كان تقياً ورعاً مبتغياً بقصصه وموعظته وجه الله تبارك وتعالى، كلّما كان قصصه أوقع في قلوب الناس.

فعن سعيد بن عاصم قال: «كان قاصّ يجلس قريباً من مسجد محمد بن واسع، فقال يوماً: وهو يوبخ جلساءه، ما لي أرى القلوب لا تخشع؟ وما لي أرى العيون لا تدمع؟ وما لي لا أرى الجلود لا تقشعر؟ فقال محمد بن واسع: يا عبد الله! ما أرى القوم أُتُوا إلّا من قبلك، إنّ الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب»[٤].

قال ابن الجوزي رحمه الله ـ بعد أن ذكر شروط القَصَص ـ: «ومدار ذلك كلّه على تقوى الله عز وجل، وأنّه بقدر تقواه يقع كلامه في القلوب»[٥].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ١/ ٣٥.

(٢) «القصاص والمذكرين»، ص١٨١.

(٣) **انظر**: ص٤٥٨ من هذا المبحث.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٥١. **قلت**: وإسناده جيد.

(٥) «القصاص والمذكرين» ص١٨٢.

• كما أنّ القاصّ مؤتمن فيما ينقله من الأخبار، فإذا لم يكن عنده دين وورع، لم يُؤمَن أن يزيد وينقص، ويكذب في قصصه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وعموم القصّاص لا يتحرّون الصواب، ولا يتحرّزون من الخطأ، لقلّة علمهم وتقواهم»[١].

• وكان القصّاص من السلف على جانب كبير من التقوى والديانة والورع.

قال عفان بن مسلم[٢]: «كنا نأتي مجلس صالح المري[٣] نحضره وهو يقصّ، وكان إذا أخذ في قَصَصه كأنه رجل مذعور، يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى، وكان شديد الخوف من الله كثير البكاء»[٤].

٤ ـ التواضع:

القاصّ ـ في الغالب ـ محبوب من قبل العامة؛ لأنه يسرهم بقصصه، ولا سيما إذا كان من أهل البيان والفصاحة، فهو محطّ الأنظار ومرمى الأبصار، ولذا يخاف عليه العجب والغرور، فلزم عليه أن يسلك سبيل التواضع.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد يكون الواعظ صادقاً قاصداً للنصيحة، إلّا أن منهم من أشرب الرئاسة قلبه مع الزمان، فيحب أن يُعَظَّم، وعلامته أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه كره ذلك، ولو صحَّ قصده لم يكره أن يعينه»[٥].

---

(١) المصدر السابق ص١٦١.

(٢) عفان بن مسلم بن عبد الله الأنصاري أبو عثمان البصري، الإمام الحافظ محدث العراق، بقية الأعلام، كان ثقة جليلًا مهيباً ورعاً، وكان ممن امتحن في فتنة خلق القرآن فثبت، توفي سنة: ٢١٩هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٤٢.

(٣) صالح بن بشير بن وادع أبو بشر البصري المعروف بالمري واعظ أهل البصرة، من كبار أتباع التابعين، ولكنه ضعيف الرواية في الحديث، توفي سنة: ١٧٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٣/ ٣٥١، ولم يذكر له إسناداً.

(٥) «تلبيس إبليس» ص١٥٢.

ـ وقد أبدى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خوفه من دخول العُجْب في قلب القاصّ الذي استفتاه في القَصَص.

فعن الحارث بن معاوية الكندي[١] أنه ركب إلى عمر رضي الله عنه فسأله عن القَصَص.

فقال: ما شئت، كأنه كره أن يمنعه.

قال: إنما أردت أن أنتهي إلى قولك.

قال: أخشى عليك أن تقصّ فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقصّ فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك»[٢].

ـ وعن أبي مليح قال: ذكر ميمون[٣] القُصّاص فقال: «لا يخطئ القاصّ ثلاثاً: «إما أن يُسمن قوله بما يهزل دينه، وإما أن يُعْجَب بنفسه، وإما أن يأمر بما لا يفعل»[٤].

ج ـ الضوابط المنهجية للقَصَص:

لا يكفي أن تكون القصّة صحيحة، والقاصّ صادقاً، ولكن ينبغي أيضاً أن يكون المنهج المتّبع في القَصَص منضبطاً بالضوابط الشرعية.

وفيما يلي ذكر أبرز ضوابط منهج القَصَص:

١ ـ ينبغي أن تساق القصّة مساقاً حسناً يجمع بين عذوبة الأسلوب مع إبراز

---

(١) الحارث بن معاوية بن زمعة الكندي، مختلف في صحبته، ذكره ابن منده في الصحابة، والتحقيق أنه من كبار التابعين، ومن أصحاب أبي الدرداء رضي الله عنه، «تاريخ دمشق» ١١/ ٤٨١؛ و«الإصابة في تمييز الصحابة» ١/ ٦٠٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/٢٦٦، رقم (١١١)، قال ابن مفلح: إسناده جيد، «الآداب الشرعية» ٢/ ٥٤.

(٣) ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب الرقى، من كبار التابعين، كان تقياً ورعاً، ولي قضاء الجزيرة على عهد عمر بن عبد العزيز، توفي سنة: ١١٧هـ؛ «تهذيب التهذيب» ٤/ ١٩٩.

(٤) رواه أحمد في «الزهد» ص٦٩. **قلت**: وإسناده جيد.

موطن العظة والعبرة، وهذا لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في بيان ضابط القصص الممدوح ـ: «إذا كان القَصَص صدقاً ويُوجب وعظاً؛ فهو ممدوح»(١).

٢ ـ يجب أن لا يكون القَصَص ديمة؛ لأنّ في هذا الأمر محاذير كثيرة، منها:

• أن التشاغل بالقَصَص والإكثار منه، يُشغل عن المهم من قراءة القرآن، والنظر في السيرة النبويّة، والتفقه في الدين(٢).

ولأجل هذا كره كثير من السلف القَصَص خشية أن يشغلهم عن التفقه في الدين ورواية الحديث.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصّاص، فينهون عن الحضور عندهم... وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم؛ لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القَصَص صادّاً لهم»(٣).

• أنّ القَصَص ثقيل، وربما نفرت النفوس من العظة والزجر إذا أكثر منه الواعظ(٤).

٣ ـ هناك ضوابط تتعلّق بهيئة القَصَص، ومكانه، وزمانه:

• أما هيئة القَصَص: ذكر الإمام تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه كانت عادة القصّاص من السلف رحمهم الله أن يقرأ القاصّ من حفظه، وعادة ما يقف قائماً أثناء قصَصه وقد يجلس أحياناً(٥).

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص١٥٠.
(٢) «القصاص والمذكرين»، ص١٦١.
(٣) «صيد الخاطر»، ص١٠٠.
(٤) «القصاص والمذكرين»، ص١٨٩. وقد سبق ذكر بعض الآثار عن السلف في التخوّل بالموعظة. **انظر**: ص٢٤٩ ـ ٢٥٣ من هذا البحث.
(٥) «معيد النعم»، ص١١٤.

• وأما مكان القَصَص: فالقاصّ كان يجلس في الطرقات عادة، أو في المساجد.

قال السبكي رَحِمَهُ اللهُ: «القاصّ هو من يجلس في الطرقات....»[١].

ويفهم من هذا النصّ أنّ القاصّ لا يجلس إلّا في الطرقات وقد يكون هذا في عصر السبكي، بينما في العصور السابقة كان يجلس في المسجد والطرقات، وكانوا يختارون المساجد الكبرى[٢].

ويشهد لذلك:

- ما رواه عقبة بن حريث قال: «جاء ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى المسجد فوجد قاصّاً يقصّ، فوجّه إلى صاحب الشرطة: أن أخرجه من المسجد، فأخرجه»[٣].

- وجاء في (تاريخ الخلفاء للسيوطي): «وفي أول سنة (٢٧٩هـ) استخلف فيها المعتضد بالله منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق»[٤].

• أمّا زمان القَصَص: فهو الوقت الذي يجتمع فيه أكبر عدد من الناس، وأنسب الأوقات بعد صلاة الجمعة، وبعد العصر والصبح، وفي شهر رمضان، وبعد كثير من الصلوات[٥].

* ثانياً: عناية السلف رحمهم الله بالقَصَص:

وإن كان السلف رحمهم الله قد اختلفوا في حُكْم القَصَص بين مؤيد ومعارض - كما سبق - إلّا أنهم قد أولوه أهمية بالغة؛ يظهر ذلك من خلال ما يلي:

---

(١) المصدر السابق، ص١١٣.
(٢) «تاريخ القصّاص»، د. محمد الصبّاغ، ص٣٩.
(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٩١. **قلت**: وإسناده حسن.
(٤) «تاريخ الخلفاء»، ص٣٢٠.
(٥) «تاريخ القصّاص»، ص٤٠.

١ ـ انتشار القَصَص زمن السلف رحمهم الله:

انتشر القَصَص في القرون الثلاثة الأولى بشكل كبير، وأصبح من النادر أن تجد مسجداً يخلو من مجالس القَصَص.

فعن عبد الله بن عون[(١)] رَحِمَهُ اللهُ قال: «أدركت هذا المسجد، مسجد البصرة، وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلّا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصّاص»[(٢)].

٢ ـ اشتغال بعض السلف رحمهم الله بالقَصَص:

كانت طائفة من السلف ترى في القَصَص طريقاً لفتح القلوب المقفلة، وزجر النفوس اللاهية، فأولت القَصَص أهمية، وبذلت له أوقاتاً، فسطع نجم فريق منهم في مجال القَصَص، وقصدهم الداني والقاصي، وغدت مجالسهم عامرة.

ومن هؤلاء تمثيلاً لا حصراً:

أ ـ أعلام القصّاص من الصحابة:

ـ تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان أوّل من قصّ على عهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما سبق معنا[(٣)].

ـ الأسود بن سريع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: فعن الحسن بن أسود بن سريع قال: كان الأسود بن سريع أوّل من قصّ في هذا المسجد ـ يعني مسجد البصرة ـ»[(٥)].

---

(١) عبد الله بن عون بن أرطبان، أبو عون المزني مولاهم البصري، الإمام القدوة عالم البصرة الحافظ، كان ثقة كثير الحديث ورعاً، توفي سنة: ١٣٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٦٤.

(٢) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٧٢، وإسناده لا بأس به.

(٣) **انظر**: ص٤٥٢ من هذا المبحث.

(٤) هو: الأسود بن سريع بن حمير التميمي الصحابي الجليل والشاعر المشهور، غزا مع النبي ﷺ أربع غزوات، كان قاصّاً، توفي سنة: ٤٢هـ؛ «الإصابة في تمييز الصحابة» ١/ ٧٤.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٦/ ٢٣١، رقم (١٦٣٠٣). **قلت**: وإسناده منقطع.

ب ـ أعلام القصّاص من التابعين ومن بعدهم:

ـ صالح المرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال خالد بن خداش: كنّا نأتي صالحاً المرِّي ـ وكان يقصّ بالبصرة ـ وما رأيت رجلاً أخوف لله منه ولا أكثر بكاءً»[(١)].

ـ قتادة بن دعامة السدوسي[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الإمام أحمد بن حنبل: «كان قتادة من الثقات المأمونين، وكان يقصّ، وكان صحيح الحديث»[(٣)].

ـ منصور بن عمّار[(٤)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو سعيد بن يونس: كان منصور بن عمّار في قَصَصه وكلامه شيئاً عجيباً، لم يقصّ على الناس مثله»[(٥)].

٣ ـ حضور السلف رحمهم الله مجالس القَصَص:

من السلف رحمهم الله من كان مواظباً على حضور مجالس القَصَص، وقد عقد ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «القصّاص والمذكرين» باباً في ذكر من كان يحضر من الأكابر عند القصّاص.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مستهلّ الباب: «وقد كان جماعة من الأمراء والعلماء يحضرون عند القصّاص ويسمعون منهم ويبكون لوعظهم»[(٦)].

ثم أورد طائفة من الآثار، نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

ـ عن القاسم بن محمد قال: رأيت عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند القاصّ رافعاً يديه يدعو حتى تُحاذيا منكبيه»[(٧)].

---

(١) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص٢٦٩. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) قتادة ابن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، حافظ عصر قدوة المفسرين والمحدثين، كان من أوعية العلم وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، وكان يرى القدر، توفي سنة: ١١٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩.

(٣) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص٢٥٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) منصور بن عمار بن كثير، أبو السري السلمي الخراساني، الواعظ، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، توفي في حدود المائتين؛ سير أعلام النبلاء ٩/٩٣.

(٥) رواه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص٢٨٤؛ والخطيب في «تاريخ بغداد» ١٣/٧٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) «القصّاص والمذكرين»، ص١٩٣.

(٧) رواه ابن سعد في «الطبقات» ٤/١٦٢. **قلت**: وإسناده حسن.

وعن يوسف بن ماهك قال: «رأيت ابن عمر ﵄ عند عبيد بن عمير وهو يقصّ، وعيناه تهرقان دموعاً»[١].

ـ وعن الأوزاعي قال: قعدنا إلى عطاء وعنده رجل يقصّ، فما رأيت رجلاً أكثر لرفع اليدين منه، وكلما رفع يده رفع عطاء يده»[٢].

ـ وعن معروف بن واصل قال: «رأيت أبا وائل ـ شقيق بن سلمة ـ عند إبراهيم التيمي وهو يقصّ ويبكي»[٣].

ـ وعن الأوزاعي قال: «كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى القاصّ مع العامة بعد الصلاة؛ يرفع يده إذا رفع»[٤].

ـ وقال عبد الرحمٰن بن مهدي: «جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المرِّي، فتكلّم صالحٌ، فرأيت سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاصّ هذا نذير قوم»[٥].

٤ ـ استدعاءُ السلف رحمهم الله للقَصَص:

لم يكتف السلف رحمهم الله بحضور مجالس القَصَص، بل كانوا يستدعون القَصَص ويأمرون القصّاص بذلك، وهذا حرصاً منهم على ما يرقّق قلوبهم ويهرق دموعهم.

ـ فعن مجاهد عن ابن عباس ﵄ أنّه دخل المسجد وعبيد بن عمير يقصّ، فقال لقائده، اذهب بي نحوه، فجاء حتى قام على رأسه فقال: أبا عاصم! ذكّر بالله وذكّر لله»[٦].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٠٥؛ وابن سعد في «الطبقات» ٤/ ١٦٢. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٢) رواه ابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص١٩٩. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» ٦/ ١٠٠؛ وابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص٢٠٠.

(٤) رواه ابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص٢٠٠. **قلت**: وسنده لا بأس به.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ١٦٧؛ وابن سعد في «الطبقات» ٧/ ٢٨١.

(٦) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٦٧. **قلت**: ورجاله ثقات.

ـ وعن موسى الجهني قال: «رأيت عطاء بن أبي رباح دعا بخمسة قصّاص، فقال: قُصُّوا في المسجد الحرام، قال: وهو جالس إلى أُسطُوَانة، قال: فكان خامسهم عمر بن ذر»[1].

٥ ـ إنكار السلف رحمهم الله على القصّاص:

كان السلف رحمهم الله يقوِّمون من زلّ من القصّاص ـ وهذا نصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين ـ وكانت لهم مواقف مشهورة مع القصّاص.

وقد أفرد الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص» فصلاً: (في إنكار العلماء قديماً على القصّاص ما رووه من الأباطيل)... وأورد تحته جملة من الآثار.

● تأليف الكتب في الردّ على القصّاص:

انبرى جمع من السلف رحمهم الله للتصدّي لكذب القصّاص ودجلهم، فألفوا كتباً بينوا فيها زيغهم، وكشفوا عوارهم.

كابن الجوزي، وابن تيمية، والعراقي، والسيوطي، رحمهم الله، وغيرهم كثير.

● وخلاصة ما سبق بيانه أنّ: القَصَص لا يُذَمّ لنفسه؛ لأنّ في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، وقد قصّ الله كثيراً من القصص في كتابه وندب نبيه لقصّ القَصَص.

فإذا كانت القصّة صحيحة الإسناد، ذات عبرة وعظة، وكان القاصّ صادقاً، ورعاً، متواضعاً، كان القَصَص محموداً، وإذا كانت القصة مكذوبة مختلقة، أو خلت من العبرة والعظة؛ أو كان القاصّ كاذباً، قليل الدين والعلم، كان القَصَص مذموماً.

ومن هنا نتبيّن أنّ إنكار السلف للقصص لم يكن على إطلاقه وإنما هو مقيّد بالمذموم منه دون المحمود، وهذا ما يفسر اشتغال بعض السلف بالقصص.

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص١٩٨. **قلت**: وسنده حسن.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الثالث

التأليف

وفيه مطلبان.

المطلب الأول: نشأة التأليف في مجال الوعظ، وأهميته.

المطلب الثاني: مؤلفات السلف في باب الوعظ، أنواعها وضوابطها.

المطلب الأول

نشأة التأليف في مجال الوعظ، وأهميته

* أوّلاً: مفهوم التأليف وغايته:

• التأليف والتصنيف والتدوين، ألفاظ مترادفة تدلّ على معان متقاربة، ومعناها العام هو: «تقييد المتفرق، وجمع المتشتت من الأخبار والعلوم في ديوان أو كتاب، ومنه جمع الصحف في كتاب»[١].

• أما الغاية من التأليف والتصنيف فهي ترجع إلى سبعة أمور؛ ذكرها صاحب كشف الظنون، حيث قال: «... إن التأليف على سبعة أقسام: لا يؤلِّف عالمٌ عاقلٌ إلَّا فيها وهي: إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنف فيصلحه»[٢].

والغاية من التأليف في باب الوعظ لا تخرج عن هذه المقاصد السبعة.

* ثانياً: نشأة التأليف في باب الوعظ:

إنّ الوعظ والإرشاد يُعَدُّ من أبرز مضامين السنة النبويّة والآثار السلفية، ولهذا فإنّ الحديث عن بداية تدوين السنة النبوية والآثار السلفية، هو في نفس الوقت حديث عن تدوين الوعظ والرقائق.

وإن كان تدوين الوعظ بشكلٍ أخص قد ظهر أوّل ما ظهر في عهد

---

(١) «لسان العرب» ٩/ ١٨٩، مادة: «صنف».

(٢) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، لحاجي خليفة ١/ ٣٥.

التابعين، ومرّ بمرحلتين، مرحلة التضمين، حيث ضمِّنت كثير من كتب الحديث طرفاً من مواعظ النبي وصحابته، والمرحلة الثانية هي مرحلة الاستقلال حيث ظهرت كتب الزهد، والرقاق[١].

وتدوين السنة النبوية، والآثار السلفية وجمعها وتصنيفها مرّ بمراحل شتى، وسوف أشير إلى هذه المراحل بشكل موجز غير مخلٍّ.

١ ـ إنّ البداية الحقيقية لتدوين السنة وجمعها ـ بما في ذلك أقوال النبي ﷺ وخطبه ومواعظه ـ بدأت في عهد النبي ﷺ حيث هبَّ بعض الصحابة رضي الله عنهم بشكل فردي لكتابة وتدوين كلّ ما سمعوه ورأوه من النبي ﷺ[٢].

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلَّم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**»[٣].

كما أمر النبي ﷺ صحابته أن يكتبوا لأبي شاة خطبته وموعظته ﷺ في فتح مكة[٤].

---

(١) **انظر**: تفصيل هذه المراحل في ص٤٧٤ من هذا البحث.

(٢) ثمة خلاف مشهور بين العلماء في حكم كتابة السنة في عهد رسول الله ﷺ وذاك لوجود أحاديث متعارضة في الباب، فبعضها يفيد النهي وبعضها الآخر يفيد الجواز والإباحة، وقد بحث الإمام الخطيب رحمه الله هذه المسألة بما لا مزيد عليه في كتابه: «تقييد العلم» فاستعرض الأقوال وناقش الأدلة، وخلص إلى إباحة كتابة السنة في عهده ﷺ.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٣٤٢، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، رقم (٣١٦١)؛ وأحمد في مسنده ١١/ ٥٧، رقم (٦٥١٠)، واللفظ له؛ والدارمي في مقدمة سننه ١/ ١٣٦، باب: من رخَّص في كتابة العلم، رقم (٤٨٤)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٤٥.

(٤) متفق عليه، البخاري ١/ ٥٣، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، رقم (١٠٩)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٩٨٨، كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها، رقم (٢٤١٤).

٢ ـ ثم توالت جهود الصحابة ﭫ في تدوين السنة بعد وفاته ﷺ، وكانت جهودهم هي الأساس الأول في تدوين السنة وحفظها ونقلها إلى الأمة.

وكان لكثير من الصحابة صحف يجمعون فيها حديث رسول الله ﷺ، كصحيفة أبي بكر الصديق[١]، وصحيفة علي بن أبي طالب[٢]، وصحيفة عبد الله بن أبي أوفى[٣]، وصحيفة جابر بن عبد الله[٤] ﭫ، وغيرهم.

وجمع صغار الصحابة كابن عباس وابن عمر وأنس ﭫ أقوال الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ﭫ وخطبهم ومواعظهم، وقيَّدوها.

٣ ـ انتشرت كتابة الحديث وآثار الصحابة ﭫ في جيل التابعين على نطاق أوسع، وأصبحت الكتابة ملازمة لحلقات العلم المنتشرة في الأمصار الإسلامية آنذاك[٥].

* ومرّ تدوين السنة عند التابعين بمرحلتين[٦]:

أوّلاً ـ مرحلة التدوين (١٢٠ ـ ١٥٠هـ):

وهي مرحلة ترتيب وتدوين الأحاديث وجمع الشتات في ديوان واحد، ولكن دون تمييز بين أبوابها وإنما تسرد الأحاديث سرداً.

ثانياً ـ مرحلة التصنيف (١٥٠ ـ ٢٠٠هـ) وما بعدها:

وفي هذه المرحلة كانت تجمع الأحاديث المتناسبة في باب واحد، ثم تجمع جملة من الأبواب أو الكتب في مصنف واحد، فظهرت بذلك: كتب

(١) **انظر**: صحيح البخاري ٢/ ٥٢٧، كتاب: الزكاة، باب: زكاة الغنم، رقم (١٣٨٦).
(٢) **انظر**: صحيح البخاري ١/ ٥٣، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، رقم (١١١)؛ **وانظر**: «تقييد العلم» للخطيب، ص٨٨.
(٣) تقييد العلم، ص٨٤؛ وجامع العلم وفضله ١/ ٧٣.
(٤) ذكرها الحافظ ابن حبان في «مشاهير علماء الأمصار»، ص١١؛ والذهبي في «تذكرة الحفاظ» ١/ ٤٣.
(٥) «تدوين السنة نشأته وتطوره» د. محمد بن مطر الزهراني، ص٨٢.
(٦) المصدر السابق، ص٨٧ وما بعدها.

المسانيد[١] وكتب المصنفات[٢] وكتب السنن[٣]، وكتب الجوامع[٤].

وضُمِّنت أغلب هذه المصنفات كتباً وأبواباً تتعلّق بالوعظ والرقائق والزهد.

وفي هذه المرحلة أيضاً بدأت تظهر كتب المواعظ والزهد والرقائق ككتب ابن المبارك ووكيع بن الجرّاح، وزائدة بن قدامة رحمهم الله.

• وعليه فإنّ تدوين المواعظ بدأ مبكراً، مع البدايات الأولى لتدوين السنّة النبويّة، ثمّ تلته مرحلة ظهرت فيها كتب الوعظ المتخصّصة ككتب الزهد والرقاق.

* ثالثاً: أهمية التأليف في باب الوعظ:

إنّ التأليف والتصنيف والكتابة تعدّ من أهم وسائل الوعظ منذ القدم.

ويوضِّح هذه الأهمية ما يلي:

١ ـ إنّ الله ﷻ أيّدَ رُسُلَه ﵈ بالكُتُب، وأودع فيها المواعظ والحكَم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٩]، فبيَّن ﷻ أنّ هذه الذكرى والموعظة

(١) وهي كتب أسندت أحاديث كل صحابي إليه، مثل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام الحميدي، مسند أبو عوانة، مسند أبو يعلى الموصلي، مسند الطيالسي.

(٢) وهي كتب جمعت بين أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين، وهي مرتبة على الأبواب الفقهية وهم يريدون بذلك باب العبادات، ثم الأحكام، ثم الأحوال الشخصية، ومن ثم القضاء، ثم البر والصلة، ثم الرقائق...، ومن أشهر المصنفات: المصنف لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٥هـ)؛ المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ).

(٣) وهي كتب جمعت أحاديث النبي ﷺ فقط وهي مرتبة على الأبواب الفقهية، مثاله: سنن أبي داود ـ سنن الترمذي ـ سنن النسائي ـ سنن ابن ماجه، وعادة ما تختم بأبواب المواعظ والرقائق.

(٤) وهي كتب جمعت الأحاديث في أبواب مختلفة، فجمعت أحاديث في العقائد والأحكام والشمائل والآداب والزهد، ومثاله: صحيح الإمام البخاري، والإمام مسلم.

التي جاءت في القرآن الكريم موجودة من قبلُ في كُتُب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام[1].

٢ ـ كما أنّ الله عز وجل أمر نبيه ﷺ أن يعظ قومه بهذا الكتاب الكريم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وهذا من أعظم الدلائل على عظم وسيلة التأليف في باب الوعظ.

٣ ـ لقد استخدم النبي ﷺ وسيلة الكتب لعظة الملوك والسلاطين، فأرسل كتبه إلى هرقل وكسرى والنجاشي والمقوقس، وقد تضمّنت هذه الكتب الترغيب والترهيب والوعظ عن طريق إبراز الحساب الأخروي، وتحديد مسئولية من بلغته الدعوة[2].

وكان لهذه الوسيلة أثراً عظيماً في نفوس أولئك الملوك.

٤ ـ والتأليف هو رأس الوسائل الدعوية والوعظية، وأكثرها نفعاً واستمرارية في النفع، فهي الوسيلة التي لا ينقطع عن الواعظ فضلها وأجرها حتى بعد موته، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة: إلّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[3].

فالكتاب هو أصلح الوسائل للدعاة والوعّاظ، فهو خطيب لهم في كلّ زمان، وهو طبيب القلوب، وسلاح بيد الواعظ يستطيع به كسر الجنود العظيمة، ويكسر به بأس كلّ شديد.

قال ابن القيم رحمه الله ـ في معرض بيان فضل القلم وعظيم نفعه ـ: «...وأقام ـ أي الله سبحانه وتعالى ـ في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم

---

(١) تفسير الطبري ١٢/٥٤٨.

(٢) «الدعوة الإسلامية؛ أصولها ووسائلها» د. أحمد غلوش، ص٤٢٢.

(٣) رواه مسلم ١٣/١٢٥٥، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (٣٠٨٤).

وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد»[١].

والكتاب إلى هذا نفعه متجدّد ومستمر في كل آن وزمان، وذاك لأنّ «اللسان مقصور على القريب الحاضر، والعلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكلّ مكان ويدرّس في كلّ زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره»[٢].

وفي هذا المعنى يقول الشاعر[٣]:

كُن للعلوم مصنفاً أو جامعاً ... يبقى لك الذكر الجميل مخلداً

كم من أديب ذكره بين الورى ... غضٌ وقد أَوْدَى به صرف الردى

ولهذا فُضِّل الاشتغال بالتأليف على التعليم بالمشافهة؛ لأنّ المعلّم يشافه عدداً من المتعلمين، بينما الكتاب يشافه من الخلق ما لا يحصيهم إلّا الله ﷻ ما دام الكتاب باقياً.

ويعلّل الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ كثرة تصانيفه ـ لا سيما في باب الوعظ ـ لكونها أكثر استمراراً في النفع من المشافهة، حيث يقول: «رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أُشَافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصون ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم»[٤].

٥ ـ والقلم هو بريد اللسان، وبريد القلب وترجمانه ولسانه الصامت، يستطيع الواعظ أن ينسج من خلاله المعاني، وينتقي منها أفضل المباني،

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم، ص١٢٨.
(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ، ص٥٧.
(٣) أورده الخطيب في: «تقييد العلم» ١/١١٩. والأبيات للسري بن أحمد الكندي.
(٤) «صيد الخاطر»، لابن الجوزي، ص٢٠٧.

ومع هذا هو في مأمن من الأخطاء التي قد تعتري المتكلّم[١].

٦ ـ وبواسطة الكتاب والتأليف حفظت لنا مواعظ السلف، ولهذا اشتدت عناية السلف رحمهم الله بالكتاب، يتّضح ذلك من خلال الكمّ الهائل من المصنفات في باب الوعظ.



(١) **انظر**: «التبيان في أقسام القرآن»، ص١٢٨.

المطلب الثاني

مؤلفات السلف في باب الوعظ، أنواعها وضوابطها

* أوّلاً: عناية السلف بكتب الوعظ:

اعتنى السلف رحمهم الله بالكتابة والتأليف، رغبة في حفظ العلم ونشره بين الناس، وكان من سمتهم وهديهم التواصي بالكتابة والتأليف في جميع الفنون المتعلّقة بالسنة النبوية والآثار السلفية، سواء تعلّق الأمر بالأحكام أو الآداب أو الرقاق.

ومن الآثار الثابتة عنهم في هذا الشأن:

ـ كان أنس بن مالك ﷺ يحثّ أولاده على كتابة العلم فيقول: «يا بني قيّدوا العلم بالكتاب»، وكان يقول أيضاً: «كنّا لا نعدّ علم من لم يكتب علمه علماً»[(١)].

ـ وكان عبد الله بن عباس ﷺ يوصي تلامذته فيقول: «قيدوا العلم بالكتاب، خير ما قيّد به العلم الكتاب»[(٢)].

ـ وعن الحسن ﷺ قال: «ما قيّد العلم بمثل الكتاب، إنما نكتب لنتعاهده»[(٣)].

ـ وعن صالح بن كيسان[(٤)] ﷺ قال: «اجتمعت أنا والزهري ـ ونحن

---

(١) رواه الخطيب في «تقييد العلم»، ص٩٦؛ وابن سعد في «الطبقات» ٧/ ١٤. **قلت**: وإسناده جيد.

(٢) رواه الخطيب في «تقييد العلم»، ص٩٦؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٧٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه الخطيب في «تقييد العلم» من عدّة طرق، ص١٠١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) صالح بن كيسان أبو محمد المدني، مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز، الإمام الحافظ =

نطلب العلم ـ فقلنا نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال: نكتب ما جاء عن أصحابه، فإنه سنة فقلت: أنه ليس بسنة فلا نكتبه، قال: فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت»[(١)].

كما كان عند المحدثين من السلف رحمهم الله اهتمام بالغ بأحاديث الزهد والرقائق، حيث كان من دأبهم أن يختموا المجالس العلمية على أحاديث الزهد والرقائق والورع والنصح والتذكير وترقيق القلوب.

ولهذا لا تكاد تجد من أئمة المحدثين من السلف إلّا وله كتاب أو كتب في الزهد والرقائق، ناهيك عمّا أودعوه من أحاديث الزهد والرقائق في خاتمة مصنفاتهم الحديثية.

* ثانياً: منهج السلف في كُتُب الوعظ:

إنّ منهج السلف في كتب الوعظ يقوم على أربعة محاور، وهي: المصنِّف، ومواضيع الكتاب، ومادة الكتاب، ومنهج التأليف، وفيما يلي بيان لهذه المحاور:

١ ـ مُصَنفو كُتب الوعظ من السلف:

ـ كان عامة السلف رحمهم الله متّصفين بالزهد والورع على الوجه المشروع، ولذلك أتت مصنفاتهم ترجماناً لأحوالهم وصفاتهم، فكثر بذلك النفع بهم وبكتبهم رحمة الله عليهم.

ـ وكان السلف رحمهم الله يصنِّفون في الزهد والرقاق كُتُباً عظة لأنفسهم أوّلاً، كما صرَّح غير واحد منهم عن هذا المقصد في مقدمة كتابه.

ذكر صاحب كشف الظنون أنّ أبا مطيع مكحول بن الفضل النسفي، ت ٢١٨هـ ألَّف كتابه: «اللؤلئيات في المواعظ» عظة لنفسه ثم نصيحة لغيره،

= الثقة، كان من أئمة الأثر، وكان جامعاً للحديث والفقه والمروءة، توفي سنة: ١٤٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٥٤.

(١) رواه الخطيب في «تقييد العلم»، ص١٠٧؛ وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٧٦. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

فاختار من ذلك أخصر المواعظ مما جرب فيها نفعه واستظرفها قلبه[١].

وهذا عنوان على إخلاصهم فيما كتبوه وألفوه، فلذلك استمر النفع بهذه المصنفات؛ لأنّ ما كان لله دام واتّصل.

٢ ـ مواضيع كتب الوعظ عند السلف:

تمتاز مواضيع كُتُبُ الوعظ عند السلف بميزة عظيمة قلّ أن تجدها في كتب المتأخرين ممن ألَّف في باب الوعظ والرقائق، وهذه الميزة هي: الشمولية.

حيث إنّ من أبرز ما يميّز كتب السلف رحمهم الله في باب الوعظ هو شموليتها لكافة مناحي الزهد والرقائق والآداب، وهذه الشمولية تبرز في نوعين من مؤلفات الوعظ عندهم:

• كتب الوعظ العامة التي جمعت كلّ ما من شأنه أن يرقق القلوب ويهذّب النفوس، وهي من الكثرة بمكان، كما ستأتي الإشارة إليه.

• أضف إلى ذلك ما أفرد من أبواب الوعظ خاصة، فإنك لا تكاد تجد باباً من أبواب الرقائق والوعظ، إلا وأفرد بمؤلَّف مستقل، وخير شاهد على ذلك كتب ابن أبي الدنيا رحمه الله، فإنه لم يترك باباً من أبواب الوعظ والزهد والرقائق والفضائل إلّا وأفرده بمؤلَّف مستقلّ.

• حتى كتب «الزهد» نجد أصحابها يوردون فيها كافة أبواب الرقاق والوعظ، فعلى سبيل المثال: كتاب «الزهد» لوكيع بن الجراح[٢] رحمه الله ت: ١٩٧هـ، شمل كتابه أكثر أبواب الزهد والرقاق والورع، والأخلاق والآداب، والبر والصلة، تحت أبواب مستقلّة»[٣].

(١) «كشف الظنون» ٢/ ١٥٧١.

(٢) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي أبو سفيان الرؤاسي الكوفي، الإمام الحافظ محدث العراق أحد الأعلام، كان من بحور العلم وأئمة الحفظ، وكان مضرب المثل في التبتّل والخشوع، توفي سنة: ١٩٧هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٠.

(٣) من مقدمة كتاب «الزهد» لوكيع بن الجراح، بتحقيق د. عبد الرحمٰن الفروائي، ص١٥٧.

وكذا الشأن بالنسبة لكتاب «الزهد» لهناد بن السريّ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ ت: ٢٤٣هـ. فإنّنا نجد كتابه قد حوى «ذكر الجنة وأبوابها المختلفة، وذكر النار وأبوابها المتنوِّعة، كما يجمع بين ثناياه ذكر أهوال يوم القيامة، وعذاب القبر، بجانب الزهد والورع، والحث على مكارم الأخلاق، والآداب الإسلامية، والاجتناب عن مساوئ الأخلاق التي تمسّ كرامة الإنسان في الدنيا والآخرة»[٢].

٣ ـ مادة كتب الوعظ عند السلف:

إنّ السلف رحمهم الله هم أهل الأثر، وهذه الميزة استصحبها السلف في مصنفاتهم الكثيرة، والمتعلقة بالعقائد والأحكام والزهد والرقائق وغيرها.

• وكانت عادة السلف المتقدمين ـ من أهل القرون الثلاثة الأولى ـ أنهم يذكرون في كتب الرقاق والمواعظ: القرآن الكريم وأقوال المفسرين، والأحاديث، وآثار السلف ممن الصحابة والتابعين، أضف إلى ذلك ما أثر عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأمم السالفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . .وكذلك فى الزهد والرقاق والأحوال، فإنه ـ أي: الإمام أحمد ـ اعتمد فى كتاب «الزهد» على المأثور عن الأنبياء صلوات الله عليهم من آدم إلى محمد ﷺ، ثم على طريق الصحابة والتابعين ولم يذكر من بعدهم»[٣].

وقال في موضع آخر: «وهذه الكتب ـ أي كتب الزهد ـ يذكر فيها زهد الأنبياء والصحابة والتابعين»[٤].

---

(١) هناد بن السري بن مصعب، أبو السري التميمي الدارمي الكوفي، الإمام الحجة القدوة، كان من الحفاظ، وكان كثير البكاء كثير العبادة، توفي سنة: ٢٤٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٦٥.

(٢) من مقدمة كتاب «الزهد» لهناد بن السري، بتحقيق: محمد أبو الليث الخير آبادي، ص٥٧.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٦٤.

(٤) المصدر السابق ١١/ ٥٨٠.

• «وكان من دأب المتقدمين أيضاً من أهل الرأي والكلام والتصوّف أنهم كانوا يخلطون كلامهم بأصول من الكتاب والسنة والآثار، إذ العهد قريب وأنوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور، ولها برهان عظيم»[(١)].

• أما المتأخرون ممن ألّف في باب الوعظ والرقائق فهم على قسمين:

ـ قسمٌ ضمَّن كتبه الوعظية الآيات والأحاديث والآثار عن المتقدين والمتأخرين؛ كصنيع أبي نعيم في «الحلية» وابن الجوزي في «صفة الصفوة».

ـ أمّا القسم الآخر فقد حاد عن طريقة السلف، وجرّد كتبه من الآيات والأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، واكتفى بذكر أحوال المتأخرين من الزهاد والصوفية، والتي في مجملها مخالفة للهدي النبوي.

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم إن المتأخرين على صنفين: منهم من ذكر زهد المتقدمين والمتأخرين كأبي نعيم فى «الحلية» وأبي الفرج ابن الجوزي في «صفة الصفوة»، ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين من حين حدث اسم الصوفية، كما فعل أبو عبد الرحمٰن السلمي في «طبقات الصوفية»، وصاحبه أبو القاسم القشيري في «الرسالة» ثم الحكايات التي يذكرها هؤلاء بمجردها مثل ابن خميس وأمثاله، فيذكرون حكايات مرسلة بعضها صحيح وبعضها باطل»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «وكذلك من صنف فى التصوف والزهد ـ من المتأخرين ـ جعل الأصل ما روي عن متأخري الزهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين كما فعل صاحب «الرسالة» أبو القاسم القشيري، وأبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، وابن خميس الموصلي في «مناقب الأبرار»...»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٧٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٨٠.
(٣) المصدر السابق ١٠/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

• ونجد أيضاً أنّ كثيراً من السلف أوردوا الروايات الإسرائيلية في كتب الرقاق والزهد، كوكيع وابن المبارك والإمام أحمد رحمهم الله[١].

٤ ـ منهج السلف رحمهم الله في كتب الوعظ:

• من السلف رحمهم الله من صنَّف كتب الوعظ على طريقة المسانيد، وذلك بذكر ما ثبت عن الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم إلى نبينا محمد ﷺ من أخبار الزهد والورع والآداب، ثم يتبعها بذكر الثابت عن الصحابة ثم التابعين في هذا الشأن، مثل صنيع الإمام أحمد في كتاب: «الزهد»[٢].

ومن السلف من رتّب مواضيع كتابه على الأبواب والفصول، كما فعل ابن المبارك رحمه الله وغيره[٣].

• وكانت عادة السلف رحمهم الله في كتب الرقاق أنهم يذكرون ما أثر من أقوال أهل العلم في تعريف موضوع الكتاب، ثم يردفونها بذكر الآيات القرآنية المتعلّقة بالباب، ثم يذكرون الأحاديث النبوية القولية والفعلية، ثم يوشِّحون الباب بذكر طائفة من أخبار الصحابة والتابعين رحمهم الله، ثم يذكرون طرفاً من أخبار بني إسرائيل، ومنهم من يقدِّم ذكرهم في أوّل الباب أو الفصل.

• وكان المتقدمون من سلفنا الصالح يجمعون الأحاديث والآثار بأسانيدها في أبوابها، وكان الإسناد إذ ذاك شرطاً في تصنيف كتب الزهد وغيرها، خلافاً لما درج عليه المتأخرون[٤].

• ولقد تميّزت كتب السلف المتقدمين في الوعظ عن كتب

---

(١) سبقت الإشارة إلى حكم إيراد الروايات الإسرائيلية في باب الوعظ. **انظر**: ص٣٣٩ من هذا البحث.

(٢) **انظر**: مجموع الفتاوى ١١/ ٥٨٠.

(٣) المصدر السابق ١١/ ٥٨٠.

(٤) المصدر السابق ١١/ ٣٧٢.

المتأخرين، بقلّة الأحاديث والآثار الضعيفة والواهية فيها، ويندر أن تجد فيها أحاديث موضوعة مكذوبة، خلافاً للمشتهر من كتب المتأخرين فإنها محشوّة بالروايات الباطلة والموضوعة، بحجة أن رواية مثل هذه الأخبار جائز في باب الوعظ والترغيب والترهيب، وقد سبق تحرير مذهب السلف في رواية الأحاديث الضعيفة في باب الوعظ(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الكتب (أي: كتب الزهد) وغيرُها، لا بُدَّ فيها من أحاديثَ ضعيفة وحكايات ضعيفة، بل باطلة.

وفي الحِلْيةِ (أي: كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم) من ذلك قطْعٌ، ولكِنّ الذي في غيرها من هذه الكتب، أكثرُ مما فيها»(٢).

وقال أيضاً: «والذين جمعوا الأحاديث في الزهد والرقائق يذكرون ما روي في هذا الباب، ومن أَجَلِّ ما صُنِّف في ذلك وأندره: كتاب «الزهد» لعبد الله بن المبارك؛ وفيه أحاديث واهية، وكذلك كتاب «الزهد» لهناد بن السري، ولأسد بن موسى وغيرهما، وأجود ما صنف في ذلك «الزهد» للإمام أحمد لكنه مكتوب على الأسماء، وزهد ابن المبارك على الأبواب»(٣).

• وعليه فإنّ ما اشتهر أنّ معظم مادة كتب الزهد والرقاق ضعيفة أو موضوعة أو لا أصل لها، لم يصحَّ على إطلاقه، حيث أورد السلف المتقدمون مادة كبيرة في هذا الباب صحيحة وصالحة للاحتجاج.

ومثال ذلك:

ـ كتاب «الزهد» لوكيع بن الجراح، فإنه قد أورد خمسمائة وتسعة وثلاثين (٥٣٩) نصاً بين حديث وأثر، وبلغ عدد الروايات الضعيفة فيه: مائة وواحد وتسعون نصاً، وليس فيه رواية باطلة أو مكذوبة(٤).

---

(١) **انظر**: ص٢٥٩ من هذا البحث. (٢) مجموع الفتاوى ١٨/ ٧٢.

(٣) المصدر السابق ١١/ ٥٨٠

(٤) **انظر**: مقدمة كتاب «الزهد» لوكيع، ص٩.

*** ثالثاً: مصنفات السلف في باب الوعظ والرقاق[١]:**

كان عند السلف رحمهم الله اهتمام بالغ بكتب الوعظ والرقاق، يشهد لذلك الكمّ الهائل من مصنفاتهم في هذا الباب.

وفيما يلي ذكر طائفة من هذه المصنفات، وهي على أنواع:

أ ـ النوع الأول: كتب الوعظ العامّة:

وهي الكتب التي جمعت سائر أبواب الوعظ والرقائق، ولم تخصّ بالذكر جانباً دون آخر، وهي كثيرة جداً، منها:

١ ـ «الزهد والرقائق»: لعبد الله بن المبارك، ت: ١٨١هـ (مطبوع).

٢ ـ «الرقائق»: للفضيل بن عياض، ت: ١٨٧هـ[٢].

٣ ـ «اللؤلئيات في المواعظ»: لأبي مطيع مكحول بن الفضل النسفي، ت: ٢١٨هـ[٣].

٤ ـ «كتاب الرقائق»: لأبي أحمد بن أحمد العسال الأصبهاني، ت: ٢٤٩هـ[٤].

٥ ـ كتاب: «ذم الدنيا والزهد فيها والصمت وحفظ اللسان والعزلة»: لابن أبي عاصم، ت: ٢٨٧هـ (مطبوع، ومحقق).

٦ ـ «حياة القلوب في الرقائق والزهد»: لمحمد بن عبد الله بن عيسى المرِّي، المعروف بابن زمانين، ت: ٣٣٩هـ[٥].

٧ ـ «الفوائد والزهد والرقائق والمراثي»: لمحمد جعفر بن محمد الخوّاص، ت: ٣٤٨هـ[٦].

٨ ـ «مجالس في المواعظ»: لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المعروف

---

(١) «الرقاق والرقائق: جمع رقيقة، وسميت هذه الأحاديث بذلك؛ لأنّ في كل منها ما يحدث في القلب رقّة، والرقة: الرحمة وهي ضد الغلظ»؛ فتح الباري ١١/ ٢٢٩.

(٢) «فهرست ما رواه عن شيوخه»، لابن الخير، ص٢٦٨.

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٥٧١.

(٤) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٨.

(٥) هداية العارفين ١/ ٤٧٦.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٤٧٩.

بابن سمعون الواعظ البغدادي، ت: ٣٨٧هـ[١].

٩ ـ «سبل الخيرات في المواعظ والرقائق»: لأبي الحسين يحيى بن نجاح بن الفلاس الأموي القرطبي، ت: ٤٢٢هـ[٢].

١٠ ـ «المواعظ والرقائق»: لأبي علي الحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي، ت: ٤٤٦هـ[٣].

١١ ـ «أنوار التحقيق في المواعظ»: لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري شيخ الإسلام الحافظ الهروي الحنبلي، ت: ٤٨١هـ[٤]

١٢ ـ «المرشد في المواعظ والحكم»: لأبي بكر عبد الله بن محمد القلانسي، ت: ٥٠٠هـ[٥].

١٣ ـ «غرر الدرر في المواعظ»: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ت: ٥٠٥هـ[٦].

١٤ ـ «المجالس في المواعظ»: لأبي عثمان إسماعيل بن محمد الأصبهاني المحتسب، ت: ٥٠٩هـ[٧].

١٥ ـ «الروض الفائق في المواعظ والرقائق»: لشعيب بن عبد العزيز بن يوسف المغربي أبي مدين، ت: ٥٩٧هـ[٨].

١٦ ـ «الرقة والبكاء»: لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، ت: ٦٠٠هـ (مطبوع، ومحقق).

١٧ ـ «كتاب المواعظ والرقائق»: لمحمد بن عبد الرحمٰن بن علي التجيبي الإشبيلي الحافظ أبي عبد الله الأندلسي المالكي، المتوفى سنة: ٦١٠هـ[٩].

---

(١) هداية العارفين ١/ ٤٧٤.
(٢) كشف الظنون ٢/ ٩٧٨.
(٣) «المعجم المفهرس»، لابن حجر ١/ ٢٤٩.
(٤) هداية العارفين ١/ ٢٣٥.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٦.
(٦) كشف الظنون ٢/ ١٢٠١.
(٧) هداية العارفين ١/ ١١٢.
(٨) هداية العارفين ١/ ٢١٨.
(٩) المصدر السابق ١/ ٥٠٤.

١٨ ـ «أنداء الديم في الوصايا والمواعظ والحكم».

١٩ ـ «كمال الحافظ وجمال اللافظ في الحكم والوصايا والمواعظ».

كلاهما لسعد بن أبي جعفر التجيبي الأندلسي المالكي، ت سنة: ٧٤٠هـ[1].

٢٠ ـ «الفائق في المواعظ والرقائق»: لصدر الدين محمد البارزي، ت: ٧٨٥هـ[2].

٢١ ـ «جَنَّة الجازع وجُنَّة الجارع في المواعظ»: لسريح بن محمد بن سريح المصري، ت: ٧٨٨هـ[3].

٢٢ ـ «مشارح الصدور في المواعظ»: لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، ت: ٨٥٥هـ[4].

ب ـ النوع الثاني: كتب الوعظ الخاصة:

وهي الكتب التي أفردت لجانب من جوانب الرقاق؛ كالزهد، والورع، والترغيب والترهيب، وغيرها من الأبواب، وفيما يلي ذكر لبعضها:

١ ـ كتب «الزهد»:

والزهد من أشهر أبواب الوعظ التي تناوله السلف بالتأليف والتصنيف، بل تعدّ كتب الزهد من أقدم ما أُلِّف في باب الوعظ، وهذه الكتب تشتمل في العادة على ذكر ماهية الزهد وحقيقته، وذكر طائفة من أخبار الزهّاد من الأنبياء والصالحين، وقد تتوسّع بعض هذه الكتب فتذكر أبواباً أخرى من أبواب الرقاق؛ كالورع والعزلة وغيرهما.

ومن أشهر كتب السلف في الزهد، ما يلي:

١ ـ الزهد: لزائدة بن قدامة أبو الصلت الكوفي، ت: ١٦٠هـ[5].

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٠٢.
(٢) كشف الظنون ٢/ ١٢١٧.
(٣) هداية العارفين ١/ ٢٠١.
(٤) المصدر السابق ١/ ٦٧٣.
(٥) طبقات المفسرين، للداودي ١/ ١٧٥.

٢ ـ الزهد: لبشر بن الحارث ت: ٢٠٧هـ.

٣ ـ الزهد: للمعافي بن عمران أبو مسعود الأزدي الموصلي، ت: ١٨٥هـ[(١)].

٤ ـ الزهد: لمحمد بن فضيل بن غزوان، ت: ١٩٧هـ[(٢)].

٥ ـ الزهد: لوكيع بن الجراح ت: ١٩٧هـ. (مطبوع، ومحقق)

٦ ـ الزهد: لسيار بن حاتم، ت: ٢٠٠هـ[(٣)].

٧ ـ الزهد: لأبي عثمان سعيد بن منصور المروزي، ت: ٢٢٧هـ[(٤)].

٨ ـ الزهد: لأسد بن موسى المعروف بأسد السنة، ت: ٢١٢هـ. (مطبوع)

٩ ـ الزهد: لأبي عبد الله أحمد بن حرب النيسابوري، ت: ٢٣٤هـ[(٥)].

١٠ ـ الزهد: لأحمد بن حنبل، ت: ٢٤١هـ (مطبوع).

١١ ـ الزهد: لهناد بن السري، ت: ٢٤٣هـ (مطبوع، ومحقق).

١٢ ـ الزهد: لحارث بن أسد المحاسبي، ت: ٢٤٣هـ[(٦)].

١٣ ـ الزهد: لابن أبي الحواري، ت: ٢٤٦هـ[(٧)].

١٤ ـ زهد ابن سيرين وأيوب ووهيب بن الورد وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخواص، لأحمد بن إبراهيم الدورقي، ت: ٢٤٦هـ[(٨)].

١٥ ـ الزهد: لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد، ت: ٢٦٠هـ[(٩)].

١٦ ـ «كتاب في ذم الدنيا والزهد فيها»: لأبي جعفر بن محمد بن المثنى بن زياد السمار، ت: ٢٦٠هـ[(١٠)].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦٥.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣١٥.
(٣) تهذيب التهذيب ٢/ ١٤٢.
(٤) فهرست ابن الخير، ص٢٧١.
(٥) «كشف الظنون» لحاجي خليفة ٢/ ١٤٢٢.
(٦) فهرست ابن الخير، ص٢٧١.
(٧) المصدر السابق، ص٢٧٧.
(٨) المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٩) تذكرة الحفاظ ٢/ ١٤٩.
(١٠) «تاريخ التراث العربي»، لفؤاد سزكين ٢/ ٤٤١.

١٧ ـ الزهد: لأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي، ت: ٢٦٤هـ[(١)].

١٨ ـ الزهد: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: ٢٧٥هـ (مطبوع).

١٩ ـ الزهد: لأبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، ت: ٢٧٧هـ[(٢)].

٢٠ ـ الزهد الكبير: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: ٤٥٨هـ (مطبوع، ومحقق).

٢ ـ كتب الترغيب والترهيب:

وهذه الكتب تسوق في العادة الأخبار المرغِّبة في فضائل الأعمال والمرهبة من مساويها، وهذا النوع من الكتب قد وقع فيه تساهل كثير في إيراد الأخبار الباطلة والمكذوبة، وقد سبق بيان ذلك عند الحديث عن حكم الاحتجاج بالحديث الضعيف في باب الترغيب والترهيب[(٣)].

ومن أشهر ما صنِّف في باب الترغيب والترهيب، ما يلي:

١ ـ «كتاب الترغيب»: لنضر بن شميل المازني أبي الحسن التميمي البصري، ت: ٢٠٤هـ[(٤)].

٢ ـ «الترغيب والترهيب»[(٥)] و«فضائل الأعمال»[(٦)]: كلاهما: لحميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي، المعروف بابن زنجويه، ت: ٢٤٨هـ.

٣ ـ «الترغيب في العمل»: لإسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني أبو إبراهيم المصري الشافعي، ت: ٢٦٤هـ[(٧)].

٤ ـ «الصغائر والكبائر»: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، ت: ٣٧٠هـ[(٨)].

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.
(٣) **انظر**: ص٢٩١ من هذا البحث.
(٤) كشف الظنون ٢/ ١٤٠٤.
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٠١.
(٦) هداية العارفين ١/ ١٧٨.
(٧) المصدر السابق ١/ ١١١.
(٨) كشف الظنون ٢/ ١٤٣٢.

٥ ـ «كتاب الترغيب»: لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الطلحي التميمي، ت: ٤٥٧هـ[(١)].

٦ ـ «الترغيب والترهيب»: لإسماعيل بن محمد الأصبهاني المعروف بقوام السنة، ت: ٥٣٥هـ[(٢)].

٧ ـ «الترغيب والترهيب»: لأبي موسى المديني، ت ٥٨١هـ[(٣)].

٨ ـ «الترغيب في الدعاء والحث عليه»: لتقي الدين أبي محمد عبد الغني المقدسي، ت: ٦٠٠هـ (مطبوع).

٩ ـ «الترغيب والترهيب»: لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ت: ٦٥٦هـ. ١٠(مطبوع).

١١ ـ «الكبائر»: للإمام شمس الدين الذهبي، ت: ٧٤٨هـ. (مطبوع).

١٢ ـ «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»: لعبد الرحمٰن بن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلي، ت: ٧٩٥هـ[(٤)]

١٣ ـ «إرشاد الحائر إلى علم الكبائر»: لجمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي، ت: ٨٨٠هـ[(٥)].

١٤ ـ «الزواجر عن اقتراف الكبائر»: لشهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي المكي، ت: ٩٧٤هـ.(مطبوع).

٣ ـ كتب الورع[(٦)]:

١ ـ الورع: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن الفرجي[(٧)].

٢ ـ الورع: للإمام أحمد، ت: ٢٤١هـ، برواية المروزي (مطبوع).

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٤٠٤.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٠٠.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠١.

(٤) هداية العارفين ١/ ٢٧٤.

(٥) هداية العارفين ١/ ٧٤٢.

(٦) «الورع هو: اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات، وقيل: هو ملازمة الأعمال الجميلة» التعريفات للجرجاني، ص٢٥٢.

(٧) حلية الأولياء ١/ ٢٨٧.

٣ ـ الورع: لأبي بكر أحمد بن علي بن سعيد القرشي، ت: ٢٩٢هـ[١].

٤ ـ الورع: لمحمد بن نصر المروزي، ت: ٢٩٤هـ[٢].

٤ ـ كتب في الإخلاص:

ـ كتاب الإخلاص: للحسن البصري، ت: ١١٠هـ[٣].

٥ ـ كتب في العزلة[٤]:

١ ـ العزلة: لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي ت: ٣٨٨هـ. (مطبوع، ومحقق).

٢ ـ العزلة: لابن أبي الدنيا، ت: ٢٨١هـ. (مطبوع، ومحقق).

٦ ـ كتب في وعظ الملوك والولاة:

وهي كتب تهتم بجمع المواعظ التي وجهها السلف للملوك والأمراء، وقد يكون الكتاب عبارة عن موعظة يدونها صاحبها في كتاب ثم يوجهها للسلطان، كما في صنيع الإمام الغزالي في كتابه: «التبر المسبوك في نصيحة الملوك».

ومن أشهر هذا النوع من الكتب، ما يلي:

١ ـ «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»: لأبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، ت: ٤٨٨هـ.(مطبوع، ومحقق)

٢ ـ «التبر المسبوك في نصيحة الملوك»: للإمام الغزالي ت: ٥٠٥هـ. (مطبوع)

٣ ـ «حسن السلوك في مواعظ الملوك»: لأبي الفرج ابن الجوزي، ت: ٥٩٧هـ[٥].

---

(١) تاريخ التراث العربي ١/ ٤١٢.
(٢) كشف الظنون ٢/ ١٤٦٩.
(٣) هداية العارفين ١/ ١٤١.
(٤) العزلة: «هي الخروج من مخالطة الخلق، بالإنزواء والانقطاع»، التعريفات، ص١٩٤.
(٥) هداية العارفين ١/ ٢٧٠.

٧ ـ كتب في الوعظ النبوي:

وهي كتب اقتصرت على إيراد ما أُثر عن النبي ﷺ في باب الوعظ والرقاق، مثل:

١ ـ «شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية»: للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي، ت: ٤٥٤هـ(١).

٢ ـ «أربعين في المواعظ»: لمحمد بن عبد الرحمٰن بن علي التجيبي الإشبيلي الحافظ أبي عبد الله الأندلسي المالكي، ت: ٦١٠هـ(٢).

٣ ـ «مختار النصيحة بالأدلة الصحيحة في المواعظ»: لمحمد بن محمد بن علي الجزري أبي الخير الدمشقي الشافعي، ت: ٨٣٣هـ(٣).

٤ ـ «روضة الواعظين في أحاديث سيد المرسلين»: لمعين المسكين محمد الفراهي الهروي(٤).

ج ـ النوع الثالث: الرسائل:

وهي الكتب التي أرسل بها أصحابها إلى من يرغبون في وعظه وإرشاده، ومن ذلك:

١ ـ «رسالة إلى عبد الرحيم بن أنس في الترغيب بمجاورة مكة المكرمة»: للحسن البصري، ت: ١١٠هـ(٥).

٢ ـ «أيها الولد»: لأبي حامد الغزالي، ت: ٥٠٥هـ.

كتبها لبعض أصدقائه نصحاً له، وذكر نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب(٦).

٣ ـ وعقد الإمام وكيع بن الجراح في آخر كتاب: «الزهد» باباً: (في كتابة أهل الخير بعضهم لبعض)، وأورد فيه جملة من المكاتبات المتضمّنة

---

(١) كشف الظنون ٢/ ١٠٦٧.
(٢) هداية العارفين ١/ ٥٠٤.
(٣) هداية العارفين ١/ ٥٥٠.
(٤) كشف الظنون ١/ ٩٣٣.
(٥) هداية العارفين ١/ ١٤١.
(٦) كشف الظنون ١/ ٢١٦.

للمواعظ والرقائق، والتي حدثت بين أهل الخير من الصحابة والتابعين[(١)].

د ـ النوع الرابع: كتب التاريخ والتراجم:

من كتب التراجم ما تخصَّص في ذكر أخبار الأولين وزهدهم وورعهم وإخباتهم، ومن ذلك:

١ ـ «فضائل الصحابة»: للإمام أحمد بن حنبل، ت: ٢٤١هـ.

٢ ـ «طبقات النساك»: لأبي سعيد ابن الأعرابي، ت: ٣٤١هـ[(٢)].

٣ ـ «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»: لأبي نعيم الأصبهاني، ت: ٤٣٠هـ. (مطبوع).

٤ ـ «صفة الصفوة»: لابن الجوزي، ت: ٥٩٧هـ (مطبوع).

٥ ـ «سير السلف الصالحين»: لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني الملقب: بـ «قوام السنة» ت: ٥٣٥هـ. (مطبوع، ومحقق).

ذكر فيه سير الصحابة والتابعين وتابعيهم، وطائفة من مواعظهم ووصاياهم.

هـ ـ النوع الخامس: كتب الحديث:

دأب المحدِّثون على إيراد أبواب الزهد والوعظ والرقاق في خاتمة مؤلفاتهم الحديثية، باسم: كتاب الزهد، أو الرقاق، أو الورع، أو البر والصلة وغيرها، ومثال ذلك:

١ ـ صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، ت: ٢٥٦هـ.

أورد فيه: كتاب: الرقاق.

٢ ـ صحيح مسلم: لمسلم بن الحجّاج القشيري، ت: ٢٦١هـ.

وأورد فيه: كتاب: البر والصلة والآداب، وكتاب: الزهد والرقائق.

---

(١) «الزهد»، لوكيع بن الجراح ٣/ ٨٤٤ ـ ٨٦٢.
(٢) «تاريخ التراث العربي» ٢/ ٤٧٨.

٣ ـ سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، ت: ٢٧٥هـ.

وأورد فيه: كتاب: الأدب.

٤ ـ سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي، ت: ٢٧٩هـ.

وذكر فيه: كتاب: البر والصلة، وكتاب: الزهد، وكتاب: صفة القيامة والرقائق والورع.

٥ ـ سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، ت: ٢٧٥هـ.

وذكر فيه: كتاب: الزهد.

٦ ـ سنن الدارمي: لعبد الله بن عبد الرحمٰن أبو محمد الدارمي، ت: ٢٥٥هـ.

وذكر فيه: كتاب: الرقاق.

٧ ـ مصنف ابن أبي شيبة: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، ت: ٢٣٥هـ.

وذكر فيه: كتاب: الزهد.

و ـ النوع السادس: كتب الأدب واللغة:

جرت عادة بعض الأدباء على إيراد أبواب الزهد، والورع، والمواعظ في مؤلفاتهم، فيذكرون فيها الأحاديث، والآثار الواردة في الباب، وجملة من مواعظ السلف رحمهم الله تعالى، وغرضهم في ذلك استكمال أغراض النثر والشعر، أو التماس صنوف البلاغة والبيان التي تمتاز بها عادة مواعظ السلف وخطبهم، ومن أشهر هذه الكتب، ما يلي:

١ ـ «عيون الأخبار»: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: ٢٧٦هـ (مطبوع).

وقد أودعه كما قال: طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا.

٢ ـ «البيان والتبيين»: لعمرو بن بحر الجاحظ البصري، ت: ٢٥٥هـ (مطبوع).

حيث عقد أبواباً في الزهد والنسك، وجملة من مواعظ النسَّاك.

منها: باب: خطب السلف ومواعظ النسّاك، وباب: زهّاد الكوفة، وباب: نساك البصرة وزهادها، وكتاب: الزهد، ضمّنه أقوال الناس في الزهد.

٣ ـ «العقد الفريد»: لأبي عمر أحمد بن محمد المعروف: بابن عبد ربه القرطبي، ت: ٣٢٨هـ. (مطبوع).

٤ ـ «الأدب الكبير والأدب الصغير»: لعبد الله بن المقفع بن المبارك البغدادي، ت: ١٤٢هـ. (مطبوع).

ذكر فيه جملة من الآداب وفضائل الأخلاق، وختم كتابه بـ:باب الزهد.

* المكثرون من التصنيف في باب الوعظ من السلف[(١)]:

نذر بعض السلف وقتهم وجهدهم في تصنيف كتب الزهد والورع والوعظ والرقاق، فاشتهرت بذلك مصنفاتهم، وتناقلها الناس، وانتفع بها الخلق، ومن هؤلاء:

١ ـ عتبة الغلام[(٢)].

له كتب في الزهد[(٣)].

٢ ـ منصور بن عمار بن كثير أبو السري السلمي[(٤)].

---

(١) أفردت هذا العنوان لمصنفات المكثرين من تصنيف كتب الزهد من السلف، ولم ألحق كتبهم بأنواع المؤلفات السابقة.

(٢) عتبة بن أبان البصري، المعروف بعتبة الغلام، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري، كان من نساك أهل البصرة، يصوم الدهر، كان كثير الغزو، توفي في حدود ١٥٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ٦٢.

(٣) «الفهرست» لابن نديم ١/ ٢٦٠.

(٤) منصور بن عمار بن كثير أبو السري السلمي الخراساني، الواعظ البليغ الصالح الرباني، =

من كتبه: مجلس في ذكر الموت.
مجلس في حسن الظن بالله.
مجلس في البلى.
مجلس السحاب على أهل النار.
مجلس العرض على الله ﷻ.
مجلس نقتبس من نوركم في النار[١].

٣ ـ عبد العزيز بن يحيى بن عبد الملك الكناني[٢].
وكان متكلماً مقدماً وزاهداً عابداً، وله في الكلام والزهد كتبٌ[٣].

٤ ـ محمد بن الحسين بن أبي الشيخ البرجلاني[٤].
من المصنفين لكتب الزهد والورع، قال الذهبي: «صاحب التواليف في الرقائق»[٥].
ومن تصانيفه: كتاب الصبر.
وكتاب الطاعة[٦].

٥ ـ ابن الجنيد[٧]

= كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، وعظ بالعراق والشام ومصر، وبعد صيته وتزاحم عليه الخلق، وكان ينطوي على زهد وخشية، ولوعظه وقع في النفوس، توفي سنة: ٢٠٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ٩٣.
(١) «الفهرست» لابن نديم ١/ ٢٦٠.
(٢) عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكناني المكي، كان يلقب بالغول، صاحب كتاب «الحيدة»، كان من أهل الفضل والعلم، توفي سنة: ٢٣٠هـ؛ «تاريخ بغداد» ١٠/ ٤٥٠.
(٣) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦١.
(٤) محمد بن الحسين بن شيخ أبو جعفر البرجلاني، قال أبو حاتم: «قيل أن رجلاً سأل أحمد بن حنبل عن شيء من أخبار الزهد؟ فقال: عليك بمحمد بن الحسين» توفي سنة: ٢٣٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١١/ ١١٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ١١/ ١١٢.
(٦) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦٠.
(٧) إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد أبو إسحاق الختلي ثم السرمرائي، الإمام الحافظ، توفي سنة: ٢٧٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٣١.

قال الخطيب: «له كتب في الزهد والرقائق»[(١)].

مثل: كتاب المحبة.

كتاب الخوف.

كتاب الورع.

كتاب الرهبان[(٢)].

٦ ـ ابن أبي الدنيا[(٣)].

ومن كتبه:

أخبار القبور. الإخلاص. أهوال سوم القيامة. البكاء. التفكر والاعتبار. التواضع والخمول. حسن الظن بالله. الخائفين. ذكر الموت. الرقة والبكاء. ذم الدنيا. ذم الفحش. الرقائق. الزهد[(٤)].

٧ ـ سهل بن عبد الله بن يونس التستري.

ومن مؤلفاته: كتاب دقائق المحبين.

كتاب مواعظ العارفين.

كتاب جوابات أهل اليقين[(٥)].

٨ ـ أحمد بن روح[(٦)].

قال الخطيب: «له مصنفات في الزهد والأخبار»[(٧)].

٩ ـ أبو الحسن علي بن محمد المصري، المتوفى سنة: ٣٣٨هـ[(٨)].

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ٢/ ١٤٩.

(٢) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦١.

(٣) عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي مولاهم البغدادي المؤدب، صاحب التصانيف السائرة، كان متبحراً في العلوم والأخبار، متخصصاً في كتب المواعظ والزهد، توفي سنة: ٢٨١هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٩٧.

(٤) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦٢.

(٥) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦١.

(٦) أحمد بن روح بن زياد بن أيوب أبو الطيب الشعراني، توفي سنة: ٢٩٠هـ؛ تاريخ بغداد ٤/ ١٥٩.

(٧) «تاريخ بغداد» ٤/ ١٥٩.

(٨) علي بن محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن أبو الحسن البغدادي المشهور بالمصري، الإمام =

قال الذهبي: «وصنف في الزهد كتباً كثيرة وكان له مجلس وعظ»[(١)].

ومن كتبه:

كتاب قيام الليل.

كتاب المراقبة.

كتاب الصمت.

كتاب الخوف.

كتاب الحديث في الزهد.

كتاب التواضع[(٢)].

١٠ ـ عبد الرحمٰن بن أبي الحسن بن علي أبو الفرج القرشي التميمي البغدادي، المعروف بابن الجوزي، المتوفى سنة: ٥٩٧هـ.

من مؤلفاته: الأرج في الموعظة

إيقاظ الوسنان في الموعظة.

بستان الواعظين ورياض السامعين.

تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ.

جواهر المواعظ.

الحدائق لأهل الحقائق في المواعظ.

الدر الفائق بالمجالس والأحاديث الرقائق.

اللؤلؤة في المواعظ.

صفة الصفوة.

المورد العذب في المواعظ والخطب.

كنز المذكرين في المواعظ.

كنز المواعظ[(٣)].

= المحدث الرحال الواعظ، وصنف في الزهد كتباً كثيرة، وكان له مجلس وعظ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٨١.

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٨١.

(٢) «الفهرست»، لابن نديم ١/ ٢٦١.

(٣) هداية العارفين ١/ ٢٧٠.

١١ ـ تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني، المتوفى سنة: ٧٢٨هـ.

من كتبه: الاستقامة.

رسالة في التوبة.

قاعدة في المحبة.

الزهد والورع والعبادة.

العبودية.

التحفة العراقية في الأعمال القلبية[١].

١٢ ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، المشتهر بـ ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة: ٧٥١هـ.

ومن مؤلفاته: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.

حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

زاد المهاجر.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

طريق الهجرتين وباب السعادتين[٢].

• وعليه فإنّ عناية السلف رحمهم الله بتأليف الكتب المسندة، وغيرها في باب الوعظ قد بلغت غايتها، يتضح ذلك في كثرة مؤلفاتهم وتنوّعها، وشموليتها لكافة أبواب الوعظ والتذكير.

وقد اختطوا لأنفسهم منهجاً فريداً في التأليف يجمع بين تقوى المؤلف وزهده، وبين أثرية مادة هذه الكتب التي جمعت مواعظ القرآن

(١) وكل هذه الكتب قد طبع ولله الحمد والمنة.

(٢) والكتب المذكورة كلّها مطبوعة.

والسنة وآثار السلف، متحرين في الغالب الأعم نقل الصحيح من الأخبار، خلافاً للمتأخرين الذين عجّت كتبهم بالسفسطة، ونقل الأحاديث والآثار الواهية.





تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosailil miyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

المبحث الرابع

الشِّعر

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حُكْم الشِّعر، وموقف السلف منه.

المطلب الثاني: أهمية الشعر الوعظي، ومجالاته، وضوابطه.

المطلب الأول

حُكْم الشِّعر

* أوّلاً: مفهوم الشِّعر:

أ ـ الشعر لغة:

قال ابن فارس: «الشين والعين والراء أصلان معروفان، يدلُّ أحدهما: على ثَباتٍ، والآخر: على عِلْمٍ وعَلَم»[١].

ب ـ الشعر اصطلاحاً:

هو: كلام موزون مُقَفَّى[٢].

وعرَّفه ابن رشيق[٣] فقال: «يقوم الشعر بعد النيّة[٤] على أربعة أشياء وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا حدّ الشعر»[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «شعر».

(٢) «التعريفات» للجرجاني، ص١٢٧.

(٣) هو: الحسن بن رشيق أبو علي القيرواني، ولد في المغرب وتعلّم الأدب والبلاغة، وقال الشعر، ورحل إلى القيروان، واشتهر هناك، من مؤلفاته: «الشذوذ في اللغة» و«شرح موطأ مالك» و«تاريخ القيروان»، توفي سنة ٤٥٦هـ؛ الأعلام للزركلي ٢/ ٢٠٥.

(٤) في اشتراط النية احتراز مما قد يقع من كلام الناس المنثور على هيئة الشعر، قال الجاحظ: «لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل: مستفعلن فاعلن كثيراً، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً»؛ البيان والتبيين، ص١٥٤ وبهذا يردّ على من ادعى أنّ النبي ﷺ قال شعراً، قال القرطبي رحمه الله: «إصابته ﷺ الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزنه كقوله يوم حنين وغيره: هل أنت إلا أصبعاً دميت... وفي سبيل الله ما لقيت» تفسير القرطبي ١٥/ ٤٨.

(٥) «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، لابن رشيق ١/ ١١٩.

* ثانياً: حُكْم الشِّعر:

تباينت أقوال السلف في حكم الشعر بين مجيز ومانع، وفيما يلي عرض لهذه الأقوال مشفوعة بأدلتها:

أ ـ القول الأوّل: المنع من إنشاد الشعر واستماعه:

واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

فحَمَل بعضهم الذمّ الوارد في الآية على الشعر مطلقاً[(١)].

٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً**»[(٢)].

وفي رواية مسلم: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج[(٣)] إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا الشَّيْطَانَ أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ؛ لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً**»[(٤)].

ففهم بعض أهل العلم من هذا الحديث ذمّ الشعر مطلقاً[(٥)].

٣ ـ وعن أبي حريز مولى معاوية قال: «خطب الناس معاوية رضي الله عنه بحمص فذكر في خطبته: «**أنّ رسول الله ﷺ حرّم سبعة أشياء وإني أبلغكم**

---

(١) **انظر**: تفسير الطبري ٩/٤٨٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/٢٢٧٩، كتاب: الأدب، باب: ما يكرره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّ عن ذكر الله والعلم والقرآن، رقم (٥٦٨٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/١٧٦٩، كتاب: الشعر، رقم (٤١٩١).

(٣) «العرج هي ثَنِيَّة معروفة بين مكة والمدينة»؛ النهاية في غريب الحديث ٢/٢٥٧.

(٤) رواه مسلم ٤/١٩٦٧، كتاب: الشعر، رقم (٤١٩٣).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١٤.

ذلك وأنهاكم عنه، منهنّ: النَّوْحُ وَالشِّعْرُ، وَالتَّصَاوِيرُ، وَالتَّبَرُّجُ، وَجُلُودُ السِّبَاعِ، وَالذَّهَبُ، وَالْحَرِيرُ»[١].

وحمل هذا الحديث أيضاً على مطلق الشعر.

ب ـ القول الثاني: جواز إنشاد الشِّعر الذي لا فحش فيه:

وهو قول جمهور العلماء[٢]، واستدلوا بقول النبي ﷺ وفعله، وتقريره:

١ ـ أمّا قول النبي ﷺ: فلقد أثنى ﷺ على الشعر الحكيم، وحثّ على الشعر المتضمِّن للدعوة إلى الإسلام، والذبّ عن حياض الدين.

ـ فعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»[٣].

وقد فسِّرت الحكمة بأنها: «القول الصادق المطابق للحق، مما ينتفع به»[٤].

وقيل: «كلّ كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة»[٥].

فيكون معنى الحديث: «إن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع عن السفه والجهل؛ وهو ما نظمه الشعراء من المواعظ والأمثال التي ينتفع به الناس»[٦].

وقال ابن بطّال مميزاً بين ممدوح الشعر من مذمومه: «ما كان في الشعر والرجز ذكر الله تعالى وتعظيم له ووحدانيته، وإيثار طاعته،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢٨/ ١٣١، رقم (١٦٩٣٥)؛ والطبراني في «الكبير» ١٩/ ٨٧٧، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٧٦، كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء، وما يكره منه، رقم (٥٦٧٩).

(٤) فتح الباري ١٠/ ٥٤٠.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٣٣.

(٦) عون المعبود ١٣/ ٢٤١.

والاستسلام له؛ فهو حسن مرغب فيه، وهو المراد في الحديث: بأنه حكمة، وما كان كذباً وفحشاً فهو مذموم»(١).

ـ وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ، فِيمَا تَقُولُونَ لَهُمْ مِنَ الشِّعْرِ**»(٢).

ـ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**اهْجُوا قُرَيْشاً فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ**»(٣).

٢ ـ **أمّا فعل النبي ﷺ**: فقد كان النبي ﷺ ينشد بعض الأشعار أحياناً:

ـ فعن البراء رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الأحزاب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول(٤):

لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

٣ ـ **أمّا تقريره ﷺ**: فقد كان النبي ﷺ يستمع إلى الشعر الحكيم ويستحسنه، وربّما قوّم ما كان فيه من خلل.

فعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «**رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْماً، فَقَالَ: هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هِيهْ**(٥)

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٤٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢٥/٦٣ ـ ٦٤، رقم (١٥٧٨٦)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ٤/١٩٣٥، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، رقم (٤٥٤٥).

(٤) متفق عليه، البخاري ٣/١٠٤٣، كتاب: الجهاد والسير، باب: حفر الخندق، رقم (٢٦٢٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٤٢٧، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب، رقم (٣٣٦٥).

(٥) «هيه»: اسم سمي به الفعل، يؤتى بها للاستزادة من الحديث المعهود «شرح صحيح مسلم» ١٥/١١.

فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً، فَقَالَ: هِيهْ ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً، فَقَالَ: هِيهْ حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أميّة واستزاد من إنشاده؛ لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه، سواء شعر الجاهلية وغيرهم، وأن المذموم من الشعر الذي لا فحش فيه، إنما هو الإكثار منه وكونه غالباً على الإنسان، فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه»(٢).

ـ وعن سماك بن حرب قال: «قلت لجابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ فكان طويل الصمت قليل الضحك، وكان الصحابة يذكرون عنده الشعر، وأشياء من أمورهم فيضحكون، وربما يتبسم رسول الله ﷺ»(٣).

المناقشة والترجيح:

لا شك بأنّ الشعر كالنثر، لا يُعَاب لذاته وإنما يعاب ما تضمّنه من قبيح القول، وما فيه إساءة للدين وأهله، أو فحش، أو منكر، أو كذب، أمّا إن خلا من هذه المحاذير وكان متضمّناً للدعوة إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق فهو مندوب إليه مرغّب فيه.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ـ عن الشعر ـ: «حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه»، قال ابن العربي: «يعني: أنّ الشعر ليس يكره لذاته، وإنما يكره لمتضمناته»(٤).

كما سبق معنا أيضاً إشادة النبي ﷺ بالشعر الحكيم وترغيبه في الذب

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ١٧٦٧، كتاب: الشعر، رقم (٤١٨٥).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١٢.
(٣) رواه أحمد في مسنده ٣٤/ ٤٠٥، رقم (٢٠٨١٠)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن».
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٣٩.

عن الإسلام وأهله بالشعر الرصين، وكذا ثبت إنشاده واستماعه للشعر، كلّ هذا يدلّ على جواز إنشاد الشِّعر الخالي من المحاذير الشرعية.

مناقشة أدلة المانعين:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

الذمّ الوارد في الآية عام لكلّ شعر فيه تعدٍّ وكذب وبهتان، واستثني منه شعر أهل الإيمان الذين لا فحش في قولهم ولا بهتان ولا كذب[(١)].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ نسخ من ذلك واستثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧][(٢)].

٢ ـ أمّا حديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد تأوّله العلماء بتأويلين:

• **التأويل الأول**: مأخوذ من قوله ﷺ: «**يمتلئ**» فَحُمل الحديث على الإكثار من الشعر، بحيث يكون صارفاً لصاحبه عن العلم والذكر والقرآن.

قال القرطبي رحمه الله: «وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد له»[(٣)].

وقال ابن العربي رحمه الله: «وبالجملة، فلا ينبغي أن يكون الغالب على العبد الشعر حتى يستغرق قوله وزمانه، فذلك مذموم شرعاً»[(٤)].

• أمّا **التأويل الثاني**: فحمل الحديث على شعر الهجاء، كما جاء في

---

(١) تفسير الطبري ٩/٤٨٨.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٢/٧٢١، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر، رقم (٤٣٦٢)؛ وقال الألباني: «إسناده حسن».

(٣) تفسير القرطبي ١٣/١٣٧.

(٤) أحكام القرآن ٣/ ٤٦٤.

رواية عائشة وجابر رضي الله عنهما[١].

وردّ القرطبي والحافظ ابن حجر تأويل من تأوّل الذمّ في الحديث على شعر الهجاء؛ لضعف رواية جابر، وكذا رواية عائشة[٢].

ـ أمّا حديث معاوية رضي الله عنه في تحريم الشعر فإنه محمول على الشعر المذموم الذي فيه هجاء وفحش وكذب وتعدٍّ[٣].

الخلاصة:

وعليه فإنّ حكم الشِّعر متعلّق بمضمونه وبكَمِّه.

ـ فإنّه يكون محرّماً إذا كان فيه فحش أو كذب أو هجاء أو جهل أو تعدٍّ أو إساءة للغير.

ـ ويكون جائزاً إذا خلا من المحاذير الشرعية الآنفة الذكر، ما لم يغلب على الإنسان حتى يصير مبلغ علمه ومنتهى شغله، فإنه حين ذلك يصير مذموماً مرغوباً عنه.

ـ ويكون الشِّعر مندوباً إليه، إذا كان متضمّناً للدعوة إلى الإسلام، والدفاع عن أهله، والترغيب في الصالحات، والترهيب من المنكرات، ترقيق القلوب، ولكن دون إفراط.

*** ثالثاً: موقف السلف من الشِّعر:**

نجد للسلف رحمهم الله موقفين متباينين تجاه الشِّعر:

فأمّا **الموقف الأول:** فهو ذم للأشعار الماجنة البذيئة الفاحشة.

وأمّا **الموقف الثاني:** فهو مدح وتشجيع واستماع وإنشاد للشعر المحمود.

ويلخّص لنا الإمام النووي رحمه الله موقف السلف من الشِّعر فيقول: «وأنشد الشعر الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه، وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه»[٤].

---

(١) **انظر:** فتح الباري ١٠/٥٤٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٣/١٣٧.
(٣) **انظر:** مسند الإمام أحمد ٢٨/١٣١.
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١٤.

١ ـ ذم السلف للشِّعر الفاحش البذيء:

وقف السلف رحمهم الله موقفاً حازماً تجاه الشِّعر الماجن والفاحش، والذي فيه أذية للمسلمين، فنجدهم يعزِّرون الشعراء الذين يتعاطون هذا اللون من الشِّعر، ومثال ذلك موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هجاء الحطيئة الشاعر.

ـ قال الأصمعي: هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر بالأبيات السينية التي منها:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها ... وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

فاستدعى عليه الزبرقان إلى عمر رضي الله عنه فرفعه عمر إليه واستنشده فقال عمر لحسان: أتراه هجاه؟ فقال: نعم وسَلَح[1] عليه، فحبسه عمر، وقيل جعله في بئرٍ ثم ألقى عليه شيء، فقال:

ماذا تَقولُ لأَفراخٍ بِذي مَرَخٍ ... حُمرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ
أَلقَيتَ كاسِبَهُم في قَعرِ مُظلِمَةٍ ... فَاغفِر عَلَيكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ
أَنتَ الأَمينُ الَّذي مِن بَعدِ صاحِبِهِ ... أَلقَت إِلَيكَ مَقاليدَ النُهى البَشَرُ
لَم يوثِروكَ بِها إِذ قَدَّموكَ لَها ... لَكِن لأَنفُسِهِم كانَت بِكَ الخِيَرُ

فأخرجه وقال: إياك وهجاء الناس»[2].

٢ ـ تشجيع السلف وعنايتهم بالشِّعْر المحمود الذي فيه علم وعظة وعبرة:

أدرك السلف رحمهم الله أنّ الشعر وسيلة فعّالة لحث الناس على الخير وزجرهم عن الشرِّ، وحملهم على مكارم الأخلاق، وذاك لشدّة وقع الشعر في النفوس، كما أدركوا أنّ الشعر ديوان كبير حفظ كثيراً من لغة العرب ولهجاتهم، وحفظ أنسابهم، ومآثرهم، لذا نجد وصاياهم حافلة

---

(١) مأخوذة من السلاح، وهذا كناية على شدّة وقع الهجاء عليه، فشبهه بوقع السلاح. **انظر**: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٨٨.

(٢) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ١/ ١٦٧. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

بالدعوة إلى تعاطي الشِّعر وتَعَلُّمه، ومن تلكم الوصايا:

ـ أنّ عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى أبي موسى الأشعري: «مُرْ من قبلك بتعلّم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب»[(١)].

ـ وقال الزبير بن بكار: سمعت العمري يقول: «رَوّوا أولادكم الشعر؛ فإنه يحلّ عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخُلُق الجميل»[(٢)].

ـ وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: «إذا قرأ أحدكم شيئاً من القرآن فلم يدر ما تفسيره فليلتمسه في الشعر فإنه ديوان العرب»[(٣)].

٣ ـ استماع السلف للشِّعر المحمود:

كان السلف رحمهم الله يستمعون إلى الشِّعر المحمود الذي فيه موعظة، أو حكمة، أو علم نافع، ولربما استنشدوا هذا اللون من الشِّعر التماساً للعظة أو طلباً للعلم والحكمة.

فعن ابن عباس ﷺ قال: «قال لي عمر بن الخطاب: أنشدني لشاعر الشعراء، فقلت من هو؟ يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، أليس هو الذي يقول:

إذا اِبتَدَرَت قَيسُ بنُ عَيلانَ غايَةً ... مِنَ المَجدِ مَن يَسبِق إِلَيها يُسَوَّدِ

فأنشدته حتى برق الفجر فقال: إيهاً، الآن اقرأ، قلت: وما أقرأ؟ قال: الواقعة، فقرأتها ثم نزل فصلى وقرأ بالواقعة»[(٤)].

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» ١٩/ ١٥٠، وقال صاحب كنز العمال ٣/ ٨٥٥: أخرجه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد.

(٢) ذكره ابن رشيق في «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» ١/ ٢٥.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ٢٥٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٤) رواه الطبري في تاريخه ٢/ ٥٥٧؛ وابن الجوزي في «سيرة عمر بن الخطاب» ص١٨٦. **قلت**: ورجاله ثقات.

٤ ـ قرظ الشعر وإنشاده:

لم يكن موقف السلف رحمهم الله موقف المستمع لغيره فقط، ولكن ساهموا بقدر وافر في إثراء الشِّعر بما جادت به قرائحهم، من الحكم الصائبة، والمواعظ المؤثرة، وهذا بعد أن أدركوا عظم أثر وسيلة الشعر في الدعوة عامة، وفي باب الوعظ خاصة.

فعن محمد بن يزيد الرحبي قال: «قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه ما لك لا تشعر؟ فإنه ليس رجلٌ له بيت من الأنصار إلّا وقد قال شعراً، قال: وأنا قد قلت فاسمعوا[1]:

يُريدُ المَرءُ أَن يُعطى مُناهُ ... وَيَأبى اللهُ إلا ما أَرادَ

يَقولُ المَرءُ فائِدَتي وَمالي ... وَتَقوى اللهِ أَفضَلُ ما اِستَفادَ

ويشهد لذلك أيضاً آلاف الأبيات الشعريّة المبثوثة في بطون الكتب، والتي نظمها السلف الصالح في شتى ميادين العلم الشرعي، ومجالات الدعوة الإسلامية.



(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ١٥١. **قلت**: وإسناده حسن.

المطلب الثاني

أهمية الشعر الوعظي، ومجالاته، وضوابطه

* أوّلاً: أهمية الشِّعر الوعظي:

من تدبّر الأشعار وقلَّب النظر فيها، يجد أنّ منها ما تكون فيه حكَمٌ صائبةٌ، وعبَرٌ بانيةٌ، تزكّي النفوس وتشحذ الهمم، كما أن فيها ذكرٌ للخير وترغيبٌ فيه، وتعريضٌ بالشر وتحذيرٌ منه.

وفيما يلي بيان لأهمية الشِّعر في مجال الوعظ والتذكير:

١ - إنّ توشية الموعظة بالأشعار الجميلة الرائقة مما تهتز له النفوس، ويحسن وقعه على الأسماع، خصوصاً إذا كان الاستشهاد مناسباً ملائماً، فيحسن أن تُجَمَّل المواعظ العامة أحياناً بما يناسب المقام، ويتَّصل بالموضوع.

٢ - إنّ الشاعر أقدر على تجلية المعاني، وتصوير الأمور، ونقل الأحاسيس، ولذلك فإنّك تجد البيت الواحد من الشِّعر يصوّر المعاني الكثيرة التي يعجز النثر عن الإحاطة بها وإن كثر.

فيستطيع الواعظ أن ينقل الفكرة ويوضّح المعنى بجلاء أحياناً بصياغة الفكرة في بيت شعري.

«فالعرب إنما سمّوا الشعر شعراً؛ لأنه الفطنة بالغوامض من الأسباب، وسمّوا الشاعر شاعراً لأنه كان يفطن لما لا يفطن له غيره من معاني الكلام وأوزانه، وتأليف المعاني وإحكامه وتثقيفه، فكان لا يفوته من هذه الأسباب كلّها شيء»[1].

---

(١) «الزينة في الكلمات الإسلامية العربية» لأحمد بن حمدان الرازي ١/ ٨٣.

٣ ـ الشِّعر أعلق في الذهن من المنثور، فإذا كانت الموعظة متضمّنة لأشعار رائقة، فإنّ ذلك أدعى لطول بقاء أثرها في نفس الموعوظ؛ لأنّ النفس تستحضر المنظوم من القول أكثر من استحضارها المنثور منه[(١)].

يقول عبد الصمد بن الفضل رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره»[(٣)].

والشعر كلما كان صدى للواقع الذي يعيشه الناس، كلما كان أوقع في النفوس، وأشد تأثيراً فيها؛ لأن السامع لا يستعيد البيت إلّا إذا كان ينبض بالحياة.

٤ ـ ومن الأمور التي فُضِّل الشِّعر بها ـ لا سيما شعر المواعظ ـ، سعة انتشاره بين الناس، وسرورهم به، حتى ولو كان رديئاً، وهذا خلافاً للمنثور الذي لا يكاد يشتهر منه إلّا الخالص النفيس.

قال ابن رشيق: «والشعر مزلَّة[(٤)] العقول، وذلك أن أحداً ما صنعه قطّ فكتمه ولو كان رديئاً، وإنما ذلك لسروره به، وإكباره إياه، وهذه زيادة في فضل الشعر، وتنبيه على قدره وحسن موقعه من كل نفس»[(٥)].

٥ ـ والشعر عامة له تأثير عجيب في النفس، وهذا التأثير مستمدّ من طبيعة الشعر ومن مضمونه:

● أمّا طبيعة الشِّعر: فإنّك تجد في الشِّعر نغَماً يتولّد من تأثير الوزن والقافية على الأذن، مما ينتج عن ذلك شدة النشوة في نفس السامع.

---

(١) وهذا ما جعل العلماء ينظمون كثيراً من العلوم الشرعية، ليسهل حفظها واستحضارها.
(٢) عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي الخطيب القاص؛ «البيان والتبيين»، ص٧٨.
(٣) «البيان والتبيين» ص١٥٣.
(٤) المزلّة: مُفْعلة من زَلَّ يَزِلُّ إذا زَلِقَ. **انظر**: لسان العرب ٣٠٦/١١، مادة: «زلل».
(٥) العمدة لابن رشيق ١١٧/١.

• أمّا تأثير الشِّعر من حيث مضمونه: فإنّه كثيراً ما ينهض الرجل للعمل الصالح يكون في غفلة عنه، وما ينبهه إلّا بيت شعري يحتوي على عظة وحكمة بالغة.

فعن ابن جريج[١] رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: «ما ظننت أن الله عَزَّوَجَلَّ ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشداً ينشد قوله:

بِاللهِ قولي لَهُ في غَيرِ مَعتَبَةٍ ... ماذا أَرَدتَ بِطولِ المَكثِ في اليَمَنِ
إِن كُنتَ حاوَلتَ دُنيا أَو نَعِمتَ بِها ... فَما أَخَذتَ بِتَركِ الحَجِّ مِن ثَمَنِ

فحرّكني ذلك على الرجوع إلى مكة، فخرجت مع الحاج وحججت»[٢].

ـ وقد يكون الشِّعر أحياناً سبباً في تثبيت الرجل عند المصائب والملمّات:

فعن معاوية[٣] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: «اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير[٤] بصفين وقد أتيت بفرس أغرّ محجّل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة[٥][٦]:

---

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو خالد القرشي الأموي المكي الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم صاحب التصانيف، وأول من دوّن العلم بمكة، توفي سنة: ١٥٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٥.

(٢) الأغاني ١/ ١١١؛ ووفيات الأعيان، لابن خلكان ١/ ٥١٢.

(٣) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية أبو عبد الرحمٰن الأموي، أسلم يوم الفتح، وكان من كُتَّاب الوحي، ولّاه عمر بن الخطاب الشام وكذا عثمان، ثم ولي الخلافة مدة عشرين سنة،، من أفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن رواة الحديث، توفي سنة: ٦٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٩.

(٤) هرَّ الشيءَ: كَرِهَهُ، وسيمت هذه الليلة بذالك لشدة ما وقع للمسلمين فيها، لسان العرب ٥/ ٢٦٠، مادة: «هرر».

(٥) عمرو ابن الإطنابة وهي أمه، وأبوه عامر بن زيد مناة بن عامر، وكان من أشراف الخزرج، وهو شاعر فارس معروف قديم، معجم الشعراء.

(٦) رواه الطبري في تاريخه ٣/ ٨٩، وإسناده حسن.

أَبَتْ لي عفَّتِي وأَبى بَلائي وأَخذِي الحَمدَ بالثَّمَنِ الرَبِيحِ
وإقْحَامي على المكروه نَفْسي وضَرْبي هَامَةَ البطل المَشِيْحِ[(١)]
وقَولي لمَّا جَشأت وجاشَت مَكانَكِ تُحمَدِي أو تستريحي
لأَدفَعَ عَن مآثرَ صالحاتٍ وأحمي بَعدُ عن عِرضٍ صَحِيحِ

فالشعر بالجملة من أقوى الأمور التي تحرِّك النفس محبّةً أو نُفْرةً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: «الشعر مستفاد من الشعور، فهو يفيد إشعار النفس بما يحرِّكها وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبة أو نفرة، أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخييل. . . . فالنفس تتحرك تارة عن تصديق وإيمان، وتارة عن شعر»[(٢)].

٦ ـ ومما يدلّ على أهميّة الشِّعر الوعظي أنّ السلف رحمهم الله كانوا يقرظون كثيراً هذا النوع من الشِّعر، ويتمثّلون به في مواعظهم، ويستنشدونه غيرهم[(٣)].

قال القرطبي رَحِمَهُ الله: «وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلّا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه؛ فرضي منه ما كان حكمة أو مباحاً ولم يكن فيه فحش ولا خناً، ولا لمسلم أذًى»[(٤)].

*** ثانياً: أنواع شعراء الوعظ:**

يعدُّ الشعر الوعظي أو الزهدي من أوسع أغراض الشعر انتشاراً في القرون الثلاثة الأولى، وقد تعاطى هذا اللون من الشِّعر أصناف كثيرة من الناس، ومن هؤلاء:

١ ـ الزهّاد والعبّاد الذين كان الزهد والورع يمثّل سلوكهم في

(١) المشيح هو الجادّ من الرجال؛ «الغريب» للخطابي ١/ ٦٢٦.
(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٣.
(٣) سيأتي ذكر نماذج من أشعار السلف في المواعظ، عند فقرة: مجالات الشعر الوعظي، إن شاء الله تعالى.
(٤) تفسير القرطبي ١٣/ ١٣٧.

حياتهم، وغالبية هذا الصنف من العلماء والفقهاء والمحدّثين والوعّاظ.

وكان كثيرٌ من القصّاص والوعّاظ ينشدون في وعظهم وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة، منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم، ومنها ما ينشئونه إنشاءً.

فمن ذلك ما يروى عن صالح المرِّي الواعظ العابد من أنّه كان كثيراً ما ينشد في قصصه ومواعظه[1]:

فَبَاتَ يُرَوِّي أُصُولَ الفَسِيْلِ[2] فعَاشَ الفَسِيْلُ وماتَ الرَجُل

ـ وكان مالك بن دينار المحدّث الناسك لا يزال يتحدّث في مجالسه عن الموت حتى لتكاد تخنقه العبرة وله أشعار مختلفة يتحدّث فيها عن القبور وأهلها، وعن الدنيا ومزلّتها.

فعن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار أنه قال[3]:

أتيتُ القبورَ فناديتُها ن أين المعظَّم والمحتقَرْ
وأين المدلُ بسلطانه وأين المزكَى إذا ما افتخَرْ

ـ وممن كان يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه المحدّث الحافظ مسعر بن كدام[4].

فعن عبد الله بن صالح قال: قال مسعر بن كدام[5]:

تَفنى اللَذاذَةُ مِمَّن نالَ صَفوَتَها مِنَ الحَرامِ وَيَبقى الإِثمُ وَالعارُ

---

(١) ذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» ٢/ ٣٠٢.

(٢) هي الصغيرة من النخل؛ لسان العرب، مادة: «فسل».

(٣) ذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» ٢/ ٣٠٢؛ وعبد الحق الإشبيلي في «العاقبة في ذكر الموت»، ص٢٠٠.

(٤) مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث، أبو سلمة الكوفي، الإمام الثبت شيخ العراق، كان مسعر قد جمع العلم والورع والعبادة، توفي سنة: ١٥٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ١٦٣.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٢٢١؛ والآجري في «الغرباء» ص٦٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

تُبقي عَواقِبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها لا خَيرَ في لَذَّةٍ مِن بَعدِها النارُ

ـ وكان سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكثر من إنشاد شعر المواعظ:

فعن محمد بن خلاد الباهلي قال: نزل سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندنا في مسكننا، فكان يجلس معنا ونحن لا نعرفه نظن أنه أعرابي، وكان يصغي إلى حديثنا فإذا صرنا إلى حديثه سمعنا كلاماً حسناً يذكرنا الجنة ويخوفنا النار، فإذا طردته الشمس حل حبوته وأنشأ يقول[1]:

ما ضرَّ من كان في الفردوس مَسكنُه ما مسَّهُ قبل من ضُرٍّ وإقتَار
تراهُ في الناس يمشي خائفاً وجلاً إلى المساجد هَوْناً بين أَطْمَار[2]

وقد اشتهرت طائفة من السلف بقرظ شعر الوعظ أو الزهد وذاع صيتها وانتفع الخلق بأشعارها، منهم: سابق البربري، ومحمود الورّاق، وأبو العتاهية.

وأبرز ما يميز شعر هذا النوع هو: مصداقيته، وقوّة تأثيره.

٢ ـ الشعراء التائبون، الذين اشتهروا بالمجون، وأمضوا قسطاً كبيراً من حياتهم في اللّهو والعبث، ثم تابوا وندموا.

ـ ومن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال: أبو نواس الحسن بن هانئ[3].

ومن أشعاره الوعظية قوله[4]:

رَضيتَ لِنَفسِكَ سَوآتِها وَلَم تَألُ جُهداً لِمَرضاتِها
وَحَسَّنتَ أَقبَحَ أَعمالِها وَصَغَّرتَ أَكبَرَ زَلاتِها

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٣٧٤؛ والآجري في «الغرباء» ص٦٨. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) والبيتين الأخيرين هما لسابق البربري.
(٣) الحسن بن هانئ الحكمي أبو علي، ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة، كان يعدّ رئيس الشعراء، وله أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحظوة في أيام الرشيد والأمين، توفي سنة: ١٩٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٧٩.
(٤) «ديوان أبي نواس»، ص٦١١.

وَكَم مِن طَرِيقٍ لأَهلِ الصِبا — سَلَكتَ سَبيلَ غِواياتِها
فَأَيُّ دَواعي الهَوى عِفتَها — وَلَم تَجرِ في طُرقِ لَذّاتِها
وَأَيِّ المَحارِمِ لَم تَنتَهِك — وَأَيِّ الفَضائِحِ لَم تَأتِها
وَهَذي القِيامَةُ قَد أَشرَفَت — تُريكَ مَخاوِفَ فَزعاتِها
وَقَد أَقبَلَت بِمَواعيدِها — وَأَهوالِها فارِعَ لَوعاتِها

- ومن هؤلاء الشعراء أيضاً: محمد بن يسير[١].

فقد ألمّ يوماً بمجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض، فأنشد:

وَيْلٌ لِمَنْ لم يرحَمِ الله — ومَنْ تكونُ النارُ مَثواهُ
وَاغَفلَتَا في كلّ يوم مضى — يُذْكِرُني الموتَ وأنساهُ
مَنْ طالَ في الدُّنيا بِهِ عُمْرُه — وعاشَ فالموتُ قُصارَاهُ
كَأنَّهُ قد قيلَ في مجلسٍ — قد كُنْتُ آتِيهِ وأغْشَاهُ
محمدُ صارَ إلى رَبِّهِ — يَرْحَمُنَا اللهُ وإيَّاه

قال: فأبكى والله جميع من حضر[٢].

وميزة هذا النوع من الشعر: وضوح نبرة الحزن والأسى، وحرارة العاطفة، ونجد الشاعر أيضاً يقدّم تجربة واقعية لمن انساق وراء الملذات.

٣ - الشعراء الذين غلب على تفكيرهم التأمّل في الحياة وتقلباتها، وعايشوا كثيراً من الأحداث الكبرى، فغلبت عليهم نظرات الحكمة، مثل أبي تمّام، والبحتري، وابن خاتمة الأنصاري.

حيث يقول ابن خاتمة الأنصاري[٣]:

---

(١) محمد بن يسير، هو من أسدٍ، مولى لهم، شاعر ماجن هجاء خبيث، كان في عصر أبي نواس، وعمّر بعده حيناً، وقد يتمثل بكثير الشاعر. **انظر**: الأغاني ١٤/ ٣٩؛ «والشعر والشعراء» لابن قتيبة.

(٢) «الأغاني» ١٤/ ٣٩.

(٣) أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة أبو جعفر الأندلسي، طبيب مؤرخ من الأدباء البلغاء، =

هل تُبصر الأشجارُ والأطيارُ والـ   أزهارُ تِلْكَ الخافِضاتِ الأرؤسِ
تاللهِ وهوَ أَلِيَّتي وكَفَى بهِ   قَسَماً يُفَدَّى بَرُّه بالأنْفُسِ
ما ذاكَ من سُكرٍ ولا لِخَلاعَةٍ   لكنْ سجودُ مُسَبِّحٍ ومُقَدِّسِ
شُكراً لمن بَرأ الوجودَ بُجوده   فثَنى إليه الكلُّ وجهَ المُفْلِسِ
رفع السَّما سَقْفاً يَروقُ رُواؤُه   ودَحا بسيطَ الأرض أوْثَر مَجْلسِ
ووَشى بأنواع المحاسِنِ هذهِ   وأنارَ هذي بالجَواري الكُنَّسِ

٤ ـ الشعراء الذين يأتي قولهم في الزهد والمواعظ لمجرد الرغبة في استكمال الأغراض الشعرية، وإبراز مدى المقدرة الفنية لديهم.

وشعر هؤلاء أضعف الأنواع وأقلّها تأثيراً، مثل شعر ابن سناء الملك وغيره.

*** ثالثاً: مجالات الشعر الوعظي:**

الشِّعر لا يختلف في مجالاته عن الكلام المنثور، وقد سبقت الإشارة في الفصل الأوّل من هذا البحث إلى مجالات الوعظ النثري[1]، ولكن نجد بعض المجالات أوسع انتشاراً وأكثر حضوراً في الشعر الوعظي، وهذه المجالات تتمحّور حول:

أ ـ الاعتبار بحال الدنيا:

الدنيا تغرّ الخلق ببريقها وزخرفها وتزيّنها، فتصدّهم بذلك عن مطلوبهم الأسنى، وغايتهم الأسمى، وهي عبادة الله تعالى، وهنا نجد الشعراء يجلّون في أشعارهم هذه الحقيقة، كي يعتبر بها المعتبرون، وينتبه الغافلون، وتدور هذه التجلية وهذا التحذير حول الأمور التالية:

= من أهل المرية بالأندلس، توفي سنة: ٧٧٠هـ؛ «الإحاطة في أخبار غرناطة»، للسان الدين ابن الخطيب.

(١) **انظر**: مجالات الوعظ، ص٢٠٠ من هذا البحث.

• **التحذير من الانغماس في ملذات الدنيا:**

عن محمد بن قيس قال: كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذين البيتين[(١)]:

نهارك يا مَغرُورُ سَهْوٌ وغَفلَةٌ وَلَيلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لَازم
وتَنصُب فيما سوف تَكْرَه غِبَّهُ كذلك في الدنيا تَعيشُ البَهَائم

قال: ثم يتلو: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

ففي هذه الأبيات بيانٌ لحقيقة عيش كثير من الناس، ومشابهتهم في ذلك للبهائم التي لا حضّ لها ولا غاية إلّا المآكل والمناكح والمشارب والراحة والدّعة.

ـ وقال أبو العتاهية[(٢)] ـ محذِّراً من الانسياق وراء ملذات الدنيا لأنها ظلٌ زائل، يزول بمجرّد حلول المنية وخروج الروح ـ:

إِيّاكَ إِيّاكَ وَالدُنيا وَلَذَّتَها فَالمَوتُ فيها لِخَلقِ اللهِ مُفتَرِسُ
إِنَّ الخَلائِقَ في الدُنيا لَوِ اِجتَهَدوا أَن يَحبِسوا عَنكَ هَذا المَوتَ ما حَبَسوا
إِنَّ المَنِيَّةَ حَوضٌ أَنتَ تَكرَهُهُ وَأَنتَ عَمّا قَليلٍ فيهِ تَنغَمِسُ
ما لي رَأَيتُ بَني الدُنيا قَدِ اِفتَتَنوا كَأَنَّما هَذِهِ الدُنيا لَهُم عُرُسُ
إِذا وَصَفتُ لَهُم دُنياهُمُ ضَحِكوا وَإِن وَصَفتُ لَهُم أُخراهُمُ عَبَسوا
ما لي رَأَيتُ بَني الدُنيا وَإِخوَتَها كَأَنَّهُم لِكِتابِ اللهِ ما دَرَسوا[(٣)]

• **حقيقة الدنيا وسرعة زوالها والاعتبار بحالها:**

ـ عن ابن أبي عائشة قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثّل

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٢٠، وإسناده حسن.
(٢) إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان أبو العتاهية الكوفي، رأس الشعراء الأديب الصالح الأوحد، تنسك بأخرة وقال في المواعظ والزهد فأجاد وقد جمع ابن عبد البر شعره وأخباره، توفي سنة: ٢١١هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥.
(٣) ديوان أبي العتاهية، ص١٨٨.

بهذه الأبيات[(١)]:

فـمـا تـزوَّد مـمـا كـان يـمـلـكُـه   إلا حنوطاً غدَاة البين في خِرَق
وغـيـر نَـفْـحَـة أعْـوَاد تُـشَـبُّ لـه   وقَـلَّ ذلـك مـن زَاد لـمـنـطَـلـق

فالأبيات تصوّر لنا حقيقة ملك العباد في الدنيا، فكلّ ما يملكه المرء في الدنيا من زخرف ومتاع فإلى زوال، والمرء لا يخرج من دنياه إلّا بالحنوط والكفن.

وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني سليمان بن أبي شيخ[(٢)]:

مـا زالَـتِ الـدُنـيـا مُـنَـغَّـصَـةً   لَـم يَخلُ صاحِبُها مِنَ البَلوى
دارُ الـفَـجـائِـعِ وَالـهُـمـوم وَدا   رُ الـبَـثِّ وَالأَحـزانِ وَالـشَـكـوى
بَـيـنـا الـفَـتـى فـيـهـا بِـمَـنـزِلَـةٍ   إذ صـارَ تَـحـتَ تُـرابِـهـا مُـلـقـى
تَـقـفـو مَـسـاويـهـا مَـحـاسِـنَـهـا   لا شَيءَ بَينَ النَعيِ وَالبُشرى[(٣)]

ب ـ ظاهرة الموت والقبور:

أخذ الحديث عن الموت والقبور حيّزاً كبيراً من شعر شعراء الوعظ والزهد، حتى لا تكاد تجد في أشعار بعضهم إلّا ذكراً للموت والقبور، كما هو شأن أبي العتاهية.

وذاك لأنّ الموت هو أكبر العظات، كما في الأثر: «كفى بالموت واعظاً»[(٤)].

---

(١) «حلية الأولياء» ٥/ ٣١٩؛ والأبيات لأعشى همدان كما في «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» للزمخشري ٦/ ٢٤٤.

(٢) سليمان بن أبي شيخ، واسم أبي شيخ: منصور بن سليمان، أبو أيوب الواسطي، وكان عالماً بالنسب والتواريخ وأيام الناس وأخبارهم، وكان صدوقاً، توفي سنة: ٢٤٦هـ؛ تاريخ بغداد ٩/ ٥٠.

(٣) «ذم الدنيا»، ص١٢٣.

(٤) الأثر روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا يصحّ، وروي عن جملة من الصحابة والتابعين، كابن مسعود وأبي الدرداء وعمار بن ياسر ﷺ، والفضيل بن عياض. **انظر**: شعب الإيمان ٧/ ٣٥٣؛ وحلية الأولياء ١/ ٢١٧، والزهد لابن أبي عاصم، ص١٧٦؛ والزهد لابن المبارك، ص٣٧.

والنظر إلى محلّ الأجداث فيه أكبر العظات، ولذلك جاءت الوصية النبويّة بزيارة القبور للعظة والاعتبار، كما جاء في حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه مرفوعاً: **«قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»**(١).

• شمولية الموت وحقيقته، وطريق الاتّعاظ به:

قال أبو العتاهية ـ مبيّناً شمولية الموت لكلّ حيٍّ ـ(٢):

المَوتُ لا والِداً يُبقي وَلا وَلَدا ... وَلا صَغيراً وَلا شَيخاً وَلا أَحَدا

كانَ النَبِيُّ فَلَم يَخلُد لأُمَّتِهِ ... لَو خَلَّدَ اللهُ حَيّاً قَبلَهُ خَلَدا

لِلمَوتِ فينا سِهامٌ غَيرُ مُخطِئَةٍ ... مَن فاتَهُ اليَومَ سَهمٌ لَم يَفُتهُ غَدا

ما ضَرَّ مَن عَرَفَ الدُنيا وَغِرَّتَها ... أَلا يُنافِسَ فيها أَهلَها أَبَدا

• الاعتبار بالموت:

ـ عن المسيب بن واضح قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول(٣):

تذكّرتُ أيامَ من قد مَضى ... فهاجَ لي الدمعَ سحّاً هتونا

فردَّدتُ في النفس ذكراهُمُ ... ليُحدِثَ ذلك للقلب لينا

فقُلتُ لنَفسي وعاتبتُها ... وقد أبت النفسُ أن تستَلينا

أتنسَينَ آثار من قد مضى ... ودهراً تقاسيهِ قدما خؤونا

وقرع المنايا وإيقاعها ... وصوتُ الصوائحِ فيما بُلينا

وفي كل يوم وفي مسيةٍ ... تكونُ النوائبُ بالموتِ فينا

لقد غيّب القبرُ في لحدِهِ ... وقاراً نبيلا وبراً ودينا

وصحبي والأهلُ فارقتهم ... وكنتُ أراهُم رفاقاً عزينا

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٣/ ٣٧٠، كتاب: الجنائز عن رسول الله، باب: ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (٩٧٤)، واللفظ له؛ والنسائي ٤/ ٨٩، كتاب: الجنائز، باب: زيارة القبور، رقم (٢٠٠٥)؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ٢٣٤.

(٢) «المستطرف» ١/ ٧٧؛ وديوان أبي العتاهية، ص١٣٠.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٢/ ٤٧١. **قلت**: وإسناده حسن.

فإن كنت تبكينَ من قد مضى ... فبكّي لنفسك في الهالكينا
وبكّي لنفسك جهد البكا ... إذا كنتِ تبكين أو تغفلينا
فإنّ السبيل لكم واحدٌ ... سيتّبِعُ الآخرُ الأولينا
وإن كنتِ بالعيشِ مغتَرَّةً ... تمنّيك نفسُكِ فيها الظنونا
فنادي قبورَكِ ثمّ انظري ... مصارعَ أهلكِ والأقربينا

فابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ ينقل لنا حواره مع نفسه، وتذكيره إياها بمن قضى من الأحباب والأهل والأصحاب، والمرء بذلك على آثارهم يسير وفي هذا أعظم الذكرى وأبلغ العبرة.

• **موعظة المقابر:**

ـ قال أبو العتاهية[1] ـ موضحاً كنه العظة في المقابر والأجداث ـ:

وَعَظَتْكَ أَجداثٌ خُفُت ... فيهِنَّ أَجسادٌ سُبُت
وَتَكَلَّمَت لَك بِالبِلى ... مِنهُنَّ أَلسِنَةٌ صُمُت
وَأَرَتكَ قَبرَكَ في القُبو ... رِ وَأَنتَ حَيٌّ لَم تَمُت
وَكَأَنَّني بِكَ عَن قَريبٍ ... رَهنَ حَتفٍ لَم يَفُت

ج ـ الحديث عن الآخرة:

إنّ الحديث عن الآخرة وتصوير منازلها من وقوف الناس في عرصات يوم القيامة وعرضهم على ربهم وحسابه إياهم، وانصراف الناس فريق في الجنة وفريق في السعير، كلّ ذلك يبعث في النفس خشية ورهباً، واستعداداً وتأهباً، علّها تظفر بالنعيم وتنجو من الجحيم.

• **الخوف من النار والحساب:**

عن المسيب بن واضح قال: أنشدنا عبد الله بن المبارك ـ مصوّراً منازل الآخرة ـ[2]:

---

(١) «المدهش» لابن الجوزي، ص٢١٦؛ و«التذكرة» للقرطبي، ص١٠٨.
(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٢/ ٤٧٤. **قلت**: وإسناده صحيح.

وكيفَ قرّت لأهل العلم أعينُهُم أو استلذّوا لذيذّ النوم أو هجعوا
والموتُ يُنذِرُهم جهراً علانيةً لو كان للقومِ أسماعٌ لقد سمعوا
والنارُ ضاحيَةٌ لا بُدَّ موردُهم وليس يدرونَ من ينجو ومن يقَعُ
قد أمسَت الطير والأنعام آمنةً والنونُ في البحرِ لم يخشَ لها فزَعُ
والآدَمِيُّ بهذا الكسبِ مرتَهَنٌ لهُ رقيبٌ على الأسرارِ يطِّلِعُ
حتى يوافيهِ يوم الجمعِ منفرداً وخصمهُ الجلدُ والأبصارُ والسمعُ
إذ النبيونَ والأشهاد قائمةٌ والإنسُ والجنُّ والأملاكُ قد خشعوا
وطارت الصحفُ في الأيدي منشَّرة فيها السرائرُ والأخبارُ تطَّلَعُ
يوَدُّ قومٌ ذوو عِزٍّ لو أنهُم همُ الخنازيرُ كي ينجوا أو الضبعُ
كيفَ شهودكَ والأنباءُ واقعةٌ عمّا قليل ولا تدري بما يقعُ
أفي الجنانِ وفوز لا انقطاع له أم الجحيم فما تبقى ولا تدعُ
تهوي بهلكاتها طوراً وترفعهُم إذا رجوا مخرجا من غمّها وقعوا
طال البكاءُ فلم ينفَع تضرُّعُهم هيهاتَ لا رِقَّةٌ تغني ولا جزَعُ
هل ينفع العلم قبل الموت عالمَهُ قد سال قومٌ بها الرجعي فما رجَعوا

• **الترغيب في نعيم الجنّة:**

قال أبو العتاهية[1] ـ مرغباً في بعض ما في الجنة من النعيم ـ:

يا مَن يُعانِقُ دُنيا لا بَقاءَ لَها يُمسي وَيُصبِحُ في دُنياهُ سَفّارا
هَلا تَرَكتَ مِنَ الدُنيا مُعانَقَةً حَتّى تُعانِقُ في الفِردَوسِ أَبكارا
إِن كُنتَ تَبغي جِنانَ الخُلدِ تَسكُنُها فَيَنبَغي لَكَ أَن لا تَأمَنَ النارا

د ـ الحثّ على تقوى الله تعالى واجتناب المعاصي:

التقوى هي رأس الأمر كلّه، وهي وصية الأنبياء والصالحين، وبها تنال السعادة في الدارين، وهي الدرع الواقي دون الوقوع في المحرمات واجتراح السيئات.

(١) «منهاج اليقين في شرح كتاب أدب الدنيا والدين» للماوردي؛ شرح: أويس الشير، ص٢٠٩.

كما أنّ الذنوب والمعاصي هي سبب كلّ مصيبة وبلاء، ونكد وشقاء.

فكان من الطبيعي أن تحفل أشعار الوعظ بالحث على التقى والتحذير من المعاصي والآثام، ومن هذه الأشعار نذكر ما يلي:

• التحذير من الذنوب:

ـ عن يونس بن عبد الأعلى قال: أنشدني مسلم الخوّاص عن ابن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب ويتبِعُها الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوبِ وخيرٌ لنفسكَ عصيانُها[(١)]

ففي هذه الأبيات بيان لعظم أثر الذنوب على القلوب، إذ هلاك القلب باقتراف المعاصي.

ـ وعن عبد الله بن صالح قال: قال مسعر بن كدام:

تَفنى اللَذاذَةُ مِمَّن نالَ صَفوَتَها مِنَ الحَرام وَيَبقى الإِثمُ وَالعارُ
تُبقي عَواقِبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها لا خَيرَ في لَذَةٍ مِن بَعدِها النارُ[(٢)]

إنّ لذة الحرام قد تكون ثوان، ولكن عواقبها تستمر إلى يوم الجزاء، وفي هذا أعظم العظة للعبد كي يزن الأمور ويعرف مقدار ضرر المحرمات.

• الحث على استحضار مراقبة الله تعالى للعبد:

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي رحمه الله ينشد[(٣)]:

إذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً فَلا تَقُل خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ يُغفِلُ ما مَضى وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ
لَهَونا لَعَمرُ اللهِ حَتّى تَتابَعَت ذُنوبٌ عَلى آثارِهِنَّ ذُنوبُ

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٤٦٤؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٢٧٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٢٢١؛ والآجري في «الغرباء» ص٦٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٤٦١. **قلت**: وإسناده حسن.

فَيا لَيتَ أَنَّ اللهَ يَغفِرُ ما مَضى ... وَيَأذَنُ في تَوباتِنا فَنَتوبُ

العبد إذا استحضر معيَّة الله ورقابته وعلمه الذي أحاط بكلّ شيء، حرص أن لا يجعل الله أهون الناظرين إليه، فبذلك يحمله هذا الشعور على الحياء من الواحد الأحد.

● **منزلة التقوى:**

قال أبو العتاهية:

إِذا المَرءُ لَم يَلبَس ثِياباً مِنَ التُقى ... تَقَلَّبَ عُرياناً وَإِن كانَ كاسِياً[1]

ويقول أيضاً:

تَشَرَّفَ الناسُ بِالدُنيا وَقَد غَرِقوا ... فيها فَكُلٌّ عَلى أَمواجِها طافِ

هُمُ العَبيدُ لِدارٍ قَلبُ صاحِبِها ... ما عاشَ مِنها عَلى خَوفٍ وَإِيجافِ

حَسبُ الفَتى بِتُقى الرَحمٰنِ مِن شَرَفٍ ... وَما عَبيدُكَ يا دُنيا بِأَشرافِ[2]

إنّ الشرف الأسمى والسؤدد الأوفى في تقى الرحمٰن ومعصية الشيطان، فمن رام شرفاً فليطلبه في التقوى فإنّ الله يرفع ذكر أوليائه في الدنيا والآخرة.

● **الحذر من الذنوب والمعاصي:**

ـ قال أبو العتاهية ـ مبيناً استخفاف الناس بالذنوب رغم أنها قد توجب سخط الجبّار جل وعلا ـ:

فَيَا من بتَّ تَنْمو بالخَطَايا ... وعَيْنُ الله سَاهِرَة تَرَاهُ

أما تَخْشَى من الدَيَّان طَرْداً ... بجُرْم دَائماً أَبَداً تَرَاهُ[3]

ـ وعن عيسى بن عبد الرحمٰن أنّ محمود الوراق[4] أنشد:

عُمرُكَ قَد أَفنَيتَهُ تَحتَمي ... فيهِ مِنَ البارِدِ وَالحارِ

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٤٨٢.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٨.
(٣) المصدر السابق، ص٤٧٦.
(٤) محمود بن الحسن الوراق، شاعر مجود سائر النظم في المواعظ أكثر القول في الزهد والأدب، مات في خلافة المعتصم؛ سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٦١؛ وتاريخ بغداد ١٣/ ٨٧.

وَكـانَ أَولـى بِـكَ أَن تَـحـتَـمـي مِـنَ الـمَـعـاصـي خشـيَـةَ الـنـارِ[١]

ففي الأبيات تصوير للمفارقات العجيبة، إذ كيف يحتمي العبد من حرّ الدنيا ولا يحتمي من حرِّ نار الآخرة.

● **مغالبة الشهوات والسيطرة عليها:**

قال أبو العتاهية:

يـا رُبَّ شَهـوَةِ ساعَـةٍ قَـد أَعقَـبَـت مَـن نـالَـهـا حُـزنـاً هُـنـاكَ طَـويـلا
عَـظُـمَ الـبَـلاءُ بِـهـا عَـلَـيـهِ وَإِنَّـمـا نـالَ الـمُـفَـضِّـلُ لِـلـشَّـقـاءِ قَـلـيـلا
فَـإِذا دَعَـتـكَ إِلـى الـخَـطـيـئَـةِ شَـهـوَةٌ فَـاجـعَـل لِـطَـرفِـكَ فـي الـسَّـمـاءِ سَـبـيـلا
وَخَـفِ الإِلَـهَ فَـإِنَّـهُ لَـكَ نـاظِـرٌ وَكَـفـى بِـرَبِّـكَ زاجِـراً وَسَـئـولا
مـاذا تَـقـولُ غَـداً إِذا لاقَـيـتَـهُ بِـصَـغـائِـرٍ وَكَـبـائِـرٍ مَـسـؤولا
لا تَـركَـنَـنَّ إِلـى الـرَّجـاءِ فَـإِنَّـهُ خَـدَعَ الـقُـلـوبَ وَضَـلَّـلَ الـمَـعـقـولا

يبيّن أبو العتاهية في هذه الأبيات الآثار الوخيمة للشهوات المحرّمة على العبد في الدنيا والآخرة، ثم يقدّم الدواء الشافي لداء الشهوات، والمتمثّل في استحضار رقابة الله تعالى أوّلاً، ثمّ التفكر في وعيد الله تعالى للعصاة والمذنبين ثانياً.

● **معاتبة النفس ومحاسبتها:**

عن محمد بن أعين[٢] قال: كان عندنا فتى قلَّ ما ينام بالليل؛ يصلي ويقرأ ويسبح؛ فإذا كان من آخر الليل يبكي ويقول:

تفكَّرت طُول الليل فيما جَنيتُه وذكـرت نـفـسـي كـلّ ذنـب أتـيـتُـه
وأنكرت منها ما تعَاطيتُ في الصبا كـأن شـبـابـي كـان سَـهْـمـاً رمـيـتُـه
وسـود صـحـفـي بـالـذنُـوب أوانـه وولّـى سـريـعـاً مـثـل حُـلْـم رأيـتـه[٣]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب»، ص٥٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) محمد بن أعين أبو الوزير المروزي، خادم عبد الله بن المبارك ووصيّه، وكان من ثقات عبد الله ومن خواصّه، توفي سنة: ٢٠٣هـ؛ «تهذيب الكمال» للمزّي ٢٤/ ٤٩٨.

(٣) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» ٢/ ٢٥٢. **قلت**: وإسناده حسن.

التفكر طريق للاعتبار، ومحاسبة النفس سبيل للانزجار، والشاعر في هذه الأبيات يتذكّر ذنوبه السوالف، ويحاسب نفسه اللجوج على ما سوّدت به الصحائف.

ـ وقال أبو العتاهية:

يا نَفسُ أنّى تُؤفَكينا ... حَتّى مَتى لا تَرعَوينا

حَتّى مَتى لا تَعقِلينَ ... وتسمَعينَ وَتُبصِرينا

أَصبَحتِ أَطوَلَ مَن مَضى ... أَمَلاً وَأَضعَفَهُم يَقينا

وَلَيَأتِيَنَّ عَلَيكِ ما ... أَفنى القُرونَ الأَوَّلينا

يا نَفسُ طالَ تَمَسُّكي ... بِعُرى المُنى حيناً فَحينا

يا نَفسُ إلا تَصلُحي ... فَتَشَبَّهي بِالصالِحينا

وَتَفَكَّري فيما أَقو ... لُ لَعَلَّ قَلبَكِ أَن يَلينا[1]

فالشاعر هنا يحاور نفسه ويحاسبها على طيشها وغفلتها، مبرزاً أن الدافع على اجتراح المعاصي هو الغفلة وطول الأمل، وعلاج هذا الداء بقصر الأمل، والاقتداء بالصالحين.

● **التوكّل على الله تعالى:**

ـ عن حماد بن علي البكراوي أنّه أنشد لمحمود بن الحسن الوراق:

تَوَكَّل عَلى الرَحمٰنِ في كُلِّ حاجَةٍ ... أَرَدتَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقضي وَيَقدِرُ

مَتى ما يُرِد ذو العَرشِ أَمراً بِعَبدِهِ ... يُصِبهُ وَما لِلعَبدِ ما يَتَخَيَّرُ

وَقَد يَهلِكُ الإِنسانُ مِن بابِ أَمنِهِ ... وَيَنجو لَعَمرُ اللهِ مِن حَيثُ يَحذَرُ[2]

التوكّل من أعظم العبادات القلبية، وإذا توكّل العبد على الله حقّ التوكّل كفاه، ومن كلّ مكروه عافاه، وهذا ما يصوّره لنا الشاعر في الأبيات المتقدّمة.

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٤٢٦.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ١/ ٢٣٣. **قلت**: وإسناده حسن.

هـ ـ الدعوة إلى التحلّي بمكارم الأخلاق والتخلّي عن مساويها:

لعلّ الدعوة إلى التحلّي بمكارم الأخلاق والتخلّي عن مساويها، تحتلّ الرتبة الثانية بعد ذكر الموت والبلى في الأشعار الوعظية، وذاك لأنّ الدين المعاملة، وحسن الخلق عنوان للإيمان.

- **الحثّ على التحلّي بمكارم الأخلاق:**

عن محمد بن إدريس الحنظلي قال: قال عبد الله بن المبارك[1]:

أدّبتُ نفسي فما وجدتُ لها ... من بعدِ تقوى الإله من أدَبِ
في كلّ حالاتها وإن قصُرت ... أفضلُ من صمتِها عن الكذِبِ
وغيبَةِ الناس إنّ غيبَتَهُم ... حرّمَها ذو الجلال في الكتُبِ
قلتُ لها طائعاً وأكرِمُها ... الحلمُ والعلمُ زينُ ذي الحَسَبِ
إن كان من فضّةٍ كلامك يا ... نفسُ فإنّ السكوتَ من ذَهَبِ

في هذه الأبيات دعوة إلى جملة من الأخلاق الحسنة والآداب السامية؛ كالصدق، والحلم والعلم، والصمت، كما نجد فيها زجراً عن الأخلاق السيئة كالغيبة والكذب.

- **الدعوة إلى حسن المعاملة:**

يقول أبو العتاهية:

أُخَيَّ عِندي مِنَ الأَيّامِ تَجرِبَةٌ ... فيما أَظُنُّ وَعِلمٌ بارِعٌ شافِ
لا تَمشِ في الناسِ إلا رَحمَةً لَهُمُ ... وَلا تُعامِلهُمُ إلا بِإِنصافِ
وَاقطَع قُوى كُلِّ حِقدٍ أَنتَ مُضمِرُهُ ... إِن زَلَّ ذو زَلَّةٍ أَو إِن هَفا[2] هافِ
وَارغَب بِنَفسِكَ عَمّا لا صَلاحَ لَهُ ... وَأَوسَعِ الناسَ مِن بِرٍّ وَإِلطافِ
وَإِن يَكُن أَحَدٌ أَولاكَ صالِحَةً ... فَكافِهِ فَوقَ ما أَولى بِأَضعافِ
وَلا تُكَشِّف مُسيئاً عَن إِساءَتِهِ ... وَصِل حِبالَ أَخيكَ القاطِعِ الجافي[3]

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» ١/ ٣١٢. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) هفا هفوة، والهفوة هي الزلّة والخطيئة، لسان العرب ٩/ ٣٤٨، مادة: «هفف».
(٣) ديوان أبي العتاهية، ص٢٧٩.

معاملة الناس بالحسنى ـ دليل على عمار القلب وقوة الإيمان ـ، ومبناها على السماحة والرضا والعفو عن الإساءة، وبذل الندى وكفّ الأذى، وهذا ما يدعو إليه الشاعر من خلال هذه الأبيات.

و ـ الدعوة إلى الاجتهاد والتشمير:

إنّ المسارعة إلى الخيرات، والتنافس على تحصيل القربات، هو دأب الصالحين وسمت المخبتين، وإنّه من الغبن العظيم والخطأ الجسيم أن يهدر العبد أيامه في اللهو والعبث، ويترك التزوّد بالباقيات الصالحات.

فعن أبي زيد محمد بن حسان قال: سمعت ابن المبارك يقول[1]:

واغتنم ركعتين زلفى إلى الله   إذا كنتَ فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالمنطق البا   طل فاجعل مكانهُ تسبيحاً

فإذا استغلّ العبد أوقات فراغه في عبادة ربّه، واستعاض عن القول الباطل بالذكر والتسبيح، كان من أعظم القانتين، وهذا ما يدعو إليه الشاعر في الأبيات السالفة.

ـ وقال محمود بن الحسن:

مَضى أَمسُكَ الباقي شَهيداً مُعَدَّلاً   وَأَصبَحتَ في يَوم عَلَيك شَهيدُ
فَإِن كُنتَ في الأَمسِ اِقتَرَفتَ إِساءَةً   فَثَنِّ بِإِحسانٍ وَأَنتَ حَميدُ
وَلا تُرجِ فِعلَ الخَيرِ يَوماً إِلى غَدٍ   لَعَلَّ غَداً يَأتي وَأَنتَ فَقيدُ
وَيَومُكَ إِن عايَنتَهُ عادَ نَفعُهُ   إِلَيكَ وَماضي الأَمسِ لَيسَ يَعودُ[2]

إنّ التسويف أعظم أسلحة إبليس، فلا يزال بالعبد حتى يورده

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» ص٢٨٩؛ والبيهقي في «الشعب» ٤/ ٢٧٥؛ والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» ص١٠٥؛ وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٢/ ٤٦٠. **قلت:** وإسناده صحيح.

(٢) رواه البيهقي في «الزهد الكبير»؛ والخطيب في «اقتضاء العلم العمل»، ص١١١. **قلت:** وإسناده حسن.

المعاطب، والحازم من بادر إلى الطاعة وقطع التسويف؛ لأنّ ما مضى من عمر العبد لا يعود، وهذا ما توضّحه هذه الأبيات.

*** رابعاً: طريقة إيراد السلف لشعر المواعظ:**

استخدم السلف رحمهم الله الشَّعر في مواعظهم، وسلكوا في ذلك طريقين اثنين:

١ ـ إمّا أن توشح المواعظ والخطب بالأشعار الزهدية الحكيمة، وهذا كثير جداً، ويشهد له: ما رواه الهيثم بن أبي سنان قال رأيت أبا هريرة ﵁ يوم جمعة يقصّ قائماً فقال في قصصه: إنّ أخاً لكم كان لا يقول الرفث ـ يعني عبد الله بن رواحة ـ فقال[(١)]:

وفينَا رسُولُ الله يَتلُو كتَابَه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجْر ساطع
أرانا الهُدَى بعدَ العَمَى فقلُوبُنَا ... به موقنَاتٌ أنَّ ما قَالَ واقع
يَبيْتُ يُجافي جَنْبه عن فراشه ... إذا استثْقَلَت بالكافرين المضَاجع

٢ ـ وإمّا أن تنشد القصيدة غير مقرونة بكلام نثري، ويكون مقصود قائلها وعظ سامعيه، وزجرهم عمّا هم فيه، ومثال ذلك:

ـ ما رواه عثمان بن عبد الحميد قال: دخل سابق البربري[(٢)] على عمر بن عبد العزيز فقال له: عظني يا سابق وأوجز، قال: نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله، قال: هات، فأنشده[(٣)]:

إذا أنت لم ترحَل بِزَادٍ من التُّقَى ... ووافَيتَ بَعدَ المَوتِ مَن قد تزَوّدا
نَدِمتَ على أن لا تكونَ شركَتهُ ... وَأرصَدتَ قبلَ الموتِ ما كان أرصدَا

ـ وعن يعلى بن عبيد قال: دخل إبراهيم بن أدهم على الخليفة أبي

---

(١) ذكره ابن الجوزي في كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص١٩٤. **قلت**: وإسناده جيد.
(٢) سابق بن عبد الله أبو سعيد ويقال أبو أمية الرقي المعروف بالبربري الشاعر، من أهل حرّان، قدم على عمر بن عبد العزيز وأنشده أشعاراً في الزهد؛ تاريخ دمشق ٢٠/ ٣.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣١٨؛ وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٠/ ١٣. **قلت**: وإسناده حسن.

جعفر، فقال له: كيف شأنكم يا أبا إسحاق؟ فقال يا أمير المؤمنين[١]:

نُرَقِّعُ دُنيانا بِتَمزيقِ دينِنا ... فَلا دينُنا يَبقى وَلا ما نُرَقِّعُ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ ... وجَادَ بِدُنْيَاهُ لِما يَتَوَقَّعُ

أما التغني بالقصائد والأشعار فهو من بدع الصوفية المحدثة.

* خامساً: ضوابط الشِّعر الوعظي عند السلف:

ضبط السلف رحمهم الله أشعارهم الوعظية وغيرها، بضوابط عظيمة مستمدّة من الكتاب والسنّة، وهذا حفظاً للأشعار من الانحراف والفحش والبهتان، وفيما يلي عرض لأبرز هذه الضوابط:

أ ـ سلامة العقيدة، والاعتدال في الزهد: وهذا نابعٌ من سيرة السلف أنفسهم، فقد كانت عقيدتهم سليمة، وتبتّلهم معتدلٌ منضبطٌ وهذه الميزة أثّرت أيما تأثير في أشعارهم الزهدية والوعظية، خلافاً لأشعار الصوفية والطرقية المنحرفة عن الجادّة، والمليئة بالشركيات والمخالفات.

ب ـ صدق المقال، وموافقة الأقوال للفعال، هو أبرز ميزة في شعر مواعظ السلف رحمهم الله، وهم بذلك يفارقون الشعراء الكاذبين الذين يقولون ما لا يفعلون.

إذ أنّ عامة الشعراء كاذبون، ويقولون ما لا يفعلون، إلّا المؤمنون منهم فإنهم يصدقون في أقوالهم، ويطابق مقالهم فعالهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

قال ابن العربي رحمه الله: «من المذموم في الشعر التكلّم من الباطل بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس، وتحسين القول»[٢].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٠. **قلت**: وإسناده لا بأس به.
(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٤٤١.

وقال ابن بطال رحمه الله - في بيان الشعر المذموم -: «وما كان كذباً وفحشاً فهو مذموم»[(١)].

ج - الاستشهاد بالأشعار الخالية من الغزل والهجاء، وإن كانت بعض هذه الأشعار فيها حكمٌ وعبرٌ، ولكن مقام الوعظ والتذكير لا بد أن ينزّه عن هذه الأنواع من الشِّعر.

د - الاعتدال في إيراد الشعر الوعظي: لم يكن من هدي السلف في خطبهم ومواعظهم الإكثار من إيراد الأشعار وإن كانت في باب الزهد والرقاق، بل يكتفون بقدر الحاجة دون إسهاب أو إفراط؛ لأنّه قد جاء النهي عن الإكثار من الشِّعر كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما - السابق - أنّ النبي ﷺ قال: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً**»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقوله: «**شعْراً**» ظاهره العموم في كل شعر، لكنه مخصوص بما لم يكن مدحاً حقاً كمدح الله ورسوله، وما اشتمل على الذكر والزهد وسائر المواعظ مما لا إفراط فيه»[(٣)].

هـ - مصادر الشعر الوعظي عند السلف رحمهم الله ترجع في مجملها إلى خمسة مصادر:

١ - القرآن الكريم.

٢ - والسنة النبوية.

٣ - الآثار المروية عن الأنبياء والصحابة والتابعين والوعّاظ والمذكِّرين، وأقوال الحكماء.

٤ - التأمّل في الحياة وتقلّب الزمن وتغيراته المختلفة، والأحداث المتلاحقة.

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٤٠.

(٢) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص٥٠٧.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٥٤٩.

٥ ـ حياة الواعظ الزهدية وما يعايشه[١].

ولا شكّ أنّ المصادر الثلاث الأخيرة ترجع في أصلها وجوهرها إلى الكتاب والسنّة.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ عند حديثه عن شعر أبي العتاهية ـ: «ونظم ما استفاده من أهل العلم؛ من السنن، وسيرة السلف الصالح، وأشعاره في الزهد والمواعظ والحكم، لا مثل لها، كأنها مأخوذة من الكتاب والسنّة»[٢].

ويقول د. يوسف خليف: «...فحياة أبي العتاهية الزهدية كانت تفرض عليه أن يتّصل بشيئين، كان لهما أعمق الأثر في ظهور هذا الجو الديني في شعره: القرآن والحديث من ناحية، ثم مواعظ الزهّاد وخطب القصّاص في العصر الأموي من ناحية أخرى»[٣].

* ولقد اهتمّ علماء الأدب بأشعار الوعّاظ وتتبّعوا مصادرها وخلصوا في كثير من الأحيان إلى أنها ترجع إلى الكتاب والسنة وكلام وسيرة السلف رحمهم الله.

ومن أمثال هؤلاء الأدباء: المبرد، وابن عبد ربه.

قال المبرّد: «وكان إسماعيل بن القاسم ـ أبو العتاهية ـ لا يكاد يخلّي شعر من تقدم من الأخبار والآثار فينظم ذلك الكلام المشهور، ويناوله أقرب متناول، ويسرقه أخفى سرقة».

ثم أورد جملة من الشواهد على ذلك:

فيقول: «أمّا قول أبي العتاهية:

يا عَجَباً لِلناسِ لَو فَكَروا أَو حاسَبوا أَنفُسَهُم أَبصَروا

فمأخوذ من قولهم: «الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك».

---

(١) «الشعر الزهدي في العصر العباسي الأول» رسالة ماجستير ـ الجامعة الإسلامية ـ عام: ١٤٠٦هـ للباحث: د. صلاح الدين عبد التواب، ص٧٠٥.

(٢) مقدّمة ابن عبد البر لديوان أبي العتاهية، ص٣٧.

(٣) «حياة الشعر في الكوفة»، د. يوسف خليف، ص٦٦٧.

ومن قول لقمان لابنه: «يا بنيّ للعاقل أن يخلي نفسه من أربعة أوقات: فوقت منها يناجي فيه ربّه، وقت يحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يخلي فيه بين نفسه وبين ذاتها، ليستعين بذلك على سائر الأوقات».

ـ وقوله:

وَعَبَروا الدُنيا إِلى غَيرِها فَإِنَّما الدُنيا لَهُم مَعبَرُ
وَالخَيرُ ما لَيسَ بِخافٍ هُوَ الـ مَعروفُ وَالشَرُّ هُوَ المُنكَرُ

مأخوذ من قول الحسن: «اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها».

ـ وقوله:

لَيَعلَمَنَّ الناسُ أَنَّ التُقى وَالبِرَّ كانا خَيرَ ما يُذخَرُ

مأخوذ من قول أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا حشر الناس في صعيد واحد نادى منادٍ من قبل العرش: سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم؟ ليقم المتقون! ثم تلا رسول الله ﷺ:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]»[1].

ـ وقوله:

ما بالُ مَن أَوَّلُهُ نُطفَةٌ وَجيفَةٌ آخِرُهُ يَفخَرُ

مأخوذ من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «وما ابن آدم والفخر إنما أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»[2][3].

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن أخرج الإمام أحمد في مسنده ـ حديثاً قريباً منه ـ عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي ﷺ قال: «**يقول الرب ﷻ يوم القيامة سَيُعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ، فَقِيلَ وَمَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ فِي الْمَسَاجِدِ**»، والحديث إسناده ضعيف كما قال شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» بلفظ مقارب: «ما بال من أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو بين ذلك وعائه القذرة أن يفخر». **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٣) «الكامل في اللغة والأدب» للمبرّد ١/ ٢٣٨؛ **وانظر** أيضاً: «العقد الفريد» ٣/ ٢١٣.

* وقد يصرِّح الشاعر أحياناً بالمصدر الذي استقى منه المعاني التي يذكرها في قصيدته، كما في قول يحيى بن معين[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ:

الَـمـالُ يَـذْهَـبُ حـلُّـهُ وحَـرَامُـه يَـومـاً وتَـبْـقَـى فـي غَـد آثَـامُـه
لَـيـسَ الـتَّـقـيُّ بـمُـتَّـق لإلـهـه حـتـى يَـطـيْـبُ شَـرَابُـه وطَـعَـامُـه
ويَطيْبُ ما يَحْوي ويَكْسب كَفُّه ويَكُونُ في حُسْن الحَديث كَلَامُه
نَـطَـقَ الـنـبـي لَـنَـا بـه عَـنْ رَبِّـه فَعَلى النَبي صلى الله عليه وسلم[(٢)]

ومما تقدّم يمكن أن يقال: إنّ الشعر كالنثر، لا يُعَاب لذاته وإنما يعاب ما تضمّنه من قبيح القول، وما فيه إساءة للدين وأهله، أو فحش، أو منكر، أو كذب، أمّا إن خلا من هذه المحاذير وكان متضمّناً للدعوة إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق فهو مندوب إليه مرغّب فيه.

ولأجل هذا اعتنى السلف رحمهم الله بالشعر الوعظي نظماً واستشهاداً، وتشجيعاً واستماعاً؛ لأنّهم أدركوا عظم أثره في النفوس، وشدة تعلّقه بالأذهان، وسعة مجالاته.

ولم يكن الشعر الوعظي حكراً على وعاظ السلف بل تعاطاه خلق كثير من الشعراء لأغراض شتى.



(١) يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام أبو زكريا، الغطفاني ثم المري مولاهم البغدادي، الإمام الحافظ الجهبذ شيخ المحدثين، إمام الجرح والتعديل، وكان من أشدّ الناس على المبتدعة، توفي سنة: ٢٣٣هـ؛ سير أعلام النبلاء ١١/ ٧١.

(٢) «تاريخ ابن معين»، برواية الدوري ٤/ ٤٠٦.

الفصل الرابع

أنواع وصفات الوعّاظ عند السلف

ويتضمّن مبحثين:

المبحث الأول: أنواع الوعّاظ عند السلف.

المبحث الثاني: صفات الواعظ عند السلف.



معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

المبحث الأول

أنواع الوعّاظ عند السلف

وفيه تمهيد وثلاث مطالب:

المطلب الأول: الواعظ المُوَلَّى.

المطلب الثاني: الواعظ المتطوّع.

المطلب الثالث: القُصّاص.

تمهيد

* الواعظ في أصل الفعل واحدٌ، ويمكن تقسيمه إلى أنواع باعتبارات عديدة.

- فباعتبار الدافع للوعظ: ينقسم إلى قسمين:

١ - الواعظ المولَّى.

٢ - الواعظ المتطوِّع.

وقد جاءت الإشارة إلى هذين القسمين في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَقُصُّ إلا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُخْتَالٌ**»[١].

والقصّ: التحدث بالقصص، ويستعمل في الوعظ[٢].

- وباعتبار طبيعة الموعظة ومحتواها، فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع:

١ - المذكِّر.

٢ - الواعظ.

٣ - القاصّ.

قال الإمام الخطابي رحمه الله: «إن المتكلمين على الناس ثلاثة أصناف: مذكر وواعظ وقاصّ، فالمذكِّر: الذي يذكر الناس آلاء الله ونعمائه ويحثهم على الشكر له، والواعظ: يخوفهم بالله وينذرهم عقوبته فيروعهم به عن المعاصي، والقاص: الذي يروي لهم أخبار الماضيين ويروى عليهم

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٢/٣٤٧، كتاب: العلم، باب: في القصص، رقم (٣١٨٠)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٤٥١: «إسناده حسن».

(٢) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي، وآخرين ١/٢٦٦.

القصص فلا يأمن من أن يزيد فيها أو ينقص»[١].

وحيث إنّ الوعظ والتذكير قد سبق الكلام عنهما بما لا مزيد عليه ها هنا، وهما مع ذلك يتفقان في أغلب المعاني، فقد استغنيت عن ذكرهما في هذا المبحث تحاشياً للتكرار.

لذا فإنّ حديثنا سوف يقتصر على الواعظ المولّى، والواعظ المتطوِّع، والقاصّ.

* والمقصود بالوعظ هنا هو الوعظ العام: ويشمل الخطابة، وحلق الذكر، والدروس الدورية التي تلقى في المساجد وغيرها.

فالأنواع السالفة الذكر لا تشمل الوعظ الخاص: وهو موعظة الرجل لأخيه إسراراً.



(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي ١٠/٧١.

المطلب الأول

الواعظ المُوَلَّى

* أوّلاً: تعريف الواعظ المولّى:

هو من يُقِيْمُه الإمام[1] خطيباً أو واعظاً، فيعظ الناس ويذكِّرهم[2].

ويدخل في ذلك أيضاً الأمير والوالي، فقد كان الأمراء فيما سبق يلون الخطابة ويعظون الناس ويذكرونهم، كما ورد في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه السابق، أنّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يَقُصُّ إلا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُخْتَالٌ»**.

قال في النهاية: «أي: لا يَنْبَغي ذلك إلَّا لأميرٍ يَعِظُ الناس، ويُخْبِرُهم بما مَضى ليَعْتَبِرُوا، أو مَأمورٌ بذلك فيكون حُكْمُه حُكْم الأمِير.... وقيل: أراد الخُطْبة؛ لأنَّ الأمَراء كانوا يَلْونَها في الأوّل، ويَعِظُون الناس فيها، ويَقُصُّون عليهم أخْبار الأمَم السالِفة»[3].

وقال الزمخشري: «أي: لا يخطب إلّا الأمير؛ لأن الأمراء كانوا يتولوْن الخُطب بأنفسهم، والمأمور الذي اختاره الأئمة فأمروه بذلك، ولا يختارون إلا الرّضا الفاضل»[4].

وجرى خلاف بين أهل العلم في ولاية الخطابة والوعظ، هل هي من الولايات الدينية التي يشترط فيها إذن الإمام وتعيينه، أم أنها ليست ولاية دينية[5].

وكان الولاة فيما مضى لا يولون الخطابة والوعظ إلّا لمن كملت

---

(١) أي: إمام المسلمين.
(٢) عون المعبود ١٠/ ٧١.
(٣) «النهاية في غريب الحديث»، للجزري ٤/ ٧٠.
(٤) «الفائق في غريب الحديث» لمحمود بن عمر الزمخشري ٣/ ٢٠٤.
(٥) سيأتي تفصيل المسألة في المطلب الثاني من هذا المبحث.

أهليته لذلك علماً وخلقاً ونُصْحاً، وكانوا يقوِّمون كلّ من اعوجّ من الوعّاظ ويتعاهدونهم بالنصح والتوجيه.

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله: «فأمّا جلوس العلماءِ والفقهاءِ فِي الجوامِعِ والمساجِدِ والتصدِّي لِلتدرِيسِ والفتوى فعلى كل واحِدٍ مِنهم زَاجِرٌ مِن نفسِهِ أن لّا يَتَصَدَّى لِما ليس لهُ بِأَهْلٍ. . . . . ـ إلى أَنْ قال ـ ولِلسلطانِ فِيهِم مِن النظرِ ما يُوجِبهُ الاحْتِيَاطُ مِن إنكارٍ وإِقرارٍ»[١].

* ثانياً: حُكْمُ أخذ الأُجْرَة على الخطابة والوعظ:

إنّ أخذ العوض مقابل تعليم القرآن والإمامة والخطابة والوعظ، قد اختلف فيه العلماء على خمسة أقوال:

● **القول الأوّل**: المنع من أخذ الأجرة والعوض على تعليم القرآن والوعظ مطلقاً.

ـ وهو قول الزهري وأبي حنيفة، وإسحاق بن راهويه، وعطاء، والضّحّاك بن قيس، ورواية عن أحمد[٢].

ـ واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلّة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]؛ أي: «لا تأخذوا عليه أجراً»[٣].

قال القرطبي رحمه الله: «والآية قد استدلّ بها من منع أخذ الأجرة على القرآن والعلم»[٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

---

(١) «الأحكام السلطانية»، لأبي يعلى الفراء، ص٣٠٤.
(٢) «المبسوط» ٥/ ١٦١، للشيباني؛ و«بدائع الصنائع» ٢/ ٢٧٧، للكاساني.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٢١.
(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٧٣.

فذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح عليه السلام أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجرة في مقابله، وكذا شأن الرسل عليهم السلام جميعاً[(١)].

٣ ـ عن عبد الرحمٰن بن شبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرءوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»**[(٢)].

فقوله: «ولا تأكلوا به» أي: «لا تجعلوا للقرآن عوضاً من سحت الدنيا»[(٣)].

٤ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من يأخذ على تعليم القرآن قوساً قلَّده الله قوساً من نار»**[(٤)].

٥ ـ وعن المثنى بن وائل قال: أتيت عبد الله بن بشر رضي الله عنه فمسح رأسي، ووضعت يدي على ذراعه، فسأله رجل عن أجر المعلم؟ فقال: **«دخل على رسول الله ﷺ رجل متنكِّب قوساً فأعجبت النبي ﷺ فقال: ما أجود قوسك! اشتريتها؟ قال: لا ولكن أهداها إليّ رجل أقرأتُ ابنه القرآن، قال: فتحبُّ أن يقلِّدك الله قوساً من نار؟ قال: لا، قال: فردّها»**[(٥)].

---

(١) **انظر**: «أضواء البيان» ٢/ ١٣.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ٣٤٤، رقم (٨٨٢٣)؛ وأبو يعلى في مسنده ٣/ ٨٨، رقم (١٥١٨)؛ والبيهقي في الشعب ٢/ ٥٣٢؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٧: «ورجاله ثقات»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٥٢٢.

(٣) عمدة القاري، لبدر الدين العيني ٢١/ ٢٦٤.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، مسند الشاميين ١/ ١٦٧، رقم (٢٧٩)؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٦، باب: كسب الإماء، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٥: «رواه الطبراني في الكبير من طريق يحيى بن عبد العزيز عن الوليد بن مسلم، ولم أجد من ذكره وليس هو في الضعفاء، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٦: «رواه الطبراني في الكبير، والمثنى وولده ذكرهما ابن أبي حاتم، ولم يجرح واحداً منهما، وبقية رجاله ثقات».

٦ ـ وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «**علَّمت ناساً من أهل الصُفَّة القرآن والكتابة، فأهدى إليّ رجلٌ منهم قوساً، فقلت: ليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله، فسألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنْ سرَّك أن تُطَوَّق بها طوقاً من نار فاقبلها**»(١).

فظاهر الحديث يدلّ على تحريم أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وما كان في معناه(٢).

٧ ـ وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: «علَّمت رجلاً القرآن فأهدى إليّ قوساً، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**إن أخذتها أخذت قوساً من نار، فرددتها**»(٣).

وهذا الحديث كسابقه يدلّ بظاهره على تحريم أخذ الأجرة على التعليم.

٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**قلت يا رسول الله! ما تقول في المعلمين؟ قال: درهمهم حرام، وقولهم سحت، وكلامهم رياء**»(٤).

٩ ـ عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: «**إنّ من آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**»(٥).

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٢٨٥، كتاب: البيوع، باب: في كسب المعلم، رقم (٢٩٦٤)؛ وابن ماجه في سننه ٢/ ٧٣٠، كتاب: التجارات، باب: الأجرة على تعليم القرآن، رقم (٢١٤٨)؛ واللفظ له؛ وأحمد في مسنده، رقم؛ وصحح الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٦٤.

(٢) عون المعبود ٩/ ٢٠٤.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه ٢/ ٧٣٠، كتاب: التجارات، باب: الأجرة على تعليم القرآن، رقم (٢١٤٩)؛ وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٥١٣.

(٤) قال ابن عبد البر في الاستذكار ٥/ ٤١٧: «رواه علي بن عاصم عن حماد عن أبي جرهم، وغيره يرويه عن حماد عن أبي المهزم عن أبي هريرة، وأبو جرهم لا يعرفه أحد، وأبو المهزم مجتمع على ضعفه».

(٥) رواه أبو داود ١/ ٢٠١، كتاب: الصلاة، باب: أخذ الأجر على التأذين، رقم (٤٤٧)؛ والترمذي ١/ ٤٠٩، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية أن يأخذ المؤذن على الأذان أجراً، رقم (١٩٣)، واللفظ له؛ والنسائي ٢/ ٢٣، كتاب: الأذان، باب: اتخاذ =

١٠ ـ واستدلّوا أيضاً على منعهم أخذ الأجرة على التعليم، بأنّ الصحابة ﭫ كانوا يكرهون ذلك وينكرونه أشدّ الإنكار.

فعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون بيع المصاحف وتعليم الغلمان بالأجر ويعظمون ذلك»[(١)].

وعن الضحاك بن قيس ﭬ أنه قال لمؤذن معلم كتاب الله: «إني لأبغضك في الله لأنك تتغنى في أذانك، وتأخذ لكتاب الله أجراً»[(٢)].

١١ ـ وقال الحنفية أيضاً: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام[(٣)].

وبنوا ذلك على أصل عندهم وهو: «أنّ من شرط الإجارة ألّا يكون العمل المستأجر له فرضاً ولا واجباً على الأجير قبل الإجارة، فإن كان فرضاً أو واجباً عليه قبل الإجارة لم تصح الإجارة.

وعلى هذا يخرج الاستئجار على الصوم والصلاة والحج أنه لا يصح لأنها من فروض الأعيان ولا يصح الاستئجار على تعليم العلم لأنه فرض عين ولا على تعليم القرآن»[(٤)].

● **القول الثاني**: جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم والخطابة وغيرها.

ـ وهو قول أبي قلابة، ومالك، والشافعي، وابن المنذر، وأبي ثور،

= المؤذن الذي لا يأخذ على أذانه أجراً، رقم (٦٦٦)؛ وابن ماجه ١/٢٣٦، كتاب: الأذان والسنة فيه، باب: السنة في الأذان، رقم (٧٠٦)؛ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم (١٤٩٢).

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٣٥٠، رقم (١٠٤)، قال محققه: د. سعد بن عبد الله: إسناده صحيح.

(٢) ذكره ابن حزم في المحلى بإسناد لا بأس به، وفيه: عبد الله بن عثمان القرشي، قال ابن حجر: مستور.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٣٧٣.

(٤) بدائع الصنائع ٤/ ٣١.

وأهل المدينة، وإحدى الروايتين عن أحمد، وهو قول ابن حزم، وقول متأخري فقهاء الحنفية، وقول الشافعية، والمالكية، وجمهور الفقهاء[١].

ـ واستدلّوا بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا . . .﴾ [التوبة: ٦٠].

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: هم الذين يقدمون لتحصيلها، ويوكلون على جمعها.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يدل على مسألة بديعة، وهي أن ما كان من فروض الكفايات فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه.

ومن ذلك الإمامة؛ فإنّ الصلاة، وإن كانت متوجهة على جميع الخلق فإنّ تقدم بعضهم بهم من فروض الكفاية، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها»[٢].

فجعلوا هذه الآية أصلاً في جواز أخذ الأجرة على الطاعات وإن كانت واجبة.

٢ ـ وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راق؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً؛ فانطلق رجلٌ منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً، حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: **«إنّ أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»**[٣].

---

(١) المغني لابن قدامة ٣/ ٢٠٧. (٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٥٢٤.

(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢١٦٦، كتاب: الطب، باب: الشرط في الرقية بقطيع من الغنم، رقم (٥٢٩٦)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٧٢٧، كتاب: السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٤٠٨٠).

قال النووي في شرح هذا الحديث: «هذا تصريح بجواز أخذ الأجرة على الرقية بالفاتحة والذكر، وأنها حلال لا كراهة فيها، وكذا الأجرة على تعليم القرآن»(١).

٣ ـ وعن سهل بن سعد ﵁ قال: **«جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إني قد وهبت لك من نفسي فقال رجل: زوجنيها، قال: قد زوجناكها بما معك من القرآن»**(٢).

وهذا الحديث صريح في جعل تعليم القرآن عوضاً عن الصداق، وقد كان الواجب عليه أن يدفع لها الصداق، فأغناه قيامه بالتعليم عن دفع هذا الصداق، فيصير بذلك كأنه أخذ الأجرة على التعليم، فإذا جاز أن يكون تعليم القرآن عوضاً عن المهر، جاز أخذ الأجرة عليه في الإجارة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب(٣).

٤ ـ واستدلّوا أيضاً بفعل الخلفاء الراشدين ﵃:

فعن الوضين بن عطاء قال: «كان بالمدينة ثلاثة معلمين يُعلِّمون الصبيان، فكان عمر بن الخطاب ﵁ يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهماً كلَّ شهر»(٤).

• **القول الثالث**: لا تجوز الإجارة على تعليم القرآن، ولا على الإمامة والخطابة والوعظ، ولكن يجوز أخذ رزق من بيت المال.

ـ وحجّتهم في ذلك:

١ ـ أنّ التعليم والإرشاد من المصالح التي تفيد المسلمين، وليس

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ١٨٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٢/ ٨١١، كتاب: الوكالة، باب: وكالة المرأة الإمام في النكاح، رقم (٢١٤٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ١٠٤٠، كتاب: النكاح، باب: الصداق وجواز كونه تعليم القرآن وخاتم حديد وغيره، رقم (٢٥٥٤).

(٣) **انظر**: فتح الباري ٤/ ٤٨٦.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه ٤/ ٣٤١ باب: في أجر المعلّم؛ والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٤، باب: أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية به. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

المأخوذ بعوض، بل هو رزق للإعانة على الطاعة، ولا يخرجه ذلك عن كونه قربة، ولا يقدح في الإخلاص، وإلّا لما استحقت الغنائم، وأسلاب القتلى.

٢ ـ أنّه قد أخذ أصحاب الرسول ﷺ في زمنه وزمن خلفائه الراشدين من بيت المال، ما يعينهم على طاعة الله والجهاد في سبيله، وهم أورع الناس، وأخشاهم لله، وأعلمهم بشرعه.

٣ ـ أنه ثمة فرق بين الاستئجار على الطاعة والتعليم على سبيل المعاوضة وبين رزق أهل الدعوة والتعليم.

فما يعطى لأهل القرب من المعلمين والأئمة وغيرهم من بيت المال إنما هو إعانتهم لهم على الطاعة، وحتى لا تتعطلّ هذه المصالح الشرعية إذا اشتغلوا بتحصيل الأقوات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفقهاء متّفقون على الفرق بين الاستئجار على القُرَب وبين رزق أهلها، فرزق المقاتلة والقضاة والمؤذنين والأئمة جائز بلا نزاع، وأما الاستئجار؛ فلا يجوز عند أكثرهم»[(١)].

وقال أيضاً: «وما يُؤخذ من بيت المال، فليس عوضاً وأجرة، بل رزق للإعانة على الطاعة، فمن عمل منهم لله أثيب، وما يأخذه فهو رزق للمعونة على الطاعة»[(٢)].

• **القول الرابع**: يجوز أن يُعْطَى هؤلاء الوعّاظ والخطباء والمعلمون من مال المسلمين على التعليم، إذا كانوا محتاجين[(٣)].

وهو رواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠/٢٠٦.

(٢) «الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية»، ص٢٢٣؛ نقلاً عن «الملخص الفقهي» لصالح الفوزان ٢/١٤٨.

(٣) **انظر**: مجموع الفتاوى ٣٠/٢٠٨.

- وحجّته في ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

فالآية عامة في كلّ من يتولّى قربة من القربات.

٢ - وقالوا أنّ وجه التفريق بين المحتاج وغيره:

أنّ المحتاج إذا اكتسب بها أمكنه أن ينوي عملها لله، ويأخذ الأجرة ليستعين بها على العبادة؛ فإن الكسب على العيال واجب أيضاً، فيؤدي الواجبات بهذا.

بخلاف الغني؛ لأنه لا يحتاج إلى الكسب، فلا حاجة تدعوه أن يعملها لغير الله؛ بل إذا كان الله قد أغناه، وهذا فرض على الكفاية، كان هو مخاطباً به، وإذا لم يقم إلا به كان ذلك واجباً عليه عيناً. والله أعلم»(١).

• **القول الخامس**: أنه يجوز أخذ الأجرة على التعليم دون مشارطة، فإذا اشترط الأجرة لم يجز له أخذ هذه الأجرة.

وهو قول الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وعامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وطاووس بن كيسان(٢).

- ولم أجد من احتجّ لقول هؤلاء، ولعلّ العلّة في التفريق بين المشارطة وعدم المشارطة؛ أنّ هذه الأعمال قُرَبٌ يشترط فيها الإخلاص والنية، والمشارطة على أجر معلوم تتطلّع إليه النفس قد ينافي النيّة والإخلاص، والله تعالى أعلم.

*** المناقشة والترجيح:**

- «إنّ تعليم القرآن والعلم والوعظ والإرشاد بغير أجرة هو أفضل الأعمال، وأحبّها إلى الله، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٠٧.

(٢) ذكر أقوالهم ابن أبي شيبة في مصنفه ٤/ ٣٤١.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٠٤.

ـ أمّا أخذ الأجرة على التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد: فالذي يظهر والله تعالى أعلم، أنّ الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية، فالأولى له ألّا يأخذ عوضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام وعلى الدعوة والوعظ، للأدلة الماضية.

وإن دعته الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين؛ لأن الظاهر أنّ المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على القيام بالتعليم لا من قبيل الأجرة.

والأولى لمن أغناه الله أن يتعفَّف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام، والوعظ والخطابة والإرشاد، والعلم عند الله تعالى[1].

ـ أما القول بتحريم أخذ الأجرة على الوعظ والإرشاد وإن كانت على سبيل الإعانة من بيت مال المسلمين، فهو قول في غاية الضعف، والأدلة التي استدلوا بها قد فنّدها العلماء وردّوا عليها، ومن هؤلاء الإمام ابن حزم، والإمام قرطبي رحمهما الله، وغيرهما.

- فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، فيجاب عنه بجوابين:

الأوّل: أنّ الآية نزلت في بني إسرائيل، وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا، فيه خلاف، والأحناف لا يقولون بذلك.

والثاني: أن تكون الآية فيمن تعيَّن عليه التعليم، فأبى حتى يأخذ عليه أجراً[2].

- أمّا الأحاديث التي استدلّوا بها فيمكن أن يجاب عنها بما يلي:

ـ أنّ حديث أُبيّ بن كعب منقطع، إذ لا يُعْرَفُ لأبي إدريس الخولاني سماع من أُبيّ.

---

(١) **انظر**: أضواء البيان ٢/ ١٨٢.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٣٦.

ـ وأما حديث عبادة بن الصامت: فأحد طرقه عن الأسود بن ثعلبة وهو مجهول لا يدرى، قاله علي ابن المديني وغيره، والآخر من طريق بقية: وهو ضعيف.

والثالث: من طريق إسماعيل بن عياش: وهو ضعيف؛ ثم هو منقطع أيضاً.

ـ وأما حديث عبد الرحمٰن بن شبل: ففيه أبو راشد الحبراني وهو مجهول[١].

ـ وأما حديث أبي هريرة: فرواه علي بن عاصم عن حماد بن مسلمة عن أبي جرهم عنه، وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرهم، وإنما رواه عن أبي المهزم، وهو متروك الحديث أيضاً، وهو حديث لا أصل له[٢].

ثم لو صحّت لكانت كلها معارضة بحديث ابن عباس، وحديث الوهابة، وكلاهما عند البخاري، وعند تعارض النصوص مع عدم إمكان الجمع والتوفيق يقدم ما في البخاري على غيره.

ومع هذا فإنه يمكن الجمع بينها، بأن يقال: إنّ حديث عبادة بن الصامت وحديث أُبي بن كعب محمولة على أنه لمّا علّمه لله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأمّا إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة، فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في الوهابة[٣].

ـ أمّا قياس التعليم على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه في مقابلة النص، ثم إنّ بينهما فرقاناً وهو أنّ الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلِّم[٤].

ـ أمّا أثار الصحابة فيجاب عنها: بأنّ الصحابة قد اختلفوا، ولا حجة في قول أحدهم.

---

(١) المحلى ٨/ ١٩٦.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٣٦.
(٣) الاستذكار ٤/ ١٢٥.
(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٣٦.

*** ثالثاً: نماذج من تورّع السلف عن أخذ عوض على الخطابة والوعظ:**

لقد كان الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه، يعلِّمون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعلِّم بأجرة أصلاً.

«فإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»[(١)].

والأنبياء صلوات الله عليهم إنما كانوا يعلِّمون العلم بغير أجرة، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم، وكذلك قال خاتم الرسل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صٓ ٨٦]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧][(٢)].

• وضرب السلف رحمهم الله نماذج رائعة في التعفف عن أخذ العوض عن وعظهم وتذكيرهم وتعليمهم، فمن ذلك على سبيل المثال:

ـ عن حجاج الأسود قال: قال وهب بن منبه: «كان أهل العلم فيما مضى يضنون[(٣)] بعلمهم عن أهل الدنيا، فيرغب أهل الدنيا في علمهم فيبذلون لهم دنياهم، وإنّ أهل العلم اليوم بذلوا علمهم لأهل الدنيا، فزهد أهل الدنيا في علمهم فضنوا عليهم بدنياهم»[(٤)].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء، كتاب: العلم، باب: الحث على العلم، رقم (٣١٥٧)؛ والترمذي، كتاب: العلم عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٠٦)؛ وابن ماجه، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢١٩)؛ وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير، رقم (٦٢٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٠٥.

(٣) أي: يشحّون؛ لسان العرب، مادة: «ضنن».

(٤) رواه الدارمي في سننه ١/ ١٦٢. **قلت**: وإسناده قوي.

ـ ومن ذلك ما رواه الضحاك بن موسى في موعظة أبي حازم سلمة بن دينار للخليفة سليمان بن عبد الملك: وفيها أنّ سليمان بن عبد الملك بعدما استمع لموعظة أبي حازم بعث إليه بمائة دينار، وكتب إليه أن أنفقها، ولك عندي مثلها كثير، قال: فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً، أو ردي عليك بذلاً، وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي...»[1].

ـ ويقول عبد الله بن المبارك في التشنيع عمّن وظّف علمه في جمع الدنيا وحطامها:

يا جاعِلَ الدين لهُ بازِياً ... يصيدُ أموالَ المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدين
وصرتَ مجنوناً بها بعدَما ... كنتَ دواءً للمجانين
لا تبع الدين بدُنيا كما ... يفعَلُ ضلالُ الرهابين
أينَ رواياتُكَ فيما مَضى ... عن ابن عونٍ وابن سيرين
أين أحاديثُكَ والقولُ في ... لزومِ أبوابِ السلاطين
تقولُ أكرِهت وماذا كَذا ... زلّ حمارُ العلم في الطين[2]

• وبهذا نتبيّن أنّ السلف رحمهم الله وإن اعتقد الغالب منهم جواز أخذ الأجرة على الوعظ، إلّا أنهم جميعاً كانوا على درجة عالية من الورع والزهد، بحيث لم يرضوا أخذ أجرة أو مال مقابل وعظهم.



(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٣٦. **قلت**: وإسناده قويّ.
(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ١٤٠.

المطلب الثاني

الواعظ المُتطوِّع

*** أوّلاً: تعريف الواعظ المتطوِّع:**

هو الذي يعظ الناس ويذكِّرهم تطوّعاً واحتساباً؛ رغبة في الثواب والأجر من الله ﷻ، ولكنه لا يتّخذ ذلك عملاً رسمياً.

وصفة التطوّع في الوعظ والإرشاد والخطابة تكون في حالتين اثنتين:

ـ الحالة الأولى:

أنْ يأخذ المتطوِّع الإذن من السلطان أو من ينوب عنه، ولكنه لا يتّخذ الوعظ والخطابة وظيفة رسمية، يتّخذ عليها أجراً، وإنما يعظ ويخطب احتساباً.

وهذه الحالة لا يعلم خلاف في جوازها، بل هي مرغوب فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح، فضلاً عن أن يكون جائزاً، بل هو من فروض الكفاية»[1].

ـ أما الحالة الثانية:

أنّ يعظ الواعظ ويذكّر الناس، دون أخذ الإذن من السلطان.

وهذه الحالة قد جرى فيها الخلاف بين أهل العلم في جوازها، فمنعتها طائفة من العلماء، فلم يجيزوا الوعظ والتذكير إلّا بإذن من السلطان، وأجازها آخرون مطلقاً، وقيّدوا جوازها بشروط ذكروها.

والخلاف بين العلماء في حكم الوعظ والتذكير دون إذن السلطان مبناه

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٠٥.

على مسألة الولاية الدينية للخطابة والإمامة والوعظ، فيرى بعضهم أنّ الإمامة والوعظ والإرشاد ولاية دينية تستوجب إذن السلطان وتعيينه، ويرى آخرون أنها ليست ولاية دينية.

وفيما يلي تفصيل المسألة مقرونة بأدلتها، ومشفوعة بالمناقشة والترجيح.

*** ثانياً: ولاية الخطابة والوعظ:**

جرى خلاف بين أهل العلم في الخطابة والوعظ والتذكير هل هي من الولايات الدينية التي يشترط فيها الإذن، أم أنها ليست ولاية دينية؟.

ومجمل الأقوال التي رصدتها في هذه المسألة ترجع إلى ثلاثة أقوال:

• **القول الأول**: أنّ الخطابة والوعظ من الولايات الدينية، التي يشترط فيها إذن الإمام وتوليته.

واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ ـ حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يَقُصُّ إِلّا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُخْتَالٌ»**.

وفي رواية: **«أَوْ مُرَاء»**[1]، وفي رواية: **«أَوْ مُتَكَلِّف»**[2].

وهذا الحديث دلّ على أنّ الوعظ والخطابة والقصص من الولايات الدينية التي يشترط فيها تولية الأمير من وجوه، منها:

أ ـ إنّ المقصود بالقصص في الحديث شاملٌ للوعّاظ والمذكرين والخطباء، قال الطيبي: «وكلّ من وعظ وقصّ داخل في غمارهم، وأمره

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه ٢/ ١٢٣٥، كتاب: الأدب، باب: القصص، رقم (٣٧٤٣)؛ قال العراقي في الباعث على الخلاص من حوادث القصّاص، ص٧١: «إسناده صحيح».

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٨٧، رقم (٦٦٦١)؛ والدارمي في سننه ٢/ ٤١٠، كتاب: الرقاق، باب: في النهي عن القصص، رقم (٢٦٦٠)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٤٥٢: «إسناده حسن».

موكول إلى الولاة»[١].

ب ـ النفي[٢] الوارد في الحديث، في قوله ﷺ: «**لا يَقُصُّ**»، بمعنى: أنّه لا يصدر هذا الفعل إلّا من هؤلاء الثلاثة: الأمير، والمأمور، والمختال؛ والمعنى كما قال الجزري: «أي: لا ينبغي ذلك إلّا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، أو مأمور بذلك فيكون حكمه حكم الأمير، ولا يقصّ تكسباً أو يكون القاص مختالاً»[٣].

ج ـ أنّه جاء في الحديث ذمّ لمن تصدّى للوعظ والخطابة دون تولية وتنصيب من الأمير، ونعت بنعوت ذميمة منها: أنّه: «**مُخْتَالٌ**»: وهو الذي نصب نفسه للوعظ والتذكير دون أن يؤمر به، وإنما الدافع له في الغالب التَكبُّر على الناس، وطلب للرياسة.

و«**مُرَاء**»: وهو الذي يُرَائي الناس بقوله وعمله، ولا يكون وعْظُه وكلامه حقيقة.

و«**مُتَكَلِّف**»: وهو المُتَعَرِّض لِما لا يَعْنِيه، ولما ليس أهلاً له[٤].

د ـ أنّ الوعظ والخطابة من «وظائف إمام المسلمين، وهذا عين الولاية الدينية، فإن شاء خطب بنفسه وإن شاء نصب نائباً يخطب عنه»[٥].

هـ ـ أنّ الوعظ والإرشاد والخطابة من الأمور الخطيرة، التي ينبغي ألّا يليها إلّا من كملت أهليته لذلك، وإلّا صار ضرر الواعظ أكبر من نفعه، فلزم بذلك على الأمير النظر فيمن يصلح لهذه المهمة العظيمة.

قال في عون المعبود: «وقيل: بل القُصَّاص والوعَّاظ لا ينبغي لهما الوعظ والقصص إلّا بأمر الإمام، وإلّا لدخلا في المتكبر، وذلك لأنّ الإمام

---

(١) شرح سنن ابن ماجه ١/ ٢٦٦.
(٢) (**لا يقصّ**): نفي لا نهي، ووجهه ما قاله الطيبي: «إنه لو حمل على النهي الصريح لزم أن يكون المختال مأموراً بالاقتصاص»؛ عون المعبود ١٠/ ٧١.
(٣) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٧٠.
(٤) **انظر**: شرح سنن ابن ماجه ١/ ٢٦٦؛ والنهاية في غريب الحديث، للجزري ٤/ ٧٠.
(٥) **انظر**: عون المعبود ١٠/ ٧٢.

أدرى بمصالح الخلق فلا ينصب إلّا من لا يكون ضرره أكثر من نفعه، بخلاف من نصب نفسه فقد يكون ضرره أكثر، فقد يفعل ذلك تكبراً ورياسة»[١].

٢ ـ واستدلوا أيضاً بقصة استئذان تميم الداري عمر بن الخطاب في القصص[٢]، كما جاء في حديث السائب بن يزيد قال: «إنّه لم يكن يُقَصُّ على عهد رسول الله ﷺ ولا زمن أبي بكر ولا زمن عمر حتى كان أوّل من قصَّ تميماً الداري، استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقصّ على الناس فأذن له»[٣].

ووجهه كما قال الحافظ العراقي رحمه الله: «أنّ هذا يدلّ على أنّه ليس لآحاد الرعيّة أن يقصّ إلّا بإذن من ولِّي أمور المسلمين إن كان يعلم من يصلح لذلك كالخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، وإن كان متولِّي أمور الناس لا يعلم من يصلح لذلك فيكون ذلك بإذن مَنْ أقامه لذلك من الحكّام والعلماء»[٤].

٣ ـ واستدلّ الحافظ العراقي على أنّ القصّاص الذين هم أهل لذلك ليس لهم الكلام على الناس إلّا بإذن ولاة الأمر؛ بقصّة معاوية رضي الله عنه مع قاصٍّ مكة:

فعن أبي عامر بن عبد الله بن لُحَي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فلما قدمنا مكة أخبرَ بقاصٍّ يقصُّ على أهل مكة، مولى لبني فروخ، فأرسل إليه فقال: «أُمِرْتَ بهذا القصّ؟ قال: لا، قال: فما حملك على أن تقصّ بغير إذن، قال: ننشر علماً علّمناه الله عز وجل، فقال معاوية: لو كنتُ تقدّمتُ إليك لقطعت منك طائفة.

ثم قام حين صلّى الظهر بمكة فقال: قال النبي ﷺ: «**إنّ أهل الكتاب**

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ٧٢.
(٢) والقصص يشمل الوعظ والتذكير والإرشاد.
(٣) سبق تخريجه، **انظر**: ص٤٥٣ من هذا البحث.
(٤) «الباعث على الخلاص من حوادث القصّاص»، ص٧٠ ـ ٧١.

تفرّقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملّة، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين، كلّها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة، ويخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب[(١)] بصاحبه، فلا يبقى منه عِرقٌ ولا مِفْصَلٌ إلّا دخله»[(٢)].

ثم قال: «والله يا معشر العرب! لئن لم تقوموا بما جاء به محمد لغيرُ ذلك أحرى أن لا تقوموا به»[(٣)].

• **القول الثاني**: أنّ الوعظ والتذكير والخطابة ليست من الولايات الدينية، ولا يشترط فيها إذن الأمير، أو الوالي.

وهو قول الْقَاضِي سَعْدُ الدينِ الْحَارِثِيُّ.

- واستدلّ لقوله بأمور ثلاث:

أولها: أنّ الوعظ والخطابة والتذكير من الطاعات، ومن شأن الطاعة أنها لا تتوقّف على إذن الأمير.

وثانيها: أنّ اشتراط إذن الأمير فيه تضييق قد يؤدي إلى تعطيل الخطابة والوعظ والتذكير.

وثالثها: أنّ السلف رحمهم الله كانوا يعظون ويخطبون ويذكرون دون إذن من السلطان، أو الحاكم، أو الوالي[(٤)].

---

(١) والكَلَب: داء يَعْرِض للإنسان من عَضِّ الكَلْب الْكَلِبِ فيُصِيبُه شِبْه الجُنون، فلا يَعَضُّ أحداً إلّا كَلِب وتَعْرِض له أعْراضٌ رَدِيئة ويَمْتَنِع من شُرْب الماء حتى يموت عَطَشاً»؛ النهاية في غريب الحديث ٤/٣٤٨.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٢/٦٠٨، كتاب: السنة، باب: شرح السنة، رقم (٣٩٨١)؛ وأحمد في مسنده، رقم وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٥١): «حسن صحيح».

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/٣٧٦؛ والحاكم في المستدرك ١/٢١٨، كتاب: العلم، رقم (٤٤٣)؛ وقال الحاكم: «هذه أسانيد تقوم بها الحجة في تصحيح الحديث»، وتابعه الذهبي.

(٤) الآداب الشرعية ٣/ ٣٨٩.

• **القول الثالث**: أنّ استئذان الأمير في الوعظ والخطابة والتذكير، يرجع إلى طبيعة المسجد.

- فإذا لم يكن المسجد من المساجد السلطانية التي تترتب فيه الإمامة من جهة السلطان، لم يلزم من الواعظ والخطيب استئذان السلطان في ذلك.

- وإن كان المسجد من المساجد السلطانية التي تترتب الأئمة فيه بتقليد السلطان، روعي في ذلك عرف البلد وعادته في جلوس أمثاله.

قال الماوردي رحمه الله: «فإن كان لِلسلطانِ فِي جلوسِ مِثلِهِ نظر؛ لم يكن له أن يترتب لِلجلوسِ فِيهِ إلّا عن إذنِهِ، وإن لم يكن لِلسلطانِ فِي مِثلِهِ نظر معهود، لم يلزمه استِئذانه فِي ذلِك، وكان كغيرِهِ مِن المساجِدِ»[1].

وهو قول القاضي أبي يعلى الفراء، والماوردي وغيرهما.

- وعمدتهم في هذا التفريق:

أنّ المساجد السلطانية التي للأمير فيها نظر، لا يجوز الوعظ والخطابة فيها إلّا بإذن منه، وإلّا كان ذلك افتئات[2] على ولاية السلطان وتعدٍ عليه.

*** المناقشة والترجيح:**

١ ـ مناقشة القول الثاني:

إنّ القول بجواز الوعظ والخطابة مطلقاً دون إذن من الأمير قولٌ فيه نظر؛ لأنه معارض بالأدلة الصحيحة الصريحة في وجوب استئذان الأمير في الوعظ والقصص، ثم إنّ هذا القول مجرد استحسان لا يقوم على دليل شرعي.

وأما قولهم: إنّ الوعظ والخطابة من جملة الطاعات التي لا يشترط

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص٢١٤.

(٢) «الافتئات» هو القول على الغير بالباطل، والاستبداد بالأمر والرأي والانفراد به؛ «لسان العرب» ٢/ ٦٤ مادة: «فأت»، والمقصود: استبداد الرَّعِيَّة علي السلطان فِيما هو موكول إليهِ.

فيها إذن الأمير، فغير مُسَلَّم، فثمة طاعات كثيرة يشترط فيها إذن الأمير؛ كالقضاء، والجهاد وغيرهما.

وأما قولهم: إنّ في اشتراط إذن الولي في الخطابة والوعظ والتذكير فيه تضييق قد يؤدي إلى تعطيلها، فيجاب عنه: بأنّ الولايات الدينية على كثرتها لم تتعطّل بهذا الشرط.

وأمّا الاستدلال بفعل السّلف رحمهم الله وعدم استئذانهم للأمراء في وعظهم، فغير مُسَلَّم أيضاً؛ فقد ثبت استئذان تميم الداري رضي الله عنه وغيره للأمراء في القصص والوعظ.

٢ ـ مناقشة القول الثالث:

إنّ التفريق بين المساجد السلطانية وغيرها في وجوب استئذان الأمير غير وجيه، فلا النصوص الشرعية تعضِّده، ولا مقتضى المصلحة الشرعية تؤيِّده.

فالمصلحة الشرعية المتمثّلة في جلب المصالح ودفع المفاسد واحدة سواء كان المسجد سلطانياً أو لم يكن كذلك.

فالعلّة من استئذان الأمير في الوعظ والقصص غير مقصورة على خشية الافتئات عليه فقط، بل أعظم علّة في ذلك هو دفع ضرر الوعّاظ المفسدين، حفاظاً على القيّم والدين.

والخلاصة:

أنّ القول بوجوب استئذان الأمير في الوعظ والخطابة والتذكير هو القول الراجح، وذلك لأمور كثيرة منها:

١ ـ أنّ الأدلة الصريحة الصحيحة من قول النبي ﷺ تستوجب ذلك، كما سبق بيانه.

٢ ـ فعل الصحابة وإيجابهم للاستئذان في الوعظ والقصص.

٣ ـ إنّ المصلحة الشرعية المتمثلة في حفظ دين الناس من عبث العابثين، وتخليط الجاهلين، يستوجب النظر في أحوال الوعّاظ، ومنح الإذن فقط للعلماء الناصحين، والله تعالى أعلم.

* ثالثاً: الفرق بين الواعظ المولّى والواعظ المتطوِّع، وميزة كلٍّ:

ثمة فروق بين الواعظ المولَّى والواعظ المتطوِّع[(١)]، وإن كان كلّ واحد منهما يمتاز بميزات عن الآخر، وفيما يلي ذكرٌ لأبرز هذه الفروق:

أ ـ فيما يخصّ الواعظ المولَّى:

١ ـ إنّ حُكْمَ الوعظ والتذكير في حقِّه واجب عينيّ، تعيّن عليه بتولية السلطان من جهة، وبكمال أهليته له من جهة أخرى[(٢)].

٢ ـ لا يجوز للواعظ المولَّى التشاغل عن الوعظ والتذكير والخطابة بغيرها من الأمور، إلّا بإذن من السلطان.

٣ ـ يحقّ له ـ كما ترجّح معنا سابقاً، خصوصاً مع الحاجة ـ اتّخاذ رزق معلوم من بيت المال، على قيامه بهذه الولاية، وتفرّغه لها.

٤ ـ إنّ الواعظ المولَّى مقيّد في أدائه لولايته في مكان وزمان يحددهما السلطان أو من ينوب عنه، كأن يعيّن في مسجد معيّن، فلا يحقّ له الوعظ والتذكير في غيره من المساجد إلّا بإذن من السلطان أو من ينوب عنه.

٥ ـ إنّ الواعظ المولّى يُعَدُّ موظفاً يُسْأَلُ ويحاسب عن تقصيره وإخلاله

---

(١) المقصود بالواعظ المتطوِّع هنا: هو الواعظ الذي أذن له السلطان أو من ينوب عنه، ولكنه لم يتّخذ الوعظ والخطابة وظيفة رسمية، يأخذ عليها أجراً، وإنما يعظ ويخطب احتساباً، بخلاف الواعظ غير المأذون له، فقد خلصنا فيما سبق إلى عدم جواز الوعظ والخطابة إلّا بعد أخذ الإذن من السلطان.

(٢) ولذلك ذهبت الحنفية إلى عدم جواز أخذ المولَّى الأجرة على الوعظ والتذكير؛ لأنّ من شرط استحقاق الأجرة أن لا يكون العمل المستأجر له فرضاً ولا واجباً على الأجير قبل الإجارة، فإن كان فرضاً أو واجباً عليه قبل الإجارة لم تصح الإجارة؛ لأنّ من أتى بعمل يستوجب عليه لا يستحق الأجرة كمن قضى ديناً عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما تعليم العلم بأجرة؛ فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله بأجرة، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة» تفسير ابن كثير ١/ ١٢١.

بأداء واجبه، سواء كان الإخلال في جنس عمله أو في نوعه.

٦ ـ إنّ الواعظ المولّى أقدر على العطاء والإبداع، وذاك لأنّ وقته كلّه مبذول في هذه المهمَّة المنوطة به، بخلاف الواعظ المتطوِّع فإنّه لا يبذل لهذه المهمّة إلّا فضول أوقاته.

٧ ـ إنّ وجود الواعظ المولّى الذي اختير من طرف ولي الأمر بعناية، أقدر على ضبط خطاب الوعظ، وصونه عن الانحراف خصوصاً في زمن الفتن.

فالواعظ المولّى مأمون جانبه طالما علم أنّه مراقب متتبّع من طرف ولاة الأمر.

٨ ـ إنّ الواعظ المولّى أبعد عن الرياء والتكبّر وحبّ الرياسة، وهذا بنص الحديث النبويّ السابق: «**لا يَقُصُّ إلا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُخْتَالٌ**»، «**أَوْ مُرَاء**»، «**أَوْ مُتَكَلِّف**».

قال الإمام الخطابي رحمه الله: «المختال هو الذي نصب نفسه لذلك دون أن يؤمر به، ويقصّ على الناس طلباً للرياسة، فهو الذي يرائي بذلك ويختال»[(١)].

ب ـ فيما يخصّ الواعظ المتطوِّع:

١ ـ حكم الوعظ والتذكير في حقّ الواعظ المتطوِّع مندوب إليه، إلّا إذا انعدم الوعّاظ والمذكِّرون ولم يُوجد من يقوم بهذا الأمر غيره، حينها ينقلب الوعظ في حقِّه إلى فرض متعيِّن[(٢)].

٢ ـ يجوز للواعظ المتطوِّع التشاغل عن الوعظ بغيره من الأمور.

٣ ـ إنّ الواعظ المتطوِّع لا يُسْأل عن تقاعسه عن الوعظ؛ لأنّه يؤدّيه تطوّعاً، ولا يأخذ عليه رزقاً، ولكن إذا بدر منه خطأ أو انحراف وجب تقويمه وتسديده.

---

(١) عون المعبود ١٠/ ٧١.

(٢) وهذا شأن كلّ الفروض الكفائية فإنها تنقلب إلى فروض عينية إذا لم يوجد من يقوم بها إلّا شخص معينٌ.

قال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما جلوس العلماءِ والفقهاءِ فِي الجوامِعِ والمساجِدِ والتصدِّي لِلتدرِيسِ والفتوى فعلى كل واحِدٍ مِنهم زَاجِرٌ مِن نفسِهِ أن لّا يتصدى لِما ليس له بِأهلٍ. . . . . - إلى أن قال - ولِلسلطانِ فِيهِم مِن النظرِ ما يوجِبه الاحتِياط مِن إنكارٍ وإِقرارٍ»[1].

٤ ـ إنّ الواعظ المتطوِّع أكثر وجوداً وحضوراً، إذ قليل من أهل العلم من يستطيع أن يفرِّغ نفسه للوعظ والتذكير تفرّغاً كليّاً.

٥ ـ موعظة الواعظ المتطوِّع أكثر نفاذاً إلى القلوب؛ لأنّ النفوس تأبى سماع التذكير إن كان بعوض ومقابل.



(١) الأحكام السلطانية، لأبي يعلى، ص٣٠٤.

المطلب الثالث

القُصَّاص

- لقد سبق معنا التعريف بالقصص، وبيان نشأته وحكمه وضوابطه عند السلف رحمهم الله[1]، وبقي أن نقول: إنّ القاصّ برز في القرون الأولى كقسيم للمذكِّر والواعظ، كما قال الإمام الخطابي رحمه الله: «إن المتكلمين على الناس ثلاثة أصناف: مذكِّر وواعظ وقاصّ، فالمذكِّر: الذي يذكر الناس آلاء الله ونعمائه ويحثهم على الشكر له، والواعظ: يخوفهم بالله وينذرهم عقوبته فيروعهم به عن المعاصي، والقاص: الذي يروي لهم أخبار الماضيين ويروي عليهم القصص فلا يأمن من أن يزيد فيها أو ينقص»[2].

- ولهذا جاء التحذير والوعيد ممّا يقع فيه أغلب القصّاص من الكذب والبهتان والعجب والخيلاء والكبر وغيرها.

جاء في فيض القدير: «القاصّ الذي يقصّ على الناس ويعظهم ويأتي بأحاديث لا أصل لها؛ يعظ ولا يتَّعظ، ويختال ويرغب في جلوس الناس إليه، «**ينتظر المقت من الله تعالى**»[3] لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان، ولأنّه مستهدف لكيد الشيطان، فهو يقول له: أما تنظر إلى الخلق فهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة، قد أشرفوا على النار، أما لك

(١) **انظر**: ص٤٤٩.
(٢) عون المعبود ١٠/ ٧١.
(٣) هذا جزء من حديث موضوع مكذوب عن العبادلة عبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو مرفوعاً: «القاصّ ينتظر المقت، والمستمع ينتظر الرحمة، والتاجر ينتظر الرزق، والمحتكر ينتظر اللعنة، والنائحة ومن حولها من امرأة عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» رواه ابن المبارك في الزهد، ص١٧؛ والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٢٦؛ وقال الألباني رحمه الله: «موضوع»، السلسلة الضعيفة، رقم (٤٠٧٠).

رحمة على عباده تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق[١] ولهجة مقبولة، فكيف تكفر نعمته؟ وتتعرض لسخطه؟ وتسكت عن إشاعة العلم؟ ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟.

فلا يزال يستدرجه بلطائف الحيل، حتى يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه إلى أن يتزين لهم ويتصنَّع بتحسين اللفظ، وإظهار الفصاحة، ويقول: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلبهم، ولم يهتدوا إلى الحقِّ، فلا يزال يقرِّر ذلك، وهو في أثنائه يؤكِّد فيه شوائب الرياء، ولذة الجاه، والتعزّز بكثرة العلم، والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار، ليستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك والمقت، فيتكلم ظاناً أنّ قصده الخير، وإنما قصده الجاه والقبول، فيمقته الله وهو يظن أنه عنده بمكان»[٢].

* أنواع القُصَّاص[٣]:

[يحكي المقريزي عن الليث بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ[٤] أنّ القصص قصصان][٥]:

قصص العامّة، وقصص الخاصّة.

١ ـ فأمّا قصص العامّة: فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس للقاصّ، ويعظهم ويذكّرهم، قال: «وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه»[٦].

---

(١) لسان ذلق بكسر اللام؛ أي: فصيح مفوّه؛ لسان العرب ١٠/ ١١٠، مادة: «ذلق».

(٢) «فيض القدير»، لعبد الرؤوف المناوي ٤/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٣) سبق معنا تقسيم القصص من حيث حكمه الشرعي إلى جائز وممنوع، ـ في المبحث الثاني من الفصل الثالث ـ وههنا سنذكر أقسام القُصَّاص باعتبار حقيقتهم ووجودهم.

(٤) الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن أبو الحارث الفهمي، الإمام الحافظ شيخ الإسلام، وعالم الديار المصرية، ثقة ثبت فقيه من نظراء مالك بن أنس، توفي سنة: ١٧٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ٨/ ١٣٦.

(٥) نقلت مادة هذه الفقرة من كتاب: «تاريخ القصّاص» لمحمد الصبّاغ، ص٣٧ وما بعدها.

(٦) القصص بهذا المعنى ليس مكروهاً على إطلاقه، فقد بينّا أن القصص منه المحمود، ومنه المذموم.

٢ ـ وأمّا قصص الخاصّة: «فهو الذي جعله معاوية ﷺ إذ ولّى رجلاً على القَصَص، فكان إذا سلَّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عزّ وجلّ وحمده وصلّى على النبي ﷺ ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين»[1].

فيفهم من هذا الكلام أنّ القصص نوعان:

قصص رسميّ: تسمح به الدولة، وعندئذ لا بد أن يكون في خدمتها، كما أشار إلى ذلك المقريزي.

وقصص تطوّعي شخصي: يقف فيه القاصّ بين نفر من الناس فيعظهم ويذكّرهم.



(١) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في تاريخ مصر»، لأحمد بن علي المقريزي ٢/ ٢٥٣.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الثاني

صفات الواعظ عند السلف

وفيه تمهيد وثلاث مطالب:

المطلب الأول: التقوى والاستقامة.

المطلب الثاني: التأصيل العلمي.

المطلب الثالث: التحلّي بمكارم الأخلاق.

تمهيد

لما كانت الموعظة الحسنة عمل الأنبياء ومقام الأولياء والأصفياء، كان لا بد للقائم بها من التحلِّي بصفات أساسية، وآداب ضرورية؛ ليكون أهلاً لهذا المقام والعمل.

والسلف رحمهم الله قد وفِّقوا لإدراك هذا المعنى، فكان متولِّي الوعظ منهم؛ مؤهلاً لذلك: وجدانياً، وإيمانياً، وعلمياً، وأخلاقياً.

فكانوا رحمهم الله أئمة الناس وقادة الخلق، يسيرون بهم نحو السعادة بما يعلِّمونهم من أمور دينهم، وبما يرشدونهم إليه من التحلِّي بالفضيلة والتخلِّي عن الرذيلة، اعتقد الناس فيهم ذلك وأمَّلوهم له، فأحلّوهم من أنفسهم محلاً لم يبلغه سواهم من البشر.

فبحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصِّرون، فهم مطمح الأنظار، وموضع الثقة، والحجة البالغة، والبرهان القاطع، والنور الساطع للناس أجمعين.

فجمعوا بين الإيمان وحسن المقال، وبين عمل الصالحات وموافقة الأقوال للفعال، وكانوا قبل ذلك وبعده لسنة نبيهم ﷺ مقتفين، ولآثاره متبعين، على بصيرة وهدى من رب العالمين، ولذلك أثمرت مواعظهم، وانتفع الخلق بها أيما انتفاع.

وفي ذلك يقول الحق جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، دعا إلى توحيده وطاعته، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، واتّخذ الإسلام ديناً ونحلةً[1].

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٤/ ١٢٢؛ وفتح القدير ٤/ ٧٣٤.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: على علم ويقين وحجة وهداية ونور[(١)].

فحُقَّ لمن جمع هذه الخلال الثلاث: الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتقواه، والاستقامة على دينه، والبصيرة بشرعه، أن يكون مؤهلاً لتعليم الناس وإرشادهم، ودعوتهم وإصلاحهم.

* وعلماء السلف رحمهم الله أشاروا إلى مجمل صفات الواعظ المؤهَّل للوعظ والإرشاد، ونوّهوا على ضرورة اتّصافه بالعلم والبصيرة، والديانة والتقى، والاستقامة والصلاح.

يقول نصر بن محمد السمرقندي[(٢)] رحمه الله ـ في صفة المذكِّر والواعظ ـ:

«أوّل ما يحتاج إليه المذكِّر أن يكون صالحاً في نفسه ورعاً.... وينبغي أن يكون متواضعاً ليناً، ولا يكون متكبِّراً ولا فظاً غليظاً....

وإذا أراد أن يخبر الناس بشيء من فضائل الصلاة والصيام والصدقة فينبغي أن يعمل به أوّلاً.

وينبغي للمذكِّر أن يكون عالماً بتفسير القرآن، والأخبار، وأقاويل الفقهاء...»[(٣)].

وإلى نحو هذه الصفات والخلال أشار الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «القصَّاص والمذكِّرين»[(٤)].

ويقول الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه «بيان زغل العلم»: «الوعظ فنٌّ

---

(١) فتح القدير ٣/ ٨٤.

(٢) نصر بن محمد بن إبراهيم أبو الليث الحنفي السمرقندي، الإمام الفقيه المحدث، صاحب كتاب: تنبيه الغافلين، وله كتاب الفتاوى، توفي سنة: ٣٧٥هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢.

(٣) «بستان العارفين» للسمرقندي، على هامش «تنبيه الغافلين» له، ص١٦.

(٤) القصَّاص والمذكرين، ص١٨١.

بذاته يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم، ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير، والإكثار من حكايات الصالحين الفقهاء والفقراء والزهّاد....

وعُدَّته التقوى والزهادة، فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا، قليل الدين، فاعلم أنّ وعظه لا يتجاوز الأسماع.

.....وكم من واعظ مُفَوَّه قد أبكى وأثّر في الحاضرين في تلك الساعة، ثم قاموا كما قعدوا»(١).

فهذه مجمل الصفات التي ينبغي للواعظ أن يتحلَّى بها متى ما أراد أن يكون لوعظه نفع وأثر طيب في الناس.

ومدار هذه الصفات على ثلاثة أمور:

١ ـ تحقيق التقوى والإيمان. ٢ ـ البصيرة والعلم ٣ ـ التحلِّي بكريم الخصال.

وهذه الخلال قد وفِّق الوعّاظ من السلف إلى تحقيقها، كما سيأتي بيانه.



(١) «بيان زغل العلم» للذهبي، ص٢٩.

المطلب الأول

التقوى والاستقامة

* [أوّلاً: التَّقوى]:

أ ـ مفهوم التقوى:

ـ **لغة**: التقوى مشتقة من الوقاية، قال ابن فارس: «الواو والقاف والياء: كلمةٌ واحدة تدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، واتَّقِ اللهَ: تَوَقَّهُ؛ أي: اجعل بينَك وبينه كالوِقاية»(١).

ـ **شرعاً**: اختلفت تعبيرات العلماء في تعريف التقوى، مع أن الجميع يدور حول مفهوم واحد، وهو أن يأخذ العبد وقايته من سخط الله ﷻ وعذابه، وذلك بامتثال المأمور، واجتناب المحظور.

١ ـ قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى: عمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، والتقوى: تركُ معصية الله، مخافة الله، على نور من الله»(٢).

٢ ـ وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى اسمٌ جامع لطاعة الله، والعمل بها في ما أمر به، أو نهى عنه، فإذا انتهى المؤمن عن ما نهاه الله، وعمل بما أمره الله، فقد أطاع الله واتقاه، والتقى اسمٌ أيضاً لخشية الله و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فمن خشي الله واتقاه، وانتهى عن ما نهاه، وقام بما افترض عليه فهو العالم بشهادة الله له

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «وقى».

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» ١/ ٤٧٤؛ وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٨٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

بذلك، وحسبك»(١).

ب ـ مراتب التقوى:

التقوى درجات ومراتب بعضها أعلا من بعض، وما زال العبد يرتقي في درجاتها حتى يكون لربه متقياً حقّ تقاته.

قال ابن القيم رحمه الله: «التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعنى»(٢).

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «منازل التقوى ثلاثة:

تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية.

ولقد ذكرها الله تعالى في آية واحدة، وهي قوله جل من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣].

فالتقوى الأولى: عن الشرك، والإيمان الذي فى مقابلتها التوحيد.

والتقوى الثانية: من البدعة، والإيمان الذي ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة.

والتقوى الثالثة: عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار فى هذه المنزلة فقابلها بالإحسان، وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة السنة، ومنزلة استقامة الطاعة»(٣).

وجماع الأمر: أنّ التقوى هي فعل المأمورات وترك المحرمات توقياً لسخط الله وعذابه.

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها ... وَكَبيرَها فَهوَ التُّقى

---

(١) الاستذكار ٨/ ٥٨٧.   (٢) الفوائد، ص٣٢.

(٣) «منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين»، للغزالي، ص٧٤.

واصنع كماشٍ فوقَ أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقِرَنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحصى[(١)]

ج ـ أهمية اتِّصاف الوعّاظ بالتقوى:

إنّ للتقوى ثمرات عظيمة، وفوائد جسيمة، تعود على العبد في دينه ودنياه، وقد وردت النصوص الكثيرة في بيان هذه المزايا العظيمة، كمحبة الله تعالى، ورحمته لعباده المتقين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال جلّ وعلا: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والذي يعنينا في هذا المقام، هو أهمية تقوى الواعظ وثمراتها وآثارها على الموعظة، وهذه الآثار تتجلّى في أمور:

١ ـ معيَّة الله تعالى الخاصة[(٢)] وتأييده للواعظ المتَّقي، وهذه المعيّة تفتح للواعظ المغاليق، وتيسر له الأمور، وتسدّد دعوته، وتثبِّت قدمه، فمن كان الله معه، فهو منصور ومؤيّد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقال جلّ وعلا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فمعيَّة الله للواعظ تردّ عنه كيد الكائدين، وحبائل المتربِّصين، وكم من الوعّاظ الصادقين المتقين من السلف رحمهم الله من أوذي وحبس، ولكن العقبى كانت له، وجعل الله له لسان صدق في الآخرين.

---

(١) الأبيات للخليفة ابن المعتز (ت: ٢٩٦هـ).

(٢) هذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فإنّ المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة والمحبة والقرب والتوفيق، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].
انظر: تيسير الكريم الرحمٰن، ص٢٣٨.

٢ ـ التيسير لليسرى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

«وحقيقة اليسرى أنها الخُلَّةُ والحالةُ السهلةُ النَّافعةُ الواقعة له، وهي ضدُّ العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسَّرُ على قلبه، ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصالُ الخير ميسَّرةً عليه، مذلَّلةً له منقادة، لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مهيَّأ لها، ميَّسرٌ لفعلها، يسلك سبلها ذللاً، وتقادُ له علماً وعملاً، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين[1]

وما ظنّك بالواعظ إذا يسّر الله أموره، فما من مجال يريده إلّا فتحت له الأبواب فيه، وما من قوم يأتيهم إلّا وييسر الله له إرشادهم وموعظتهم، فالواعظ لا حول له ولا قوة إلّا بتيسير ومنٍّ وتكرُّم من العزيز الوهاب.

٣ ـ إطلاق نور البصيرة، والتي هي زاد الداعية والواعظ في دعوته ووعظه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وطريق البصيرة ـ وهي قوة العلم وعمق الفهم ـ إنما يمرّ على التقوى، وبقدر تقوى الواعظ تكون بصيرته، وهذه البصيرة نورٌ للواعظ وفرقان يفرِّق به بين الحق والباطل، ويعصمه من الفتن والزلل، وكم من الوعّاظ الذين قلَّت بصيرتهم، فغدوا معاول هدم، ومشاعل فتن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٢٦؛ والشعر لأبي عبيد الله المهدي قاله في ولده أبا القاسم. **انظر**: «الحلة السيراء»، لابن الأبار ١/٢٨٨.

قال العلامة رشيد رضا رحمه الله: «تقوى الله في الأمور كلِّها تعطى صاحبها نوراً يفرِّق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس، فهي تفيده علماً خاصاً لم يكن ليهتدي إليه لولاها، وهذا العلم هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه؛ لأنها عبارة عن العمل فعلاً وتركاً بعلم، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلّا بالتعلم كما ورد فى الحديث: «**العلم بالتعلم**»[(١)].

وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على علم، وأن هذا العلم لا بد أن يؤخذ بالتعلم والتلقي، وأن العمل بالعلم من أسباب المزيد فيه، وخروجه من مضيق الإبهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل، فهمت المراد بالفرقان على عمومه، وعلمت أن أدعياء التصوف الجاهلين لا حظ لهم من ذلك العلم الأول، ولا من هذه التقوى التي هي أثره، ولا من العلم الأخير الذي هو أثر العلم والتقوى جميعاً»[(٢)].

«فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت به نفسه، وتفجّرت ينابيع الحكمة من لسانه، فكان مسدّداً في قوله وفعله، ودعوته وإرشاده، على بصيرة ونور من الله تعالى»[(٣)].

٤ ـ الانتفاع بالآيات والمواعظ، إنما يكون بحسب التقوى، فالمتّقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية، وهم المهتدون حقاً؛ لأنهم جمعوا بين هداية البيان، وهداية التوفيق[(٤)]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/٢٤٨؛ وأحمد في «الزهد»، ص١٦٣؛ والطبراني في الأوسط ٣/١١٨؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٦٧٠.

(٢) «تفسير المنار» لرشيد رضا ٣/ ١٢٩.

(٣) **انظر**: «الرياضة وأدب النفس»، للحكيم الترمذي، ص٩٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمٰن، ص٤٠.

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالمتقون «هم المنتفعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم، وتزجرهم، عن طريق الغيِّ، وأمّا باقي الناس، فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بيّنة»(١).

٥ ـ محبّة الله ﷻ، ومحبّة ملائكته، والقبول فى الأرض؛ وهذا من أعظم الأسرار لنجاح الواعظ، ومن أكبر أسباب توفيقه وإعانته، وإقبال الناس عليه.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

فالله ﷻ إذا أحب عبده طرح له القبول في الأرض، وجعل الأفئدة تتقرب إليه بالمودّة، فإذا تحدّث سمع لحديثه، وإذا وعظ أقبل الناس على موعظته.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنّ الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إنّ الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(٢).

وكتب أبو الدرداء رضي الله عنه إلى مسلمة بن خالد: «سلام عليك أما بعد، فإنّ العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى عباده»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن، ص١٤٩.

(٢) متفق عليه، البخاري ٣/ ١١٧٥، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم (٢٩٧٠)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢٠٣٠، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عباداً حببه إلى عباده، رقم (٤٧٢٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٧/ ١١٣؛ وعبد الرزاق في «مصنفه» ١٠/ ٤٥١؛ وهناد في «الزهد» ١/ ٢٩٩. **قلت**: وإسناده حسن.

وقال هرم بن حيان[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»[٢].

وهذا الأثر مرويٌّ أيضاً عن محمد بن واسع[٣] ومجاهد بن جبر[٤] رحمهما الله تعالى.

وقال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يحسن عبدٌ فيما بينه وبين الله تعالى، إلّا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعوِّر[٥] فيما بينه وبين الله تعالى، إلّا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولمُصانَعَةُ وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها؛ إنك إذا صانعت الله مالت الوجوه كلُّها إليك، وإذا أفسدت ما بينك وبينه شنأتك الوجوه كلها»[٦].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص، وتحبه أو تأباه، وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله تعالى، فإنه يكفيه كلّ هم ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر الحق إلّا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً»[٧].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهرٍ»[٨].

٦ ـ بقدر تقوى الواعظ وخشيته لربه، وإصلاحه لسريرته يكون تأثيره

---

(١) هرم بن حيان الأزدي العبدي البصري، كان ثقة له فضل وعبادة، كان عاملاً لعمر، وسمع أويساً القرني، مات في غزوة له لم يعلم وقته؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨.

(٢) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» ٢/ ٢٩٩؛ وابن عبد البر في «التمهيد» ٢١/ ٢٤٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤٥. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٠؛ وابن أبي عاصم في «الزهد»، ص٣٧٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) أي: يهدم ويفسد؛ مختار الصحاح، ص٤٦٧، مادة: «عور».

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٣٩. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٧) صيد الخاطر، ص١٠٨. (٨) المصدر السابق، ص٣٥٥.

في الموعوظين، فمواعظ المتقين تبكي القلوب، ومواعظ غيرهم لا تكاد تبكي العيون.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ذكر صفات الواعظ، وما ينبغي أن يكون عليه، قال: «ومدار ذلك كلّه على تقوى الله عَجَّلَ، وأنّه بقدر تقواه يقع كلامه في القلوب»[١].

د ـ نماذج من تحقيق وعّاظ السلف رحمهم الله للتقوى:

التقوى وإنْ كان محلّها القلب ـ والذي لا يعرف خبيئته إلّا الله جلّ وعلا ـ كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ[٢].

إلّا أنّ للمتقين علامات؛ بها يتميّزون، ويُعرفون، وأبرز هذه العلامات:

١ ـ الخوف والورع الحامل على اجتناب المحرمات، والسبل المفضية إليها[٣].

ـ قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ ـ في وصف السلف رحمهم الله ـ: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا من الحلال مخافة الحرام»[٤].

ـ وعن عمارة بن زاذان قال: «قال لي كهمس[٥]: يا أبا سلمة! أذنبت ذنباً فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة، قلت: ما هو يا أبا عبد الله؟ قال زارني أخ لي، فاشتريت له سمكاً مشوياً بدانق، فلما أكل قمت إلى حائط لجار لي

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص١٨٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/١٩٨٦، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٤٦٥٠).

(٣) **انظر**: «جامع العلوم والحكم»، ص١٦٠.

(٤) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ص٧٤؛ وذكره المحاسبي في «المكاسب»، ص٥٣.

(٥) كهمس بن الحسن أبو الحسن التميمي الحنفي البصري، من كبار الثقات، وكان قوّاماً صوّاماً مخبتاً، له كلام ومواعظ، توفي سنة: ١٤٩هـ؛ سير أعلام النبلاء ٦/٣١٦.

من لَبِن فأخذت منه قطعة يغسل بها يده، فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة»[١].

وكان كهمس من كبار العباد والزهاد والوعّاظ، وفي القصة دلالة على عظم ورعه وخوفه من الله جلّ وعلا.

٢ ـ ومن علامات تقوى وعّاظ السلف: زهدهم وتقشّفهم:

قال شميط بن عجلان[٢] الواعظ في وصف المتقين: «أتاهم من الله أمر وقذهم عن الباطل، فأسهروا العيون، وأجاعوا البطون، وأظمأوا الأكباد، وأنصبوا الأبدان، واهتضموا الطارف، والتالد[٣]»[٤].

ولربما كانت الصور والسمات تؤثّر أكثر من الألفاظ، وقد قيل: «من لم تنفعك رؤيته لا تنفعك موعظته»[٥].

ـ ومن نماذج زهدهم رحمهم الله: ما وُصف من زهد داود الطائي ـ وكان من أئمة الوعّاظ ـ، فعن عبد الله بن صالح العجلي قال: «دخلت على داود الطائي في مرضه الذي مات فيه وليس في بيته إلّا دَنٌّ مُقَيَّرٌ[٦] يكون فيه خبز يابس، ومطهرة، ولبنة كبيرة على التراب يجعلها وسادة، وهي مرفقته، وهي مخدته، وليس في بيته بُوريٌّ[٧] ولا قليل ولا كثير»[٨].

ـ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي للواعظ أن يترك فضول العيش، ويلبس متوسط الثياب ليُقتدى به.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب: «الورع» بإسناد لا بأس به.

(٢) شميط بن عجلان أبو عبيد الله التيمي البصري، التابعي الواعظ؛ الثقات لابن حبان ٦/ ٤٥١.

(٣) أي: المال الحديث والقديم؛ الصحاح للجوهري ١/ ٣٣، مادة: «تلد».

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ١٢٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص١٨٤، ١٨٥.

(٦) «الدنّ» هو: ما عَظُم من الرَّواقِيد وهو كهيئة الحُبّ في أسفله كهيئة قَوْنَس البيضة؛ لسان العرب ١٣/ ١٧٥، مادة «دنن»؛ و«القار» هو طلاء أسود يطلى به السفن والدلاء يمنع تسرب الماء؛ لسان العرب ٥/ ١٢٤، مادة «قير».

(٧) البوري بالفارسية، هو الحصير؛ مختار الصحاح، ص٢٨، مادة: «بور».

(٨) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٣٤٨. **قلت**: وإسناده حسن.

. . .فقد كان في إزار عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو إمام الوعّاظ - رقاع عدّة، وكان عليّ رضي الله عنه يلبس دني الثياب، فقيل له في ذلك، فقال: يقتدي بي الرجل المسلم.

وهذا لأن الطبيب إذا احتمى نفع وصفه للحمية، وإذا خلط لم ينفع أمره بالحمية»[١].

٣ - ومن علامات تقوى وعّاظ السلف أيضاً: خشوعهم، وسرعة دمعتهم:

- فعن إبراهيم بن الأشعث رحمه الله قال: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكَر الله، أو ذُكِر عنده، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه مَنْ بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره - يعني الفضيل -»[٢].

* [ثانياً: الإخلاص]:

من أعمال القلب اللازمة لتمام تقوى العبد عموماً والواعظ خصوصاً، الإخلاص.

والإخلاص هو سرّ الأعمال كلّها، بل هو أساسها، كما جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»**[٣].

وفيما يلي تعريف مختصر للإخلاص، مع بيان مراتبه، وأهميته بالنسبة للواعظ.

---

(١) «القصاص والمذكرين»، ص١٨٤.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٨٤. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) متفق عليه، البخاري ١/ ١، كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم (١)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/ ١٥١٥، كتاب: الإمارة، باب: قوله إنما الأعمال بالنية، رقم (٣٥٣٠).

أ ـ تعريف الإخلاص:

ـ **لغة**: الإخلاص مأخوذ من الخلاص، يقول ابن فارس رحمه الله: «الخاء واللام والصاد أصل واحد مضطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه»[١].

ـ **شرعاً**: عبارات العلماء في تعريف الإخلاص متقاربة، ومن ذلك:

ـ قول سهل التستري رحمه الله: «نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن يكون حركاته وسكوته في سره، وعلانيته لله وحده لا شريك له، لا يمازجه شيء: نفسٌ، ولا هوى، ولا دنيا»[٢].

ـ وقال ابن القيم رحمه الله: «الإخلاص هو توحيد الإرادة والقصد، أن تفرد الله عز وجل بقصدك وإرادتك فلا تلتفت إلى شيء مع الله تبارك وتعالى»[٣].

ب ـ أهمية الإخلاص في الوعظ، وثمراته:

للإخلاص أهمية كبرى، وأثرٌ عظيمٌ على الموعظة، وتتجلى هذه الأهمية، وهذه الثمرة فيما يلي:

١ ـ إنّ الواعظ محطّ الأنظار، وتتبّع الأبصار، واجتماع الخلق عليه، وهذه من أعظم الأمور التي تفتن القلوب، وتذهب بالإخلاص، ولذلك لما استأذن الحارث بن معاوية الكندي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الوعظ والقصص، قال له: «أخشى عليك أن تقصّ فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقصّ فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك»[٤].

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله في بيان مشقة الإخلاص وندرته في باب الوعظ: «... التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس،

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٠٨، مادة: «خلص».

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٣٧٤، بإسناد حسن.

(٣) «مدارج السالكين» ٢/ ٩٢.

(٤) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٦، رقم (١١١)؛ قال ابن مفلح: إسناده جيد، «الآداب الشرعية» ٢/ ٥٤.

والآفات فيها أقلّ مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة. . . . .ومن جرَّب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم»(١).

٢ ـ ومن ثمرات إخلاص الواعظ في وعظه؛ أنّ الله ﷻ يرفع المخلص، ويُعلي قدره، وينشر ذكره.

فعن أبي بكر المروزي قال: «سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ وذكر له الصدق، والإخلاص، فقال أبو عبد الله: بهذا ارتفع القوم»(٢).

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «وهل أدرك من أدرك من السلف الماضين الدرجات العلى إلّا بإخلاص المعتقد، والعمل الصالح، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا»(٣).

ولهذا غدا وعّاظ السلف ملوكاً غير متوّجين، بل إنّ الملوك ليحسدونهم على ما رزقهم الله من رفعة وقبول بين الناس.

فهذا ابن المبارك رحمه الله المحدّث الفقيه الواعظ، يُذكر أنّ هارون الرشيد قدم الرقّة، فانجفل الناس خلف ابن المبارك، وتقطّعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خرسان، قَدِمَ، قالت: هذا والله المُلْكُ، لا ملكُ هارون الذي لا يجمع الناس إلّا بشُرط وأعوان»(٤).

٣ ـ الإخلاص يورث الواعظ الفهم والعلم والحكمة، في وعظه وإرشاده.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: «من أشخص بقلبه إلى الله انفتحت

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٢٨.
(٢) ذكره محمد بن أبي يعلى في «طبقات الحنبلة» ١/٦١، ولم يذكر له إسناداً.
(٣) «اقتضاء العلم العمل»، للخطيب البغدادي، ص١٥.
(٤) ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٠/١٥٦؛ وابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/١٣٧.

ينابيع الحكمة من قلبه، وجرت على لسانه»[١].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «الإخلاص لله يورث الفهم عن الله»[٢].

٤ ـ بقدر إخلاص الواعظ وصدقه، يكون قبول الناس لكلامه، وانتفاعهم بوعظه، إذ إنّ النفوس جبلت على عدم التأثر إلّا بمن يخلص كلامه لله جلّ وعلا.

ـ قال إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ الرجل ليتكلم بالكلام ينوى فيه الخير، فيلقى الله في قلوب العباد،حتى يقولوا ما أراد بكلامه هذا إلا الخير»[٣].

ـ وكان مالك بن دينار يقول عن المخلصين: «كان كلامهم دواءاً للخاطئين، ثم يقول: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: بلى! والله لقد رأيناهم؛ الحسن، وسعيد بن جبير، وأشباههم، الرجل منهم يحي الله بكلامه الفئام من الناس»[٤].

ـ وقيل لحمدون بن أحمد القصار: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمٰن، ونحن نتكلم لعزة النفس، وطلب الدنيا، وقول الخلق»[٥].

ـ وجاء في كتاب «اقتضاء العلم العمل»: «إنّ العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زَلَّت موعظته عن القلوب كما يَزِلُّ القطر عن الصفا»[٦].

٥ ـ إنّ الإخلاص من أعظم الأسباب التي تعين الواعظ في أداء رسالته، فهو يمنحه معية الله تعالى، ورعايته، وتيسير الأمور عليه.

ـ كتب سالم بن عبد الله[٧] إلى عمر بن عبد العزيز بموعظة جاء فيها:

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٥٢. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) «اقتضاء العلم العمل»، ص٣٢.

(٣) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»، ص٢٨.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٦٠. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ٢٩٥؛ وأبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٣١. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) «اقتضاء العلم العمل»، ص٦١.

(٧) سالم بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو عمر وأبو عبد الله القرشي =

«... واعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمَّت نيته في الخير تمَّ عون الله له، ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه»(١).

٦ ـ إنّ الإخلاص سببٌ لثبات الواعظ واستمراريته، فإنّ الواعظ إذا أراد بموعظته نيل شهوته، أو إصابة دنيا، لا يلبث أن ينقطع ويفتر إذا لم ينل مراده، ولهذا قال الصالحون: «ما كان لله دام واتّصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل».

ج ـ نماذج من إخلاص السلف رحمهم الله في وعظهم:

الإخلاص من خلجات القلوب، وكوامن النفوس، لا يطلع عليه أحدٌ إلّا علّام الغيوب، ولكنّه يتجلّى في أمور عديدة، وثمرته تبدو واضحة من خلال أعمال المخلصين.

ويَذْكُرُ لنا الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ جانباً من علامات إخلاص الواعظ، فيقول:

«فإن قلت: فبأيّ علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه، غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات:

١ ـ إحداها: أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً، أو أغزر منه علماً، والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده، نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه.

[ومن نماذج ذلك قول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا ينسب إلي منه شيء»(٢)].

= العدوي المدني، الإمام الفقيه الحافظ، مفتي المدينة، توفي سنة: ١٠٦هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/٤٥٧.

(١) رواه أحمد في «الزهد»، ص٣٠٢. قلت: وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/١١٨. قلت: وإسناده جيّد، وما بين المعقوفتين ليس من كلام الغزالي.

٢ ـ والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

فعن سعيد بن أبي مروان قال: «كنت جالساً إلى جنب الحسن البصري، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد، ومعه الحرس، فدخل المسجد فجعل يلتفت في المسجد، فلم يرى حلقة أحفل من حلقة الحسن، فتوجه نحوها، ثمّ جلس والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم، فما قطع الحسن كلامه، قال سعيد: فقلت في نفسي لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه؟ أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه. . . .»[1].

٣ ـ والأخرى: أن لا يحبّ اتباع النّاس له في الطريق، والمشي خلفه في الأسواق.

[قال عبد الرحمٰن بن عمر: سمعت عبد الرحمٰن بن مهدي يوماً؛ وقام المجلس وتبعه الناس فقال: يا قوم لا تطؤا عقبي، ولا تمشوا خلفي، ووقف فقال: حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن خفق النعال خلف الأحمق قلَّ ما يُبقي من دينه][2].

٤ ـ ومنها أيضاً خوف الشهرة، وكان للسلف في ذلك أحوال عجيبة، وما ذاك إلّا لحرصهم على سلامة قصدهم، ونقاء سرائرهم.

[قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «ما صدق الله أحدٌ أحبَّ الشهرة»[3].

وعن الحسن قال: «كنت مع ابن المبارك يوماً فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه، ودفعوه،

---

(١) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» ٣/ ٣٢٩.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ١٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» **قلت**: وإسناده لا بأس به.

فلما خرج قال لي: ما العيش إلّا هكذا؛ يعني: حيث لم نعرف، ولم نوقر][١].

٥ ـ ومن ذلك: استواء المدح والذمّ عند المخلص.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس إلّا كما يجتمع الماء والنار»[٢].

قال عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت أجلس يوم الجمعة في مسجد الجامع فيجلس إليّ الناس؛ فإذا كانوا كثيراً فرحت، وإذا قلّوا حزنت، فسألت بشر بن منصور فقال: هذا مجلس سوء لا تعد إليه، قال: فما عدت إليه»[٣].

٦ ـ ومن ذلك أيضاً: إخفاء الأعمال أو قطعها، إذا خشي على نفسه العجب والرياء.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كان الرجل ليجلس بالمجلس، فتجيئه عبرته فيردّها، فإذا خشي أن تسبقه قام»[٤].

وقد كان عمل الربيع بن خثيم كله سِرّاً؛ إن كان ليجئ الرجل وقد نَشَرَ المصحف، فيغطيه بثوبه[٥].

وكان أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ في مجلس فجاءته عَبْرَة، فجعل يتمخّط، ويقول: «ما أشدّ الزكام»[٦].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأدع كثيراً من الكلام مخافة المباهاة.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ١٣٤، ولم يسنده.

(٢) «الفوائد» لابن القيم، ص١٤٩.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ١٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه أحمد في «الزهد»، ص٢٦٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) رواه أحمد في «الزهد»، ص٣٣٢؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٠٧. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) رواه ابن الجعد في مسنده، ص١٩٠. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

وكان إذا أعجبته خطبة قطعها»[١].

د ـ حذر الواعظ من الورع الخادع الكاذب:

إنّ الشيطان قد يُلقي في روع بعض الوعّاظ ورعاً كاذباً يريد به قطعهم عن نفع الناس، بدعوى أنّ الوعظ مظنّة للرياء والعُجب، والتطلّع للسمعة.

ولا شك أن تعطيل الدعوة والوعظ لمجرد هذه الوساوس والخطرات، له آثار وخيمة على الدعوة والمجتمع.

وما على الواعظ إلّا أن يُجاهد نفسه، وأن يأخذها بالإخلاص ما استطاع، فمخافة الرياء تجاه فائدة الدعوة إلى الخير لاغيةٌ؛ لأنّ تلك المخافة متوقّعة، وفائدة الدعوة حاصلة ـ بإذن الله ـ؛ فلا تقدّم المفسدة المتوقّعة على الفائدة الحاصلة.

ولو ركن كلّ واعظ إلى هذا الخاطر لتعطلت الدعوة، ولقلّت المجاهدة، ولظفر الشيطان بما أراد.

وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين ـ إلى الزهد والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة.

فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان؛ فإنّ الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلسٌ من خلق لا يحصون يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا، وربما اتفق خمسون ومائة.

ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة، وعمومهم صبيان قد أُنشئوا على اللعب والانهماك في المعاصي.

فكأن الشيطان ـ لبعد غوره في الشر رآني أجتذب منه ـ فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن أجتذبه من يده.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٤٤؛ وابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص٨٧. **قلت**: وإسناده حسن.

ولقد حسَّن إليَّ الانقطاع عن المجالس وقال: لا يخلو من تصنع للخلق.

فقلت: أما زخرفة الألفاظ وتزويقها، وإخراج المعنى من مستحسن العبارة ففضيلة لا رذيلة.

وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله»[١].

إلى أن قال: «وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال.

وأما تعليم الطالبين وهداية المريدين فإنه عبادة العالم.

وإن من تفضيل بعض العلماء إيثارَه للتنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأنّ ذلك بذر يكثر ريعه ويمتد زمان نفعه.

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما: حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل.

الثاني: لحب المدحة فإنها إذا توسَّمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر.

فعليك بالنظر في الشَّرب الأول، فكن مع الشَّرب المقدم وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﵃.

فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم؟ والانفراد عن الخلق؟

وهل كان شغل الأنبياء إلا معانات الخلق وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر؟

إلّا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر؛ فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط، فأما الطبيب العالم بما يتناول فإنه ينتفع بما يناله»[٢].

---

(١) صيد الخاطر، ص٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص٨٩ ـ ٩٠.

• ومما سبق يتضح لنا بجلاء أهمية الإخلاص والتقوى بالنسبة للواعظ، فهما مفتاح نجاحه وتوفيقه، وسرّ انتفاع الخلق بكلامه ونصحه، والمستعرض لسيرة وعّاظ السلف يدرك مدى تحقيقهم للإخلاص والتقوى، التي ظهرت علاماتها في زهدهم في الثناء، ومحبتهم لهداية الخلق، وفي تقشفهم، وورعهم، وخشوعهم.

* [ثالثاً: الصِّدق]:

الصدق صنو الإخلاص وقسيمه، وهو عدّة الواعظ، ومحكّ دعوته، وهو يشمل جميع الأعمال الظاهرة والباطنة.

أ ـ مفهوم الصدق:

«هو مطابقة الظاهر للباطن، والصادق هو الذي يكون قوله مطابق للواقع»[1].

ـ وثمة فرق بين الصدق والإخلاص:

«فالإخلاص: هو أن تفرد الله ﷻ بقصدك، وأما الصدق: فهو الموافقة بين الظاهر والباطن في الأعمال، وفي الأحوال»[2].

ب ـ مراتب الصدق[3]:

الصدق يكون في الأقوال، والأعمال، والأحوال.

١ ـ أمّا الصدق في الأقوال: فهو استواء اللسان على الأقوال، ويكون بموافقة القول لما في القلب، فمن قال قولاً، ولو كان مطابقاً للواقع، ولكنه يخالف ما في مكنونه؛ فإنه يعتبر كاذباً بذلك، فينبغي أن يكون الواعظ صادق اللهجة، غير مداهن ولا مراوغ.

٢ ـ وأمّا الصدق في الأعمال: فهو استواء الأفعال على الأمر

---

(١) «التعريفات»، ص١٣٢.
(٢) **انظر**: التعريفات، ص١٤؛ و«مدارج السالكين» ٢/ ٩١.
(٣) «مدارج السالكين» ٢/ ٢٦٨.

والمتابعة، وفي حقّ الواعظ: مطابقة الأعمال، والأقوال للحقّ الذي يدعو إليه.

٣ ـ وأمّا الصدق في الأحوال: فهو استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة، بحيث لا يُظهر الواعظ خشوعاً، أو صلاحاً، وقلبه ينطوي على خلاف ذلك.

فينبغي أن يكون الصدق شعار الواعظ في جميع حركاته وسكناته، فيتواطأ بذلك القلب واللِّسان والجوارح على شيء واحد، وهو الإخلاص والمتابعة.

ج ـ أهمية الصدق في مجال الوعظ:

١ ـ إنّ الواعظ إذا كان صادق اللهجة، متحرياً للصدق فيما يورده على الناس في وعظه، أكبرته العيون، وأقبلت عليه النفوس، وعلى العكس من ذلك فلو جرَّب الناس على الواعظ كذباً، ازدرته النفوس، وأعرضت عنه القلوب، وكسدت بضاعته، وصار من سقط المتاع.

٢ ـ إذا كان الواعظ صادقاً في أحواله وأعماله، كان قدوة حسنة لغيره، فيتعظ الناس بحاله قبل مقاله، وقد قيل: «من لم تنفعك رؤيته لا تنفعك موعظته».

فالنفوس لا تأنس لحديث إلّا من ظهر صلاحه، وبان صدقه، في أحواله وأقواله وأعماله، ولذلك كان من أقبح القبح مخالفة الأقوال للأفعال، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «لأن النفوس مجبولة على عدم قبول من لا يعمل بعلمه، ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه، بل الطبيب المذكور عندهم: أحسن حالاً من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم عنده دواء آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوة على ترك التداوي، وقد يقنع

بعمل الطبيعة وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ فإنّ ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها ولا بد منها»(١).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «فَحَقُّ الواعظ أن يتعظ بما يعظ، ويُبْصِر ثم يبصِّر، ويهتدي ثم يهدي، ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد، ومَسَناً يشحذ ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمي أكثر.

ويجب أن لا يجرح مقاله بفعله، ولا يكذب لسانه بحاله.

فالواعظ ما لم يكن مع مقاله فعال، لم ينتفع به إذ عمله مدرك بالبصر، وعلمه مدرك بالبصيرة، وأكثر الناس أهل أبصار لا بصائر، فيجب كون عنايته بإظهار ما يدركه جماعتهم أكثر.

فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطابع من المطبوع، فكما يستحيل انطباع الطين من الطابع بما ليس منتقشاً فيه، فمحال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس في نفس الواعظ»(٢).

ـ وإذا كان الواعظ مخالفاً لوعظه، يأتي ما ينهى الناس عنه، ويترك ما يأمرهم به، كان فتنة عليهم، وسبباً لإضلالهم.

فعن هرم بن حيان قال: «إياكم والعالم الفاسق، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكتب إليه: ما العالم الفاسق؟ فكتب: ما أردت إلّا الخير، ويكون إمام يتكلم بالعلم، ويعمل بالفسق، ويشبِّه على الناس فيضلوا»(٣).

٣ ـ إنّ الواعظ الصادق هو الذي لا يُورد على الناس إلّا صحيح المنقول، ويجتهد في تصفية مواعظه من الأساطير الكاذبة، والقصص الواهية، وفي هذا أعظم الأثر في نجاح دعوته، وقبول موعظته، وانتفاعهم بها.

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٤٦.

(٢) فيض القدير، لعبد الرؤوف المناوي ١/٧٨.

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/٥٠.

ولهذا فإنّ النبي ﷺ ـ حينما صدع بما أُمِرَ به، وصعد الصفا، وجمع الناس ـ مهّد لموعظته وإرشاده، بالإشادة والتلويح بصدقه[١]، وهو ما أقره عليه كفّار قريش، فكان الصدق أعظم المداخل لقبول الموعظة بإذن الله تعالى.

د ـ تحقيق وعّاظ السلف للصدق في أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم:

سبقت الإشارة إلى أنّ الصدق على ثلاثة مراتب: صدق الأقوال، وصدق الأحوال، وصدق الأعمال.

* أما صدق الأقوال: فقد كان وعّاظ السلف رحمهم الله، على قدر عظيم من الصدق والتثبت فيما ينقلونه، بل في شأنهم كله، ويكفي للتدليل على ذلك أمران اثنان:

١ ـ إنّ أغلب وعّاظ السلف كانوا من رواة الحديث الثقات، ومن شروط الثقة أن يكون صادقاً، ومن أمثال هؤلاء الوعّاظ، الحسن البصري، ومسعر بن كدام، ومالك بن دينار، وابن المبارك، وسفيان الثوري، ومحمد بن المنكدر، وغيرهم كثير.

٢ ـ سبقت الإشارة إلى كراهية السلف رحمهم الله العظة بالحديث الضعيف؛ لأنهم يرون ذلك من باب الكذب على رسول الله ﷺ[٢].

* أما صدق الأحوال: فهو مرادف للإخلاص، وقد سبق ذكر نماذج من إخلاص وعّاظ السلف رحمهم الله تعالى.

* أما صدق الأعمال: فقد ضرب وعّاظ السلف رحمهم الله أرقى النماذج في موافقة الأقوال للفعال، واشتدّ نكيرهم على من خالف قوله فعله، ومن النماذج المضيئة في ذلك:

---

(١) حادثة صعود النبي ﷺ الصفا، رواها البخاري ٤/١٩٠٢، كتاب: تفسير القرآن، باب: تفسير سورة تبت يدا، رقم (٤٥٨٩)؛ ومسلم ١/١٩٢، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم (٣٠٧).

(٢) **انظر**: ص٢٥٩ من هذا البحث.

- من نماذج موافقة أقوال وعّاظ السلف لأفعالهم:

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان عمر رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته فقال: إني نهيت الناس كذا وكذا، وإنّ الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأيم الله لا أجد أحداً منكم فعله إلّا أضعفت له العقوبة ضعفين»[١].

● قول خالد بن صفوان في - وصف الحسن البصري -: «أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له»[٢].

- ومن نماذج نكيرهم على من خالف قوله فعله:

كتب الجنيد كتاباً لبعض إخوانه جاء فيه: «اعلم رضي الله عنك أن أقرب ما استُدْعِيَ به قلوبُ المريدين، ونُبِه به قلوبُ الغافلين، وزُجِرتْ عنه نفوس المتخلفين، ما صدَّقته من الأقوال جميع ما اتبع به من الأفعال، فهل يحسن يا أخي أن يدعو داع إلى أمر لا يكون عليه شعاره؟ ولا تظهر منه زينته وآثاره؟ وألا يكون قائله عاملاً فيه بالتحقيق؟ وبكل فعل بذلك القول يليق؟.

وأُفِكَ من دعا إلى الزهد وعليه شعار الراغبين، وأمر بالترك وكان من الآخذين، وأمر بالجد في العمل وكان من المقصرين، وحثّ على الاجتهاد ولم يكن من المجتهدين، إلا قلَّ قبول المستمعين لقيله، ونفرت قلوبهم لما يرون من فعله، وكان حجَّة لمن جعل التأويل سبباً إلى اتباع هواه، ومسهلاً لسبيل من آثر آخرته على دنياه.

والذي يجب يا أخي على من فضَّله الله بالعلم به، والمعرفة له، أن

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٩٩؛ وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٣٤٣. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٤٨. **قلت**: وإسناده حسن.

يعمل في استتمام واجبات الأحوال، وأن يصدق القول منه الفعل بذلك أولاً عند الله، ويحظى به من اتبعه آخراً»(١).

* **تنبيه:**

لا يفهم ممّا سبق ذكره من ضرورة اتصاف الواعظ بالتقوى والصدق والإخلاص، أن يكون معصوماً مبرأً من كلّ عيب، إذ الواعظ بشر، وما كان لبشر أن يدَّعي العصمة فيما يقول ويفعل، إلّا الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون به عن ربهم جل وعلا.

ولا يفهم من ذلك أيضاً أن يَدَع الإنسان الوعظ إذا كان مقصِّراً في بعض الطاعات، أو مُلمّاً ببعض المخالفات.

ـ قال الحسن لمطرف بن عبد الله رحمهما الله: «عظ أصحابك، فقال مطرف: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال الحسن: يرحمك الله، وأيُّنا يفعل ما يقول؟ يود الشيطان لو ظفر بهذا؛ فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه أحد عن منكر»(٢).

ـ وقال الحسن أيضاً: «أيها الناس، إني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون وقلَّ المذكرون...»(٣).

ـ وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «لو كان لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر»(٤).

ـ وقال النووي رحمه الله: «قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٦٠. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) ذكره المناوي في «فيض القدير» ٥/ ٥٢٢.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٤١٠.

(٤) المصدر السابق ١/ ٤١٠.

بل عليه الأمر وإن كان مُخلاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه، وينهاها، ويأمر غيره وينهاه؛ فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر»(١).

وقد تحدث البيهقي جامعاً بين أدلة ذم الأمر بالشيء أو النهي عنه والآمر مخالف لما يأمر به، فقال: «إن عدم الذم يكون فيمن الغالب عليه الطاعة، وتكون المعصية منه نادرة ثم يتداركها بالتوبة، والأول فيمن يكون الغالب عليه المعصية وتكون الطاعة منه نادرة»(٢).

ـ وقال ابن رجب بعد ما تحدّث عن ضرورة عمل الواعظ بموعظته: «ومع هذا كلّه، فلا بدّ للناس من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ الناس إلّا معصومٌ من الزلل لم يعظ بعد الرسول ﷺ أحدٌ؛ لأنّه لا عصمة لأحد بعده.

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد(٣)»

● **والخلاصة**: أنّ صدق وعاظ السلف رحمهم الله شمل مراتب الصدق الثلاثة كلّها:

ـ فهو صدق في الأقوال: في شأنهم كلّه وفيما ينقلونه من علم وموعظة.

ـ وصدق في الأعمال: والذي تمثّل في موافقة الأفعال للأقوال، ـ ولا يفهم منه أن يكون الواعظ معصوماً، بل المطلوب التسديد والمقاربة ـ.

ـ وصدق في الأحوال: وهو المرادف للإخلاص.

وهذه المراتب ظهرت بجلاء في سيرة السلف وفي مواعظهم.

* [رابعاً: الاستقامة]:

أ ـ مفهوم الاستقامة:

ـ **لغة**: الاستقامة استفعال من الفعل: قَوَمَ، وهي تدلّ على الاعتدال،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٣.
(٢) الجامع لشعب الإيمان ١٣/ ٢٥٦.
(٣) «لطائف المعارف»، ص٥٥.

والانتصاب[١]، وهي: «كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض على جميع الأوضاع»[٢].

ـ **شرعاً**: للاستقامة تعاريف كثيرة عند العلماء، وهي تدور في مجملها على لزوم أمر الله ودينه في الأقوال، والأعمال، والأحوال.

ـ قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدِّين القيِّم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة؛ ويشمل ذلك فعل الطاعات كلّها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلّها كذلك»[٣].

ـ ويعرِّف الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ الاستقامة فيقول: «هي كناية عن التمسُّك بأمر الله تعالى فِعْلاً، وتَرْكاً»[٤].

ب ـ مراتب الاستقامة:

«الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات»[٥].

ولهذا كانت وصيّة النبي ﷺ للمُستَوْصِي: **«قل آمنت بالله؛ فاستقم»**[٦].

وعليه فإنّ الاستقامة تشمل جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة، وقد أوصل بعضهم مراتبها إلى سبعة مراتب[٧]، وهي:

أولاً: الاستقامة في السرائر.

وتشمل الاستقامة في الإخلاص، والتقوى، والتوكّل، والزهد، والمحبة، والخوف، الرجاء..

ثانياً: الاستقامة في تزكية النفس.

وتكون باتقاء الشبهات، واجتناب الرياء، والكبر، والعجب....

(١) «مختار الصحاح»، ص٢٣٢، مادة: «قوم».
(٢) «التعريفات»، للجرجاني، ص١٩.
(٣) «جامع العلوم والحكم»، ص٢٠٥.
(٤) «فتح الباري» ١٣/ ٢٥٧.
(٥) «مدارج السالكين» ٢/ ١٠٥.
(٦) رواه مسلم ١/ ٥٦، كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام، رقم (٥٥).
(٧) **انظر** تفصيل هذه المراتب في كتاب: «الاستقامة في مائة حديث نبوي» د. محمد زكي خضر.

ثالثاً: الاستقامة في اجتناب المعاصي.

وتشمل: اجتناب الآثام، وسائر الكبائر، والصغائر من الذنوب.

رابعاً: الاستقامة في الأصول.

وتكون بالتمسّك بالكتاب والسنة، وإتقان العمل، والدوام على العمل الصالح....

خامساً: الاستقامة في العادات.

والتي منها: الصدق، وحفظ اللسان، وحسن الخلق، والتواضع...

سادساً: الاستقامة في المعاملة.

وتكون: بالنصيحة، والرفق، والمداراة، والأمانة....

سابعاً: الاستقامة في العبادات.

وتشمل: المحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل، ودوام الذكر...[1].

* ومن خلال استعراض هذه المراتب؛ يتبين لنا شمولية الاستقامة، وعمق مدلولها، غير أنّ بعض هذه المراتب قد سبق الإشارة إليه، فيما مضى من الصفات.

ـ فالاستقامة في السرائر، وفي تزكية النفوس، مرادفة للتقوى، والإخلاص، والصدق.

ـ أما الاستقامة في الأصول؛ فإنها عنوان للتأصيل العلمي، وسيأتي ذكره في المطلب الثاني من هذا المبحث، إن شاء الله تعالى.

ـ وكذا الاستقامة في العادات، وفي المعاملة؛ تندرجان تحت صفة الأخلاق، وسيأتي تفصيلها في المطلب الثالث من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

ـ لذا بقي لنا الحديث عن الاستقامة في العبادات، وأهميتها،

---

(١) ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس وتفصيل في مراتب الاستقامة، في مدارج السالكين ٢/ ١٠٣.

وثمراتها بالنسبة للواعظ، مع ذكر نماذج من استقامة وعّاظ السلف رحمهم الله في العبادات، والله الموفق.

ج ـ أهمية استقامة الواعظ:

استقامة الواعظ أساس في نجاح دعوته، ونفوذ موعظته إلى قلوب الموعوظين، وقد تضافرت النصوص في بيان أهمية الاستقامة بالنسبة للداعية والواعظ، ومن ذلك:

١ ـ لقد امتنّ الله تعالى على أنبيائه وأوليائه بأن هداهم الصراط المستقيم، وهذا الامتنان جاء في مقام الأمر بالدعوة إلى الله تعالى، فدلّ هذا الامتنان وذاك الاقتران على وجوب استقامة الدعاة والوعّاظ جميعاً على صراط الله المستقيم.

فقال تعالى عن أنبيائه عليهم السلام: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

وأمر نبييه موسى وهارون عليهما السلام بالاستقامة فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

وأمر نبيه محمداً ﷺ بالاستقامة هو وأتباعه فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

وجاء الربط بين الدعوة والاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشورى: ١٥].

وجاء التأكيد على وجوب اتّصاف الواعظ والآمر بالمعروف بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

٢ ـ بقدر استقامة الواعظ يكون تأثير موعظته في الموعوظين، بل قد تكون استقامة الواعظ بحدّ ذاتها موعظة سائرة بين الناس، ومحلّ اقتداء بينهم، وقد قيل: «من لم تنفعك رؤيته، لم تنفعك موعظته».

قال السبكي رحمه الله: «... فكلّ خطيب وواعظ لا يكون عليه سيما الصلاح قلَّ أن ينفع الله به»[١].

٣ ـ الاستقامة هي مصدر تثبيت، وأمان للداعية والواعظ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

٤ ـ وهي أمان للواعظ من الانحراف في دعوته، عن الجادة والصواب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

د ـ نماذج من استقامة وعّاظ السلف في مجال العبادة:

حفلت تراجم وعّاظ السلف رحمهم الله بأخبار زاخرة؛ تشيد بعلو همتهم في الاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات.

ـ قال أبو نعيم الأصبهاني[٢] رحمه الله ـ في وصف حال السلف في العبادة ـ: «هم قوم أسعدهم الله بطاعته، وحفظهم برعايته، وتولاهم بسياسته، فلم تضعف لهم همة، ولم تسقط لهم إرادة، همومهم في الجدِّ والطلب، وأرواحهم في النجاة والهرب، يستقِّلون الكثير من أعمالهم، ويستكثرون القليل من نعم الله عليهم»[٣].

• ومن شدّة حرص السلف على العبادة كانوا يتأسفون عند احتضارهم على الحيلولة بينهم وبين العبادة والطاعة.

(١) «معيد النعم»، ص١١٣.
(٢) محمد بن يوسف البناء أبو نعيم المهراني الأصبهاني، الإمام الحافظ الثقة العلامة شيخ الإسلام، من وعاظ المحدثين، توفي سنة: ٤٣٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٣.
(٣) حلية الأولياء ١٠/ ١٠٠.

فعن عمرو بن قيس عن معاذ بن جبل[١] ﷺ أنه لما حضره الموت قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا، وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»[٢].

وورد مثل هذا القول عن جماعة من السلف منهم: أبو الدرداء، وعامر بن عبد قيس رحمهما الله، وغيرهما كثير[٣].

• وكان السلف يتنافسون في تحصيل أنواع القربات، ويغبط بعضهم بعضاً على ذلك.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله ـ في بيان التنافس المحمود ـ: «المنافسة هي المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك، فتنافسه فيه حتى تلحقه، أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه»[٤].

ومن النماذج المضيئة في استقامة وعّاظ السلف في مجال العبادة، نذكر ما يلي:

١ ـ الاستقامة في الصلاة والصيام:

ـ عن هشام الدستوائي قال: «ما رأيت قط أصبر على طول القيام، والسهر من ثابت البناني؛ صحبناه مرة إلى مكة، فكنّا إن نزلنا ليلاً فهو قائم

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ أبو عبد الرحمٰن، الأنصاري الخزرجي البدري، شهد العقبة، وكان من علماء الصحابة ودعاتهم، ومحدثيهم ومناقبه جمة، توفي سنة: ١٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١/ ٤٤٣.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد»، ص١٨١؛ وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) **انظر** هذه الآثار في كتاب: «الزهد» لابن المبارك، باب: «الذي يجزع من الموت لمفارقة أنواع العبادة»، ص٩٤ ـ ٩٥.

(٤) «الروح» ١/ ٢٥٢.

يصلي، وإلّا فمتى شئت أن تراه، أو تحس به مستيقظاً، ونحن نسير إما باكياً وإما تالياً»[١].

ـ وعن مبارك بن فضالة قال: «كان ثابت البناني يقوم الليل، ويصوم النهار؛ وكان يقول: ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل»[٢].

ـ وعن ابن أبي الحواري قال: «رأيت سفيان الثوري يصلي قائماً حتى تغلبه عيناه، ثم يصلي قاعداً حتى يعي فيضطجع فيصلي مضطجعاً»[٣].

٢ ـ الاستقامة في الذكر، وقراءة القرآن:

ـ قال جعفر الخلدي: إنّ الجنيد بن محمد كان في سوقه، وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة»[٤].

ـ وعن جعفر بن سليمان قال: «سمعت ثابتاً البناني يقول: ما تركت في مسجد الجامع سارية إلّا وقد ختمت القرآن عندها، وبكيت»[٥].

٣ ـ الحرص على صلاة الجماعة:

ـ أصيب الربيع بن خثيم رحمه الله بالفالج، فكان يُحْمَل إلى الصلاة؛ فقيل له: إنه قد رخص لك، قال: قد علمت، ولكن أسمع النداء بالفلاح»[٦].

ـ وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: «ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة»[٧].

٤ ـ الاجتهاد في العبادة:

ـ عن أبي ضمرة أنس بن عياض قال: «رأيت صفوان بن سليم؛ ولو

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٣/ ٢٦٢، ولم يسنده.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٦٢.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٥٩. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٢/ ٤١٦، ولم يسنده.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٣٢١. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٦) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١١٣. **قلت**: وإسناده حسن.

(٧) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٦٣. **قلت**: وإسناده صحيح.

قيل له غداً القيامة، ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[١].

ـ وقيل ليونس بن عبيد: «هل رأيت رجلاً يعمل بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله ما رأيت من يقول بقوله، فكيف أرى من يعمل بعمله؟!»[٢].

٥ ـ المجاهدة على الاستقامة:

قال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»[٣].

● ومما سبق نتبين شمولية مدلول الاستقامة عند وعّاظ السلف، والتي ظهرت علاماته في تعبّدهم، وصلاحهم، ومسارعتهم إلى مرضات ربّهم، فكثر بذلك الانتفاع بكلامهم ومواعظهم.



(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٢/١٥٣.
(٢) رواه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم»، ص٢٠٧. **قلت**: وإسناده حسن.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/١٤٧. **قلت**: وإسناده حسن.

المطلب الثاني

التأصيل العلمي

أ ـ حاجة الواعظ إلى التأصيل العلمي:

التأصيل العلمي شرط لازم للواعظ، ومطلبٌ أكيد، وهذا لأسباب عديدة من أهمها:

١ ـ شمولية مهمة الواعظ:

إنّ الواعظ يخاطب جماهير الأمة على اختلاف أسنانها، ومداركها، فهو بذلك مقصد كلّ سائل عن دينه، أو مستشكل أمراً من عباداته أو معاملاته، فلا يكاد يمرّ باب من أبواب العلم إلّا سئل عن جليه وخفيه، لهذا فهو في أمسِّ الحاجة إلى التزوّد بالعلم وبلوغ الغاية فيه.

يقول ابن جوزي رَحِمَهُ اللهُ ـ في هذا المعنى ـ: «لا ينبغي أن يقصّ على الناس إلّا العالم المتقن فنون العلم؛ لأنه يُسأَل عن كلّ فنّ، فإنّ الفقيه إذا تصدّر لم يكد يُسأل عن الحديث، والمحدّث لا يكاد يسأل عن الفقه، والواعظ يُسأل عن كلّ علم، فينبغي أن يكون كاملاً»(١).

٢ ـ علم الواعظ بما يأمر به وينهى عنه:

الوعظ هو: أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، مقترن بترغيب وترهيب(٢).

وقد اشترط علماء السلف رحمهم الله أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالماً بما يأمر به وينهى عنه، عالماً بطرائقه ودرجاته

(١) «القصاص والمذكرين»، ص١٨١.
(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٥؛ ومدارج السالكين ٣/ ١٥٧.

وأساليبه ووسائله، وكلّ هذه الشروط لا تتحصّل إلّا بالعلم الشرعي المستند إلى الكتاب والسنّة.

قال النووي رحمه الله: «إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به، وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء»[(١)].

وإنّ مما يدخل في هذا العلم المطلوب: علم الواعظ بمواقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذا حدوده[(٢)]، وفي هذا يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[(٣)].

وقال الحسن رحمه الله: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بالعلم، فإنّ قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهّم على ما فعلوا»[(٤)].

يشير إلى صنيع الخوارج الذين ضلوا السبيل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من فارق الدليل ضلّ السبيل، ولا سبيل إلّا بما جاء به الرسول ﷺ»[(٥)].

ويندرج في هذا العلم أيضاً: العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما،

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/٢٣.
(٢) أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، ص٤٦١.
(٣) رواه أحمد في «الزهد»، ص٣٦٦.
(٤) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» ١/٣٠٤.
(٥) «مفتاح دار السعادة» ١/٣٠٤.

وكذا العلم بحال المأمور وحال المدعو[١].

٣ ـ العلم دواء لأمراض القلوب:

إنَّ من أَجَلِّ غايات الوعظ تشخيص الأدواء التي تعتري قلوب العباد، ومن ثمّ إيجاد الدواء الناجع لها، ولا شفاء لأمراض القلوب إلّا بالعلم، ولهذا سمّى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧][٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «أي: دواء لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهل الجُهَّال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خَلْقه من أراد هدايته به»[٣].

٤ ـ كثرة انحراف الوعّاظ:

إنّ الوعظ من أعظم الأبواب التي زلّت فيه الأقدام، وأُحدثت فيه البدع، وانتشرت فيه المنكرات الجليّة والخفية.

لذا اشتدّ نكير السلف رحمهم الله على طائفة من الوعّاظ، لما أحدثوه من البدع والمنكرات، في مواعظهم وخطبهم.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمّا كان الخطاب بالوعظ في الأغلب للعوامّ، وَجَدَ جُهَّالٌ من القصاص طريقاً إلى بلوغ أغراضهم، ثمّ ما زالت بدعهم تزيد حتّى تفاقم الأمر، فأتوا بالمنكرات في الأفعال، والأقوال والمقاصد»[٤].

ومن أبرز ما يُعاب على الوعاظ، إيراد الأحاديث الموضوعة المكذوبة عن رسول الله ﷺ، بقصد ترغيب الناس في الطاعات، وشحذ هممهم إليها.

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، لابن تيمية، ص٢٨.

(٢) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٣٧٠.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٢٤.

(٤) «القصاص والمذكرين»، ص٢٩٥.

وهذا من أعظم المهالك وأخطر المزالق، وقد أنكر السلف صنيعهم هذا غاية الإنكار.

وفي هذا يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزغات الشيطان، فإنّ في الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ»(١).

ويقول الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد كان القصّاص ـ وإن اشتهر كلّ منهم بالزهد والصلاح ـ معروفين بالضعف في رواية الحديث»(٢).

فالواعظ إذا لم يكن على بصيرة؛ قد يلبس على الناس دينهم، وقد يدعوهم إلى باطل وهو يحسبه حقّاً، ولربما أداه جهله إلى اتِّخاذ أسلوب منفر، كما أنّه قد يشحن موعظته بالأدلة الباطلة الواهية، والموعوظ متى ما اكتشف ذلك زلّت موعظة الواعظ من نفسه، وإن كان مضمون الموعظة حقٌّ.

قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: «من عُدم الفهم عن الله فيما وعظ؛ لم يحسن أن يستجلب وعظ حكيم»(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ومتى كان الواعظ عالماً بتفسير القرآن، والحديث، وسير السلف والفقه، عرف الجادَّة ولم يَخْفَ عليه بدعة من سنّة، ودلّه علمه على حسن القصد، وصحّة النيّة، ومتى كان قاصر العلم، طالباً للدنيا لم ينفع غيره، وضرّ نفسه»(٤).

ب ـ عناية وعّاظ السلف رحمهم الله بالتأصيل العلمي:

بلغت عناية السلف رحمهم الله بالتأصيل العلمي في وعظهم وتذكيرهم الغاية القصوى، يشهد لذلك أمورٌ عديدة، من أبرزها:

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٦.
(٢) «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص»، لزين الدين العراقي، ص٨٧.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١٠/٨٥. قلت: وإسناده لا بأس به.
(٤) «القصاص والمذكّرين»، ص٣٧٠.

١ ـ اعتماد السلف رحمهم الله على الكتاب والسنة؛ كمصدر أصيل لوعظهم وتذكيرهم، وقد تقدّم بيان ذلك فيما سبق(١).

٢ ـ إنّ من أبرز صفات الواعظ عند السلف: هو العلم، فلا يعظ إلّا من كان عالماً بشرع الله، عالماً بالكتاب والسنّة، وبمقاصد الشريعة.

ولهذا كانت مهمة الوعظ، لا توكل إلّا إلى العلماء الراسخين، ممن شُهد له بالعلم والتقوى والصلاح والورع، من أمثال أبي الدرداء، والحسن البصري، وعبيد بن عمير، والفضيل بن عياض رحمهم الله، وغيرهم كثير.

وفي هذا الصدد يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بصحيحه وسقيمه، ومسنده ومقطوعه، ومعضله، عالماً بالتواريخ وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهّاد، فقيهاً في دين الله، عالماً بالعربية واللغة، فصيح اللسان..»(٢).

* وكان السلف رحمهم الله يمتحنون القصّاص والوعّاظ، لمعرفة مبلغهم من العلم، فيُجَاز العالم منهم، ويمنع من قلّ علمه.

فعن شريح القاضي رحمه الله قال: «كنت مع علي رضي الله عنه في سوق الكوفة، حتى انتهى إلى قاص يقص، فوقف عليه فقال: أيها القاص! تقص ونحن قريبو العهد؟ أما إني أسألك، فإن خرجت عمّا سألتك وإلّا أدّبتك، قال القاصّ: سل يا أمير المؤمنين عما شئت، فقال علي: ما ثبات الإيمان وزواله، فقال القاصّ: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع، قال علي: فمثلك يقص»(٣).

وعن أبي عبد الرحمٰن: «أنّ علياً رضي الله عنه مرّ بقاصٍ، فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ، قال: لا!، قال: هلكت وأهلكت»(٤).

---

(١) انظر: ص١٠١.

(٢) «القصاص والمذكرين»، ص١٨٢.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» بإسناد حسن؛ وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» ٩/٢٤؛ وقال: «قيل: إنّ هذا القاص هو نوف البكالي».

(٤) رواه زهير بن حرب في «كتاب العلم»، ص١٤٠؛ وقال محققه: الألباني: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

٣ ـ نهى السلف رحمهم الله عن رواية الأحاديث الموضوعة والمنكرة في المواعظ والخطب، وأنكروا على من أورد ذلك في وعظه وتذكيره أشدّ الإنكار[١].

ج ـ مجالات التأصيل العلمي عند وعّاظ السلف رحمهم الله:

كان وعّاظ السلف رحمهم الله من العلماء والفقهاء[٢]، الذين جمعوا شتات العلم، فاتسعت مداركهم، وسُدِّدت آراؤهم، وكانوا على بصيرة في دعوتهم.

* وعلم السلف رحمهم الله يتميّز بميزات عظيمة، من أبرزها:

ـ الشمولية: فهو علم متّسع يشمل جميع ما له صلة بعلم الموعظة، على ما سيأتي بيانه.

ـ والأثرية: وهذا العلم مستمدّ من الكتاب، والسنة، وآثار السلف، كما سبق بيانه[٣].

* وعلماء السلف رحمهم الله أشاروا إلى العلوم التي ينبغي للواعظ إتقانها وحيازتها، متى أراد أن تكون موعظته على نور وبصيرة، وهدى من الله تعالى، ومن ذلك:

ـ قال نصر بن محمد السمرقندي رحمه الله: «وينبغي للمذكِّر أن يكون عالماً بتفسير القرآن، والأخبار، وأقاويل الفقهاء...»[٤].

ـ وقال ابن الجوزي رحمه الله: «فينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله ﷺ عارفاً بصحيحه وسقيمه، ومسنده ومقطوعه، ومعضله، عالماً بالتواريخ وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهّاد، فقيهاً في دين الله، عالماً

(١) سبقت الإشارة إلى هذه الجزئية في ص٢٥٧ من هذا البحث.
(٢) «تلبيس إبليس»، ص١٥١.
(٣) سبقت الإشارة إلى أثرية علم الموعظة عند السلف، عند الكلام على مصادر الوعظ عند السلف. **انظر**: ص١٠١ من هذا البحث.
(٤) «بستان العارفين» للسمرقندي، على هامش «تنبيه الغافلين» له، ص١٦.

بالعربية واللغة، فصيح اللسان...»[1].

* وبرز وعّاظ السلف رحمهم الله في كلّ هذه الفنون والعلوم، والدليل على ذلك:

١ ـ شهادة العلماء لهم بالرسوخ في العلم، إما على سبيل العموم، أو الإفراد:

ـ فمما جاء على سبيل العموم:

• قول ابن الجوزي رحمه الله: «كان الوعّاظ في قديم الزمان، علماء فقهاء»[2].

• وقول الإمام السجزي[3] رحمه الله ـ مشيراً إلى رسوخ السلف في العلم، ومنهم الوعّاظ ـ قال: «وأمّا علومهم التي صاروا بمعرفتها وجمعها والتقدّم فيها أئمة لغيرهم:

القرآن: ومعرفة قراءته، وناسخه ومنسوخه، وأحكامه، وفيمن نزل، والعلم بمحكمه ومتشابهه، والأخذ بالآيات المحكمات منه... ثم:

الحديث: وتبيين صحيحه من سقيمه، وناسخه من منسوخه، ومتواتره من آحاده، ومشهوره من غريبه، وما تلقته الأمة بالقبول، وما تركوا العمل به.... ثم:

الفقه: الذي هو مدار الشريعة على ضبطه، وهو مستنبط من الكتاب والحديث، وطلبه فرض، وإحكام أصوله التي شرحها متقدموا الفقهاء،.... ثم الأخذ في:

لغة العرب: وهي مقدّمة ليُعلم معنى ما يرد عليم في القرآن، والحديث، والفقه، فلا بد من تعلّم شيء من:

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص١٨٢.

(٢) «تلبيس إبليس»، ص١٥١.

(٣) عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي البكري، أبو نصر السجزي، الحافظ الإمام، علم السنة، صاحب الإبانة الكبرى، توفي سنة: ٤٤٤هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٥٤.

النحو: الذي به يوزن كلام العرب، ويُعرف صحيحه من فاسده. . . . ثم:

السيرة والتواريخ وأخبار الأمم: وهي تعتمد عندهم على ضبط الأسانيد، فلا يقبلون كلّ ما يُروونه في كتب التاريخ، لكثرة الدس فيها، بل ينظرون في طرقه وأسانيده، ويحقّقون وقائعه وتواريخه. . .»[1].

ـ وأما ما جاء على سبيل الإفراد:

فهو كثير جداً لا يكاد يُحصى، وقد تقدّم معنا ـ فيمن ترجمتُ له من وعّاظ السلف ـ، شهادة مترجميهم، ومعاصريهم لهم، بالرسوخ في العلم، والتمكّن فيه، وفي ذلك غُنية.

* ويمكن تقسيم العلوم الضرورية للواعظ إلى ثلاثة أقسام:

قسم متعلِّقٌ بعلم الأصول، والمقصود به: العلم بالقرآن والسنة، والتوحيد، والفقه.

وقسم متعلِّق بآلات الوعظ؛ كاللغة، والنحو.

وقسم متعلِّقٌ بعلم الموعظة؛ كالعلم بوسائل الوعظ، وأساليبه.

* وفيما يلي تفصيل هذه الأقسام، مع ذكر شيء من متعلقاتها:

ـ القسم الأول: علم الأصول:

١ ـ التوحيد:

التوحيد هو محور دعوة الرسل عليهم السلام جميعاً، وهو أيضاً أساس دعوة وموعظة الوعّاظ، فكان من الطبيعي أن يكون الواعظ ملمّاً بتوحيد الله تعالى بأقسامه الثلاثة، إذ كيف يدعو الناس ويعظهم إلى شيء يجهله.

وقد تقدّم معنا تفصيل عناية السلف بالتوحيد[2]، فأغنى عن إعادته هنا.

---

(١) «رسالة السجزي إلى أهل زبيد» بتصرف يسير.

(٢) **انظر**: ص١٦٨.

٢ ـ القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو مصدر الهدى والبيان، منه يستمدّ الواعظ علمه، وهذا عين صنيع السلف في مواعظهم، كما تقدّم[١].

ومما تنبغي العناية به ـ في مقام الوعظ ـ من علوم القرآن الكثيرة:

أ ـ تلاوة القرآن واستظهاره: حتى يكون الواعظ أقدر على استحضاره والاستشهاد به في كلّ مناسبة ممكنة، فالقرآن ذخيرة لا تنفذ، ومعين لا ينضب.

وكان السلف رحمهم الله يستظهرون القرآن، ويحزِّبونه[٢]، ويتلونه حقّ تلاوته.

أمّا حفظهم للقرآن فهو أشهر من أن يستدلّ عليه، وأمّا تحزيبهم للقرآن فكانوا يقرؤونه في ثلاث، وبعضهم في سبع، وبعضهم في أكثر من ذلك[٣].

ب ـ تدبر القرآن الكريم، والوقوف على تفسيره:

حاجة الواعظ إلى تدبر القرآن، وفهم معانيه أعظم من حاجته إلى تلاوته وحفظه.

وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ويبين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ المقصود بتدبر القرآن الكريم فيقول: «وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر»[٤].

ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «نزل القرآن ليتدبر، ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: مِنْ تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع

---

(١) سبقت الإشارة إلى ذلك في ص١٠٢ من هذا البحث.

(٢) أي: يقسمون القرآن إلى أحزاب وأجزاء، يقرؤون في كل يوم جزءاً ومقداراً معيناً.

(٣) **انظر**: فتح الباري ٩/ ٤٣.

(٤) «مدارج السالكين» ١/ ٤٥١.

العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما، وأسبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة، والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصِّره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرِّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرِّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرِّفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم، وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه»[1].

- وتنبغي العناية بتفاسير السلف رحمهم الله؛ المعتمدة على المأثور، والسالمة من التأويل المذموم، ومن الإسرائيليات، والروايات الضعيفة والموضوعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد أن تحدّث عن المآخذ الموجودة في التفاسير -: «إن التفاسير التي يذكر فيها كلام - الصحابة والتابعين - صرفاً، لا يكاد يوجد فيها شيء من - هذه المآخذ - مثل: تفسير عبد الرزاق، ووكيع، وعبد بن حميد، وعبد الرحمٰن بن إبراهيم دحيم، ومثل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وبقي بن مخلد، وأبي بكر بن المنذر، وسفيان بن عيينة، وسُنَيْد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله ابن ماجه، وابن مردويه»[2].

- كما ينبغي أخذ العظات والعبر من الآيات المتلوّة في كتاب الله تعالى، على نحو ما سبق بيانه عند الحديث عن مصادر الوعظ عند السلف رحمهم الله.

(١) المصدر السابق ١/ ٤٥١.
(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٥٥.

- ويتأكّد على الواعظ معرفة المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم، حتى لا تزلّ قدمه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وكان وعّاظ السلف يُمْتَحَنون على معرفة الناسخ والمنسوخ؛ كما سبق معنا أنّ علياً رضي الله عنه مرّ بقاصٍ، فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ، قال: لا! قال: هلكت وأهلكت»[١].

- ويلزم الواعظ الحذر من القول على الله بغير علم، ومن التفسير بالرأي المجرّد.

قال أبو بكر الأنباري[٢] رحمه الله: «وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورَّعون عن تفسير المشكل من القرآن، فبعضٌ يُقَدِّر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل، فيحجم عن القول، وبعض يشفق من أن يجعل في التفسير إماماً يبنى على مذهبه، ويقتفى طريقه، فلعل متأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيه ويقول: إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف»[٣].

٣ - السنّة النبويّة:

وهي المصدر الثاني[٤] للتأصيل العلمي لدى الواعظ، فهي شارحة القرآن والمبينة له، والمفصلة لما أجمل، وفيها يتمثّل التفسير النظري، والتطبيق العملي لكتاب الله.

قال الله تعالى يخاطب رسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

---

(١) سبق تخريجه، ص٤٥٨.
(٢) محمد بن الحسن بن الفرج، أبو بكر المقرئ المحدّث المؤذن، الأنباري، سكن بغداد، تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٠.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ٦٦.
(٤) سبق الإشارة إلى مصدرية السنة عند وعّاظ السلف. **انظر**: ص١٢٣ من هذا البحث.

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

* ومن الضوابط الواجب مراعاتها في السنة النبوية:

أ ـ العناية بجمع وحفظ الأحاديث الصحيحة، وقد سبق معنا تقرير مذهب السلف رحمهم الله في الاحتجاج بالحديث الضعيف في الفضائل، وخلصنا إلى عدم جواز ذلك[1].

ب ـ وينبغي للواعظ أن يجمع الأحاديث التي تخدم علم الموعظة:

كالأحاديث التي عليها مدار الأحكام والإسلام، وقد أفرد لها السلف رحمهم الله مصنفات كثيرة؛ كالأربعين النووية، وتكملتها لابن رجب الحنبلي، وغيرها.

وأحاديث الترغيب والترهيب والفضائل، وقد صنِّف فيها أيضاً كتبٌ كثيرة، سبقت الإشارة إليها[2].

وينبغي للواعظ أن يوجّه عناية خاصة للجزء العملي من السنة، وهو الذي يتعلق بسيرة النبي ﷺ ويسجل مواقفه من شتى الأمور، وهديه في كافة شئون الدين والدنيا.

فكل المبادئ والمعاني والقيم التي جاء بها الإسلام تتجلى في حياته ﷺ ولهذا ينبغي للواعظ الموفق بعد أن يذكر موضوعه معززاً بالآيات والأحاديث النظرية، أن يؤيدها بمواقف من السيرة العملية.

ج ـ العناية بكتب شروح الحديث، وهي كتب نافعة جداً ولا يستغني عنها الواعظ، ففيها من الفوائد الحديثية والفقهية والأصولية واللغوية والأدبية والتاريخية والأخلاقية، ما لا يزهد فيه ذو عقل، فهي الظاهر وهي مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ما تتضمنه الأحاديث من أحكام وآداب. وتشريع وتوجيه.

---

(١) **انظر**: ص٢٥٩ من هذا البحث.

(٢) **انظر**: ص٤٩٢ من هذا البحث.

د ـ وعلى الواعظ كذلك أن يحذر من سوء الفهم، للأحاديث الصحاح والحسان، التي وردت بها كتب السنة، وتلقاها علماء الأمة بالقبول، فحرَّفها بعض الناس عن مواضعها، وتأولوها على غير تأويلها، وبعدوا بها عما أراد الله ورسوله.

من ذلك أحاديث لوت بعض الفرق أعناقها، لتؤيد بها مذاهبها، وتعضد بها أفكارها فاتخذوا المذاهب أصلاً، وجعلوا النصوص لها تبعاً.

ومن ذلك الأحاديث التي وردت فيما سماه العلماء «الفتن» وفساد آخر الزمان.

هـ ـ وينبغي للواعظ أن يتجنب الأحاديث التي تشكل على جمهور الناس، ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم؛ لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها[1].

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجتنب أيضاً في روايته للعوام أحاديث الرخص، وما شجر بين الصحابة، والإسرائيليات»[2].

٤ ـ الفقه وأصوله:

الفقه في الدين من صميم علوم الشريعة، وتعلّمه من فروض الكفاية، ومداره الدليل الشرعي من كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ ثمّ أوجه الاستدلال الفقهي القائم على هذين الأصلين.

وقد ربط الله تعالى الدعوة والموعظة بالفقه في الدين في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وتبرز حاجة الواعظ إلى علم الفقه وأصوله؛ لأنه محلّ القدوة من الموعوظين، فكثير من العوام يقتدي بإمامه وخطيبه.

ولأنّ بعض أحكام المواعظ والخطب والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) سبقت الإشارة إلى ضرورة مخاطبة الموعوظين على قدر فهمهم. **انظر**: ص٢٤٥.

(٢) «تدريب الراوي»، للسيوطي ٢/ ١٣٨.

المنكر؛ تحتاج إلى دراية واسعة بحكمها الشرعي، وبفروضها، وواجباتها، وسننها، ومبطلاتها، وغير ذلك من الأحكام.

ثمّ إنّ الواعظ يُسأل في مسائل كثيرة من أبواب الفقه، فلزم عليه أن يكون ملمّاً ومحيطاً بأبواب الفقه جميعها.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا ينبغي أن يقصّ على الناس إلّا العالم المتقن فنون العلوم؛ لأنّه يُسأل عن كلّ فنّ»[1].

* ومما يجب على الواعظ مراعاته في علم الفقه ما يلي:

أ ـ ربط الفقه بدليله الشرعي الصحيح من الكتاب والسنّة، وعدم أخذ أقوال الفقهاء عارية من الدليل الشرعي.

ب ـ البُعْدُ عن التعصب المذهبي المقيت، الذي ينشر العداوة بين الناس، ويُذهب بروح الشريعة ومقاصدها.

ج ـ الإلمام بالقواعد الفقهية؛ لأنها تسهّل على الواعظ استحضار أحكام المسائل؛ من خلال معرفة الأشباه والنظائر.

د ـ معرفة طرائق الترجيح الكثيرة، مع اكتساب آلاتها اللازمة كعلم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم اللغة، ودلالات الألفاظ.

هـ ـ وينبغي للواعظ تجنب الفتيا بغير علم؛ لأنه من التقوّل على الله بغير علم، والمفتي يوقّع الحكم عن ربّ العالمين.

فإن كان الواعظ غير مؤهّل للفتيا، ولم يكتسب أدواتها بعدُ، فليُحل السائل والمستفتي على العالم الفقيه الراسخ.

٥ ـ علم التاريخ والسير:

التاريخ هو ذاكرة البشرية، وسجل أحداثها، وديوان عبرها، ومستودع حِكَمِها.

وإنما يحتاج الواعظ إلى معرفة التاريخ، والسير لأمور:

---

(١) «القصاص والمذكرين»، ص١٨١.

أ ـ أنه يوسع آفاقه، ويطلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام بها وبهم، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور: كيف ترقى الأمم وتهبط؟ وكيف تقوم الدول وتسقط؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم؟ وكيف تحيى الحضارات وتموت؟

يقول جلّ وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ب ـ إن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الواعظ من قيم ومفاهيم.. فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور، وجزاء الشاكرين لنعمة الله، وعقوبة الكافرين بها، وكيف يجني من يغرس الخير، ويحصد من يزرع الشوك. ولهذا عنى القرآن الكريم بذكر قصص السابقين. وتواريخ الغابرين لما فيها من عبر بليغة، وعظات حية. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ج ـ والواعظ يحتاج إلى أن يستشهد للمعاني والقيم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ، ومواقف الأبطال، وغير الأبطال، فهذا أعون على تثبيتها في العقول والقلوب، فإن الكلمات قد تنسى، ولكن الوقائع قلما تنسى.

د ـ وقوف الواعظ على أخبار الصفوة المختارة من الزهّاد والعباد، يعتبر مادة خصبة لمواعظه؛ لأنّ القصص تعتبر من أعظم وسائل الوعظ كما سبق معنا[1].

* ومن الضوابط الواجب على الواعظ مراعاتها في مجال التاريخ والسير:

أ ـ ألا يجعل أكبر همه وعي جزئيات التاريخ وتفصيلاته، فهذا لا

---

(١) انظر: ص١٤٩ من هذا البحث.

يمكن أن تحصر ولو أمكن أن تحصر لكانت فائدة الواعظ منها جد قليلة، إنما المهم رؤوس العبر، ومواقع العظة في التاريخ.

ب ـ أن يعنى بسير الرجال، ومواقف الأبطال، وبخاصة العلماء والدعاة، والصالحون، وفي تاريخنا ثروة من السيرة تتمثل فيها الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، ويلمس ذلك في كتب الطبقات والتراجم.

ج ـ أن يهتم بربط الحوادث والوقائع خصوصاً في تاريخنا الإسلامي بأسبابها وعللها المعنوية والأخلاقية، فالذي يطالع تاريخنا بدقة ويتأمل سيره بعمق، يجد أن المد والجزر، والامتداد والانكماش، والنصر والهزيمة، والازدهار والذبول، والغنى والفقر، كلها ترتبط بمقدار صلة الأمة بالإسلام أو انفصالها عنه، وقربها من تعاليمه أو بعدها عنها.

د ـ ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحاً، فكم بها من مبالغات وتشويهات وتحريفات تكذبها الحقائق الثابتة، بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة في مصادر أخرى.

القسم الثاني: علوم الآلة:

والمقصود بعلوم الآلة هي تلك العلوم التي يستخدمها الواعظ لفهم وتحصيل العلوم الشرعية، وهي تُعدُّ أيضاً ضرورية لتبليغ رسالته، وإلقاء خطبه ومواعظه.

وعلى رأس هذه العلوم، علم اللغة والبيان، وعلم النحو.

ومما يبيّن أهمية هذه العلوم بالنسبة للواعظ:

أ ـ إنّ الوسائل لها حكم الغايات، فإذا كانت العلوم الشرعية لازمة لتأصيل الواعظ وتأهيله، فإنّ الوسيلة إلى فهم هذه العلوم، وتبليغها لازمة له أيضاً.

قال شعبة بن الحجاج[1] رَحِمَهُ اللهُ: «مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد أبو بسطام الأزدي العتكي مولاهم الواسطي، الإمام الحافظ =

العربية؛ مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها»[(١)].

قال عبد الرحمٰن بن مهدي[(٢)] رَحِمَهُ اللهُ: «ما ندمت على شيء ندامتي أني لم أنظر في العربية»[(٣)].

ب - واللغة بمفرداتها ونحوها وصرفها لازمة لسلامة اللسان، وصحة الأداء بل صحة الفهم أيضاً. فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد يمجها الطبع، وينفر منها السمع.

ج - والأدب بشعره ونثره، وأمثاله وحكمه، ووصاياه وخطبه مهم للواعظ، يثقف به لسانه، ويجوِّد أسلوبه، ويرهف حسه، ويوقفه على أبواب من العبارات الرائقة، والأساليب الفائقة، والصور المعبرة، والأمثال السائرة، والحكم البالغة، ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الواعظ في محلها، فتقع من الموعظة أحسن موقع وأبلغه.

* وينبغي للواعظ عدم التوسّع في علوم اللغة والنحو؛ لأنّ ذلك من التكلُّف المذموم الباعث على الرياء والتفاخر، وهو أيضاً يفوِّت على الواعظ تحصيل العلم الأهم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كره القاسم بن مخيمرة علم النحو، وقال: «أوله شغل، وآخره بغي»؛ وأراد بذلك التوسع فيه.

ولذلك كره الإمام أحمد التوسّع في معرفة اللغة وغريبها، وأنكر على أبي عبيدة توسّعه في ذلك؛ وقال: هو يُشغل عما هو أهم منه، ولهذا يقال: إنّ العربية في الكلام كالملح في الطعام؛ يعني: أنه يُؤخَذ منها ما يُصْلح الكلام، كما يُؤخَذ من الملح ما يُصْلح الطعام، وما زاد على ذلك

= أمير المؤمنين في الحديث، عالم أهل البصرة وشيخها، توفي سنة ١٦٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢.

(١) روضة العقلاء، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٣) روضة العقلاء، ص٢٢١.

فإنه يُفْسده»[١].

القسم الثالث: العلوم المتعلِّقة بعلم الموعظة:

الوعظ علمٌ قائمٌ بذاته، يحتاج الواعظ إلى الإحاطة بوسائله، وأساليبه، وطرائقه، وآدابه، ومعرفة حال الموعوظين، وغير ذلك من الأمور.

وقد تقدّم معنا بيان وسائله وأساليبه، وشيئاً من آدابه، وفي ذلك غُنية عن إعادته ههنا[٢].

* وتبرز حاجة الواعظ إلى معرفة حال الموعوظين وطبيعتهم؛ لأنّ لكل صنف منهم طبيعته وخصائصه النفسية والروحية والعلميّة، والتي ينبغي على الواعظ الإحاطة بها؛ وسيأتي تفصيل هذه الضوابط في الفصل المقبل إن شاء الله تعالى.

* ومن العلوم المتعلِّقة بالموعظة: معرفة الواعظ كيفية إلقاء موعظته على الناس؛ وهذا من العلوم الضرورية التي يجب على الواعظ الإحاطة بها.

ومورد هذا العلم: سنّة النبي ﷺ الذي كان يعظ أصحابه ﵃؛ وقد نقل إلينا العلماء الأثبات صفة وعظه، وارتقائه على منبره، وجهره في خطبته وموعظته، وغير ذلك من الأمور.

ومن العلماء الذين بيّنوا هدي النبي ﷺ وصحابته في الموعظة: الإمامين ابن الجوزي، وابن القيم رحمهما الله تعالى، وفيما يلي إجمال لكيفية الوعظ؛ ـ إذ أنّه قد سبق معنا ذكر كثير من الأمور المتعلّقة بهدي النبي ﷺ وصحابته في طريقة الوعظ ـ، وإنما أحببت أن أجمع ما تفرّق منها في ثنايا البحث في هذا الموضع، والله الموفّق.

---

(١) «فضل علم السلف»، ص٤٥.
(٢) **انظر**: الفصل الثاني، والفصل الثالث من هذا البحث.

١ ـ مقام الواعظ أثناء وعظه:

ـ الأصل أن تكون الخطبة والموعظة على المنبر، وللواعظ أن يعظ على كرسي أو يجلس على الأرض، أو أن يعظ قائماً، كلّ ذلك وردت به السنة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ الله: «وكان النبي ﷺ يخطب قائماً... وخطب أيضاً: على الأرض، وعلى البعير، وعلى الناقة.... وكان يخطب قائماً»(١).

وقال النووي رَحِمَهُ الله: «أجمع العلماء على أنه يستحب كون الخطبة على منبر للأحاديث الصحيحة، ولأنه أبلغ في الإعلام، ولأن الناس إذا شاهدوا الخطيب كان أبلغ في وعظهم»(٢).

ـ ومن السنة عند ارتقاء الواعظ المنبر، أن يقبل بوجهه على الناس، وأن يسلّم عليهم أولاً، ولا يشرع له أن يتّخذ عصاً أو نحوها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ الله: « وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ في غير الجمعة أو خطب قائماً في الجمعة استدار أصحابه إليه بوجوههم وكان وجهه ﷺ قبلهم في وقت الخطبة...... وفي مراسيل عطاء وغيره أنه كان ﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال: [السلام عليكم] قال الشعبي: وكان أبو بكر وعمر يفعلانه.

... ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر.... فإنه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره»(٣).

٢ ـ ما يبتدئ به الواعظ من الكلام:

ـ يبدأ الواعظ موعظته بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وإن جاء بخطبة الحاجة فذاك أحسن.

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٧٩.
(٢) المجموع ٤/ ٣٥٦.
(٣) زاد المعاد ١/ ٤١١.

- ثم يشرع الواعظ في موعظته.. حتى إذا انتهى منها ختمها بالدعاء والاستغفار[١].

٣ - صوت الواعظ وهيئته:

- كان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش[٢].

- وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ولا بأس للواعظ أن يرفع صوته، ويظهر الجدّ في تحذيره ووعظه»[٣].

وقال الشوكاني رحمه الله: «يستحب للخطيب أن يضخِّم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويظهر غاية الغضب والفزع»[٤]

* ويذكر الإمام ابن الجوزي ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين في كيفية وعظهم، فيقول ما ملخّصه:

- كان الصحابة إذا أرادوا الموعظة أمروا رجلاً أن يقرأ عليهم سورة، ثمّ صار المتكلّم منهم - أي: الواعظ - يضمّ إلى القراءة أحاديث رسول الله، وكلمات من المواعظ.

- فإذا فرغ القرّاء حمد الواعظ الله ﷻ وأثنى عليه وعلى رسوله وأصحابه، ودعا للإمام والرعيّة، فإن كانت له صناعة في إنشاء الخطبة، أو كان يحفظ خطبة فيذكرها، ولا بأس، فإنّ الكلام المستحسن له وقع في النفوس.

- فإذا أنهى الخطبة والدعاء ذكر تفسير الآيات التي قرئت، وأدرج في تفسيرها ما يليق به من ذكر الوجوه والنظائر، والأخبار المسندة، والقصص اللائقة بذلك.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤١١.
(٢) رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الخطبة والصلاة، رقم (١٤٣٥).
(٣) القصاص والمذكرين، ص٣٦٣.
(٤) نيل الأوطار ٣/ ٣٠٧.

- وليصلح من المواعظ المرقِّقة، والزواجر المُخوِّفة، وليدرج في كلامه الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة، والتحذير من النار، وليأمر بالمحافظة على الصلاة وينهى عن التواني عنها، وليحثّ على الزكاة ويذكر الوعيد لمن فرّط فيها، وكذلك الحج والصوم، وليبالغ في ذكر برّ الوالدين وصلة الرحم، وفعل المعروف، وينهى عن المنكر وأكل الربا، وليعلمهم عقود المعاملات، وليأمر بإمساك اللسان عن فضول الكلام، وغضّ البصر عن الحرام، وليخوِّف من الزنا.

- ويذكر الأحاديث الواردة في جميع ما ذكر.

- ويذكر من قصص الصالحين ما يصلح ذكره. . . »[١].

• وفي نهاية هذا المطلب نخلص إلى أنّ التأصيل العلمي هو أبرز شروط الموعظة وأهم صفات الواعظ، فالواعظ مؤتمن، وهو مبلغ لشرع الله وأمره ونهيه، ومن عدم الفهم عن الله أفسد أكثر مما أصلح، والتأصيل العلمي عند وعاظ السلف معلم بارز، يشمل مجالات القرآن والسنة والفقه واللغة والتاريخ، ثم العلم بآداب الموعظة وشروطها وأركانها.

وهذا ما يفسر اقتصار مهمة الوعظ التذكير عند السلف على الأئمة الأعلام، وعلى المبرزين من العلماء والفقهاء.



(١) **انظر**: القصاص والمذكرين، ص٣٥٩ ـ ٣٧٣.

المطلب الثالث

التحلّي بمكارم الأخلاق

* مفهوم الخُلُق الحسن، وأهميته:

١ ـ تعريف الخُلُق:

• **لغة**: هو اسم لسجيّة الإنسان وطبيعته التي خُلق عليها.

قال ابن فارس: «الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر مَلاسَة الشيء، ومن ذلك الخُلُق، وهي السجيَّة؛ لأنّ صاحبَه قد قُدِّر عليه»[١].

• **اصطلاحاً**: عرف الخلق بتعاريف كثيرة منها:

ـ قال الماوردي: «الأخلاق: غرائز كامنة، تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار»[٢].

ـ وقال الجرجاني: «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة؛ تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية»[٣].

٢ ـ ضابط الخُلُق الحسن:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية؛ فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً؛ سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: «خلق».
(٢) «تسهيل النظر وتعجيل الظفر»، للماوردي، ص٥.
(٣) «التعريفات»، ص١٠١.

هي المصدر خلقاً سيئاً»[١].

وقال الماوردي: «حسن الخلق، أن يكون سهل العريكة، ليّن الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيِّب الكلمة»[٢].

والخُلُق في حقيقته متعلِّق بباطن الإنسان ونفسه، فهو يمثِّل صورة الباطن؛ وبقدر صلاح الباطن يكون صلاح الظاهر، ومن هنا جاء الارتباط بين الإيمان وبين حسن الخلق في كثير من نصوص الكتاب والسنّة.

٣ ـ مدار حسن الخُلُق عند الوعّاظ وأهميته:

إنّ من أبرز خصائص الأخلاق الفاضلة: شموليتها لجميع مناحي الحياة؛ وهي أيضاً مطلبٌ لازمٌ ومتحتِّم في جميع الوسائل والغايات.

وإن كان الوعّاظ مطالبين بالتحلّي بجميع الأخلاق الحسنة، والتخلِّي عن جميع مساويها؛ إلّا أنه ثمة أخلاق يتعيّن على كلّ واعظ أن يكون متّصفاً بها، لعظيم ارتباطها بالموعظة والموعوظين.

ولمّا كان الواعظ في مقام المؤدِّب؛ احتاج إلى الرفق بالموعوظ؛ لأنّ التأديب مَظنّة الغلظة والفظاظة، ومن هنا قرن الله تعالى الموعظة بالحسن، حتى يكون الوعّاظ على درجة عظيمة من الرفق واللين بالموعوظين.

وحيث إنّ مقام الوعظ تشرئب إليه نفوس الناس، ويلقى الواعظ تقديراً وتبجيلاً، كان من الضروري اتّصاف الواعظ بخلق التواضع.

والواعظ داعية إلى دين الله، وقد جرت سنة الله تعالى في الدعاة من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والصالحين؛ أنهم مبتلون في دعوتهم، معرضون للتهكم والسخرية، والهمز واللمز، وغير ذلك من صنوف الأذية المعنوية والجسدية؛ فلزم على كلّ واعظ أن يوطّن نفسه على الحلم والصبر والعفو.

فمدار الأخلاق عند الوعّاظ هي: الرفق واللين، والصبر، والتواضع.

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٣/ ٥٣.

(٢) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، ص٢٣٧.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «... وقد قيل: إذا جمع المعلّم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم؛ الصبر، والتواضع، وحسن الخلق»[(١)].

● **أهمية اتّصاف الواعظ بالخلق الحسن:**

١ ـ الخلق الحسن من أعظم مقامات الإيمان وشعبه، ولا يخفى ما للإيمان من أثر فعّال في تيسير أمور الواعظ، ومعيّة الله ونصرته له، ولذلك يقول النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[(٢)].

٢ ـ إنّ الخلق الحسن من أعظم الأسباب التي تجلب الناس إلى الهداية والاستقامة؛ لأنها تكسب الواعظ تقدير الناس ومحبتهم، فتقع موعظته فيهم موقعاً حسناً.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مُصَافُوه، وقلّ مُعادُوه، فتسهّلت عليه الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب»[(٣)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخُلُق؛ لأنّ تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه؛ فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته»[(٤)].

قال ابن مسهر: «كان عبد الله بن أبي زكريا[(٥)] رَحِمَهُ اللهُ سيدَ أهل المسجد، فقيل: بما سادهم؟ قال: بحسن الخُلُق»[(٦)].

٣ ـ إنّ الأخلاق هي محط أنظار الموعوظين والمتعلّمين؛ وإنّ الواعظ

---

(١) «إحياء علوم الدين» ١/ ٧٦.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٣/ ٤٦٦، كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١٠٨٢)، واللفظ له؛ وأبو داود في سننه ٢/ ٦٣٢، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٠٦٢)؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٣٧٨.

(٣) «أدب الدنيا والدين»، ص٢٣٦.

(٤) «الفوائد»، ص٥٥.

(٥) عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، أبو يحيى الشامي، من قراء أهل الشام وفقهائها، وفصحاء أهلها، مات في ولاية هشام بن عبد الملك؛ «مشاهير علماء الأمصار» ١/ ١١٥.

(٦) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٢٨٦.

ليهدي بسمته وخلقه وأدبه، أكثر مما يهدي بقوله وموعظته.

قال الذهبي: «كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، ونحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلّمون منه حسن الأدب والسمت»[١].

وقال المطوعي: «اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ (المسند) على أولاده، فما كتبت عنه حديثاً واحداً، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه»[٢].

* مدار حسن الخُلُق عند وعّاظ السلف *

* [أوّلاً: الرِّفق]:

أ ـ مفهوم الرفق:

ـ **لغة**: الرفق مصدر من رَفَقَ يَرْفِقُ رِفْقاً؛ وله معانٍ كثيرة في اللغة.

قال ابن فارس: «الراء والفاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عُنْف، ثم يشتقّ منه كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافَقة»[٣].

ـ **اصطلاحاً**: «هو لين الجانب في القول والفعل، والأخذ بالأسهل والأيسر، وحسن الخلق، وكثرة الاحتمال، وعدم الإسراع بالغضب والتعنيف»[٤].

• ومن المعاني المرادفة للرفق: المداراة، غير أنّ المداراة تطلق على الرفق واللين إذا كان فيهما مدافعة؛ كتعليم الجاهل، ونهي الفاسق.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة.

---

(١) المصدر السابق ١١/٣١٦.
(٢) المصدر السابق ١١/٤٠٧.
(٣) «معجم مقاييس اللغة» ٢/٤١٨، مادة: «رفق».
(٤) فتح الباري ١٠/٤٤٩.

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه»[١].

• **وحقيقة الرفق**: أنّه ثمرة لحسن الخلق، ونتيجة لضبط قوة الغضب والشهوة.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدّة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدّة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلائه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلّا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حدّ الاعتدال»[٢].

• **ضابط الرفق والشدّة:**

ضابط التفريق بين مواطن الرفق ومواطن التعنيف بالنسبة للداعية والواعظ أن يُقال:

• إنّ الشدة واللين تكون ـ والله أعلم ـ بحسب نوع الخطاب؛ وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

ـ **الأول**: خطاب يراد به الرد على المخالف والتحذير منه.

ـ **الثاني**: خطاب يراد به مناظرة المخالف ومحاورته.

ـ **الثالث**: خطاب يراد به نصيحة المخالف وتعليمه ووعظه.

---

(١) المصدر السابق ١٠/٥٢٨.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٨٤.

• والظاهر أنه يصلح في الأول من الشدة ما لا يصلح في الثاني فضلاً عن الثالث، ويصلح في الثالث من اللين والتلطف ما لا يصلح في الثاني فضلاً عن الأول.

• والمتأمل في الوحي يرى ذلك واضحاً؛ فنرى في القرآن الكريم ردوداً على اليهود والمشركين فيها شدّة ظاهرة، فيصفهم بأنهم لا يعقلون، وأنهم كالأنعام، وأن مثلهم كمثل الحمار، فهذا مقام ردٍّ عليهم وتحذير للأمة من قبيح مقالتهم.

وفي قصص الأنبياء عليهم السلام ـ لا سيما إبراهيم وموسى ـ من النقاش العقلي الهادئ ما هو أقلّ شدّة، وأكثر ليناً مما سبق.

وفي مقام النصح والوعظ يظهر من الشفقة واللين والرحمة ما لا يظهر مثله فيما مضى، كما في نصيحة مؤمن آل فرعون لهم، وكما في نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه.

ثم الناظر في عمل أهل العلم يرى ذلك كذلك، فكتب الردود ـ كرد الدارمي على المريسي مثلاً ـ فيها شدّة ظاهرة، وكذلك في كلام أئمة الجرح والتعديل حال التحذير من المخالف.

بينما نرى ما يروى من مناظرات الأئمة مع المخالفين ما هو دون ذلك بكثير، نرى فيها نقاشاً بعلم ودليل وهدوء؛ كالذي يروى عن الإمام أحمد مع قاضي المتوكل، وقصة عبد العزيز الكناني وغيرهما. ونراهم في مقام النصح يتلطفون ويدعون للقارئ بالرحمة والهداية ونحو ذلك.

قال سفيان رحمه الله لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل، قال: «أن تضع الأمور مواضعها؛ الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه»[1].

وقال الغزالي: «وهذا إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين،

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» ٤/٥٦.

والفظاظة بالرفق»[١].

كما قال أبو الطيِّب المتنبي:

وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ بِالعُلا　　مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى[٢]

• والمتأمل يجد ذلك عين الحكمة؛ لأن مقام الرد والتحذير يقتضي إظهار النقص في المخالف حتى لا يغتر به الجاهل، كما يقتضي التشنيع عليه حتى ينفر منه الناس. ومقام المناظرة يقتضي الهدوء؛ لأن المراد بها إظهار الحجة والإقناع، وهذا لا يناسب التشنيع والتهويل، كما لا يقتضي اللين لئلا يفتتن السامع بالمخالف أو تهون في نفسه مسألة الخلاف. ومقام النصح يقتضي التلطف ليكون ذلك أدعى للقبول، وليكون الكلام أوقع في نفس السامع.

قال القاضي عياض رحمه الله: «ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوّف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى، ويغلظ على المتمادي في غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكراً أشدّ مما غيَّره لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم»[٣].

ب ـ أهمية الرفق بالنسبة للواعظ:

١ ـ الرفق خير كلّه، وهو سبب لكلّ خير؛ لأنه يحصّل به من الأغراض، ويسهّل من المطالب، ومن الثواب ما لا يحصل بغيره، وما لا يأتي من ضده[٤].

ومن حرُم الرفق فقد حرم الخير، كما جاء في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«من يحرم الرفق، يحرم الخير»**[٥].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٨٦.　　(٢) «صبح الأعشى» ١٢/ ٩.
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٥.　　(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ١٤٥.
(٥) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٠٣، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، رقم (٤٦٩٤).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**من أعطي حظّه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظّه من الرفق فقد حرم حظّه من الخير**»[١].

أي: «أن نصيب الواعظ من الخير على قدر نصيبه من الرفق، وحرمانه منه على قدر حرمانه منه، إذ به تنال المطالب الدنيوية والأخروية وبفوته تفوتان»[٢].

والرفق أينما حلّ حلت البركة والخير معه، سواء كان ذلك في سياسة الراعي لرعيّته، أو في موعظة الواعظ لأهل مسجده، أو في تعليم العالم لطلابه.

فعن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ**»[٣].

قال المناوي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «لأن به ـ أي: الرفق ـ تسهل الأمور، وبه يتصل بعضها ببعض، وبه يجتمع ما تشتت، ويأتلف ما تنافر وتبدّد، ويرجع إلى المأوى ما شذّ، وهو مؤلِّفٌ للجماعات، جامعٌ للطاعات، ومنه أخذ أنه ينبغي للعالم: إذا رأى من يخلّ بواجب، أو يفعل محرماً أن يترفّق في إرشاده، ويتلطّف به»[٤].

فالواعظ يُعطى بسبب الرفق من البركة في دعوته، ما لا يُعطاه بفظاظته وغلظته وتعنيفه، وكما قيل: «إنّ الرفق يُمْنٌ، والجهل شُؤْمٌ».

٢ ـ الرفق هو وصيّة النبي ﷺ للدعاة والوعّاظ، حيث كانت وصيّته ﷺ لصحابته رضي الله عنهم حينما يرسلهم في الآفاق لتعليم الناس ووعظهم، هي: التيسير والترفّق بالناس.

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٣٦٧، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في الرفق، رقم (١٩٣٦)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٤٨.

(٢) تحفة الأحوذي ٦/ ١٣٠.

(٣) رواه مسلم في صحيح ٤/ ٢٠٠٤، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، رقم (٤٦٩٨).

(٤) «فيض القدير» ٥/ ٤٦١.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»(١).

قال المناوي رحمه الله: «أي: علِّموهم؛ وحالتكم في التعليم اليسر لا العسر؛ بأن تسلكوا بهم سبيل الرفق في التعليم، «**وبشروا ولا تنفروا**» أي: لا تشددوا عليهم، ولا تلقوهم بما يكرهون لئلا ينفروا من قبول الدين واتّباع الهدى»(٢).

وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ رضي الله عنهما حينما بعثهما إلى اليمن: «**ادعوا الناس وبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا**»(٣).

٣ ـ إنّ رفق الواعظ بالناس ولين جانبه وبسط وجهه لهم، وإحسانه إليهم؛ كثيراً ما يفتح القلوب المقفلة، ويمهِّد النفوس لتقبّل العظة والتذكير.

أنشد الأصمعي رحمه الله(٤):

لم أر مثل الرِّفق في لينه ... أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرِّفق في أمره ... قد يخرج الحيَّة من جحرها

وأنشد سابق البربري رحمه الله(٥):

لو سار ألف مدجَّجٍ في حاجةٍ ... لم يلقها إلّا الَّذي يترفَّق

فبالرفق تُسَاسُ الطِباع، ويُعرَف مكمن الداء، ويُعطى الدواء، لتستقيم الأنفس على الخير، ويزول ما في الصدور ما حلّ فيها من عوارض البغض، وأسباب الشحناء.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٣/ ١٣٥٨، كتاب: الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (٣٢٦٢).

(٢) «فيض القدير» ٤/ ٣٢٨.

(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٦٩، كتاب: الأدب، باب: قول النبي يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف، رقم (٥٦٥٩)؛ ومسلم ٣/ ١٥٨٥، كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام، رقم (٣٧٣١) واللفظ له.

(٤) ذكره ابن عبد البر في «بهجة المجالس» ١/ ٢٧٩.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٧٩.

٤ ـ إنّ الرفق هو ديدن الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم ووعظهم لأقوامهم، والقرآن الكريم يقصّ علينا كثيراً من صور ترفّقهم بأقوامهم.

ـ فمن ذلك قوله تعالى في قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

فلقد أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام أن يرفقا بعدو الله وعدو نفسه فرعون، مع سابق علمه بكِبْره، وصلفه، وكفره، وعناده.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله في موعظة له بعد أن تلا الآية: «إلهي وسيدي! هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟!»(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة؛ وهو أنّ فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»....إلى أن قال: «والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع»(٢).

ـ وكذا الشأن في نبينا محمد ﷺ فقد أثنى الله تعالى عليه في كتابه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«وفي هذا توجيه لكلّ من يضطلع بمهمات إمامة المتقين آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، أسوة حسنة لهم، أن لا يكون فظاً سيء الخلق شرساً، وأن لا يكون غليظ القلب قاسياً، فمن كان كذلك نفر عنه المتأثرون بوعظه، وانفضّوا من حوله، وصار مزهوداً فيه»(٣).

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٤/ ١٢١ **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٧.
(٣) «فقه الدعوة إلى الله»، لعبد الرحمٰن حبنكة الميداني ١/ ١٩٧.

٥ ـ إنّ الواعظ مأمورٌ بالرفق في موعظته، بل إنّ الرفق شرط لازمٌ في كلّ واعظ وآمر بالمعروف وناه عن المنكر، وقد دلّت النصوص على ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: «هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة، فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين، وقد قيل إنّ من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة، والله أعلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «قال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر». . . . . فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً، مع البرِّ والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضي مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيَّ حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ؛ فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنفي؟!»[2].

وقال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلّا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر عدل

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/١٧٧.

(٢) تفسير القرطبي ٢/١٦.

بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى»[١].

ج ـ صُوَرٌ من رفق وعّاظ السلف رحمهم الله:

للرفق أنماطٌ كثيرة، وصورٌ عديدة في مقام الوعظ والإرشاد، وكان للسلف رحمهم الله شأنٌ عظيم، ونصيبٌ وافر من هذا الخُلُق، ولذلك أقبلت عليهم النفوس، وانتفعت بمواعظهم الخلائق؛ ومن صور الرفق في الموعظة:

١ ـ الرفق في مخاطبة الموعوظين:

ينبغي للواعظ أن يتلطّف في خطابه مع الموعوظين، ويبتعد عن الألفاظ النابية، والعبارات الجارحة، وأن يظهر حرصه ورحمته بالموعوظين، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «كان أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه إذا مرّوا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلاً رحمكم الله»[٢].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «يؤمر بالمعروف في رفق، فإن قَبِلَ منك حمدت الله عز وجل، وإلّا أقبلت على نفسك»[٣].

وسُئل الإمام أحمد رحمه الله عن الآمر بالمعروف والناهي عن النكر كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: «يأمر بالرفق والخضوع»[٤].

٢ ـ تعميم الموعظة، والإسرار بها:

من صور الرفق في الموعظة تعميم الخطاب وعدم تعيين المخالف، أو الإسرار بها، وهذا رفقاً بالمخالف وستراً عليه؛ لأنّ في التشهير إغارة للقلوب، وإشعال لنار الضغينة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن

---

(١) رواه أحمد في «الورع» بإسناد صحيح، ص١٥٥.
(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/ ٣٢٥.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٢٥.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٢٥.

وعظه علانية فقد فضحه وشانه»(١).

٣ ـ طلاقة الوجه وبشاشته:

إنّ الواعظ إذا كان متجهّماً مكفهر الوجه نفرت منه النفوس، وأعرضت عن سماع مواعظه القلوب، وازدراه الناس وتنكّبوه.

ولذلك عدّ كثير من السلف بسط الوجه من أصول مكارم الأخلاق، لما له من عظيم الأثر في نفوس الناس.

قال ابن المبارك رحمه الله: «حسن الخلق هو: بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى»(٢).

وطلاقة الوجه وتبسّمه من أعظم الصدقات، ومن أقوى مصائد المودّة والألفة؛ كما جاء في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**»(٣).

قال المناوي رحمه الله في شرح الحديث: «يعني إظهارك له البشاشة والبشر إذا لقيته، تؤجر عليه كما تؤجر على الصدقة، قال بعض العارفين: التبسم والبشر من آثار أنوار القلب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، قال ابن عيينة: «والبشاشة مصيدة المودة، والبر شيء هين وجه طليق وكلام لين».

وفيه رد على العالم الذي يصعّر خده للناس كأنه معرض عنهم، وعلى العابد الذي يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزّه عن الناس مستقذر لهم، أو غضبان عليهم»(٤).

قال ابن حزم رحمه الله: «والاتساء بالنبي ﷺ في وعظ أهل الجهل

(١) ذكره النووي في شرحه على صحيح مسلم ٢/ ٢٤.
(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/ ١٨٢.
(٣) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٣٣٩، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في صنائع المعروف، رقم (١٨٧٩)؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ١١٦.
(٤) «فيض القدير» ٣/ ٢٢٦.

والمعاصي والرذائل واجبٌ، فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ وتعدّى طريقته ﷺ في أكثر الأمر، مغرياً للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجاً وحرداً، ومغايظة للواعظ الجافي؛ فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً، ومن وعظ ببشر وتبسم ولين؛ وكأنه مشير برأي، ومخبر عن غير الموعوظ بما يستفتح من الموعوظ، فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة»[١].

• وعُرف وعّاظ السلف رحمهم الله ببشاشة الوجه، وتبسمهم في وجوه الناس.

قال حماد بن زيد: «ما رأيت رجلاً قطّ أشدّ تبسماً في وجوه الرجال؛ من أيوب السختياني»[٢].

وقال مسلم بن زياد: «كان عبد الله بن أبي زكريا من أبشّ الناس، وأكثرهم تبسماً»[٣].

٤ ـ مراعاة أحوال الناس وطبقاتهم:

من تمام فقه الواعظ مراعاة أحوال الناس، والرفق بضعيفهم، وهذا يقتضي منه عدم تطويل الموعظة إذا علم أنّ في الناس ذو الحاجة والمريض والشيخ الكبير، ويتحرّى أن لا يعظ الناس إلّا غباً، وقد سبق معنا بيان هذا الأدب بشيء من التفصيل[٤].

٥ ـ المداراة من غير مداهنة:

المداراة هي الرفق واللين إذا كان فيها مدافعة، ومن معالم المداراة في الموعظة:

ـ مراعاة أعراف الناس، وعاداتهم ما لم تخالف الشرع، وهذا الأدب

---

(١) «الأخلاق والسير»، ص٦٣.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/٨، بسند صحيح.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، ص٢٦٤؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٥/١٥١ **قلت**: وإسناده حسن.
(٤) **انظر**: ص٢٤٩ من هذا البحث.

يتجلّى عندما يعظ الواعظ في مكان غير المكان الذي عاش فيه وألفه، فعليه أن يتجنّب في وعظه منافرتهم، أو مخالفتهم فيما اعتادوا عليه.

قال ابن حزم رحمه الله: «وإياك ومخالفة الجليس، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك، ولا في أخراك وإن قلّ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة.

وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلاً»(١).

ـ ومن المداراة أن يلقي الواعظ موعظة أمام ذي يد باطشة، فيمنحه جبيناً طلقاً، ويتجنب في حديثه ما يثير ذلك البطش.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنّا لنكشر ـ أي نتبسم ـ في وجوه أقوام، وإنّ قلوبنا لتلعنهم»(٢).

* [ثانياً: الصبر]:

أ ـ مفهوم الصبر، وحقيقته:

ـ **لغة**: مصدر من صَبَر يَصْبر صَبْراً، ويرد في اللغة بمعان كثيرة منها: الحبس والمنع، والتجلّد الذي هو ضد الجزع.

قال ابن فارس: «الصاد والباء والراء أصولٌ ثلاثة، الأول: الحَبْس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: جنسٌ من الحجارة»(٣).

ـ **اصطلاحاً**: من أجمع التعاريف التي عرِّف بها الصبر:

أنّه: «حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسهما عنه(٤)، وحبس النفس ومنعها عن الجزع، واللسان عن التشكّي، والجوارح عن التشويش؛ كلطم الخدود، وشقّ الجيوب ونحوهما»(٥).

---

(١) «الأخلاق والسير»، ص٦٢.

(٢) رواه هناد في «الزهد» ٢/ ٥٩٠؛ وابن أبي الدنيا في «مداراة الناس»، ص٣٦. قلت: وإسناده لا بأس به.

(٣) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: «صبر». (٤) «المفردات في غريب القرآن»، ص٢٧٣.

(٥) «مدارج السالكين» ٢/ ١٥٦.

• وحقيقة الصبر:

«هو خلق فاضل من أخلاق النفس؛ يمتنع به من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل، وهو قوّة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها»[١].

وهذه القوّة تمكّن الإنسان من ضبط نفسه وتحمّل المشاق والآلام والصعاب في سبيل تحصيل ما يرغب فيه، ودرء ما يرغب عنه.

والصبر لا يكون إلّا بعد معرفة تامّة بمآلات الأمور، وعظيم نفعها، أو عظيم ضررها، وبقدر إيمان المرء ومعرفته يكون صبره[٢].

• وللصبر شروط ثلاثة:

١ ـ الإخلاص لله، قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

٢ ـ عدم الجزع والشكوى إلى المخلوقين.

٣ ـ أن يكون الصبر في أوانه عند الصدمة الأولى[٣].

ب ـ أنواع الصبر ومجالاته عند الوعّاظ:

الصبر باعتبار متعلَّقه[٤] ثلاثة أنواع[٥]:

١ ـ الصبر على طاعة الله ﷻ:

وذاك لأنّ الطاعة تكليفٌ، والنفس من طبعها النفرة من القيود والتكاليف، فهي لا تستقيم على أمر الله إلّا بمجاهدة ومصابرة وترويض.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

---

(١) «عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، لابن القيم، ص٨.
(٢) «إحياء علوم الدين» ٤/ ٦٢.
(٣) «الصبر الجميل»، لسليم الهلالي، ص٢٧.
(٤) والصبر يدور مع الأحكام التكليفية الخمسة: فالصبر على الواجب وعن الحرام واجبٌ، كما أنّ الصبر على المندوب وعن المكروه مستحبٌ، والصبر على المباح مباحٌ، والصبر عن المستحب مكروه.
(٥) «مدارج السالكين وعدة الصابرين»، ص١٩.

والواعظ مأمور بالصبر على طاعة الله ﷻ عامة، وعلى وعظه وإرشاده خاصة.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

● وصبر الواعظ على وعظه وإرشاده يتكوّن من ثلاث شعب[١]:

ـ صبر قبل الطاعة والموعظة بتصحيح النيّة والإخلاص، والتبرؤ من شوائب الرياء.

ـ صبر حال الموعظة؛ حيث لا يغفل عنها، ولا يتكاسل عن تأديتها على أكمل وجه.

ـ صبر بعد تمام الموعظة؛ فلا ينظر لنفسه بعين العُجب.

● ومن مجالات الصبر على الطاعة، وصوره عند الوعّاظ:

ـ قد يُبتلى الواعظ بإعراض بعض الناس عن وعظه وإرشاده، رغم إخلاصه في وعظهم، وتفانيه في نصحهم؛ فينبغي على الواعظ والحال هذه أن يوطن نفسه على الصبر متأسياً بالأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

فهذا نوح عليه السلام يناجي ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

وهكذا جُوبه النبي ﷺ بالإعراض عن دعوته ونصحه وإرشاده.

فأمره الله ﷻ بالصبر، فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

ـ إنّ مهمة الوعظ مهمة شاقة تستدعي من الواعظ أن يكون صبوراً محتسباً؛ فالوعظ قد يستدعي منه أحياناً أن يجوب مشارق الأرض ومغاربها، وقد يتعرض إلى الجوع والبرد، وغير ذلك، فطريق الوعظ والإرشاد ليس محفوفاً بالورود والرياحين.

---

(١) **انظر**: «عدة الصابرين»، ص٥٢.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما من أعمال البرّ شيءٌ إلّا ودونه عُقَيبة، فإن صبر صاحبُها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رَجع»[1].

ـ إنّ أعداء الحق يقابلون الإحسان بالإساءة، فالواعظ يُمَحِّض النصح فيتَّهموه بما ليس فيه، ويدعوهم بالموعظة الحسنة فيردوه بالسوء، وفوق هذا كلّه تمتدّ يد الباطل إلى الأموال فتنتهبها، وإلى الأبدان فتعذِبها، والحرمات فتنتهكها، والأنفس فتقتلها.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وأنبياء الله جميعاً يمثِّلون هذا النوع من الصبر، حيث قالوا رداً على أذى أقوامهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ووعّاظ السلف رحمهم الله قد تعرّضوا لصنوف الأذية، وألوان النكاية، بسبب وعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ ولكنهم صبروا واحتسبوا، ومن نماذج ذلك:

قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «ضُرب محمد بن المنكدر وأصحاب له في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر»[2].

قال عمير بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطِّن نفسه على الصبر على الأذى، وليوقن بالثواب من الله، فإنه من يصبر لا يجد للأذى مساً»[3].

٢ ـ الصبر عن المعاصي والمحرّمات:

وهو صبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر عن ملاذ

---

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٣٦٣.
(٢) ذكره القيرواني في «الجامع من السنن والآداب»، ص١٥٥.
(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٥/ ٢٣٤. **قلت**: وإسناده حسن.

الدنيا وشهواتها أن ينالها من حرام أو يتوسّع فيها توسعاً يفوّت عليه تحصيل ما ينفعه في آخرته.

ومن شأن الشهوات أنها محفوفة بالمغريات، ولا ينجو من حبائلها وغوائلها إلّا من تحلّى بالصبر، ووطّن نفسه على دفعها.

● ومن مجالات الصبر عن المعاصي والشهوات، وصوره عند الوعّاظ:

ـ وَطَّنَ السلف رحمهم الله أنفسهم على الاستقامة والبعد عن كلّ ما نهى الله عنه ورسوله، وقد سبق معنا ذكر صور ونماذج من مواقفهم الناصعة في ذلك[١].

ـ كما زهد السلف رحمهم الله في ملاذ الدنيا وشهواتها، وقنعوا بما قسم الله لهم من الأرزاق، وصبروا على الحاجة والإقتار، ولم يذلّوا أنفسهم لغير الواحد القهّار، ولم يمدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به أقواماً من زينة الحياة الدنيا، وقد سبق معنا ذكر نماذج من زهد السلف وتقلّلهم وصبرهم على شظف العيش[٢].

٣ ـ الصبر على المصائب وأقدار الله المؤلمة:

وهذا النوع من الصبر يقتضي من العبد ترك التسخّط على أقدار الله، إذ المصائب مع الصبر تغدوا نعماً في حق العبد يثاب عليها.

فعن صهيب بن سنان ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٣].

قال سفيان ﵀: «ليس بفقيه من لم يعدّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة»[٤].

---

(١) **انظر**: ص٦٠٥ من هذا البحث. (٢) **انظر**: ص٥٨٤ من هذا البحث.

(٣) رواه مسلم في صحيح ٤/ ٢٢، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، رقم (٥٣١٨).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٢٣٩ **قلت**: وإسناده صحيح.

فالصبر من ورائه الفرج والبشرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالبلاء عام يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات.

● ومن مجالات الصبر على الأقدار، وصوره عند الوعّاظ:

- ينبغي للواعظ أن لا يظهر الجزع على المصيبة؛ لأنّ أعين الناس ترمقه، وإذا رأت منه ذلك، ربما سقطت مكانته عند الناس، ولم يعد لكلامه نفع عندهم.

قال الربيع بن أبي صالح: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج، فبكى رجلٌ، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال: فلا تبك، كان في علم الله أن يكون هذا، ثم تلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

- كما ينبغي للواعظ أن لا يشكو مُصابه لفرد من الناس، بل يوجّه شكواه ونجواه لمن يكشف الضراء، ويرفع البلاء.

قال مغيرة: «ذهبت عين الأحنف بن قيس فقال: ذهبت من أربعين سنة، وما شكوتها لأحد»[١].

ج ـ أهمية الصبر بالنسبة للواعظ:

إنّ الصبر من أعظم الصفات أهمية وأثراً على الواعظ، ويظهر ذلك من خلال:

١ ـ إنّ الابتلاء للدعاة إلى الله والوعّاظ سنّة ماضية، لا يسلم منها أحد منهم، فهو ملازم لهم في كلّ أحوالهم قبل الموعظة، وأثنائها، وبعدها.

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٤/ ٩٢.

وطريق الدّعاة والوعّاظ طريق محفوف بالمتاعب والآلام، إذ إن الوعّاظ يطلبون من الناس ترك ما ألفوه، والبعد عما اعتادوا عليه، مما تهواه النفوس وتتلذّذ به، ومن هنا يصبح الواعظ شوكة في حلق كلّ عاص، وعقبة في طريق كلِّ دعيٍّ، فلا يسلم من أذيتهم، ولا ينجو من كيدهم، وهم يحاربونه بكلّ سلاح؛ «وأمام هذا العتوّ والنفور لا يجد الواعظ مفراً من الاعتصام بالصبر واليقين؛ لأنّ الصبر سيف لا ينبو، ومطيّة لا تكبو، ونور لا يخبو»(١).

٢ ـ الصبر في مقام الدعوة والنصح والوعظ هو صفة الأنبياء والمرسلين ﷺ، وعليه مدار نجاح دعوتهم، وللواعظ أسوة فيمن مضى من الأنبياء ﷺ إذا أراد لدعوته نجاحاً، ولسعيه فلاحاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل ـ بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فإنه أوّل ما أرسل أنزلت عليه سورة يا أيها المدثر، بعد أن أنزلت عليه سورة اقرأ التي بها نبئ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعُلم أنه يجب بعد ذلك الصبر»(٢).

٣ ـ الواعظ لا ينال الإمامة والقدوة في الخير مطلقاً إلّا بالصبر والثبات عليه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم

(١) «مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة»، لسعيد القحطاني، ص١٩٠.
(٢) «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٣٧.

لصبرهم ويقينهم؛ إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، فإنّ الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلّا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله؛ باحتمال مشاق الدعوة، وكفّ النفس عما يوهن عزمه، ويضعف إرادته؛ فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى»[١].

٤ ـ الصبر قوّة نفسيّة إيجابية فعّالة، تدفع الواعظ المتحلِّي بها إلى مقاومة كلّ أسباب الخور والضعف والاستكانة والاستسلام، وتحمله على الصمود والثبات أمام الفتن والمغريات، وأمام المحن والمكاره والأحداث إلى أن يأذن الله له بالنصر والتوفيق، أو أن يلقى الله تعالى وهو عنه راض[٢].

*** [ثالثاً: التّواضع]:**

أ ـ مفهوم التواضع:

ـ **لغة**: التواضع مصدر من: تَوَاضَعَ يَتَوَاضَعُ تَوَاضُعاً، وتدلّ في اللغة على: التذلل، والتخاشع، والحطّ من الشيء[٣].

قال ابن فارس: «الواو والضاد والعين: أصلٌ واحد يدلُّ على الخَفْض للشيء وحَطِّه»[٤].

ـ **اصطلاحاً**: للتواضع تعريفات كثيرة عند علماء السلف، فمن ذلك:

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه»[٥].

وقال ابن المبارك رحمه الله: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع

---

(١) «إعلام الموقعين» ٤/ ١٣٥.
(٢) «صفات الداعية النفسية»، لعبد الله ناصح علوان، ص٣٥.
(٣) «لسان العرب» ٨/ ٣٩٦، مادة: «وضع». (٤) «معجم مقاييس اللغة» مادة: «وضع».
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع»، ص١١٨. **قلت**: وإسناده حسن.

نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «التواضع أن تخرج من منزلك؛ فلا تلق مسلماً إلّا رأيت له عليك فضلاً»[٢].

● **وضابط التواضع:**

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن خُلُق التواضع كسائر الأخلاق له طرفان ووسط؛ فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمَّى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يُسَمَّى تواضعاً.

والمحمود أن يتواضع في غير مذلّة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوسطها.

فمن يتقدّم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع؛ أي: وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه»[٣].

● **ودرجات التواضع:**

ثلاث وهي[٤]:

- **الدرجة الأولى**: التواضع للدين؛ وهو الانقياد لما جاء به الرسول والاستسلام له، والإذعان، فلا يُعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

- **الدرجة الثانية**: التواضع للخلق؛ وذاك بقبول أخوة المؤمنين، وقبول الحقّ ممن تحبّ وتكره، وقبول العذر من المقصّر في حقّك إذا جاء معتذراً.

- **الدرجة الثالثة**: التواضع لحقِّ الله تعالى؛ فلا يكون باعث العبد

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع»، ص١١٩. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع»، ص١٥٢. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٣) «إحياء علوم الدين» ٣/ ٣٦٨.
(٤) **انظر**: «مدارج السالكين» ٢/ ٣٣٣.

على العبودية مجرد رأي، وموافقة هوى، بل الباعث مجرد الأمر، وأن لا يرى لنفسه حقاً على الله لأجل عمله.

ب ـ مجالات التواضع، وصوره عند الوعّاظ:

إنّ مظاهر التواضع ومجالاته كثيرة جداً، وحسبنا منها ما يعين الواعظ على المهمة العظيمة المنوطة به.

ويلخّص لنا الإمام الغزالي رحمه الله بعضاً من هذه المجالات والميادين، التي ينبغي على كلّ واعظ أن يمتحن نفسه فيها، ليعلم مقدار تواضعه مع الخلق[1].

١ ـ قبول الحقّ، وعدم استنكافه:

فمن أبرز معالم التواضع عند الواعظ؛ أن يقبل الحقّ ممن كان، وأن يعترف بالتقصير والخطأ متى لاح له الصواب، وظهر له الحق؛ سواء كان الخطأ علمياً، أو سلوكياً.

قال تعالى ـ متوعّداً من يستنكف عن قبول الحق ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

• ومن صور هذا المعلم عند وعّاظ السلف رحمهم الله:

ـ قال عمر بن الخطاب: «رحم الله من أهدى إليّ عيوبي، تُحبون أن تقولوا فيُحتَمل لكم، وإن قيل لكم مثل الذي قلتم غضبتم، تجدون على الناس فيما تُنكرون من أمورهم، وتأتون مثل ذلك، أفلا تُحبون أن يُؤخذ عليكم؟!»[2].

٢ ـ التواضع للوعّاظ والأقران:

ينبغي للواعظ أن يتواضع لأقرانه، وأن لا يتقدّم عليهم في المجالس والمحافل، وألا يستنكف من خدمتهم، وإعانتهم على أمورهم وحوائجهم،

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» ٣/ ٣٦٧.

(٢) رواه الدارمي في سننه ١/ ١٦٩. قلت: وإسناده لا بأس به.

فإنّ ذلك مما يَسْلُل سخيمة القلوب، ويُضفي روح التعاون والتآزر بين الوعّاظ.

● ومن صور ذلك عند السلف رحمهم الله:

- اجتمع الشعبي وأبو إسحاق السبيعي رحمهما الله، فقال الشعبي: أنت خيرٌ مني يا أبا إسحاق، قال: لا والله بل أنت خيرٌ مني وأسنّ»[(١)].

- قال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صحبت ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وأنا أريد أن أخدمه، فكان يخدمني أكثر»[(٢)].

٣ - إجابة دعوة الفقير:

ينبغي للواعظ أن يشارك الناس في معايشهم، فيقبل دعوة الفقير منهم، ويُظْهر له البشاشة والسرور، فإنّ ذلك من أقوى مظاهر التواضع.

- مرّ الحسن بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمساكين معهم كسر خبز فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه»[(٣)].

٤ - مخالطة الناس في أنديتهم، وأسواقهم:

للواعظ أسوة في الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فقد كانوا يغشون الناس في أنديتهم، وأسواقهم، ويبتاعون حاجتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

- كان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السوق، فرأى لغط أهل الأسواق، فقال: أما يَقيل هؤلاء، ما أظنّ ليل هؤلاء إلّا ليل سوء»[(٤)].

وينبغي للواعظ أن لا يستنكف عن حمل حوائجه، وقضائها من سوقه؛ لأنّ ذلك من علامات الكبر الممقوت.

---

(١) رواه ابن الجعد في «مسنده» ١/ ٧٤. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) رواه أحمد في «الزهد»، ص١٩٣. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٣) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٣٠.
(٤) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد»، ص٢٧٠.

- عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها»(١).

- وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، ويقول: طرِّقوا للأمير»(٢).

٥ ـ التواضع في الهيئة، والمشي، واللباس:

ينبغي للواعظ أن يتواضع في هيئته ولباسه، فلا يداوم على لباس الجيّد من الثياب، بل يلبس ما تيسّر له منه، وإن تبذَّل في لباسه ـ من غير شهرة ـ أحياناً فهذا حسن.

عن أبي أمامة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ البذاذة من الإيمان**»(٣).

قال ابن الأثير: «البذاذة رَثَاثة الْهيئة، وأراد التواضع في اللباس، وترك التَّبَجُّح به»(٤).

- عن زيد بن وهب قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق، وبيده الدرّة، وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة، بعضها أدم»(٥).

- قال رجاء بن حيوة: «قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ وهو يخطب ـ باثني عشر درهماً؛ وكانت قباء، وعمامة، وقميصاً، وسراويل، ورداء، وخفين، وقلنسوة»(٦).

ومن ذلك أيضاً تواضع الواعظ في مشيته، لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان ٦٣]؛ أي: سكينة، ووقاراً

---

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٣١. (٢) المصدر السابق.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٤٧٤، كتاب: الترجّل، رقم (٣٦٣٠)، واللفظ له؛ وابن ماجه ٢/ ١٣٧٩، كتاب: الزهد، باب: من لا يؤبه به، رقم (٤١٠٨)؛ وحسنه الألباني في «تخريجه على الطحاوية»، ص٣٨٢.

(٤) «النهاية في غريب الأثر»، لابن الأثير ١/ ٢٧٦، مادة: «بذذ».

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»، ص١٧٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) المصدر السابق، ص١٧٢. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

متواضعين[١].

- «كان علي بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا مشى لا تُجاوز يده فخذيه، ولا يخطر بها[٢].

٦ - ازدراء النفس، والزهد في الألقاب[٣]:

من تمام فقه الواعظ أن يزدري نفسه، وأن ينظر إليها بعين الاحتقار، ولا يرى في نفسه مزيّة أو فضلاً، وهذا يؤدّي به إلى الزهد في الألقاب الرنّانة، والأسماء البرّاقة.

وقد كان السلف رحمهم الله - مع عظيم اجتهادهم، وعلوِّ قدرهم - يزدرون أنفسهم:

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تكلّمت ولو وجدت بُداً لم أتكلم، وإنّ زماناً أكون فيه فقيهاً لزمان سوء»[٤].

- وقال ابن عون: «كان محمد بن سيرين من أشدّ الناس إزراء على نفسه»[٥].

- وقال أبو منصور: «كتبوا مرّة لعمّي أحمد بن الحسين بن خيرون، الحافظ، فغضب، وضرب عليه، وقال: قرأنا حتى يكتب لي الحافظ؟!»[٦].

٧ - الترفّع عن الألفاظ المشعرة بتعظيم النفس:

يجدر بالواعظ أن يبتعد عن العبارات الفجّة التي تنمّ عن نقص وغرور، وهي مجلبة لتباعد الأنفس، وتناكر الأرواح، وقلّة التأثير، فلا يكثر من إدراج ضمير المتكلّم (أنا) أو ما يقوم مقامه، كأن يقول (في

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٢٧.
(٢) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٤/ ٣٩٢.
(٣) هذا المظهر وما بعد، لم يشر إليهما الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٤) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٤/ ٥٢٦.
(٥) رواه البيهقي في «الشعب» ٥/ ٢٨٨، وإسناده حسن.
(٦) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ١٠٧.

رأيي)، (أو حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلنا إليه) ونحو ذلك.

وأجدر بالبعد عن ذلك ما كان فيه تفخيم للنفس؛ كالإتيان بضمير الجمع، كأن يقول: (هذا رأينا)، و(هذا ترجيحنا).

وبدلاً من ذلك يحسن به أن يستعمل الصيغ التي توحي بالتواضع، كأن يقول: (ويبدو للمتأمل كذا وكذا)، أو يقول: (ولعل الصواب أن يقال: كذا وكذا).

- عن الحسن قال: كان عبد الله بن المبارك بالكوفة يُقرأ عليه كتاب المناسك، فلما انتهى إلى حديث، وفيه: (قال عبد الله وبه نأخذ) فقال: من كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه، فلم يزل يحكّه بيده حتى دَرَسَ، ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي»[1].

ج - أهمية تواضع الواعظ:

التواضع خلق الصادقين، وسمت المخبتين، وله عظيم الأثر على الواعظ وعلى نصحه ووعظه وإرشاده، وتتجلّى هذه الأهمية من خلال الآتي:

١ - التواضع فيه رفعة للواعظ، ومنزلة عند الناس:

التواضع من خير الخلال وأحبّ الخصال إلى الله وإلى الناس، وهو موجب للرفعة، وباعث على التآلف، ومحقّقٌ للحب والودّ، وهو من أعظم الأسباب التي تجمع القلوب حول الواعظ.

فالوعّاظ إذا تواضعوا لله رفعهم في الدنيا والآخرة، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلّا رفعه الله**»[2].

فالتواضع يفتح الله به للواعظ قلوب الناس، فيرفعه الله في الدنيا بأن

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ١٣٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٠١، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، رقم (٤٦٨٩).

يثبت له في القلوب بتواضعه منزلة عند الناس، ويجلّ مكانه[١]، بخلاف المتكبّر فإنّ الله يلبسه ثوب المهانة والذلّ في الدنيا والآخرة.

قال عامر بن عبد الله[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تواضع لله تخشّعاً رفعه الله، ومن تكبّر تعظّماً وضَعَه الله»[٣].

فالتواضع إذاً هو طريق الوصول إلى قلوب الناس، وبغيره لن يفلح الواعظ في دعوته، ولن يصل إلى غايته.

٢ ـ التواضع يجلب الألفة، والقرب من الناس:

إنّ التواضع يجعل الواعظ محبوباً في قومه وبيئته ذا أثر فعّال بينهم، بعكس الكبر فإنه يشكّل حاجزاً وجداراً منيعاً بينه وبين الناس، فيعيش معزولاً غير مألوف.

فطباع الناس النفور من المتكبّر، والإلف للمتواضع.

والنفوس المتكبّرة لا يحبها أحدٌ؛ لأنّ أصحابها غلاظ جفاة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٣ ـ التواضع سمت النبي ﷺ وهديه:

وللواعظ أسوة حسنة في ذلك إذا أراد النجاح لدعوته، والتوفيق والسداد.

وكان ﷺ مثلاً أعلى للدعاة والوعّاظ في القرب من الناس، ولين الجانب لهم، والتواضع.

«كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأَمَة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت، وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/١٤١.
(٢) عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، أبو الحارث الأسدي المدني، الإمام الحافظ، توفي سنة: ١٢١هـ؛ سير أعلام النبلاء ٥/٢١٩.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»، ص١٥٨. **قلت**: وإسناده حسن.

ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكان هيّن المؤنة، ليّن الخُلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم»[١].

٤ ـ الكبر والعُجب أكثر داء يصيب الوعّاظ:

إنّ مهمة الواعظ تقتضي منه إرشاد الناس، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وجمع القلوب حوله، ومن شأن هذه الأمر أن تحلَّ في نفسه الاعتداد والعجب، والشعور بالترفّع عن الآخرين؛ وهذا ما حذّر منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جاء يستأذنه في الوعظ والقصص كما سبق معنا[٢].

فالتواضع هو سلاح الواعظ الذي يحارب به داء العُجب والاعتداد بالنفس، ولا مفرّ للواعظ من توطين نفسه، وترويضها على هذا الخلق الكريم، إذا أراد الفلاح والنجاح، والقبول عند الله عز وجل.



(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٢٨.
(٢) **انظر**: ص٤٦٥ من هذا البحث.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الخامس

أصناف الموعوظين الذين توجّه إليهم الموعظة، وأثرها عليهم

ويتضمّن مبحثين.

المبحث الأول: أصناف الموعوظين الذين توجّه إليهم الموعظة.

المبحث الثاني: أثر مواعظ السلف في الموعوظين.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

أصناف الموعوظين الذين توجّه إليهم الموعظة

وفيه تمهيد، وخمسة مطالب:

المطلب الأول: الحكام والولاة.

المطلب الثاني: العلماء والقضاة.

المطلب الثالث: العصاة والمذنبين من المؤمنين.

المطلب الرابع: المبتدعة.

المطلب الخامس: الكفار.

تمهيد

إنّ من أعظم خصائص الدعوة الإسلامية؛ شموليتها لكافة شرائح الناس، وطبقاتهم، ومراعاتها لأحوالهم، وبيئاتهم، وطبائعهم، وميولاتهم.

وبناء على هذه الشموليّة؛ نجد الخطاب الدعوي يراعي ـ في منهجه، ووسائله، وأساليبه، ومضامينه ـ هذه الفروق، وهذا الاختلاف؛ سعياً لهداية الناس، وإزالة العقبات التي تحول دون وصول مضامين هذا الدين الحنيف إليهم.

والخطاب الوعظي ليس في منأى من هذه الشمولية، وهذا التنوّع، المبنيّ على مراعاة طبقات الناس، وتباين خصائصهم.

والمتأمّل في مواعظ السلف رحمهم الله؛ يجدها تخاطب كلّ فئة من الناس بأسلوب، ومضمون يلائم خصائصها، ويراعي طباعها.

وإنّ تغير أسلوب الواعظ وخطابه تماشياً مع حال الموعوظ؛ أمر مشروع قد دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة، كما سيأتي بيانه.

* أوّلاً: مشروعية مراعاة أحوال الموعوظين:

إنّ مراعاة أحوال الموعوظين؛ في مضمون الموعظة وأسلوبها، يستمدّ مشروعيته من خلال الأدلة الآتية:

١ ـ بعثة الله تعالى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بألسنة أقوامهم، وبمعجزات تناسب طباعهم وما عرفوا به؛ لأنهم أدرى بأحوالهم وعاداتهم، ولأنّ ذلك أحرى لقبول الدعوة والموعظة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. قال ابن

كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من لطفه تعالى بخلقه، أنّه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«ما من الأنبياء نبيٌّ؛ إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه»(٣).

٢ ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالقيام بدعوة الناس بطرق شتى؛ وتخيّر الطريقة المناسبة لكلّ صنف منهم؛ بحسب أحوالهم وخصائصهم.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق؛ فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه؛ يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر؛ يدعى بالموعظة الحسنة، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن»(٤).

وهذا يقتضي مراعاة خصائص كلّ طائفة، ومن ثمّ استخدام الطريقة المثلى في دعوتها ووعظها، وهذا عينُ الحكمة، ومنتهى البصيرة والسداد.

٣ ـ ضرورة التعرّف على حال المدعو قبل دعوته ووعظه؛ ويدلّ على ذلك حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن داعياً وواعظاً فقال له: **«إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه**

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٢/٦٦٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/١٩٠٥، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٥٩٨)، واللفظ له؛ ومسلم ١/١٣٤، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، رقم (٢١٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» ١/٤٨٥؛ وانظر: «فتح الباري» ٩/٦.

(٤) «مفتاح دار السعادة» ١/١٥٣.

عبادة الله....»[١].

والشاهد من الحديث: أنه عرّفه بحال المدعوين، ثمّ بيّن له مضمون دعوته لهم.

* ثانياً: ضوابط مراعاة أحوال الموعوظين في الموعظة:

ثمة ضوابط وقواعد ينبغي على كلّ واعظ مراعاتها عند اختيار الأسلوب والمضمون الملائم للصنف الذي يريد دعوته وموعظته.

ومن شأن هذه القواعد أن تسدّ باب الأهواء، والمداهنة، وغيرها من الآفات التي تَفُتُّ من عضد الدعوة والوعظ؛ وفيما يلي بيان لأبرز هذه الضوابط:

١ ـ مراعاة تفاوت عقول الناس ومداركهم:

ينبغي للواعظ أن يراعي الفوارق الموجودة بين الموعوظين؛ إذ فيهم الذكي والبليد، والفقيه والأميّ، والصغير والكبير؛ وسبيل ذلك أن يكون خطابه وسطاً معتدلاً.

وهذه المراعاة تكون في أسلوب وبلاغة الخطاب، وفي مضمون الموعظة.

إلّا إذا خلا بأصحاب المدارك والنظر؛ فحينها يمكن له أن يخاطبهم بفروع المسائل ودقيقها، وبأسلوب يرتقي إلى مستواهم العلمي.

ومن الآثار الثابتة عن السلف رحمهم الله في ذلك:

ـ قال علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله»[٢].

---

(١) متفق عليه، البخاري ٦/٢٦٥٨، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٣٦٥)، واللفظ له؛ ومسلم ١/٥٠، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (٢٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١/٥٩، كتاب: العلم، باب: من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ ـ تعليقاً على قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة»[١].

ـ وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة»[٢].

٢ ـ إنزال الناس منازلهم في الخطاب:

ينبغي أن لا يغض الواعظ الطرف عن منزلة الموعوظ ومكانته؛ لأنّ في ذلك تنقّص من شأنه أن يكون سبباً في ردّ الموعظة وعدم تقبّلها.

فخطاب الواعظ للحاكم والأمير مثلاً، لا ينبغي أن يكون كخطابه للعوام والدهماء.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزّل الناس منازلهم**»[٣].

أي: «أمرنا أن نعامل كل أحد بما يلائم منصبه في الدين، والعلم، والشرف»[٤].

ومن شواهد ذلك أيضاً: الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى هرقل؛ وفيه: «**من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم....**»[٥].

قال ابن حجر عند قوله ﷺ: «**عظيم الروم**»: «ومع ذلك لم يخله النبي ﷺ من إكرام، لمصلحة التآلف»[٦].

٣ ـ اختيار الأسلوب الأنفع للموعوظ:

ينبغي للواعظ أن يتخيّر من أساليب الوعظ المتنوّعة، ما يلائم حال

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٢٢٥.
(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١٠؛ وصححه ابن حجر في «فتح الباري» ١/ ٢٢٥.
(٣) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ٦؛ وأبو داود في سننه بلفظ: «أنزلوا الناس منازلهم»، كتاب: الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٢٠٢)؛ والحديث حسّنه السخاوي في «المقاصد الحسنة»، ص١٦٣، رقم (١٧٩).
(٤) عون المعبود ١٣/ ١٣٢.
(٥) سبق تخريجه. **انظر**: ص١٣٧ من هذا البحث.
(٦) «فتح الباري» ١/ ٣٨.

الموعوظ ويحقّق التأثير المرجو؛ إذ المخاطبون تتباين ميولاتهم؛ فمنهم من يميل إلى القصص كأكثر العوام، ومنهم من يؤثر فيه أسلوب الترغيب والترهيب أكثر، ومنهم الشغوف بالكتاب، ومنهم الأميل إلى المسموع، وهكذا.

ومنهم المتهاون الذي يحتاج إلى تخويف وترهيب، ومنهم اليائس المحبط الذي يحتاج إلى بيان سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله، وموفور عطائه.

٤ ـ تلمّس الأدواء، والبداءة بالأهم فالمهم:

من تمام حكمة الواعظ تحسس أدواء الناس، وتنزيل الموعظة وفق حاجة الناس.

وأهم المهمات الدعوة إلى التوحيد أوّلاً، ثمّ تلمس ما وقع فيه الناس من منكرات.

وهكذا كانت سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، فمع بداءتهم جميعاً بالدعوة إلى التوحيد إلّا أن كلاً منهم خصّ قومه بالتحذير مما وقعوا فيه من مخالفات شرعية؛ كالفاحشة، والتطفيف في الميزان، وغيرها من المنكرات.

فكان خطاب لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وهذا شعيب يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

فلا يحسن بالواعظ أن يحدّث الناس بأمر وهم محتاجون إلى غيره أشدّ من حاجتهم إليه، كمن يحدّث الناس عن سنّة من السنن وهم غارقون في الشرك إلى الأذقان.

٥ ـ مراعاة المصالح والمفاسد:

ينبغي للواعظ أن يقدّر المصالح والمفاسد قبل إلقاء موعظته، وذلك

بالنظر إلى حال الموعوظ، ومدى تحقيق الموعظة للمصلحة المرجوّة.

فإن تبيّن للواعظ أنّ موعظته ستنقل الموعوظ من مفسدة أعظم من المفسدة التي هو عليها، أو مساوية لها، وجب عليه تركه على ما هو عليه.

قال السعدي رحمه الله: «قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩] مفهوم الآية: أنّه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشرّ، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهي عنها»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، والثانية: أن يقلّ وإن لم يزل بجملته، والثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، والرابعة أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلّا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحبّ إلى الله ورسوله.

وإذا رأيت الفسّاق قد اجتمعوا على لهو، ولعب، أو سماع مكاء، وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلّا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم.

وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع، والضلال، والسحر فدعه وكتبه الأولى؛ وهذا باب واسع»[٢].

* ثالثاً: أهمية مراعاة أحوال الموعوظين في الموعظة:

إنّ في مراعاة أحوال الموعوظين، ومن ثمّ تنزيل الموعظة وفق حال الموعوظ؛ له فوائد جمة، فمن ذلك:

---

(١) «تفسير السعدي»، ص٩٢١.

(٢) «إعلام الموقعين» ٣/٣.

١ ـ قوة التأثير في الموعوظ:

وذلك بتخيّر الأسلوب الأنجع في مخاطبته ووعظه، وبتحيّن الفرص المواتية لإلقاء الموعظة، فكلما كان الأسلوب مناسباً، والوقت مواتياً كان التأثير في الموعوظ أشدّ وأقوى.

وخير شاهد على ذلك قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حينما أرسلهما لعظة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فرجاء التأثير في الموعوظ متعلّق بأسلوب وعظه.

٢ ـ اختصار الجهد، وتوفير الوقت:

فالواعظ المحنّك البصير يقصد البحر ويخلّي القنوات، ويجعل من تعرّفه على حال الموعوظ قاعدة انطلاقه؛ فيضمّن موعظته ما يراه من خلل في الموعوظ رجاء هدايته واستقامته.

ومن أعظم الشواهد على هذا حديث معاذ رضي الله عنه السابق؛ فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعرّف على حال الموعوظ أساساً في تحديد مضمون الموعظة؛ وفي هذا اختصار للجهد، وتوفير للوقت.

٣ ـ حسر الشر والفتن قبل شيوعها:

إنّ تعرّف الواعظ على حال الموعوظ قد يكون سبباً ـ بإذن الله تعالى ـ في حسر الشرّ قبل شيوعه وذيوعه؛ وتمكّنه من نفس الموعوظ، ولذلك لم يجز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فكثيراً ما تكون موعظة الواعظ سبباً في إخماد نار الفتن في مهدها، قبل أن تتأجج نارها.

ومن شواهد ذلك موعظة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج عند بداية فتنتهم، وما كان لها من عظيم الأثر في رجوع أكثرهم، وانخماد فتنتهم إلى حين[1].

(١) **انظر** هذه المناظرة في السنن الكبرى للنسائي، ذكر مناظرة عبد الله بن عباس الحرورية ٥/١٦٦.

٤ ـ منع افتتان الناس بخطاب الواعظ:

إذا لم يكن الواعظ موفقاً في اختيار الأسلوب، والمضمون المواتي لعقول الموعوظين، فإنّ ذلك قد يكون سبباً في افتتان بعضهم، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة»[1].



(١) سبق تخريجه. **انظر**: ص٦٦٧ من هذا البحث.

المطلب الأول

الحكام والولاة

*** أولاً: المقصود بالحكّام:**

للحاكمية والولاية معنيان: خاصٌّ، وعامٌّ.

- **المعنى الخاص**: هي رياسة عامّة، وزعامة تامّة، تتعلّق بالخاصّة والعامّة، في مهمات الدين والدنيا[١]؛ والمراد بالإمام والحاكم هو: كلّ قائم بأمور الناس[٢].

وهي بهذا المعنى: تطلق على حاكم البلاد؛ من ملك أو سلطان أو رئيس...

- **المعنى العام**: هم كلّ من له ولاية على المسلمين؛ من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة[٣].

والمقصود هنا كلا المعنيين؛ فعظة الحكّام يدخل ضمنها الولاية العامة، والخاصّة.

*** ثانياً: وجوب وعظ الحكّام:**

تضافرت النصوص في بيان وجوب وعظ الحكّام وتذكيرهم ونصيحتهم، فمن ذلك:

• عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«الدين النصيحة؛ قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»**[٤].

(١) «غياث الأمم في التيّات الظلم»، للجويني، ص١٥.
(٢) «فتح الباري» ٦/١١٦.
(٣) «الرياض الناضرة»، لعبد الرحمٰن السعدي، ص١٤٩.
(٤) رواه مسلم في «صحيحه» ١/ ٧٤، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنّ الدين النصيحة، رقم (٨٢).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «ففي هذا الحديث أنّ من الدين النصح لأئمة المسلمين، وهذا أوجب ما يكون؛ فكل من واكلهم وجالسهم، وكل من أمكنه نصح السلطان لزمه ذلك، إذا رجا أن يسمع منه»(١).

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**ثلاث لا يغل عليهن: قلب مسلم إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم**»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تُنَاصِحُوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(٣).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «ففيه إيجاب النصيحة على العامة لولاة الأمر؛ وهم الأئمة، والخلفاء، وكذلك سائر الأمراء...»(٤).

• وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «أيتها الرعية إنّ لنا عليكم حقاً: النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير»(٥).

• وقال أنس رضي الله عنه: «السلطان ظلّ الله في الأرض؛ فمن غشه ضلّ، ومن نصحه اهتدى»(٦).

---

(١) «التمهيد» ٢١/ ٢٨٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٣٤، كتاب: العلم عن رسول الله، باب: ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٥٨٢)، واللفظ له؛ وابن ماجه في مقدمة سننه ١/ ٨٤، رقم (٢٢٦)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٧٦٠؛ ومعنى: لا يغلّ عليهن قلب المسلم؛ أي: لا يقوى فيه مرض ولا نفاق إذا أخلص العمل لله؛ «التمهيد» ٢١/ ٢٧٧.

(٣) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٠، كتاب: الجامع، باب: ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين، رقم (١٧٩٦)؛ وأحمد في مسنده ١٤/ ٤٠٠، رقم (٨٧٩٩)؛ وصححه الألباني في «الأدب المفرد» ١/ ١٥٨.

(٤) «التمهيد» ٢١/ ٢٨٤.

(٥) رواه هناد في «الزهد» ٢/ ٦٠٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٦) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ١٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

وقد سبق معنا أنّ النصيحة رديفة للموعظة في المعنى؛ وإن كان النصح الوارد في هذه النصوص، يشمل وعظ الحكّام وتذكيرهم وكذا «حبّ صلاحهم ورشدهم وعدلهم، واجتماع الأمة عليهم، وكراهية افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله، والبغض لمن أراد الخروج عليهم»[(١)].

*** ثالثاً: ضوابط وشروط وعظ الولاة والحكّام:**

قيّد أهل العلم نصيحة الحكّام ووعظهم بضوابط وشروط لا بد من اعتبارها؛ مستقين هذه الضوابط من نصوص الكتاب والسنّة، ومن أقوال السلف رحمهم الله.

ولا بد للواعظ من مراعاة هذه الضوابط حتى تكون موعظته مفيدة، ومؤتية ثمارها، وما يرجى منها؛ إذ الإخلال بهذه الضوابط قد يؤدي إلى فتنة وبلاء، وسفك للدماء، وأمور لا تحمد عقباها؛ وفي ما يلي ذكر لأهم هذه الضوابط:

١ ـ الإخلاص في الموعظة:

فينبغي للواعظ إذا دخل على السلطان أن يقصد بموعظته وجه الله تعالى، وصلاح السلطان في نفسه، وفي سياسته وملكه، وألّا يقصد شيئاً من حطام الدنيا، أو بلوغ مكانة وحظوة عند السلطان، أو نيل محمدة وثناء بين الناس.

قال ابن النحاس رحمه الله: «الداخل على الأمراء والسلاطين، لقصد الإنكار والموعظة؛ يجب أن يكون قصده في ذلك خالصاً لله تعالى؛ فإنه قد يقدم على ذلك؛ وإنما قصده أن يكون كلامه سبباً لتعرّفه بالسلطان، وطلب المنزلة عنده، أو يكون قصده طلب المحمدة من الناس، وإطلاق الألسنة بالثناء عليه، والشكر لصنيعه، وتعمير قلوبهم بتوقيره عندهم، وتعظيمه، وأن

(١) «تعظيم قدر الصلاة»، لمحمد بن نصر المروزي ٢/ ٦٩٣.

يقال عنه إنّه أغلظ للسلطان وأقدم عليه بالكلام، ولم يبال فيصير معظّماً عند الناس، ويخشاه أبناء جنسه، إلى غير ذلك من المقاصد التي لا تنحصر؛ لتنوّع الأغراض، وهذه مزلّة عظيمة يجب التفطّن لها، والتنبه عليها، وتحقيق القصد قبل الوقوع فيها»[1].

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله ـ بعد أن ذكر جملة من مواعظ السلف رحمهم الله للأمراء والسلاطين ـ: «فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين؛ أعني علماء الآخرة.

فأما علماء الدنيا؛ فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم، فيدلّونهم على الرخص، ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم، وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ؛ لم يكن قصدهم الإصلاح، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم، وفي هذا غروران يغتر بهما الحمقى.

أحدهما: أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ، وربما يلبسون على أنفسهم بذلك؛ وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة، وتحصيل المعرفة عندهم.

وعلامة الصدق في طلب الإصلاح؛ أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم، ووقع موقع القبول، وظهر به أثر الصلاح؛ فينبغي أن يفرح به، ويشكر الله تعالى على كفايته هذه المهمة؛ كمن وجب عليه أن يعالج مريضاً ضائعاً فقام بمعاجلته غيره؛ فإنه يعظم به فرحه، فإن كان يصادف في قلبه ترجيحاً لكلامه على كلام غيره فهو مغرور.

الثاني: أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة، وهذا أيضاً مظنة الغرور ومعياره ما تقدم ذكره»[2].

٢ ـ الإسرار بالموعظة:

ينبغي أن تكون الموعظة سراً بين الواعظ والحاكم؛ من غير جهر بها،

---

(١) «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين»، لابن النحاس، ص٥٧.

(٢) «إحياء علوم الدين» ٢/ ١٤٨.

فإنّ الجهر بأخطاء الحكّام بين الناس، ونشره في المجالس والمحافل، وذكره على المنابر من أعظم مسببات القلاقل والفتن، وهي شرارة الخوارج، وزناد نيرانها.

ثمّ إنّ الجهر بالموعظة ممّا يوغر الصدور، ويثير الأحقاد والأضغان، ويكون سبباً في ردّ الحقّ، وعدم تقبّله.

قال ابن القيّم رحمه الله: «ومن دقيق الفطنة؛ أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ فتحمله رتبته على نصرة الخطأ، وذلك خطأ ثان؛ ولكن تلطف في إعلامه به حيث لا يشعر به غيره»[(١)].

والنصوص في وجوب مسارّة الحاكم بالموعظة كثيرة؛ منها:

• ما جاء في مسند الإمام أحمد: «أنّ عياض بن غنم رضي الله عنه جَلَدَ صاحب دارا[(٢)] حين فُتحت؛ فأغلظ له هشام بن حكيم رضي الله عنه القول حتى غضب عياض، ثم مكث ليالي فأتاه هشام بن حكيم فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض: ألم تسمع النبي ﷺ يقول: «**إن من أشد الناس عذاباً أشدهم عذاباً في الدنيا للناس**».

فقال عياض بن غنم رضي الله عنه: يا هشام بن حكيم قد سمعنا ما سمعت، ورأينا ما رأيت، أولم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «**من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به؛ فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه له**»، وإنك يا هشام لأنت الجريء إذ تجترئ على سلطان الله؛ فهلا خشيت أن يقتلك السلطان، فتكون قتيل سلطان الله تبارك وتعالى[(٣)].

وكان السلف رحمهم الله يكرهون وعظ الأمراء على رؤوس الأشهاد،

---

(١) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، لابن القيم، ص٥٨.

(٢) دارا: قرية بالغوطة ينسب إليها أبو سليمان الداراني، ولم اهتد لاسم صاحبها، فيض القدير ٥/ ٢٧٧.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢٤/ ٤٨ ـ ٤٩، رقم (١٥٣٣٣). وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

ويحبّون أن تكون سراً فيما بين الواعظ والحاكم؛ ويرون أنّ ذلك من علامات النصح[١].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد؛ بل كما ورد في الحديث: أنه يأخذ بيده ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يذل سلطان الله»[٢].

• قيل لأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا تدخل على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتكلمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلا أُسمعكم، والله لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتتح أمراً لا أحبّ أن أكون أول من فتحه»[٣].

يريد بذلك: «أن لا أكون أوّل من يفتح باب الإنكار على الأئمة علانية، فيكون باباً في القيام على أئمة المسلمين، فتفترق الكلمة وتتشتت الجماعة. . .ثم عرّفهم أنه لا يداهن أميراً أبداً، بل ينصح له في السرّ جهده»[٤].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند كلامه على حديث أسامة ـ: «يعني: المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ؛ كما جرى لقتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه الأدب مع الأمراء، واللطف بهم، ووعظهم سراً، وتبليغهم ما يقول الناس فيهم لينكفوا عنه»[٥].

• وعن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آمر إمامي بالمعروف؟ قال: إن خشيت أن يقتلك فلا؛ فإن كنت ولا بد فاعلاً ففيما

---

(١) «الفرق بين النصيحة والتعيير»، لابن رجب، ص٧١.

(٢) «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»، للشوكاني ٥٥٦/٤.

(٣) متفق عليه، البخاري ١١٩١/٣، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٢٧)؛ ومسلم ٢٢٩٠/٤، كتاب: الزهد والرقائق، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، رقم (٥٣٠٥). واللفظ له.

(٤) «شرح ابن بطال على صحيح البخاري» ٤٩/١٠.

(٥) «شرح صحيح مسلم»، للنووي ١١٨/١٨.

بينك وبينه، ولا تعتب إمامك»[١].

قال ابن النحاس رحمه الله: «ويختار الكلام مع السلطان في الخلوة على الكلام معه على رؤوس الأشهاد، بل يودّ لو كلّمه سراً ونصحه خفية، من غير ثالث لهما»[٢].

٣ ـ الترفّق مع الحاكم في الموعظة:

الرفق في الموعظة مطلوب في كلّ حال، وهو مع السلطان والأمير أشدّ تأكيداً؛ لأنّ للسلطان مكانته ومنزلته شرعاً وعُرفاً، ثمّ إنّ من شأن الغلظة والفظاظة أن تنقص من أقدارهم، وتفوّت انتفاعهم بالموعظة.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم»[٣].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «فإن وعظ سلطاناً تلطّف معه غاية ما يمكن، ولم يواجهه بالخطاب، فإنّ الملوك إذا وُجِهوا بالخطاب رأوا ذلك نقصاً»[٤].

فالأصل في وعظ الإمام أن يكون برفق وتلطّف؛ لأنّ ذلك أحفظ لمكانته، وأدعى لقبول النصيحة والموعظة، بخلاف التغليظ، وتخشين القول، فإنّه يوجب النفرة، ويحرّك الفتنة، التي يتعدّى شررها إلى الغير.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «الجائز من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع السلاطين التعريف والوعظ؛ فأما تخشين القول نحو: يا ظالم! يا من لا يخاف الله! فإن كان ذلك يحرّك فتنة يتعدى شرّها إلى الغير لم يجز، وإن لم يخف إلّا على نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء.........قال:

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه ٤/ ١٠٣؛ والبيهقي في «الشعب» ٦/ ٩٦. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) «تنبيه الغافلين»، ص٥٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ٥/ ٢٦٠.
(٤) «القصاص والمذكرين»، ص٣٦٨.

والذي أراه المنع من ذلك.....»[١].

• **أما سب الأمير ولعنه:** فقد اتفق السلف رحمهم الله على تحريمه.

ـ فعن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة رضي الله عنه تحت منبر ابن عامر؛ وهو يخطب وعليه ثياب رقاق؛ فقال: أبو بلال مرداس بن أدية ـ أحد الخوارج ـ: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفسَّاق؛ فقال أبو بكرة رضي الله عنه: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله**»[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «نهانا كبراؤنا من أصحابه ﷺ قال: «**لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تبغضوهم، واتقوا الله واصبروا؛ فإن الأمر قريب**»[٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إياكم ولعن الولاة فإنّ لعنهم الحالقة، وبغضهم العاقرة؛ قيل: يا أبا الدرداء! فكيف نصنع إذا رأينا منهم ما لا نحب؟ قال: اصبروا، فإنّ الله إذا رأى ذلك منهم؛ حبسهم عنكم بالموت»[٤].

٤ ـ علم الواعظ بما يأمر به، وينهى عنه:

الإنكار على السلطان والأمير إنما يكون للعلماء الذين يجمعون بين فضل العلم، وصلاح العمل؛ ويعلمون المصالح والمفاسد، وما هو الأصلح للراعي والرعيّة[٥].

لأنّ ذلك أحرى لقبول النصيحة، وأبعد عن فتنة الواعظ.

---

(١) «الآداب الشرعية» ١/ ١٩٧.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٥٠٢، كتاب: الفتن عن رسول الله، باب: ما جاء في الخلفاء، رقم (٢١٥٠)؛ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٣٦٩٥).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» ٢/ ٤٨٨؛ والبيهقي في «الشعب» ٦/ ٦٩. **قلت**: وإسناده جيّد.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» ٢/ ٤٨٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) «شعب الإيمان»، للبيهقي ٦/ ٨٥.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «لا يأمر السلطان بالمعروف إلّا رجل عالمٌ بما يأمر به وينهى عنه، رفيق بما يأمر به وينهى عنه، عدلٌ»[١].

٥ ـ القدرة والاستطاعة:

إنّ الدخول على السلاطين والأمراء لوعظهم ونصحهم وتذكيرهم لا يستطيعه إلّا من جمع رباطة الجأش، وقوة الإرادة، وشدة الارتباط بالله عز وجل؛ فإن خشي الواعظ على نفسه الهلاك، ولم يقو على ذلك، فلا ينبغي له أن يقدم على نصيحة السلطان؛ فإنّ المؤمن لا ينبغي أن يذلّ نفسه.

فعن عمارة بن مهران قال: «قيل للحسن ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر؟ قال: ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه؛ إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا، إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا؛ ووصف لنا بيده ضرباً»[٢].

وقيل لداود الطائي[٣] رحمه الله: «أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء؛ فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه الداء الدفين؛ من العجب»[٤].

٦ ـ أن لا يحصل بإنكاره ووعظه منكرٌ أكبر من الذي أنكره:

فإن ظنّ حصوله؛ فلا ينبغي له أن يَقْدم على وعظ السلطان والإنكار عليه، فدرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح عند استوائهما.

قال ابن القيم رحمه الله: «شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله؛ فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» ١٠/ ٥٤. **قلت**: وإسناده لا بأس به.
(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٧/ ١٧٦. **قلت**: ورجاله ثقات.
(٣) داود بن نصير أبو سليمان، الطائي الكوفي، الإمام، من كبار أئمة الفقه والرأي، وكان رأساً في العلم والعمل، توفي سنة: ١٦٢هـ؛ سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٢.
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٣٥٨. **قلت**: وإسناده جيّد.

منه، وأبغض إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله»[١].

وقال: «ومن تأمَّل ما جرى في الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولَّد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها»[٢].

ولذلك كان السلف رحمهم الله يتوقّفون عن وعظ الحكّام والإنكار عليهم إذا خافوا فوات الفائدة، واندلاع الفتنة.

قيل لسفيان الثوري: «ألا تأتي السلطان فتأمره؟ قال: إذا انبثق البحر فمن يسكّره»[٣].

*** رابعاً: مجالات وعظ الحكّام:**

وعظ السلاطين على ضربين:

- إما أن يكون وعظاً عاماً يحضره السلطان وغيره من الرعيّة؛ فللواعظ أن يذكر في وعظه هذا كلاماً عاماً ينتفع به السلطان وغيره؛ كالأمر بالعدل، والتحذير من الظلم، وغيرهما[٤].
- أو يكون الوعظ خاصاً يلقيه الواعظ بين يدي السلطان؛ وهذا هو المقصود ها هنا.

ومن خلال تتبّع مواعظ السلف رحمهم الله للحكّام والسلاطين؛ يمكن أن نستشفّ أبرز محاور وعظ الحكّام ومجالاته، وهي على النحو التالي:

المجال الأول: وعظ السلطان إذا تلبّس بمعصية، أو أمر بها:

من واجب الدعاة والوعّاظ ولا سيما العلماء؛ مناصحة السلطان ووعظه إذا رأوه متلبساً بمعصية، أو مشيعاً لها، أو آمراً بها.

---

(١) «إعلام الموقعين» ٣/ ٤. (٢) المصدر السابق ٣/ ٤.

(٣) رواه الخلال في «السنّة»، ص٤١. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٤) **انظر**: «القصاص والمذكرين»، ص٣٦٨.

ويتأكّد وعظ الأمراء والحكّام خصوصاً لأنهم أكثر خطأً ـ في الغالب ـ من العلماء.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأمراء في الغالب أكثر خطأ من العلماء؛ لأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم، فيريد أن يفرض سُلطته على الصواب والخطأ، فالغالب من أئمة المسلمين في السلطة وهم الأمراء أن الخطأ فيهم أكثر من العلماء ـ إلا ما شاء الله ـ»[1].

فالواجب إذاً مناصحتهم درءاً للمفسدة، وقياماً بواجب النصح.

قال ابن زمنين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالسمع والطاعة لولاة الأمر أمر واجب مهما قصّروا في ذاتهم فلم يبلغوا الواجب عليهم، غير أنهم يُدعون إلى الحقّ، ويُؤمرون به، ويُدلُّون عليه، فعليهم ما حمّلوا، وعلى رعاياهم ما حمّلوا من السمع والطاعة لهم»[2].

ونصح السلطان في هذه الحال يدرأ مفاسد عظيمة؛ إذ إنّ العامة إذا رأوا أميرهم مقيماً على المعاصي كان ذلك مسوّغاً لهم لاقترافها.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفعل الأمير للمنكر قد يكون أشدّ من فعل عامة الناس؛ لأنّ فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادةً على إثمه محذوران عظيمان:

الأول: اقتداء الناس به، وتهاونهم بهذا المنكر.

والثاني: أنّ الأمير إذا فعل المنكر سيقلّ في نفسه تغييره على الرعيّة، أو تغيير مثله، أو مقاربه»[3].

- **ومن الضوابط الواجب مراعاتها في هذا المقام:**

١ ـ التأكّد والتثبّت:

من كونه قد حصل من السلطان أو الأمير ما ينبغي نصحه ووعظه

---

(١) «شرح رياض الصالحين»، لابن عثيمين ١/ ٦٨١.

(٢) «أصول السنّة»، لابن زمنين، ص٢٧٦.

(٣) «شرح العقيدة الواسطية»، لابن عثيمين ٢/ ٣٣٨.

عليه؛ كانتهاك حرمة من حرمات الله، أو أمره بمعصية وإذنه بها.

فإنّ الكذب على الحكّام، وتزوير الأقوال عليهم، وإشاعة القصص الكاذبة كثير جداً؛ ودوافع هذا التزوير تختلف من ملفِّق لآخر؛ كالسعي لإذكاء نار الفتنة، أو روم منصب سياسي، وغيرهما من الأسباب.

قال ابن الوردي[١]:

إنَّ نصفَ الناسِ أعداءٌ لمَنْ ولِيَ الأحكامَ هذا إنْ عدلْ

وقال ابن عبد ربه: «ومن شأن الرعية قلَّة الرضا عن الأئمة، وتحجّر العذر عليهم، وإلزام اللائمة لهم؛ وربّ ملوم لا ذنب له؛ ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة، إذ كان رضا جملتها، وموافقة جماعتها؛ من المعجز الذي لا يدرك، والممتنع الذي لا يملك؛ ولكل حصته من العدل، فمن حق الإمام على رعيته أن تقضي عليه بالأغلب من فعله، والأعم من حكمه. ومن منزلته من الحكم»[٢].

ومن شواهد تحرِّي السلف رحمهم الله وتثبّتهم مما يُنسب للحكّام والأمراء؛ أنّه مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية[٣] فأرادوه على خلع يزيد بن معاوية، فأبى عليهم؛ فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب؛ فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك، فقال: وما الذي خاف مني، أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع، أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؛ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يطلعكم فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا،

---

(١) «العطر الوردي شرح لامية ابن الوردي»، لمصطفى مخدوم، ص١٣١.

(٢) «العقد الفريد»، لابن عبد ربه ١/ ٨.

(٣) محمد بن الإمام علي بن أبي طالب أبو القاسم، السيد الإمام؛ كان أعلم الناس بحديث علي بن أبي طالب، وقد غلت فيه الشيعة، توفي سنة: ٨٠هـ؛ سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠١.

قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]؛ ولست من أمركم في شيء»[١].

٢ ـ عدم إفشاء سرِّه أو التفتيش عن زلّاته:

فإنّ الستر واجب على كلّ مسلم فكيف بالحاكم الذي يلي أمور المسلمين، فإنّ إشاعة ذلك مما يُذْهِب هيبة السلطان، ويسبب الفتن، وإثارة الناس عليه.

كما لا يجوز التفتيش على زلّات الحكّام والأمراء؛ لأنّ إنكار المنكر متعلِّق بالرؤية.

قال ابن رجب رحمه الله: «قوله ﷺ: **«من رأى منكم منكراً»**[٢] يدلّ على أن الإنكار متعلِّق بالرؤية؛ فإن كان مستوراً فلم يره، ولكن علم به؛ فالمنصوص عن أحمد في أكثر الروايات أنه لا يتعرَّض له، وأنه لا يفتش عما استراب به»[٣].

وقال ابن النحاس رحمه الله: «ويشترط أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسّس، فكلّ من ستر معاصيه في داره، أو أغلق عليه بابه، لا يجوز لأحد أن يتجسس عليه»[٤].

● **ومن نماذج مواعظ السلف رحمهم الله في هذا الباب:**

ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: «كتب أبو الدرداء رضي الله عنه إلى الأمير: مسلمة بن مخلد: أما بعد؛ فإنّ العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى خلقه؛ وإذا عمل العبد بمعصية الله أبغضه الله؛ فإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير ٨/ ٢٣٣.

(٢) رواه مسلم ١/ ٦٩، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٧٠).

(٣) «جامع العلوم والحكم»، ص٣٢٤.

(٤) «تنبيه الغافلين»، ص٢٦.

(٥) رواه هناد في «الزهد» ١/ ٢٩٩. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

ـ دخل سليمان بن عبد الملك المدينة حاجاً؛ فقال: هل بها رجلٌ أدرك عدّة من الصحابة؟ قالوا: نعم أبو حازم؛ فأرسل إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم! ما هذا الجفاء؟ قال: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ قال: وجوه الناس أتوني ولم تأتني، قال: والله ما عرفتني قبل هذا، ولا أنا رأيتك فأي جفاء رأيت مني؟ فالتفت سليمان إلى الزهري فقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا.

فقال: يا أبا حازم! ما لنا نكره الموت؟ فقال: عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت

فقال: يا أبا حازم! ليت شعري ما لنا عند الله تعالى غداً؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله ﷻ، قال: وأين أجده من كتاب الله تعالى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريب من المحسنين.

قال سليمان: ليت شعري كيف العرض على الله غداً؟ قال أبو حازم: أما المحسن كالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء كالآبق يقدم به على مولاه؛ فبكى سليمان حتى علا نحيبه واشتد بكاؤه.

فقال يا أبا حازم! كيف لنا أن نصلح؟ قال: تدعون عنكم الصَّلَفَ، وتمسكوا بالمروءة، وتقسموا بالسوية، وتعدلوا في القضية؛ قال يا أبا حازم! وكيف المأخذ من ذلك؟ قال: تأخذه بحقه، وتضعه بحقه في أهله.

قال يا أبا حازم! من أفضل الخلائق؟ قال: أولوا المروءة والنهى؛ قال: فما أعدل العدل؟ قال: كلمة صدق عند من ترجوه وتخافه[1].

ـ وكان هارون الرشيد قد بنى قصراً؛ فلما فرغ منه استدعى أبا العتاهية فقال له: «صف لي ما نحن فيه من العيش؛ فأنشأ يقول:

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٣٥؛ والحميدي في «الذهب المسبوك»، ص١٦٥، وإسناده حسن.

عـش مـا بَـدَا لَـكَ سـالـمـاً   فـي ظـل شـاهـقـة الـقُـصُـور
يُـسْعَـى عـلـيـك بـمـا اشـتـهـيـت   لَـدَى الـرَوَاح وفـي الـبُـكُـور
فـإذا الـنـفـوس تَـقَـعْـقَـعَـت   فـي ضـيـق حَـشْـرَجَـة الـصُـدُور
فـهـنـاك تَـعْـلَـم مُـوقـنـاً   مـا كُـنْـتَ إلّا فـي غُـرُور

فبكى الرشيد؛ فقال له الوزير: دعاك أمير المؤمنين لتسرَّه فأحزنته...»[١].

*** المجال الثاني: وعظ السلطان إذا تلبّس ببدعة، أو أمر بها:**

من أهم الواجبات التي تجب على الوعّاظ والعلماء تجاه حكّامهم، بذل النصيحة لهم، وتبيين الحق لهم، وتحذيرهم من مخالفة السنّة، وبيان أنّ التمسّك بها طريق للنجاة والجنان.

كما يجب إيضاح خطر البدع حتى لا يقع فيها، أو إن كان متلبِّساً بها تركها، وتاب منها؛ وكذلك تحذيره من المبتدعة، وأصحاب المذاهب المنحرفة حتى لا يكونوا سبيلاً لوقوعه، ووقوع رعيته في الضلال والابتداع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في أثناء حديثه عن حقوق الولاة ـ: «وأما من كان مبتدعاً بدعة ظاهرة، أو فاجراً فجوراً ظاهراً؛ فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به»[٢].

وقال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في بيانه لحقوق الولاة على رعاياهم ـ: «الحق السادس: تحذيره من عدو يقصده بسوء، وحاسد يرومه بأذى، أو خارجي يخاف عليه منه، ومن كلّ شيء يخاف عليه منه على اختلاف أنواع ذلك وأجناسه، فإنّ ذلك من آكد حقوقه وأوجبها»[٣].

فلا بد للواعظ أن يحثّ السلطان على الأخذ على أيدي المبتدعة لعظيم ضررهم على دين العباد.

---

(١) رواه الحميدي في «الذهب المسبوك»، ص٢١٨. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) مجموع الفتاوى ١١/٥١٧.
(٣) «تحرير الأحكام»، لابن جماعة، ص٦٣.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «كما لا يحسن في سياسة الملك العفو عمن سعى على الدولة بالخروج على السلطان، لا يحسن أيضاً أن يُعفى عمن ابتدع في الأديان؛ لأنّ فساد الأديان والابتداع كفساد الدول بالخروج على الملك، فالمبتدعون خوارج الشريعة»(١).

• **ومن نماذج مواعظ السلف في ذلك:**

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم؛ فيعظهم، ويوصيهم، ويأمرهم؛ فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف.

قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر؛ فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت؛ فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي، فجبذت بثوبه فجبذني فارتفع فخطب قبل الصلاة؛ فقلت له: غيرتم والله، فقال: أبا سعيد! قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، فقال: إنّ الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة»(٢).

- وعن حصين بن عبد الرحمٰن قال: «رأيت بشر بن مروان يوم جمعة يرفع يديه؛ فقال عمارة بن رؤيبة: قبَّح الله هاتين اليدين؛ لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا؛ وأشار بإصبعه المسبحة»(٣).

ففي هذين النصين إنكار الصحابة على الأمراء ابتداعهم في الدين، وتغييرهم لسنة المصطفى ﷺ، وهذا الإنكار جاء من طريق الوعظ والتذكير.

- وعن الوليد بن أبي السائب أن رجاء بن حيوة كتب إلى هشام بن

---

(١) «الفنون»، لابن عقيل ١/ ١٠٩.

(٢) رواه البخاري ١/ ٣٢٦، كتاب: الجمعة، باب: الخروج إلى المصلى بغير منبر، رقم (٩٠٣).

(٣) رواه مسلم ٢/ ٥٩٥، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (١٤٤٣).

عبد الملك: «بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان[(١)] وصالح؛ وأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين: إنّ قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك»[(٢)].

وفي هذا التذكير مؤازرة للحاكم على ردع المبتدعة، واستئصال شوكتهم.

* **المجال الثالث: وعظ السلطان إذا ظلم الرعيّة:**

من واجب العلماء والوعّاظ أن ينتصروا للمظلومين؛ وذلك بتنبيه الحكّام على موقع الظلم إن كان من طرف عمالهم؛ أو ببيان عاقبة الظلم وشناعته، إن كان الظلم من طرف الحاكم نفسه؛ وهذا الأمر من تمام النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

وظلم الحاكم لرعيّته واردٌ؛ إلّا من عصمه الله تعالى من أئمة العدل.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

● **ومن نماذج مواعظ السلف رحمهم الله في هذا المجال:**

- بعث سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله كتاباً جاء فيه:

«... ما أعظم الذي ابتليت به يا عمر؛ فاقطع الذي سبق إليك من أمر هذه الأمة بالعدل، ومن بعثت من عمالك فازجره زجراً شديداً شبيهاً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلّا بحقها؛ المال المال يا عمر، الدم الدم يا عمر؛ فإنّه لا عدّة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظُلْمه ولم تغيره...»[(٣)].

---

(١) غيلان بن مسلم الدمشقي، أبو مروان كاتب من البلغاء من القدرية، أفتى الأوزاعي بقتله؛ فصلب على باب كيسان بدمشق بعد عام ١٥٠هـ؛ لسان الميزان: ٤/ ٤٢٤.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١٧٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) رواه الحميدي في «الذهب المسبوك»، ص١٨١. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

- وعن الأصمعي قال: «وعظ عطاء بن أبي رباح عبد الملك بن مروان يوماً فقال له: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتّق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: أجل أفعل؛ ثم نهض وقام»(١).

- دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين! إني مكلمك بكلام فاحتمله، وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: يا أعرابي! إنّا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه، ولا نأمن غشه؛ فكيف بمن نأمن غشه، ونرجو نصحه.

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين! إنه قد تكنّفك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم؛ خافوك في الله تعالى، ولم يخافوا الله فيك؛ حرب الآخرة سلم الدنيا؛ فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه، فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً، وفي الأمة خسفاً وعسفاً(٢)، وأنت مسؤل عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت؛ فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره؛ فقال له سليمان: يا أعرابي! أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك قال: أجل يا أمير المؤمنين، ولكن لك لا عليك»(٣).

* خامساً: أهمية مناصحة الحاكم ووعظه:

لصلاح ولاة الأمر واستقامتهم أثر عظيم على صلاح شأن البلاد والعباد؛ ولهذا كثر احتفاء السلف رحمهم الله بوعظ الأمراء؛ حتى قال:

(١) المصدر السابق، ص١٦٤. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) أي: تجويعاً وظلماً؛ لسان العرب ٩/٢٤٦ و٩/٦٩.
(٣) رواه الحميدي في «الذهب المسبوك»، ص١٧٤. **قلت**: وإسناده حسن.

خالد بن صفوان[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني عاهدت الله عهداً أن لا أخلو بملك إلّا ذكرته بالله»[٢].

كما اهتم علماء السلف رحمهم الله بجمع مواعظ العلماء للأمراء، وإفرادها بالتأليف والتصنيف، فألِّف في هذا الشأن كتبٌ كثيرة[٣].

ومما يوضّح ويجلي عظم أهمية مناصحة الأمراء ووعظهم؛ ما يلي:

١ ـ صلاح السلطان:

وبصلاح السلطان يصلح الرعيّة، ويستقيم أمر البلاد والعباد، ويعمّ الخير، وينتشر الأمن، ويسلم للناس دينهم، وتصلح لهم دنياهم.

ولذلك حضّ الشارع على نصيحة السلطان، وتوجيهه إلى الخير والرشاد.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ الناس لم يزالوا بخير ما استقامت لهم ولاتهم وهداتهم»[٤].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لن تزالوا بخير ما صلحت أئمتكم»[٥].

---

(١) خالد بن صفوان بن الأهتم أبو صفوان البصري، العلامة البليغ فصيح زمانه، قال الذهبي: وفد على عمر بن عبد العزيز، ولم أظفر له بوفاة إلا أنه كان في أيام التابعين؛ «سير أعلام النبلاء» ٦/ ٢٢٦؛ وقال عنه ابن أبي حاتم: «كوفي روى عن زيد بن علي روى عنه هشيم»، الجرح والتعديل ٣/ ٣٣٦.

(٢) رواه الحميدي في «الذهب المسبوك»، ص١٨٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) ومن أمثلة ما ألف في مواعظ الملوك.

١ ـ «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، للحميدي.

٢ ـ «نصيحة الملوك» لأبي حامد الغزالي.

٣ ـ «الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء»، لابن الجوزي.

٤ ـ «نصيحة الملوك»، للماوردي.

٥ ـ «النصيحة للراعي والرعيّة»، للتبريزي.

٦ ـ «النصائح المهمة للملوك والأئمة»، للحموي.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» ٦/ ٤٢. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) المصدر السابق ٦/ ٤١. **قلت**: وإسناده حسن.

٢ ـ صلاح المجتمع، واجتماع الأمة:

وذلك لأنّ كلاً سيأخذ حقّه من ثواب للمحسن، وعقاب للمسيء، فيزداد المحسن إحساناً وينزجر المسيء عن إساءته، ويعتبر به غيره، فيُقْطع دابر الشّر، وينتشر الخير والصلاح.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في الأمراء ـ: «هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود.

والله! ما يستقيم الدين إلا بهم؛ وإن جاروا أو ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون؛ مع أنّ والله إن طاعتهم لغيظ، وإن فرقتهم لكفر»[١].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «..إنّ وجود السلطان في الأرض حكمة عظيمة، ونعمة على العباد جزيلة؛ لأنّ الله جبل الخلق إلّا الأنبياء والمرسلين على حبّ الانتصاب، وعدم الإنصاف، فلولا السلطان في الأرض لأكل الناس بعضهم بعضاً، كما أنه لولا الراعي لأتت السباع على الماشية»[٢].

● ومما سبق نخلص إلى أنّ وعظ الولاة من الأمور الواجبة على الوعاظ ـ متى رأى من إمامه معصية أو بدعة أو ظلماً ـ، لما في ذلك من صلاح للعباد والبلاد وحسر الفساد وقمع البدع وإحياء شعائر الدين، وغير ذلك من المصالح العظيمة.

ولكن ينبغي أن يصحب هذا الوعظ جملة من الضوابط المبنيّة على التثبّت، والإسرار، ومراعاة قدر الولاة، والترفّق بهم، وإخلاص النصح لهم.



(١) «ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم»، ص٢٦٢.

(٢) «طاعة السلطان وإغاثة اللهفان»، للمناوي، ص٤١.

المطلب الثاني

العلماء والقضاة

* أولاً: المقصود بالعلماء:

العلماء: هم العارفون بشرع الله، المتفقهون في دينه، العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة؛ وهم هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتي أمر الله[(١)].

والعلماء هم أولو الأمر، وأئمة المسلمين[(٢)]؛ الذين تجب طاعتهم، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

والدعاة داخلون تحت زمرة العلماء، إذ إنهم على طريقهم يسيرون وبهديهم يقتدون، وكذا القضاة لأنهم يحكمون بشرع الله تعالى، ويجتهدون في معرفة الحكم الشرعي[(٣)].

---

(١) «قواعد في التعامل مع العلماء»، لعبد الرحمٰن اللويحق، ص٢٠.

(٢) وهو قول ابن عباس، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري، وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح، والضحاك ومجاهد، وقيل هم: الأمراء، وهو قول أبي هريرة؛ **انظر**: تفسير الطبري ٤/١٤٩.
قال ابن القيم رحمه الله: «والتحقيق: أن الأمراء إنما يطاعون إذ أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء»؛ إعلام الموقعين ١/١٠.

(٣) وللعلماء ثلاثة أسماء، وهي التالية:
الاسم الأول: العالم، وهو الذي يقرر أحكام الشرع على ما هي عليه.
الاسم الثاني: المفتي، وهو من ينزل حكم الشرع على واقع المستفتي.
الاسم الثالث: الحاكم الشرعي وهو القاضي، وهو الذي ينفذ الحكم ويطبقه، وكل =

* ثانياً: مشروعية وعظ العلماء:

الأصل في مشروعية وعظ العلماء هو قول النبي ﷺ: «**الدين النصيحة؛ قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»[(١)].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «أئمة المسلمين تشمل النوعين، أئمة الدين، وهم العلماء، وأئمة السلطان، وهم الأمراء، وإن شئت فقل: أئمة البيان وأئمة السلطان، أئمة البيان وهم العلماء الذين يبينون للناس، وأئمة السلطان وهم الأمراء الذين ينفذون شريعة الله بقوة السلطان»[(٢)].

ولهذا شرعت الحسبة على العلماء والمفتين؛ لأنّ ذلك من تمام النصح لهم، ومن المعلوم أنّ الوعظ والتذكير يعدّ أحد مراتب الحسبة كما قال العلماء[(٣)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - في ضرورة الاحتساب على العلماء والمفتين -: «يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟»[(٤)].

* ثالثاً: حقوق العلماء وخصائصهم[(٥)]:

للعلماء حقوق كثيرة؛ ومعرفة حق العالم هو حق للعلم؛ وذلك بأن يعرف قدره الذي رفعه الله به، فإنّ الله يقول: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فيعرف له درجته التي رفع الله له بما آتاه من العلم[(٦)].

= حاكم مفتي، وكل مفتي عالم، ولا عكس. **انظر**: «معاملة العلماء»، لمحمد سالم بازمول، ص١١.

(١) تقدّم تخريجه، ص٥٣٠ من هذا البحث.
(٢) «شرح رياض الصالحين»، لابن عثيمين ١/ ٦٨٣.
(٣) «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين»، لابن النحاس، ص٣٨.
(٤) «إعلام الموقعين» ٤/ ٢١٧.
(٥) حقوق العلماء كثيرة جداً، وإنما اكتفيت بذكر ما له صلة بمقام الوعظ فقط.
(٦) **انظر**: «فيض القدير» ٥/ ٣٨٩.

ومن هذه الحقوق الواجب مراعاتها ـ من طرف الناس عامّة، ومن الواعظ خاصة ـ:

١ ـ تعظيمهم، واحترامهم، والتأدب معهم:

إنّ التأدب مع العلماء الربانيين هو تأدب مع الله تعالى، وتعظيمهم من تعظيم شعائر الدين؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]؛ والشعيرة كلّ ما أشعر الله بتعظيمه من أعلام الدين[(١)].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي من لم يجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»[(٢)].

قال طاووس رحمه الله: «من السنّة أن يُوَقَّر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد»[(٣)].

ودروب توقير العلماء وتعظيمهم كثيرة؛ ومن أجمع ما رُوي في ذلك ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنّ من حق العالم ألّا تكثر عليه السؤال، ولا تعنّته في الجواب، وأن لا تُلحَّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشينّ له سراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، وإن زلّ قبلت معذرته، وعليك أن توقّره وتعظِّمه ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته»[(٤)].

٢ ـ إعذارهم وحسن الظنّ بهم:

من الواجب على الواعظ وغيره إحسان الظن بالعلماء، فيُحْمَلُ قولهم وفعلهم على أفضل المحامل وأحسنها؛ ويُرَدُّ ما يرمون به من التُّهَم، كما

---

(١) «روح المعاني» ١٧/ ١٣٩.
(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٢٣، رقم (٢٢٨٠٧)؛ وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٤.
(٣) ذكره البغوي في «شرح السنّة» ١٣/ ٤٣.
(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ١٢٩. **قلت**: وإسناده حسن.

قال ﷻ في قصة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

ومن الآثار السلفية في وجوب إعذار العلماء، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من فِي مسلم شراً؛ وأنت تجد لها في الخير محملاً»[(١)].

وقال محمد بن سيرين رحمه الله: «إذا بلغك عن أخيك شيئاً فالتمس له عذراً فإن لم تجد له عذراً فقل لعل له عذراً»[(٢)].

فإحسان الظن والتماس العذر يبقي للعلماء حرمتهم وهيبتهم في النفوس، وفي هذا حفظ لدين الله وشريعته.

قال السبكي رحمه الله: «فإذا كان الرجل ثقة مشهوداً له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يُحمّل كلامه، وألفاظ كتاباته على غير ما تُعُوِّد منه، ومن أمثاله، بل ينبغي التّأويل الصالح، وحسن الظنّ الواجب به وبأمثاله»[(٣)].

وهذا الإعذار إنما يكون للعلماء دون غيرهم، قال ابن القيم رحمه الله: «والكلمة الواحدة يقولها اثنان: يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق؛ والاعتبار بطريقة القائل، وسيرته، ومذهبه، وما يدعو إليه، ويناظر عليه»[(٤)].

٣ ـ عدم الطعن عليهم، أو الوقيعة فيهم:

إنّ المسيء إلى العلماء، والطاعن عليهم بغياً وعدواً قد ركب متن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس»، ص٥٠؛ والبيهقي في «الشعب» ٦/ ٣٢٣. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه ابن حيان في «التوبيخ والتنبيه» ١/ ٥٣. والبيهقي في «الشعب» ٦/ ٣٢٣. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) «قاعدة في الجرح والتعديل»، للسبكي، نقلاً عن «قواعد في التعامل مع العلماء»، ص١١٦.

(٤) «مدارج السالكين» ٣/ ٥٢١.

الشطط، ووقع في أقبح الغلط؛ لأنّ حرمة العلماء مضاعفة، وحقوقهم متعدّدة، فلهم كلّ ما ثبت من حقوق المسلم على المسلم، ولهم حقوق المسنين والأكابر، ولهم حقوق حملة القرآن الكريم، ولهم حقوق العلماء العاملين، والأولياء الصالحين، ومن ثمّ نصّ بعض العلماء على أنّ الغيبة إذا كانت في أهل العلم، وحملة القرآن فهي كبيرة، وإلا فصغيرة»[١].

قال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أخي وفقني الله وإياك إلى طاعته أن لحوم العلماء مسمومة، وسنة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة؛ لأنّ الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم»[٢].

والقدح في العلماء، والطعن فيهم سبيلٌ من سبل أهل الزيغ والفساد، ذلك لأنّ الطعن في العلماء له أضرار عظيمة، وآثار وخيمة؛ فمن ذلك:

• أنّ القدح في العلماء سببٌ إلى تعطيل الانتفاع بهم وبعلمهم؛ وقد نهى النبي ﷺ عن سبّ الديك لأنّه يدعو إلى الصلاة[٣]، فكيف بمن يدعو إلى دين الله عَزَّ وَجَلَّ ويذبّ عن شريعته.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما نحن لولا كلمات الفقهاء»[٤].

• أنّ الطعن في العلماء ليس طعناً في ذواتهم، وإنما طعنٌ في الدين والدعوة التي يحملونها، والملّة التي ينتسبون إليها؛ فإذا جرِّح شهود الشرع جرِّح المشهود به.

• أنّ تجريح الأخيار من العلماء والدعاة يتسبّب في انزواء بعضهم وابتعادهم عن ميدان الدعوة والتوجيه؛ فإذا خلت الساحة من أهل العلم والتقى؛ اتّخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، يفتون الناس بغير علم، فإذا أفتوهم

---

(١) انظر: «مغني المحتاج» ٤/ ٤٢٧. (٢) «تبيين كذب المفتري»، ص٢٨.

(٣) حديث: **«لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة»** رواه أبو داود في سننه ٢/ ٧٤٨ من حديث زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الديك والبهائم، رقم (٤٤٣٧)؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٢٧٩٧).

(٤) رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١/ ١٥٢. **قلت**: وإسناده صحيح.

وفق الهوى فلا تسأل عن الحرمات التي تُستباح، والدم المعصوم الذي يُهْرَاق، والعرض الذي يُنتهك، والمال الذي يُهدر.

*** رابعاً: ضوابط وعظ العلماء:**

إنّ الله لم يكتب العصمة إلّا للأنبياء والمرسلين ﷺ فيما يبلغونه من دين الله تعالى، فالعالم مهما علت رتبته ليس بمنأى عن الزلل، سواء كانت الزلّة ذنباً، أو خطأً علمياً.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «ولا يضع من العالم الذي برع في علمه زلّة إن كانت على سبيل السهو والإغفال، فإنّه لم يَعْرَ من الخطأ إلّا من عصم الله ﷻ، وقد قالت الحكماء: «الفاضل من عُدَّت سقطاته»[(١)].

ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلّها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه[(٢)]

فالواجب على الواعظ أن يراعي حقوق العلماء، وأن تكون موعظته وفق ضوابط تحفظ للعالم مكانته، وتؤدي لعموم الناس واجب النصيحة؛ وفيما يلي بيان لأهم هذه الضوابط:

١ ـ الإخلاص في الموعظة:

ينبغي للواعظ أن يستحضر النية الحسنة إذا أراد أن يعظ عالماً، أو يصحح له خطأً؛ فيكون همّه رجوع العالم إلى الحق، وتوبته من الذنب، وعصمة الأمة من الانسياق وراء زلّة العالم.

أمّا من يكون غرضه الرغبة في إظهار الشماتة بهذا العالم، والتشنيع عليه، فقد جانب الصواب، وأورد نفسه المعاطب.

قال ابن حزم رحمه الله: «..لا يكن حضورك لمجالس العلماء حضور من يطلب عثرة يشنعها، أو غربة يشيعها، فهذه أفعال الأرذال»[(٣)].

وقال بكر أبو زيد حفظه الله: «إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به

---

(١) «شرح ما يقع فيه التصحيف» لأبي هلال العسكري، ص٦.

(٢) البيت ليزيد بن خالد المهلبي ت: ٢٥٩هـ؛ «خزانة الأدب» ١/٤٥٦.

(٣) «مداواة النفوس»، لابن حزم، ص٤١١.

للحظّ منه، ولكن افرح لتصحيح المسألة فقط»[١].

٢ ـ التثبت من الزلّة والخطأ:

إذا نسب إلى أحدٍ من العلماء الربانيين شيء يُستنكر، فلا بد من التثبّت؛ وذلك بتمحيص الخبر والتحقيق من صدقه قبل المبادرة إلى الإنكار.

وهذا التثبّت وإن كان سنّةً جاريةً في كلّ حال إلّا أنه يتأكد في حالتين:

• الأولى: وجود قرينة تشكك في الخبر، مثل: فسق القائل، أو غرابة القول، أو كونه ناقضاً لأصل تأكّد وثبت بدليل قطعي.

ولا يخلو الكلام في العلماء من إحدى هذه القرائن، إذ قد ثبتت عدالة العلماء وفضلهم بشهادة الأمة لهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

• الحالة الثانية: وقوع الفتن والشرور واضطراب الأحوال وتبلبل الأذهان، فإنّ ذلك إذا وقع في زمانٍ وجب التثبّت والتبيّن لما يستدعيه زمن الفتن من كثرة الكذب والافتراء، والطعن في الذوات والأشخاص[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ربما تنقل لنا الأشياء عن العالم أو عن الأمير على غير وجهها، إما لسوء القصد من الناقل؛ لأنّ بعض الناس والعياذ بالله يحبّ تشهير السوء بالعلماء وبالأمراء، فيكون سيء القصد ينقل عليهم ما لم يقولوا، وينسب إليهم ما لا يفعلوا، فلا بد إذا سمعنا عن عالم أو عن أمير ما نرى أنه أخطأ لا بد في تمام النصيحة من الاتصال به، ومناقشته، وبيان الأمر وتبينه حتى نكون على بصيرة»[٣].

٣ ـ التريّث وعدم المسارعة إلى الإنكار:

ينبغي للواعظ إذا نقل إليه زلة لعالم من طريق صحيح موثوق أن يتأمل

---

(١) «حلية طالب العلم»، لبكر أبو زيد، ص٥٨.
(٢) «قواعد في التعامل مع العلماء»، ص١٢٩.
(٣) «شرح رياض الصالحين» ١/ ٦٨٣.

هل هذا محل انتقاد أم لا؟ لأنه قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن القول منتقد، وعند التأمل يرى أنه حق، فلا بد أن يتأمل حتى ينظر هل هو منتقد أو لا؟.

فمن حق العلماء أن يُتأمل قولهم واجتهادهم ولا يهجم إلى نقده؛ فكم من قول لعالم انتقده بعض الناس، وآفة الناقد الفهم السقيم لكلامهم.

وَكَم مِن عائِبٍ قَولاً صَحيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الفَهمِ السَقيمِ[1]

قال سهل بن حنيف رضي الله عنه: «يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم؛ لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ عليه لرددته»[2].

قال ابن حجر رحمه الله ـ في فوائد قصة الحديبية ـ: « وفي الحديث أنّ التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال؛ بل عليه التسليم لأنّ المتبوع أعرف بمآل الأمور غالباً بكثرة التجربة، ولا سيما مع من هو مؤيد بالوحي»[3].

٤ ـ الرفق والتلطّف في الموعظة، واجتناب الطعن والتجريح:

ينبغي للواعظ أن يتلطّف مع العالم ويخاطبه برفق، ويبيّن له خطأه دون طعن أو تجريح.

لأنّ الفظاظة والغلظة ربما تدفع العالم إلى رد الموعظة والنصيحة.

فعن سفيان الثوري قال: «قلت لمسعر: تحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيء إنسان فيوبخني بها: فلا، وأما أن يجيء ناصح: فنعم»[4].

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي. **انظر**: «خزانة الأدب وغاية الأرب»، لتقي الدين الحموي ١/ ١٩٢.

(٢) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٢٦٥، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يذكر من ذم الرأي، رقم (٦٧٦٤)؛ ومسلم ٣/ ١٤١١، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية، رقم (٣٣٣٩).

(٣) «فتح الباري» ٥/ ٣٥٢.

(٤) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٤/ ٩. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

ولا يجعل الواعظ من الخطأ مسوغاً للمز العالم والتشهير به؛ لأنّ هذه الزلة مغمورة في بحر حسناته، والحكم يكون بكثرة الفضائل.

قال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام محمد بن نصر المروزي: «ولو أنّا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له قمنا عليه وبدَّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا ابن نصير، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، و الله هو هادي الخلق إلى الحق، هو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[١].

وكان من هدي السلف رحمهم الله التأدب والتلطّف مع العالم حال تنبيهه على زلّة، أو لفت نظره إلى خطأ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حين اضطره المقام إلى الخوض في مسألة زلات العلماء ـ: «نعوذ بالله سبحانه مما يفضي إلى الوقيعة في أعراض الأئمة، أو انتقاص أحد منهم، أو عدم المعرفة بمقاديرهم وفضلهم، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحبهم ويواليهم ويعرف من حقوقهم وفضلهم ما لا يعرفه أكثر الأتباع، وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

ومن هنا يتبيّن لنا خطأ الكثير من الوعّاظ والناصحين حينما يجعلون الفظاظة والشدّة أسلوباً لمخاطبة العلماء ووعظهم، وهم بذلك قد جانبوا الصواب، واعتدوا على ورثة الأنبياء الذين هم أولى الناس بالإجلال والرفق.

يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ مبيناً الطريقة المثلى في التعامل مع زلّة العالم، وموضحاً في الوقت ذاته خطأ الكثير من الوعّاظ والناصحين في تعاملهم مع زلّة العالم ـ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٣٤.
(٢) «مجموع الفتاوى» ٦/ ٧٧.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تبين لك حسب رأيك أن ما نُسِبَ إلى العالم وصَحَّت نسبته إليه ليس بحق، فالواجب أن تتصل بهذا العالم بأدب ووقار، وتقول: سمعت عنك كذا وكذا، وأحب أن تبين لي وجه ذلك؛ لأنك أعلم مني، فإذا بيّن لك هذا فلك حق المناقشة، لكن بأدب واحترام وتعظيم له بحسب مكانته، وبحسب ما يليق به.

أما ما يفعله بعض الجهلة الذين يأتون إلى العالم الذي رأى بخلاف ما يرون، يأتون إليه بعنف وشدة، وربما نفضوا أيديهم في وجه العالم، وقالوا له: ما هذا القول الذي أحدثته؟ ما هذا القول المنكر؟ وأنت لا تخاف الله، وبعد التأمل تجد العالم موافقاً للحديث وهم المخالفون له، وغالب ما يُؤْتَى هؤلاء من إعجابهم بأنفسهم، وظنهم أنهم هم أهل السنة، وأنهم هم الذين على طريق السلف، وهم أبعد ما يكون عن طريق السلف وعن السنة.

فالإنسان إذا أعجب بنفسه ـ نسأل الله السلامة ـ رأى غيره كالذَرِّ، فاحذر هذا»[١].

٤ ـ الإسرار بالموعظة:

فإنّ الواعظ ليس غرضه إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، فمهما أمكن النصح في الستر، فلا ينبغي العدول عنه إلى المجاهرة في الملأ.

لأنّ التشهير بالعالم من أقبح القبائح، فهو يجرئ الأراذل عليه، ويسوِّغ لضعاف النفوس الاسترسال في المعاصي قدوة بهذا العالم، فوجب التنبّه إلى ذلك.

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في وجوب الإسرار بالنصيحة ـ[٢]:

تَعَمَّدني بِنُصحِكَ في اِنفِرادي وَجَنِّبني النَصيحَةَ في الجَماعَه

---

(١) «شرح الأربعين النووية»، لابن عثيمين، شرح حديث: «الدين النصيحة».

(٢) «ديوان الإمام الشافعي»، ص٩٦.

فَإِنَّ النُصحَ بَينَ الناسِ نَوعٌ　　مِنَ التَوبيخِ لا أَرضى اِستِماعَه
وَإِن خالَفتَني وَعَصِيتَ قَولي　　فَلا تَجزَع إِذا لَم تُعطَ طاعَه

والتشهير بزلّات العلماء وأخطائهم على رؤوس الأشهاد بغرض التنقّص منهم يعتبر تتبعاً للعورات التي نهينا عن تتبعها.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «إذا كان مرادُ الرادِّ ـ على العالم ـ بذلك: إظهارَ عيب من ردَّ عليه، وتنقصه، وتبيين جهله وقصوره في العلم ونحو ذلك؛ كان محرماً سواء كان ردُّه لذلك في وجه من ردِّ عليه، أو في غيبته، وسواء كان في حياته، أو بعد موته.

وهذا داخلٌ فيما ذمَّه الله تعالى في كتابه، وتوعَّد عليه في الهمز واللمز.

وداخلٌ أيضاً في قول النبي ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه؛ لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»**[(١)].

وهذا كلّه في حق العلماء المقتدى بهم في الدين؛ فأما أهل البدع والضلالة، ومن تشبه بالعلماء وليس منهم؛ فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبهم تحذيراً من الاقتداء بهم»[(٢)].

وكان السلف رحمهم الله على جانب عظيم من التأدّب بهذا الأدب في النصيحة والموعظة.

فعن سفيان الثوري قال: «جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل، وعنده قوم فسارَّه بشيء، ثم انصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفت أمس وأنت تصلي»[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة، رقم (٤٢٣٦)؛ وقال الألباني: حسن صحيح، سنن أبي داود ٤/ ٢٧٠.

(٢) «الفرق بين النصيحة والتعيير»، ص٢٥.

(٣) رواه أبو حاتم البستي في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»، ص١٩٧. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

وقال يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخطأ عفان في نيف وعشرين حديثاً، ما أعلمت بها أحداً، وأعلمته سراً»[١].

* خامساً: مجالات وعظ العلماء:

للعلماء نصيبٌ من الوعظ العام؛ فهم مقصودون به كغيرهم من عامّة الناس، لذا كثر حضور العلماء لمجالس الوعظ العامة، لأجل الانتفاع والادّكار.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كانت جماعة من الأمراء والعلماء يحضرون عندهم ـ أي: الوعّاظ ـ ويسمعون منهم، ويبكون لوعظهم»[٢].

قال عبد الرحمٰن بن مهدي: «جلست مع سفيان الثوري في مسجد صالح المرِّي؛ فتكلم صالح؛ فرأيت سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم»[٣].

أمّا القصص الخاص؛ والذي يُراد به توجيه الموعظة والنصيحة للعالم بعينه، أو لصنف العلماء؛ على ما بدر منهم من تقصير، سواء كان التقصير علمياً، أو عملياً؛ فهو على نوعين:

أ ـ مواعظ لحثّ العلماء على تدارك الزلّات، وتصحيح الهفوات:

وهذه المواعظ تتعلّق بالجانب التعبدي والقلبي؛ إذ إنّ صلاح العالم له شأن كبير.

١ ـ التحذير من التقصير في بعض الواجبات، وأعمال البرّ:

عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس؛ وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة[٤]:

---

(١) «تاريخ دمشق» ٦٥/ ٢٨. (٢) «القصاص والمذكرين»، ص١٩٣.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ١٦٧. **قلت**: وإسناده حسن.
(٤) ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٤٤٩.

يا عابدَ الحرمَين لو أبصَرتَنا لعَلِمتَ أنّك في العبادَةِ تلعَبُ
من كان يخضِبُ خدّه بدموعِه فنُحورُنا بدمائِنا تَتَخَضَّبُ
أو كانَ يتعِبُ خيلهُ في باطل فخيولُنا يومَ الصبيحَةِ تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكُم ونحنُ عبيرُنا رهَجُ السنابكِ والغبارُ الأطيَبُ
ولقد أتانا من مقالِ نبيّنا قول صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي غبارُ خيل الله في أنف امرىءٍ ودخانُ نارٍ تلهبُ
هذا كتابُ الله ينطق بينَنا ليس الشهيدُ بمَيّتٍ لا يكذبُ

٢ ـ الوصية بإصلاح العبد فيما بينه وبين ربه:

عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: «كان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات ـ وتلقاهن بعضهم بعضاً ـ من عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[1].

٣ ـ الوصية بالجد والاجتهاد:

عن غنيم[2] قال: «كنا نتواعظ في أول الإسلام بأربع: قال: خذ بصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[3].

٤ ـ الوصية بالتقوى:

عن عاصم الأحول قال: «لقي بكر بن عبد الله طلق بن حبيب؛ فقال: صف لنا شيئاً من التقوى يسيراً نحفظه؛ قال: اعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، فالتقوى ترك معاصي الله، على نور الله، مخافة

(١) «الزهد لهناد» ١/ ٣٠٠.
(٢) غنيم بن قيس المازني الكعبي، أبو العنبر البصري؛ أدرك النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر بن الخطاب، وغزا مع عتبة بن غزوان، من كبار التابعين، وكان ثقة قليل الحديث، توفي سنة: ٩٠هـ؛ تهذيب الكمال ٢٣/ ١٢٠.
(٣) رواه هناد في «الزهد» ١/ ٢٨٨. **قلت**: وإسناده حسن.

عقاب الله»(١).

ب ـ مواعظ لحثّ العلماء على الدعوة والصبر، والإخلاص في بذل العلم:

١ ـ الوصية بالدعوة إلى الله تعالى:

عن الحسن: «أن أصحاب هرم بن حيان قالوا له: أوصنا! قال: أوصيكم بآخر سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] إلى آخر السورة»(٢).

٢ ـ الوصية بالإخلاص في العلم:

قال أبو يعلى الموصِلِي سمِعت أحمد بن حنبلٍ يقول: «خرجت فِي وجهِ الصّبحِ فإذا أنا برَجُلٍ مُسْبِلٍ مِنْدِيلَهُ على وَجْهِهِ؛ فناولنِي رُقْعَةً، فَلَمّا أضاء الصّبح قَرَأْتُها فإذا فِيها مكتُوبٌ:

عِشْ مُوسِراً إنْ شِئْتَ أَوْ مُعْسِراً ... لا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْغَمِّ
وَكُلَّمَا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ ... زَادَ الَّذِي زَادَكَ فِي الْهَمِّ
إنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ فِي عَصْرِنَا ... لا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلْعِلْمِ
إلا مُبَاهَاةً لأَصْحَابِهِمْ ... وَعُدَّةً لِلْخَصْمِ وَالظُّلْمِ

قال: فظننت أن محمد بن يحيى الذُّهْلِيُّ ناولنِي، فلقِيته فقلت له: الرُّقْعَةُ التِي ناولتنِي؟ فقال: ما رأيتك ما ناولتك رُقْعَةً، فعلِمتُ أنها عِظَةٌ لِي»(٣).

٣ ـ الوصية بالصبر في مقام الدعوة:

عنْ أحمد بنِ مروان قال: «كتب رجُلٌ مِن إخوانِ أحمد بنِ حنبلٍ إليهِ أيام المِحنةِ:

هَذِي الْخُطُوبُ سَتَنْتَهِي يَا أَحْمَدُ ... فَإِذَا جَزِعْتَ مِنْ الْخُطُوبِ فَمَنْ لَهَا

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٩٧. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) رواه هناد في «الزهد» ١/ ٢٩٣. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٣) الآداب الشرعية ٢/ ٥٩.

الصَّبْرُ يَقْطَعُ مَا تَرَى فَاصْبِرْ لَهَا ... فَعَسَى بِهَا أَنْ تَنْجَلِي وَلَعَلَّهَا

فأجابه أحمد:

صَبَّرْتَنِي وَوَعَظْتَنِي فَأَنَا لَهَا ... فَسَتَنْجَلِي بَلْ لا أَقُولُ لَعَلَّهَا
وَيَحُلُّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ عَقْدَهَا ... ثِقَةً بِهِ إِذْ كَانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا[١]

٤ ـ التحذير من اتّخاذ العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا:

عن أحمد بن جميل المروزي قال: «قيل لعبد الله بن المبارك إنّ إسماعيل ابن علية قد ولي الصدقات؛ فكتب إليه ابن المبارك:

يا جاعِلَ الدين لهُ بازِياً ... يصيدُ أموالَ المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدين
وصرتَ مجنوناً بها بعدَما ... كنتَ دواءً للمجانين
لا تبعِ الدين بدُنيا كما ... يفعَلُ ضلالُ الرهابين
أينَ رواياتُكَ فيما مَضى ... عن ابن عونٍ وابن سيرين
أين أحاديثُك والقولُ في ... لزومِ أبوابِ السلاطين
تقولُ أكرِهت وماذا كَذا ... زلّ حمارُ العلم في الطين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى»[٢].

وعن محمد بن حسان السمني قال: «شهدت الفضيل بن عياض، وجلس إليه سفيان بن عيينة، فتكلم الفضيل فقال: كنتم معشر العلماء سرج البلاد يستضاء بكم، فصرتم ظلمة وكنتم نجوماً يُهتدى بكم فصرتم حيرة، ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظلمة، ثم يسند ظهره يقول: حدثنا فلان عن فلان؛ فقال سفيان: لئن كنا لسنا بصالحين فإنّا نحبهم»[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٩.
(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» ٤/ ١٤٠.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٤١.

٥ ـ التحذير من مخالفة القول للعمل:

قال المتوكّل الليثي[(١)]:

يا أيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ ... هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ

تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا ... كيما يَصحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ

وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا ... أَبَداً وَأَنتَ مِنَ الرَّشادِ عَديمُ

فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها ... فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ

فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيَهتَدي ... بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتأتيَ مِثلَهُ ... عارٌ عَلَيكَ إذا فعلتَ عَظيمُ[(٢)]

٦ ـ التحذير من سوء الخلق والمعاملة:

عن أبي عوانة قال: «جاء رقبة إلى الأعمش فسأله عن شيء فكلَّح في وجهه، فقال له رقبة: أما والله ما علمتك لدائم القطوب، سريع الملال، مستخفاً بحق الزور، لكأنما تسعط الخردل[(٣)] إذا سُئِلتَ الحكمة»[(٤)].

٧ ـ التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كتب مالك بن أنس إلى العمري: «إنك بدوت فلو كنت عند مسجد رسول الله ﷺ.

فكتب: إني أكره مجاورة مثلك؛ إنَّ الله لم يرك متغير الوجه فيه ساعة قط.

قال الذهبي: «هذا على سبيل المبالغة في الوعظ، وإلّا فما لك من

---

(١) المتوكل بن عبد الله بن نهشل أبو جهمة الكوفي، من شعراء الإسلام، توفي سنة: ٨٥هـ؛ «الأغاني» ١٢/ ١٨٧.

(٢) «المستطرف في كل فن مستظرف» ١/ ٤٨.

(٣) أي: كأنما تضع الخردل في أنفك، وهذا كناية على شدة تمعّره؛ لسان العرب ٧/ ٣١٤، مادة: «سعط».

(٤) رواه ابن الجعد في مسنده ١/ ١٢٦؛ وأبو بكر البغدادي في «شرف أصحاب الحديث»، ص١٣٢. **قلت**: وإسناده حسن.

أَقْوَالِ العلماء بالحق، ومن أشدهم تغيراً في رؤية المنكر»[١].

* **سادساً: أهمية وعظ العلماء:**

أردف النبي ﷺ النصيحة لله ولرسوله ولكتابه بالنصيحة لأئمة المسلمين، وهم أئمة البيان وأئمة السلطان، للدلالة على أهمية وعظ العلماء ونصحهم، وتتجلَّى هذه الأهمية من خلال:

١ ـ إنّ صلاح العلماء هو صلاح لعامة الناس؛ لأنّ العلماء هم الهداة المرشدون، الذين يستضاء بعلمهم ودعوتهم، وهم محلّ القدوة والأسوة، فإذا فسد هؤلاء فمن يصلح الناس؛ وقد قال بعضهم: «يا معشر العلماء! يا ملح البلد، ما يصلح الملح إذا الملح فسد؟»[٢].

٢ ـ إنّ تقصير العلماء في تبليغ الأمانة التي حمِّلوا إياها، سبب في هلاك الأمم وضياعها، إذ إنّ العلماء هم الآمرون بالمعروف حقاً والناهون عن المنكر حقاً.

فتنبيه الواعظ لهؤلاء العلماء على ضرورة أداء الأمانة وتبليغ الرسالة فيه خير للأمة جميعاً؛ وقد قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الإمام الآجري رحمه الله في ضرورة صلاح العالم وعظيم أثره في الناس:

«فما ظنّكم ـ رحمكم الله ـ بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه ضياءٌ وإلّا تحيّروا، فقيَّض الله لهم مصابيح تضيء لهم فسلكوه على السلامة والعافية. . . فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة فما ظنّكم بهم؟.

هكذا العلماء في الناس»[٣].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» ٨/ ٣٧٨.
(٢) «إحياء علوم الدين» ١/ ٦١.
(٣) «أخلاق العلماء»، للآجري ص٩٦.

المطلب الثالث

العصاة والمذنبون من المؤمنين

* أوّلاً: المقصود بعصاة المؤمنين:

العصاة: جمع عاص، مشتق من العِصيانُ والمَعصية. يقال: عَصَى، وهو عاصٍ، والجمع عُصاة وعَاصون. والعاصي: الفَصِيل إذا عَصَى أُمَّه في اتِّباعها؛ والعِصْيانُ: خلاف الطاعة[١].

والعصاة: هم طائفة من المسلمين[٢] ممن شهدوا لله بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة، وأقاموا شرائع الدين التي لا يتمّ إلّا بها، ولم يجحدوا شيئاً من شريعة الله تعالى، ولكن الشيطان والهوى غلبا عليهم؛ فخالفوا بعض ما أمر الله به فتركوه، وبعض ما نهى الله عنه ففعلوه، بشيء لا يخرجهم عن دائرة الإسلام، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي والآثام؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢][٣].

* ثانياً: السمات العامة لعصاة المؤمنين:

للعصاة سمات وخصائص تميزهم عن غيرهم، ومتى عرف الواعظ هذه السمات وأحاط بها علماً؛ سَهُلَ عليه دعوة العصاة ووعظهم، واختيار الأسلوب الأنفع لهم.

---

(١) «لسان العرب» ١٥/ ٦٧، مادة: «عصا».

(٢) وهذا هو معتقد أهل السنّة والجماعة في عصاة المسلمين، وفيمن اجترح الكبائر منهم، خلافاً للخوارج القائلين بكفر مرتكب الكبيرة وخلوده في النار، والمعتزلة القائلين بوجوده بين المنزلتين في الدنيا وخلوده في النار في الآخرة. **انظر:** شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٢٧.

(٣) **انظر:** «أصول الدعوة»، لعبد الكريم زيدان، ص٣٩١.

ومن أبرز هذه السمات، ما يلي:

١ ـ سلامة الفطرة:

إنّ الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ وما زالت دواعي هذه الفطرة تقود الإنسان إلى الخير مهما غشي القلوب من رين الذنوب والمعاصي.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وهذه الفطرة لا يخبو نورها إلّا باجتيال الشياطين، وتبدّل الدين؛ كما جاء في حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربّه: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم؛ وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[(١)].

وسلامة فطرة العاصي تسهّل على الواعظ مخاطبة قلبه ومكامن الخير في نفسه، ومن هنا يُعلم سرّ استجابة العصاة للمواعظ والتذكير.

٢ ـ قبول الحق، وسرعة الاستجابة له:

إنّ العاصي قد يعمى عن الحق والصواب، ولكن إذا عرفه سارع إلى الاستجابة، فلم يصدّه عن امتثال الحق جحود ولا عناد، ولكن جهل بماهية الحق ومنافعه.

ولهذا يحمل الواعظ همّ تعريف العصاة على الخير ومنافعه، والشر ومضارّه، فيجمع في حقِّ العصاة بين وعظ التعليم، ووعظ التأديب.

وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ عند حديثه عن مراتب الخلق في الدعوة ـ: «وآخرون يعترفون بالحق؛ لكن لهم أهواء

(١) رواه مسلم في صحيحه ٤/٢١٩٧، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٥١٠٩).

تصدّهم عن اتباعه؛ فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق، والترهيب من الباطل»[(١)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند حديثه عن حال المدعو ـ: «. . .وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضدِّ الحق، ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب»[(٢)].

والعاصي لا تزال نفسه تؤنّبه ـ ما دام مسلماً ـ على فعل تلك المعاصي؛ لأن المسلم بما عليه من الإسلام لا يقرّ نفسه على المعصية؛ بل تجد في نفسه بغضاً للمعصية.

هذه الخصلة التي في قلب ذاك العاصي هي التي ينبغي أن يُنظر إليها، وأن تعظم في نفسه وأن يحبب إليه الخير من جرّاء تلك.

٣ ـ **وجود نوع غفلة عند العصاة:**

إنّ من شأن الذنوب والمعاصي أن تجعل في صاحبها نوع غفلة عن ذكر الله تعالى، وعن اتباع الحقّ، ولكن إذا نبّه صاحب هذه الحال بأنواع الزواجر والمرهبات استيقظ من غفلته، وسارع إلى الاستجابة والقبول.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند حديثه عن مراتب الخلق ـ: «. . . والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر؛ يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة»[(٣)].

* ثالثاً: ضرورة تعرّف الواعظ على أنواع المعاصي وأسبابها:

ليس من الحكمة أن يسعى الواعظ إلى دعوة العصاة وعلاجهم، وهو يجهل أنواع أدواءهم ومسببات ذلك؛ إذ الواعظ بمنزلة الطبيب الذي يعالج الأسقام؛ فالطبيب الحاذق لا يصف الدواء إلّا بعد تشخيص الداء ومعرفة أسبابه، وكذا الشأن بالنسبة للواعظ؛ فإذا عرف أنواع هذه الأدواء وأحاط

(١) «مجموع الفتاوى» ١٩/ ١٦٤.
(٢) «الصواعق المرسلة» ٤/ ١٢٧٦.
(٣) «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٥٣.

بمسبباتها؛ سهل عليه اختيار الأسلوب الأنفع لعلاج هذه المعصية.

أ ـ أنواع المعاصي:

هناك تقسيمات نافعة، تُعرف من خلالها أصول الذنوب، وما يمكن أن يدخل تحتها من آحاد الذنوب وأفرادها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل الذنوب نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب.

وباعتبار مُتعلَّقه إلى حق الله، وحق خلقه، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقاً للخلق لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم»[(١)].

ثم شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقسيم هذه الذنوب إلى قسمة أخرى فقال: «ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسَبُعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك».

١ ـ الذنوب الملكية أو الربوبية: وهي أن يتعاطى الإنسان ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والفخر، والجبروت، والعلو في الأرض، ومحبة استعباد الخلق، ونحو ذلك.

٢ ـ الذنوب الشيطانية: وهي ما كان في صاحبها شَبهٌ من الشيطان، ويدخل تحت ذلك الحسدُ، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بالفساد، وتحسين المعاصي، والنهي عن الطاعات وتهجينها.

٣ ـ الذنوب السَبُعية: ومنها يتشعب الغضب، وسفك الدماء، والحقد، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، والقتل.

٤ ـ الذنوب البهيمية: ومنها يتشعب الشَّرَهُ، والكَلَبُ، والحرص على

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، لابن القيم، ص٨٦.

قضاء شهوة الفرج والبطن، ومنها يتولد الزنا واللواط، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وجمع الحطام لأجل الشهوات، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السَبُعية والملكية»[1].

• تقسيم آخر للمعاصي:

ويمكن أن تقسَّم الذنوب والمعاصي إلى قسمة أخرى، وهي أن يقال: إن الذنوب تنقسم إلى كبائر، وصغائر.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها؛ فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة.

وهذا ضعيف؛ إذ قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، وقال ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»**[2].

- واخْتُلِفَ في تحديد الكبائر وحصرها[3]:

فمن العلماء من حصرها في عدد محدود، فقيل: هي أربع، وقيل: سبع، وقيل: تسع، وقيل: إحدى عشرة.

ومن العلماء من حصرها بالوصف، ومن جملة ما قيل في ذلك:

١ - ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن، أو غضب، أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء فهو صغيرة.

---

(١) «الجواب الكافي»، ص٨٦.

(٢) رواه مسلم ١/٢٠٩، كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، رقم (٣٤٤).

(٣) **انظر**: إحياء علوم الدين ٤/١٧؛ والجواب الكافي ص٨٧.

٢ ـ وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة[١].

٣ ـ وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

ب ـ أسباب المعاصي:

العاصي لا يقدم على المعصية، والمجرم لا يفعل الجريمة حين يفعلها، إلّا وهو واقع تحت تأثير عوامل ودوافع ذاتية، وأخرى خارجية، تقوده إلى تزيين الشر والجريمة، وتحبب له العصيان والانحراف، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ويستطيع الواعظ من خلال معرفته لأسباب المعاصي ودوافعها أن يقتلع جذورها في مهدها، قبل انتشارها واستفحالها، وهذا يُعَدُّ أسلوباً وقائياً ناجعاً.

ومن أعظم مسببات المعاصي ودوافعها:

١ ـ جهل العاصي:

العاصي جاهل قطعاً، فلولا جهله لما عصى الله تعالى. قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧].

قال مجاهد وغير واحد من أهل العلم: «كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد؛ فإنه لو رأى صبياً يتطلّع عليه من كُوَّة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة؛

(١) وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ١١/ ٦٥٠؛ وقال: «إنه أمثل الأقوال في هذه المسألة».

(٢) «شعب الإيمان»، للبيهقي ٥/ ٤٠٠.

فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه، ورؤيته له، وعقابه على الذنب، وتحريمه له، وسوء عاقبته.

فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه؛ فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادراً عن جهل، وغفلة، ونسيان مضاد للعلم.

والذنب محفوف بجهلين:

- جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه.
- وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه.

وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فما عصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم(١).

٢ ـ ضعف الإيمان، وطول الأمل:

إنَّ الإيمان قد يضعف في قلب المسلم فتغلبه شهوته، ويقبل إغراء الشيطان فيرتكب المعصية؛ لأن العقاب على الذنوب شيء موعود به في الآخرة، ولذائذ الدنيا المحرمة شيء حاضر، والنفس مجبولة على التأثر بالحاضر لا بالغائب، وإن كانت عاقبة الحاضر مرة، وعاقبة الغائب حلوة، ولا يمنعها من هذا التأثر إلا الإيمان القوي المنير الذي يجعل الغائب كالحاضر فيكون التأثر به لا بالحاضر المحسوس فعلاً.

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] فالإنسان بطبيعته يؤثر اللذة العاجلة وإن كانت تافهة؛ على اللذة الآجلة وإن كانت جسيمة، ومع ضعف الإيمان يقوى هذا الطبع وهذه الجبلة في الإنسان، فيستسهل ارتكاب المخالفة ابتغاء اللذة العاجلة، أو دفع المشقة العاجلة، لا سيما مع أمل البقاء والتوبة في المستقبل وتسكين النفس بأمل عفو الله تعالى(٢).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٩٠.

(٢) «أصول الدعوة»، لعبد الكريم زيدان، ص٤٠٦.

قال القاسم بن عثمان الجوعي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل المعاصي طول الأمل»[٢].

* رابعاً: ضوابط وعظ العصاة والمذنبين:

قد يحمل بُغْضُ الواعظ للمعاصي والآثام على زبر العصاة والتثريب عليهم، وإظهار الفظاظة والقسوة تجاههم؛ وفي هذا خروج عن منهج السلف رحمهم الله في التعامل مع العصاة ووعظهم وتذكيرهم، وفيما يلي عرضٌ لأبرز ضوابط وعظ العصاة عند السلف:

١ ـ الرفق بالعصاة، ورحمتهم، والشفقة عليهم:

الواعظ ينظر إلى العصاة نظرة إشفاق ورحمة؛ فهو يراهم كالواقفين على حافة وادٍ عميقٍ سحيقٍ في ليلة ظلماء؛ يخاف عليهم من السقوط، ويعمل جهده لتخليصهم من الهلاك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف حال المسلم حين ينظر إلى العاصي[٣]:

واجعل لقلبك مقلتين كلاهما — من خشية الرحمٰن باكيتان

لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم — فالقلب بين أصابع الرحمٰن

فينظر الواعظ إلى العاصي نظرين:

النظر الأول: نظر رحمة وشفقة؛ فيرحمه أن كان من العصاة، ويرحمه أن كان أسيراً لشهوته، أسيراً للشيطان؛ مستعبداً له؛ لأن طاعة الشيطان نوع من العبودية كما قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

النظر الثاني: أن ينظر إلى العاصي بنظر الحكم الشرعي، ونظر الأمر والنهي؛ فيحمله على الأوامر، ويحمله على البعد عن النواهي.

---

(١) القاسم بن عثمان أبو عبد الملك العبدي الدمشقي المعروف بالجوعي، الإمام القدوة المحدث، توفي سنة: ٢٤٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٢/٧٧.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/٣٢٣. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) «شرح قصيدة ابن القيم» لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ١/١٣١.

وإذا وقر في قلب الواعظ الخوف من تقلب الحال والقلوب؛ كانت النتيجة النظر بعين الرحمة والرأفة إلى كل من تلبس بمعصية أو زلة، فإن الزلات والمعاصي قريبة من العبد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

ومن سلم منها فبرحمة الله وفضله، ومن وقع فيها فلأن الله وكله إلى نفسه، فإذا فُهِمَ هذا؛ فالواجب على الواعظ أن يخاف الزلة والانتكاسة، وأن يقبل على المذنبين بقلب رؤوف ليستنقذهم من الزلة، ويرفعهم من المحنة.

٢ ـ التواضع وعدم التعالي على العصاة:

«لا ينبغي للواعظ؛ بل لا يجوز له أن يتعاظم على العصاة، وأن ينظر نفسه فوقهم، وأن أولئك من حالهم كذا وكذا، وهو حاله حال أهل الطاعة وينظر إلى نفسه، ويجعل نفسه متعالياً على أولئك الذين عصوا، لا؛ بل كما قال الله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [النساء: ٩٤]»[1].

٣ ـ الحرص على هداية العاصي، وعدم اليأس من ذلك:

قد يحرص الواعظ على وعظ العصاة أياً كانت معاصيهم في بادئ الأمر، فإذا رأى من أحدهم إعراضاً عن النصح، وصدوداً عن الخير، وتمادياً في الغواية أيس من هدايته، وأقصر عن نصحه، وربما جزم بأن الله لن يغفر له، ولن يهديه سواء السبيل.

وهذا الصنيع لا يصدر من ذي علم وبصيرة وحكمة؛ فمن ذا الذي أخبر هذا الواعظ بأن الله لن يغفر لذلك العاصي؟ وما الذي سوغ له أن يحجر رحمة الله ﷻ.

---

(١) من شريط للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، بعنوان: «الأصول الشرعية للتعامل مع النّاس».

ثم كم من الناس من يتمادون في الغواية والإجرام، حتى يُظنَّ أنهم يموتون على ذلك، ثم يتداركهم الرحمٰن الرحيم بنفحة من نفحاته، فإذا هم من الأبرار الأخيار.

ولهذا جاء في صحيح مسلم عن جندب ﵁ أن رسول الله ﷺ: **«حدَّثَ أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإنّ الله تعالى قال: من ذا الذي يتألَّى عليَّ[1] أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك»**[2].

٤ ـ ترك الشماتة بالعصاة والمذنبين:

من الوعّاظ من إذا رأى مبتلى بمعصية من المعاصي أخذ يشمت به، وينتقصه، ويذمه.

وما هذا المسلك برشيد؛ إذ هو من الغيبة المحرمة، ومن تزكية النفس بذم الآخرين.

ويُخشى على من كانت هذه حاله أن يبتلى بمثل ما ابتلي به من سخر منه.

فاللائق بالواعظ أن يكون أرجى الناس للناس، وأخوف الناس على نفسه.

قال ابن مسعود ﵁: «لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوَّل كلباً»[3].

وقال أبو حازم سلمة بن دينار ﵀: «أفضل خصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشد الناس خوفاً على نفسه، وأرجاه لكل مسلم»[4].

---

(١) يتألى عليَّ: أي يقسم ويحلف. **انظر**: شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ١٧٤.

(٢) رواه مسلم ٤/ ٢٠٢٣، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله، رقم (٤٧٥٣).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد»، ص٢٥٧. **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله»، ص٩٧؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٣٣ **قلت**: وإسناده صحيح.

٥ ـ عدم التثريب[١] على العصاة والمذنبين:

إنّ الواعظ إذا زبر العاصين بعنف، وبالغ في التثريب فإنما يكون عوناً للشيطان، ومثله كمثل إنسان رأى أحدهم وقد اجتمع عليه ثلاثة نفر يضربونه من كل ناحية؛ فبدلاً من أن يمنعهم من العدوان صار رابعهم المعين لهم.

إن العاصي محتاج إلى من يقف معه في معركته مع الشيطان وجنده، وليس بحاجة إلى من يقف مع الشيطان.

وقد كان رسول الله ﷺ في كل مناسبة يبين هذه القاعدة المهمة في التعامل مع العصاة.

فقد كان رجل يؤتى به كثيراً ليجلد في شرب الخمر، فأتي به مرة فقال رجل: «**لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: لا تلعنوه، فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**»[٢]، فقد شهد له بالإيمان ليحملهم على محبته، ومنعهم من لعنه؛ لأنه ليس كل معصية تستحق اللعنة، ولأن من الممكن أن تجتمع الحسنات والسيئات والثواب والعقاب في الشخص الواحد، وهذا قول الصحابة وأئمة الإسلام، الذين يقولون بعدم خلود صاحب الكبيرة في النار إن دخلها[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر**»[٤].

---

(١) التثريب هو: «التوبيخ واللوم على الذنب» شرح صحيح مسلم للنووي ١١/ ٢١١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٦/ ٢٤٨٩، كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة، رقم (٦٢٨٢).

(٣) **انظر**: مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٢.

(٤) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٥٠٩، كتاب: البيوع، باب: بيع العبد الزاني، رقم (٢٠٠٨)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/ ١٣٢٨، كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم (٣٢١٥).

● **حكم لعن[١] العاصي:**

١ ـ لعن المسلم العاصي المعين:

ذكر ابن العربي أنه لا يجوز لعن العاصي المعين اتفاقاً[٢]؛ واستدل بقصة النهي عن لعن شارب الخمر الآنفة الذكر[٣].

٢ ـ اللعن بالأوصاف العامة:

مثل لعنة الله على الظالمين ولعنة الله على الفاسقين والكاذبين، والفسقة، والمبتدعة، وغير ذلك من أوصاف العموم، فهذا جائز لا خلاف فيه لأن الله ﷻ قد لعن الظالمين، والفاسقين، والكاذبين بدون تعين، وكذلك الرسول ﷺ لعن السارق، وآكل الربا، والراشي بدون تعين أحد بعينه.

قال النووي رحمه الله: «ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة، كقولك: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين. . . .»[٤].

٦ ـ تنويع أساليب الوعظ:

ينبغي للواعظ أن لا يقتصر على جانب الترهيب والتخويف في وعظ العصاة؛ لأنّ من شأن الاقتصار على هذا الأسلوب أن يقنّط العاصي من رحمة الله ﷻ.

ولكن يُوْعَظُ العاصي ويخوّف، ويذكّر بالله تعالى، وعقابه للعاصين، وثوابه للطائعين، وإقباله ورحمته لهم، وتورد عليه الأخبار والقصص الواردة في ذلك، وتذكر له سيرة السلف الصالح من عباده المتقين؛ ليعتبر ويتأسى بهم.

وقد سبق تفصيل هذه الأساليب عند الحديث عن أساليب الوعظ عند السلف رحمهم الله، بما لا مزيد عليه هنا، فلينظر في محلّه[٥].

---

(١) لعن العاصي له معنيان: الأول: الدعاء عليه باللعن، والثاني: سبه وشتمه.
(٢) «أحكام القرآن»، لابن العربي ١/ ٥٠. (٣) **انظر**: ص٧١٩ من هذا البحث.
(٤) «الأذكار»، للنووي، ص٥٠٦. (٥) **انظر**: ص٢٧٥ من هذا البحث.

*** خامساً: مجالات وعظ العصاة:**

إنّ الله ﷿ لم يكتب العصمة إلّا للأنبياء فيما يبلغونه من شريعة الله تعالى؛ واقتضت سنة الله جلّ وعلا أن يتلبّس كلّ إنسان بالخطيئة والذنب على تفاوت بين مقلٍّ ومكثر.

فعن أنس ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم خَطَّاء؛ وخير الخطَّائين التوابون**»(١).

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ العصاة هم أوسع أصناف الموعوظين؛ بل إنّ الأصل في الموعظة أن توجّه للعصاة والمذنبين، كما قال ابن القيم ﵀(٢).

وعليه فإنّ ميدان وعظ العصاة رحبٌ واسعٌ، وحسبي أن أذكر هنا معالم مجالات وعظ العصاة والمذنبين؛ وهي تدور في مجملها حول ثلاثة معالم:

١ ـ التحذير من الذنوب، وبيان مضارها:

كثرت مواعظ السلف رحمهم الله المحذِّرة من الذنوب، والمبيِّنة لعظم خطرها، وجسامة ضررها على العبد في دينه ودنياه.

وتحذير السلف رحمهم الله من الذنوب يأتي على نوعين:

أ ـ التحذير من جنس الذنوب:

دون تحديد لنوع معيَّن من الذنوب والآثام؛ وشأن هذا التحذير أن ينتفع به كلّ مذنب وعاصٍ على اختلاف الذنب الذي اقترفه.

ومن نماذج ذلك؛ قول ابن السماك ﵀ ـ محذراً من الذنوب والمعاصي ـ(٣):

(١) رواه الترمذي ٤/ ٦٥٩، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (٢٤٢٣)، واللفظ له؛ وابن ماجه ٢/ ١٤٢٠، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم (٤٢٤١)؛ وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣١٣٩).

(٢) «الجواب الكافي»، ص٨٦.

(٣) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ص١٦٢.

يا مدمن الذنب أما تستحي والله في الخلوة ثانيكا
أغرك من ربك إمهاله وستره طول مساويكا

ـ وقال رجل لوهب بن الورد رحمه الله: «عظني! فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك»(١).

ـ وقال بعض السلف رحمهم الله: «ابن آدم! إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عيني ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته، ولم تستحِ منه حياءك من بعض خلقه.

ما أنت إلّا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه»(٢).

ب ـ التحذير من آحاد الذنوب(٣):

وهي كثيرة جداً؛ سبق الإشارة إلى أنواعها وأقسامها(٤)، وتكون الموعظة ها هنا بحسب ما يراه الواعظ من الذنوب الظاهرة التي يتلبّس بها آحاد الناس أو عمومهم.

والمواعظ في هذا الشأن كثيرة جداً، نذكر منها بعض النماذج تمثيلاً.

يقول كعب الأحبار رحمه الله ـ في التحذير من عقوق الوالدين ـ: «إن الله لَيُعَجِّلُ هلاك العبد إذا كان عاقاً لوالديه لِيُعَجِّلَ له العذاب، وإن الله ليزيد في عمر العبد إذا كان باراً بوالديه ليزيده براً وخيراً»(٥).

ـ «ورأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها؛ فقال: إنّ الله يراكما سترنا الله وإياكما»(٦).

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٤٢. **قلت**: وإسناده حسن.
(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ص١٦٢.
(٣) ألفت كتبٌ مستقلة في التحذير من آحاد الذنوب، ككتاب: «الكبائر»، للذهبي؛ و«الزواجر»، لابن حجر.
(٤) **انظر**: ص٧١٢ من هذا البحث.
(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٧٨. **قلت**: وإسناده صحيح.
(٦) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ص١٦٢.

ـ ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في التحذير من الزنا، وهتك حرمات المسلمين ـ[(١)]:

عُفّوا تَعُفُّ نِساؤُكُم في المَحرَمِ | وَتَجَنَّبوا ما لا يَليقُ بِمُسلِمِ
إِنَّ الزِنا دَينٌ فَإِن أَقرَضتَهُ | كانَ الوَفا مِن أَهلِ بَيتِكَ فَاِعلَمِ
يا هاتِكاً حُرَمَ الرِجالِ وَقاطِعاً | سُبُلَ المَوَدَّةِ عِشتَ غَيرَ مُكَرَّمِ
لَو كُنتَ حُرّاً مِن سُلالَةِ ماجِدٍ | ما كُنتَ هَتّاكاً لِحُرمَةِ مُسلِمِ
مَن يَزنِ يُزنَ بِهِ وَلَو بِجِدارِهِ | إِن كُنتَ يا هَذا لَبيباً فَاِفهَمِ

● **بيان مضار الذنوب:**

إنّ التحذير من الذنوب لا يؤتي ثماره ما لم يكن مقروناً ببيان الآثار الوخيمة والمضار الجسيمة للذنوب والمعاصي، فالذنوب هي أصل البلايا والشرور في الدنيا والآخرة.

ومعرفة العبد بمضار الذنوب والمعاصي هو من أعظم سبل الوقاية وأنجع طرق الحمية.

وأشار الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى جملة من مضار الذنوب والآثام، فذكر منها[(٢)]:

ـ حرمان العلم والرزق، والوحشةُ التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

ـ ومنها: تعسير الأمور، وظلمة القلب، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق بركاته.

ـ ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، وتُقَوِّي في القلب إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب بالكلية، فيستمرئ صاحبها المعصية، وينسلخ من استقباحها.

ـ ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وأن شؤمها لا يقتصر

---

(١) «ديوان الإمام الشافعي»، ص١٣٤.
(٢) «الجواب الكافي»، ص٣٨.

على العاصي، بل يعود على غيره من الناس والدواب.

- ومنها: أن المعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتدخل العبد تحت اللعنة، وتحرمه من دعوة الرسول ﷺ، ودعوة الملائكة، ودعوة المؤمنين.

- كما أنها تطفئ نار الغيرة من القلب، وتذهب الحياء، وتضعف في القلب تعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله لعبده، وتخْليته بينه وبين نفسه وشيطانه.

- ومنها: أن تنزل الرعب في قلب العاصي، وتعمي قلبه، وتسقط منزلته، وتسلبه أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذل والصغار، وتجعله من السفلة بعد أن كان مُهَيّأً لأن يكون من العِلْية، وتجرئ عليه شياطين الجن والإنس؛ إلى غير ذلك من أضرار المعاصي، التي إذا استحضرها العاقل كان حرياً به أن يقلع عنها، ويحذر منها.

فالواجب على الواعظ أن يقرن التحذير من المعاصي ببيان هذه الأضرار العظيمة والجسيمة للمعاصي جملة؛ وإن كان لكلّ معصية مضارٌ تنفرد بها عن غيرها من المعاصي.

٢ ـ الترغيب في التوبة، وبيان فضائلها:

للتوبة فضائل جمة، وأسرار بديعة، وفوائد متعددة؛ فينبغي للواعظ أن ينبّه عموم العصاة إلى هذه الفضائل حتى يرغّبهم في التوبة والإنابة لله تعالى؛ ومن هذه الفوائد[1]:

أ ـ التوبة سبب للفلاح: قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة؛ فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله،

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ٣٠١؛ و«مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٨٦.

وترك ما نهيا عنه»[(١)].

ب ـ بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

ج ـ بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات، وذلك فضل من الله، وتكرم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة»[(٢)].

د ـ التوبة سبب للمتاع الحسن: قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

هـ ـ التوبة سبب لنزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين: قال تعالى على لسان هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

و ـ أن الله يفرح بتوبة التائبين: فللتوبة عنده عَزَّ وَجَلَّ منزلة ليست لغيرها من الطاعات؛ ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يُقَدَّر كما مَثَّله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدَّوِيَّة المهلكة بعدما فقدها وأيس من أسباب الحياة.

فعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «**لله أفرح بتوبة عبده؛ من**

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧٦.

(٢) «مدارج السالكين» ١/ ٣٠١.

رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه؛ فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتدَّ عليه الحر والعطش أو ما شاء الله؛ قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده»(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبِه، ومزيدُه لا يُعبَّر عنه»(٢).

ز ـ التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدون التوبة: فتوجب له المحبة، والرقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه؛ فَرُتِّب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها أو يفسدها.

ك ـ التوبة سبيل لإغاظة الشيطان ومراغمته: فالقلب يذهل عن عدوه؛ فإذا أصابه منه مكروه استجمعت له قوته، وطلب بثأره إن كان قلبه حُرّاً كريماً؛ كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجاً، طالباً، مقداماً.

والله عز وجل يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظَه.

وهذه العبودية من أسرار التوبة؛ فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة، وحصول محبوب الله من التوبة وما يتبعها من زيادة الأعمال ما يوجب جعلَ مكانِ السيئةِ حسنةً، بل حسنات.

٣ ـ دحض شبهات العصاة:

إنّ الشيطان قد يُلْبِس على العصاة من هذه الأمَّة، ويلقي في روعهم

---

(١) متفق عليه، البخاري ٥/٢٣٢٥، كتاب: الدعوات، باب: التوبة، رقم (٥٨٣٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/٢٠٩٩، كتاب: التوبة، باب: في الحظ على التوبة والفرح بها، رقم (٤٩٢٩).

(٢) «مدارج السالكين» ١/٢٩٧.

أنهم ممَّن كتب عليهم الشقاء، وأن لا سبيل لتوبتهم واستقامتهم، سعياً منه لتقنيطهم من رحمة الله، وسعة عفوه، وواسع كرمه وجوده.

والواجب على الوعّاظ أن يزيلوا هذه الشبه من نفوس العصاة، وأن يفتحوا لهم باب الأمل والرجاء في الله تعالى، فإنّ هذا من أعظم الأسباب في استقامة العصاة وإنابتهم.

ومن بين هذه الشبه التي قد ترد على العصاة والمذنبين:

أ ـ القنوط من رحمة الله تعالى، واليأس من التوبة:

قد تتعاظم ذنوب العبد في نفسه، وكلما رام التوبة عاد للذنب ورجع، فيحمله ذلك إلى اليأس من التوبة والإنابة، وهذا تلبيس من إبليس، وهو مردود مدحور من وجوه كثيرة:

ـ منها: أن باب التوبة مفتوح مهما عظمت الذنوب وكثرت، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال تعالى في حق أصحاب الأخدود الذين خدّوا الأخاديد لتعذيب المؤمنين وتحريقهم بالنار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»(١).

ـ ومنها: أن الله حذر من القنوط من رحمته: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٥.

أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة ٧٤].

ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء؛ من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في الآية السابقة آية الزمر: «المقصود بها النهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يَقْنَط من رحمة الله، ولا أن يُقَنِّط الناس من رحمته؛ لذا قال بعض السلف: وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيّس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله»[(٢)].

ب ـ تأجيل التوبة:

فمن الناس من يدرك خطأه، ويعلم حرمة ما يقع فيه، ولكنه يؤجل التوبة، ويسوف فيها؛ فمنهم من يؤخرها إلى ما بعد الزواج، ومنهم من يؤجلها ريثما تتقدم به السن، إلى غير ذلك من دواعي التأجيل.

قال ابن القيم رحمه الله: «المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها؛ فمتى أخّرها عصى بالتأخر، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة؛ وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»[(٣)].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «يا بطَّال إلى كم تُؤخر التوبة وما أنت في التأخير معذور؟ إلى متى يقال عنك: مفتون مغرور؟ يا مسكين! قد انقضت

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٦٠.
(٢) «مجموع الفتاوى» ١٦/ ١٩.
(٣) «مدارج السالكين» ١/ ٢٧٢.

أشهر الخير وأنت تعد الشهور، أترى مقبول أنت أم مطرود؟ أترى مواصل أنت أم مهجور؟ أترى تركبُ النُّجبَ غداً أم أنت على وجهك مجرور؟ أترى من أهل الجحيم أنت أم من أرباب القصور»(١).

ج ـ ترك التوبة؛ مخافة الرجوع للذنوب:

فمن الناس من يرغب في التوبة، ولكنه لا يبادر إليها؛ مخافة أن يعاود الذنب مرة أخرى.

وهذا خطأ؛ فعلى العبد أن يتوب إلى الله، فلربما أدركه الأجل وهو لم ينقض توبته.

كما عليه أن يحسن ظنه بربه جل وعلا ويعلم أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه، وأنه تعالى عند ظن عبده به.

ثم إن على التائب إذا عاد إلى الذنب أن يجدد التوبة مرة أخرى وهكذا...

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: **«أذنب عَبْدٌ ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب؛ فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب؛ ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب؛ اعمل ما شئت فقد غفرت لك»**(٢).

قال النووي رحمه الله في معنى الحديث: «قوله عز وجل للذي تكرر ذنبه: **«اعمل ما شئت؛ فقد غفرت لك»** معناه: ما دمت تذنب، ثم تتوب غفرت لك»(٣).

---

(١) «بحر الدموع»، لابن الجوزي، ص٥٧.
(٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/٢١١٢، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٤٩٥٣).
(٣) «شرح صحيح مسلم»، للنووي ١٧/٧٥.

د ـ التمادي في الذنوب؛ اعتماداً على سعة رحمة الله:

فمن الناس من يسرف في المعاصي، فإذا زجر، وليم على ذلك قال: إن الله غفور رحيم، كما قال أحدهم:

وكَثِّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم[1]

ولا ريب أن هذا الصنيع سفه، وجهل، وغرور؛ فرحمة الله قريب من المحسنين لا من المسيئين، المفرطين المعاندين، المصرين.

ثم إن الله ﷻ مع عفوه، وسعة رحمته شديد العقاب، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين؛ قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت عتبة الغلام وهو في يوم شديد الحر، وهو يرشح عرقاً، فقلت له: ما الذي أوقفك في هذا الموضع؟

فقال: هذا موضع عصيت الله فيه، وأنشد يقول:

أتفرح بالذنوب وبالمعاصي وتنسى يوم يؤخذ بالنواصي
وتأتي الذنب عمداً لا تبالي ورب العالمين عليك حاصي[2]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن المتمادين في الذنوب اتكالاً على رحمة الله: «وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص الرجاء واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته، ونصوص الرجاء».

ثم قال بعد ذلك: «وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما على انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّى إحسان الظن»[3].

هـ ـ الاغترار بإمهال الله للمسيئين:

فمن الناس من يسرف على نفسه بالمعاصي؛ فإذا نصح عنها، وحُذِّر

---

(١) «الجواب الكافي»، ص١٢.
(٢) ذكره ابن الجوزي في «الزهر الفاتح فيمن تنزّه عن الذنوب والقبائح»، ص٩٦.
(٣) «الجواب الكافي»، ص١٥.

من عاقبتها قال: ما بالنا نرى أقواماً قد امتلأت فجاجُ الأرض بمفاسدهم، ومباذلهم، وظلمهم، وقتلهم الأنفس بغير الحق، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، ومع ذلك نراهم وقد درت عليهم الأرزاق، وأنسئت لهم الآجال، وهم يعيشون في رغد ونعيم بعيد المنال؟.

ولا ريب أن هذا القول لا يصدر إلا من جاهل بالله، وبسنن الله ﷻ.

فعن عقبة بن عامر أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥][(١)].

و ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي:

فهناك من يحتج بالقدر على معائبه وذنوبه، فإذا قيل له: متى ستتوب؟ قال: إذا أراد الله ذلك.

وهذا خطأ وضلال وانحراف؛ فالإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو ما فعل من المعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده؛ فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداهة العقول»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢٨/٤٥٧، رقم (١٧٣١١)؛ والطبراني في الكبير ١٧/ ٣٣٠؛ وفي الأوسط ١٠/ ١٢٥؛ وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٧٧٣.

(٢) «مجموع الفتاوى» ٨/ ١٧٩.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً: «فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب»[١].

ـ وخالصة ما سبق: أنّ العصاة هم أوسع أصناف الموعوظين وأكثرهم انتشاراً، لذا أولى وعّاظ السلف هذه الشريحة أهمية بالغة، وهي مبنية على التحذير من الذنوب والترغيب في التوبة، وهي منضبطة أيضاً بجملة من الآداب كالرفق، والتواضع، والصبر، وعدم التثريب والشماتة بالعصاة والمذنبين.



(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٤٥٤.

المطلب الرابع

وعظ المبتدعة

* أولاً: المقصود بالمبتدعة:

- المبتدعة: اسم فاعل من: بَدَعَ، يَبْدَعُ، بَدْعاً، وابْتِدَعا.

- والبدعة: اسم هيئة من الابتداع، ولها في اللّغة معنيان:

• الشيء المخترع على غير مثال سابق؛ كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: لم أكن أول الرسل.

• التعب والكلل؛ مثال: أبدعت الإبل (أي: تعبت)(١).

- البدعة اصطلاحاً:

تعدّدت تعريفات البدعة وتنوّعت، لاختلاف أنظار العلماء في مفهومها ومدلولها.

فمنهم من وسّع مدلولها، حتّى أطلقها على كلّ مستحدثٍ من الأشياء، ومنهم من ضيّق ما تدلّ عليه، فتقلّص بذلك ما يندرج تحتها من الأحكام.

ومن أجمع هذه التعاريف، تعريف الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال: «البدعة طريقة في الدّين مخترعة، تضاهي الشّرعيّة، يقصد بالسّلوك عليها المبالغة في التّعبّد لله سبحانه»(٢).

• **المقصود بالمبتدع:**

لا يجوز الحكم على مسلم بأنه مبتدع، إلا إذا جاء، أو اتبع بدعة تخالف الكتاب والسنة.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: «بدع».

(٢) «الاعتصام»، للشاطبي ١/ ٣٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة، فإنّ عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط وغيرهما قالوا: «أصول الاثنتين والسبعين فرقة هي أربع: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة»[1].

والمقصود: وعظ المبتدع فيما وقع فيه من انحراف علمي وتعبّدي، وإلّا فإنّ المبتدع قد يكون متلبساً بالمعصية أيضاً؛ فالمقصود ها هنا نصيحة المبتدع فيما ابتدعه.

* ثانياً: السمات العامة للمبتدعة:

إنّ للمبتدعة سماتٌ بها يعرفون وبها يتميّزون، وهي سمات مشتركة بين كافة أهل البدع على اختلاف مللهم ونحلهم، وحريٌّ بالواعظ أن يدرك هذه السمات وأن يقف عندها وقفة تأمّل؛ فإنّ معرفة أسباب الداء هي أول طريق للاستشفاء.

ومن أبرز هذه السمات، ما يلي:

١ ـ الجهل بالحقّ:

من أعظم صفات المبتدعة الجهل بالدين، وبأصوله ومصادره، ومقاصده.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ـ في بيان صفات المبتدعة، والتحذير منها ـ:

وتعرّ من ثوبين من يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان
ثوب من الجهل المركب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبان

قال الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ ـ في شرح هذين البيتين ـ: «ثم أمره أن يتجرد من ثوبين طالما أوردا من لبسهما ورد الردى، سقياه كأس

(١) «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٤١٤.

المذلة والهوان، وهذان الثوبان هما ثوب الجهل المركب وفوقه ثوب التعصب، وما اجتمع هذان الثوبان على أحد إلا أدخلاه في لجج الباطل ومتاهات الضلال وزينا له سوء عمله وقبح اعتقاده فرآه حسناً.

والمراد بالجهل المركب: أن يعتقد الإنسان خلاف الحق مع اعتقاده أنه على الحق، فهو جاهل بالحق، ولا يدري أنه جاهل به، وهذا أشنع من الجهل البسيط الذي هو: عدم العلم بالحق، بمعنى خلو الذهن عنه»[١].

فضعف العلم وقلّة الفقه في الدين من أعظم سمات المبتدعة، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «البدع لا تقع من راسخ في العلم، وإنما تقع ممن لم يبلغ مبلغ أهل الشريعة المتصرفين في أدلتها»[٢].

والجهل بمقاصد الشريعة من سمات أهل الأهواء، ومن أعظم أسباب وقوعهم في الآراء الفاسدة، والأحكام الشاذّة.

يقول الإمام الشاطبي عند حديثه عن أسباب البدع: «هذه الأسباب الثلاثة راجعة في التحصيل إلى وجه واحد: وهو الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم»[٣].

والمبتدعة قد جهلوا كمال الشريعة وتحقيقها للمصالح ودرئها للمفاسد على أكمل وجه وأتمّه؛ فاستدركوا على الشّرع، وكذبوا على رسول الله ﷺ.

ومن ضروب جهلهم أيضاً: جهلهم بأصل السنّة النبوية ودورها في التشريع، وجهلهم أيضاً بصحيح السنّة من غيره؛ مما أدى إلى اختلاط الأمور عليهم.

٢ ـ التعصّب:

أهل البدع مغالون في التعصّب للأشخاص بلا علم ولا عدل،

---

(١) «الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية» المعروفة بنونية ابن القيم، بشرح محمد خليل هراس، ص٦٥.

(٢) «الاعتصام» ٢/ ٢٩٠.

(٣) «الاعتصام» ٢/ ١٨٢.

ومُغالون في التعصّب في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد مع البغي والعدوان على المخالف لهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: «فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة الكلام في الدين، وغير ذلك؛ كان من أهل البدع، والضَّلال والتفرّق»[1].

وهذا التعصّب يحمل المبتدعة على ردّ الحقّ، واستنكاف قبوله، وإنْ لاح لهم، وتبينوا صدقه، واستيقنوا أنهم مبطلون؛ فالتعصّب يعمي صاحبه ويصمّه.

٣ ـ الغلو في الدين:

الغلو هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء، أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله ـ في وصف المبتدعة ـ: «...وكثيراً ما يبتلى من أهل السماع بشعبة من حال النصارى من الغلو في الدين، واتِّباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل؛ وإن كان فيهم من فيه فضل وصلاح. فهم فيما ابتدعوه من ذلك ضالون عن سبيل الله، يحسبون أن هذه البدعة تهديهم إلى محبة الله، وإنها لتصدهم عن سبيل الله»[3].

والغلو من أعظم المداخل التي يدخل الشيطان بها إلى قلوب المبتدعة، فيقودها إلى مجاوزة المشروع من العبادة والمعاملة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ الله: «وما أمر الله بأمر إلَّا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو؛ ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ٣٤٧.
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ١٠٦.
(٣) «الاستقامة» ١/ ٢٥٢.

كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين؛ فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد»(١).

٤ ـ اتِّباع الهوى:

وهو من أبرز صفات المبتدعة؛ ومن أعظم أسباب الضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه»(٢).

ويطلق الهوى على ميل النّفس وانحرافها نحو الشّيء، ثمّ غلب استعماله في الميل المذموم والانحراف السيّئ؛ ونسبت البدع إلى الأهواء، «وسمّي أصحابها بأهل الأهواء؛ لأنّهم اتّبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلّة مأخذ الافتقار إليها، والتّعويل عليها، بل قدّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثمّ جعلوا الأدلّة الشّرعيّة منظوراً فيها من وراء ذلك»(٣).

وقد أخبر النبي ﷺ عن لزوم اتِّباع الهوى لأهل البدع، وأنه لا ينفك عنهم بحال.

فعن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبي ﷺ قال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين؛ ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي: الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه لا يبقى منه عرق، ولا مفصل إلا دخله**»(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» ٢/٤٩٦. (٢) «تفسير ابن كثير» ٣/٤٢٦.

(٣) «الاعتصام» ٢/١٧٦.

(٤) رواه أبو داود في سننه ٢/٦٠٨، كتاب: السنة، باب: شرح السنة، رقم (٣٩٨١)؛ وأحمد في مسنده ٢٨/١٣٤، رقم (١٦٩٣٧)؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم (١٧٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: يَتواقَعُون في الأهواء الفاسدة، ويَتَداعَوْن فيها تَشْبِيها بِجَرْي الفَرس. والكَلَبُ بالتحريك: داء معروف يعْرض للكَلْب فَمن عَضَّه قَتَله»[١].

٥ ـ اتباع المتشابه:

الانحرافات البدعية إنما تكون في الغالب من باب الشبهات التي يشربها قلب المبتدع، والشبهة داء عظيم يصيب القلوب فيطفئ فيها نور اليقين، إذ «القلوب ضعيفة، والشُبَه خطافة»[٢].

وقد أخبر الله تعالى عن اتِّصاف أهل البدع بذلك فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «**تلا رسول الله ﷺ هذه الآية** ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[٣].

* ثالثاً: حُكْمُ وعظ المبتدعة:

إنّ حكم وعظ أهل البدع والأهواء مبنيٌ على مسألتين: الأولى: في وقوع توبة المبتدع، والثانية: في حكم هجر المبتدع.

فمن رأى أنّه لا توبة لمبتدع؛ وأنّ الأصل في حقه الهجران: لم ير جدوى من وعظ المبتدع ومناصحته، ومن رأى أنّ التوبة ممكنة من المبتدع، وأنّ هجر المبتدع ليس على إطلاقه: قال بمشروعية وعظ المبتدع ومناصحته.

وفيما يلي تفصيلٌ لهذين المسألتين؛ مقروناً بأدلّة كلٍّ منهما:

---

(١) «النهاية في غريب الأثر» ١/ ٧٣٩. (٢) «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٢٦١.

(٣) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٦٥٥، كتاب: تفسير القرآن، باب: منه آيات محكمات، رقم (٤١٨٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢٠٥٣، كتاب: العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، رقم (٤٨١٧).

المسألة الأولى: وقوع توبة المبتدع:

اختلف العلماء في إمكانية وقوع توبة المبتدع، وصحتها على قولين:

• **القول الأول**: أنّ التوبة محجوبة عن كلّ صاحب بدعة.

واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلة من الكتاب، والسنّة، وأقوال السلف رحمهم الله.

- فمن الكتاب؛ قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ**﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ**﴾ [البقرة: ١٠].

فدلّت هذه الآيات على عدم توفيق أهل البدع للتوبة من بدعهم، والرجوع إلى دين الله القويم، وصراطه المستقيم، حيث اشتملت الآيات على بعض أسباب الخذلان، من الزيغ، ومرض القلوب، وهي من أخصّ صفات المبتدعة(١).

- ومن السنّة: ما صحّ عن النبي ﷺ من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله حجب التوبة عن كلّ صاحب بدعة حتى يدع بدعته**»(٢).

والحديث دال على عدم توبة المبتدع، والحيال بينه وبين التوبة، وحجبه عنها.

- ومن الآثار المروية عن السلف رحمهم الله في حجب التوبة عن المبتدع:

ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنّ قال: «أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة»(٣).

---

(١) **انظر**: «موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع» ١/ ٣١٧.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» ٤/ ٢٨١؛ وابن راهويه في «مسنده» ١/ ٣٧٧؛ والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٥٩؛ وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٥٤).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة» ١/ ١٤١. **قلت**: وإسناده حسن.

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: «البدعة أَحَبُّ إلى إبليس من المعصية، والمعصية يُتَابُ منها، والبدعة لا يُتَابُ منها»(١).

ـ ويعلِّلُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حجب التوبة عن المبتدع؛ فيقول: «ومعنى قولهم: (إن البدعة لا يُتَابُ منها): أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله، ولا رسوله ﷺ قد زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسناً؛ فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أوّل التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب، أو استحباب ليتوب ويفعله؛ فما دام يرى فعله حسناً، وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب»(٢).

ـ وبناءً على ذلك يؤكّد الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عدم انتفاع المبتدع بالمواعظ والزواجر، فيقول: «فكذلك صاحب الهوى إذا دخل قلبه، وأشرب حبه، لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترث بمن خالفه»(٣).

- **القول الثاني**: أنّ التوبة ممكنة من المبتدع.

ومن جملة ما احتج به أصحاب هذا القول:

ـ أنّ التوبة تقع من المبتدع، وإن كان وقوعها نادرٌ؛ والواقع خير شاهد على ذلك، فقد تاب أقوام من بدعهم، ورجعوا إلى السنّة، وثبتوا على ذلك.

ـ وحملوا النصوص الواردة في حجب التوبة عن المبتدع على الغالب، لا على الاستغراق؛ وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا النفي ـ أي: نفي التوبة عن المبتدع ـ يقتضي العموم بإطلاق، ولكنه قد يُحْمَل على العموم العادي؛ إذ لا يبعد أن يتوب عما رأى، ويرجع إلى الحق؛ كما نقل عن عبد الله بن الحسن العنبري، وما نقلوه في مناظرة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الحرورية الخارجين على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي مناظرة عمر بن

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة» ١/ ١٣٢؛ والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٥٩. قلت: وإسناده صحيح.

(٢) «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٩.

(٣) «الاعتصام» ٢/ ٢٦٨.

عبد العزيز لبعضهم ولكن الغالب في الواقع الإصرار»[١].

المسألة الثانية: حكم هجر المبتدع:

اختلف العلماء في حكم هجر المبتدع على قولين، وهما:

• **القول الأول**: وجوب هجر المبتدع مطلقاً.

واستدلوا على وجوب هجر المبتدع بأدلة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة»[٢].

ـ واستدلوا أيضاً بهجر النبي ﷺ للثلاثة الذين خلِّفوا في غزوة تبوك[٣]، وقالوا: «إنّ فيه دليل على أنّ هجران أهل البدع على التأبيد»[٤].

• **القول الثاني**: أنّ هجر المبتدع ليس على إطلاقه[٥]، فمتى عُلِمَ أنّ في مجالسة أهل الأهواء والبدع مصلحة شرعية راجحة ـ تؤدي إلى رجوعهم عن بدعتهم ـ شُرِعت مجالستهم.

• **والراجح**: أنّ التوبة ممكن وقوعها من المبتدع، لشهود الواقع بذلك.

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٤.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» ١/ ٤٩١؛ والقرطبي في «تفسيره» ٥/ ٣٩٦.

(٣) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٦٠٣، كتاب: المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، رقم (٤٠٦٦)؛ ومسلم ٤/ ٢١٢٠، كتاب: التوبة، باب: توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٤٩٧٣).

(٤) «شرح السنة»، للبغوي ١/ ٢٢٦.

(٥) وضع العلماء ضوابط لهجر المبتدع، وهي تدور حول: تحقق المصلحة الشرعية من هجره، وكذا خوف الهاجر من التضرر بمجالسة أهل الأهواء والبدع، فحكم الهجر يختلف باختلاف المهجور، والهاجر، وبنوع المخالفة، وبالمكان والزمان.
انظر تفصيل ضوابط هجر المبتدع في: «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ٢٠٦؛ و«زاد المعاد» ٣/ ٢٠؛ و«هجر المبتدع»، للشيخ بكر أبو زيد؛ و«موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع» ٢/ ٥٢٩.

وعلى التسليم بحجب التوبة عن المبتدع مطلقاً، فإن الوعظ والنصيحة تأتي ها هنا إعذاراً لله تعالى، وقياماً بواجب النصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ووجهه: أنّ العظة غير مشروطة بالقبول؛ بل تشرع وتجب حتى مع غلبة الظن في ردّها وعدم قبولها، أو عدم انتفاع الموعوظ بها؛ لأنّها واجبة بإيجاب الله تعالى للنصح والتذكير[١].

ـ كما أنّ هجر المبتدع ليس على إطلاقه؛ لأنّ حكم الهجر يدور مع وجود المصلحة الشرعية وانعدامها؛ ومن أعظم المصالح هداية المبتدع، وردّه إلى الصراط المستقيم.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «وهجران أهل البدع واجب لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولأن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلّفوا عن غزوة تبوك، لكن إن كان في مجالستهم مصلحة لتبيين الحق لهم، وتحذيرهم من البدعة فلا بأس بذلك، وربما يكون ذلك مطلوباً لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]»[٢].

• **والخلاصة**: أنّه يشرع وعظ المبتدع ومناصحته، لما تقدّم تقريره.

ويضاف إلى ذلك: أنّ المبتدع داخل في عموم حديث: «**الدين النصيحة**»[٣]؛ ووجهه: أنّ الحديث عام لكافة المسلمين سنيّهم ومبتدعهم، ما دامت البدعة غير مكفّرة.

---

(١) **انظر**: «تفسير الطبري» ٦/٩٣.

(٢) «شرح لمعة الاعتقاد»، لابن عثيمين، ص١١٠.

(٣) تقدّم تخريج هذا الحديث. **انظر**: ص٩١ من هذا البحث.

والمبتدع أيضاً داخل في عموم قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**»[١].

*** رابعاً: ضوابط وعظ المبتدعة:**

الإنكار على المبتدع والردّ عليه، ومناصحته ووعظه، من أعظم الوسائل التي تُدْحَرُ بها البدعة، وتُحْيَ بها السنّة، ويُذَادُ بها عن حياض الدين؛ ولكن ينبغي أن تراعى فيه الضوابط الشرعية، والشروط المرعية التي يمكن من خلالها تحقيق المقصد الشرعي: ومن ذلك:

١ ـ أن يكون الوعظ بإخلاص، ونية صادقة:

في نصرة الحق والتجرد له؛ وقمع البدعة وإخماد نيرانها.

ومن لوازم الإخلاص فيه: أن يحبّ هداية المبتدع، ورجوعه للحق، وأن يحرص على ذلك أشدّ الحرص، وأن يسلك كل المسالك الشرعية الممكنة في تقريب قلب المبتدع لا تنفيره.

وأن يصحب ذلك دعاء الله له أن يهديه؛ خصوصاً إن كان من أهل السنة، أو من غيرهم من المسلمين؛ وقد دعى النبي ﷺ لبعض الكفار بالهداية فكيف بالمسلمين الموحدين!![٢].

٢ ـ أن يكون النصح والوعظ من عالم راسخ القدم في العلم:

يعلم على وجه التفصيل جوانب المسألة المتعلقة بموضوع البدعة من حيث الأدلة الشرعية عليها، وكلام العلماء فيها، ومدى مخالفة المبتدع للحق، ومنشأ الشبهة عنده، وأقوال العلماء في رد هذه الشبهة، والاستفادة من كلامهم في ذلك.

كما ينبغي أن يتسم الواعظ بقوة الحجة في تقرير الحق، وإزالة

---

(١) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٠٧٧، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة، رقم (٢٧٢٤)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٨٧٠، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٤٤٢٣).

(٢) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ٧/ ٢١٦، و١٢/ ٤٨٨.

الشبهة، ودقَّة العبارة، بحيث لا يظهر عليه في شيء من ذلك أو يفهم من كلامه غير ما أراد؛ وإلا حصل الضرر العظيم بتصدي من فقد هذه الشروط للوعظ والنصح.

نقل الشاطبي في الاعتصام أنّ رجلاً من أهل السنّة كتب إلى الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن بلدنا كثير البدع، وإنه ألف كتاباً في الرد عليهم، فكتب إليه مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل فتهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطاً عارفاً بما يقول لهم، لا يقدرون أن يعرِّجوا عليه، فهذا لا بأس به، وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء فيطغوا ويزدادوا تمادياً على ذلك»[1].

٣ ـ أن يراعى في النصح والوعظ تفاوت المبتدعة في درجة البدعة:

ومكانة المخالف في الدين والدنيا؛ ويفرِّق أيضاً بين دعاة البدعة المجاهرين بها، وبين المتسترين، وكذلك التفاوت في الباعث على هذه البدعة أهو الجهل، أم الهوى، أو تأثر بشيخ، أو أهل البلد، أو التأويل، أو غير ذلك من المقاصد الكثيرة للمخالفات الشرعية، فمن لم ينتبه إلى هذه المفارقات ويراعيها عند النصح لربما وقع في شيء من الإفراط أو التفريط الذي يمنع الانتفاع بكلامه أو يقلل النفع به.

٤ ـ أن يراعى في الإنكار على المبتدع تحقق المصلحة الشرعية:

فإن ترتب عليه مفسدة راجحة على مفسدة البدعة فلا يشرع الإنكار في هذه الحالة؛ فإنه لا تدرأ مفسدة بما هي أعظم منها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين؛ بتحصيل أعظم الضررين فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد، وتقليلها بحسب الإمكان؛ ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا

(١) «الاعتصام» ١/ ٣٣.

جميعاً، ودفع شر الشرين إذا لم يتفقا جميعاً»[١].

٥ ـ أن يراعى في الوعظ والإنكار أن يكونا على قدر البدعة وانتشارها:

فإن كانت البدعة نشأت في بلد أو مجتمع؛ فلا ينبغي أن يُشَاع الإنكار سواء عن طريق نشر كتاب، أو شريط، أو غيرهما من الوسائل الأخرى في بلد، أو مجتمع لم يسمع بالبدعة؛ لأن في نشر الرد نشر بطريق غير مباشر للبدعة؛ فقد يطلع الناس على الرد فتبقى الشبهة في نفوسهم، ولا تحصل لهم القناعة بالرد.

فترك الناس في سلامة وعافية من سماع الباطل أصلاً؛ خير من سماعهم له ورده بعد ذلك.

وقد كان السلف رحمهم الله يراعون ذلك في ردودهم ونصحهم وتذكيرهم، فكثير من كتبهم في الردود يستدلون فيها للحق في مقابل الباطل من غير ذكر للبدعة، وهذا من فقههم الذي قصر عنه بعض المتأخرين.

وقد هجر الإمامُ أحمد الحارثَ المُحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك، ألستَ تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم؟!، ألستَ تحمل الناسَ بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث»[٢].

وما قيل في التحذير من نشر الرد في بلد لم تنتشر فيه هذه البدعة يقال في التحذير من نشرها في طائفة من الناس لم تعرف تلك البدعة؛ وإن كانت في بلد المخالفة.

فلا ينبغي أن يُسعى في نشر الردود من كتب وأشرطة بين العامة إن لم يعرفوا الخطأ والبدعة، ولم يسمعوا بها؛ فكم فُتِنَ من العامة ووقعوا في الشك والارتياب في أصل الدين بسبب إطلاعهم على ما لا تدركه عقولهم من كتب الردود مما لا يحصيه إلا الله.

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٢٣/٣٤٣.

(٢) ذكره أبو حامد الغزالي في «قواعد العقائد»، ص٨٦.

وأهل السنّة والجماعة لا يعاملون المستتر ببدعته كما يعاملون المظهر لها أو الداعي إليها، فالمظهر للبدعة والداعي إليها يجب كفّه وبيان خطره، وأما المستتر ببدعته فينكر عليه سراً ويوعظ وينصح، ويستر عليه[١].

٦ ـ الترفق بالمبتدعة، ومداراتهم:

الرفق مطلوب في المعاملات كلّها حتى مع الكفار الجاحدين، والطغاة المارقين؛ لأنّ الرفق كثيراً ما يفتح القلوب المقفلة، ويسكن الأرواح النافرة.

وينبغي للوعّاظ أن يفرقوا بين الرفق والمداراة المشروعين، وبين المداهنة والتميّع المذمومين.

فالمداراة مطلوبة، وهي متعلقة باللين في المعاملة، جاء في لسان العرب: «مداراة الناس: ملاينتهم، وحسن صحبتهم، واحتمالهم لئلا ينفروا منك»[٢].

والمداهنة مذمومة، وهي: متعلقة بالدين؛ قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذه الآية: «ودوا لو تصانعهم في دينك، فيصانعونك في دينهم»[٣].

فالمداري يلين في المعاملة من غير أن يتنازل عن شيء من دينه، والمداهن يتقرب للناس بترك شيء من الدين.

ولكن قد يُلْجَأُ إلى التغليظ على المبتدعة، وهجرهم، وزبرهم، وزجرهم، إذا لم تنجع فيهم الموعظة والنصيحة، وخِيْفَ من انتشار ضررهم، وشيوع بدعتهم، وافتتان الناس بهم.

فالهجر والزجر مشروعان عند غلبة الظن في انزجار المبتدع، ورجوعه.

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ٢٤/ ١٧٢.　　(٢) «لسان العرب» ١٤/ ٢٥٤.

(٣) نقله البغوي في «تفسيره» ٤/ ٣٧٧.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا هجرة إلّا لمن ترجو تأديبه بها، أو تخاف من شرِّه في بدعة، أو غير ذلك»[(١)].

٧ ـ إنّ الحكم على الناس في الدنيا يكون بحسب الظاهر:

فإذا أظهر المسلم البدعة، وعلم الواعظ ذلك منه إما بالمعاينة والسماع، أو بالشهرة والاستفاضة؛ حَكَمَ عليه بأنّه من أهل البِدع، وَوَكَلَ أَمْرُهُ إلى الله تعالى.

وبالمقابل فإنّ المسلم إذا ظهر منه سلامة الاعتقاد مع العمل بمقتضاه حُكِمَ عليه بأنه من أهل السنّة، وليس للواعظ أن ينقِّب عما في قلوب العباد ليُمحِّص صدقهم من عدمه؛ لأنّ السرائر أمرها موكول إلى علّام الغيوب.

وهذا من الأصول العظيمة عند أهل السنّة والجماعة، وقد دلّت عليه نصوصٌ كثيرة:

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**في قصّة الرجل الذي راجع النبي ﷺ في الزكاة، وقال له: يا رسول الله! اتّق الله!... أنّ خالد بن الوليد استأذن النبي ﷺ في ضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: لعلّه أن يكون يصلي؟ فقال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقِّبَ قلوب الناس ولا أشقَّ بطونهم...**»[(٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في شرح هذا الحديث ـ: «معناه: أني أُمِرْتُ بالحكم بالظاهر، والله يتولّى السرائر»[(٣)].

فالطريق الذي تثبت به الشهادة على الرجل أنّه من أهل البدع هو: المعاينة أو الاستفاضة؛ أما الحكم على الناس بمجرّد الظن والهوى، أو

(١) «التمهيد» ٦/ ١١٩.

(٢) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٥٨١، كتاب: المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن، رقم (٤٠٠٤)؛ ومسلم ٢/ ٧٤١، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٧٦٣).

(٣) «شرح صحيح مسلم»، للنووي ٧/ ١٦٣.

بشيء لم يصدر منهم، هو من باب الوقيعة في أعراض المسلمين، وداخل في الظن السيئ المنهي عنه شرعاً(١).

* خامساً: مجالات وعظ المبتدعة:

البدع كثيرة، والأهواء متعدّدة، وما استحدثت بدعة إلّا وأُمِيْتَتْ من السنّة مثلها.

ومن واجب الواعظ أن ينصح لأمته، ويزيح عنها ظلمات البدع، وينشر فيها أنوار السنّة.

لأجل هذا فإنّ وعظ المبتدعة ينصبّ في مجالات ثلاثة: الحث على لزوم السنّة، والتحذير من البدعة، وبيان مضار الابتداع، ودحض شبهات المبتدعة التي يتمسّكون بها.

١ ـ الحث على لزوم السنّة، والتحذير من البدعة:

لقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ومَنْ جاء بعدهم من سلف الأمة في الأمر بلزوم السنّة والحثِّ عليه، والترغيب فيه، وفي النهي عن البدع والتحذير منها، وقد بلغ من استفاضة هذه النصوص واشتهارها بين أهل السنّة والجماعة ما يتعذّر معه حصرها، أو الإحاطة بها.

وهذه النصوص والأقوال هي زاد كلّ واعظ يروم نصح أهل البدع والأهواء، وهي عُدَّتُهُ في مواجهة هؤلاء المارقين عن سنّة سيد المرسلين، وفيما يلي عرض لبعض هذه النصوص:

● فمن القرآن الكريم:

ـ قوله تعالى ـ آمراً باتباع صراطه، ومبيناً أنه سبيل النجاة الموصل إليه ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٤١٣.

- ويقول تعالى آمراً بمتابعة رسوله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

• ومن السنّة:

- ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا خطب: أما بعد: «**فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة..**»[١].

- وعن العرباض بن سارية قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ**»[٢].

• أما ما جاء عن السلف رحمهم الله:

من الآثار في الأمر بالسنّة، والترغيب فيها، والتحذير من الابتداع في الدين وذمه وأهله، فهي كثيرة جداً، وهي في حقيقة الأمر مواعظ ونصائح وجهها السلف رحمهم الله لكل مبتدع في الدين، ولكلّ من يُخاف عليه الوقوع في البدعة، ومن هذه الآثار:

- ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: «تعلموا العلم قبل أن يقبض؛ وقبضه أن يذهب أهله؛ ألا وإياكم والتنطع، والتعمق، والبدع، وعليكم بالعتيق»[٣].

- وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: «عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما على

---

(١) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص٥ من هذا البحث.

(٢) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص١٣٦ من هذا البحث.

(٣) رواه الدارمي في سننه ١/٦٦؛ وعبد الرزاق في مصنفه ١١/٢٥٢؛ والمروزي في كتاب: «السنّة» ١/٣٠. **قلت**: ورجاله ثقات غير أن أبا قلابة لم يدرك عبد الله بن مسعود.

الأرض عبدٌ على السبيل والسنة، وذكر الرحمٰن ففاضت عيناه من خشية الله ﷻ فيعذبه، وما على الأرض عبدٌ على السبيل والسنة وذكره ـ يعني الرحمٰن ـ في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلّا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها؛ إلّا حطّ عنه خطاياه كما تحات عن تلك الشجرة ورقها، وإنَّ اقتصاداً في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم»[(١)].

ـ وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أنّه كتب إلى بعض عمّاله: أما بعد أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤونته؛ فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة.

ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلّا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإنَّ السنة إنما سنَّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ، والزلل، والحمق، والتعمق فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى»[(٢)].

٢ ـ بيان آثار ومضار الابتداع[(٣)]:

إنّ المبتدع قد يذهل عن مضار الابتداع، ومن واجب الواعظ أن يبيّن مخاطر الابتداع في الدين؛ لأنّ ذلك من أعظم الأمور الرادعة لأهل الأهواء والبدع.

---

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» ١/ ٣٥٩؛ واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» ١/ ٥٤. **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٦١٣، كتاب: السنة، باب: لزوم السنة، رقم (٣٩٩٦). وصححه الألباني.

(٣) **انظر**: تفصيل هذه الآثار في كتاب: «البدع وأثرها السيئ في الأمة» د. وسيم فتح الله.

ومضار الابتداع لا تقف عند المبتدع وحده، ولكنها تصيب الدين، والأمة جميعاً.

وهذه الآثار تدور حول محورين، المحور العلمي، والمحور العملي، وفيما يلي بيان لذلك:

أ ـ الآثار العلمية العقدية:

إن أخطر آثار البدع تتمثل في معارضتها الشريعة في أصولها الكلية، أو في منهج فهم وتطبيق نصوص الشريعة الدالة على هذه الأصول، حتى إذا تأصلت مثل هذه المحدثات واتخذها بعض المنتسبين إلى الإسلام معقداً للولاء والبراء فضلوا بذلك عن جادة الحق، حدث الشرخ بين هذه الجماعة، وبين جماعة الإسلام الأصيلة المتمسكة بسنة النبي ﷺ.

ويمكن تلخيص أهم الآثار السيئة للبدع في المجال العلمي العقدي، فيما يلي:

١ ـ الضلال:

فالبدعة والضلال قرينان، فأينما وجدت البدعة وجدت الضلالة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾: البدع والشبهات»[1].

٢ ـ الخلل المنهجي:

إن من أسوأ ما باءت به الأمة جراء استشراء البدع، ظهور الخلل العميق في منهج فهم نصوص الشريعة وتطبيقها، وهذا قد أدى بدوره إلى تشتت، وتشرذم الأمة؛ كلٌ يسير وفق هواه، وكل يُطَوِّع الدين لغايته ومبتغاه، ولقد وعى حبر هذه الأمة وترجمانها عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذا الداء فعن إبراهيم التيمي قال: «خلا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذات يوم يحدث

(١) «تفسير مجاهد» ١/ ٢٢٧.

نفسه، فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وكتابها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيم أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يعرفون فيم نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»(١).

٣ ـ خفوت السنة وضياعها:

وهذا أثر خطير من آثار البدع على عقيدة الأمة وعلمها، ذلك أنه لا تظهر بدعة إلا بخفوت سنة، ولا تظهر سنة إلا بذبول بدعة تعارضها.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا سنة، حتى تحيا البدع، وتموت السنن»(٢).

٤ ـ حبوط الإيمان والعمل:

ذلك أن الإيمان عمل، والبدعة سبيل إلى حبوط العمل فهو يستلزم حبوط الإيمان، وهذا غاية الخسران.

ودليل حبوط العمل بالبدعة، قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**(٣).

وعلى هذا المعنى تضافرت نقول السلف رحمهم الله:

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه ١/١٧٦؛ والبيهقي في «الشعب» ٢/٤٢٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه المروزي في «السنة» ١/٣٢؛ واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» ١/٩٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) متفق عليه، البخاري ٢/٩٥٨، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٤٤٩)؛ ومسلم ٣/١٣٤٣، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأقضية الباطلة؛ وردّ محدثات الأمور، رقم (٣٢٤٣)، واللفظ له.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ازداد صاحب بدعة عبادة، إلّا ازداد من الله بعداً»(١).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تجلس مع صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه»(٢).

٥ ـ مرض القلب وقسوته:

وإذا انتشر مرض القلب بين الناس انتشر في الأمة وفسدت وهلكت، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا الزيغ إن هو إلا مرض الشبهات التي يلقيها الشيطان في أفئدة القوم من أتباع الهوى، ولقد قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «صاحب البدعة على وجهه الظلمة وإن ادَّهن كل يوم ثلاثين مرة»(٣).

ب ـ الآثار العملية الحسية:

ومن أبرز هذه الآثار:

١ ـ التفرق والتشرذم والخروج عن الجماعة:

والأصل في هذا ما حذر منه الله تعالى حيث قال: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾: الأهواء المفترقة»(٤).

وعن عرفجة بن شريح الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «**إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرِّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان**»(٥).

---

(١) رواه أبو الفضل المقرئ في «أحاديث في ذم الكلام وأهله» ٣/ ١٢٣. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٢) رواه البربهاري في «شرح السنة»، ص٦٠؛ واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» ١/ ١٣٨، أبو الفضل المقرئ في «أحاديث في ذم الكلام وأهله» ٥/ ١٣٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» ١/ ١٤١. **قلت**: ورجاله ثقات.

(٤) رواه الطبري في تفسيره ٥/ ٢١٧. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) رواه مسلم٣/ ١٤٧٩، كتاب: الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم (٣٤٤٢).

فهذا الحديث دالٌ على خطورة هذا الافتراق والتشرذم حتى أباح النبي ﷺ دم من سعى لتفريق شمل الأمة بما يبثه فيها من بدع وضلالات.

٢ ـ استحلال السيف في رقاب المسلمين:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١).

فلا يستغرب لمن انتحل البدعة، وخالف السنة أن تكون أولى ثمار بدعته هذه استحلال السيف في رقاب أمة محمد ﷺ وقد كان، فعن أبي قلابة رحمه الله قال: «ما ابتدع رجل بدعة إلّا استحل السيف»(٢).

٣ ـ دحض شبهات المبتدعة:

ما ابتدع قومٌ بدعة إلّا لشبهة وقرت في قلوبهم، وزيّنت لهم سوء عملهم، وتحاملهم على شريعة ربهم؛ وهذه الشبهات هي التي تحول بين المبتدع ورؤية الحق؛ فينبغي لكلّ واعظ يرجو الهداية لمبتدع أن يزيل من قلبه هذه الشبهات أولاً حتى يسهل عليه بعدُ هدايته للحق.

وفيما يلي إلقاء الضوء على بعض هذه الشبهات التي تنتظم تحتها أكثر البدع:

أ ـ شبهة التعظيم والتنزيه:

فالخوارج تزعم أنها تعظّم حدود الله، لكنها تنطّعت، وخرجت عن حد الشرع في ذلك.

والرافضة تزعم أنها تعظِّم آل بيت رسول الله لكنها غلت في ذلك، وبالغت.

والجهمية والمعتزلة وأهل الكلام زعموا أنهم ينزهون الله عن التشبيه، لكنهم غلوا في ذلك ووقعوا في التعطيل والتأويل، وإنكار صفات الله، وأفعاله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١/٥٦، كتاب: العلم، باب: الإنصات للعلماء، رقم (١١٨).
(٢) رواه الدارمي في سننه ١/٥٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

والمشبّهة زعمت أنها فرت من التعطيل، لكنها بالغت في الإثبات.

والذين ابتدعوا بدعة المولد النبوي، يزعمون أنّهم يعظمون الرسول ﷺ، ولكنهم حادوا بذلك عن السبيل.

قال البربهاري رحمه الله: «وإذا سمعت الرجل يقول إنا نحن نعظم الله ـ إذا سمع آثار رسول الله ﷺ ـ فاعلم أنه جهمي يريد أن يرد أثر رسول الله ﷺ، ويدفعه بهذه الكلمة، وهو يزعم أنه يعظم الله وينزِّهه»[(١)].

ب ـ اعتقاد أهل البدع ما تتوهمه عقولهم:

أهل البدع والأهواء في خوضهم في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر أمور الغيب يتوهّمون أموراً في عقولهم وخيالاتهم، ويتصورونها، ثم يبنون على ذلك أحكاماً ويعتقدونها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق ـ أي: طريق الأثر ـ وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها؛ إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ﷺ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ﷺ فإنها تكون ضلالاً»[(٢)].

ج ـ توهم المعارضة بين العقل والشرع:

يزعم الكثير من أهل البدع أنّ بعض نصوص الشرع تتصادم مع المعقول؛ فيردون هذه النصوص لأجل ذلك، مما دفعهم إلى النفي، والتعطيل، والتأويل، وردّ كثير من الأحكام.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن الأصل الذي قادهم إلى النفي والتعطيل، واعتقاد المعارضة بين العقل والوحي أصل واحد، هو منشأ ضلال بني آدم، وهو الفرار من تعدد صفات الواحد، وتكثُّر أسمائه الدالة على صفاته، وقيام الأمور المتجددة به»[(٣)].

---

(١) «شرح السنة»، للبربهاري ١/٥٦.
(٢) «مجموع الفتاوى» ٧/٢٨٨.
(٣) «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»، لابن القيم ٤/١٢٢٠.

د ـ تقريرهم لقواعد فاسدة، والقول بلوازمها:

أهل الأهواء يقعِّدون ويخترعون قواعد وضعية مظنونة أو وهمية، ثم يقولون بلوازمها، ويعتقدونها، ويزعمون أنّ هذا من قطعيات العقل أو لوازمه[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والشبهة التي قادت نفاة الجهة[(٢)] إلى نفيها هي أنهم اعتقدوا أن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان، وإثبات المكان يوجب إثبات الجسمية، ونحن نقول إنّ إثبات هذا كلّه غير لازم، فإن الجهة غير المكان»[(٣)].

هـ ـ اعتقاد أهل البدع أنّ البدعة قسمان: حسنة، وسيئة:

ويحتجون لذلك بما رواه مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(٤)].

واستدلالهم هذا مردودٌ من وجوه كثيرة منها:

ـ أن أدلة ذم البدع جاءت مطلقة عامة على كثرتها، لم يقع فيها استثناء ألبتة، ولم يأت فيها شيء مما يقتضي أن منها ما هو هدى[(٥)].

ـ ومنها: أن القول بالبدعة الحسنة يؤدي إلى تحريف الدين وإفساده. إذ كلما جاء قوم زادوا في الدين عبادة، وسموها (بدعة حسنة)[(٦)].

---

(١) «دراسات في الأهواء والفرق والبدع؛ وموقف السلف منها» د. ناصر العقل، ص٥٤١.

(٢) المقصود بالجهة: أنّ الله فوق سماواته، عال على عرشه، «بيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية ١/ ٣٠.

(٣) «الصواعق المرسلة» ٢/ ٤٠٧.

(٤) رواه مسلم في صحيحه ٢/ ٧٠٤، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة، رقم (١٦٩١).

(٥) **انظر**: «الاعتصام» ١/ ١٨٧.

(٦) **انظر** كتاب: «اللمع في الرد على محسني البدع»، لعبد القيوم السحيباني، فقد ذكر عشرة وجوه في إبطال تحسين البدع.

و ـ اعتقادهم أنّ الزيادة في صفة العبادة ليست بدعة:

يحتج كثير من أهل البدع والأهواء، إذا أنكر عليهم بعض بدعهم أنّهم متعبِّدون لله تعالى بما شرع، فما دام أصل العمل مشروعاً فلا ضير في الزيادة في وصفه.

وهذا عين الجهل بمفهوم البدعة، وأقسامها، وذاك لأنّ البدعة قسمان:

الأول: البدعة الحقيقية[1]. **والثاني**: البدعة الإضافية[2].

ـ وبهذا يتبيّن لنا أنّ هجر المبتدعة وندرة وقوع التوبة منهم لا يسوغان ترك موعظتهم، ولهذا حرص السلف على بذل الموعظة لهؤلاء المبتدعة وذلك بالحث على لزوم السنة، وبيان خطر الابتداع، وكانت موعظتهم إياهم مصحوبة بإخلاص النيّة، والترفّق، مع مراعاة تفاوت حال المبتدعة، ومكان انتشار البدعة.



---

(١) وهي التي لم يدل عليها دليل شرعي، لا من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل.
مثل الطواف بمقامات الأولياء والصالحين، فإن الطواف المشروع في الإسلام هو الطواف بالكعبة المشرفة فقط؛ لأنه الذي قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة. **انظر**: «الاعتصام» ١/ ٢٨٦.

(٢) وهي التي دلّ الدليل عليها من جهة الأصل، ولم يدلّ عليها من جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل، مثل: تخصيص الأيام الفاضلة بأنواع من العبادات التي لم تشرع لها تخصيصاً.

المطلب الخامس

وعظ الكفار

* أوّلاً: أقسام الكفار، وسماتهم:

ـ الكفر: «هو عدم الإيمان بالله ورُسُلِهِ، سواءً كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب»(١).

وينتظم تحت هذا الحدّ: المشركون(٢)، وكفرة أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

١ ـ المشركون:

«وهم الذين جعلوا مع الله إلهاً آخراً، من صنم، أو وثن، أو غير ذلك، مما يعبد من دون الله، ويتعلّق له الناس تعظيماً، وتقديماً، ومحبةً، ورغبةً، ورهبةً»(٣).

ويدخل في ذلك الملاحدة الذين أنكروا وجود ربّ خالق لهذا الكون، وألّهوا بذلك المادة(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٢/ ٣٣٥.

(٢) قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في الفرق بين الكفر والشرك: «الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد وهو: الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما؛ فيخص الشرك بعبدة الأوثان، وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك» شرح صحيح مسلم ٢/ ٧١.

(٣) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص٧٤.

(٤) «كواشف زيوف المذاهب المعاصرة»، لعبد الرحمٰن الميداني، ص٤٠٩.

٢ ـ كفرة أهل الكتاب[١]:

وهم اليهود[٢] والنصارى[٣] الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وناصبوه العداء؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦].

• **السمات العامة للكفار:**

إنّ المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد آيات كثيرة كشفت صفات الكفار وسماتهم؛ ومن هذه السمات ما هو مشترك بين جميع ملل الكفر ونحله، ومنها ما استأثرت به كلّ طائفة.

وعليه: يمكن تصنيف هذه السمات إلى قسمين: السمات المشتركة، والسمات الخاصة[٤]، وفيما يلي بيان لأبرز السمات في كلّ قسم[٥]:

أ ـ السمات المشتركة:

١ ـ قسوة القلب:

وهو داء عضال يحجب القلب عن استماع الحق، واتِّباعه، قال تعالى ـ في سياق حديثه عن بني إسرائيل ـ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى ـ عن المشركين ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

---

(١) وسمّوا أهل كتاب؛ لأنّ الله أنزل على كلّ منهما كتاباً من السماء؛ فاليهود أُنزِل عليهم التوراة، والنصارى أُنزِل عليهم الإنجيل.

(٢) اليهودية: «هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذي أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً بالتوراة».

(٣) النصرانية: «هي الرسالة التي أُنزلت على عيسى عليه السلام، مكمِّلة لرسالة موسى عليه السلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل».

(٤) **انظر**: «أساليب المجرمين»، ص١٢٤ وما بعدها.

(٥) اقتصرت على إيراد السمات التي لها علاقة بباب الوعظ، والتي تخدم الواعظ في وعظه.

• ومن مظاهر قسوة القلوب عند الكفار:

ـ عدم الانتفاع بالمواعظ ـ في الغالب ـ: قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: ١٣]، بل وصل الحال ببعضهم إلى إعلان ذلك تيئيساً للرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

ـ عدم الاعتبار بالمصائب والحادثات: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]؛ أي: «ابتليناهم بالمصائب والشدائد، فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة؛ بل استمروا على غيهم وضلالهم»(١).

ـ بغضهم لاستماع القرآن، والذكر، والنفور منه: قال تعالى ـ واصفاً حال الكفار عند سماع القرآن ـ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٢ ـ الغرور، والإعجاب بالنفس:

وهي سمة تقود صاحبها إلى غمط الحق، واستنكاف قبوله تعالياً وتجبراً.

ومن ذلك قول أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

وقول المشركين احتقاراً للمؤمنين من الرسل وأتباعهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

ويقول تعالى مخبراً عن استكبار أهل الكفر عن قبول الحق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

٣ ـ أنهم لا يعقلون:

إنّ الكفار قد حرموا نعمة العقل المكتسب الذي ينتفعون به في التمييز بين الحق والباطل.

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٣/٣٣٧.

قال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فأثبت لهم صورة المدارك والحواس، ونفى عنهم الانتفاع بها في إدراك الحق، وذلك لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى فسُلبوا خاصية العقل.

٤ ـ الغفلة:

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

أي: طبع الله على قلوبهم عن فهم المواعظ، وسمعهم عن كلام الله تعالى، وأبصارهم عن النظر في الآيات، وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم(١).

٥ ـ فساد فطرهم:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه؛ كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء؟**»(٢).

فكلّ من كره الحق، وآثر غيره عليه، وعبد الأوثان، وجعل شريكاً مع

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٧٠.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٤٦٥، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٢٩٦)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢٠٤٧، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٤٨٠٦).

الواحد الديّان، فإنما فعل ذلك لفسادٍ في فطرته التي فطره الله عليها.

وفساد الفطرة يكون في الاعتقاد والتصورات، ويكون في السلوك والأخلاق.

ب ـ السمات الخاصة بالمشركين:

ثمة سماتٌ استأثر بها المشركون والوثنيون عن غيرهم من طوائف الكفر، منها:

١ ـ غياب الهدف في الحياة:

فالمشركون أنكروا البعث، وجحدوا المعاد، فلم تكن لهم غاية إلّا التلذذ بصنوف المآكل والمشارب، والتمتع بملاذ الدنيا وشهواتها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٢ ـ الاحتجاج بالقدر على الكفر:

إنّ الكفار إذا أُلْزِمُوا الحجة، وعاينوا العذاب، لم يجدوا من سبيل لتبرير كفرهم وجحودهم، سوى الاحتجاج بالقدر، كما قال تعالى ـ مخبراً عن مقالتهم ـ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٣ ـ الجهل بالحق:

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فالجهل داء عظيمٌ، وهو أصل الشر والفساد، وسبب الجحود والإعراض؛ وحقيقة الجهل هو غياب الإدراك والانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة، وعدم الاهتداء إلى المصالح والمفاسد.

ج ـ سمات أهل الكتاب:

١ ـ الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

والغلو هو مجاوزة الحدّ المشروع، إفراطاً، أو تفريطاً؛ كالقول بألوهية عيسى عليه السلام.

٢ ـ التمرّد والعصيان:

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

فهم أدركوا المسموع بحواسهم، ورفضوا الانصياع إلى ما تضمّنه عصياناً وتمرّداً.

* ثانياً: حُكْمُ وعظ الكفار:

هذه المسألة مبنيّة على مسألة أخرى وهي: هل الآيات الآمرة بدعوة الكفار ووعظهم ومجادلتهم ـ مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ـ منسوخة بآية السيف ـ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ـ أم أنها محكمة لم تنسخ.

فمن رأى من علماء السلف أن آيات الدعوة نسخت بآية السيف قال: بعدم مشروعية وعظ الكفار، ومن رأى أنّ آيات الدعوة محكمة قال: بمشروعية وعظ الكفار.

وفيما يلي تفصيل الأقوال، مع ذكر أدلتها:

- **القول الأول**: أنّ آيات الدعوة محكمة، وغير منسوخة.

وهو قول جمهور المفسرين(١)، واحتجوا لقولهم بأدلة منها:

ـ أنّ دعوى النسخ لا تثبت إلّا بدليل صريح من المنقول أو المعقول، ولا دليل هنا.

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، لابن تيمية ١/ ٢٤١.

يقول الإمام الطبري في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]: «لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل، وقد بينا في مواضع من كتابنا: أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل»[١].

ـ أنّ القول بالنسخ إنما يصار إليه إذا كان أحد الحكمين يناقض الآخر، ولا تناقض هنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإنّ مِنَ الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط، فإنّ النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ»[٢][٣].

والقول في الجدال كالقول في الموعظة؛ لأنّ كلاهما من وسائل الدعوة البيانية، ولهذا جمع بينهما في آية النحل.

ـ ويستدل شيخ الإسلام لقوله؛ بإحكام آيات الجدال والوعظ بفعل النبي ﷺ ومحاجته للمشركين ووعظهم قبل نزول آية السيف وبعدها، قال: «وإذا كان النبي ﷺ يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله، ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك تبليغ رسالات الله وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له، الذي تقوم به الحجة، ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخٌ الأمر

---

(١) «تفسير الطبري» ١٠/١٤٩.
(٢) «الجواب الصحيح» ١/٢١٦.
(٣) والعلماء تأويلات لآية السيف سوى تأويلها المشهور، فقد فسرها الطبري بأنها دعوة للوحدة في وجه المشركين، لا أنها تدعو لقتالهم أجمعين، يقول الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول جل ثناؤه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] بالله ـ أيها المؤمنون ـ جميعاً غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعاً، مجتمعين غير مفترقين» (تفسير الطبري) ٦/ ٣٦٤.

بالمجادلة مطلقاً»[١].

ـ ويسوق الإمام القرطبي حجة لمن أثبت الإحكام لبعض هذه الآيات، فيقول: «والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي، إنّ الله بعث محمداً بالحق، قالت: أنا عجوز كبيرة والموت أقرب إليّ! فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]»[٢].

فاستشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالآية دليل على أنه يراها محكمة.

• **القول الثاني**: أنّ آيات الدعوة منسوخة بآية السيف.

ـ حيث يرى أصحاب هذا القول: أنّ شِرْعَةَ الجهاد هي الوسيلة الوحيدة لدعوة الكفار؛ فحين تخضع أو تزول دولتهم، وتذل بالجزية رقابهم، حينئذ يستيقظ ما غاب عنهم من عقولهم، وما انطمس من فطرهم.

قال ابن عطية في تفسيره لآية السيف: «وهذه الآية نسخت كل موادعة في القرآن أو ما جرى مجرى ذلك، وهي على ما ذكر مائة آية وأربع عشرة آية»[٣].

وهذا الرأي على شهرته في كتب التفسير إلّا أنه غاية في الضعف؛ لخلو القول بالنسخ من أي دليل يعاضده كما تقدّم.

ـ وقد ادعوا النسخ أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الكلام اقتضى الاقتصار على التبليغ دون القتال، ثم نسخ بآية السيف، وقال بعضهم: لما كان حريصاً على إيمانهم مزعجاً نفسه في الاجتهاد في ذلك سكّن جأشه بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ [هود: ١٢] و﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]،

---

(١) «الجواب الصحيح» ١/٢٢١.
(٢) «تفسير القرطبي» ٣/٢٦٧.
(٣) «تفسير ابن عطية» ٦/٤١٢.

والمعنى: لا تقدر على سوق قلوبهم إلى الصلاح، فعلى هذا لا نسخ»[١].

• **الترجيح:**

ـ إنّ دعوى نسخ آيات الدعوة بآية السيف مردودة لخلوها من الدليل كما سبق بيانه.

ـ ومن أدلة إحكام آيات الدعوة أنّ أفاضل الصحابة إنما أسلموا بقوة البيان، لا بصولة السنان؛ فكان إسلامهم أثبت وأرسخ، وكذا الشأن إلى يوم الدين.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «أفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم؛ إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد المسلمين»[٢].

ـ وعليه فإنّ وعظ الكفار، ومحاجتهم، مشروعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي أول سبيل لدعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

* ثالثاً: ضوابط وآداب وعظ الكفار:

إنّ التعامل مع الكفار وتذكيرهم ووعظهم ليس بالشيء الهين، فلا يضطلع بهذه المهمة العظيمة إلّا من اجتمعت فيه الأهلية العلمية والسلوكية.

ولهذا ينبغي على الواعظ أن يكون ملماً بضوابط التعامل مع الكفار ووعظهم، ومن أبرز هذه الضوابط والآداب التي تسنى لي جمعها، ما يلي:

١ ـ الأهلية العلمية:

والأصل في العلم علم الكتاب والسنة والدوال عليهما، وليس كل من انتسب للعلم صلح أن ينافح عن الإسلام، أو يدعو إليه، بل ربما أفسد هؤلاء ما لا يمكن إصلاحه.

فإنّ دعوة الكفار ووعظهم قد تكون قاصرة إذا لم يكن الواعظ ملماً

---

(١) «نواسخ القرآن»، لابن الجوزي، ص١٠٤.

(٢) «الإحكام في أصول الأحكام»، لابن حزم ١/ ٢٨.

بحقيقة ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وما ذمه من الشرك، وبمنهج الأنبياء في دعوة المشركين[١].

وعليه فإنّه قد يمنع الواعظ من التصدي لدعوة الكفار إذا كان ضعيفَ العلم بالحجة، وجواب الشبهة؛ لأنه يخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى ذلك الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار، فإنَّ ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة[٢].

ويدخل في هذا الضابط: أن يكون الواعظ ملماً بأساليب وعظ الكفار، ملماً بشبهاتهم وكيفية الجواب عليها، وأن يكون عارفاً بلسان القوم.

وقد يلجأ الواعظ أحياناً إلى مخاطبة الكفار باصطلاحاتهم التي تعارفوا عليها، فلا ضير في مخاطبتهم بذلك بشرط معرفة دلالة هذه الاصطلاحات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «... وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم؛ فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعُرفهم، فإنَّ هذا جائزٌ حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتاجوا إليه»[٣].

ولأنّ مخاطبة القوم بلسانهم من دواعي المؤانسة، ومن سبل المجانسة التي لها عظيم الأثر في الاستجابة والقبول[٤].

٢ ـ الصدع بالحق والجهر به:

الأصل في الواعظ جهره بالحق وصدعه به؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفي قصة جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع النجاشي دليلٌ على الجهر بالحق والصدع به

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ١١/ ٢٣٢؛ و«درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٠٧.

(٢) **انظر**: «درء تعارض العقل والنقل» ٣/ ٣٧٤.

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٧.

(٤) **انظر**: «مجموع الفتاوى» ٤/ ١٠٧.

في وقت الضعف وهم بديار الكفر، ولم يمنعه كونه في دار الكفر من بيان الحق.

وهذا الصدع لا يعني ترك أدب الوعظ والتذكير، أو التخلي عن أخلاق وآداب الإسلام، فالمسلم هو المسلم في كل الأحوال، وإنما يصول ويجول بالله ولله لا بنفسه ولا لهواه.

٣ ـ التركيز في وعظ الكفار على القضايا العقدية:

وعدم الاشتغال بما سوى ذلك؛ لأنّ هذا أصل دعوة كلّ الرسل عليهم السلام، فينبغي تحقيق هذا الأمر أولاً؛ ولا ضير بعد ذلك من نهيهم عن بعض ما يقعون فيه من المعاصي والآثام، كما فعل شعيب ولوط عليهما السلام مع أقوامهما.

٤ ـ الرفق ولين الخطاب:

لما كان الوعظ وسيلة من وسائل الدعوة والتعريف بالإسلام، توجب على الوعّاظ أن يتخلقوا حال دعوتهم بأخلاق الإسلام، ويجتنبوا السوء من القول، ويلتزموا الحسن منه، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال القرطبي رحمه الله: «وهذا كله حضٌّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيّ حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ. فقال: لا تفعل، يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى»[١].

(١) «تفسير القرطبي» ٢/١٦.

وإن من الرفق في الموعظة أن لا نجبه من ندعوه بقولنا: يا كافر؛ من باب العيب واللمز، وإن كنا لا نشك في كفره؛ فإنّه لو قال ليهودي أو مجوسي: يا كافر. يأثم إن شق عليه، وذلك الإثم يلحق صاحبه لهجره الحكمة في الدعوة والتي هي أحسن في البلاغ(١).

وخشية الانجرار إلى السباب وتقويض غايات الوعظ ومقاصده؛ نهى الله تعالى المؤمنين عن سب ولمز آلهة المشركين وأصنامهم، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقد أفاد القرطبي منها النهي عن سب ولمز سائر ما يقدسه الآخرون، لا من باب التعظيم لها، بل سياسة وتألفاً، يقول: «حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله ﷻ، فلا يحل لمسلم أن يسُبَّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك لأنه بمنزلة البعث على المعصية»(٢).

٥ ـ الغض عن إساءة الكافر، ومقابلتها بالإحسان:

لا ريب أن اختلاف العقائد يورث الضغائن، وقد يصدر من اللسان ما يسوء الواعظ سماعه، سواء ما كان متعلقاً بمعتقده أم بشخصه، وهذه الإساءة فرع عن الكفر الذي يتلبس به الموعوظ، فمصلحة الدعوة تقتضي التغاضي عن خطأ الآخر سياسة وصوناً لمصلحة الدعوة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: «أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه حتى يكون هو

---

(١) «الفتاوى الهندية»، لنظام الهندي؛ وآخرون ٥/٣٤٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ٧/ ٥٥.

المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتساباً وابتغاء ثواب الله»[١].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى مبيناً للمؤمنين ما سيتعرضون له من أذى المشركين، وآمراً إياهم بالصبر والتقوى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأمر سبحانه وتعالى بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى.... وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم... فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا..»[٢].

٦ ـ مداراة الكافر وحسن التعامل معه:

ومن آداب الموعظة حسن المعاملة مع الموعوظ الكافر، ومداراته، وإكرامه، وحسن استقباله، فعن عائشة رضي الله عنها: **«أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال ائذنوا له فلبئس رجل العشيرة، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله: قلت له الذي قلت، ثم ألنت له القول، قال: يا عائشة! إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه»**[٣].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «قال القرطبي: في

---

(١) «تفسير الطبري» ٧/ ٦٦٣. (٢) «الاستقامة» ١/ ٣٨.

(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٥٠، كتاب: الأدب، باب: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، رقم (٥٥٧٢)؛ ومسلم ٤/ ٢٠٠٢، كتاب: البر والآداب والصلة، باب: مداراة من يتقى فحشه، رقم (٤٦٩٣)، واللفظ له.

الحديث.. جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى.

والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك فلم يمدحه بقولٍ، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة...»[(١)].

- ومن المداراة: مناداة الموعوظين غير المسلمين بما يليق بهم من ألقاب يستحقونها، وتحيتهم تحية مناسبة، كقوله ﷺ: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم**»[(٢)].

قال النووي رحمه الله: «ولم يقل: إلى هرقل فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال: «**عظيم الروم**»؛ أي: الذي يعظمونه ويقدمونه، وقد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، وغير ذلك»[(٣)].

- وأيضاً من المداراة مع الكفار: الفعل الحسن؛ كعيادة مريضهم، وإكرام وفدهم، تأسياً بالنبي ﷺ في صنيعه مع عدي بن حاتم الطائي قبل إسلامه.

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «**أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه.... ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها وجلست بين يديه؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما يفرك أن**

---

(١) «فتح الباري» ١٠/ ٤٥٤.

(٢) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص١٣٧ من هذا البحث.

(٣) «شرح صحيح مسلم»، للنووي ١٢/ ١٠٨.

تقول لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟ قال: قلت: لا، قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئاً أكبر من الله قال: قلت: لا»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس، ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى..»[٢].

● وللمداهنة المستقبحة صور كثيرة أهمها:

ـ الثناء على معتقدات الكفار وتسويغها، أو التوقف في كفرهم واعتبارهم إخوة لنا يجمعنا بهم الإيمان بالله وغير ذلك مما لا يخفى تحريمه.

ـ ومنها: تعظيم من لا يرضى الله تعظيمه: وهذا التعظيم مذموم لما فيه من مدحة أو ثناء لا يستحقه الموعوظ الكافر، فعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إنْ يك سيداً فقد أسخطتم ربكم** عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

قال في عون المعبود: «لأنّه يكون تعظيماً له، وهو ممّن لا يستحقّ التّعظيم، فكيف إن لم يكن سيّداً بأحد من المعاني؛ فإنّه يكون مع ذلك كذّاباً ونفاقاً»[٤].

وحين خاطب النبي ﷺ ملوك الأرض صانعهم ورفق بهم، لكنه لم يضف عليهم عظيم الألقاب، بل توقى في خطابهم، من غير أن يبعد عن ملاطفتهم واستمالتهم، فقد كتب إلى هرقل إمبراطور الروم قائلاً: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم**»[٥].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الفاتحة، رقم (٢٨٧٨)؛ وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٥/ ٢٠٢.

(٢) «تفسير ابن كثير» ١/ ١٦.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٥/ ٢٠١، كتاب: الأدب، باب: لا يقول المملوك ربي وربتي، رقم (٤٣٢٥)؛ وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٢٩٢٣).

(٤) «عون المعبود» ١٣/ ٢٢١.

(٥) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص١٣٧ من هذا البحث.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الحديث: «التوقي في المكاتبة، واستعمال الورع فيها، فلا يفْرِط ولا يفرِّط، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إلى هرقل عظيم الروم**»، فلم يقل: ملك الروم؛ لأنه لا ملك له ولا لغيره إلا بحكم دين الإسلام»(١).

٧ ـ المبادأة والمبادرة:

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

فأخذ زمام المبادرة في مخاطبة الكفار ووعظهم ينبغي أن ينشأ من جانب الواعظ، فينبغي عليه أن يكون شديد الحرص على هداية الخلق، وإيصال الحق إليهم أسوة بنبيه محمد ﷺ الذي كان يغشى الكفار والمشركين في مجالسهم، ومحافلهم، وبيوتهم ليعرض عليهم دعوة الحق؛ ومن شواهد ذلك:

ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**بينما نحن في المسجد خرج النبي ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا حتى جئنا بيت المِدْرَاس(٢) فقال: أسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله**»(٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال**

---

(١) «شرح صحيح مسلم»، للنووي ١٢/١٠٨.

(٢) هو: «البيت الذي يدرُسُون فيه»، النهاية في غريب الأثر ٢/ ٢٥٠.

(٣) متفق عليه، البخاري ٣/ ١١١٥، كتاب: الجزية، باب: إخراج اليهود من جزيرة العرب، رقم (٢٩٣١)، واللفظ له؛ ومسلم٣/ ١٣٨٦، كتاب: الجهاد والسير، باب: إجلاء اليهود من الحجاز، رقم (٣٣١١).

له: أطع أبا القاسم فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار»[١].

*** رابعاً: أساليب وعظ الكفار**[٢]:

أساليب وعظ الكفّار لا تخرج عن أساليب الوعظ التي سبق بيانها[٣]، ولكن ثمة أساليب أكثر توافقاً مع حال الكفّار؛ لشدّة تأثيرها، وقوّة مفعولها فيهم، ولذا خصّها القرآن الكريم بالذكر، ونبّه عليها في آيات كثيرة.

ولم أجد ـ بعد استفراغ الجهد ـ وتتبّع كلام السلف ومواعظهم، الإشارة إلى أساليب وعظ الكفّار، ولهذا سأقتصر على ذكر أساليب القرآن في وعظ الكفار، فلقد علمنا في ما سبق أنّ السلف ما كانوا ليرضوا عن منهج القرآن بديلاً.

ومن أبرز أساليب القرآن في وعظ الكفار، ما يلي:

١ ـ أسلوب العبرة والتذكير:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

---

(١) رواه البخاري١/ ٤٥٥، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٢٦٨).

(٢) **انظر**: كتاب: «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام»، لشيخنا الفاضل: أ.د حمود بن أحمد الرحيلي حفظه الله؛ و«دعوة التقريب بين الأديان» د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي.

(٣) **انظر**: ص٢٧٥ من هذا البحث.

ففي هذه الآيات تذكير لأهل الكتاب، وغيرهم من الكفرة والمشركين؛ بما حلّ بأسلافهم؛ وفيه دعوة إلى السير والنظر في ديار الأمم السابقة للوقوف على ما حلّ بهم من المثلات، والغرض من سوق هذه القصص هو: التذكير والاعتبار والاستبصار[1].

كما أنّ في الآيات تذكير للكفار والمشركين بصنوف النعم التي امتنّ الله بها عليهم، ومن حقِّ المنعم المتفضِّل أن يقابل بالشكر والعرفان، لا بالجحود والكفران.

٢ ـ أسلوب الإغراء والترغيب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ففي هذه الآيات دعوة للمشركين وأهل الكتاب إلى الإيمان والإسلام عن طريق الترغيب في خير الدنيا المتمثِّل في التوسعة في الأرزاق، وفي خير الآخرة المتمثِّل في العفو عن الزلات، ودخول الجنات.

وهذا الأسلوب من أنجع أساليب وعظ الكفار لشدّة تعلّقهم باللّذات، وسعيهم لتحصيلها من كلّ وجه، وكثيراً ما يصدّ الكفرة عن قبول الحقّ خوفهم من زوال نعمهم، وتبدّد لذاتهم، ولهذا تكرّر ذكره في مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى.

٣ ـ أسلوب التحذير والترهيب[2]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ

---

(١) **انظر**: «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» ١/ ٤٩٥.

(٢) **انظر**: «الترهيب في الدعوة»، ص١٨٧، وما بعدها.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فهذه الآيات وأمثالها ـ المتضمّنة للتهديد والوعيد والتحذير ـ ترتجف لها القلوب التي لها أدنى حياة، فتحملها على إعادة النظر فيما تعتقد وتقول وتعمل، فإذا لم يحفِّزها حافز الترغيب، ردعها رادع الترهيب.

٤ ـ سوق الأدلة العقلية والحسية على ربوبية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١].

فإذا كان الماديون والملحدون يتظاهرون بإنكار وجود الله تعالى فإنّ من الحكمة في وعظ هؤلاء ودعوتهم إلى الله تعالى أن تساق إليهم البراهين والأدلة العقلية القطعية.

ومن ذلك أنّ المصنوع لا بد له من صانع، وأنّ العدم لا يخلق شيئاً، وكذا الطبيعة الصماء لا تملك القدرة على ذلك، ونحو ذلك من الأدلة العقلية.

ومن ذلك دعوتهم للتفكر في المخلوقات لأنها تدلّ على وجود الخالق[1].

*** خامساً: مجالات وعظ الكفار:**

إنّ مضمون دعوة الكفار ووعظهم لا بد أن تكون إلى أصول الدين التي سبق بيانها، وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد[2]، فهي دعوة جميع الرسل إلى أقوامهم المكذبين.

---

(١) **انظر**: تفصيل هذه الأدلة في كتاب: «درء تعارض العقل والنقل» ٣/ ٧٣ ـ ١٢٧.
(٢) **انظر**: ص١٨٨ من هذا البحث.

والأصل في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فمضمون دعوة الكفار وغيرهم هو: (سبيل الله)، لا سبيل غيره.

وعبارات السلف رحمهم الله في معنى: (سبيل الله) متطابقة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه وهو الإسلام»(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سبيل الله هو الإسلام»(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح»(٣).

ولا ضير أن نشير إلى بعض أفراد هذا السبيل؛ التي أكدّ القرآن الكريم على دعوة ملل الكفر ونحله إليها:

١ ـ الدعوة إلى الإقرار بوجود الخالق تبارك وتعالى:

وهي دعوة موجهة للملاحدة والدهريين المنكرين لوجود الخالق عَزَّ وَجَلَّ؛ وينبغي أن تساق لهم الأدلة الشرعية والعقلية على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

٢ ـ الدعوة إلى التوحيد الخالص، ونبذ الشرك:

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه الآية العظيمة هي ميثاق الوفاق بين المسلمين وأهل الكتاب، فإما أن يدخلوا في عقدها فيكونون والمسلمين سواء أمّة واحدة، وإما الافتراق الذي لا تلاقي معه.

---

(١) «تفسير الطبري» ٧/ ٦٦٣. (٢) «فتح القدير» ٣/ ٢٩١.
(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، للسعدي، ص٤٥٢.

وقد كان النبي ﷺ يكتب بهذه الآية إلى ملوك أهل الكتاب مقرونة بالدعوة إلى الإسلام، لأنّ مضمونها الإسلام بعينه.

٣ ـ النهي عن الغلو في الدين، والقول على الله بغير علم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

والغلو: هو مجاوزة الحدّ، ومن صور غلو أهل الكتاب، والمشركين.

دعوى ألوهية المسيح وربوبيته، ودعوى أنّ الله ثالث ثلاثة، ودعوى بنوّة المسيح وعزير لله ﷻ، واتّخاذ التصاوير والتماثيل وبناء المساجد على قبور الصالحين.

فهذا الغلو هو الذي أوقعهم في الشرك والقول على الله بغير علم، فلا بد من مبادأتهم بالدعوة إلى ترك الغلو والشرك، وإخلاص العبادة لله تعالى.

٤ ـ الإيمان برسالة محمد ﷺ واتّباعه:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولا يكفي الاعتراف العام بنبوته بل لا بد من تصديقه واتّباعه، واعتقاد أنّ شريعته ناسخة لكل الشرائع، وأنّ رسالته للناس كافة.

٥ ـ الإيمان بالقرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فلا بد من دعوة المشركين كافة إلى الإيمان بالقرآن الكريم إيماناً مفصّلاً، وإقرار أنّه كلام الله حقيقة، نزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ، وأنّه مصدقٌ للتوراة والإنجيل ومهيمنٌ عليهما، وناسخ لشرائعهما، يقصّ عليهم أكثر الذي هم فيه مختلفون.

• **نماذج من وعظ السلف رحمهم الله للكفار:**

أكتفي بذكر نموذج واحد جمع أهم ضوابط، وأساليب، ومجالات وعظ الكفار وأهل الكتاب، وهو موعظة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه التي ألقاها بين يدي النجاشي حينما هاجر المسلمون إلى الحبشة، والقصة رواها الإمام أحمد في مسنده، وسأكتفي بذكر موطن الشاهد منها فقط:

«قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ـ لما سأله النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ ـ قال:

أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن، وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة.

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام.

قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من كهيعص، قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد»[(١)].

● **تعليق:**

لقد جمعت هذه الموعظة أغلب الآداب، وأبرز الضوابط، وأهم مضامين وعظ المشركين، ومجالاته، فمن ذلك:

- حسن تأدب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي، مع مراعاة الرفق واللين.

- الدعوة إلى الإسلام وبيان محاسن هذا الدين، والترغيب إليه.

- ركّز جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على جانب التوحيد، ونبذ الشرك في موعظته.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٢٦٣ من حديث أم سلمة، رقم (١٧٤٠)؛ وحسنه شعيب الأرنؤوط.

- في الموعظة بيان لصدق نبوة النبي ﷺ والاستدلال لذلك بمضمون دعوته، وموافقته للرسل من قبله.

- الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم، وبيان أنّه الحق الذي لا مرية فيه.

- صدع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بالحق، وعدم مداهنته في ذلك.

- فهذه الموعظة مثلٌ يُحتذى به لكلّ من رام وعظ الكفار وتذكيرهم، ودعوتهم إلى هذا الدين الحنيف.

- ومما تقدّم بيانه نخلص إلى أنّ وعظ الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم مما قرّره الشرع الحكيم، وأيدته السنة النبوية، وهو محكم إلى يوم الدين، ولهذا كانت هداية كثير من الكفار على أيدي السلف من خلال مواعظ وجهت لهم والتي كانت تدور في الغالب حول الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد.

وتنوّعت أساليب وعظ السلف رحمهم الله للكفار ببين العبرة والتذكير، والترغيب والترهيب، مع مداراتهم، والترفق بهم، حتى لانت قلوبهم، وأذعنت نفوسهم.





تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

المبحث الثاني

أثر مواعظ السلف في المدعوين

وفيه مطلبين:

المطلب الأول: مظاهر تأثر المدعو بمواعظ السلف.

المطلب الثاني: أسباب تأثر المدعو بمواعظ السلف.

المطلب الأول

مظاهر تأثر المدعو بمواعظ السلف

إنّ الناس يتفاوتون في سماع المواعظ، والتأثر بها على مذاهب، ومدار ذلك كله على حضور القلب ويقظته، وعلى طهارته، وصفائه، ونقائه.

والمواعظ تحرك القلوب، وتهزّ النفوس، ويعتري بذلك الجوارح الاضطراب والتجاوب، فتسحّ الدموع، وتقشعر الجلود.

وبناء على ذلك فإن أنواع مظاهر تأثر الموعوظ بالمواعظ كثيرة، ومتفاوتة بين الخلق، ولكن يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة: مظاهر حسيّة، ومظاهر وجدانية، ومظاهر سلوكية.

وفيما يلي تفصيل لهذه المظاهر:

*** أولاً: المظاهر الحسية:**

والمقصود بذلك: المظاهر التي تظهر على جوارح الموعوظ عند سماعه للمواعظ، وهذه المظاهر تأتي تبعاً لتأثر القلب والنفس، وإنما جرى تقديمها، لأمرين اثنين:

- أسوة بالقرآن الكريم حيث جرى تقديم المظاهر الحسية للموعظة على المظاهر الوجدانية في مواطن كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

- ولأنّ المظاهر الحسيّة هي أول ما يبدو ويظهر للناظرين، بخلاف المظاهر الوجدانية فإنّ أثرها يظهر بعد حين، فهي أبطأ ظهوراً، وأطول

أثراً، عكس المظاهر الحسية(١).

• **أنواع المظاهر الحسية:**

يمكن أن نقسّم المظاهر الحسيّة، باعتبار حكمها: إلى مظاهر مشروعة، ومظاهر مختلف فيها، وسيجري الحديث عن هذه المظاهر وفقاً لذلك:

أ ـ المظاهر الحسية المشروعة:

بيّن الله تعالى حال المؤمنين الكُمَّل الخُلَّص عند سماعهم لمواعظ القرآن وغيرها، فما إنْ ترد عليهم المواعظ حتى تقشعر جلودهم، وتنهمل دموعهم، وتخشع أبصارهم، وتستقرّ جوارحهم، ثم تلين جلودهم لهذه المواعظ.

• **فأما اقشعرار الجلد:** فهو مذكور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الأحوال التي كانت في الصحابة ـ عند سماع الوعظ ـ هي المذكورة في القرآن وهي: وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود»(٢).

واقشعرار الجلد عند سماع المواعظ مردّه إلى تقصير العبد في جنب الله، وتعدّيه لحدوده، فورود الموعظة عليه تحدث في الجوارح والجلد بعض الاضطراب.

قال تعالى في وصف القرآن: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فذكر أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله.

«فذكره ـ تعالى ـ بالذات يوجب الطمأنينة، وإنما الاقشعرار، والوجل

---

(١) **انظر:** «صيد الخاطر»، ص١٤.

(٢) «مجموع الفتاوى» ١١/٨.

عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه، والتعدِّي لحدِّه، فهو كالزبد مع ما ينفع الناس، الزبد يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض»[١].

وقد يكون اقشعرار الجلد تابعاً لخوف القلب، ووجله مما يسمع من المواعظ المخوّفة، والزواجر الرادعة، وهذا شأن الجلد مع كلّ المخوِّفات، وهي طبيعة خلقها الله فيه، لفرط حساسيته، وشدّة انفعاله مع اضطرابات النفس[٢].

وهذا الأثر قد لا يكاد يشاهده إلّا صاحبه، أو من يكون قريباً من الموعوظ، ولذلك لم يجر ذكره فيما نُقِل من آثار عن السلف في تأثرهم بالمواعظ.

● **وأما البكاء عند سماع المواعظ**: فقد جرى ذكره في مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى ـ واصفاً بكاء أهل الصدق عند سماع القرآن والمواعظ ـ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقال تعالى ـ في وصف عباد الله المتّقين وشدة تأثرهم عند سماعهم للقرآن والذكر ـ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٩].

ـ والبكاء دليل على حياة القلب، وخضوعه وخشوعه، وإنابته، ولذا جرى مدحه في نصوص كثيرة، فالبكاء من خشية الله يوجب لصاحبه الأمان تحت ظل عرش الرحمٰن، ويوجب له دخول الجنان، والنجاة من النيران، ولو كمل علم العبد لسحّت دموعه في كلّ أوان، ولكن قلّة العلم بالله، وغفلة القلب عن الله توجبان قحط العين.

---

(١) «النبوات»، لابن تيمية ١/ ٨٣.

(٢) **انظر**: «الاعتصام» ١/ ٢٧٤.

عن أنس رضي الله عنه قال: «**خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين**»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع**»[(٢)].

ـ وللسلف رحمهم الله شأن عظيم مع البكاء من خشية الله عند سماع المواعظ:

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب**»[(٣)].

وعن الحارث بن عبيد قال: «كان عبد الواحد بن زيد يجلس إلى جنبي عند مالك ـ بن دينار ـ فكنت لا أفهم كثيراً من موعظة مالك لبكاء عبد الواحد»[(٤)].

ـ وقد يكون البكاء مصحوباً بالنشيج، كما يذكر عن عمر بن عبد العزيز أنّه قرأ عنده رجلٌ: «﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس»[(٥)].

ـ وكان البكاء مشتركاً عند السلف رحمهم الله بين الواعظ والموعوظ:

---

(١) متفق عليه، البخاري ٤/ ١٦٨٩، كتاب: تفسير القرآن، باب: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، رقم (٤٢٢٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ١٨٣٢، كتاب: الفضائل، باب: توقيره وترك سؤاله، رقم (٤٣٥١).

(٢) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٥٥٥، كتاب: الزهد عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل البكاء من خشية الله، رقم (٢٢٣٣)؛ والنسائي ٦/ ١٢، كتاب: الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣٠٥٧)، واللفظ له؛ وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم (٣٨٢٨).

(٣) تقدّم تخريجه. **انظر**: ص٩٤ من هذا البحث.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»، ص٢٠٥، رقم (٢٨٩). **قلت**: وإسناده حسن.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»، ص٨٥، رقم (٨٣). **قلت**: وإسناده صحيح.

فعن بكر بن عبد الله المزني: «أن أبا موسى رضي الله عنه خطب الناس بالبصرة، فذكر في خطبته النار فبكى حتى سقطت دموعه على المنبر، قال: وبكى الناس يومئذ بكاء شديداً»[1].

ـ ومن سمت السلف رحمهم الله الاجتهاد في إخفاء البكاء خوفاً من العجب والرياء، ولربما استعملوا في سبيل ذلك أنواع الحيل المشروعة:

فعن حماد بن زيد قال: «بكى أيوب ـ السختياني ـ مرة فأخذ بأنفه، وقال: إن هذه الزكمة ربما عرضت»، وبكى مرة أخرى فاستكنى بكاءه فقال: إن الشيخ إذا كبر مجّ[2].

وكان حسان بن أبي سنان يحضر مسجد مالك بن دينار، فإذا تكلم مالك بكى حسان حتى يبلّ ما بين يديه، لا يسمع له صوت[3].

ـ وكان وعّاظ السلف رحمهم الله يزجرون الباكي عند الموعظة أحياناً خشية أن يدخل قلبه العجب، أو أن يكون الحامل له على البكاء هو الرياء لا الخوف والخشية:

فعن عبد الله بن حبيب قال: «رأيت محمد بن كعب يقصّ، فبكى رجلٌ، فقطع قصصه، وقال: من الباكي؟ قالوا: مولى بني فلان، قال: فكأنه كره ذلك»[4].

وعن الرملي: «أن الحسن حدث يوماً، أو وعظ، فنحب رجلٌ في مجلسه، فقال الحسن: إن كان لله فقد شهَّرت نفسك، وإن كان لغير الله هلكت!»[5].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧، رقم (٥٧). **قلت**: وإسناده حسن.

(٢) المصدر السابق، ص١٣١، رقم (١٥٣)؛ وأبو نعيم في الحلية ٣/٧؛ وإسناده صحيح. ومعنى: «مجّ»؛ أي: لا يستطيع أن يمسك ريقه من الكبر؛ لسان العرب ٢/٣٦٣ مادة: «مجج».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»، ص١٣٦، رقم (١٦٨). **قلت**: وإسناده حسن.

(٤) المصدر السابق، ص١٣١، رقم (١٥١). **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) المصدر السابق، ص١٣٣، رقم (١٥٧). **قلت**: وإسناده حسن.

• **ومن الآثار الحسية للمواعظ سكون الجوارح:** واستقرارها، ولين الجلود بعد سماع المواعظ، ويكون هذا تبعاً لاطمئنان القلب وسكونه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأثر العظيم عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الوجل تأثر ولين يحصل في القلب بسبب الموعظة، فترى الجلد من أجل ذلك يقشعر، والعين تدمع، واللين إذا حلّ بالقلب ـ وهو باطن الإنسان ـ حلّ بالجلد بشهادة الله ـ وهو ظاهر الإنسان ـ.

فإذا رأيت أحداً سمع موعظة، أيّ موعظة كانت، فيظهر عليه من الأثر ما ظهر على السلف الصالح، علمت أنها رقة هي أول الوجد، وأنها صحيحة لا اعتراض فيها»[(١)].

وكانت هذه حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند سماع المواعظ تسكن جوارحهم وتستقر:

فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولمّا يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً**»[(٢)].

قال في عمدة القاري: «قال الداودي: يعني أن كل واحد صار كمن على رأسه طائر يريد صيده فلا يتحرك كيلا يطير»[(٣)]، وهذا كناية: على السكون والوقار[(٤)].

---

(١) «الاعتصام» ١/ ٢٨٠.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٦٥٢، كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤١٢٧)؛ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤/ ٣.

(٣) «عمدة القاري» ١٤/ ١٣٦.

(٤) «النهاية في غريب الأثر» ٣/ ٣٣٤.

ب ـ المظاهر الحسّية المختلف فيها:

إنّ المواعظ قد تحدث عند سامعها اضطراباً، وصياحاً، وصعقاً، وربّما موتاً.

وهذه الآثار لم تكن موجودة في جيل الصحابة وإنما وجدت في عصر التابعين ومن بعدهم، فأنكرها بعضهم، وأجازها الآخرون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وله ـ أي: سماع المواعظ ـ في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد.

وقد ذكر الله هذه الثلاثة: في القرآن، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنى عليهم في القرآن.

وَوُجِد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة: الاضطراب، والاختلاج والإغماء أو الموت، والهيام.

فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم، وإما لحبهم.

وأما جمهور الأئمة والسلف: فلا ينكرون ذلك، فإنّ السبب إذا لم يكن محظوراً، كان صاحبه فيما تولّد عنه معذوراً»[١].

وفيما يلي بيان مفصّل لآراء السلف رحمهم الله في هذه الآثار المحدثة:

● **الرأي الأول**: يرى أصحابه أنّ هذه الأحوال مذمومة، مبتدعة.

ومن جملة ما استدلوا به: أنّ هذه الآثار محدثة مبتدعة لم تكن في جيل الصحابة الذين هم أكمل الناس إيماناً وأشدهم خشوعاً، ولأنّ هذه الأفعال والآثار من سمات الخوارج والمبتدعة، وأنّ أغلبها ناشئ عن رياء، وفيما يلي بعض النقول عن السلف في ذلك:

ـ عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله؛ تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم.

(١) «مجموع الفتاوى» ١١/ ٥٩١.

قلت: إنّ ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك، تأخذهم عليه غشية.

فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[(١)].

- وعن أبي حازم قال: مر ابن عمر برجل من أهل العراق ساقط، والناس حوله فقال: ما هذا؟ فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن أو سمع اللهَ يُذْكَر، خرَّ من خشية الله.

قال ابن عمر: والله إنا لنخشى الله، ولا نسقط!!»[(٢)].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سُئِل عن القوم، يُقرأ عليهم القرآن فيصعقون، فقال: ذلك فعل الخوارج»[(٣)].

- وعن جابر بن عبد الله أنّ: «ابن الزبير رضي الله عنه قال: جئت أبي، فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً يذكرون الله، فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله، فقعدت معهم، فقال: لا تقعد بعدها!.

فرآني كأنه لم يأخذ ذلك في، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر؟.

فرأيت ذلك كذلك فتركتهم»[(٤)].

- وسُئِل محمد بن سيرين: عن الرجل يقرأ عنده فيصعق؟ فقال: ميعاد ما بيننا وبينه أن يجلس على حائط، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن وقع فهو كما قال»[(٥)].

- قال القرطبي رحمه الله - بعد أن ذكر أحوال الصحابة عند سماع الذكر -: «لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام؛ من الزعيق، والزئير، ومن

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٢/ ٣٦٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد في «الزهد»، ص١٩٣؛ وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣١٢. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، ص٣١١. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ١٦٨. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٦٥. **قلت**: وإسناده صحيح.

النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وُجْدٌ وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ﷺ ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله»[١].

● **الرأي الثاني**: فإنهم يرون أنّ أصحاب هذه الآثار مغلوبٌ عليهم، ليس لهم حيلة في دفع، أو ردّ هذه الأحوال.

وقد شهد بعض الصحابة من تلاميذهم بعضاً من هذه الأحوال ولم ينكروا عليهم، لعلمهم أن حيلتهم تضعف عن مقاومة ذلك.

فعن أبي وائل قال: «خرجنا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومعنا الربيع بن خيثمة، فمررنا على حدَّادٍ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها فتمايل ليسقط.

ثم إنّ عبد الله مضى كما هو، حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون[٢]، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ - إلى قوله: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣] فصعق الربيع، ثم غشي عليه.

فاحتملناه فأتينا به أهله - قال - ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق، فرابطه إلى المغرب فأفاق، ورجع عبد الله إلى أهله»[٣].

قال الشاطبي رحمه الله معلّقاً على هذه القصّة: «فهذه حالات طرأت لواحد من أفاضل التابعين بمحضر صحابي، ولم ينكر عليه، لعلمه أنّ ذلك خارج عن طاقته، فصار بتلك الموعظة الحسنة كالمغمى عليه فلا حرج إذاً»[٤].

وعن قتادة قال: «دخل على عمر بن عبد العزيز رجل يقال له: ابن

---

(١) «تفسير القرطبي» ٧/ ٣٢١.
(٢) الأتون: هو الموقد الذي يوقد عليه القدر وغيره؛ لسان لعرب ١٣/ ٧، مادة: «أتن».
(٣) رواه أحمد في «الزهد»، ص٣٣٣؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١١٠. **قلت**: وإسناده حسن.
(٤) «الاعتصام» ١/ ٢٠٨.

الأهتم، فلم يزل يعظه، وعمر يبكي حتى سقط مغشياً عليه»[١].

• **الترجيح:**

لا شك أنّ أكمل الأحوال ما كان عليه الصحابة عند سماع القرآن والمواعظ، أما الاضطراب والصعق؛ وإن كان أمراً محدثاً إلّا أنّه معفوٌّ عنه إذا كان صادراً عن صدقٍ لا عن رياء، وإذا جهد صاحبه في دفعه ولكن لا حيلة له معه، فحين ذلك لا حرج عليه.

«والمنكرون لهم مأخذان:

منهم: من ظنّ ذلك تكلفاً، وتصنعاً، يذكر عن ابن سيرين أنه قال: «ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلّا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خرّ فهو صادق».

ومنهم: من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن أسماء، وابنها عبد الله.

والذي عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه، لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فقال: «قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه» ونحو هذا.

وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة.

وبالجملة فهذا كثيرٌ ممن لا يستراب في صدقه، لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة فى القرآن وهي وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود.

وقد يَذُمُّ حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب، والرين عليها، والجفاء

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»، ص١٠٩، رقم (١١٦). **قلت**: وإسناده لا بأس به.

عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها وكلا طرفي هذه الأمور ذميم[١].

● **تنبيه:**

ما أشرنا إليه آنفاً من آثار الموعظة المختلف فيها، لا يشمل ما يفعله المبتدعة الطغام من ضرب الصدور وشقّ الجيوب، فإنّ ذلك منكرٌ باتفاق العلماء.

قال الإمام الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند كلامه على حديث العرباض في الموعظة ـ: «ميزوا هذا الكلام، فإنه لم يقل صرخنا من موعظة، ولا طرقنا على رءوسنا، ولا ضربنا على صدورنا، ولا زفنا، ولا رقصنا، كما يفعل كثير من الجهال: يصرخون عند المواعظ، ويزعقون، ويتناشون، قال: وهذا كله من الشيطان، يلعب بهم، وهذا كله بدعة، وضلالة»[٢].

*** ثانياً: المظاهر الوجدانية:**

إنّ المواعظ الصادقة تنفذ إلى القلوب فتحدث فيها آثاراً زكيّة، وأحوال إيمانية، وخشوعاً، وإنابة، وإخباتاً.

● **فأما خشوع القلب ووجله:** فمردّه إلى ما يطرأ عليه من المخوِّفات والزواجر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

«فهذه الآية تتضمن توبيخاً وعتاباً لمن سمع هذا السماع، ولم يحدث له في قلبه صلاحاً، ورقة، وخشوعاً؛ فإنّ هذا الكتاب المسموع يشتمل على نهاية المطلوب، وغاية ما تصلح به القلوب، وتنجذب به الأرواح المعلقة بالمحل الأعلى إلى حضّ المحبوب، فيحيى بذلك القلب بعد مماته، ويجتمع بعد شتاته، وتزول قسوته بتدبر خطابه، وسماع آياته»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١١/٨.

(٢) نقله الشاطبي في «الاعتصام» ١/٢٠٨.

(٣) «نزهة الأسماع في مسألة السماع»، لابن رجب، ص٨١.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، وحذرت مخالفته، فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة يقينهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه»[1].

وقال أيضاً: «والوجل: الفزع من عذاب الله»[2].

«والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما: التواضع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمَّن عبوديته لله، وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع، والسكون»[3].

• **وأما سكون القلب واطمئنانه**: فهذه المرحلة تلي الخشوع والوجل، فإنّ القلب يستقرّ ويسكن ويطمئن بعد اضطرابه ووجله، وهذا من أعظم آثار الموعظة على القلوب.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «تلين قلوبهم؛ أي: تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله»[4].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

«وطمأنينة القلب: سكونه، واستقراره بزوال القلق والانزعاج، والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى، وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور، والثقة به عجز»[5].

• **وأما زيادة الإيمان**: عند سماع المواعظ؛ فهي حال المؤمنين التي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/٥٨.
(٢) المصدر السابق ١٢/.
(٣) «مجموع الفتاوى» ٧/٢٨.
(٤) «تفسير القرطبي» ٧/ ٣٢١.
(٥) «الروح»، لابن القيم، ص٢٢٠.

امتدحهم الله تعالى عليها فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال القرطبي رحمه الله: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ﴾؛ أي: تصديقاً، فإنّ إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أمس، فمن صدَّق ثانياً، وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم، وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات، والأدلة»[١].

* ثالثاً: المظاهر السلوكية:

وهذه المظاهر هي ثمرة المواعظ، وغايتها التي تُرتجى، فالمنتفع حقيقة بالموعظة هو من تولّد في داخله العزم على التوبة، والتشمير للجدّ والاجتهاد، والمضيّ في ذلك.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فالواعظ إذا كان كامل العلم، وصادق القصد، عمّ نفعه، واجتلب إلى باب الله سبحانه عداداً زائداً عن الحدّ ما لا يقدر على اجتلاب عشر عشره فقيه، ولا محدِّث، ولا قارئ»[٢].

والخلق يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في التأثر الوجداني والسلوكي بالموعظة، والناس على ثلاثة مذاهب في التأثر بالموعظة:

فمنهم: من يتأثر بالموعظة، فيعزم بلا تردد على المضي إلى الأمام والسعي في الجد والاجتهاد.

ومنهم: من يتأثر بالموعظة أحياناً، فطبيعة نفوسهم في الأصل أنها تميل إلى الغفلة.

ومنهم: من لا يتأثر بالموعظة إلا بمقدار سماعه لها فقط.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القساوة والغفلة! فتدبرت السبب في ذلك فعرفته.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٧/ ٣٢١.
(٢) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٧٠.

ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أنّ القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع الموعظة، وبعدها لسببين:

أحدهما: أنّ المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أنّ حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل، اجتذبته بآفاتها، وكيف يصحّ أن يكون كما كان؟.

وهذه حالة: تعمّ الخلق، إلّا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر:

فمنهم: من يعزم بلا تردد، ويمضي من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه: «نافق حنظلة! ».

ومنهم: أقوامٌ يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحياناً، فهم كالسنبلة تميلها الرياح!.

وأقوامٌ: لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه، كماء دحرجته على صفوان»[(١)].

وللحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأي آخر في تفاوت الناس في درجات الانتفاع بالمواعظ، حيث يقول: «فإذا انقضى مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام:

فمنهم: من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر، ولا يزداد هدى، ولا يرتدع عن رديء، وهؤلاء أشر الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم، فتزداد به عقوبتهم، وهؤلاء الظالمين لأنفسهم.

ومنهم: من ينتفع بما سمعه وهم على أقسام:

فمنهم: من يرده ما سمعه عن المحرمات، ويوجب له التزام الواجبات.

---

(١) «الخاطر»، ص١٤.

ومنهم: من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات، والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات، وهؤلاء السابقون المقربون.

وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ما سمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام:

فقسم: يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة، فيشتغلون بها، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر، من استحضار عظمة الله، وجلاله، وكبريائه، ووعده ووعيده، وثوابه، وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم، وشدة خوفهم أن يكون نفاقاً، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس نفاقاً.

ومعنى هذا: أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جداً، ولا يقدر كثير من الناس، أو أكثرهم عليه، فيكتفي منهم بذكر ذلك أحياناً، وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه، ويحزنه ذلك من نفسه.

وقسم آخرون: يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازماً لهم، وهؤلاء على قسمين:

أحدهما: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم، ولا القيام بوفاء حقوقهم، وكان كثير من السلف على هذه الحال، فمنهم من كان لا يضحك أبداً، ومنهم من كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

والثاني: من يستحضر ذكر الله، وعظمته، وثوابه، وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال، والقيام على العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه؛ كتعلم العلم، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهؤلاء أشرف

القسمين، وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي ﷺ: «صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى».

ثم قال: «...فالمواعظ سياط تضرب القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التأليم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر، فكان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة، والوقار.

فمنهم: من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك، **ومنهم**: من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة»(١).

• وبهذا نتبيّن فضل السلف رحمهم الله، حيث كان تأثرهم بالقرآن والمواعظ أكمل تأثر؛ شمل دمع العين واقشعرار الجلد، مصحوباً بصلاح القلب واستقامة العبد على أمر الله، بخلاف ما أحدثه المبتدعة من الصعق والصراخ من غير موجب ولا اضطرار.



(١) **انظر**: «لطائف المعارف»، ص٤٧ ـ ٥١.

المطلب الثاني

أسباب تأثر المدعو بمواعظ السلف

لا يحصل الانتفاع بالموعظة إلّا إذا اجتمعت شروطه، وانتفت موانعه، ومدار ذلك على صلاح الواعظ، وكمال علمه، وصحة قلب الموعوظ، واستعداده، وقوة الموعظة في موضوعها ومنهجها، وأسلوبها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتخلُّف الاهتداء ـ والانتفاع بالموعظة ـ يكون: لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلّا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة»[١].

وقال أيضاً: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، وتذكر الوعد والوعيد»[٢].

وفي هذا إشارة إلى أنّ أسباب التأثر بالموعظة ترجع إلى ثلاثة أطراف: الواعظ، والموعوظ، والموعظة، وفيما يلي تفصيلٌ لهذه الأسباب الثلاثة:

* أوّلاً: الأسباب المتعلّقة بالواعظ:

إنّ الواعظ إذا جمع الصفات التي سبق ذكرها[٣]، من التقوى والصلاح والعلم والإخلاص وسلامة القصد، مع موافقة القول للعمل، كان لوعظه وقعاً، ولكلامه نفعاً.

وقد استوفينا الكلام عن هذه الصفات، وهي في نفس الوقت أسباب لتأثير الواعظ في الموعوظين، فعلى قدر استيفائه لهذه الصفات يكون تأثيره.

(١) «إغاثة اللهفان» ٢/ ١٧١.

(٢) «مدارج السالكين» ١/ ٤٤٥.

(٣) انظر: ص٤٦٢.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بعد أن ذكر طرفاً من الصفات الضرورية للوعّاظ ـ: «ومدار ذلك كلّه على تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنّه بمقدار تقواه يقع كلامه في القلوب، وقال بعض السلف: إنّ الموعظة إذا خرجت من قلب الصادق، وقعت في القلب.

ثم يصحّح قصده، فإنّه إذا صحّ قصده صرف الله القلوب إليه»(١).

وقال ذر لأبيه عمر بن ذر: «ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سُمع البكاء من ها هنا وها هنا؟ قال: يا بني! ليس النائحة المستأجرة؛ كالنائحة الثكلى»(٢).

فالموعظة إن خرجت من قلب صادق دخلت إلى القلب، وذلك لأنها تشربت من صدق القلب الأول، فأدى ذلك إلى تأثر القلب الثاني، وإن خرجت من قلب منافق كذاب لم تجد موقعاً.

ـ ومن أعظم أسباب التأثر بالواعظ: عمل الواعظ بما يقول.

لأنّ النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه بل الطبيب المذكور عندهم أحسن حالاً من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم عنده دواء آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرى أنّ به قوة على ترك التداوي، وقد يقنع بعمل الطبيعة، وغير ذلك.

بخلاف هذا الواعظ؛ فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة، لا يقوم غيرها مقامها، ولا بد منها، ولأجل هذه النفرة قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال بعض السلف: «إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي، فإذا

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص١٨٢.

(٢) رواه أحمد في «الزهد»، ص٣٥٧؛ وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١١٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

وقد قيل:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ ... هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا ... كيما يَصحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ
لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثلَهُ ... عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ
ابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها ... فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأَنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيَهتَدي ... القَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ[1]

* ثانياً: الأسباب المتعلّقة بالموعوظ:

لقد بيّن الله تعالى في كتابه الكريم، شرط الانتفاع بالذكرى والمواعظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فالله سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله، لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها[2].

والقلب هنا: عبارة عن العقل، إذ هو محله، والمعنى: لمن كان له قلب واع ينتفع به.

وقيل: قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه، ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع، فذلك: إلقاء له عليها.

(١) هذه الأبيات للمتوكّل الليثي. **انظر**: «المستطرف في كل فن مستظرف» ١/ ٤٨.
(٢) **انظر**: «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٦٩.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] قيل: أي: شاهد مقبل على الأمر، غير معرض عنه، ولا مفكر في غير ما يسمع، وقيل: قلبه حاضر فيما يسمع[(١)].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره، ويشهده لما يلقى إليه، فإن كان غائباً عنه، مسافراً في الأماني، والشهوات، والخيالات لا ينتفع به.

فإذا أحضره، وأشهده لم ينتفع، إلّا بأن يلقى سمعه، ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به، ويرشد إليه، وها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع، وإصغاؤه، والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية»[(٢)].

• **فأما سلامة القلب وصحته**: فإن الركن الأساسي في مدار التأثر بالموعظة من عدمها، هو بمقدار صلاح، ونقاء، وتقوى القلب، فكلما كان القلب ممتلئاً بتقوى الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ كلما كانت الموعظة تأثر فيه، وكلما كان القلب فارغاً من تقوى الله، كلما كان أثر الموعظة قليل، إلى أن يصل التأثر بها بمقدار سماعه لها، فيصبح القلب كمثل الماء الذي لو دحرجته على الحجر الأملس؛ فهل يثبت الماء!.

فبمقدار تقوى العبد، وصدق سريرته، وبعده عن المعاصي والآثام، يكون تأثره، وهذا ما يفسِّر سرعة، وغزارة دمع الأتقياء حال سماعهم للمواعظ والذكرى:

ـ فعن أبي المهاجر: عن مكحول قال: «أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً»[(٣)].

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٧٠. (٢) المصدر السابق ١/ ١٧٠.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١٨٠. **قلت**: وإسناده صحيح.

ـ وعن فياض بن محمد قال: كان شيخ هٰهنا من قريش سريع الدمعة كثيراً، وكان ما علمته من المتهجدين؛ قليل الآثام معتزلاً للناس؛ فذكرته يوماً لبعض علمائنا، فقلت: هذا الشيخ طويل الاجتهاد، وما أظنه اقترف إثماً مذ خمسون عاماً، أو ما شاء الله، ثم هو الدهر يبكي.

فقال لي الرجل: ما ينبغي أن يكون مثله إلّا هكذا ندي العينين دهره.

قلت: وكيف ذاك؟.

قال: لأنّ البدن إذا عري دق، فذاك القلب إذا قلت خطاياه سرعت دمعته.

قال: فعلمت أن ذاك كما قال»[(١)].

• **وأما حضور القلب وشهوده**: فلا بد للموعوظ أن يحضر قلبه، ويجمع شتاته، وإلّا لم يكد ينتفع بموعظة ولا ذكرى، ما دام قلبه غافلاً، ساهياً، لاهياً.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الآية: ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ـ، تضمنت تقسيماً، وترديداً بين قسمين:

أحدهما: من كان له قلب، **والثاني**: من ألقى السمع، وحضر بقلبه، ولم يغب؛ فهو حاضر القلب، شاهده، لا غائبه، وهذا والله أعلم سرّ الإتيان بأو دون الواو.

لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه، ويحضره، ويجمعه من مواضع شتاته؛ بل قلبه واع زكي قابل للهدى، غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلّا إلى وصول الهدى إليه فقط، لكمال استعداده، وصحّة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»، ص٧٥، رقم (٦٧). **قلت**: وإسناده لا بأس به.

قلبه إلى قبوله، كأنه كان مكتوباً فيه، فهو قد أدركه مجملاً، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رضي الله عنه.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد، والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته، وحسنه بنظره، واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين»[(١)].

● **وأما إلقاء السمع للموعظة**: فالمراد بإلقاء السمع إصغاؤه، وإقباله على الواعظ، وتفريغ سمعه له؛ لأنّ السمع هو أداة الوعي، وطريق الفهم.

ولهذا ندب الله تعالى عباده للاستماع والإنصات للقرآن حال تلاوته، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فمدح المنصت لاستماع كلامه، مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، لأنّ بذلك يُنَال الفهم عن الله تعالى.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: «من أدب الاستماع، سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم».

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً»[(٢)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٦٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٦٠.

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقال بعض السلف: «إذا جالست العالم فكن على أن تسمع، أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم، والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها، وعدم مراعاتها»(١).

كما امتدح الله تعالى عباده المؤمنين بكمال سمعهم واتّباعهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وقد أدرك الكفّار أنّ السمع هو طريق الفهم والهداية، قال تعالى في حكاية قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

• **وأما شدة الافتقار للموعظة**: فقد جعلها ابن القيم رحمه الله من أسباب الانتفاع بالموعظة؛ لأنّ المتذكّر المنيب لا يحتاج إلى العظة، بقدر حاجة الغافل إليها، فإذا استشعر العبد هذا الفقر، وهذه الحاجة، قوي إقباله على الموعظة، واشتدّ انتفاعه بها(٢).

• **وأما تذكّر الوعد والوعيد**: فإنّه السبيل للانتفاع بالموعظة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلّا لمن آمن به وخافه ورجاه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٦٩.

(٢) **انظر**: «مدارج السالكين» ١/ ٤٤٥.

فالوعد والوعيد وذكره شرط في الانتفاع بالعظات، والآيات، والعبر، يستحيل حصوله بدونه»[١].

* ثالثاً: الأسباب المتعلقة بالموعظة:

الموعظة كالسياط، كلما كان ضرب السياط على الجسم قوي وشديد كلما بقي أثر السياط من الحمرة على الموضع، وكان به من الآلام من قبل قوة السوط، وهكذا مع الموعظة، فكلما كانت الموعظة قوية في أسلوبها، سليمة في منهجها، كلما كان لها الأثر الإيجابي على صلاح القلب المستقبلُ، والعكس صحيح.

فإذا كانت الموعظة مشتملة على الترغيب والترهيب، وذكر الوعد والوعد، متنوّعة في أساليبها، ووسائلها، نقيّة في مضامينها؛ كان التأثر بها شديداً، والانتفاع بها عظيماً.

وقد سبقت الإشارة إلى أهمية تنوّع أساليب الوعظ ووسائله، وكذا مضامينه، ولا حاجة لتكراره ها هنا، فلينظر في محلّه[٢].

ولهذا كانت مواعظ القرآن أبلغ العظات، وأشدّها تأثيراً، ويليها في ذلك مواعظ السنّة المطهّرة، ثم مواعظ الصحابة، فالتابعين، وتابعيهم، لقوّة عباراتها، وتنوّع أساليبها.

ـ وكذلك قد يكون للموعظة أثرٌ بالغ إذا اقترنت ببعض الأحوال، أو الأزمان.

ومن ذلك موعظة الراحل المودّع فإنّ من شأن هذه الموعظة أن تنفذ للقلوب وتحدث أثراً عظيماً، كما جاء في حديث العرباض بن سارية ﷺ: **«قلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودّع»**[٣].

لما رأوا من بلاغتها، وشدّة تأثيرها.

---

(١) «مدارج السالكين» ١/ ٤٤٧.

(٢) **انظر**: الصفحات التالية: ص٢٧٥، ٤١١ من هذا البحث.

(٣) تقدّم تخريج الحديث. **انظر**: ص١٣٦.

قال ابن رجب في شرح الحديث: «إنّ المودع يستقصي ما لم يستقص غيره، في القول، والفعل، ولذلك أمر النبي ﷺ أن يصلي صلاة مودع؛ لأنه من استشعر أنه مودع بصلاته أتقنها على أكمل وجوهها»[١].

ونجد أيضاً المواعظ الموسمية المرتبطة بأحداث وأزمان معيّنة، يكون لها أشدّ التأثير، كخطب الجمعة، والعيدين، وخطبة عرفة، وخطبة الاستسقاء، وغيرها[٢].

• وبهذا ندرك سرّ تأثر الناس بمواعظ السلف رحمهم الله على امتداد العصور والأزمان، وما ذاك إلّا لصلاح الوعّاظ وصدقهم ومطابقة أقوالهم لأفعالهم، ولقوة مواعظهم التي جمعت بين سلامة الأسلوب، وعمق الفهم، والبداءة بالأهم.

فإذا صادفت هذه المواعظ قلباً مفرّغاً، وذهناً يقظاً، وسمعاً شاهداً، بلغ التأثر بالمواعظ مبلغاً.



(١) «جامع العلوم والحكم»، ص٢٦١.
(٢) «تقدّم الحديث عن أنواع الخطب». **انظر**: ص٤٢٧ من هذا البحث.

الفصل السادس

المخالفون لمنهج السلف في الوعظ

ويتضمّن تمهيد، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: القصاص المخالفون لمنهج السلف في الوعظ.

المبحث الثاني: مخالفات الصوفية لمنهج السلف في الوعظ.

المبحث الثالث: الجماعات المخالفة لمنهج السلف في الوعظ في العصر الحاضر.



تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

تمهـــيد

اقتضت إرادة الله تعالى الكونية؛ أن يتنكّب أقوامٌ صراط الله المستقيم، ومنهجه القويم، ويمتطوا صهوة الشبهات، فتسلك بهم سبل الضلال، وتنقلهم من الهداية إلى الغواية(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «الآية عامة في كل مَنْ فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإنّ الله بعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق؛ فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملل، والنحل، والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإنّ أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»(٣).

و«**الجماعة**»: هم الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله(٤).

---

(١) **انظر**: «دقائق التفسير»، لابن تيمية ٢/٥٢٨. (٢) «تفسير ابن كثير» ٢/٢٦٢.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه ٢/١٣٢٢، كتاب: الفتن، باب: افتراق الأمم، رقم (٣٩٩٢)، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده ١٩/٢٤١، رقم (١٢٢٠٨)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، رقم (٢٠٤٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم»، ص٢٦٣.

وهذا الافتراق الحاصل في هذه الأمة، شمل أصول الدين، والدعوة، ولهذا وجد من الطوائف والملل ـ التي فارقت الجماعة ـ من ابتدع في أصول الدعوة، ومناهجها، عن جهل تارة، وعن تأوُّل تارة أخرى.

ولما كان الوعظ قسيماً للدعوة الإسلامية في أصولها، ومضامينها، وأساليبها، فقد حدث الابتداع في أسسه، ومضامينه، وأساليبه، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

أ ـ أنواع المخالفين لمنهج السلف في الوعظ:

ضلّت طوائف كثيرة في باب الوعظ والتذكير، وكان ضلالها هذا تبعاً لانحرافها في أصول التلقي، وفي باب المقاصد، والوسائل.

ولكن الانحراف في باب الوعظ وُجِد أوّلاً عند القصّاص، الذين ابتدعوا طرقاً منكرة في الوعظ، واختلقوا الأحاديث المكذوبة لترغيب الناس.

ثم تتابع هذا الانحراف فمسّ طوائف كثيرة؛ وعلى رأسهم الصوفية ـ أدعياء الزهد، والوُجد، والمحبة الإلهية ـ فظهرت مجالس الذكر البدعية، وانحرف مضمون الوعظ انحرافاً خطيراً بالدعوة إلى الرهبنة، والعزلة، وترك الكسب، وغيرها من الأمور المحدثة.

ولا زال هذا الابتداع يتّسع حتى تلبَّست به بعض الفرق الإسلامية التي حملت لواء الدعوة إلى الله تعالى في العصر الحاضر.

فبدرت بادرة سوء تدعو إلى تجديد الخطاب الديني، والوعظي؛ في مضامينه، وأساليبه، وظهر أيضاً: مَنْ اتّخذ مِنَ الوعظ مصيدة يصطاد بها قلوب المغفلين، من أجل تسخيرهم لأغراضٍ حزبية، أو دنيوية، أو غير ذلك من الأغراض المشبوهة.

من أجل هذا كان من الضروري بيان حال هؤلاء المخالفين، كيف لا؟ وقد لُبِّس على كثير من عامة الناس، بل ومثقفيهم، فظنوا أنّ منهج الوعظ الصحيح هو ما عليه هؤلاء المرجفون، والمضلّون، بينما أهل الحقِّ

ـ المتّبِعون لهدي السلف الصالح ـ غرباء بين أقوامهم، يُنْعَتون بالجمود تارة، وبالغلو تارة أخرى.

لأجل هذا حاولت في هذا الفصل كشف القناع عن مخالفات هؤلاء ـ سواء كانوا أفراداً، أو جماعات، أو أصحاب مذاهب ـ والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

ب ـ أهمية معرفة منهج المخالفين للسلف في باب الوعظ:

قد يقول قائلٌ: إنّ معرفة سبيل الحقّ هي الغاية، فما الحاجة من بيان سبل الضلال؟ فالإجابة عن هذا الإشكال: تتّضح من خلال بيان فوائد معرفة طرق الغواية ومعالمها، والتي تظهر من خلال الأمور التالية:

١ ـ إظهار نور الحق، وكشف زيف الضلال:

قد يُغَيَّبُ الحقُّ أحياناً، وتندرس معالمه، فيلتبس الحقّ بالباطل، فلا بد حينها من بيانٍ لزيف هذا الباطل، حتى لا يغترّ ببهرجه المغترّون، ولا ينخدع بزخرفه المغفّلون.

كما أنّه لا يمكن معرفة نعمة الحقّ إلّا ببيان زيف الباطل، وكما قيل: «وبضدها تتميّز الأشياء».

٢ ـ بيان نعمة اتِّباع منهج السلف:

وذلك حين يقف المرء على الويلات والمخاطر التي جلبها اتِّباع طريق المبطلين، من تفرّق، وتشرذم، وبُعْدٍ عن صراط الله القويم، فإذا كان سبيل السلف الصالح ـ المتمثِّل في التمسّك بهدي الكتاب والسنّة ـ هو السبيل للعصمة من الزلل، والنجاة من الخطل، فإنّ تنكّب هذا السبيل هو سبب كلّ بليّة، وشرارة كلّ فتنة ورزيّة.

٣ ـ الثبات على الحقّ:

إنّ الفتن تَرِدُ على الناس تباعاً، وكذا البدع والضلالات، فإذا لم تكن

عند المرء معرفة مفصّلة بسبيل الغاوين، لم يكد يدرأ عن نفسه هذه الشبهات التي ترد عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عرف الشر وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه، فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له، ومعرفته بالشر وبغضه له، أكمل ممن لم يعرف الخير والشر، ويذقهما، كما ذاقهما، بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنّه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»[1].

وقال الشاعر[2]:

عَرَفتُ الشَرَّ لا لِلشَر ... ولَكِن لِتَوَقّيهِ

وَمَن لَم يَعرِفِ الشَرَّ ... مِنَ الخَيرِ يَقَع فيهِ



(١) «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٠١.

(٢) هذه الأبيات لأبي فراس الهمداني. **انظر**: «يتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي ١/ ٨٤.

المبحث الأول

القُصَّاص المخالفون لمنهج السلف في الوعظ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مخالفات القصاص في الوعظ قديماً وحديثاً.

المطلب الثاني: إنكار السلف لمخالفات القصاص.

المطلب الأول

مخالفات القُصَّاص في الوعظ قديماً، وحديثاً

* أوّلاً: مخالفات القُصَّاص المتقدّمين:

أنكر بعض السلف رحمهم الله القَصَصَ[١] لما رأوه من انحراف، ومخالفات عند كثير من القُصَّاص، وهذه المخالفات والمنكرات يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ منكرات في الأفعال ٢ ـ ومنكرات في الأقوال ٣ ـ ومنكرات في المقاصد.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لمَا كان الخطاب بالوعظ في الأغلب للعوامّ، وَجَدَ جُهَّالٌ من القُصَّاص طريقاً إلى بلوغ أغراضهم، ثمّ ما زالت بدعهم تزيد حتّى تفاقم الأمر، فأتوا بالمنكرات في الأفعال، والأقوال، والمقاصد»[٢].

١ ـ المنكرات الفعلية:

وهذه المنكرات على نوعين، منها: ما يتعلّق بالواعظ، ومنها ما يختصّ بالمستمعين.

أ ـ المنكرات الفعلية للقاصّ:

أحدث القُصَّاص بدعاً منكرة في هيئاتهم، وفي مكان قصصهم، قصد جلب القلوب إليهم، وقصد إظهار التخاشع، وغير ذلك من المقاصد الذميمة.

---

(١) سبق معنا تفصيل خلاف السلف في حكم القَصَص. **انظر**: ص٤٥٤ من هذا البحث.

(٢) «القصّاص والمذكرين»، ص٢٩٥؛ **وانظر**: «تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص»، ص٢٧٤.

● **أما ما يتعلّق بالمكان:**

- فإنهم أحدثوا إلباس المنبر الخرق المتلوّنة كأنها المنثور[١]، مخالفين بذلك هدي الرسول ﷺ في صفة منبره، حيث كان من خشب فقط، ولم تكن عليه خرق، ولا غيرها من الزينة.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «**أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة؛ أن انظري غلامك النجار يعمل لي أعواداً أكلِّم الناس عليها، فعمل هذه الثلاث درجات**»[٢].

قال في «الإبداع في مضار الابتداع»: «وكذلك البيارق[٣] التي تنصب على جانبي المنبر، والستارة التي تسبل على بابه، وبعض الخطباء يستتر بهذه البيارق؛ لأنه لسوء حفظه يقرأ الخطبة في الورق، وبذلك يضيع أثر الخطبة في نفوس السامعين»[٤].

- ومن ذلك أيضاً: تعليق المصلّى على الحائط، فتضرب له المسامير في حائط المسجد، وهذا من جنس ستر الجُدُر بالأثواب[٥] - وقد كرهه جماعة من السلف[٦] -.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فإنّ ذلك - أي: إلباس المنبر، وتعليق المصلَّى على الحائط - يوجب في القلوب هيبة للقائل، أكثر من هيبة مَنْ هو على خشبة مُعرّاةٍ، فيقرب أمره»[٧].

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٢٩٥.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ١/٣٨٦، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، رقم (٨٤٧).

(٣) «البيارق»: هي السيوف، مفردها: بارقة؛ لسان العرب ١٠/١٤، مادة: «برق».

(٤) «الإبداع في مضار الابتداع»، لعلي محفوظ، ص١٧٧.

(٥) «القصّاص والمذكرين»، ص٢٩٥.

(٦) ستر الجُدُر بالأثواب كرهه جماعة من السلف، منهم: أبو أيوب الأنصاري؛ وابن عمر رضي الله عنهم، وغيرهما. **انظر**: تفصيل الأقوال في المسألة في «فتح الباري» ٩/٢٤٩.

(٧) «القصّاص والمذكرين»، ص٢٩٥.

• **أمّا ما يتعلّق بهيئة القاصّ، ولباسه:**

فقد ابتدع القصّاص هيئات معيّنة، وتحلّوا بأنواع من الثياب، تصنّعاً، ورغبةً في صرف القلوب والوجوه إليهم، ومن تلك الهيئات:

ـ تخاشع القاصّ زيادة على ما في قلبه، وفيهم من يرتعد، ويتباكى تصنّعاً.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ ـ عند بيانه لتلبيس إبليس على القصّاص ـ: «ومن ذلك: من يظهر من التواجد، والتخاشع، زيادة على ما في قلبه، وكثرة الجمع توجب زيادة تعمل، فتسمح النفس بفضل بكاء، وخشوع، فمن كان منهم كاذباً فقد خسر الآخرة، ومن كان صادقاً لم يسلم صدقه من رياء يخالطه»[١].

ويكشف ابن الجوزي بعض حيل هؤلاء القصّاص فيقول: «ورأيت قاصاً كان إذا صعد المنبر غطّى وجهه، وارتعد إلى أن يفرغ القرّاء من القراءة، يفعل ذلك دائماً»[٢].

وقال أيضاً: «ورأيت في كتاب صنّفه عزيزي[٣] أنّ في القصّاص من يتبخّر بالزيت، والكمون ليصفرّ وجهه، وبلغني أنّ منهم من يمسك معه ما إذا شمّه سال دمعه، وفيهم من يخرق أثوابه، ويرمي نفسه مِنْ على المنبر تواجداً.

ومن ذلك: ما يظهر من بعضهم عند قراءة البسملة من الصعود والنزول، والإيقاع بالقدم، ما يشبه الخنكرة[٤].

وقال أبو الحسين الخيّاط[٥]: «مررت بأبي عبد الله غلام خليل[٦] وهو

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص١٤٣. (٢) المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٣) هو: عزيزي بن عبد الملك، المعروف: بشيذلة الواعظ، توفي سنة: ٤٩٤هـ؛ «كشف الظنون» ١/ ٢٤١.

(٤) كلمة تستعمل فيمن يعمل عملاً يتظاهر فيه أمام الناس بشيء، ذكره محقق: «القصاص والمذكرين»، ص٢٩٦.

(٥) عبد الملك بن أحمد بن نصر، أبو الحسين الخيّاط، ثقة، توفي سنة: ٣١٨هـ؛ تاريخ بغداد ١٠/ ٤٢٧.

(٦) أحمد بن محمد بن غالب، أبو عبد الله الباهلي، المعروف: بغلام خليل، كان من القصّاص المرموقين، ولكنه في عداد الوضاعين، توفي سنة: ٢٧٥هـ؛ «تاريخ بغداد» ٥/ ٧٨.

في مجلسه في بغداد ـ أي: مجلس القصص ـ وقد قام على أربع، فقلت لبعض أهل المجلس: ويحكم!.

ما شأن أبي عبد الله؟ فقال: هو يحكي عبد الرحمٰن بن عوف على الصراط يوم القيامة.

قال: ومررت به يوماً آخراً في مجلس له، وهو مادّ يديه قد حنى ظهره، فقلت لبعضهم: ما حاله؟ قال: يحكي كيف يلقي الله كنفه على عبده يوم القيامة[1].

ـ ومن ذلك أيضاً: أنّ بعض القصّاص يرمي ثوبه على القارئ ليُوَافق، فيوافقه أقوام لئلا يُرموا بالبخل ـ ومتى حصل شيء على خوف الذمّ لم يكن حلالاً، كما يُعْطى الشاعر خوف هجوه ـ. ثم يقتسم القاصّ، والقارئ ما حصل[2].

ـ ومن ذلك: أنّ بعضهم يتزيّن بالثياب، وحسن الحركات، فيميل إليه النساء.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومهما كان الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه، وهيئته، كثير الأشعار، والإشارات، والحركات، وقد حضر مجلسه النساء، فهذا منكر يجب المنع منه، فإنّ الفساد فيه أكثر من الصلاح، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله، بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلّا لمن ظاهره الورع، وهيئته السكينة، والوقار، وزيه زيّ الصالحين، وإلّا فلا يزداد الناس به إلّا تمادياً في الضلال»[3].

والمقصود بذلك التزيّن الزائد على الحدّ، وإلّا فقد كان النبي ﷺ يتخيّر من الثياب أحسنها للجمعة والأعياد.

فعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان للنبي ﷺ برد يلبسها في العيدين والجمعة»[4].

---

(١) نقلاً عن كتاب: «القصاص والمذكرين»، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٩٧. (٣) «إحياء علوم الدين» ٢/ ٣٣٧.
(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» ٣/ ٢٤٧؛ والطحاوي في «معرفة السنن والآثار» ٢/ ٥٢٧.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «ويستحب للإمام أكثر مما يستحب لغيره من الزينة وغيرها، وأن يتعمم ويرتدي أفضل ثيابه البيض كغيره، هذا هو المشهور»[(١)].

ـ ومن ذلك: أنّ بعض القصّاص يصافحون النساء، يلبسونهم الخرق، ويُقال هذه من بنات الكرسي، وكأنهم ما سمعوا أنّ رسول الله ﷺ ما صافح امرأة قط»[(٢)].

ب ـ المنكرات الفعلية للمستمعين:

وهذه المنكرات تكون تبعاً لبدع القصّاص، فمجالسهم هي التي أوجبت ذلك، بإقرار منهم، ومن غير إنكار، ومن هذه المنكرات:

ـ التخبيط الذي يسّمونه الوجد، وتخريق الثياب، واللطم على الرأس والوجه، فترى الواجد بزعمه يستغيث، ويخرِّق ثيابه، ويقع على الناس، وما جرى مثل هذا لأصحاب رسول الله ﷺ وقد كانوا أصفى قلوباً، وأصلح أعمالاً[(٣)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ومنهم من يتحرك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان ـ والألحان التي قد أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة ـ والقارئ يطرب، والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه، وإيقاع برجليه، فتشبه السكر، ويوجب ذلك تحريك الطباع، وتهييج النفوس، وصياح الرجال والنساء، وتمزيق الثياب لما في النفوس من دفائن الهوى، ثم يخرجون فيقولون كان المجلس طيباً، ويشيرون بالطيبة إلى ما لا يجوز»[(٤)].

وقال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أنّ الخروج عن حيّز التماسك إلى حيّز الطرب والتهوّر، فِتَنٌ دخلت على العقول من غلبات الطباع، وإنما

---

(١) «المجموع»، للنووي ٤/٣٦٨.
(٢) «القصّاص والمذكرين»، ص٢٩٨.
(٣) سبق معنا بيان حال السلف عند سماع المواعظ. **انظر**: ص٧٨٥ من هذا البحث.
(٤) «تلبيس إبليس»، ص١٤٣.

حظ العقول من الحقائق، التلقِّي بالفهوم، والجمود الذي لا انخراع معه[(١)]، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقال: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فأما التخبيط وتخريق الثياب، والصياح، فليس من قانون الشرع، ولذلك أمر بتخفيض الصوت وغضّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وهل نهت الشريعة عن شرب العُقَار[(٢)] إلّا لما يؤدي إليه من الفساد؟ وإنّما الشريعة وقارٌ وسدادٌ.

فإن قال قائلٌ: إنّ الذين يمزِّقون ثيابهم لا يعقلون حينئذٍ، فالجواب: أنهم إذا علموا أنّ حضورهم تلك الأماكن يوجب لهم طرباً يزيل عقولهم، أثموا بالحضور، ووجب عليهم تجنّبها، هذا إن صدقوا في غلبة الطرب عليهم، وإنْ كذبوا، فقد أفسدوا مع الصحّة، فلا يسلمون في الحالين»[(٣)].

ـ ومن ذلك: ما يجري من الاختلاط بين النساء والرجال، في بعض مجالس الذكر، والقصَص، وغير ذلك من المنكرات العظيمة، وقد أنكر السلف هذا الأمر أشدّ الإنكار.

فعن أبي التيّاح قال: قلت للحسن البصري: «إمامُنا يقصّ، فيجتمع الرجال والنساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال الحسن: إنّ رفع الأصوات بالدعاء لبدعة، وإنّ مدّ الأيدي بالدعاء لبدعة، وإنّ اجتماع الرجال والنساء لبدعة»[(٤)].

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ عند حديثه عن مجالس الذكر ـ: «ويجب أن

---

(١) «الانخراع»: مصدرٌ من: خرع الرجل، إذا ضعف وانكسر؛ لسان العرب ٨/ ٦٨، مادة: «خرع».

(٢) العُقَار: الخمر، وسميت بذلك لأنها عقرت العقل، وأفسدته؛ «مختار الصحاح» ١/ ١٨٧ مادة: «عقر».

(٣) نقلاً عن: «القصّاص والمذكرين»، ص٣٠٠.

(٤) رواه ابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص٣٠١؛ وإسناده صحيح.

يُضْرَب بين الرجال، والنساء حائلٌ يمنع من النظر، فإنّ ذلك أيضاً مظنة الفساد؛ والعادات تشهد لهذه المنكرات.

ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات، ومجالس الذكر، إذا خِيْفَت الفتنة بهن، فقد منعتهن عائشة رضي الله عنها، فقيل لها: إن رسول الله ﷺ ما منعهن من الجماعات! فقالت: لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثن بعده لمنعهن[(١)]»[(٢)].

٢ ـ المنكرات القولية:

وهي على ضربين: قول من القصّاص، وقول من الحاضرين.

أ ـ المنكرات القولية من القاصّ:

وهي كثيرة جداً لا يمكن عدّها، فكل قولٍ خالف به القاصّ الشرع فهو منكر، ولكن يمكن جمع أصول المنكرات القولية إلى أنواع:

● **الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ:**

ـ اشتهر بعض القصّاص بوضع الحديث ـ كذباً وزوراً عن رسول الله ﷺ

ـ وكان الحامل لهم على ذلك على حسب حال القاصّ ـ أمران:

● **الغرض الأوّل**: الرغبة في الدعوة إلى الخير بالترغيب والترهيب.

وهذا النوع يعدّ من أخطر المسالك التي لبّس بها القصّاص على الناس أمر دينهم:

وذلك لأنّ: رُوَّاده يُنسبون إلى الصلاح والزهد، والانكباب على العبادة، بل الغلو فيها، ممّا غرّر بالكثير من الخاصّة فضلاً عن العامة في قبول حديثهم.

كما أنهم كانوا يضعون الحديث احتساباً للأجر والثواب، وبغرض

---

(١) متفق عليه، البخاري ٢٩٦/١، كتاب: الأذان، باب: خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، رقم (٨٢٢)؛ ومسلم ٣٢٩/١، كتاب: الصلاة، باب: خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، رقم (٦٧٦).

(٢) «إحياء علوم الدين» ٣٣٧/٢.

حمل الناس على الفضائل، والعبادة، بزعمهم[(١)].

ولقد سلك هؤلاء القصّاص سبُلاً في وضع الحديث، أهمها:

١ - اهتمت طائفة منهم بوضع أحاديث في فضائل القرآن، وثواب قارئيه، فوضعوا أحاديث في فضل من قرأ سورة من القرآن سورة سورة، وكان فرسان هذا الضرب من الكذب: أبا عصمة نوح بن أبي مريم[(٢)] وميسرة بن عبد ربه[(٣)].

عن ابن عمار المروزي قال: «قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم: مِنْ أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة»[(٤)].

وعن ابن مهدي أنّه قال لميسرة بن عبد ربه: «من أين جئت بهذه الأحاديث، من قرأ كذا، فله كذا؟ قال: وضعتها أرغب الناس فيها»[(٥)].

٢ - سلكت طائفة ثانية طريقاً آخر في وضع الأحاديث، بأن وضعت أحاديث تشرع صلوات متعدّدة في أوقات معلومة، وأيام مخصوصة، لأغراض شتى، ورتبوا لكلّ صلاة ثواباً عظيماً، وغالباً ما يَفْضُلُ ثواب الفريضة، فحملوا كثيراً من الناس بذلك على التهاون في أداء الفرائض[(٦)].

---

(١) **انظر**: «الموضوعات»، لابن الجوزي ٢/ ٣٨.

(٢) نوح بن أبي مريم أبو عصمة المروزي القرشي مولاهم، يعرف بالجامع لجمعه العلوم، لكن كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع، توفي سنة: ١٧٣هـ؛ تقريب التهذيب، ص٤٩٨.

(٣) ميسرة بن عبد ربه الفارسي، كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، ويضع المعضلات عن الثقات في الحث على الخير والزجر عن الشر، «المجروحين»، لابن حبان ٣/ ١١.

(٤) رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٨؛ **وانظر**: «الشذا الفياح»، للأبناسي ١/ ٢٢٤.

(٥) رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٧؛ **وانظر**: «اللآليء المصنوعة»، للسيوطي ٢/ ٣٩٠.

(٦) **انظر**: «الوضع في الحديث» د. عمر بن حسن فلاتة ١/ ٢٦٣.

كما وضعوا أحاديث في فضل الصلوات في مناسبات خاصّة، كليلة عاشوراء، ويومها، وأول ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وغيرها من الصلوات[١].

ومن نماذج ذلك:

ما أورده ابن الجوزي بإسناده إلى أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة (الحمد) مرة، (وقل يا أيها الكافرون) ثلاث مرات، (وقل هو الله أحد) ثلاث مرات، فإذا فرغ من صلاته قرأ آية الكرسي مرة.

كتب الله له بكل يهودي ويهودية عبادة سنة، صيام نهارها، وقيام ليلها، وبنى الله له بكل يهودي ويهودية مدينة في الجنة، وكأنما أعتق كل يهودي ويهودية رقبة من ولد إسماعيل، وكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وأعطاه بكل يهودي ويهودية ثواب ألف شهيد، ونوّر الله قلبه وقبره بألف نور، وألبسه ألف حلّة، وستر الله عليه في الدنيا والآخرة، وكان يوم القيامة تحت ظل عرشه مع النبيين والشهداء، يأكل ويشرب معهم، ويدخل الجنة معهم، وزوّجه الله بكل حرف حوراء، وأعطاه الله بكل آية ثواب ألف صدِّيق، وأعطاه بكل سورة من القرآن ثواب ألف رقبة من ولد إسماعيل، وكتب له بكل يهودي ونصراني حجة وعمرة».

قال ابن الجوزي ﵀: «هذا حديث موضوع فكافأ الله من شان الإسلام بما يعتقده تزييناً له، وفيه جماعة من المجهولين»[٢].

٣ ـ كما سلكت طائفة أخرى مسلكاً آخر في وضع الحديث لحمل الناس على الطاعة والزهد، والتحلِّي بكريم الخصال، وفضائل الأعمال، فكان بعضهم يضع الحديث في الرقائق، يحتسب بذلك.

روى ابن عدي قال: «سمعت أبا عبد الله النهاوندي، قال: قلت

---

(١) **انظر**: «الموضوعات» ٢/ ٣٨.

(٢) «الموضوعات» ٢/ ٣٩.

لغلام خليل: هذه الأحاديث التي تحدّث بها من الرقائق؟ فقال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامّة»[(١)].

وقال ابن المديني: «كان عبد الله بن المسور الذي يحدّث عن خالد بن أبي كريمة يروي عنه جرير بن عبد الواحد، يضع الحديث عن رسول الله ﷺ، ولا يضع إلّا ما فيه أدب وزهد، فيقال له في ذلك، فيقول: إنّ فيه أجر»[(٢)].

• **الغرض الثاني**: من أغراض وضع القصاص الحديث، هو نيل المآرب الدنيوية.

سلك بعض القصّاص مسلك التهويل والمبالغات في الحكايات والقصص والخرافات والأساطير، مع نسبتها إلى رسول الله ﷺ بغرض جمع حطام الدنيا، فكانوا يعقدون هذه المجالس، وفي خاتمتها يجمعون من المستمعين الأموال، والعطايا.

ومن نماذج ذلك:

ما رواه زهير بن حرب قال: أدخل غياث بن إبراهيم[(٣)] على الخليفة المهدي، وكان المهدي يحب الحمام ويشتهيها، فقيل له حدث أمير المؤمنين فحدثه بحديث أبي هريرة: «**لا سبق إلا في حافر، أو نصل**»[(٤)] وزاد فيه أو جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف، قال فلما قام، قال: أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ﷺ وإنما استجلبت ذاك أنا، فأمر بالحمام فذبحت»[(٥)].

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٧.

(٢) «قبول الأخبار ومعرفة الرجال»، لقاسم البلخي ٧/ ٨.

(٣) غياث بن إبراهيم أبو عبد الرحمٰن النخعي الكوفي، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢٣.

(٤) الحديث بدون زيادة: «أو جناح» رواه الترمذي في سننه ٤/ ٢٠٥، كتاب: الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في الرهان والسبق، رقم (١٦٢٢)؛ والنسائي ٣/ ٤١، كتاب: الخيل، باب: السبق، رقم (٣٥٢٩)؛ وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (١٥٠٦).

(٥) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢٤، بسند صحيح.

ـ وإن كان من القصّاص من يضع الأحاديث ويتعمّد الكذب على رسول الله ﷺ فإنّ منهم من يسمع الأحاديث الموضوعة فيرويها ولا يعلم أنها كذب، فيؤذي بها الناس، وربما سمعها من أفواه العوام فرواها، وربّما سمع كلام الحسن البصري، أو سريّ السقطي، فقال: قال رسول الله ﷺ.

وقد صنّف من لا علم له بالنقل كتباً فيها الموضوع والمحال.

فترى القصّاص يوردون منها، ويزيدون فيها ما يُوجب تحسيناً لها، وممّن صنّف لهم في هذا، الحارث المحاسبي، وأبو طالب المكّي، وأبو حامد الغزالي، فإنّهم أدرجوا في كتبهم أحاديث باطلة، ولا يعلمون أنّها كذب، وصنّف جماعة من الأعاجم كتباً في الوعظ ملؤوها بالأحاديث المحالة، والمعاني الفاسدة[1].

• **الإكثار من السجع المتكلّف:**

اشتهر كثير من القصّاص بتكلّف السجع في قصصهم، وتكلّف السجع يعدّ من التشدّق المنهي عنه، وقد سبق معنا بيان كراهية السلف للسجع المتكلّف[2].

ومن ذلك ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أبي السائب ـ قاصّ أهل المدينة ـ: «إياك والسجع، فإنّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يسجعون»[3].

قال الغزالي رحمه الله: «فأما ما أحدثه الوعّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة، والألفاظ المسجّعة المقرونة بالأشعار، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين، وتخويف المسلمين بل فيه الترجية، والتجرئة على المعاصي، بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٠٩.

(٢) تقدم معنا كراهية السلف للسجع. **انظر**: ص٢٤٣ من هذا البحث.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤٣/١٩؛ وأبو يعلى في مسنده ٧/٤٤٨؛ والطبراني في «الدعاء» ١/٣٧؛ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

الدجّال، وخلفاء الشيطان»[١].

• **إيراد أشعار العشق والغزل في مجالس القصص:**

ومن ذلك أنهم تلمحوا ما يزعج النفوس، ويطرب القلوب فنوعوا فيه الكلام فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق، ولبس عليهم إبليس بأننا نقصد الإشارة إلى محبة الله ﷻ، ومعلوم أن عامّة من يحضرهم العوام الذين بواطنهم مشحونة بحب الهوى، فيَضِل القاصّ ويُضِلّ[٢].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ومن القصّاص من يمضي أكثر مجلسه في العشق والمحبّة، وإنشاد الغزل الذي يحتوي على وصف المعشوق وجماله، وشكوى ألم الفراق، حتّى أنّي سمعت بعض القصّاص ينشد على المنبر:

أَلا فَاسقِني خَمراً وَقُل لي هِيَ الخَمرُ وَلا تَسقِني سِرّاً إِذا أَمكَنَ الجَهرُ[٣]

قال: وسمعته ينشد:

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليها وهل بعد العناق تداني

فألثمُ فاها كي تزول صَبَابَتي فيزدادُ ما ألقى من الهيمان[٤]

ومعلومٌ أنّ عامة الحاضرين أجلافٌ، بواطنهم محشوّة بالهوى، ممتلئة بحب الصور، ولا تخلوا المجالس من النساء المستحسنات، ومثل هذا يحرِّك ما في النفوس»[٥].

- ومنهم من ينشد أشعار النوح على الموتى، ويصف ما يجري لهم من البلاء، ويذكر الغربة، ومن مات غريباً، فيبكي بها النساء ويصير المكان كالمأتم، وإنما ينبغي أن يذكر الصبر على فقد الأحباب لا ما يوجب الجزع[٦].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٣/ ٣٢٧. (٢) **انظر**: «تلبيس إبليس»، ص١٤٣.
(٣) البيت لأبي نواس، ديوان أبي نواس، ص١٩٨.
(٤) البيتان لابن الرومي، ديوان ابن الرومي، قطعة رقم (٣٥).
(٥) **انظر**: «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.
(٦) «تلبيس إبليس»، ص١٤٣.

• **ومن المنكرات ما يكون في المضمون:**

ويعدّ هذا من أعظم المخالفات لعظيم خطره، وجسامة ضرره، خصوصاً إذا تعلّق بأمور التوحيد، وأصول التزكيّة.

ـ فوُجِد من القصّاص من يحدّث الناس بالاعتقادات السيئة الفاسدة، فيلبس عليهم أمر دينهم، وينشر فيهم البدع والضلالات.

ـ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ومن القصاص من يخرج الكلام في المحبة إلى فن آخر فيحمل صفة الحق ﷻ على حديث سعدى ولبنى، ويشير بهذا إلى ذاك، والعامّي لا يفهم المراد، فإن أفلح وفهم، تخايل وجود صورة مستحسنة يشتاق إليها، فيطيش ويصيح ويمزق ثيابه.

قال ابن عقيل: «أخذ بعض الوعاظ الأعاجم يقول: يا موسى! من تريد؟ قال: أخي هارون، يا محمد! من تريد؟ قال: عمي وأمي، يا نوح! من تريد؟ قال: ابني، يا يعقوب! من تريد؟ قال: يوسف، ثمّ قال: كلكم يريد مني، أين من يريدني؟ ثم احتدّ وصكّ الكرسي صكّة، وقال: يا قارئ اقرأ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢، الكهف: ٢٨] فقرأ القارئ، وضجّ المجلس، وصعق قومٌ، وخُرِّقت ثياب قوم بشعبذة[1] ذاك.

فاعتقد قومٌ أن ما ذكره لُبَابُ الحقِّ، وعين العلم، فحكي ذاك المجلس لحنبلي ـ يعني ابن عقيل نفسه ـ فأخذه من ذلك ما يأخذ العلماء، من الغيرة على الله ﷻ من كلام الجهّال به، فاحتدّ، وقال: سبحان الله، وما الذي بين الطين والماء، وبين خالق السماء، من المناسبة حتى يكون بينه وبين خلقه إرادة له لا إرادة منه؟ يا متوهمة الأشكال في النفوس! يا مصورين الباري بصورة تثبت في القلوب! ما ذاك الله، ذاك صنم شكّله الطبع والشيطان، والتوهّم للمحال، فعبدتموه، ليس لله سبحانه وصف تميل إليه الطباع، ولا تشتاق إليه النفوس، بل مباينة الإلهية للحدثيّة، أوجبت في النفوس هيبة وحشمة.

---

(١) «الشعبذة»: هي لعب يرى الإنسان منه ما ليس له حقيقة كالسحر، «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي»، للفيومي ١/ ٣١٤.

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإنما صوّر أقوامٌ صورة تجدّد لهم بها أنسٌ، فأقلقهم الشوق إليها، فنالهم ما ينال الهائم في العشق، وهذه الهواجس الرديّة يجب محوها عن القلوب، كما يجب كسر الأصنام»(١).

- ومن القصّاص المتصوّفة من يدّعي علم الغيب، ويدعو إلى القول بالاتحاد، ووحدة الوجود، وبنسخ الشريعة وغير ذلك من الطوام(٢).

قال أبو حيان الأندلسي: «ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى الصوف أشياءُ من ادِّعاء علم المغيبات، والاطلاع على علم عواقب أتباعهم، وأنهم معهم في الجنة مقطوعٌ لهم، ولأتباعهم بها، يخبرون بذلك على رؤوس المنابر، ولا ينكر ذلك أحدٌ.

هذا مع خلوهم عن العلوم، يوهمون أنهم يعلمون الغيب.

وقد كثرت هذه الدّعاوي والخرافات في ديار مصر، وقام بها ناس صبيان العقول يسمون بالشيوخ، عجزوا عن مدارك العقل والنقل، وأعياهم طِلَابُ العلوم»(٣).

- ومِنَ القصّاص مَنْ ينفق مجلسه بذكر موسى والجبل، ويوسف وزليخا، ويخرجون الكلام إلى الإشارات التي تضرّ ولا تنفع، وفيهم من يتكلم بالهذيان، ويتلاعب بالقرآن.

حتى أن بعض القصّاص سُئِلَ: من أي شيء تاب موسى؟ فقال: من مثل فضولك، وقال في قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] أي: كيف علا، وهذا تلاعب بالقرآن.

وروى ابن الجوزي بإسناده عن أبي الحسين بن السمّاك الواعظ أنّه دخل يوماً على قوم وهم يتكلّمون في أبابيل، فقال: في أي شيء أنتم؟ فقالوا: نحن في ألف أبابيل، هل هو ألف وصل، أو ألف قطع، فقال: لا

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) **انظر**: «الباعث على الخلاص من حوادث القصّاص»، ص١٠٧.

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي ٤/١٤٩.

ألف وصل، ولا ألف قطع، وإنما هو ألف سخط، ألا ترى أنه بلبل عليهم عيشهم، فضحك القوم من ذلك»[١].

ب ـ المنكرات القولية من الحاضرين عند القاصّ:

ـ فمن ذلك: الصياح، والاستغاثة، بدعوى الوجد، والطرب، وهو منكر من القول.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وأما القول الصادر من الحاضرين عند القاص، فمنه استغاثة من يدِّعي الوُجْدَ، وربما صاحت المرأة كصياح الحامل عند الولادة، وربما رمت إزارها، وقامت»[٢].

وقد سبق معنا ذكر طرف من أقوال السلف رحمهم الله في تحريم هذا النوع من الصياح، والاستغاثة، والنهيق[٣].

ـ ومن ذلك: القراءة بالألحان في مجالس الوعظ، تارة من القارئ، وتارة بترديد من جموع الحاضرين، ويكثر هذا اللون في مجالس الذكر الصوفية[٤].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ومن ذلك القراءة بالألحان الخارجة عن الحد المألوف، وقد جعلوها كالغناء الذي يوقع عليه وبه، وقد كان السلف ينكرون رفع الصوت الزائد على العادة، فكيف لو سمعوا الألحان»[٥].

ثم ذكر ابن الجوزي رحمه الله طرفاً من أقوال السلف رحمهم الله في تحريم القراءة بالألحان[٦]، فمن ذلك:

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٣١.

(٣) **انظر**: ص٧٩٠ من هذا البحث.

(٤) سيأتي مزيد تفصيل لهذه المسألة إن شاء الله تعالى، في مخالفات القصّاص حديثاً، ص٦٧٩.

(٥) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٣١.

(٦) قال ابن الجوزي رحمه الله: «واعلم أن قراءة الألحان تكره لوجوه منها: أنهم يدغمون ما لا ينبغي أن يدغم، ويمدون في غير موضع المد، ويسقطون الهمز، والتشديد ليصحّ اللحن، ثم إنها تطرب وتهيج الطباع، وتلهي عن التدبر للقرآن» القصاص والمذكرين، ص٣٣٥.

عن الفيض بن إسحاق قال: «سألت الفضيل بن عياض عن القراءة بالألحان حتى كأنه حاد أو غناء؟ فقال: إنما أخذوا هذا من الغناء»[١].

وعن عثمان بن أحمد الدقّاق قال: «حدثنا حنبل قال: كان أبو عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ يكره هذه القراءة المحدثة، التي يقال لها: الألحان»[٢].

قال الغزالي رحمه الله: «وقراءة القُرَّاء بين يدي الوعاظ مع التمديد، والألحان على وجه يغيّر نظم القرآن، ويجاوز حدّ التنزيل منكر مكروه، شديد الكراهة، أنكره جماعة من السلف»[٣].

٣ ـ منكرات القصّاص المتعلّقة بالمقاصد:

اتّخذ كثير من القصّاص القصَّ مهنةً للتكسّب، وجمع حطام الدنيا، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وخالفوا هدي المرسلين القائلين: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وأما المقاصد، فجمهور القوم يطلبون الدنيا، ويحتالون بالقصص والوعظ عليها، وربما امتنع أحدهم من أخذ العطاء تصنعاً، ليقال: زاهد ليأخذ أكثر مما ردّ، وأكثرهم لا يمتنع من أخذ أموال الظلمة، ثم يطلبون، وعندهم ما يكفي، وأكثر الناس إنما يعطون من زكاة أموالهم، فكيف يستحلّ أخذ الزكاة من له ما يغنيه؟»[٤].

ثم ساق جملة من النماذج في ذلك، منها:

ـ أنّ منصور بن عمار قدم مصر، وجلس يقصّ على الناس، فسمع كلامه الليث بن سعد، فاستحسن قصصه، وفصاحته، فذكر أن الليث قال له: يا هذا! ما الذي أقدمك إلى بلدنا؟ قال: طلبت أن أكسب بها ألف دينار، فقال له الليث: فهي لك عليّ، وصن كلامك هذا الحسن، ولا تتبذل»[٥].

---

(١) «القصاص والمذكرين»، ص٣٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٣) «إحياء علوم الدين» ٢/ ٣٣٧.
(٤) «القصاص والمذكرين»، ص٣٣٦.
(٥) المصدر السابق، ص٣٣٦.

ـ وأتى أبو العباس الهسنجاني أبا زرعة الرازي يكلمه أن يقبل يحيى بن معاذ الرازي، فقال: إنه يقول: أنا على مذهبك، وأنا رجلٌ نواحٌ أنوح، وأنوح.

فقال أبو زرعة: إنما النوح لمن يدخل بيته، ويغلق بابه وينوح على ذنوبه، فأما من يخرج إلى أصبهان، وفارس، ويجول الأمصار في النوح، فأنا لا أقبل هذا منه، هذا من أفعال المستأكلة، الذين يطلبون الدراهم، والدنانير، ولم يقبله»[1].

ـ وعن أبي زهير عبد الواحد بن محمد قال: «جاء إلى شيراز يحيى بن معاذ الرازي، وله شيبة حسنة، فلبس دشت ثياب سود، وكان أحسن شيء.

فصعد الكرسي، فاجتمع إليه الناس، فأوّل ما بدأ به، أنشأ يقول:

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمٰن لما خلا

وسقط عن الكرسي، وغشي عليه، ولم يتكلم ذلك اليوم، ثم إنّه ملك قلوب أهل شيراز بعد ذلك، حتى إذا أراد أن يضحكهم أضحكهم، وإذا أراد أن يبكيهم أبكاهم، وأخذ سبعة آلاف دينار من البلد»[2].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فيحيى بن معاذ، ومنصور بن عمّار من أصلح القوم، وقد سمعت ما حَصَّلا بالوعظ، فكيف برذالة لا يستنكفون عن الطلب من الظلمة؟»[3].

• **والخلاصة**: أنّ بعض القصّاص ـ إن لم يكن أغلبهم ـ قد أمعنوا في إخراج الوعظ والتذكير عن مقصوده الشرعي، ومنهجه الأثري، وذلك حين أحدثوا منكرات وبدعاً في مجالس الوعظ بالترنّم بالأشعار الغزلية، واختلاق الأحاديث الواهية، مع إيجاب طقوس معينة لمجالسهم، كلّ ذلك مصحوب

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٩. (٣) المصدر السابق، ص٣٤٠.

باختلاط، وصياح وغير ذلك من المنكرات القولية والفعلية من الوعّاظ والمستمعين عل حدٍّ سواء.

وكانت النتيجة أن افتتن الخلق بهم أيما افتتان وظنوا أنّ هذا هو المنهج السوي في الوعظ والتذكير.

*** ثانياً: مخالفات القُصَّاص في العصر الحاضر:**

إنّ البدع والضلالات أدواء مُعْدِية، وما زالت الأجيال تتوارثها جيلاً بعد جيلٍ، والمتأمّل في واقع القُصَّاص اليوم يُدرك صدق ذلك، فكثير من مخالفات القُصَّاص المتقدمين موجودة عند المتأخرين، وإنْ حاول البعض إلباسها لَبُوْساً مزيفاً، إمعاناً في التضليل.

بل إنّ القَصَصَ في العصر الحاضر انحرف انحرافاً خطيراً، في خطابه، وفي وسائله، وأساليبه، على نحو ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتحوّل بعض الوعّاظ، والقصّاص عن منهاج النبوة في الدعوة إلى الله ـ من الموعظة الحسنة بآيات الكتاب المبين، والصحيح من سنة الرسول الكريم ﷺ كما فهمها سلف الأمة المعتدّ بهم؛ لتثبيت الاعتقاد، وتعليم أحكام الإسلام، وتحبيب الخالق إلى خلقه، وترغيبهم في ثوابه، وترهيبهم من عقابه ـ، إلى ما أنتجه الفكر غير المعصوم من تلاعب بالألفاظ، وتخيلات ظنّية لأخبار عن الحوادث والطوارئ السابقة واللاحقة.

واقتحم هؤلاء القصّاص ـ المزيّفون ـ كتب السيرة والتاريخ، فخبطوا فيها خبط عشواء، وأصبحوا كحاطب الليل لا يدري ما الذي بيده: هل هي خشبة أم أفعى، فيلملمون الأوراق، ويجوبون بها الآفاق، ويجمعون من حولهم العامة.

وبعض هؤلاء القُصَّاص لم يتلقّوا العلم من منبعه، وإنما درسوا عند الغرب واستقوا الأفكار، والطرق المخالفة للإسلام، وأخذوا يطبقونها في أوساط المسلمين دون خوف من الله.

فاستشرى أمرهم، وانحسر دور دعاة الحق، وورثة الأنبياء، فنتج عن ذلك: تقديم كثير من الناس أسلوب القصص ـ المذموم ـ على الموعظة بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ بحجّة أن الناس لا يهتدون إلا بمثل هذا الأسلوب.

وصدق الرسول الكريم حين أنبأ عن فتن الزمان، وتمكّن الرويبضة من أمور الدعوة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«إنها ستأتي على الناس سنون خدّاعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: السفيه يتكلّم في أمر العامة»**(١).

وليس الغرض تتبّع أخطاء القُصَّاص واستقصائها؛ لأنّ ذلك مُتعذِّرٌ، ولو قُدِّر لطال البحث، وخرج عن مقصوده.

بل المقصود رصد أبرز معالم هذه المخالفات، ومن ثمّ تصنيفها إلى أنواع، مع التمثيل لكلِّ مَعْلَمٍ بما يوافقه من المخالفات.

وسأكتفي ـ إن شاء الله ـ، بذكر أخطاء القصّاص الذين ذاع صيتهم، واشتدّت فتنة الناس بهم، في العصر الحاضر(٢).

ـ ومخالفات القُصَّاص في العصر الحاضر، تتنوّع إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ مخالفات في الأفعال ٢ ـ مخالفات في الأقوال ٣ ـ مخلفات قولية وفعلية.

وفيما يلي تفصيلٌ لهذه المخالفات:

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٣٩، كتاب: الفتن، باب: شدّة الزمان، رقم (٤٠٢٦)؛ وأحمد في مسنده ١٣/ ٢٩١، رقم (٧٩١٢)، واللفظ له؛ وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٥٠٨.

(٢) سوف تكون أغلب مادة هذا المبحث، من خلال أشرطة القصّاص وبعض كتبهم ـ على قلّتها ـ وبالرجوع إلى مواقعهم في الشبكة العنكبوتية.

١ ـ المخالفات الفعلية للقُصَّاص:

انحرف القُصَّاص في العصر الحاضر انحرافاً عظيماً في هيئتهم، وفي مظهرهم، وفي مجالسهم، بل وفي وسائلهم التي تبنّوها للقصِّ على الناس، ومن بين هذه المخالفات:

أ ـ تشبّه بعض القصّاص بالكفّار في هيئتهم، وملبسهم:

لم يعد من الغريب الآن أن ترى قاصاً وواعظاً، قد تشبّه بالكفار في زيّه وسمته ودلّه، ومظهره.

وليت الأمر توقّف عند التشبّه الظاهر بالكفّار، ولكن الأمر أعظم من ذلك؛ فإنّ مشاكلة الكفّار في الظاهر تورث محبّة وتشبّهاً بهم في الباطن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمشابهة، والمشاكلة في الأمور الظاهرة، توجب مشابهة، ومشاكلة في الأمور الباطنة، على وجه المسارقة، والتدريج الخفي. . .

والمشاركة في الهدي الظاهر توجب أيضاً مناسبة، وائتلافاً، وإن بَعُدَ المكان والزمان، فهذا أيضاً أمر محسوس. . .

ومشابهتهم ـ أيّ: الكفّار ـ في الظاهر، سببٌ، ومظِنَّة لمشابهتهم في عين الأخلاق، والأفعال المذمومة، بل في نفس الاعتقادات»[١].

ولست أدري ما الحامل لهؤلاء القصّاص على حلق لحاهم، أهو الجهل بتحريم حلقها[٢] ـ وهذه مصيبة عظيمة ـ، أم اجتراء على حدود الله، ونواهيه؟ وهذه مصيبتها أعظم؛ لأنها تؤدّي إلى ضرر عظيم، من حيث تجريء الناس على المعاصي، واقتداء الشباب بهذا القاصّ.

وأعظم ما يُخْشَى أن يكون هؤلاء القصّاص، إنّما حلقوها من أجل (مصلحة الدعوة)، وحتى لا ينفر الناس منهم، فيكون الأمر أدهى، وأمرّ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ٢٢٠.

(٢) قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الحلق فلا أعلم أن أحداً من أهل العلم قال بجوازه» مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لابن باز ١٠/ ٨٢.

يقول الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوز للمسلم أن يحلق لحيته لأسباب سياسية، أو ليُمَكَّن من الدعوة، بل الواجب عليه إعفاؤها، وتوفيرها؛ امتثالاً لأمر الرسول ﷺ فيما صحَّ عنه من الأحاديث، ومن ذلك قوله ﷺ: **«جزوا الشوارب، وأرخوا اللِّحى، خالفوا المجوس»**(١).

فإذا لم يتمكَّن من الدعوة إلّا بحلقها، انتقل إلى بلاد أخرى يتمكن من الدعوة فيها بغير حلق، إذا كان لديه علم وبصيرة؛ عملاً بالأدلة الشرعية في ذلك...»(٢).

ـ وتعظم المصيبة إذا كانت هذه الهيئة سبباً في افتتان النساء بالقاصّ، كما قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومهما كان الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه، وهيئته، كثير الأشعار، والإشارات، والحركات، وقد حضر مجلسه النساء، فهذا منكر يجب المنع منه»(٣).

ب ـ الاختلاط والسفور والتبرّج، في مجالس القصص:

لم يكن يدور في خلْدِ أحدٍ، أو في مخيلته، أن تغدوا مجالس الوعظ والقصص مراتع للرذيلة، واختلاط الشباب بالفتيات، في سفور فاضح، وتبرّج داعر، حتى يُخَيَّل للناظر أوّل وهلة أنّه في مرقصٍ، وليس في مجلس وعظ.

وإليك ما رُصِدَ في أحد جلسات أحد القصّاص:

ـ من الحاضرات من كشفن أجزاءً من جسدهنّ كالساعد، والرقبة، والشعر....

ـ كثير من الحاضرات يلبسن الملابس الضيقة، أو الشفّافة، والتي تصف الجسم، أو تحدِّده.

ـ بالإضافة لوجود شباب قد تشبّهوا بالكفار في مظهرهم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: خصال الطهارة، رقم (٣٨٣).
(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» ١٠/ ٩١.
(٣) «إحياء علوم الدين» ٢/ ٣٣٧.

والجميع جالس بجانب الآخر، والكل يشاهد الآخر، كأنهم إخوة ومحارم.

والبليّة أنّ هذه المجالس تذاع على الملايين من المشاهدين، وفي هذا نشرٌ للرذيلة.

٢ ـ المخالفات القولية للقصّاص:

وهي متفاوتة في النوع وفي الدرجة، وقد حاولت جمع ما تيسّر منها، وهي على أنواع:

أ ـ المخالفات العقديّة[١]:

● **الدعوة إلى حرية الاعتقاد:**

يقول أحد القصّاص: «... الإسلام وحرية العقيدة!! لك أن تعبد الذي تريده»[٢].

وقد سئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله عمَّن يدعو إلى هذه الفكرة فقال: «وتعليقنا على ذلك أن الذي يُجِيز أن يكون الإنسان حرّ الاعتقاد، يعتقد ما شاء من الأديان، فإنّه كافر بالله عز وجل؛ لأنّ كلّ من اعتقد أن أحداً يسوغ له أن يتديّن، بغير دين محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كافر بالله عز وجل يستتاب، فإن تاب وإلّا وجب قتله»[٣].

● **دعوة الناس إلى عبادة الله بما يقتنعون لا بما أمرهم الله:**

يقول أحد القصّاص[٤]: «ونرى الناس كيف تتعبّد ربّها بالطريقة التي

---

(١) اقتصرت على ذكر المخالفات العقدية، للقصّاص المنتسبين لأهل السنّة، وأعرضت عن ذكر مخالفات القصّاص من أهل البدع والطوائف المنحرفة ـ كالصوفية، والخوارج، وغيرهما ـ، لكثرتها، وشهرتها.

(٢) وهذا الكلام مقتبسٌ من محاضرة ألقاها ـ هذا القاصّ ـ في المدينة الرياضية في بيروت بتاريخ ١١/٣/٢٠٠٢.

(٣) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» ٣/ ٩٩.

(٤) في محاضرة له بعنوان: «حوار في الساحة الإسلامية.. واقع ومعالجات» وهي محاضرة ألقاها في إحدى تجمعات الرافضة بدولة الكويت في رمضان ١٤١٧هـ.

هي مقتنعة فيها، بدون ما نستفز الآخرين، ولا الآخرين يستفزوننا!!، وكيف أنا أكفل لك كل حريتك، ولكن يا أخي لا تسب أبا هريرة[١] علن سبه ببيتك، لا تسبه عندي؟!، يعني لازم نستفز بعضنا، ما فيه حلّ آخر، هذا الذي نطرحه، هذا مبدأ!!».

فتأمل كلام هذا القاصّ؛ فهو يحثّ الناس على عبادة الله ليس بما شرع، ولكن كلّ واحد بالطريقة التي يقتنع بها، وليس بطريقة النبي ﷺ، وهذه من الدعوات المشهورة ـ عند بعض القصّاص ـ للتقارب بين الفرق الضالة مع أهل السنة، وهل يقبل الله تعالى من الناس عبادة لم يشرعها سبحانه؟ الجواب: قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فالله لا يقبل من العمل إلّا ما كان صواباً، على هدي النبي ﷺ وخالصاً لوجه الله ﷻ.

● **ترك الدعوة إلى التوحيد، والاشتغال بالقَصَص:**

مجالس هؤلاء القصّاص، مجالس أُنْس وحكايات، وليس فيها دعوة إلى التوحيد، أو تصحيح ما علق في القلوب، والأعمال، والأقوال من أدران الشرك.

فعن أبي قلابة قال: «ما أمات العلم إلّا القصّاص، يجالس الرجلُ القاصَّ سنةً، فلا يتعلّق منه بشيء، ويُجالس العالم، فلا يقوم حتّى يتعلّق منه بشيء»[٢].

---

(١) وهذا الكلام في غاية الوقاحة وسوء الأدب مع الصحابي الجليل الحافظ أبي هريرة رضي الله عنه وهذا كلّه من أجل التقارب مع الرافضة، وكيف يبيح للناس لمز الصحابة وسبّهم، أو ما علم أنّ السابّ للصحابة ليس له حظ في الإسلام، قال الإمام مالك رحمه الله: «الذي يشتم أصحاب رسول الله ﷺ ليس له سهم أو نصيب في الإسلام» رواه ابن بطة في الإبانة الصغرى.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٢٨٧؛ وابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين» **قلت:** وإسناده حسن.

وعن أبي عامر العقدي قال: «أنا كنت سبب عبد الرحمٰن بن مهدي في الحديث، كان يتّبع القصّاص، فقلت له، لا يحصل في يديك من هؤلاء شيء»(١).

وعن قصّاص عصرنا الحاضر يقول العلامة المحدّث الألباني رحمه الله: «. . .طبيعة القصّاص، أنهم يجمعون الناس حولهم، وينبسطون من كلامهم، لكن من حضر جلسات هؤلاء القصّاصين؛ اسأله بعد سنين: ما هي معلوماتك التي استفدتها بما يتعلق بمعرفة الحلال والحرام، والمكروه والمستحب إلى آخر ما هنالك من الأحكام. .، لا ترى عنده شيء إطلاقاً!!، إنما عنده حكايات وعنده قصص كما يقولون، ومطمئن تماماً، لكن الخاتمة لا يخرج من هذه الدروس بشيء، أو أي شيء يصحّح عقيدته»(٢).

ومن يتابع محاضرات هؤلاء القصّاص، يلاحظ حيدتهم عن الكلام في التوحيد، وما يضاده من الشرك والبدع، وإغفال الحديث عن العقيدة الصحيحة، وأثرها في القصص التي يوردونها، فمثلاً تسمع أشرطة متوالية في السيرة النبوية، وتنتهي منها وأنت لم يتقرر عندك أن بعثة النبي ﷺ كانت لتقرير التوحيد ونبذ الشرك، بل غاية ما يركّز عليه هؤلاء القصّاص ذكر المعجزات، فيأتون بالصحيح منها والسقيم لجذب الأذهان، وتكثير الحضور، ولو تكلّم هؤلاء القصّاص في الفوائد العقدية للقصّة التي يذكرونها، لانتفع بها الكثير من الخلق، ولكنهم لا يحسنون ذلك.

ولأحد القصّاص المشهورين برنامجاً اسمه «صناع الحياة» يذاع عبر الفضائيات، وهو برنامج يزعم فيه أنه يريد إفادة المجتمع، ونفع الناس، فتارة يدعوهم لجمع ملابس للأيتام، وتارة لتنظيف الشوارع، وهكذا.

ولكن الغريب أنه لم يدعهم ـ فيما أعلم ـ إلى عبادة الله وحده قط!!

---

(١) رواه ابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين»، ص٣٥٤. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٢) **انظر**: سلسلة (رحلة النور) شريط رقم ٣٩ نهاية الوجه الثاني.

سنوات عديدة منذ أن بدأ في الظهور للدعوة، ولم يدعو الناس إلى ترك الطواف بالقبور، والاستغاثة بالأموات، والتبرّك بالذوات، وغيرها من الشركيات.

ويا ليت شعري... ما الذى يفيد الناس حقا آلتوحيد أم جمع القمامة! وإذا جمعوا القمامة، ونظفوا الشوارع، وبقوا على شركياتهم، هل تنفعهم أعمالهم الصالحة الأخرى؟ كيف وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

- وإن صادف وجود بعض المسائل العقدية في قصص هؤلاء، فهي غالباً ما تكون متلبّسة بعقائد الفرق الضالّة، كالمرجئة، والقدريّة، وغيرهما[1].

ب - تفسير النصوص وفق الهوى:

تكاد تجزم أنّ بعض القصّاص - في العصر الحاضر - لم يتصفَّحوا كتاباً من كتب التفسير، ولا شرحاً من شروح كتب الحديث، فتراهم إذا مرّوا بآية من كتاب الله، أو حديث من سنّة النبي ﷺ أطلقوا العنان لمخيلتهم، فأخرجوا للناس مسخاً من التأويل، والذي كثيراً ما يكون ممزوجاً بسوء الأدب مع الله، وبردِّ النصوص وفق الهوى، والتشهِّي.

وإليك أيها اللَّبيب! بعضاً من الأمثلة على ما سبق ذكره:

---

(١) يسعى هذا القاصّ إلى تعليم الناس عقيدة أشبه بعقيدة المرجئة القائمة على أن الإيمان هو معرفة الله فقط، كما قد ورد ذلك في أكثر من مؤلف من مؤلفاته ومن ذلك:
أ - يقول في رسالة له ضمن مجموعة «كلام من القلب» بعنوان الغاية ص١٦.
«أجمل شيء في الدنيا أن يكون لك غاية وأجمل غاية في الوجود أن تعرف ربك.. أليس هو خالقنا وخالق هذا الكون ومردنا جميعاً إليه».
ب - ويقول في كتاب له بعنوان «عبادات المؤمن»، ص٢٦ «فالصلاة حقاً سرّ الوجود. لماذا خلقت؟ خلقت لمعرفة الله ﷻ القائل في محكم آياته»: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ـ يقول أحد القصّاص في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

يقول: «نستعين بما أودعه الله في الكون، كي ننجح هذه في الدنيا، ونقود هذه الدنيا، لمرضاة الله، تخيلوا: إياك نعبد: عبادة، وإياك نستعين: سنستعمل يا رب، سنستعين يا رب بالذي أنت أودعته في الكون، يا رب من أجل أن ننجح في الدنيا»(١).

ولو رجعنا إلى كلّ ما كتب في تفسير هذه الآية فلن نجد أحداً من الأولين، أو الآخرين من فسّر الاستعانة في الآية بهذا التفسير الغريب، والعجيب، فهذا ينمّ عن جهل عظيم بمراد الله تعالى، وبتأويل كلامه جلّ وعلا.

ـ ويقول أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال: «علّمه تكنولوجيا الحياة!!!»(٢).

ـ وعند كلامه عن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه قال: «**خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلّى، فمرَّ على النساء، فقال: يا معشر النساء! تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل، ودين، أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن، قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى؟ قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها**»(٣).

فالمتأمل للحديث يرى الشرح النبوي لهذه العبارة: «ناقصات عقل

---

(١) في برنامج: «صناع الحياة» حلقة باسم: (العبادة). والكلام الأصلي باللهجة المصرية.

(٢) في برنامج: «صناع الحياة» حلقة باسم: (تكنولوجيا الحياة).

(٣) متفق عليه، البخاري ١/١١٦، كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم، رقم (٢٩٣)، واللفظ له؛ ومسلم ١/٨٦، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، رقم (١١٤).

ودين» ولا يحتاج إلى تخبط الجهلة المتعالمين الطاعنين من أمثال هذا القاصّ، وإليك ما قاله:

قال: «انتبهوا النساء ناقصات عقل ودين، متى قال النبي ﷺ هذا الحديث؟! يوم العيد صباحاً، وهو خارج من صلاة العيد، أول ما قابل النسوة اللائي انصرفن من صلاة العيد... بالله عليكم! يوم العيد صباحاً! والنساء قد حضرن صلاة العيد!! النبي الحكيم الرحيم، أول ما يلتقي بالنساء يقول لهم أنتنّ ناقصات عقل ودين؟! يوم العيد الذي هو يوم الفرحة! أنا أريد أن أقول لكم: إنّ الموضوع (غير مستساغ)!!!.. لا يمكن أن يكون هذا هو المفهوم!!! فمن الممكن أنّه ﷺ كان يمازحهن؟!؟!؟!»[1].

ولا يخفى على من عنده ذرّة عقل أنّ هذا بهتان، وكذب، وزور[2].

ج ـ التميّع، والدعوة إلى الفنّ والخنا:

أيعقل أن يتجرّأ بعض القصّاص اليوم إلى دعوة الناس إلى الفن، والموسيقى، والاختلاط، وكلّ ألوان الخنا والفحش؟.

ولكن وجد من يدعو الناس إلى هذا وللأسف، وإليك برهانٌ على ذلك:

نقلت جريدة المدينة في يوم السبت ٢١/ ٧/ ١٤٢٣هـ في رسالتها خبراً حاصله، أنّ أحد القصّاص المشهورين أُستضيف من قِبل بعض الأدباء

(١) في برنامج: «صناع الحياة» حلقة باسم: (رفع الظلم عن المرأة). وأصل الكلام باللهجة المصرية.

(٢) ويلاحظ في كلام هذا القاصّ من المخالفات الخطيرة، ما يمكن إجماله فيما يلي:
١ ـ كذبه على النبي ﷺ أنه لم يرد بهذا الحديث حكماً شرعياً.
٢ ـ قوله: «ونبي... الحكمة... والرحمة... يقابلهم يقول لهم انتو ناقصات عقل ودين؟!» يدل على أن هذا الحكم يتنافى مع حكمة ورحمة النبي ﷺ.
٣ ـ قياسه النصوص بعقله، بل ورفضه لها، فيقول: «أنا عايز أقول لكم إن الموضوع مش ماشي!!!»
٤ ـ اتهام النبي ﷺ أنه يكذب في المزاح.

لحضور جلستهم الأسبوعية، وجرى خلال ذلك لقاء معه، وكان من ضمن ما صرّح به: أنه أقنع أحد الفنانين ليعود للفن بعد توبته منه، حيث وجده في المسجد، وقد تغيّر حاله ولباسُه معتزلاً للفنِّ؛ فحاول أن يُقنعه بالعودة بشرط أن يُمثّل الأدوار الهادفة»(١).

هكذا جاء في اللقاء، والله المستعان.

بل لا يزال هذا القاصّ يحاور، ويبث سمومه بين الفنانين والفنانات التائبين، قصد إقناعهم للعودة إلى هذا الفنّ الهابط.

ولقد رأيت في موقع هذا القاصّ أموراً يندى لها الجبين، من تسجيلات موسيقية، وأغانٍ، كلّ ذلك باسم الدعوة إلى الله تعالى، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

د ـ نشر ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم:

إنّ منهج أهل السنّة والجماعة الكفّ عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم، وطيّ ذلك وعدم إذاعته، ونشره، خشية أن يتجرّأ من ليس له علم وتقوى على الصحابة.

ولكن وجد بعض القصّاص اليوم من هذه المشاجرة مادّة خصبة لقصصهم، فنتج عن ذلك بلبلة بين الناس، فمن مُتَحيِّرٍ، ومُنْكِرٍ، بل منهم من صار يتحامل على الصحابة.

فلقد انتشرت في هذه الأيام محاضرات عن الفتنة الواقعة بين الصحابة، لأحد القصّاص بواسطة أشرطة، بعنوان: «قصص من التاريخ الإسلامي»(٢).

ويمكن إجمال المخالفات التي وردت في هذه الأشرطة فيما يلي:

١ ـ أنّه بصنيعه هذا قد خالف منهج أهل السنّة والجماعة في الكفّ

(١) وارجع أيضاً لشريط بعنوان: «حوار هادئ»، لـ«عبد المنعم بدوي».
(٢) وهذه الأشرطة سجلتها مؤسسة قرطبة.

عما شجر بين الصحابة، حتى حكى بعضهم الإجماع على ذلك، ومن النقول في ذلك:

قول ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله، فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم، وأمر بالاستغفار لهم، والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه، وهو يعلم ما سيكون منهم، وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأنّ الخطأ، والعمد قد وضع عنهم، وكل ما شجر بينهم مغفور»(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم، والإمساك عما شجر بينهم، وتأويل قتالهم»(٢).

٢ ـ أنه عرض محاضراته في ملأ عام، ثم أخرجها في أشرطة، وهذا مما يساعد الكثير على سماعها وإن كانوا من عوام الناس الذين لم يخطر ببالهم ما وقع بين الصحابة، وهم مع ذلك لا فقه لهم، فيوغر صدورهم على بعض الصحابة، وينزل من قدرهم في نفوس الناس.

٣ ـ ذكر في محاضراته الروايات الضعيفة وترك الروايات الصحيحة مع وجودها(٣).

٤ ـ لم يحسن هذا القاصّ الخوض في هذا البحر، فاعتمد في أكثر أخباره على رواية الضعفاء، والكذابين، التي تكون أحياناً مخالفة لرواية الثقات(٤).

---

(١) «الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة»، ص٢٦٨.

(٢) «شرح صحيح مسلم للنووي» ١٨/ ١١.

(٣) ومنها ما ذكر عن ابن عباس أنه لما ناظر الخوارج لم يرجع منهم أحد، ولم يستطع إقامة الحجة عليهم حتى أتى علي بن أبي طالب، فأقامها فرجع منهم طائفة، وهذه الرواية من طريق أبي مخنف رواها ابن جرير في تاريخه (٣/ ١٠٩)، وهي مخالفة لما ثبت عند أحمد في المسند (١/ ٨٤) أنّ ابن عباس لما ناظرهم رجع منهم أربعة آلاف، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٨١): إسنادها صحيح.

(٤) ومن ذلك على سبيل المثال: أنّه اعتمد على رواية الواقدي، وهو ضعيف متهم بالكذب. واعتمد في قصّة مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وموقعتي الجمل وصفين على طريقين ضعيفين: =

٥ ـ أن في كلام هذا القاصّ إيهاماً للسامع بأن كثيراً من الصحابة خاضوا الفتنة ودخلوها، ولم ينبّه أن الداخلين للفتنة من الصحابة قليلون، علماً أن أبا بكر الخلال في كتاب السنة روى بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: «هاجت الفتنة، وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما حضر فيها مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين»[(١)][(٢)].

هـ ـ الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة:

يكثر القصّاص اليوم من الاستدلال بالأحاديث الضعيفة، والموضوعة، حتى يخيّل لك أنّهم يحضِّرون دروسهم، من كتب الموضوعات لابن الجوزي.

وليس هذا بغريب ممن نفقت بضاعته في العلم، فلم يكد يميّز بين الصحيح، والضعيف[(٣)].

= **الأول**: شعيب بن إبراهيم الكوفي عن سيف بن عمر، **والثاني**: لوط بن يحيى المعروف بأبي مخنف.
قال ابن عدي في الكامل (٤/ ٤): «شعيب بن إبراهيم الكوفي فيه بعض النكارة لأن في أخباره وأحاديثه ما فيه تحامل على السلف»، وأما سيف بن عمر، فقد قاله فيه أبو حاتم الرازي: «متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي» تهذيب الكمال للمزي، رقم (٢٦٧٦).
أما لوط بن يحيى، فقال عنه ابن عدي: «شيعي محترق صاحب أخبارهم» سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٠١).

(١) كتاب السنّة، رقم (٧٢٨).

(٢) ولهذا حذّر العلماء من هذه الأشرطة، منهم الشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله، حيث قال: «أيّ أشرطة تنشر ما حدث بين الصحابة من أمور اجتهادية التي أدت إلى اقتتال بعضهم مع بعض على وجه الخطأ، أو العمد الذي هم فيه مجتهدون، فإن هذه الأشرطة ـ أي: أشرطة طارق السويدان ـ لا يجوز استماعها لأنها لا بد أن تؤثر في القلب، الميل مع هؤلاء أو هؤلاء وما دام الإنسان في عافية فالحمد لله» **انظر**: «الإيضاح والبيان في أخطاء طارق السويدان» ص٤٦.

(٣) ومن نماذج الأحاديث المشتهرة على ألسنة القصّاص اليوم:
١ ـ «اختلاف أمتي رحمة». موضوع. «تنزيه الشريعة» (٢/ ٤٠٢).
٢ ـ «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». قال ابن حزم: «خبر مكذوب موضوع باطل لم يصح قط». **انظر**: «الإحكام في أصول الأحكام» (٥/ ٦٤). =

و ـ التوسع والمبالغة في استخدام اللغة العامية على حساب اللغة العربية:

يقول أحدهم متحدّثاً عن أحد القصّاص المشهورين: «هو البساطة في كل شيء، أوّل مرة أرى من يدعو دون لغة عربية فصيحة ولا غيره، ويكلم الله ﷻ بالعامية فيقول: (ضعفنا يا رب.. محتاجين لك يا رب.. ماتسيبناش للدنيا..)، وهذه البساطة تدخل القلوب فوراً، مهما انغمس الإنسان في الدنيا وانشغل»[1].

ولا شكّ أنّ العيّ العلمي، يُنتج مثل هذه التصرفات الشاذة.

أوليس المسلمون بحاجة للعودة إلى لغتهم العربية حتى يفقهوا كتاب ربهم ويتدبروه، ويفهموا سنة نبيهم؛ فإنّ اللغة العربية هي أداة فهم الوحي، والشرع.

ولكن لا مانع من استخدام اللّغة العامية في مواضع مناسبة قد لا يفهم المتلقي العبارة إلّا عن طريقها كما كان يفعل ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أما أن تكون بهذه السماجة فلا.

٣ ـ المخالفات القولية والفعلية (التمثيل):

قد تجتمع المخالفات القولية والفعلية في قالب واحد كما هو الشأن في التمثيل.

والمقصود بالتمثيل: هو: عمل فني منثور أو منظوم، يؤلَّف على قواعد خاصة، ليمثل حادثاً حقيقياً أو مختلقاً قصداً للعبرة»[2].

= ٣ ـ «أدّبني ربي فأحسن تأديبي». قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. «أحاديث القصاص» (٧٨).

٤ ـ «اطلبوا العلم ولو بالصين». موضوع. **انظر**: «الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٢١٥).

٥ ـ «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد». موضوع «الضعيفة للألباني» (٦١١).

(١) مقتبس من موقع على الإنترنت www.amrkhaled.net.

(٢) «المعجم الوسيط» ص١٣٤٢.

وهو ينقسم إلى: تمثيل ديني، وتمثيل ترفيهي[(١)].

والتمثيل أسلوب قصصي دخيل على الأمة الإسلامية، وقد جعل منه بعض القصّاص ـ تؤازرهم في ذلك جماعات إسلامية ـ أسلوباً لوعظ الناس، وتذكيرهم وإرشادهم، وزعموا أنّ التمثيل مباح في أصله، وإنما يطرأ عليه التحريم بحسب ما يحتفّ به من المنكرات.

وقد فنّد العلماء هذه الشبهة الباطلة[(٢)]، وبيّنوا حرمة التمثيل بكلّ أنواعه، استناداً على ما جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وذلك لما يقوم بالتمثيل من المخالفات الشرعية، والأعمال المنهية.

ومن نظر إلى التمثيل وعرف حقيقته، ثم نظر إلى أدلة الشرع، علم أن هذا العمل مشتمل على محرمات ومنكرات، وربما مكفرات ومخرجات لا يليق بمؤمن انتهاكها، وهو مقرٌّ بخطئه، فضلاً عن انتهاكها بزعم أن الشرع يؤيِّده ويعضدِّه[(٣)].

● ومما سبق إيضاحه نتبيّن عظم جناية بعض قصّاص العصر الحاضر على الدعوة والوعظ، حيث غدوا معاول هدم وإضلال، فخرجوا بالوعظ عن مقصوده الشرعي، وتنكبوا منهج سلفهم، فعجّت مجالسهم بالمنكرات الفعلية وبالتشبه بالكفرة، مع انحراف في العقيدة، ونشر للفتنة، وترويج للخنا، واستحداث طرق بدعية في الوعظ والتذكير، حيث نشأ التمثيل، ومن قبله النشيد، وغدا هؤلاء المرجفون هم الأعلام المبرّزون في مجال الوعظ، وعظمت فتنة الناس بهم.



(١) «التمثيل حقيقته، تاريخه، حُكمه» لبكر أبو زيد، ص٢٨.

(٢) **انظر**: الرد المفصّل على هذه الشبه في كتاب: «إيقاف النبيل على حكم التمثيل» ص٧٠.

(٣) «إيقاف النبيل على حكم التمثيل» لعبد السلام البرجس، ص٤٧، وسيأتي ذكر الأقوال في حكم التمثيل، مقروناً بأدلة كلِّ قولٍ، مع بيان الراجح في المسألة ـ إن شاء الله ـ.

المطلب الثاني

إنكار السلف لمخالفات القصاص

كان السلف رحمهم الله يقوِّمون من زلّ من القصّاص ـ وهذا نصيحة لله ولرسوله ﷺ ولعامّة المسلمين ـ وكانت لهم مواقف مشهورة مع القصّاص.

ومن نماذج إنكار السلف على القصّاص:

١ ـ إنكار السلف رحمهم الله على القصّاص رواية الأحاديث الباطلة:

اشتدّ نكير السلف رحمهم الله على القصّاص روايتهم الأحاديث الموضوعة، وعابوا هذا الصنيع، بل وتتبّعوا هذه الروايات الضعيفة والموضوعة، وكشفوا زيفها، وبيّنوا ضعفها، وألِّفت في ذلك كتبٌ حوت ما اختلقه القصّاص من أحاديث مكذوبة، مثل صنيع ابن الجوزي رحمه الله في كتاب الموضوعات، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب: «أحاديث القصّاص».

ومن مواقف السلف في الإنكار على القصّاص ما اختلقوه من الأحاديث:

ـ ما رواه جعفر بن محمد الطيالسي قال: «صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرُّصافة، فقام بين يديهما قاصٌّ فقال:

حدثنا أحمد ويحيى بن معين عن النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة منها طيراً منقاره من ذهب...» وأخذ في قصٍّ نحواً من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى بن معين ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال له: أنت حدثته بهذا، فيقول: والله ما سمعت بهذا إلّا الساعة.

فلمّا فرغ من قَصَصه، وأخذ القُطَيعات[(١)]، ثم قعد ينتظر بقيتها، قال له يحيى بيده تعال، فجاء متوهِّما لنوال، فقال له يحيى: من حدَّثك به؟ قال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ وإن كان لا بد والكذب فعلى غيرنا.

فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أنّ يحيى بن معين أحمق ما تحققته إلّا الساعة، فقال له: كيف تحققته؟ قال: كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

فوضع أحمد كُمَّه على وجهه، وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما»[(٢)].

ـ ولماّ دخل سليمان بن مهران الأعمش البصرة نظر إلى قاصّ يقصّ في المسجد فقال: حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي وائل....

فتوسّط الأعمش الحلقة، وجعل ينتف شعر إبطه، فقال له القاصّ، يا شيخ، ألا تستحي؟ نحن في علم وأنت تفعل مثل هذا؟

فقال الأعمش: الذي أنا فيه خير من الذي أنت فيه، قال: كيف؟ قال: لأني في سنّة، وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئاً»[(٣)].

٢ ـ تصحيح السلف رحمهم الله ما يقع فيه القصّاص من الأخطاء العقدية:

من القصّاص من انحرف عن الجادة، وجانب الصواب في مسائل

---

(١) هو: ما يقتطع من الجوائز والأعطيات، «مختار الصحاح» ص٥٦٠، مادة: «قطع».

(٢) ذكر القصة ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٤٦؛ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٨٥؛ **قلت**: وإسنادها جيد.

(٣) ذكر القصة الطرطوشي في «الحوادث والبدع»، ص١٠٥؛ والسيوطي في «تحذير الخواص» ص١٩٧؛ **قلت**: وإسنادها لا بأس به.

الاعتقاد إمّا جهلاً، وإمّا قصداً وابتداعاً، وكلّ ذلك أنكره السلف رحمهم الله، وبيّنوا وجه الحقّ والصواب فيه، ومن نماذج ذلك:

ما رواه وضّاب بن صالح عن الشعبي أنّه سمع قاصاً يقول: «حدثني فلان عن فلان.... يبلغ به النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق صورين، له في كل صور نفختان، نفخة الصعق ونفخة القيامة».

قال الشعبي: فلم أضبط نفسي أن خففت صلاتي، ثم انصرفت فقلت: يا شيخ! اتق الله، ولا تحدِّثَنّ بالخطأ، إنّ الله تعالى لم يخلق إلّا صوراً واحداً، وإنما هي نفختان: نفخة الصعق، ونفخة القيامة»[1].

ـ ويذكر أنّ قاصاً جلس ببغداد فروى في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، أنّه يجلسه معه على عرشه، فبلغ ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري، فاحتدَّ من ذلك، وبالغ في إنكاره»[2].

٣ ـ إخراج السلف رحمهم الله القصّاص الدجالين من المساجد:

إنّ وجود القصّاص الدجالين في المساجد منكر عظيم يجب تغييره، وقد تصدى السلف رحمهم الله لهذا المنكر، ووقفوا منه موقف الحازم، ومن تلك المواقف:

ـ أنّه لما دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مسجد البصرة أخرج القُصّاص منه، وقال: «لا يقصّ في المسجد»[3].

ـ وجاء ابن عمر رضي الله عنهما إلى المسجد فوجد قاصّاً يقصّ، فوجّه إلى صاحب الشرطة: «أن أخرجه من المسجد، فأخرجه»[4].

٤ ـ الإنكار على من جلس إلى القصّاص:

كان بعض السلف رحمهم الله ينكرون على تلامذتهم، وأبنائهم،

---

(١) روى القصة ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين»، ص٣٠٢. **قلت**: وإسنادها حسن.
(٢) ذكر القصة السيوطي في «تحذير الخواص»، ص٢١١، ولم يذكر لها إسناداً.
(٣) ذكره السيوطي في «تحذير الخواص»، ص٢٦٣، ولم يذكر له إسناداً.
(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٩١؛ **قلت**: وإسناده حسن.

الجلوس إلى القصّاص، لا سيما إذا كان هؤلاء القصّاص من أصحاب الأهواء، والبدع.

- فعن عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ قال: «مرّ بي أبي، وأنا عند رجل يقصّ، فلم يقل شيئاً، حتى أتيتُ البيت، فاتّزر وأخذ السوط يضربني حتّى حجره الزِنوفال[1]، وهو يقول: أمع العمالقة؟ أمع العمالقة؟ ثلاثاً، إنّ هذا قرنٌ[2] قد طلع! يقولها ثلاثاً»[3].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب روايته لهذه القصّة: «لمّا أظهرت الخوارج القصَص، وأكثرت منه، كره التشبّه بهم»[4].

- وعن شجاع بن مخلد قال: «لقيني بشر بن الحارث، وأنا أريد مجلس منصور بن عمّار، فقال لي: وأنت أيضاً يا شجاع؟ ارجع! ارجع، فرجعت»[5].

٥ - إنكار السلف رحمهم الله لكتب الوعظ، والقصص المبتدعة:

اعتمد السلف رحمهم الله على الكتاب والسنّة، وآثار الصحابة والتابعين في تألفيهم لكتب الوعظ والتذكير، كما سبق بيانه[6].

ثمّ جاء من بعدهم أقوامٌ أحدثوا طرقاً مبتدعة في تصنيف كتب الوعظ، أخلوا منها الدليل والأثر، وملؤها بالتخيلات البدعية، والإشارات الصوفية،

---

(١) قال محقّق كتاب: «القصّاص والمذكرين»: «ولعلها: الزرنوقان»، ومعناه: حاجزان يبنيان على حافتي البئر، «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير ٤/ ٥٢.

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي حديث خبّاب: «هذا قرنٌ قد طلع» أراد قوماً أحداثاً نبغوا بعد أن لم يكونوا، يعني القصّاص، وقيل: «أراد بدعة حدثت لم تكن في عهد النبي ﷺ» ٤/ ٥٢.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤/ ٢٩١؛ وابن عبد البر في «التمهيد» ٤/ ١٢. **قلت:** وإسناده حسن.

(٤) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٤٦.

(٥) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد»؛ وابن الجوزي في «القصّاص والمذكرين» ص٣٥٥.

(٦) **انظر:** ص٤٨٤ من هذا البحث.

والحديث عن الوساوس والخطرات، وغيرها من الأمور التي لم تكن في عهد الصحابة، والتابعين.

فأنكر السلف رحمهم الله هذا النوع من الكتب، وحذّروا منها أشد التحذير.

ـ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن كتب الوعظ المحدثة ـ: «وجمهور هذه التصانيف التي صُنِّفَت لهم ـ أي: الصّوفية، وأهل البدع ـ، لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقّفها بعضهم عن بعض، ودوَّنوها، وقد سمَّوها بالعلم الباطن، والحديث. . . .

ثم قال: وبإسناده إلى أبي يعقوب إسحاق بن حية قال: «سمعت أحمد بن حنبل، وقد سُئِل عن الوساوس والخطرات؟ فقال: ما تكلّم فيها الصحابة، ولا التابعون»[1].

ـ وعن سعيد بن عمرو البردعي قال: «شهدت أبا زرعة، وسُئِل عن الحارث المحاسبي وكتبه؟ فقال للسائل: إيّاك وهذه الكتب، هذه الكتب كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنّك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب.

قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله ﷻ عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة.

بلغكم أنّ مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات، والوساوس، وهذه الأشياء؟.

هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع»[2].

قال الحافظ الذهبي مُعلِّقاً على كلام أبي زرعة السابق: «وأين مثل الحارث؟ فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين كالقوت لأبي طالب،

(١) «تلبيس إبليس»، ص٢٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٦، ولم يذكر لها إسناداً.

وأين مثل «القوت»! كيف لو رأى «بهجة الأسرار» لابن جهضم، و«حقائق التفسير» للسلمي لطار لُبُّه.

كيف لو رأى تصانيف أبي حامد الطوسي في ذلك، على كثرة ما في «الإحياء» من الموضوعات؟!! (يعني كتاب أبي حامد الغزالي الطوسي «الإحياء»).

كيف لو رأى «الغنية» للشيخ عبد القادر! كيف لو رأى «فصوص الحكم»، و«الفتوحات المكية»؟!

بلى لمّا كان الحارث لسان القوم في ذلك العصر، كان معاصره ألف إمام في الحديث، فيهم مثل أحمد بن حنبل وابن راهويه، ولما صار أئمة الحديث مثل ابن الدخميس، وابن حانة، كان قطب العارفين كصاحب الفصوص، وابن سفيان. نسأل الله العفو، والمسامحة آمين»[1].

- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - في بيان أوجه المخالفات التي جاءت في بعض كتب الوعظ والتزكية -: «وأما كتاب: «قوت القلوب»، وكتاب: «الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب، مثل: الصبر، والشكر، والحبّ، والتوكّل، والتوحيد، ونحو ذلك، وأبو طالب - أي: أبو طالب المكي، صاحب كتاب: «قوت القلوب - أعلم بالحديث، والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم، من أبي حامد الغزالي، وكلامه أشدّ وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة، مع أنّ في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة، وموضوعة، وأشياء مردودة كثيرة.

وأما ما في «الإحياء» من المهلكات؛ مثل الكلام على الكبر، والعجب، والرياء والحسد، ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في «الرعاية» ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه، و«الإحياء» فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنّ فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلَّق بالتوحيد، والنبوة، والمعاد، فإذا ذكرت

(١) «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، للذهبي ١/ ٤٣١.

معارف الصوفية، كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين، فألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا: أمرضه «الشفاء» يعني «شفاء ابن سينا» في الفلسفة؛ وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية، وترَّهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب، والسنة، ومن غير ذلك من العبادات، والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس، وتنازعوا فيه»(١).

٦ ـ تأليف الكتب في الردّ على القصّاص:

انبرى جمع من السلف رحمهم الله للتصدّي لكذب القصّاص ودجلهم، فألفوا كتباً بينوا فيها زغلهم، وكشفوا عوارهم.

ومن هذه الكتب تمثيلاً لا حصراً(٢):

١ ـ أخبار القصّاص:

لأبي بكر محمد بن الحسين، المعروف بالنقاش الموصلي، ت: ٣٥١هـ.

٢ ـ القصّاص والمذكرين(٣):

لأبي الفرج ابن الجوزي، ت: ٥٩٧هـ.

ذكر فيه بعض ما يُنْكَر على القصّاص، وعقد لذلك أبواباً، منها:

الباب الثالث: في ذكر ما ينبغي أن يقصّ ويذكر به؛ أشار فيه إلى أنّه ينبغي أن يقتصر في ذلك على ما جاء موافقاً للكتاب والسنة، وأنّه لا ينبغي الإغراب، أو تتبع ما ينقل من الإسرائيليات، مما فيه نيل برسل الله، أو حطّ من شأنهم، أو إلصاق ما يخدش العصمة بهم.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ٨٤.

(٢) «تاريخ القصّاص وأثرهم في الحديث النبوي ورأي العلماء فيهم» د. محمد بن لطفي الصباغ، ص٦٤.

(٣) الكتاب مطبوع، بتحقيق: د. محمد بن لطفي الصبّاغ، نشر المكتب الإسلامي.

وفي الباب السابع: ذكر فيه ما يحذر منه القاصّ، وأورد فيه ما قد يعرض للقاصّ من جهة ما قد تختلج في نفسه من كبر، وعلوٍّ على الناس، أو رغبة في اجتذاب الناس إليه من إغراب، وتتبّع لغرائب القصص، ونوادر الأخبار.

والباب الثامن: في ذمِّ من يأمر بالمعروف، ولا يأتمر به.

والباب العاشر: عقده في التحذير من أقوام تشبّهوا بالمذكرين، فأحدثوا، وابتدعوا حتى أوجب فعلهم إطلاق الذمِّ للقصّاص.

وبيّن في هذا الباب كثيراً من أخبار الجهلة، والكذّابين الذين انتحلوا صفة الوعّاظ، ولبسوا ثوب المذكِّرين، وكان الكذب وسيلتهم، والوضع بضاعتهم، مما كان له أثر سيء على المجتمع الإسلامي، حيث بثّوا فيه كذبهم، وبدعهم.

وفي الباب الحادي عشر: أورد فيه موقف السلف من القصّاص، وذمّهم، والنهي عن الجلوس إليهم، ومقاطعتهم، وطردهم من المساجد، والإنكار على من جلس إليهم.

٣ ـ أحاديث القصّاص[1]:

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ت: ٧٣٨هـ.

جمع فيه نحواً من تسعة وسبعين حديثاً مما يرويه القصّاص عن النبي ﷺ.

حيث يذكر الحديث، ثمّ يعلّق عليه بعبارة موجزة يتعرّض فيها لبيان معنى الحديث، والمراد منه، وكذلك بيان بطلانه سنداً، أو متناً.

٤ ـ الباعث على الخلاص من حوادث القصّاص[2]:

لزين الدين العراقي، ت: ٨٠٦هـ.

---

(١) الكتاب مطبوع، بتحقيق: د. محمد بن لطفي الصبّاغ، نشر المكتب الإسلامي، سنة: ١٣٩٢هـ.

(٢) الكتاب مطبوع، بتحقيق: د. محمد بن لطفي الصبّاغ، نشر دار الورّاق، سنة: ١٤٢٢هـ.

أورد فيه مسائل عديدة، منها:

- إنكار الصحابة، والسلف على القصّاص، وتحذير الناس منهم، والنهي عن مجالستهم.

- كما أورد ما كان عليه القصّاص في زمن المؤلف، حيث اتّصف غالبهم بالجهل، وتتبّع الغرائب، ورواية ما لم يتحمّل.

٥ - تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص[١]:

لجلال الدين السيوطي، ت: ٩١١هـ.

عقد فيه فصولاً كثيرة في تحريم رواية الحديث المكذوب عن رسول الله ﷺ.

وعقد الفصل السابع: لبيان إنكار السلف قديماً، وحديثاً على القصّاص فيما رووه من الأباطيل، وما تحمّلوه من مشاق في سبيل هذا الإنكار من قِبَلِ القصّاص الذين كانوا يؤلِّبون العامة عليهم.

يضاف إلى ذلك ما هو مبثوث في بطون الكتب، حيث تعرّض كثير من العلماء لأباطيل القصّاص: ككتاب: «الموضوعات» لابن الجوزي، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح، وغيرها كثير.

• ومما تقدّم نتبيّن عظم غيرة السلف رحمهم الله على هذا الدِّين، حيث هبّوا إلى الذود عن حياضه وكشف زيف وبدع القصّاص، بكل ما أتيح لهم من الأساليب والوسائل الشرعية، من إنكار باللسان، أو تقويم بالبنان، أو استدعاء للسلطان؛ للضرب على أيدي المخالفين.



(١) الكتاب مطبوع، بتحقيق: د. محمد بن لطفي الصبّاغ، نشر المكتب الإسلامي، سنة: ١٤٠٤هـ.

المبحث الثاني

مخالفات الصوفية لمنهج السلف في الوعظ

وفيه تمهيد، وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التيئيس من رحمة الله.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الرهبنة وهجر الناس.

المطلب الثالث: الدعوة إلى التواكل.

تمهـــيد

*** تعريف موجز بالصوفية، ونشأتها:**

تباينت آراء أعلام الصوفية، وغيرهم، في تحديد مفهوم للصوفية، ولاشتقاقها[(١)]، ومن جملة ما قيل في ذلك:

ـ عرّفها سمنون[(٢)] ـ وهو من أعلام الصوفية ـ فقال: «التصوّف أن لا تملك شيئاً، ولا يملكك شيء»[(٣)].

ـ وعرّفها ـ غير الصوفيّة ـ كابن الجوزي فقال: «التصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخَّص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهّد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب»[(٤)].

● **أما عن نشأة التصوّف:**

فقد اتفق العلماء على حداثة (اسم: التصوّف)، وعدم وجوده

---

(١) **قيل**: إنّ لفظ «الصوفي» جامد غير مشتق.
وقيل: إنّه مشتق من الصفاء، أو الصفو.
وقيل: إنّ اللفظ مأخوذ من الصوف؛ لأنّ لباس الصوف كان يكثر في الزهاد.
وقيل: إن الصوفية نسبة إلى الصفة التي ينسب إليها كثير من الصحابة، لكن النسبة إلى الصفة لا تجيء على الصوفي، بل على الصفي.
وقيل: نسبة إلى الصف الأول؛ لأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة، والمناجاة.
انظر: «التصوّف المنشأ والمصدر» د. إحسان إلهي ظهير، ص٢٥.

(٢) «اللمع في التصوّف» لأبي نصر الطوسي، ص١٥.

(٣) **هو**: أبو الحسن سمنون بن حمزة، من كبار مشايخ الصوفية من أهل العراق، توفي بعد الجنيد. **انظر**: «طبقات الصوفية»، للسلمي، ص٤٥.

(٤) «تلبيس إبليس»، ص١٩٩.

في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، والسلف الصالحين.

وكان السلف من الصحابة والتابعين؛ أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها، يعدّون الدنيا وما فيها لهواً ولعباً، زائلة فانية، والأموال والأولاد فتنة ابتلي المؤمنون بها، ولكن أخذوا من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه، واجتنبوا منها ما نهى الله عنه، سالكين مسلك الاعتدال، منتهجين منهج المقتصد، غير باغين ولا عادين، لا مفرطين ولا متطرفين.

ثم خلف من بعدهم خلف فتطرّفوا، وذهبوا بعيداً في نعيم الدنيا وزخارفها، وفتحت عليهم أبواب الترف والرخاء، ودرّت عليهم الأرض والسماء، فانغمسوا في زخارفها وملذاتها، فحصل ردّ الفعل، في بعض ذوي النفوس الضعيفة المتوانية، فهربوا عن الحياة ومناضلتها، وجدّها وكدّها، ولجأوا إلى الزوايا والأربطة، وصبغوا هذا الفرار والانهزام وردّ الفعل صبغة دينية، ولون قداسة وطهارة، وتنزّه وقرابة، كما كان هنالك أسباب ودوافع ومؤثرات أخرى، وكذلك أيدي خفية دفعتهم إلى تكوين فلسفة جديدة للحياة، وطراز آخر من المشرب والمسلك، وأسلوب جديد للعيش والمعاش.

فظهر التصوّف بصورة مذهب مخصوص، وبطائفة مخصوصة اعتنقه قوم، وسلكه أشخاص ساذجون، كمسلك للزهد، ووسيلة للتقرّب إلى الله، غير عارفين بالأسس التي قام عليها هذا المشرب، والقواعد التي أُسِّسَ عليها هذا المذهب.

كما تستّر بقناعه، وتنقّب بنقابه بعضٌ آخرون لهدم الإسلام وكيانه، وإلغاء تعاليم سيد الرسل ﷺ، ونسخ الإسلام وإبطال شريعته بنعرة وحدة الوجود، ووحدة الأديان، وإجراء النبوة، وترجيح من يسمى بالولي على أنبياء الله ورسله، ومخالفة العلم، والتفريق بين الشريعة والحقيقة، وترويج الحكايات والأباطيل والأساطير، باسم الكرامات والخوارق وغير ذلك من الخلافات والترهات.

ولم يظهر التصوف مذهباً ومشرباً، ولم ترج مصطلحاته الخاصة به، وكتبه، ومواجيده وأناشيده، وتعاليمه وضوابطه، وأصوله وقواعده، وفلسفته، ورجاله وأصحابه إلّا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده(١).

• **الفرق بين الزهد، والتصوّف:**

يخلط البعض بين الزهد المشروع، والتصوّف المذموم، والحقيقة أنّ التصوّف أمر زائد وطارئ على الزهد، له كيانه وهيئته، نظامه وأصوله، قواعده وأسسه، كتبه ومؤلفاته، رسائله ومصنفاته، كما أنّ له رجالاً وسدنة وزعماء وأعياناً.

فالزهد عبارة عن ترجيح الآخرة على الدنيا، والتصوّف اسم لترك الدنيا تماماً.

والزهد هو تجنّب الحرام، والاقتصاد في الحلال، والتمتع بنعم الله بالكفاف، وإشراك الآخرين في آلاء الله ونعمه وخدمة الأهل والإخوان والخلان.

والتصوّف تحريم الحلال، وترك الطيبات، والتهرّب من الزواج ومعاشرة الأهل والإخوان، وتعذيب النفس بالتجوع والتعري والسهر.

والزهد منهج وسلوك مبني على الكتاب والسنة، وليس التصوف كذلك.

ثمّ إنّ الذين اكتفوا بحسن الخلق، والزهد في الدنيا، والتأدب بآداب الشرع لُقِّبوا بالنسّاك، والقرّاء، والزهّاد، والعبّاد، والذين أقبلوا على دراسة النفوس، وآفاتها، وما يرد على القلب من خواطر، وحرصوا على الصيغة المذهبية، لُقِّبُوا بالصوفية(٢).

• **مخالفات الصوفية في مجال الوعظ:**

كان مُرَاد الصوفية الأوائل، تهذيب النفوس، والتفتيش عن عيوبها،

---

(١) **انظر**: «التصوّف المنشأ والمصدر»، ص٤٩.
(٢) **انظر**: «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق»، لزكي مبارك ٢/ ٢١.

ومن ثمّ حملها على الجدّ والاجتهاد، ولكنهم ركبوا متن الشطط، وحملوا النفوس ما لا تحتمل، ونقّبوا عن أمور لم ينقب عنها من هو أفضل منهم، وأزكى.

ولم يزل هذا الإفراط في أحوالهم حتى جرى على ألسنتهم، فحمّلوا الموعوظين، والمريدين فوق ما تطيقه أبدانهم، وحملوا الناس على ترك دورهم، وأموالهم، وشؤونهم، حتى دبّ اليأس في نفوس البعض، من خلال ما يسرد عليهم من نصوص ملفّقة مكذوبة في التخويف والوعيد، وفي الزجر والتهديد.

فكان انحراف الصوفية في مضمون الوعظ[1] انحرافاً خطيراً لعظيم ضرره، وشدّة فتنته، ولاعتقاد كثير من السذّج أنّ التصوّف هو السبيل الأمثل، بل الأوحد لتزكية النفوس، وتهذيبها.

وفي ما يلي عرضٌ لأبرز هذه المخالفات:



(١) أما مخالفات الصوفية في منهج الوعظ، فقد تقدّم كثير منه في المبحث الأوّل من هذا الفصل، ص٨٥٧ وما بعدها، ومن ذلك اعتمادهم على الذكر المبتدع، والشطح، والغناء منهجاً لتذكيرهم.

المطلب الأول

التيئيس من رحمة الله

*** أوّلاً: المراد باليأس، والقنوط من رحمة الله تعالى، وحكمهما:**

القنوط من رحمة الله هو: استصغار رحمة الله ﷻ، ومغفرته، وتضيق لفضاء جوده تعالى، وهو على ذلك يأس من رحمة الله تعالى[1].

وقيل: إنّ القنوط هو أشدّ اليأس من الشيء[2].

أمّا اليأس من رحمة الله فهو: انقطاع الرجاء بالله تعالى[3].

والقنوط أبلغ من اليأس للترقّي إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩][4].

ـ ويكون القنوط بالئياس من توبة الله تعالى على العبد، أو باعتقاد أنّ للتوبة شروطاً لا يمكن أن تتحقّق في هذا العبد المذنب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له.

إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته، ويغفر ذنوبه.

وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة؛ بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له.

وهذا يعتري كثيراً من الناس، والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة.

(١) «شجرة المعارف والأحوال» للعز بن عبد السلام، ص١٢٠.
(٢) «النهاية في غريب الحديث» ٤/ ١١٣. (٣) «الكليات»، للكفوي، ص٩٨٥.
(٤) «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، لابن حجر الهيثمي ١/ ١٧١.

فالأول: كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائة ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته، والحديث في الصحيحين[(١)].

والثاني: كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له: لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها، فييأس من أن يتوب»[(٢)].

• حكم القنوط واليأس من رحمة الله تعالى:

سوء الظنّ بالله تعالى، والقنوط، واليأس من رحمته من الكبائر، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أكبر الكبائر سوء الظن بالله**»[(٣)].

[قال المناوي في شرح هذا الحديث: «وذاك بأن يظنّ أن الله ليس حسبه في كل أموره، وأنه لا يعطف عليه، ولا يرحمه، ولا يعافيه؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى القنوط»[(٤)]].

قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله: «وقد اتّفقوا على أنّ الشخص الذي يئس من وقوع شيء من الرحمة له مع إسلامه، فاليأس في حقّه كبيرة اتفاقاً، ثم هذا اليأس قد ينضمّ إليه حالة هي أشدّ منه، وهي التصميم على عدم وقوع الرحمة له، وهو القنوط، ثم قد ينضمّ إلى ذلك أنّ الله تعالى يشدّد عقابه له كالكفّار، وهذا سوء ظن بالله تعالى[(٥)].

*** ثانياً: مسلك الصوفية في التيئيس من رحمة الله تعالى، وبيان بطلانه:**

غلت طوائف الصوفية في باب الترهيب والتخويف، وخرجت به عن

---

(١) سيأتي ذكر حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ص٨٦٧.

(٢) «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٢٠.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: «أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف» فتح الباري ١٠/ ٤١١.

(٤) «التيسير بشرح الجامع الصغير»، للمناوي ١/ ١٩٩.

(٥) **انظر**: «الزواجر عن اقتراف الكبائر» ١/ ١٧١ ـ ١٧٢.

حدّ التوسّط والاعتدال، بل زاد الأمر بها إلى أن وضعت أحاديث في التخويف والوعيد، بقصد زجر الناس عن اقتراف المعاصي، وأغلقت باب التوبة دون المذنبين والعصاة، فتولّد عن ذلك اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ.

وفي هذا الصدد يقول الإمام ابن الجوزي ؒ: «وفيهم من يروي أحاديث التخويف الموضوعة إلى أن يقنط الناس من الرحمة»[(١)].

والترهيب قد يتّسم بالاعتدال، وقد يشوبه قصور، وإفراط، والمحمود منه ما يؤدي إلى المقصود منه، ويحقّق الهدف.

قال الإمام الغزالي ؒ: «اعلم أن الخوف محمودٌ، وربما يُظَنُّ أنّ كلّ ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد!! وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدلّ على أن المبالغة في الضرب محمودة، وكذلك الخوف له قصور، وله إفراط، وله اعتدال.

والمحمود: هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه فهو: الذي يجري مجرى رقّة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء، وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ، رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر، قليل الجدوى ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها.

وأما المفرِّط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضاً؛ لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٥.

الخوف أيضاً إلى المرض، والضعف، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط، وهو الحمل على العمل»[(١)].

ـ وإنّ من طبيعة النفس البشريّة أنها تتحرّك تحت عاملين متضادين: عامل الرغبة، وعامل الرهبة، وكلاهما يؤثر في النفس تأثيراً عظيماً.

فطريق السلامة الجمع بين الخوف والرجاء في حقّ العبد.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «طريق السلامة بين طريقين مخوفين مهلكين: طريق الأمن، وطريق اليأس، وطريق الرجاء والخوف هو العدل بينهما، فمتى فقدت الرجاء، وقعت في طريق الخوف، ومتى فقدت الخوف وقعت في طريق الأمن، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فطريق الاستقامة ممتد بينهما، فإن مالت عنه يمنة أو يسرة هلكت، فيجب أن تنظر إليهما جميعاً، وتركب منهما طريقاً دقيقاً، وتسلكه نسأل الله السلامة.

واعلم أنّ النفس إذا كانت ذات شره، وشهوة غالبة، فارت بدخان شهواتها كدخان الحريق، فأظلمت الصدر، فلم يبق له ضوء، بمنزلة قمر ينكسف، فصار الصدر مظلماً، وجاءت النفس بهواجسها وتخليطها، واضطربت، فظنّ العبد أنّ الله لا يعطف عليه، ولا يرحمه، ولا يكفيه أمر رزقه، ونحو ذلك، وهذا من سوء الظن بالله، وصل إلى حال اليأس من الرحمة، ووقع في القنوط»[(٢)].

ـ وكثير من دعاة الصوفية يغلقون باب الرجاء والتوبة، دون المذنبين، واليائسين، ومن المعلوم أنّ باب الرجاء من أعظم الأدوية التي يعالج بها اليأس والقنوط.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن هذا الدواء ـ أي: الرجاء ـ يحتاج إليه أحد رجلين:

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٤/ ١٥٧.
(٢) «فيض القدير» ٢/ ٧٨.

إما رجل غلب عليه اليأس؛ فترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف؛ فأسرف في المواظبة على العبادة، حتى أضرَّ بنفسه وأهله.

وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال».

وقال: «فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطِّفاً ناظراً إلى مواقع العلل، معالجاً كلّ علّة بما يضادّها، لا بما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها، وخير الأمور أوسطها، فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عُولج بما يردّه إلى الوسط، لا بما يزيد في ميله عن الوسط...»[1].

- والمبالغة في الوعيد، وغلق باب الرجاء والتوبة في حقِّ المقصرين والمذنبين مسلك يخالف ما جاءت به نصوص الكتاب الكريم، والسنة النبويّة.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحن نذكر أسباب الرجاء؛ لتستعمل في حق الآيس، أو فيمن غلب عليه الخوف، اقتداءً بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ فإنهما مشتملان على الخوف، والرجاء جميعاً؛ لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة؛ استعمال الطبيب الحاذق، لا استعمال الأخرق الذي يظن أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان»[2].

ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٤/١٤٦.

(٢) «إحياء علوم الدين» ٤/١٤٦.

فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب، وكثرت[1].

وقال في التحرير والتنوير: «أطنبتْ آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطناباً يبلغ من نفوس سامعيها أيَّ مبلغ من الرعب والخوف، على رغْم تظاهرهم بقلة الاهتمام بها، وقد يبلغ بهم وقعها مبلغَ اليأس من سَعي ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله ببعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة، إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد، من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب»[2].

ومن الأخبار الواردة في عظيم رحمة الله تعالى وعفوه، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«إنّ عبداً أصاب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبت، فاغفر لي، فقال ربه: أَعَلِمَ عبدي أنّ له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثمَّ مكث ما شاء الله، ثمّ أصاب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبت آخر فاغفره، فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبت آخر، فاغفره لي فقال: أَعَلِمَ عبدي أنّ له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء»**[3].

وصنيع الصوفية في هذا الباب يشبه صنيع الراهب مع الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«كان فيمن كان قبلكم، رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض**

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٢٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/ ٣٩.
(٣) متفق عليه، البخاري ٦/ ٢٧٢٥، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، رقم (٦٩٥٣)؛ واللفظ له؛ ومسلم ٤/ ٢١١٣، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، رقم (٤٩٥٣).

فَدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه، وبين التوبة، انطلق إلى أرض، كذا، وكذا، فإنّ بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»(١).

ووجهه الدلالة من هذا الحديث: هو في موقف الراهب الذي أغلق باب التوبة والرجاء في وجه هذا المذنب القانط، فكان ذلك سبباً في زيادة قنوطه ويأسه، وكانت النتيجة أن كَمَّلَ به المائة لمّا رأى أنّه هالك لا محالة، بخلاف موقف العالم فإنّه أخذ بيد هذا اليائس، وفتح له أبواب الرجاء، فكان ذلك سبباً في أوبته، وتوبته.

ـ ومما يدلّ أيضاً على بطلان مسلك الصوفية في التقنيط من رحمة الله تعالى، أنّ القنوط يتولّد عنه مضار عظيمة، ويجرّ إلى عواقب وخيمة، ومن ذلك:

١ ـ أنّ القنوط يقطع العبد عن الله ﷻ، وهو أحد مسالك إبليس في صدّ العباد عن سبيل الله تعالى، ولهذا عُدَّ القنوط من كبائر الذنوب.

٢ ـ أنّ القنوط يُقْعِدُ الإنسانَ، ويُعْجزه عن القيام بما أُمِرَ به.

٣ ـ إذا غلب على الإنسان اليأس والقنوط، حرمه من الجدّ والاجتهاد، فسهلت عليه بالتالي البطالة والكسل(٢).

---

(١) رواه مسلم ٢١١٨/٤، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩٦٧).

(٢) انظر: «نضرة النعيم» ١١/ ٥٣٤٤.

*** ثالثاً: ترغيب السلف في حسن الظن بالله وتحذيرهم من القنوط والتيئيس:**

- جمع السلف رحمهم الله بين الخوف والرجاء، فلم يحملهم رجاؤهم في الله على التجرؤ على محارمه، ولم تخرجهم خشيته إلى اليأس والقنوط.

فكانوا يعالجون الأمن من مكر الله تعالى بالخوف منه، واليأس من رحمته بالرجاء فيه.

وممّا أثر عنهم في حسن الظن بالله عندما تشتمل بالمرء الخطوب، وتحتوشه الذنوب[1]:

قول الإمام الشافعي رحمه الله[2]:

خَفِ الله وارْجُهُ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... ولا تُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ فَتنْدَمَا
وكُنْ بَيْنَ هَاتَيْنِ مِنَ الخَوْفِ والرَّجَا ... وَأَبْشِرْ بِعَفْوِ الله إِنْ كُنْتَ مُسْلِماً
وَلَمّا قَسا قَلبي وَضاقَت مَذاهِبي ... جَعَلتُ الرَجا مِنّي لِعَفوِكَ سُلَّماً
تَعاظَمَني ذَنبي فَلَمّا قَرَنتُهُ ... بِعَفوِكَ رَبّي كانَ عَفوُكَ أَعظَما
فَما زِلتَ ذا عَفوٍ عَنِ الذَنبِ لَم تَزَل ... تَجودُ وَتَعفو مِنَّةً وَتَكَرُّما
فَلَولاكَ لَم يَصمُد لِإِبليسَ عابِدٌ ... فَكَيفَ وَقَد أَغوى صَفِيَّكَ آدَما
فَلِلَّهِ دَرُّ العارِفِ النَدبِ إِنَّهُ ... تَفيضُ لِفَرطِ الوَجدِ أَجفانُهُ دَما
يُقيمُ إِذا ما اللَيلُ مَدَّ ظَلامَهُ ... عَلى نَفسِهِ مَن شِدَّةِ الخَوفِ مَأتَماً
فَصيحاً إِذا ما كانَ في ذِكرِ رَبِّهِ ... وَفي ما سِواهُ في الوَرى كانَ أَعجَما
وَيَذكُرُ أَيّاماً مَضَت مِن شَبابِهِ ... وَما كانَ فيها بِالجَهالَةِ أَجرَما
فَصارَ قَرينَ الهَمِّ طولَ نَهارِهِ ... أَخا الشُهدِ وَالنَجوى إِذا اللَيلُ أَظلَما
يَقولُ حَبيبي أَنتَ سُؤلي وَبُغيَتي ... كَفى بِكَ لِلراجينَ سُؤلاً وَمَغنَما
أَلَستَ الَّذي غَذَّيتَني وَهَدَيتَني ... وَلا زِلتَ مَنّاناً عَلَيَّ وَمُنعِما
عَسى مَن لَهُ الإِحسانُ يَغفِرُ زَلَّتي ... وَيَستُرُ أَوزاري وَما قَد تَقَدَّما

---

(١) انظر: مزيداً من هذه الآثار في كتاب: «حسن الظن بالله»، ص١٣ - ١٢٢، لابن أبي الدنيا.

(٢) «ديوان الإمام الشافعي»، ص١٢٨.

وقال أبو عمران السلمي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإني لآتي الذنب أعرف قدره　　وأعلم أن الله يعفو ويغفر
لئن عظم الناس الذنوب فإنها　　وإن عظمت في رحمة الله تصغر[٢]

وقال آخر:

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه　　لا بي ولا بشفيع لي من الناس
إذا أيست وكاد اليأس يقطعني　　جاء الرجا مسرعاً من جانب اليأس[٣]

● ومن الآثار المروية عن السلف رحمهم الله في التحذير من التيئيس من رحمة الله:

ـ قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الفقيه حقّ الفقيه الذي لا يقنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمِّنهم من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم في معاصي الله»[٤].

قال سفيان الثوري ـ وقد سُئل عن قول علي بن أبي طالب السابق ـ: «صدق، لا يكون الترخيص إلّا في المستقبل، ولا التقنيط إلا فيما مضى»[٥].

ـ وقيل لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن ها هنا رجلاً قد خولط، ولم يكن بحاله بأس، فظننا أنه أذنب ذنباً يرى في نفسه أنّ ذلك الذنب لا يغفر له، فصار إلى ما ترى، قال: عليَّ به، فأُدْخِلَ عليه، فقال: اسمع ما أقول لك: إنّ الذي أدرك منك عدوّك بقنوطك من رحمة الله، أعظم من ذنبك

---

(١) الهيثم بن أيوب السلمي، أبو عمران العطار، من أهل طالقان، يروى عن فضيل بن عياض، كان ثقة جليل القدر، صاحب عبادة وإخبات، توفي سنة: ٢٣٨هـ؛ «تقريب التهذيب» ص٥٠٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله»، ص١٠٦. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) ذكره ابن القيم في كتاب: «الفوائد»، ص٣٢، ولم ينسبه.

(٤) رواه الدارمي في سننه ١/١٠١؛ وأبو خيثمة النسائي في كتاب: «العلم»، ص٣٣؛ والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» ٢/٣٣٩. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٥) ذكره أبو نعيم في «الحلية» ٧/٢٩٨، ولم يسنده.

الذي أذنبت، فقال الرجل: هاه، فأفاق»[١].

ـ وعن ابن أبي مليكة أنّ عبيد بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: من هذا؟ فقال: عبيد بن عمير، فقالت: عمير بن قتادة؟ فقال: نعم، قالت: ألم أُحَدَّث أنك تجلس، ويُجْلَسُ إليك؟ قال: بلى يا أم المؤمنين، قالت: فإياك وإهلاك الناس، وتقنيطهم»[٢].

ـ وعن زيد بن أسلم أنّ رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة، ويشدِّد على نفسه، ويقنِّط الناس من رحمة الله، ثم مات، فقال: أي رب ما لي عندك؟ قال: النار، قال: يا رب فأين عبادتي، واجتهادي؟ فقيل له: كنت تقنِّط الناس من رحمتي في الدنيا، وأنا أقنِّطك اليوم من رحمتي»[٣].

ـ وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكبر الكبائر الشرك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»[٤].

ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا يحلّ لأحدٍ أن يَقنَط من رحمة الله، ولا أن يُقَنِّط الناس من رحمته، ولذا قال بعض السلف: إنّ الفقيه كلّ الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله»[٥].

● وعليه فإنّ من واجب الواعظ شحذ الهمم الخائرة، وتعليق القلوب بعلام الغيوب، وفتح أبواب الرجاء للمذنبين، أما تيئيس العباد من رحمة ربّ العباد، وتقنيطهم فإنّه مسلك صوفي مذموم، يخالف هدي الكتاب والسنّة، وسيرة السلف الصالح.

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله»، ص١٠٠.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/٢٨٨. **قلت**: وإسناده حسن.

(٣) المصدر السابق ١١/٢٨٨. **قلت**: وإسناده لا بأس به.

(٤) ذكره أبو نعيم في «الحلية» ٧/٢٩٨، ولم يسنده.

(٥) «مجموع الفتاوى» ١٦/٢٠.

المطلب الثاني

الدعوة إلى الرهبنة وهجر الناس

*** أوّلاً: مفهوم الرهبانية، ومنشؤها:**

الرهبانية هي: المبالغة في العبادة بالانقطاع عن الناس، وترك الدنيا ولذاتها من النساء وغير ذلك، وأصل معناها: الفعلة المنسوبة إلى الرّاهب: وهو الخائف.

وقد ابتدع النصارى هذه الرهبانية بقصد التقرّب إلى الله ﷻ، فرفضوا الزواج، واتخذوا الصوامع، ولكنهم لم يحافظوا على مقتضياتها من ذكر وعبادة وعفّة، وإنما أصبحت طقوساً، وشعائر خالية من التعبّد.

قال في النهاية: «الرهبانية هي من رهبنة النصارى، وأصلها من الرهبة الخوف، كانوا يترهّبون بالتخلّي عن مشاغل الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقّها، حتى إنّ منهم من كان يخصي نفسه، ويضع السلسلة في عنقه، وغير ذلك من أنواع التعذيب، فنفاها النبي ﷺ عن الإسلام، ونهى المسلمين عنها»[١].

قال تعالى مخبراً عن حال النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

*** ثانياً: مسالك الصوفية في الرهبانية، وبيان بطلانها:**

ظنّت طوائف الصوفيّة أنّ الطريق إلى الله تعالى مبناه على التبتّل،

(١) «النهاية في غريب الأثر» ٢/ ٢٨٠.

والانقطاع عن الدنيا، وهجر الناس واعتزالهم، وتجويع النفس، وتعذيبها، وتحميلها من صنوف النوافل حتى تكلّ، وتعجز، وهذا من تلبيس إبليس عليهم.

ولو قصروا هذا الاعتقاد على أنفسهم فقط لهان الخطب، ولكنهم روّجوا لهذا التشديد، ودعوا الناس إليه، من خلال مواعظهم، فحملوا الناس على الجوع والفقر، وتعذيب النفس، واعتزال الناس، وترك الزواج، وغير ذلك من مظاهر الرهبانية.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن القصَّاص من يأمر بالزهد في الدنيا، ولا يبيّن المراد، ويدرج في ذلك أخبار المتزهّدين، ومن خرج من ماله، ومن كان يطوي أياماً، ولا ينام الليل، ويهرب من الخلق، فيرى العامّة ترك عائلته، ويهرب إلى السياحة، أو ينقطع في المسجد، فإن طلبت المرأة فرضها وحكم الحاكم عليه بذلك؛ لعن امرأته، وتسخّط على الحاكم الذي هو نائب الشرع.

ولو أن القاصّ فَهِمٌ؛ لأخبرهم أنّ المذموم فضول الدنيا الشاغلة عن الآخرة، وأنّ النّفقة على الأهل واجبة، ثم إنّ العوام محتاجون إلى تعريف الفرائض، ومن هو مفرِّط في الصلاة، مخلٌّ بالواجب في الزكاة، متقاعد عن الحج مع الإمكان، وعن قضاء الدين مع الجدة، فأين هو والنوافل؟»[1].

ومدار الرهبانية عند طوائف الصوفية يمكن إجمالها في المجالات التالية:

أ ـ التشديد على النفس وإرهاقها بأنواع التكاليف.

ب ـ التبتّل.

ج ـ العزلة وهجر الناس.

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٥.

أ ـ التشديد على النفس، وإرهاقها بأنواع التكاليف:

إنّ النفس لجوج، لا تنقاد إلى الخير إلّا بالمجاهدة والمصابرة، ولكن طوائف الصوفية غلت في هذا الجانب غلواً كبيراً، فحملت الناس على ركوب الأهوال، وملازمة الجوع، وطول السهر؛ بغية تطهير النفس، والسموّ بها إلى علياء الفضيلة.

ومن صور هذا الغلو، والتشديد:

١ ـ ملازمة الجوع، والفقر، والسهر:

زعم المتصوّفة أنّ ملازمة الجوع، وإطالة السهر، والتعرّي، ولباس الصوف، هو الطريق الأوحد لتهذيب النفس، وإصلاحها، ولكنهم غلو في ذلك غلواً كبيراً.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالغ إبليس في تلبيسه على قدماء الصوفية، فأمرهم بتقليل المطعم، وخشونته، ومنعهم شرب الماء البارد... وكان فيهم من لا يكون له سوى ثوب واحد زاهداً في الدنيا»[1].

ومن ذلك قول أحد أقطاب الصوفية: «قاسيت الأهوال في بدايتي، وما تركت هولاً إلّا ركبته، وكان لباسي جُبَّة صوف، وعلى رأسي خريقة، وكنت أمشي حافياً في الشوك وغيره، وكان قوتي قمامات البقل، وورق الخسّ من شاطئ النهر، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدة حتّى طرقني من الله الحال الذي يطرق القوم»[2].

ويكشف لنا الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال الصوفية في هذا المجال، ويذكر أيضاً طرفاً من مواعظهم التي تدعو الناس إلى هذا التشدّد والغلو، ومن جملة ما قاله:

«وقد كان فيهم ـ أي: الصوفية ـ قومٌ لا يأكلون اللّحم، حتى قال بعضهم: أكل درهم من اللّحم يقسِّي القلب أربعين صباحاً، وكان فيهم من يمتنع من الطيبات كلها...

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص٢٥٥.

(٢) «الأنوار القدسية» ١/ ١٣٤.

ثم شرع في ذكر كثير من أحوال القوم في ذلك. . . .

ومن ذلك قول بعض أقطاب الصوفية: منذ أربعين سنة، ما أطعمت نفسي طعاماً، إلّا في وقت ما أحل الله لها الميتة»[١].

• أما ما أثر من مواعظهم الآمارة بملازمة الجوع، واطِّراح كلّ الطيبات:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن الصوفية إنما يأمرون بالتقلّل شبانهم، ومبتدئيهم، ومن أضرِّ الأشياء على الشاب الجوع، فإنّ المشايخ يصبرون عليه، والكهول أيضاً، فأما الشبان فلا صبر لهم على الجوع»[٢].

ثم قال: وقد رتّب أبو طالب المكي[٣] للقوم ترتيبات في المطاعم، فقال: استحب للمريد ألّا يزيد على رغيفين في يوم وليلة. . والجوع ينقص دم الفؤاد فيبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رقته، وفي رقته مفتاح المكاشفة. . .

وقال: وصنّف لهم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي[٤] كتاباً سمّاه: «رياضة النفوس»، قال فيه: فينبغي للمبتدئ في هذا الأمر، أن يصوم شهرين متتابعين توبة من الله، ثم يفطر فيطعم اليسير، ويأكل كسرة كسرة، ويقطع الأدام، والفواكه، واللذة، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب. . .»[٥].

قال أحمد بن أحمد بن أبي الحسين الرفاعي ـ صاحب الطريقة الرفاعية ـ: «أكره للفقراء دخول الحمام، وأحب لجميع أصحابي: الجوع، والعري، والفقر، والذل، والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك»[٦].

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص٢٥٥ ـ ٢٥٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦٥.
(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكّي، واعظ، فقيه، من أعلام الصوفية، توفي سنة: ٣٨٦هـ؛ تاريخ بغداد ١١/ ٢٧٥.
(٤) محمد بن علي بن الحسن، أبو عبد الله الحكيم الترمذي، باحث صوفي، عالم بالحديث، وأصول الدين، من تصانيفه كتاب: «علل الشريعة»، توفي في حدود: ٣١٨هـ؛ سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٣٩.
(٥) «تلبيس إبليس»، ص٢٦٠.
(٦) «الأنوار القدسية» ١/ ١٣٢.

٢ ـ معاقبة النفس بأنواع العقوبات:

غلت الصوفية في علاج أمراض النفس، وآفاتها، ولم تكتفي بالمجاهدة الشرعية، وإلزام النفس بأنواع النوافل، بل شرعت طقوساً، وألواناً للعقوبات، ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد أورد الإمام الغزالي في «الإحياء» صوراً كثيرة من معاقبة النفس، وتعذيبها، وأثنى على من فعل ذلك، ومن هذه الصور: أنّ رجلاً كلّم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست، وأنّ آخر نظر إلى محاسن امرأة، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت»[١]. ـ وفي هذا مخالفة لمنهج السلف في تزكية النفس ـ.

وكثير من قصّاص الصوفية، ووعّاظهم يشحن مواعظه بذكر قصص أقوام ركبوا متن الشطط، وعاقبوا أنفسهم بعقوبات شنيعة، فيغترّ بذلك الجهّال.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ومن القصّاص من يورد على أقوام قد سكنت القلوب إلى تعظيمهم ما لا يحسن، فيقتدي بذلك الجاهل، والغلط قد وقع ممّن فعله، ومِن مُوْرِدِه، إذا لم يفهم أنه خطأ»[٢].

وقال ابن عقيل: «. . . .وذلك مثل ما يُروى أنّ أبا يزيد تراعنت[٣] عليه نفسه، فحلف أن لا يشرب الماء سنة، ومثل ما ينقل أنّ امرأة نظر إليها رجل، فقالت له: ما الذي أعجبك مني؟ فقال: عيناك، فدخلت بيتها، وقلعت عينيها، وأنفذتهما إليه في قرطاس».

وإن قوماً قيّروا[٤] أعينهم حتى لا ينظروا إلى زهرة الدنيا، فيبكي عند سماع هذه الأغمار الجهال بالشرع، ويحسبون ذلك مقاماً من المقامات،

---

(١) «إحياء علوم الدين» ٤/ ٤٠٦.
(٢) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٦.
(٣) من الرعونة: وهي الحمق والاسترخاء؛ لسان العرب ١٣/ ١٨٢، مادة: «رعن».
(٤) أي: طلوا أعينهم بالقار، وهو زيت أسود تطلى به السفن؛ لسان العرب ٥/ ١٢٤، مادة: «قير».

ولو فطن الموردون لهذا أنه طعن في العقل والدين، لما سردوا هذه القبائح على الجهّال، ووجه القبح أن الهياكل والأنفس ملك لله سبحانه وودائع عندنا، فلا يجوز لنا أن نضع عقوبة من قبل أنفسنا، ولا نستوفيها منا، ويدلّ عليه أن إقامة الحد على نفس الإنسان بنفسه لا يجزي، وإن فعله أعاده الإمام»[(١)].

- **نقد مسلك الصوفية في إرهاق النفس، وتعذيبها:**

مسلك الصوفية في هذا المجال مخالف للنهج النبوي في تزكية النفس، وتهذيبها، وهو مصادم للفطرة أيضاً، وفيه تعدٍّ على شريعة الله الغرّاء بتحريم الطيبات، وإهلاك النفوس.

- ومن النصوص النبويّة الواردة في التحذير من الرهبانية:

ـ حديث الرهط الذين أتوا بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فهمّ أحدهم بصوم الدهر، والآخر بالتبتّل، والثالث بقيام الليل كلّه، فعاب النبي ﷺ منهم هذا الصنيع، قال ﷺ: «**فمن رغب عن سنّتي فليس مني**»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: «والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل»[(٣)].

ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال له: «**إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل؟، فقلت: نعم، قال: إنك إذا فعلت ذلك، هجمت له العين، ونفهت له النفس، لا صام من صام الدهر، صوم ثلاثة أيام صوم**

---

(١) «القصّاص والمذكرين»، ص٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) تقدّم معنا هذا الحديث بلفظه وتخريجه. **انظر**: ص١٣٩ من هذا البحث.

(٣) «فتح الباري» ٩/ ١٠٥.

الدهر كله، قلت: فإني أطيق أكثر من ذلك، قال: فصم صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»[١].

ومعنى: «**هجمت له العين**»: ؛ أي: غارت وضعف بصرها.

ومعنى: «**نفهت النفس**»؛ أي: تعبت وكلّت[٢].

• كما أنّ التشديد على النفس مخالف للفطرة، ويؤدي إلى أضرار عظيمة:

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كيف يجوز لنا تعذيب النفس، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ورضي منا بالإفطار في السفر رفقاً بها، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أو ليست مطيتنا التي عليها وصولنا»[٣].

ومن الأضرار التي تنتج عن إرهاق النفس بأنواع التكاليف:

١ ـ الانقطاع عن العمل:

ويكون بالسآمة والملل ثم العجز تارة، أو بسبب تزاحم الحقوق تارة أخرى.

أما انقطاع العمل نتيجة للسآمة والعجز، فيدلّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها: **«أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: مه! عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا، وكان أحبّ الدين إليه ما دام عليه صاحبه»**[٤].

أما انقطاع العمل بسبب تزاحم الحقوق؛ فإنّ المكلّف مطالب بتكاليف، وأعمال شرعية لا بد له منها، يقوم فيها بحقوق الله عز وجل، وبحقوق

---

(١) متفق عليه، البخاري ٢/ ٢٩٦، كتاب: الصوم، باب: صوم داود، رقم (١٨٤٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ٨١٣، كتاب: الصوم، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١٩٦٧).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي، ٨/ ٤٥.

(٣) «تلبيس إبليس»، ص٢٦٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢٤، كتاب: الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، رقم (٤١).

عباده، فإذا أوغل في عمل شاق، فربما قطعه عن غيره، وقد وقع هذا لبعض الصحابة رضي الله عنهم.

فعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلمّا كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم! فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم! فلما كان من آخر الليل، قال: سلمان قم الآن! فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كلّ ذي حق حقّه فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيه جواز النهي عن المستحبات، إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل، وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة، أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور»(٢).

٢ ـ وقوع الخلل في النفس والبدن:

لا شكّ أنّ مداومة السهر، ومواصلة الصوم، يهلك البدن، ويجرّ صاحبه إلى الوسوسة والهوس، وقد أُمِرنا بالمحافظة على هذه الأنفس والأبدان، فلا يحلّ تعذيبها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعاً لنا، بل أمرنا الله بما ينفعنا، ونهانا عما يضرنا»(٣).

وقال أيضاً: «ليس كل شديد فاضلاً، ولا كل يسير مفضولاً، بل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٢/ ٦٩٤، كتاب: الصوم، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوّع، رقم (١٨٣٢).

(٢) «فتح الباري» ٤/ ٢١٢.

(٣) «مجموع الفتاوى» ٢٢/ ٣١٤.

الشرع إذا أمرنا بأمر شديد، فإنما يأمر به لما فيه من المنفعة، لا لمجرد تعذيب النفس»(١).

ب ـ التَّبَتُّل:

التبتّل هو: التفرّد، والانقطاع عن النساء، وترك النكاح، انقطاعاً إلى عبادة الله(٢).

وقد يطلق التبتّل على ترك الانشغال بالدنيا، وعدم تعلّق القلب بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨](٣).

وكثير من الصوفية ينظرون إلى الزواج على أنّه أمر دنيوي بحث، ومن أقدم عليه ـ وخاصّة في ابتداء أمره ـ فقد ركن إلى الدنيا، وشُغِلَ عن ربه ﷻ.

يقول الغزالي في الحثّ على التبتّل: «اعلم أنّ المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج، فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك، ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة، ومَنْ أنس بغير الله تعالى شغل عن الله، ولا يغرّنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى»(٤).

وكان للصوفية أحوال عجيبة في هذا الأمر، فمنهم أقوامٌ جبوا(٥) أنفسهم، وعمد من تزوّج منهم إلى هجر زوجه وولده.

قال ابن الجوزي ؒ: «وقد حمل الجهل أقواماً فجبوا أنفسهم، وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى، وهذه غاية الحماقة؛ لأن الله تعالى شرّف الذكر على الأنثى بهذه الآلة، وخلقها لتكون سبباً للتناسل، والذي يجبّ نفسه يقول بلسان الحال الصواب ضد هذا، ثم قطعهم الآلة لا

---

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣١٣.
(٢) «لسان العرب» ١١/ ٤٣ مادة: «بتل».
(٣) «تفسير الرازي» ٣٠/ ١٧٨.
(٤) «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٠١.
(٥) «المَجْبُوبُ»: الخَصِيُّ الذي قد اسْتُؤْصِلَ ذكَره وخُصْياه؛ «لسان العرب» ١/ ٢٤٩ مادة: «جبب».

تزيل شهوة النكاح من النفس، فما حصل لهم مقصودهم»[١].

بل كان بعض أعلام الصوفية يعدّون ترك الزواج وهجر الأزواج طريقاً إلى منازل الصديقين، وهو ما صرّح به رياح بن عمرو القيسي، حيث قال: «لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب»[٢].

● ومن مواعظ الصّوفية التي تحثّ الأتباع على التبتّل، وهجر الأزواج:

ـ قول بعض أعلام الصوفية: «من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا»[٣].

ـ وقال آخر: «إيّاكم والاستمتاع بالنساء، والميل إليهن، فإنّ النساء مبعّدات من الحكمة، قريبات من الشيطان، وهنّ مصايده، وحظّه من بني آدم، فمن عطف إليهن بكليته فقد عطف على حظ الشيطان، ومن حاد عنهن يئس منه، وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرقّ بالنساء، وإنّ الشرّ معهن حيث كنّ، فإذا رأيتم في وقتكم من قد رَكَنَ إليهن فيأسوا منه.

قيل له: فحديث النبي ﷺ: **«حبّب إليّ من دنياكم ثلاث، فذكر النساء؟»**[٤].

فقال: النبي ﷺ معصوم، وقد بلّغكم ما كان فيه معهن؟ هي عَدُوَّة الرجل ظاهراً وباطناً، إن ظهرت له المحبة أهلكته، وإن أضمرتها له أهلكته، وإنّ الله ﷻ جعلهن فتنة، فنعوذ بالله من فتنتهن»[٥].

نقد مسلك الصوفية في التبتّل:

ـ التبتّل رغبة عن سنّة النبي ﷺ، وتشبّه بالنصارى والرهبان.

---

(١) «تلبيس إبليس» ص٣٦١.
(٢) «طبقات الشعراني» ١/٤٦.
(٣) ذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ص٣٥٩، ولم يسنده.
(٤) رواه أحمد في مسنده ٤٠/٤٩٩، رقم (٢٤٤٤٠)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.
(٥) «غيث المواهب العلية في شرح حكم العطائية» ١/٢٠٩.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، النبي ﷺ تزوج أربع عشرة امرأة، ومات عن تسع، ثم قال: لو كان بشر بن الحارث تزوج كان قد تمّ أمره كله، لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ولم يكن كذا، ولم يكن كذا.

وقد كان النبي ﷺ يصبح وما عندهم شيء، وكان يختار النكاح، ويحثّ عليه، وينهى عن التبتّل، فمن رغب عن عمل النبي ﷺ فهو على غير الحق»(١).

ـ والمتبتّل الراغب عن النكاح مرتكب لمحظور شرعي؛ ومقارف للإثم.

فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتّل، ولو أذن له لاختصينا**»(٢).

قوله: «**لاختصينا**»: أي: لفعلنا فِعل مَنْ يَخْتَصِي، وهو الانْقِطَاع عن النّساء، والتَّبَتُّل الذِي أراده عثمان بن مظعون: تَحْرِيم النِسَاء والطِّيب وكل ما يُلْتَذّ به(٣).

ـ وللتبتّل محاذير كثيرة، ذكر بعضها الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «واعلم أنه إذا دام ترك النكاح على شبان الصوفية، أخرجهم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المرض بحبس الماء، فإنّ المرء إذا طال احتقانه تصاعد إلى الدماغ منه منيه، قال أبو بكر محمد بن زكريا الرازي أعرف قوماً كانوا كثيري المني، فلمّا منعوا أنفسهم من الجماع لضرب من التفلسف، بردت أبدانهم، وعسرت حركاتهم، ووقعت عليهم الكآبة بلا سبب، وعرضت لهم

---

(١) رواه أحمد في «الورع» ص١١٨. وإسناده حسن.

(٢) متفق عليه، البخاري ٥/ ١٩٢، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتّل والخصاء، رقم (٤٦٨٥)، واللفظ له؛ ومسلم ٢/ ١٠٢٠، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، رقم (٢٤٨٨).

(٣) «فتح الباري» ٩/ ١١٨.

أعراض الماليخوليا[1] وقَلَّتْ شهواتهم، وهضمهم.

النوع الثاني: الفرار إلى المتروك، فإن منهم خلقاً كثيراً صابروا على ترك الجماع، فاجتمع الماء، فلامسوا النساء، ولابسوا من الدنيا أضعاف ما فروا منه، فكانوا كمن أطال الجوع، ثم أكل ما ترك في زمن الصبر.

النوع الثالث: الانحراف إلى صحبة الصبيان، فإنّ قوماً منهم أيسوا أنفسهم من النكاح، فأقلقهم ما اجتمع عندهم، فصاروا يرتاحون إلى صحبة المرد»[2].

ج ـ العزلة، وهجر الناس:

لبّس إبليس على كثير من المتصوّفة، وزيّن لهم الانقطاع عن الناس، وهجر الجُمَع والجماعات، والدعوة إلى الله تعالى، وغير ذلك من الحقوق والواجبات، بدعوى الهروب من الفتن، والاشتغال بعيوب النفس، والتفرّغ للعبادة، وغير ذلك من الدعاوى.

ـ وقد تنادى الصوفية بالعزلة، والخلوة، وألزموا بها المريدين، وشرَّعوا لذلك طقوساً، وبدعاً ما أنزل الله بها من سلطان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن كيده وخداعه أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجت تبذَّلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترى في طريقك منكراً.

وللعدو في ذلك مقاصد خفية، يريدها منه: منها الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تُذْهِبُ ذلك، وهو يريد أن يزار، ولا يزور، ويقصده الناس، ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء

---

(١) «الماليخوليا»: مرض يصيب العقل ومن أعراضه الوسوسة، والكآبة، والخوف، والضجر، وبغض الناس، وحبّ الخلوة، والضجر بالنفس وبالناس، «الحاوي في الطب» لأبي بكر الرازي ١/ ٦٢.

(٢) «تلبيس إبليس»، ص٣٦٠ ـ ٣٦١.

الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات، والمستحبات، والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوّض عنه بما يقرب الناس إليه»[١].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وقد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان، يبيت وحده، ويصبح وحده، ففاتته الجمعة وصلاة الجماعة، ومخالطة أهل العلم، وعمومهم اعتزل في الأربطة ففاتهم السعي إلى المساجد، وتوطنوا على فراش الراحة وتركوا الكسب»[٢].

ـ وممّا تناقله المتصوّفة من حكم، ومواعظ، في النهي عن الخلطة، والحث على العزلة والانفراد، ما نقله الشعراني في تنبيه الغافلين، ومن ذلك:

قول بعضهم: «وددت أن أغلق باب داري، فلا أخرج لأحد حتى أموت».

وقول الآخر: «خير جلوس الرجل في قعر بيته، لا يَرَى، ولا يُرَى».

وقال ثالثٌ: «هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت، والقنع بالقوت، إلى أن تموت».

قال الشعراني معلّقاً على هذه الأقوال: «فاعلم ذلك يا أخي، واعتزل جهدك، وإياك أن يلعب بك إبليس، ويقول لك أنت بحمد الله قد وصلت إلى حدٍّ لا يشغلك شيء عن ربك، فإنّ ذلك من دسائس إبليس»[٣].

ويقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مقصود الرياضة: تفريغ القلب، وليس ذلك إلّا بخلوة في مكان مظلم، وقال: فإن لم يكن مكان مظلم فيلف رأسه في جبته، أو يتدثّر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية»[٤].

---

(١) «إغاثة اللهفان» ١/ ١٢١.
(٢) «تلبيس إبليس»، ص٣٥٢.
(٣) «تنبيه الغافلين» للشعراني، ص٢٧٨.
(٤) «إحياء علوم الدين».

قال ابن الجوزي رحمه الله معلِّقاً على كلام الغزالي: «فانظر إلى هذه الترتيبات، والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق؟ وأنّ الذي يشاهده جلال الربوبية، وما يؤمِّنه أن يكون ما يجده من الوساوس، والخيالات الفاسدة»[١].

- وهذه العزلة التي ينادون بها ليست عزلة معنوية؛ بأن يُبْعِدَ الإنسان قلبه عن الاشتغال بالناس، والالتفات إليهم، وإنّما هي عزلة جسدية، وقلبيّة، مطلقة دائمة، بحيث يجتنب المرء مجالسة الخلق، واللقاء بهم، ويلزم قعر بيته، أو زاوية إلى أن يموت.

نقد مسلك الصوفيّة في العزلة المطلقة، والانفراد:

- وردت نصوص كثيرة تنهى عن الاعتزال، والانفراد الموجب للبعد عن العلم، والجهاد للعدو[٢]، ومن ذلك:

ما رواه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: «**مَرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْبٍ فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: لا تفعل، فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله، أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**»[٣].

- ثمّ إنّ المعتزل للناس قد ارتكب جرماً عظيماً بتضييعه للحقوق والواجبات الشرعية، وهو بعد ذلك قد فاته فضل مخالطة الناس والصبر على أذاهم.

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص٣٥٢. (٢) المصدر السابق، ص٣٥٣.

(٣) رواه الترمذي في سننه ٤/ ١٨١، كتاب: فضائل الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، رقم (١٥٧٤)، وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (١٣٠١).

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»**[(١)].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كم فَوَّتَتْ العزلة علماً يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بليّة هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشرّ فحسب»[(٢)].

فالعزلة المطلقة عن المجتمع بدعوى التفرّغ لتزكية النفس لا تجوز أبداً؛ لأنّ المجتمع سيزداد فساداً إذا اعتزله الصالحون، وعطلت فيه شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد التائهين، وتعليم الجاهلين، وتقويم المخطئين.

- والمعتزل للناس، المنفرد في الشعاب، متعرِّض لوساوس الشيطان وكيده، وكم هلك من الخلق حينما استفرد بهم الشيطان، ولذلك جاء النهي عن العزلة خشية الافتتان.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية، والناحية، وإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة، والعامة»**[(٣)].

- ولم تكن العزلة المطلقة معروفة عند السلف من الصحابة والتابعين، وإنما استحدثت بعدهم لما ضعفت همم الناس، وقلّ فيهم العلم.

والعزلة التي وجدت عند السلف هي عزلة عن الشرّ وأهله، وعزلة مؤقتة لتحصيل العلم، ومناجاة الخالق جلّ وعلا، دون هجر الناس والجمع والصلوات.

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٦٦٢، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (٢٤٣١)؛ وابن ماجه ٢/ ١٣٣٨، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٢)، واللفظ له، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٣٩).

(٢) «صيد الخاطر»، ص١٢٨.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٣٦/ ٣٥٨، رقم (٢٢٠٢٩). وقال شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعبّد، إلّا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة، ولا جماعة، ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة، ولا قيام بحق، وإنما هي عزلة عن الشرّ وأهله، ومخالطة البطالين»(١).

فعلى هذا فإنّ العزلة على ضرببين:

- عزلة مذمومة: وهي العزلة المطلقة التي استحدثها المتصوّفة.

- وعزلة محمودة: وهي على أنواع:

١ ـ العزلة المؤقتة لمحاسبة النفس، وإصلاح القلب:

فلا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه، وذكره، وصلاته، وتفكره، ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه؛ إما في بيته كما قال طاووس: «نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره، ولسانه»، وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ(٢).

٢ ـ العزلة عند الفتن:

إذا وقعت الفتنة ترجّحت العزلة، لما ينشأ فيها غالباً من الوقوع في المحذور(٣).

ومن الأحاديث الدالة على مشروعية الاعتزال أيام الفتن:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن»**(٤).

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص٣٥٢.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٤٢٦.

(٣) «فتح الباري» ١٣/ ٤٣.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ١/ ١٥، كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن، رقم (١٨).

قال الخطابي رحمه الله: «والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء، وعصمة الأولياء، وسيرة الحكماء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذراً، لا سيما في هذا الزمان القليل خيره، البكيء درُّه، وبالله نستعيذ من شره وريبه»(١).

٣ ـ عند غلبة شرّ الإنسان:

يشرع في حق المرء إذا غلب شرّه، وتأذّى الناس من مخالطته أن يعتزلهم حتى لا يؤذيهم.

فعن أبي سعيد الخدري قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره**»(٢).



(١) «العزلة»، للخطابي، ص٨.
(٢) متفق عليه، البخاري ٣/١٠٢٦، كتاب: الرقاق، باب: العزلة راحة من الخلطة، رقم (٦٠١٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٥٠٣، كتاب: الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط، رقم (٣٥٠١).

المطلب الثالث

الدعوة إلى التواكل

أ ـ مفهوم التواكل:

لا يتّضح معنى التواكل إلّا بتحديد مفهوم التوكّل، إذ بين اللفظين تداخل.

ـ **فالتوكّل:** «هو عمل القلب، ويفسّره بعض العلماء بأنّه: انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار»[(١)].

والسلف رحمهم الله لا يرون منافاة بين التوكّل القلبي وبين مباشرة الأسباب المشروعة لتحصيل المرغوبات.

فالتوكّل عندهم يجمع بين أركان كثيرة ذكرها ابن القيم رحمه الله، فقال: «وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وهي:

الدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته.

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكيل.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه.

الدرجة السابعة: التفويض[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٧ ـ ١٢٤.

ـ **أما التواكل**: فإنّه غلوٌّ في التوكّل بنفي الأسباب، والمبالغة في التفويض، يفضي إلى البطالة والكسل، والتواني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأجمع القوم على أنّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصحّ التوكل إلّا مع القيام بها، وإلّا فهو بطالة، وتوكل فاسد»[١].

ويقول أيضاً: «وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب ـ أي: التفويض ـ المحمود الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالإضاعة فيضيّع العبد حظّه، ظناً منه أنّ ذلك تفويض وتوكّل، وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه اشتباه التوكّل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ، فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل على عدم الراحة»[٢].

فظنت الصوفية أنّ التوكّل لا يصحّ إلا بترك مباشرة الأسباب ـ وإن كانت مشروعة بل واجبة ـ، كما لا يصحّ التوكّل عندهم إلا بإضاعة العبد حظه، وإيثاره للخمول والراحة، وهذا هو التواكل الذي نعنيه ونقصده.

ب ـ مسالك الصوفية في التواكل، وبيان بطلانها:

ذكر الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه تلبيس إبليس كثيراً من مسالك الصوفية في التواكل، ومن جملة ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١ ـ السفر والخروج بلا زاد ولا متاع:

إنّ التزوّد في الأسفار، من عمل الأبرار، ولكن ظن قومٌ من الصوفية أنّ كمال التوكّل هو ركوب المهالك، وقطع الفيافي والقفار بلا زاد ولا متاع.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد لبّس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أنّ هذا هو التوكل، وهم على غاية الخطأ.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٦.

(٢) «مدارج السالكين» ٢/ ١٢٣.

قال رجل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد، فقال له أحمد: فاخرج في غير القافلة، قال: لا إلّا معهم، قال: فعلى جراب الناس توكّلت»[(١)].

وقال ـ في بيان دور وعّاظ الصوفية وقصّاصهم في الحض على مثل هذه الأفعال ـ:

«قد لبّس على خلق كثير منهم فأوهمهم أنّ التوكل ترك الزاد، وقد شاع هذا في جهلة القوم، وجاء حمقى القصّاص يحكون ذلك عنهم على سبيل المدح لهم به، فيتضمن ذلك تحريض الناس على مثل ذلك، وبأفعال أولئك ومدح هؤلاء لهؤلاء فسدت الأحوال، وخفيت على العوام طرق الصواب، والأخبار عنهم بذلك كثيرة»[(٢)].

ومن هذه المواعظ والأخبار:

ـ قال محمد بن عبد الله أبو حمزة الصوفي: «إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان، وقد اعتقدت التوكل، لئلّا يكون شبعي زاداً تزودته».

قال ابن الجوزي ـ معلّقاً على هذه المقولة ـ: «إنّ هؤلاء القوم ظنّوا أنّ التوكل ترك الأسباب، ولو كان هكذا لكان رسول الله ﷺ حين تزوّد لمّا خرج إلى الغار قد خرج من التوكل، وكذلك موسى لما طلب الخضر تزوّد حوتاً، وأهل الكهف حين خرجوا فاستصحبوا دراهم، واستخفوا ما معهم، وإنما خفي على هؤلاء معنى التوكل لجهلهم»[(٣)].

وقد عاب السلف رحمهم الله هذا الصنيع من الصوفية، وأدعياء الزهد والتوكّل، لمجانبتهم هدي النبي ﷺ وصحبه، ولأنّ حقيقة أمر هؤلاء أنهم متوكّلون على جراب الناس، ثمّ إنّهم متعرِّضون للهلاك بغير سبب ولا موجب وهذا غاية القبح.

---

(١) «تلبيس إبليس»، ص١٧٨ ـ ١٧٩. (٢) «تلبيس إبليس»، ص٣٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص٣٦٧.

ـ جاء رجل إلى أحمد بن حنبل فقال: «رجل يريد سفراً، أيما أحب إليك يحمل معه زاداً أو يتوكل؟ فقال له: أبو عبد الله يحمل معه زاداً، ويتوكل حتى لا يتشرف للناس»[1].

٢ ـ التجرّد والخروج عن الأموال:

لبّس إبليس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد، فأراهم عيب المال، وخوّفهم من شرِّه، فتجرَّدوا من الأموال، وجلسوا على بساط الفقر، وكانت مقاصدهم صالحة، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم.

ـ ومن كلام وعّاظ الصوفية في الحثّ على التجرّد والخروج من الأموال:

قول الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: «أيها المفتون! متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد أزريت بمحمد ﷺ والمرسلين وزعمت أن محمداً ﷺ لم ينصح الأمة، إذ نهاهم عن جمع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم، وزعمت أنّ الله لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم، وما ينفعك الاحتجاج بمال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وَدَّ ابن عوف في القيامة أن لو لم يؤت من الدنيا إلّا قوتاً.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إذا لم يكن عندهم شيء فرحوا، وأنت تدّخر المال، وتجمعه خوفاً من الفقر، وذلك من سوء الظن بالله، وقلّة اليقين بضمانه، وكفى به إثماً»[2].

ـ ولا شكّ بأنّ المال ليس معيباً لذاته، وإنما العيب في سوء القصد في كسبه، أو في جمعه من غير حلِّه، فما دام القصد سليماً، والمصدر حلالاً، لم يكن بأس من جمع المال.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «فأما كسب المال، فإنّ مَنْ اقتصر على كسب البُلغة من حلِّها، فذلك أمر لا بد منه، وأما من قصد جمعه، والاستكثار منه

---

(١) «تلبيس إبليس» ص٣٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٢.

من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادَّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات، وقد كان نيات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في جمع المال سليمة، لحسن مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته»[(١)].

ـ ويكفي في نقض مسلك الصوفية في التجرّد أنّ الله عظّم قدر المال، وأمر بحفظه، إذ جعله قواماً للآدمي الشريف، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥] ونهى ﷺ أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ **«أنه نهى عن إضاعة المال»**[(٢)]، وقال لسعد رضي الله عنه: **«إنّك إن تذر ورثتك أغنياء، خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»**[(٣)].

٣ ـ ترك التداوي:

لا يختلف العلماء أن التداوي مباح، وإنما رأى بعض الصوفية أن العزيمة تركه، وأنّه لا يصح التوكّل إذا باشر العبد العلاج والأدوية.

ويدلّ على فساد هذا الأمر ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عثمان رضي الله عنه: **«أنّ النبي ﷺ رخّص إذا أشتكى المحرم عينه أن يضمِّدها بالصَّبِر»**[(٤)].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٧٥، كتاب: الرقاق، باب: ما يكره من القيل والقال، رقم (٥٩٨٢).

(٣) متفق عليه، البخاري ١/ ٤٥٣، كتاب: الجنائز، باب: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم (١٢١٣)؛ ومسلم ٣/ ١٢٥١، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، رقم (٣٠٧٦).

(٤) رواه مسلم في صحيحه ٢/ ٨٦٣، كتاب: الحج، باب: جواز مداواة المحرم عينيه، رقم (٢٠٩٠). والصبر هو نوع من الدواء المرّ؛ مختار الصحاح، مادة: «صبر» ص١٤٩.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوة من أهل التصوف، والعبَّاد، مِنْ أنّ التوكل لا يصحّ لأحد عالج علّة به في جسده بدواء، إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير من بيده العافية والضر والنفع.

وفي إطلاق النبي ﷺ للمحرم علاج عينه بالصَّبِر لدفع المكروه أدلّ دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله الذين ذكرنا قولهم، وأن ذلك غير مخرج فاعله من الرضا بقضاء الله»[١].

ـ ولا منافاة بين التداوي، والتوكّل إلّا في الاسترقاء والاكتواء؛ لأنهما ينافيان كمال التوحيد المندوب إليه.

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم: أنّ الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

إلى مقطوع به؛ كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً؛ كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي، وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلاً.

القسم الثالث: أن يكون السبب موهوماً؛ كالكيّ، فيخرج عن التوكل؛ لأنّ النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنه لا يكتوون[٢]»[٣].

۞ ۞ ۞

(١) ذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، ص٣٢٤.
(٢) حديث الاكتواء رواه البخاري ٥/ ٢١٧٠، كتاب: الطب، باب: من لم يرق، رقم (٥٣١١).
(٣) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي، ص٤٢٥ ـ ٤٢٦.

المبحث الثالث

الجماعات المخالفة لمنهج السلف في الوعظ في العصر الحاضر

وفيه تمهيد، وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: انحرافات هذه الجماعات في جانب الوعظ.

المطلب الثاني: أسباب انحراف هذه الجماعات في جانب الوعظ.

المطلب الثالث: بيان بطلان منهج هذه الجماعات في الوعظ.

تمهـــيد

* أوّلاً: أوجه انحراف بعض الجماعات الإسلامية عن منهج الوعظ:

إنّ تقادم الزمن، والبعد عن مشكاة النبوّة جعل بعض الجماعات الإسلامية في العصر الحاضر، تنحرف عن الجادّة والسبيل، في دعوة الناس، ووعظهم، وإرشادهم.

ولم يشفع لها حسن مقصدها، وسلامة نيتها في بلوغ مرادها، إذ الأعمال لا تقوم إلّا على ركني: الإخلاص، والمتابعة.

والحديث عن الجماعات الإسلامية في العصر الحاضر حديث ذو شجون، ولكن المراد ها هنا: بيان حال أبرز الجماعات التي حملت لواء الدعوة، والنصح، والتغيير في هذا العصر، وكان لها حضوراً بارزاً في مجال الوعظ والتذكير، مع وجود انحراف في منهجها الدعوي.

ـ فجماعة: غلّبت جانب التعبد والرقائق، وكان ذلك أبرز ما في وعظها، بل كان جلّ اهتمامهم منصباً على تربية النفوس، وذلك بالإكثار من التعبّد، والتزهّد، والضرب في الأرض، فترتّب من جرّاء ذلك غضّ الطرف عن انحرافات عقدية، وأمور بدعية، بل حتى ذلك التزهد والتعبد داخله خلل وانحراف، لكونه مفتقرٌ لكثير من علوم الشريعة.

ـ وجماعة أخرى: سعت جاهدة إلى تكثير سوادها، دون تمحيص، ونظر دقيق، فترتّب من جراء ذلك غضّ الطرف عن انحرافات عقدية، وأمور بدعية، ظنّاً منهم أن إثارة تلك الأمور، والنكير على أصحابها قد يسبب الفرقة، كما سوّغ لها سعيها الحثيث لحشد الجموع إلى استحداث وسائل، وطرق بدعيّة لوعظ الناس وتذكيرهم.

ـ وجماعة ثالثة: نقمت على مجتمعاتها، وحكّامها، وغلت في ولائها وبرائها، فاتّخذت من الوعظ وسيلة لإثارة الفتن، والطعن في الحكّام، والعلماء، مع دعوة الناس إلى هجر مجتمعاتها، واعتزال أفرادها.

*** ثانياً: شبهة، والرد عليها:**

قد يعترض معترضٌ عند ذكرنا لمثالب هذه الجماعات الإسلامية، في مجال الوعظ والتذكير، ويَعُدُّ هذا البيان نوعاً من اللمز، والقدح، والغيبة.

وقد يقول آخر: فإن كنت ولا بد فاعلاً، فلا تقتصر على ذكر المثالب فقط، ولكن بيِّن أوجه محاسن هذه الجماعات.

ـ والجواب على هذه الشبهة:

أنّ فضح الباطل، وبيان أوجه تلبيسه، لا يُعَدُّ غيبة أو تنقّصاً، إذ الغاية منه النصيحة للمسلمين بكشف زيف الباطل، وطمس بهرجه.

والردّ على أهل الأهواء هو سبيل المؤمنين، ومسلك الأنبياء والمرسلين.

وقد تصدّى لهذه المهمة العظيمة خيرة السلف من العلماء والفقهاء، ولم يعدّوا ذلك غيبة أو تنقّصاً.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن ذكر الإنسان بما يكره محرم إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص.

فأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين أو خاصة لبعضهم، وكان المقصود منه تحصيل تلك المصلحة، فليس بمحرم، بل مندوب إليه.

وقد قرّر علماء الحديث هذا في كتبهم في الجرح والتعديل، وذكروا الفرق بين جرح الرواة وبين الغيبة، وردوا على من سوى بينهما من المتعبدين وغيرهم، ممن لا يتسع علمه، ولا فرق بين الطعن في رواة ألفاظ الحديث، ولا التمييز بين من تقبل روايته منهم ومن لا تقبل، وبين تبيين خطأ من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنة، وتأوّل شيئاً منها على غير تأويله، وتمسّك بما لا يتمسك به، ليحذر من الاقتداء به فيما أخطأ فيه.

وقد أجمع العلماء على جواز ذلك»[١].

ـ أما القول بضرورة الموازنة بين المحاسن والمساوئ:

فيقال: يتعيّن التفريق بين موضع الردّ على أهل البدع عامّة، والجماعات الإسلامية خاصّة، الذي هو من حظّ الشريعة، وبين المواضع الأخرى التي تتنزّل فيها الموازنة بين الحسنات والسيئات، والتي ترجع إلى أصل مهم، وهو الكلام في باب (الأسماء والأحكام)، وما يترتّب عليه من مدح وذمّ، وثواب وعقاب، وموالاة ومعاداة.

وحرف المسألة أن يقال: عند الحكم على الأقوال لا بد من التأصيل، وعند الحكم على الأعيان لا بد من التفصيل.

فمقام الردّ يقتصر فيه على بيان الخطأ، ومقام الحكم يقتضي تفصيل الحسنات والسيئات.

والقول بإلغاء الموازنات مطلقاً هو قول محدث مركّب من بدعة الخوارج والمرجئة معاً[٢].

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ الله: «عندما نريد أن نقوّم الشخص ـ أو الجماعة ـ، فيجب أن نذكر المحاسن والمساوئ؛ لأن هذا هو الميزان العدل، وعندما نحذّر من خطأ شخص فنذكر الخطأ فقط؛ لأن المقام مقام تحذير»[٣].

فالمقصود ها هنا: ليس تقويم هذه الجماعات، وإنما بيان ما وقعت فيه من انحراف في باب الوعظ والتذكير.

*** تنبيه:**

رأيت أنّه من الحكمة الاقتصار على بيان خطأ هذه الجماعات في مجال الوعظ والتذكير دون التصريح بأسمائها، مكتفياً بالتلميح لأبرز

(١) «الفرق بين النصيحة والتعيير» ص٢٥.

(٢) فالخوارج قالوا لا ينفع مع الكبيرة إيمان، والمرجئة قالوا: لا يضر مع الإيمان عصيان.

(٣) «لقاء الباب المفتوح»، ص١٥٣.

خصائصها، إذ المقصود بيان أخطائها وليس تجريحها، وهذا مسلك نبوي رشيد، ومنهج سلفيّ سديد، في الرد على المخالفين، ينتظم تحت قول المصطفى ﷺ: **«ما بال أقوام يفعلون كذا... ويقولون كذا»**[(١)].

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.



(١) وهي أحاديث كثيرة. **انظر** مثلاً: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد، رقم (٤٣٦).

المطلب الأول

انحرافات هذه الجماعات في جانب الوعظ

* الجماعة الأولى[1] *

إنّ انحراف هذه الجماعة في باب الوعظ والإرشاد كان في جانبين اثنين:

١ ـ الجانب: الموضوعي.

٢ ـ والجانب: المنهجي.

وفيما يلي عرضٌ لأبرز أوجه مخالفة هذه الجماعة لمنهج السلف في الوعظ والإرشاد:

أ ـ الانحرافات الموضوعية لهذه الجماعة في مجال الوعظ:

والمقصود بالانحرافات الموضوعية هي تلك الانحرافات المتّصلة بموضوع الوعظ ومضمونه، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ الانحرافات العقدية:

إنّ المتأمل في مواعظ ونصائح وتصريحات بعض قادة هذه الجماعة يدرك إدراكاً جازماً مدى انحراف خطاب الوعظ عند هذه الجماعة؛ فهي لم تؤصّل دعوتها على العقيدة السلفية الصحيحة، وإنما جمعت بين عقائد الأشاعرة، وطوائف القبورية المارقة، وهذا ما صرح به قادتها، وهو حقيقة ما تضمنته بياناتها، وإليك طرفاً منها:

---

(١) هي جماعة إسلامية لها حضور بارز في مجال الدعوة والوعظ، نشأت بعد سقوط الخلافة العثمانية، وقد جعلت أسمى غاياتها إقامة الخلافة الإسلامية بأي وسيلة ممكنة. **انظر**: «الجماعة الأم» لعثمان عبد السلام نوح، ص٦.

• نماذج من مواعظ ـ هذه الجماعة ـ وخطاباتها التي تضاد التوحيد وتقدح فيه:

ـ قول المرشد العام لهذه الجماعة: «لا داعي للتشدد في النكير على من يعتقد في كرامة الأولياء، واللجوء إليهم في قبورهم الطاهرة، والدعاء فيها عند الشدائد، وكرامات الأولياء من أدلة معجزات الأنبياء»(١).

فهذه دعوة صريحة للشرك وعبادة القبور، وهذه سمة بارزة في دعوة هذه الجماعة.

وقال المرشد العام لهذه الجماعة ـ في سوريا ـ في قصيدته: (مناجاة بين يدي الحبيب الأعظم):

يا سائق الظعن نحو البيت والحرم	**ونحو طيبة تبغي سيد الأمم**
إن كان سعيك للمختار نافلة	**فسعي مثلي فرض عند ذي الهمم**
يا سيدي يا حبيب الله جئت إلى	**أعتاب بابك أشكو البرح من سقمي**
يا سيدي قد تمادى السقم في جسدي	**من شدة السقم لم أغفل ولم أنم**
الأهل حولي غرقى في رقادهم	**أنا الوحيد الذي جفاه النوم من ألم**
قد عشت دهراً مديداً كله عمل	**واليوم لا شيء غير القول والقلم**
يا سيدي طال شوقي للجهاد فهل	**تدعو لي الله عوداً عالي العلم**(٢)

ـ بل إنّ بعض قادة هذا الحزب يصرِّحون أن لا مكان للدعوة إلى التوحيد في برنامجهم ومواعظهم، حيث يقول زعيم هذه الجماعة في السودان: «إنهم ـ أي: السلفيون ـ يهتمون بالأمور العقائدية، وشرك القبور، ولا يهتمون بالشرك السياسي، فلنترك هؤلاء القبوريين يطوفون حول قبورهم، حتى نصل إلى قبة البرلمان»(٣).

• التهوين من أمر التوحيد:

التوحيد عند هذه الجماعة مسألة ثانوية، وإثارتها غير مرغوب فيه،

---

(١) «شهيد المحراب»، ص٢٢٥.

(٢) «مجلة حضارة الإسلام» عدد خاص بمناسبة وفاة مصطفى السباعي، ص٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٣) «مجلة الاستقامة» ربيع الأول ١٤٠٨هـ، ص٢٦.

لا سيما توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنها بزعمهم سببٌ في التفريق والتشتيت بين الجموع المسلمة، ولهذا خلت مواعظهم من الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الجماعة ينتقدها خواص أهل العلم؛ لأنه ليس عندهم نشاط في الدعوة إلى توحيد الله، وإنكار الشرك، وإنكار البدع، لهم أساليب خاصة ينقصها عدم النشاط في الدعوة إلى الله، وعدم التوجه إلى العقيدة الصحيحة التي عليها أهل السُنة والجماعة، فينبغي لهذه الجماعة أن تكون عندهم عناية بالدعوة السَلفية، الدعوة إلى توحيد الله، وإنكار عبادة القبور، والتعلق بالأموات والاستغاثة بأهل القبور كالحسين أو الحسن أو البدوي، أو ما أشبه ذلك، يجب أن يكون عندهم عناية بهذا الأصل الأصيل، بمعنى لا إله إلا الله، التي هي أصل الدين، وأول ما دعا إليه النبي ﷺ في مكة دعا إلى توحيد الله، إلى معنى لا إله إلا الله، فكثير من أهل العلم ينتقدون على ـ هذه الجماعة ـ هذا الأمر؛ أي: عدم النشاط في الدعوة إلى توحيد الله، والإخلاص له، وإنكار ما أحدثه الجهال من التعلق بالأموات والاستغاثة بهم، والنذر لهم والذبح لهم، الذي هو الشرك الأكبر»[1].

ولأجل هذا دخل عدد كبير من الجماهير وهو يعبد القبور، وخرج كذلك؛ لأنه لم يسمع أنّ دعاء القبور شرك، وقد حضر كثيراً من المؤتمرات، واللقاءات، والمظاهرات، فما سمع إلّا ضرورة المحبة، والألفة، وتطهير القلوب من الحسد والغل.

• الدعوة إلى تقارب الأديان:

تعجّ مواعظ ـ هذه الجماعة ـ وخطبها بالدعوة إلى التقارب بين الأديان، وضرورة فتح القلوب لأعداء الدين والملّة، وهذا من أعظم القوادح في عقيدة الولاء والبراء، والله ﷻ قد أمرنا بالبراءة من الشرك وأهله فقال: ﴿لَّا تَجِدُ

---

(١) «نقلاً من مجلة المجلة»، عدد ٨٠٦.

﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن المقالات والخطب المأثورة عند ـ هذه الجماعة ـ في الدعوة إلى وحدة الأديان:

قول مؤسس الحركة في إحدى خطبه: «فأقرر أنّ خصومتنا لليهود ليست دينية؛ لأنّ القرآن حضّ على مصافاتهم ومصادقتهم، والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية»[(١)].

وهذا مخالف لما قرّره القرآن الكريم حيث يقول جلّ وعلا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ويقول آخر: «فإننا نحبّ أن نمدَّ أيدينا، وأن نفتح آذاننا، وقلوبنا، إلى كل دعوة تؤاخي بين الأديان، وتقرِّب بينها، وتنزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق»[(٢)].

٢ ـ النزعة الصوفية عند ـ هذه الجماعة ـ:

هذه الجماعة صوفية المنشأ، والمنهج، ولهذا تجد خطبها ومواعظها كثيراً ما تصطبغ بالصبغة الصوفية في مضمونها، بل وفي أساليبها.

فمؤسسها ينتسب إلى عقيدة صوفية هي الطريقة الحصافية، والدليل على ذلك قوله بنفسه: «. . . .وصحبت الإخوان الحصافية بدمنهور، وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة، في كل ليلة ثم قال: وحضر السيد عبد الوهاب المجير في الطريقة الحصافية وتلقيت الحصافية الشاذلية عنه وآذنني بأورادها ووظائفها»[(٣)].

ولهذا تجد أتباع ـ هذه الجماعة ـ أوفياء للطرق الصوفية، يدندنون في كثير من خطبهم حولها، ويبثون سموم هذه الطرق البدعية في جمع المصلين، والحاضرين.

---

(١) «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ» ١/ ٤٠٩.
(٢) كتاب: «من هنا نعلم» لمحمد الغزالي، ص١٥٠.
(٣) «مذكرات الدعوة والداعية» لحسن البنا، ص٨٠.

كما سعى كتّاب هذه الحركة ومنظروها إلى بثِّ روح التصوّف في كتبهم ومقالتهم التربوية والدعوية والوعظية، حيث يقول أحد قادة هذه الجماعة:

«وسنحاول في رسالة مستقلة في التصوف وهي «تربيتنا الروحية» أن نعطي لتصوفنا أبعاده الأصلية، وفي سلسلتنا «الأساس في المنهج» سنحاول أن نعرض لكل قضايا التصوف بمزيد البيان على ضوء النصوص، ليكون مسارنا مستقيماً، وحجتنا على أمتنا قائمة»[١].

٣ ـ الدعوة إلى تجديد الخطاب الوعظي:

ترى ـ هذه الجماعة ـ أنّ الخطاب الوعظي عند السلف قد عفا عليه الزمن، ولم يعد يصلح في عصر الحضارة والتطوّر، والتقارب والألفة والتسامح الإنساني.

ولذلك تجدهم لا يفوّتون مناسبة إلّا ودعوا من خلالها إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني، وكذا الخطاب الوعظي؛ لأنّ خطاب السلف بزعمهم يؤدي إلى النفرة والفرقة.

وهذا التجديد يمسّ مضمون الوعظ، وأساليبه على حدٍّ سواء.

فلم يعد هناك مكان للدعوة إلى التوحيد في خطبهم، ولم يعد للسنّة حيزاً في مواعظهم، فالسنّة عندهم تصلح للرعيل الأول فقط، أما في العصر الحاضر فالواجب مسايرة المدنية والتطوّر.

كما لم تعد المساجد عندهم مكاناً مناسباً لدعوة الجماهير، فاستبدلوا بها القاعات والأندية، وغيرها من الأماكن التي يجري فيها الاختلاط، والنكرات الظاهرة والباطنة.

يقول ـ فقيه هذه الجماعة في هذا العصر ـ: «نريد من الفكر الجديد أن يهيل التراب على المشكلات التاريخية التي شغلت الفكر الإسلامي في

(١) كتاب: «جولات في الفقهين الكبير والأكبر» لسعيد حوى، ص٨٤.

وقت من الأوقات، وبددت طاقته في غير طائل: مشكلة الذات والصفات؛ هل الصفات هي عين الذات أو غيرها؟ أو هي لا عين ولا غير؟ مشكلة خلق القرآن وما ترتب عليها من محنة لأئمة الإسلام، المبالغة في الكلام حول التأويل وعدمه بين السلف والخلف، والطعن على الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم على نهجهم من رجال الجامعات الدينية في العالم الإسلامي: الأزهر، والزيتونة، والقرويين، وديوبند، وغيرها»[١].

٤ ـ الدعوة إلى التحزّب، والسياسة من خلال الخطب، والمواعظ:

اتّخذت ـ هذه الجماعة ـ من الخطب والمواعظ وسيلة للدعاية إلى حزبها وحركتها، وأقحمت الأمور السياسية والبرلمانية، والخلافات الحزبية في مواعظها، فأذهبت بذلك روح هذه المواعظ وغايتها، وصار المستمع إلى تلك الخطب والمواعظ كأنه بصدد استماع نشرة سياسية، خالية من ترقيق القلوب، والدعوة إلى توحيد علام الغيوب.

كما أصبحت هذه المواعظ والخطب ميداناً لسب الأمراء، ولمز الحكّام، والدعوة إلى التصويت للحزب الفلاني، والمرشح العلّاني.

قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله عند كلامه على هذه الجماعة:

«من مظاهرهم بل مما يميزهم عن غيرهم أنّ الغاية عندهم من الدعوة هو الوصول إلى الدولة، هذا أمر ظاهر بين في منهج هذه الجماعة، بل في دعوتهم.

الغاية من دعوتهم هو الوصول إلى الدولة، أما أن يُنجَّى الناس من عذابِ الله جل وعلا، وأن تُبعث لهم الرحمة بهدايتهم إلى ما يُنجيهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وما يدخلهم الجنة، فليس في ذلك عندهم كثير أمرٍ ولا كبير شأن، ولا يهتمون بذلك؛ لأنّ الغاية عندهم هي إقامة الدولة، ولهذا يقولون الكلام في الحكام يَجمع الناس، والكلام في أخطاء الناس

---

(١) «أولويات الحركة الإسلامية» د. يوسف القرضاوي، ص١٠٠.

ومعاصيهم يفرِّق الناس، فابذلوا ما به تجتمع عليكم القلوب.

وهذا لا شك أنه خطأ تأصيلي ونية فاسدة، فإن النبي ﷺ بيّن أنّ مسائل القبر ثلاث، يُسأل العبدُ عن ربه، وعن دينه، وعن نبيه ﷺ فمن صحب أولئك زمناً طويلاً وهو لم يَعلم ما يُنجيه إذا أُدخل في القبر فهل نُصح له؟ وهل حُبَّ له الخير؟ إنما جُعل أولئك ليستفادَ منهم للغاية، ولو أحبوا المسلمين حقّ المحبة لبذلوا النصيحة فيما يُنجِّيهم من عذاب الله، علَّموهم التوحيد وهو أول مسؤول عنه...»[١].

ب ـ انحرافات هذه الجماعة في وسائل الوعظ:

استخدمت ـ هذه الجماعة ـ أساليب ووسائل بدعية لوعظ الناس وتذكيرهم، مصادمة بذلك الضوابط الشرعية، مبررة ذلك بأنّ الغاية الشريفة تبرِّر الوسيلة، ومن بين هذه الوسائل والأساليب البدعية:

١ ـ النشيد والتمثيل:

سلكت ـ هذه الجماعة ـ مسلك الصوفية في التذكير والوعظ، عن طريق النشيد والوجد، وزعمت أنها بذلك ترقق قلوب الناس، وتزهّدهم في الدنيا، وتحملهم على التحلّي بكريم الخصال، فشُغلت بذلك عن الذكر المشروع، واستعاضت عن سماع مواعظ القرآن والسنّة بالترنّم والوجد المحرِّك للعواطف، والمفتن للقلوب.

قال صاحب كتاب «الطريق إلى الجماعة الأم» متحدِّثاً عن حال ـ هذه الجماعة ـ وأساليبها في الوعظ والإرشاد: «وأما في مجال الدعوة فقد رأت ـ هذه الجماعة ـ تأثير وسائل الإعلام الترفيهية على الجماهير، مثل الأناشيد الحماسية ذات الأنغام العاطفية، والمسرحيات، والتعبير عن الفكرة بالكاريكاتير المرسوم، وغيرها.

---

(١) من سلسلة «فتاوى العلماء في الجماعات وأثرها على بلاد الحرمين» تسجيلات منهاج السنة بالرياض.

وقد استخدموا هذه الوسائل في الدعوة دون النظر لكونها مشروعة أو غير مشروعة، وقد شاهدت مسرحية أقاموها في مسجد معسكر «صدى» في باكستان، وكان موضوعها «سقوط الأندلس» وقد قام شاب بتمثيل دور القسيس يوحنا، والآخر دور سلطان النصارى فكان السلطان يقول: يا قسيس يوحنا، وكان الشاب الذي يمثل دور القسيس يوحنا يقول: نعم يا مولاي، ونحن نعلم أنه لا يوجد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مثل هذا الأسلوب في الدعوة، ولا يوجد دليل على أنّ المسلم يصحّ أن يتسمَّى بالأسماء الخاصة بالكفار، ولا أن يمثِّل دور قسيس، ولا غيره، ولا توجد عبر قرون الإسلام الطويلة دعوة بهذه الأساليب المضحكة الساخرة، ووالله ما لها من مصدر إلّا استجابة للغزو الفكري اليهودي، ولكن مع تحويل في الأسماء حتى يسهل ترويجها على الشباب المساكين، يقولون لهم مسرحية إسلامية، غناء إسلامي، موسيقى إسلامية»[(١)].

٢ ـ الولوج إلى الأماكن المحرمة شرعاً لنصرة الدعوة:

لم يجد دعاة هذه الجماعة ووعاظها ضيراً من دخول المراقص والملاهي، ولربما مشاركة أهلها في مجونهم أحياناً بدعوى تبليغ الدعوة، وإيصال النصيحة.

بل أصبحت مجالس الوعظ تبثّ في القنوات الفضائية على أنغام الموسيقى، وفيها من الاختلاط والسفور ما الله به عليم[(٢)].

وليس القصد أنّ الدعوة حكرٌ على المساجد فقط، ولكن التساهل في هذا الباب أدى بهم إلى تقديم التنازلات شيئاً فشيئاً باسم مصلحة الدعوة، حتى ميّعوا هذا الدين، وأخرجوا هيبته من قلوب الناس؛ كلّ ذلك تحت شعار مصلحة الدعوة.

---

(١) «الطريق إلى الجماعة الأم»، ص٥٢.

(٢) سبقت الإشارة إلى بعض هذه النماذج، عند الحديث عن مخالفات القصّاص في العصر الحديث. **انظر**: ص٨٣٦ من هذا البحث.

وهناك أخطاء منهجية أخرى أعرضت عن ذكرها، لارتباطها ببدع جماعات إسلامية أخرى؛ كبعض البدع الصوفية، والتكفيرية وغيرها.

* الجماعة الثانية(١) *

أ ـ الانحرافات الموضوعية لهذه الجماعة في مجال الوعظ:

١ ـ إهمال أمر التوحيد:

هذه الجماعة لا تهتم بالدعوة إلى توحيد الألوهية، وهي الدعوة التي من أجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلق الثقلان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهي وإن ذكرت من أصولها الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» إلا أنها من أبعد الناس عنها، وذلك أنّ التوحيد الذي يعتنون به هو توحيد الربوبية، الذي أقرَّ به كفار قريش ولم يدخلهم في الإسلام دون توحيد الألوهية، الذي من أجله أرسلت الرسل(٢).

• والدليل على أن هذه الجماعة لا تعتني بتوحيد الألوهية:

---

(١) وهي واحدة من الجماعات الدعوية الموجودة على الساحة، وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.
وذكر أبو الحسن الندوي أن مؤسس هذه الجماعة لجأ إلى هذه الطريقة في الدعوة حين أعيته السبل التقليدية في إصلاح أهل منطقته.
أما أصول دعوتهم فهي ست، كما ترد في خروجهم وهي:
١ ـ تحقيق الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله.
٢ ـ الصلاة ذات الخشوع والخضوع.
٣ ـ العلم بالفضائل لا المسائل مع الذكر.
٤ ـ إكرام المسلم.
٥ ـ تصحيح النية.
٦ ـ الدعوة إلى الله والخروج في سبيل الله على منهج التبليغ.
ولكل من هذه الأصول أو الصفات مقصد وفضيلة وطريقة حصول محدد.
وهم يبايعون بعضهم على أربع طرق صوفية. **انظر**: «القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ» لحمود التويجري، ص١٥١، و«المورد العذب الزلال» لأحمد النجمي، ص٢٥٣.

(٢) **انظر**: «القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ»، ص٢٠٥.

أ ـ أنّ في مركزهم الرئيس في الهند وباكستان، والسودان قبوراً[١].

ب ـ أنّ أكابر المنتسبين إليها على عقائد شركية وبدعية، ومع ذلك ما زالوا من أكابرهم، فهذا يدل دلالة واضحة على أن الجماعة لا تبالي بتوحيد العبادة.

قال سيف الرحمٰن بن أحمد الدهلوي: «إنّ أكابر هذه الجماعة يرابطون على القبور، وينتظرون الكشف والكرامات والفيوض الروحية من أهل القبور، ويقرون بمسألة حياة النبي ﷺ وحياة الأولياء حياة دنيوية لا برزخية مثل ما يقر القبوريون بنفس المعنى»[٢].

وقد نقل الشيخ حمود التويجري رحمه الله شهادات سبعة أشخاص مع تواقيعهم أن هذه الجماعة عندها كفريات وبدع[٣].

ج ـ أن هذه الجماعة أعدّت لأتباعها من العجم كتاب «تبليغي نصاب» الدعوة الصريحة إلى طلب الشفاعة من رسول الله ﷺ، وهذا شرك أكبر محبط للعمل، ومخرج من الملّة، فبإعدادهم لهذا الكتاب والحث عليه، بل وتوزيعه، تكون هذه الجماعة قد أدانت بأنها ليست مهملة لدعوة التوحيد فحسب، بل هي داعية للشرك.

فدعوة هذه الجماعة ومواعظها وخطبها تنعدم فيها الدعوة إلى توحيد الألوهية ولوازمها، وهذا من أعظم أوجه الخلل في هذه الدعوة.

وورد في فتوى اللجنة الدائمة للإفتاء:

«إنّ ـ هذه الجماعة ـ فيها نشاط في العمل بما تعتقد، ووداعة في الأخلاق، وعدم احتقار الناس، وفيها مسالمة لغيرها فلا تدخل مع فرد ولا جماعة في جدل، ولا مع حكومة في خصومة أو نزاع.

---

(١) **انظر**: القول البليغ، ص١٢.

(٢) كتاب: «نظرة عابرة اعتبارية حول الجماعة التبليغية»، ص٤٧، بواسطة «القول البليغ» ص١٢.

(٣) «القول البليغ» ص١٨٧ ـ ١٩٠.

ولكنها غلت في المسالمة والسلبية والإجمال في الدعوة، حتى تركت الكلام في تفاصيل عقيدة التوحيد وهو أصل الإسلام، وهو الذي بدأت به الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوتهم، وصارحوا به أممهم حتى قامت الخصومات والحروب بين الفريقين، وكان الجهاد في سبيل الله نصرة لدينه وإعلاء لكلمته.

ولم يعرف عنهم مجرد الخروج والدعوة، الذي هو من المبادئ، والأصول المعروفة عند ـ هذه الجماعة ـ.

ولم يعرف عنهم مجرد المسالمة، بل كانوا يصدعون بالحق، كما يحرصون على العمل به لا يخشون في ذلك لومة لائم، ولا غضبة وجيه أو حكومة، ولو ترتب على ذلك اضطهاد وهجرة وحرب وقتل نفوس.

ولم يعرف ـ عن دعاة هذه الجماعة ـ أنهم وقفوا مواقف الرسل عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى تفاصيل الشريعة أصولها وفروعها، إنما لديهم مجرد خروج، وإجمال في الدعوة لا يصل بمن يخرج معهم إلى وعي إسلامي، أو معرفة بتفاصيل دينه، وليس في هذا اتباع لسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام»[١].

٢ ـ الدعوة إلى الشرك وعبادة القبور:

من أبرز معالم دعوة ـ هذه الجماعة ـ، نشر عقائد القبورية، والدعوة إليها من خلال مواعظها وخطبها ودروسها.

وهم مع ذلك ماتريدية معطّلة لصفات الله، وصوفية في العبادة والسلوك يبايعون على أربع طرق صوفية مُغرقة في الضلال ومن ذلك أن هذه الطرق تقوم على الحلول ووحدة الوجود والشرك بالقبور وغير ذلك من الضلالات[٢].

وسلك على هذا المسلك أفراد هذه الجماعة وعلى رأسهم ابن أخي

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، رقم (١٦٧٤). في ٧/ ١/ ١٣٩٧هـ.
(٢) «القول البليغ»، ص١٩٠.

المؤسس، حيث يقول: «...اهتموا بإيصال الثواب إلى الأكابر، فإذا علمتم بهذا تتوجه إليكم أرواحهم، وتنالون منها الفيوض، والبركات»[١].

يقول سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله ـ عن هذه الجماعة ـ: «جماعة.... المعروفة الهندية عندهم خرافات، عندهم بعض البدع والشركيات، فلا يجوز الخروج معهم، إلا إنسان عنده علم يخرج لينكر عليهم ويعلمهم، أما إذا خرج يتابعهم، لا. لأنّ عندهم خرافات، وعندهم غلط، عندهم نقص في العلم»[٢].

ويقول سيف الرحمٰن الدهلوي ـ عن حقيقة دعوة هذه الجماعة الناسَ إلى الشرك من خلال مواعظهم وخطبهم ـ: «ومعلوم أنّ هؤلاء يتدرّجون بالناس ـ ولا سيما أصحاب الفطر السليمة ـ يتدرّجون بهم باسم التوحيد، والدين، والزهد، وعدم الترف، والورع، والتبليغ، والتقوى، وحبّ الصالحين، إلى تعظيم الأكابر، والبدع، والخرافات»[٣].

٣ ـ النزعة الصوفية عند ـ هذه الجماعة ـ:

أقطاب هذه الجماعة يبايعون أتباعهم على أربع طرق صوفية وهي:

الأولى: الجشتية؛ نسبة إلى معين الدين الجشتي، وقد جعل قبره وثناً يعبد.

الثانية: القادرية؛ نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي الحنبلي رحمه الله وكان سلفي المعتقد، ولكنه نسبت إليه خرافات.

الثالثة: السهروردية؛ نسبة إلى أبي حفص شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي وهي أيضاً مليئة بالخرافات.

الرابعة: النقشبندية؛ نسبة إلى خوجة بهاء الدين بن محمد البخاري،

---

(١) «تيس مجالس» ص٢١١.

(٢) فُرِّغت من شريط بعنوان (فتوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في جماعة التبليغ) وقد صدرت هذه الفتوى في الطائف قبل حوالي سنتين من وفاة الشيخ.

(٣) نقلاً عن «القول البليغ»، ص٢٢.

وأغلب الحنفية على هذه الطريقة، وهي مليئة بالخرافات والبدع والضلالات[١].

قال الشيخ حمود التويجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإلى هذه الطرق الأربع يدعون الأعاجم ويبايعونهم عليها، بدون تحفّظ، ويدعون من انخدع بهم، ومال إليهم من جهال العرب، وأغبيائهم إلى المبايعة عليها، إذا وثقوا به»[٢].

وهذه النزعة الصوفية هي التي حملتهم إلى حثِّ الناس على ترك التكسّب، والخروج من الأموال، على نهج سلفهم من الصوفية، وهم يدّعون أنّ الوظيفة والتجارة والدكاكين أصنام؛ لأنها تلهي الإنسان عن واجباته الدينية، وعن واجبه نحو ربه[٣].

ب ـ الانحرافات المنهجية ـ لهذه الجماعة ـ في مجال الوعظ:

١ ـ ابتداع السياحة في الأرض لأجل الوعظ ونشر الدعوة:

من أصول هذه الجماعة الخروج ـ وهو الأصل السادس عندهم ـ: وهو السفر للدعوة إلى الله، وهذا الأصل محمود مطلوب موجود عند رسول الله ﷺ، إذ أرسل جماعات من الصحابة للدعوة إلى الله، فأرسل أبا موسى وعلياً ومعاذاً وأبا هريرة وغيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

لكن على غير طريقة هذه الجماعة، فإنّ رسول الله ﷺ لم يكن يرسل إلّا العلماء، فلم يرسل غيرهم للدعوة إلى الله مع وجود المقتضى، والحاجة في زمانه، وانتفاء المانع، وما كانت هذه صورته فحكمه بدعة في الشريعة.

فإرسال الجهال للدعوة إلى الله من جملة البدع، وتحديد مدّة للخروج بدعة، وترك الأهل والأعمال هملاً من أكبر المخالفات التي تحفّ هذا الخروج.

جاء في فتوى للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

---

(١) «الماتريدية» لشمس الأفغاني ١/١٩٧. (٢) «القول البليغ»، ص١١.
(٣) المصدر السابق، ص١٦٧.

«فخروجهم على النحو المعروف عنهم بدعة في القول والعمل، وتحديد مدة له بدعة، وتركهم للأهل والأعمال من أجله بدعة، ودعواهم أنه جهاد في سبيل الله كذب وتحريف لنصوص الإسلام، وأعمال الرسول ﷺ ومن تبعه»[(١)].

وعن أصل هذه البدعة ومنشئها يقول مؤسس هذه الجماعة: «انكشفت على هذه الطريقة للتبليغ، وأُلْقي في روعي في المنام تفسير الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. أنّك أخرجت للناس مثل الأنبياء.

وفي تعبير هذا المعنى بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾ إشارة إلى أنّ العمل لا يكون في مكان واحد، بل يحتاج فيه إلى رحلات إلى البلاد، وعملك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٢)].

فانظر كيف جعلوا أساس هذه البدعة مناماً شيطانياً لتفسير كلام الرحمٰن ﷻ، وأعرضوا عن التفسير المأثور عن النبي ﷺ وعن سلف هذه الأمة.

٢ ـ الإكثار من القَصَص والمنامات في مواعظهم:

القَصَص والمنامات هي ديدن أصحاب هذه الجماعة وهجيراهم، وهم يخدعون السُذَج من الناس بمثل هذه الترّهات، وينشرون فيهم البدع والخرافات[(٣)].

فكثيراً ما أقعدوا الناس عن الكسب والعمل، عن طريق قصص

---

(١) فتاوى للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، رقم (٦٥٦)، بتاريخ ١٢/٤/١٤٠١هـ.

(٢) «ملفوظات إلياس» لمحمد منظور النعماني، ص٤١٥؛ بواسطة «القول البليغ» ص٢١٥.

(٣) وقد أقام الصوفيّة المنامات مقام الحقائق، وجعلوها مصدراً للتشريع، وترويج بدعهم وضلالاتهم، قال الشاطبي: «وأضعف هؤلاء احتجاجاً قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا فلاناً الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا واعملوا كذا، ويتّفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين برسم التصوف» «الاعتصام» للشاطبي ١/١٨٩.

وهمية، ومنامات شيطانية، ومن ذلك أنهم يذكرون في مواعظهم أنّ فلاناً خرج من عند أهله، وأغلق عليهم الباب، ومكث عنهم أربعة أشهر، ثمّ عاد إليهم، فوجدهم على أحسن حال، ولمّا سألهم، قالوا له: إنّ عجوزاً تدخل عليهم، وتخدمهم، فيزعمون أنّ هذه كرامات ينالها من انتسب إلى هذه الجماعة وسار بسيرهم[(١)].

٣ ـ السعي إلى هداية الناس بأي وسيلة متاحة:

سواء كانت شرعية، أو بدعية، فما دامت الغاية شريفة، فالوسيلة إذاً مشروعة.

وهذا ما فتح لهم باب البدع على مصراعيه، فضربوا بالضوابط الشرعية عرض الحائط، وزعموا أنّ وسائل الوعظ والتذكير لا تنضبط بالضوابط الشرعية.

وقد اغتر بهم خلقٌ لأنّ الله هدى على أيديهم أناساً ضالين، وهذه من جهة النظرة الشرعية لا العاطفية خطأ، فإنّ الغاية في الشريعة لا تبرر الوسيلة، وصلاح نية الرجل لا تدل على صلاح طريقته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ـ معلِّقاً على حديث جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[(٢)]: «فمن قال في القرآن برأيه، فقد تكلّف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنّه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه! كمن حكم بين الناس على جهل، فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر»[(٣)].

---

(١) **انظر**: «المورد العذب الزلال» ص٢٩٠.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٢٠٠، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٨٧٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم، وهكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في هذا في أن يفسر القرآن بغير علم».

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٣٧١.

٤ ـ وعظ الناس على غير بصيرة:

لا يهتم أفراد هذه الجماعة بالعلم الشرعي المستند إلى الكتاب والسنّة، وبالتالي اختل عندهم شرط العبادة الثاني، وهو المتابعة لرسول الله ﷺ.

وقد شرط الله العلم في مقام الدعوة فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «....وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلّا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بدّ في كمال الدعوة، من البلوغ في العلم إلى حدٍّ يصل إليه السعي»[(١)].

ومن المشاهد لكل ذي بصيرة، أنّ كثيراً من دعاة هذه الجماعة جهّال ليس لهم عناية بالعلم، بل شأنهم في المجالس: حكاية القصص الملفّقة، والمنامات المختلقة.

ثمّ إنّ جهلهم هذا كان سبباً في تلبّسهم بالبدع، وتناقلهم للأحاديث الضعيفة، ظناً منهم أنها من كلام المصطفى ﷺ[(٢)].

يقول العلامة الشيخ الألباني رحمه الله: «الذي أعتقده أنّ دعوة هذه الجماعة هي صوفية عصرية، لا تقوم على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ... وإنّ من عجبي أنهم يخرجون للتبليغ، وهم يعترفون أنهم ليسوا أهلاً للتبليغ، والتبليغ إنما يقوم به أهل العلم كما كان رسول الله ﷺ يفعل حينما كان يرسل الرسل من أصحابه، من أفاضل أصحابه من علمائهم، وفقهائهم، ليعلِّموا الناس الدين والإسلام»[(٣)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/٧٨.

(٢) **انظر**: «القول البليغ»، ص١٣ ـ ١٥، ٢٧٥.

(٣) راجع شريط: «القول البليغ في ذم جماعة التبليغ»، للعلامة الألباني رحمه الله.

* الجماعة الثالثة[١] *

أ ـ الانحرافات الموضوعية ـ لهذه الجماعة ـ في مجال الوعظ:

١ ـ إهمال بعض جوانب التوحيد:

التوحيد عند السلف رحمهم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكانت دعوة السلف ومواعظهم ـ كما سبق بيانه[٢] ـ تشمل هذه الأقسام الثلاثة، دون إخلال، أو تفريط.

وقد غلت ـ هذه الجماعة ـ وانحرفت عن منهج السلف رحمهم الله، فجعلت لأقسام التوحيد الثلاثة قسيماً رابعاً[٣] سمّته ظلماً وجهلاً توحيد

(١) هي جماعة إسلامية غالية نهجت نهج الخوارج في التكفير بالمعصية.
نشأت داخل السجون المصرية في بادئ الأمر، وبعد إطلاق سراح أفرادها، تبلورت أفكارها، وكثر أتباعها في صعيد مصر، وبين طلبة الجامعات خاصة.
ثمّ صاغ مؤسسها مبادئ العزلة والتكفير لدى الجماعة، ضمن أطر شرعية حتى تبدو وكأنها أمور شرعية لها أدلتها من الكتاب والسنة ومن حياة الرسول ﷺ في الفترتين: المكية والمدنية، متأثراً في ذلك بأفكار الخوارج.
إلّا أنه رجع إلى رشده وأعلن براءته من تلك الأفكار التي كان ينادي بها.
انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» لدار الندوة العلمية للشباب تحت إشراف: مانع بن حماد الجهني ١/٣٣٦.

(٢) **انظر**: ص١٦٨ من هذا البحث.

(٣) إنّ التوحيد بأقسامه الثلاثة متضمِّنٌ لحاكمية الله ﷻ، فلا حاجة، ولا ضرورة لاستحداث هذا القسيم الرابع تحت أي دعوى.
ـ سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن من أضاف إلى التوحيد قسماً رابعاً وأسماه «توحيد الحاكمية».
فأجاب: من يدعي أن هناك قسماً رابعاً للتوحيد تحت مسمى توحيد الحاكمية، يعد مبتدعاً فهذا تقسيم مبتدع صدر من جاهل لا يفقه في أمر العقيدة والدين شيئاً!!.
وذلك لأن الحاكمية تدخل في توحيد الربوبية من جهة أن الله يحكم بما يشاء، وتدخل في توحيد الألوهية لأن العبد عليه أن يتعبد الله بما حكم. فهو ليس خارجاً عن أنواع التوحيد الثلاثة وهي:
توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد أسماء الله وصفاته. **انظر**: «جريدة المسلمون» عدد (٦٣٩).

الحاكمية، وعقدت عليه ألوية الولاء والبراء، والحبّ والعداء، بل الكفر والإسلام.

فمدار منهج هذه الجماعة ـ وبالتالي خطبها ومواعظها ـ على تقرير هذا القسيم الرابع، ألا وهو توحيد الحاكمية، بينما همِّشت أقسام التوحيد الثلاثة، واختزلت التوحيد في توحيد الحاكمية فقط، بحيث لا تكاد تسمع لأقسام التوحيد الأخرى ذكراً في خطبها أو مواعظها إلّا نُتَفاً متفرِّقة، مفرّغة من التأصيل والتدليل.

ـ ومرادهم بالحاكمية: ضرورة ردّ كافة الأحكام والتشريعات إلى حاكمية الشرع ـ وتلك في عمومها حق ـ إلّا أن المقصود الذي ترادف مع هذا المصطلح منذ شيوعه على أيدي منظّري هذه الجماعة هو: المناداة بالحاكمية بمعناها السياسي الذي هو حكم الدولة، وبالتالي حكموا بكفر كل من لم يطبق تلك الحاكمية في الشأن السياسي أو لم يؤمن بضرورة تحكيمها، بغضّ النظر عن ضوابط التكفير وشروطه.

وأوّل من طرح هذا المفهوم هم الخوارج[1] اعتراضاً على واقعة

---

(١) بدعة الخروج هي أوّل البدع ظهوراً في الإسلام وأظهرها ذمّاً للسُّنة والآثار، وسُمُّوا بذلك لخروجهم على خيار المسلمين وعلى الجماعة وعلى الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه سواء كان في زمن الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان.

ومن أسمائهم: الحرورية، والمارقة، والمحكِّمة: لإنكارهم التحكيم، وقولهم: لا حكم إلا لله.

قال الشهرستاني: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يُسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان». الملل والنحل، ص١١٥.

ويقولون: بأن كل من أتى بكبيرة فهو كافر مُخلّد في النار، وهم أول من كفّر المسلمين بالذنوب، ويُكفِّرون من خالفهم في بدعتهم، ويستحلّون دمه وماله، وحُكي عنهم أنهم لا يَتَّبِعون النبي ﷺ إلّا فيما بلّغه عن الله تعالى من القرآن والسنة المفسِّرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول ﷺ فلا يعملون إلا بظاهره.

ويقولون: بوجوب أو تجويز الخروج على السلطان الجائر، أو إذا خالف السنة حقاً واجباً.

=

التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم[(١)]، ثم أعاد طرحه حديثاً منظروا هذه الجماعة.

• واستصحب هذا الاعتقاد ـ حول الحاكمية، والدعوة إليها ـ جملة من المخالفات الشرعية، يمكن إيجازها في ما يلي:

١ ـ تفسير كلمة التوحيد تفسيراً مبتدعاً، واختزال التوحيد في توحيد الحاكمية فقط.

يقول أحد منظري هذه الجماعة: «لو شبّهنا هذا الدين بقطعة معدنية لكان الوجه الأول مكتوب عليه (لا إله إلا الله)، والوجه الآخر مكتوب عليه (التحاكم إلى شرع الله)، فهما وجهان لعملة واحدة لا ينفصلان ولا يفترقان.

فـ (لا إله إلا الله) تعني: الحكم بما أنزل الله، وعدم الحكم بما أنزل الله نفي الألوهية في حياة الناس، وانتزاع حق الله عز وجل في تنظيم حياة البشر، وادعاء بعض البشر الربوبية على البشر»[(٢)].

٢ ـ التهوين من قضايا الشرك في العبادة، وقضايا الانحراف في العقائد بكل أنواعه، اللهم إلّا ما تعلّق بالحاكمية فقط.

يقول المنظِّر السابق: «وأخيراً؛ يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة!.

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار؛ لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا أنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً[(٣)]، ولكنها تدخل في

= وبقي من أصحاب هذه البدعة فِرَق وطوائف إلى يومنا هذا.
انظر: «مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعري ص٢٠٧، و«الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي، ص١٧ ـ ٢٥٨، و«موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع» ١/ ١٣٧.

(١) **انظر** مسألة التحكيم في: «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي، ص١٧ ـ ٢٥٨.

(٢) «معالم في الطريق» ص٥٠.

(٣) بل كثير من هذه المجتمعات يُضفون على أناس صفات الإله، كاعتقادهم أنهم يعلمون الغيب، ويتصرفون في الكون، ويفرجون الكروب، ويتقدمون لهم بالشعائر التعبدية من =

هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها؛ فهي ـ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ـ تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها، وتقاليدها... وكل مقومات حياتها تقريباً!»[(١)].

ويقول آخر: «ولذلك يجب التركيز على شرك الأحياء أكثر من التركيز على شرك الأموات!!. إن الأمة مبتلاة بشرك الأحياء، أولئك الحكام الذين يعبِّدون الناس لأنفسهم»[(٢)].

ووفق هذا المنهج سارت فلول هذه الجماعة تبث هذه الاعتقادات في خطبها، ودروسها، ومواعظها، وكتاباتها.

٢ ـ الغلو في التكفير:

غلت ـ هذه الجماعة ـ في تكفير عموم المسلمين وخاصتهم وفق نهج الخوارج في التكفير بالمعصية والكبيرة، بل حملت أتباعها ومن يرتاد مجامعها ويستمع لخطبها ومواعظها هذا الفكر، ودعت مريديها إلى تبني هذا المنهج.

ولا شكّ أنّ الحكم على الإنسان بالكفر حكم خطير له آثاره العظيمة، فلا يجوز لمسلم أن يقدم عليه إلّا ببرهان واضح، ودليل ساطع، فإنّه قد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلّا رجعت عليه**»[(٣)].

= الاستغاثة في الشدائد والدعاء والخوف والرجاء والتوكل والطواف بقبورهم وتعظيم هذه القبور وإقامة الأعياد والاحتفالات والموالد لهذه الأضرحة وشد الرحال إليها وتقديم الذبائح والنذور بالأموال الطائلة لها، كل هذه الأمور وغيرها من أنواع الشرك لا يعدها دعاة الحاكمية من أنواع الشرك الناقضة للتوحيد المنافية لمعنى لا إله إلا الله.

(١) «معالم في الطريق» ص٣٥.

(٢) «مفهوم الحاكمية في فكر الشهيد عبد الله عزام» لأبي عبادة الأنصاري، ص٢٠.

(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٦٣، كتاب: الأدب، باب: من أكفر أخاه بغير تأويل فهو =

فالتكفير حكم شرعي مضبوط بضوابط معلومة من نصوص الكتاب والسنّة، فلا يُصار إليه بمجرّد الهوى والجهل، فإنّ «من ادعى دعوى وأطلق فيها عنان الجهل مخالفاً فيها لجميع أهل العلم، ثم مع مخالفتهم يريد أن يكفر ويضلل من لم يوافقه عليها، فهذا من أعظم ما يفعله كل جهول»[١].

ومن مجالات التكفير التي يدعوا إليها خطباء ووعّاظ هذه الجماعة:

أ ـ التكفير بالمعصية:

من الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة عدم تكفير مرتكب المعصية ما لم يستحلها.

يقول الإمام الطحاوي رحمه الله: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله»[٢].

ولكن غلت طوائف الخوارج قديماً وحديثاً فكفرت مرتكب الكبيرة، وأوجبت خلوده في النار، مخالفة ما دلت عليه النصوص، ومتنكبة مذهب أهل السنة في ذلك.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في معرض الرد على الخوارج: «... ثم قد وجدنا الله تبارك وتعالى يكذب مقالتهم، وذلك أنه حكم في السارق بقطع اليد، وفي الزاني والقاذف بالجلد، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء إلا القتل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: **«من بدل دينه فاقتلوه»**[٣].

أفلا ترى أنهم لو كانوا كفاراً لما كانت عقوباتهم القطع والجلد؟ وكذلك قول الله فيمن قُتل مظلوماً: . ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:

= كما قال، رقم (٥٧٥٢)، ومسلم ١/ ٧٩، كتاب: الإيمان، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، رقم (٦٠)، واللفظ له.

(١) «الرد على البكري»، لابن تيمية، ص٢٦٣.

(٢) «العقيدة الطحاوية» ١/ ٤٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ٣/ ١٠٩٨، كتاب: الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله، رقم (٢٨٥٤).

٣٣]، فلو كان القتل كفراً، ما كان للولي عفو، ولا أخذ دية، ولزمه القتل»[(١)].

ومن مقالات هذه الجماعة الداعية إلى تكفير مرتكب المعصية والكبيرة، ما جاء على لسان أحد قادتها حيث يقول: «إن كلمة عاصي هي اسم من أسماء الكافر، وتساوي كلمة كافر تماماً، ومرجع ذلك إلى قضية الأسماء، إنه ليس من دين الله أن يسمى المرء في آن واحد مسلماً وكافراً»[(٢)].

وتقول هذه الجماعة في بيان لها أسمته: (إجمال تأويلاتهم، وإجمال الرد عليها): «إن لفظة الكفر ما جاءت في الشريعة إلا لتدل على عكس الإيمان وانتفائه، وهي تعبر عن حكم عام يشتمل على عدة أنواع منه، لكل نوع منها اسم علم خاص به؛ كالفسق، والظلم، والخبث... فحيثما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] فإن جميع الثلاثة كفر من حيث الحكم العام»[(٣)].

ب ـ تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله بإطلاق:

لا خلاف في كفر من حكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر إن كان جاحداً لحكم الله، أو مُجوِّزاً فعلهُ، أو معتقداً المساواة بين الحُكْمين، أو مُفضِّلاً حكم غير الله على حكم الله، أو مقترناً حالُه بالتبديل؛ وأما إن حكم بغير ما أنزل الله خالياً حاله من أحد هذه الأمور المتقدّمة فلا يحكم بكفره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإنسان متى حلّل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه؛ كان كافراً مرتدّاً باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله تعالى على أحد القولين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]،

(١) «الإيمان»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص٨٨.
(٢) كتاب: «الهجرة» لماهر بكري، ص٧٢.
(٣) «الحكم بغير ما أنزل الله، وأهل الغلو» لمحمد سرور، ص١٦١.

أي: هو المستحل للحكم بغير ما أنزل الله»[١].

وقال أيضاً: «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه عدلاً من غير اتِّباعٍ لما أنزل الله فهو كافر»[٢].

فالذي يحكُم بقوانين وضعية، ولم يحكم بما أنزل الله فلا يجوز لنا أن نكفِّره ونخرجه عن ملة الإسلام، إلّا إذا فتَّشنا عن أمره أولاً، وهل يعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله؟ أو لا يعترف بحكم الله؟ فإنَّ هذا يكون كافراً ولا شك.

لكن لو حكم بغير ما أنزل الله لشهوة في نفسه، أو لمصلحة دنيوية، أو لخوف على منصب، أو أنه قد لا يُستجاب لحكمه، وهو يعتقد في باطن الأمر أن حكم الله أحسن، فلو كان شخص بِهذه المثابة وهذه الصفة فلا نطلق عليه إنه كافر، وخارج عن ملة الإسلام مثله مثل القاضي الذي يحكم بغير ما أنزل الله بسبب رشوة، فقد أجمع المسلمون على أن مثل هذا ليس بكافر، وأنه مرتكب كبيرة.

قال شارح الطحاوية: «إن اعتقد ـ أي: الحاكم ـ أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص، ويسمى كافراً كفراً مجازياً، أو كفراً أصغر»[٣].

وقد غلت جماعة التكفير في هذا الجانب غلواً عظيماً فنادت بتكفير الحكام في هذا الزمن قاطبةً، دون النظر إلى قواعد الشرع، وإلى الضوابط التي وضعها الشارع الحكيم في تكفير المعين، ولم تلتفت إلى تفصيل

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ٢٦٧.
(٢) «منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية ٥/ ١٣٠.
(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، ص٣٦٤.

السلف ـ السابق ـ في حكم من لم يحكم بما أنزل الله.

وترتب على ذلك مناداة هذه الجماعة مريديها بالخروج على الحكام، وشحنت أفكارهم بخطب نارية، ومواعظ ملتهبة، كان الغرض منها في كثير من الأحيان الدعوة إلى القلاقل والبلابل والفتن، فكثير من الشباب الذي انحرف عن الجادة، وسلك سبيل الغواية، إنما فعل ذلك تحت تأثير مثل هذا النوع من المواعظ والخطب.

يقول المستشار سالم البهنساوي عن التكفير والمكفرين: «لقد تجمع أصحاب هذا الفكر ـ أي: التكفير ـ على رأي واحد وهو أن حكام المسلمين كفروا، وأن المحكومين الذين لم يعملوا على تغيير هذا الحكم بالانضمام إلى الجماعة التي تحمل الفكر الصحيح للإسلام، وتسعى لتطبيقه وهي جماعتهم، هؤلاء أي من ليس من هذه الجماعة، قد كفر أيضاً لطاعته هذا الحاكم»[١].

ج ـ القول بجاهلية المجتمعات المسلمة:

إن وصف زمان أو إنسان بالجاهلية ليس وصفاً عادياً، بل هو إطلاق شرعي يتضمن حكماً لا بد فيه من مراعاة الضوابط الشرعية، وهذا الحكم له آثار خطيرة.

والجاهلية عند الإطلاق مرادفة للكفر، وقد استعملها الشارع للدلالة على الصورة المناقضة للإسلام، فهي لا تطلق إلا على ديار الكفر، أما ديار الإسلام وإن وجد في بعض أفرادها بعض صفات الجاهلية كالفجور والتبرج، وغيرها من صفات الجاهلية، فإن ذلك لا يسوغ إطلاق وصف الجاهلية عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل... وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة.

(١) «الحكم وقضية تكفير المسلم» لسالم البهنساوي، ص١١٦.

فأما بعدما بعث الله الرسول ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام»[١].

ـ وقد تبنت هذه الجماعة القول بجاهلية المجتمعات المسلمة مطلقاً، وبنت على هذه المقولة اعتقادات وآراء وأفكار متطرفة.

كما سيطر هذا الاعتقاد على كل خطبها ومواعظها وكتاباتها، وترتب عليه استحلال الدماء المعصومة، والأموال المحرمة، والدعوة إلى اعتزال المجتمعات.

يقول أحد كُتّاب هذه الجماعة: «إن جميع المجتمعات التي تزعم الانتساب للإسلام اليوم هي مجتمعات جاهلية، لا يستثنى منها واحد»[٢].

ويقول آخر: «لقد واجه الإسلام يوم جاء للناس في القرن السابع للميلاد مجتمعاً جاهلياً، وها هو اليوم يواجه في مغرب القرن العشرين مجتمعاً جاهلياً، السمات هي السمات، والصفات هي الصفات.

ثم يستدرك فيقول: .... إلا أن المجتمع الجاهلي الأول كان واضح المعالم، محدد السمات من حيث موقعه البارز خارج دائرة الإسلام.... وأما مجتمع الجاهلية الحاضر، الذي يواجهه الإسلام اليوم، فهو مجتمع باهت المعالم، مختلط السمات، من حيث موقعه المتأرجح عند تخوم الدائرة لا هو يدخلها فيستقر في قلبها، ولا هو يأبى ألا يقيم بقربها كي يمس حدودها، إنه مجتمع يزعم الناس فيه أنهم مسلمون!!»[٣].

٣ ـ الدعوة إلى اعتزال المجتمعات وهجرها:

سبق معنا بيان الضوابط الشرعية لجواز اعتزال المجتمعات، كما في

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ٧٨.

(٢) كتاب: «الهجرة» لماهر بكري، ص٩، بواسطة: «الغلو في الدين» ص٣٢٥.

(٣) «مقدمة في فقه الجاهلية المعاصرة» لعبد الجواد يس، ص٨.

زمن الفتن، وغلبة الشر وفساد الزمان، وغلبة شر الإنسان[١].

ولكن هذه الجماعة غلت في هذا الجانب، ودعت إلى مفاصلة أفراد المجتمع مفاصلة شعورية، أو مفاصلة كاملة صريحة.

• أما الدعوة إلى المفاصلة الشعورية: فيُراد بها مجاراة المسلمين في عباداتهم، ومعاملاتهم مع الاعتقاد بكفرهم، دون إظهار ذلك الاعتقاد لهم[٢].

وتأوّلوا ذلك بأننا في عصر الاستضعاف، كما كان الشأن في العهد المكّي.

يقول أحدهم: «هناك ضرورة حركية[٣] توجب مراعاة شعور من يصلي من الشعب، فلا يصدم بأنّه كافر، بل نطبّق عليه مبدأ المفاصلة الشعورية»[٤].

• الدعوة إلى المفاصلة الكاملة: وتعني المقاطعة الكاملة للمجتمع.

يقول أحد أفراد هذه الجماعة ـ عند تأصيله لمبدأ الهجرة عند هذه الجماعة ـ: «هذه هي الهجرة، ولكن ما حال المسلمين[٥] قبلها؟ ماذا يعملون في فترة ما قبل الهجرة؟.

في هذه الفترة سيكون للمسلمين مهاماً يسعون إلى تحقيقها، منها: اعتزال الكفار بقدر ما أمكن الجهد، وبقدر ما تستوعب طاقاتهم في كلّ شيء.

في العبادة: لا يغشى المسلمون معابد أهل الجاهلية[٦] التي يكذبون

---

(١) **انظر**: ص٨٨٣ من هذا البحث.

(٢) «الحكم وقضية تكفير المسلمين»، ص١٦.

(٣) والحركية من المصطلحات المولّدة، تضاهي مصطلح الدعوة الإسلامية، وتحمل في طياتها مدلولات حزبية بدعية.

(٤) «الحكم وقضية تكفير المسلمين»، ص٣٥.

(٥) المقصود بالمسلمين ها هنا هم: أفراد هذه الجماعة فقط.

(٦) والمراد بها مساجد المسلمين اليوم.

فيها على الله، ويكتمون ما أنزل الله، ويدعون مع الله فيها آلهة أخرى، ويلبسون الحق بالباطل، ويزعمون زوراً وبهتاناً أنهم حماة الإسلام، وكذلك لا يصلى معهم ولو خارج هذه المعابد، ولا يأتم المسلمون بإمام من أهل الجاهلية الزاعمين كذباً الانتساب للإسلام.

وفي التصوّر: فتصوّر المسلمين وفكرتهم لا تستمد من مصدر غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، معتزلين بذلك تصورات الجاهلية الفاسدة، وعقائدهم الباطلة.

وفي السلوك: اختلاف تام عن سلوك الكفار من أهل الجاهلية في مأكلهم ومشربهم، وفي قيامهم وقعودهم أي شغلهم وفراغهم، وفي نومهم ويقظتهم، في الأخلاق والتعاملات، وكل شيء ـ يحاول المسلمون ـ وهم ما زالوا في المجتمع الجاهلي أن يخالفوا المشركين فيها ما أمكنهم ذلك»[1].

وتفرّع على هذا الأصل المناداة بهجر الوظائف الحكومية مهما كان موقعها، وهجر المدارس والجامعات وإن لم يكن فيها اختلاط ولا سفور، وغير ذلك من الدعوات.

• وينتهي المطاف بهذه الجماعة ـ بعد تكفيرها للحكام وعموم المسلمين، وبعد دعوتها إلى اعتزالهم ـ إلى الدعوة إلى هجر هذه المجتمعات الجاهلية، إلى أرض يعبد فيها الله وحده، ليس فيها كفر بآيات الله ﷻ ـ بزعمهم ـ.

ولا شك أن الهجرة المشروعة ما كانت من دار الحرب إلى دار الإسلام.

قال ابن العربي رحمه الله: «الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ. . . . وهذه الهجرة باقية مفروضة

(١) كتاب «الهجرة» ص٩٧، بواسطة «الغلو في الدين» ص٤٩٧.

إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان، فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام، فإن بقي فقد عصى»(١).

ـ وفكرة الهجرة من الأفكار الرئيسة التي دعت إليها هذه الجماعة، وشحنت بها خطبها ومواعظها، ومن ذلك قول أحد قادتها: «إنّ الهجرة هي مرحلة انتقالية، وضرورية للجهاد، إذ لا يتمّ الجهاد حقيقة، ولا يؤذن به إلّا بعد الهجرة؛ لأنّ الهجرة في مبدئها تفريق بين أولياء الله وبين أعدائه... الإيمان سابق الهجرة، والهجرة تسبق الجهاد، وأصبح الأمر: إيمان، ثم هجرة، ثم جهاد، وهذه سنة الله، وقانونه المتكرر»(٢).

ويقول آخر: ـ داعياً الناس إلى هجر المجتمع الجاهلي؛ أي: المجتمعات المسلمة اليوم ـ:

«من كان صادقاً في إسلامه، غير منافق به، فعليه أن يهجر الأرض التي يقع من يمكث فيها في ولاء الكافرين من دون المؤمنين، لكونه عملاً من أعمال النفاق»(٣).

ب ـ الانحرافات المنهجية ـ لهذه الجماعة ـ في مجال الوعظ:

١ ـ التشهير بأخطاء الحكّام، وتهييج العامة عليهم:

إنّ هدي السلف رحمهم الله في مناصحة السلطان ووعظه، هو الإسرار بالنصح، والترفّق بالسلطان ـ كما سبق بيانه(٤) ـ.

ولكن هذه الجماعة حادت عن هذا المنهج القويم، فأصبحت تشهِّر بأخطاء الحكّام على رؤوس المنابر ومجامع الناس، مما نجم عنه تأليب العامة، وإغارة صدورهم، وإثارة الرعاع، وإشعال الفتن.

وهذا ليس من منهج أهل السنة والجماعة في شيء، بل سبيلهم

---

(١) «أحكام القرآن» ١/ ٦١١.
(٢) «الهجرة»، ص٣٣.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠.
(٤) انظر: ص٦٧٥ من هذا البحث.

ومنهجهم جمع قلوب الناس على ولاتهم، والعمل على نشر المحبة بين الراعي والرعية، والأمر بالصبر على جفوة ولاتهم وظلمهم، مع الإسرار بالنصيحة، والترفّق في الموعظة.

يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى، وعدم السمع والطاعة في المعروف ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع.

ولكن الطريقة المتبعة عند السلف: النصيحة فيما بينهم وبين السلطان والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير»(١).

ومسلك هذه الجماعة في التشهير بأخطاء الحكام أشهر من أن يُستدلّ عليه، وهو مسلك خطير يؤدي إلى إثارة الفتن، وتهييج العام، فكثير من أعمال الشغب، من التدمير والتفجير وغيرها، كانت شرارتها الأولى، هو ذكر مثالب الحكام ونشرها بين العوام.

فلم يجن دعاة هذا الفكر غير الويلات والمصائب التي جلبت لديار المسلمين، فلا للحق نصروا، ولا للباطل دحضوا، ولا لأعداء الدين قهروا، بل على أنفسهم وأمتهم جنوا، فهل إلى مردٍّ من سبيل؟؟.

٢ ـ الطعن في علماء السنّة، والحطّ من أقدارهم بين العامة:

إنّ الطعن في العلماء ليس طعناً في ذواتهم، وإنما طعنٌ في الدين والدعوة التي يحملونها، والملّة التي ينتسبون إليها؛ فإذا جُرِّح شهود الشرع جُرِّح المشهود به.

والطعن سبيلٌ من سبل أهل الزيغ والضلال.

وقد سعت هذه الجماعة إلى تشويه صورة العلماء الربانيين، والحطّ

---

(١) «حقوق الراعي والرعية» ص٢٧، لابن باز، نقلاً عن «فتاوى العلم والدعوة إلى الله» للجريسي، ص٥٤.

من أقدارهم؛ لأنّ هؤلاء العلماء كشفوا زيف هذه الجماعة، وفضحوا خططها، وبيّنوا أوجه افترائها على الدين والملّة.

فما كان من هذه الجماعة إلا أن حملت على العلماء حملة شعواء، مملوءة باللمز والهمز، والسباب، واللعن، والوقيعة في الأعراض.

فينعتونهم أحياناً بأنهم علماء السلطان والبلاط، وأنهم علماء مستأجرون.

وأحياناً أخرى يصفونهم بالخونة المارقين.

وتارة أخرى يدعون إلى هدر دمائهم واستباحة أموالهم، وغير ذلك من أنواع الأذية، الحسيّة والمعنوية.

• وممّا سبق بيانه نتبيّن أنّ بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، قد حادت عن منهج السلف في الوعظ، ويرجع مجمل انحرافها إلى إهمال الدعوة إلى التوحيد، بل والدعوة إلى الشرك أحياناً، مع ابتداع وسائل ما أنزل الله بها من سلطان لوعظ الناس وتذكيرهم؛ كالأناشيد والتمثيل، والخروج، والسياحة، وغيرها.

كما انحرف مضمون الوعظ عند بعض الجماعات وذلك بالدعوة إلى الاعتزال وهجر المجتمعات وتكفيرها، بل شمل الانحراف المقاصد أيضاً حينما جعلت بعض هذه الجماعات من الموعظة أداة للدعوة الحزبية، والمذهبية.



المطلب الثاني

أسباب انحراف هذه الجماعات في جانب الوعظ

لقد جعل الله ﷻ لكلّ شيء سبباً، وجعل الظواهر والمشكلات والانحرافات التي يقع فيها الناس جماعات وأفراداً راجعة إلى أسباب سائقة إليها، وهذه من سنن الله ﷻ في الخلق والأمر.

والانحراف الواقع في مجال الوعظ ليس بمنأى عن هذه السنن الإلٰهية الكونية والشرعية، ومن شأن الوقوف على هذه الأسباب ـ التي أدت بالجماعات الإسلامية في العصر الحاضر إلى الانحراف عن الجادة وسواء السبيل في باب الوعظ ـ أن يجنّب الجماعات الإسلامية السويّة من الوقوع في الخلل والانحراف والزلل، بإذنه تعالى.

كما أنّ إحاطة الجماعات المنحرفة في باب الوعظ بالأسباب التي أدّت إلى ذلك، يُعَدُّ أوّل سبيل في طريق التغيير والإصلاح.

ومن المعلوم أنّ البدع والمحدثات تشترك في الغالب في الأسباب المؤدِّية إلى ذلك باعتبار انطلاقها من مبدأ واحد، وهو تغيير شريعة الله ﷻ زيادة ونقصاناً بدافع المبالغة في التعبّد.

وهذه الأسباب متنوِّعة قد يجتمع أكثرها في جماعة معيِّنة، وقد تستأثر بعض الجماعات الأخرى بجانب منها، وفيما يلي عرضٌ لأبرز هذه الأسباب:

*** أوّلاً: الجهل:**

الجهل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح في الدعوة والوعظ هو الذي أدى بهذه الجماعات إلى الانحراف عن المنهج القويم في الوعظ والتذكير.

والجهل هو قاسم مشترك، ودافع مشاع بين جميع البدع والمحدثات، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله - وهو الخبير بشأن البدع -: «. . .وذلك أنّ الإحداث في الشريعة إنما يقع إما من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحصر بحسب الاستقراء من الكتاب والسنة. . . . فأما جهة الجهل فتارة تتعلق بالأدوات التي بها تفهم المقاصد، وتارة تتعلق بالمقاصد»(١).

وهذا الجهل أنواع وضروب كثيرة منها:

١ - الجهل بكتاب الله عز وجل:

إنّ القرآن الكريم هو عمدة الملّة، وكليّة الشريعة، وينبوع الحكمة، ولا طريق إلى الله عز وجل سواه، ولا نجاة لأحد غيره، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه.

وقد سبق معنا بيان ما حواه القرآن الكريم من بيان لأصول الموعظة وضوابطها وأسسها وأركانها، وأساليبها، وكيف أنّ السلف رحمهم الله لم يجاوزه قيد أنملة فكان ذلك سبيل عصمتهم، وطريق نجاتهم.

ولكن بعض الجماعات الإسلامية جعلت كتاب الله وراءها ظهرياً، وإن كانت تزعم أنه عمدتها، ومصدر دعوتها، ولكن الحال يكذِّب المقال.

وجهل هذه الجماعات بكتاب الله عز وجل يقع في عدِّة محاور:

● منها: الجهل بمراد الله عز وجل في كتابه، ومردّ ذلك إلى اعتمادها في فهم كتاب الله تعالى على الرأي المجرّد، والفلسفة، أو الكشف، والرؤى، والأحلام، كما مرّ معنا في ابتداع جماعة إسلامية بدعة التبليغ والسياحة لرؤيا رآها مؤسسها في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكذلك من ابتدع بدعة الخروج والتكفير إنما أُتي من سوء فهمه

(١) الاعتصام ٢/ ٢٩٣.

لكتاب الله ﷻ، وإن كان يزعم أنّه إنما يصدر عن كتاب الله ﷻ.

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ألا ترى أنّ الخوارج كيف خرجوا عن الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى؟ لأنّ رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يعنى ـ والله أعلم ـ أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأنّ الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم»[١].

• ومنها الجهل بأصول الدعوة والموعظة التي جاءت واضحة بيّنة في كتاب الله ﷻ من غير لبس ولا إبهام، فلو أنّ هذه الجماعات سبرت كتاب ربها، ووعت أساليب الوعظ والتذكير التي تضمّنها لما انحرفت عن جادة الحق والصواب.

٢ ـ الجهل بسنة النبي ﷺ:

الجهل بسنّة النبي ﷺ سبب كلّ محدثة وبدعة، وما وقع الانحراف في طوائف الملّة إلا بسبب جهلها بسنّة نبيها، وجهلها بمكانة هذه السنّة في الدعوة والتشريع.

فالنبي ﷺ قد ترك أمّته على المحجّة البيضاء، وكانت سنته القولية والفعلية مشكاة للهداة، ونبراساً للدعاة، فهي ترجمان كتاب الله ﷻ، وفيها الحلّ لكل معضلة، وفيها الزاد لكلّ داعية، فتخلي بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة عن هدي نبيها ﷺ يُعَدُّ من أعظم الأسباب في انحرافها وزيغها.

وقد سبق معنا بيان هديه ﷺ في وعظه وتذكيره وكيف أنّ السلف رحمهم الله ساروا على نهجه نحو القذّة بالقذّة، فكان ذلك سبباً في توفيقهم وسدادهم.

---

(١) «الاعتصام» ٢/ ١٨٢.

وقد وقع الانحراف في هذه الجماعات نحو سنّة نبيِّها ﷺ نبيها في نواح عدّة، منها:

• ترك التأسي بهدي النبي ﷺ في الدعوة والوعظ، سواء تعلّق الأمر بمضامين الوعظ كالدعوة إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ونحو ذلك، وقد رأينا كيف أهملت بعض هذه الجماعات الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

ومن ذلك أيضاً ترك التأسي بالنبي ﷺ في منهج دعوته ووعظه، فبعض الجماعات ـ كما سبق بيانه ـ جعلت هدي نبيِّها ﷺ في دعوته ظهرياً، فلم تتأس به في رفقه وحلمه، بل تركت كثيراً من الأساليب النبوية في الوعظ والتذكير، واستبدلتها بأساليب ووسائل مبتدعة.

• منازعة بعض هذه الجماعات في حجيّة السنّة النبويّة، كما هو شأن الجماعات الداعية إلى تجديد الخطاب الديني، فلو كانت هذه الجماعات تؤمن بحجيّة السنة مطلقاً في الأحكام والعقائد وأمور الدعوة، لما كان لها أن تعتقد أنّ هذه السنّة قد عفا عنها الزمن، ولم تصبح صالحة لهذا العصر.

وقد ادعت بعض هذه الجماعات من خلال سؤالها للعلامة ابن باز رحمه الله أنّ وسائل الوعظ النبوية لم تعد صالحة لهذا الزمن[١].

• الاعتماد على الأحاديث الواهية في الخطب والمواعظ، وسبقت الإشارة إلى ما وقع فيه بعض القصّاص ـ وهم ينتمون إلى بعض هذه الجماعات الإسلامية ـ من التجنِّي على السنّة النبوية، وعدم التثبت في النقل.

بل إنّ الأمر عند بعض الجماعات ذات النزعة الصوفية أدهى وأمرّ، فهي تدّعي أنّها تتلقى الشرع والأحكام، من في النبي ﷺ في المنام، وبذلك ضلّت وأضلّت خلقاً كثيراً، فكم من الأحكام عطّلت، وكم من المحارم

(١) ستأتي معنا فتوى الشيخ ابن باز رحمه الله في آخر المبحث، ص٩٦٨، إن شاء الله تعالى.

انتهكت بسبب هذه المنامات الشيطانية التي يُعارضون بها حكم الله ﷻ، وسنّة نبيه ﷺ.

وبعض الجماعات الإسلامية سلكت مسلكاً آخر في ردّ السنّة النبويّة حينما حكّمت العقل وناقضت به النقل، فتراها تمجّد الفكر، وتروّج للفلسفات، حتى غدا أعلام دعوتها هم الفلاسفة والمفكرون، لا الفقهاء والعلماء.

• سوء الفهم لأحاديث النبي ﷺ ـ إما لعدم فهم معاني ألفاظها من جهة اللغة، وإما من جهة عدم فهم معانيها في استعمال الشرع ـ يعَدُّ سبباً رئيساً من أسباب انحراف بعض هذه الجماعات في باب الوعظ والتذكير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني فإنّ عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دالٌ عليه»[١].

ومن ذلك سوء فهم بعض الجماعات الإسلامية لقوله ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٢] ففهموا منه أنّ جميع المعاملات مردّها إلى هوى النفوس لا إلى حكم الشرع.

ومن ذلك أيضاً صنيع أهل الغلو المعاصرين حين ذهبوا إلى أحاديث فحملوها على معاني في أذهانهم لم تكن هي المقصودة من كلام الرسول ﷺ، ومن ذلك استدلالهم بالأحاديث الواردة في لزوم الجماعة على وجوب لزوم جماعتهم، وحرمة مفارقتها، وتكفير المفارق لها، وعدِّه مارقاً مرتداً[٣].

(١) «مجموع الفتاوى» ٧/ ١١٦.
(٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ١٨٣٦، من حديث أنس بن مالك، كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره في المعايش، رقم (٤٣٥٨).
(٣) «مشكلة الغلو في الدين» لعبد الرحمٰن اللويحق ١/ ٩٤.

٣ ـ الجهل بمنهج السلف الصالح رحمهم الله:

تقدّم معنا ذكر فضيلة اتّباع منهج السلف رحمهم الله في الوعظ والتذكير[1]، وأنّه السبيل الذي ندب الله تعالى عباده المؤمنين لاتباعه، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وفي اتباع هدي السلف رحمهم الله عصمة من الضلال والزيغ؛ لأنهم أهل الفهم الرشيد عن الله وعن رسوله، ولذلك تأتي أقوالهم، وأفعالهم على الاستقامة والسداد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله ـ بعد كلامه عن اختلاف المبتدعة ـ: «وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسمع، مخالفاً للفطرة والسمع»[2].

والمتأمل في منهج بعض الجماعات الإسلامية اليوم يدرك مدى زهدها وإعراضها عن منهج السلف رحمهم الله في الدعوة والوعظ، ويظهر ذلك من خلال أمور منها:

ـ أنّ كثيراً من هذه الجماعات تنتسب إلى طرق بدعية صوفية محدثة، وترجع في استمداد منهج دعوتها إلى بعض الخلف، وتعرض عن منهج السلف رحمهم الله.

ـ إدعاء بعض هذه الجماعات أنّ مذهب السلف أسلم، وأنّ مذهب الخلف أعلم، وهذا ما حملها على ترك التأسي بالسلف الصالح رحمهم الله في شؤون الدعوة والتذكير، فهي تتبع مذهب السلف في جزئيات الأحكام،

---

(١) **انظر**: ص١٤٩ من هذا البحث.

(٢) «مجموع الفتاوى» ٥/ ٢١٢.

وتعرض عن هذا المذهب في شأن التوحيد والدعوة والتذكير.

ـ وبعض هذه الجماعات جمعت بين الجهل بمذهب السلف والكذب عليهم، فبعضها يزعم أنّ أبا ذر رضي الله عنه كان اشتراكياً، وأنّ الحسن البصري كان صوفياً، وأنّ عبد الله بن المبارك كان تبليغياً، وغير ذلك من الدعاوى البطالة.

* ثانياً: الخلل في منهج التلقّي(١):

إنّ هذا السبب تابعٌ للسبب الذي قبله، ونتيجة حتميّة له.

فجهل بعض هذه الجماعات الإسلامية بكتاب ربها، وسنّة نبيها، ومنهج سلفها الصالح، جعلها تستمدّ مناهجها وأساليب دعوتها ووعظها، بل وعقائدها من مصادر أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، وكان هذا سبباً كافياً لانحرافها في دعوتها ووعظها.

وأوجه الخلل في منهج التلقي عند بعض هذه الجماعات كثيرة جداً، من أبرزها:

١ ـ الاعتماد على الحكايات والرؤى:

اتخذت بعض الجماعات الإسلامية من الحكايات الباطلة والرؤى الشيطانية مصدراً تستمدّ منه منهج دعوتها ووعظها، بل تستمدّ منه عقائدها ومضامين دعوتها.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «وأضعف هؤلاء احتجاجاً قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها فيقولون: رأينا فلاناً الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا.

ويتفق مثل هذا كثيراً للمترسمين برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها ويترك

---

(١) **انظر** تفصيل هذا السبب في كتاب: «دراسات في الأهواء والبدع وموقف السلف منها» د. ناصر العقل، ص٢٩٧ ـ ٣١٦.

بها، معرضاً عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ؛ لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال إلّا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا»[1].

وقد رأينا كيف لبّس الشيطان على مؤسس جماعة من الجماعات الإسلامية ونفث في روعه تفسيراً باطلاً لكتاب الله ﷻ، فكان ذلك حجة لهذه الجماعة في سلوك غير سبيل المؤمنين في الوعظ والتذكير.

وبعض الجماعات الإسلامية ذات النزعة الصوفية تعتمد في تذكيرها وترغيبها للناس على مجرّد المنامات، فمن رئيت له منامة مبشرة فهو على خير، وإلا فهو من الهالكين.

٢ ـ اعتمادهم على العقليات أكثر من النقليات:

زهد بعض الجماعات الإسلامية في النصوص الشرعية غدا معلماً بارزاً، وسمة واضحة، بل إنّ بعضهم ليفتخر بما أوتي من سفسطة وفلسفة وجدل، وإن كان أجهل الناس بالكتاب الكريم والسنّة النبويّة.

ولا زلنا نسمع كيف حوّرت بعض الجماعات الإسلامية الشرع الحنيف، وأصول الدين، ومكارم الأخلاق إلى مجرّد فلسفات، فيطلع علينا بين الفينة والأخرى أحدهم بكتاب: «فلسفة الصوم»، وآخر بكتاب: «فلسفة الأخلاق»، وآخر: بـ«فلسفة التربية الروحية»، وآخر: بـ«موسيقى التصوير الفني في القرآن الكريم» وغير ذلك من الكتب الباطلة التي اعتُمِدَ فيها على مجرد العقل والفكر، فهي خِلْوٌ من النصوص والشرعية، مليئة بالتصورات الفلسفية.

٣ ـ ترك تلقي العلم الشرعي عن العلماء وترك مجالستهم:

إنّ الناظر في واقع بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة يجدها من

---

(١) «الاعتصام» ١/ ٢٦٠.

أزهد الناس وأرغبهم عن العلماء الربانيين، فكثير ممن يتصدر مجال الدعوة والوعظ في هذه الجماعات لم يجالس العلماء، ولم يتفقه على أيديهم، ولم يزاحم عند ركبهم، بل أقصى ما عندهم التتلمذ على الأصاغر والتلقِّي عنهم، ولا شكّ أنّ العلم لا يؤخذ إلّا عن الراسخين من أهل العلم والتقوى.

فسبب انحراف هذه الجماعات راجع إلى نبذها للعلماء الربانيين، وعدم رجوعها إليهم.

وقد جاءت الآثار السلفية محذّرة من تلقي العلم على الأصاغر، فمن ذلك:

قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قد علمت من يهلك الناس إذا جاء الفقه من قبل الصغير استعصى عليه الكبير وإذا جاء الفقه من قبل الكبير تابعه الصغير فاهتديا»[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم من أكابرهم، فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا»[٢].

قال الباجي رحمه الله: «يحتمل أن يكون الأصاغر من لا علم عنده، ويحتمل أن يريد بالأصاغر من لا قدر له ولا حال ولا يكون ذلك إلا بنبذ الدين والمروءة، فأما من التزمهما فلا بد أن يسمو أمره، ويعظم قدره»[٣].

* ثالثاً: الانحراف العقدي:

الانحراف العقدي هو أصل كل بليّة، وسبب كلّ انحراف، ولا انفصام بين الانحراف العقدي، والانحراف المنهجي.

فإنّه لا يجتمع انحراف المنهج مع سلامة المعتقد كما يظن البعض، فالعقيدة والمنهج شيئان متلازمان، بحيث يؤدي فساد أحدهما إلى فساد الآخر من طريق اللزوم.

---

(١) ذكره الشاطبي في «الاعتصام» ٢/ ١٧٤. (٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

وإذا تقرّر هذا، علمنا أنّ بعض الجماعات الإسلامية المنحرفة في باب الدعوة والوعظ إنما انطلقت في أوّل أمرها من منطلق عقدي منحرف، وتكفي الإشارة إلى اتجاهات ثلاث، ممن سبق ذكرهم من الجماعات:

ـ فإحدى الجماعات؛ كان أصل انحرافها هو الإرجاء الذي مبناه على أنّ الإيمان مجرّد التصديق، إذ جلّ من انتسب إليه من الأشاعرة.

وقد أسهمت هذه العقيدة المنحرفة في نشر آراء المرجئة التي صارت تبرّر للمنحرف انحرافه، وتهوّن من شأن الكفر والكافرين، بل تدعو إلى ضرورة التقارب معهم، ومن شواهد ذلك قول أحد أعلام هذه الجماعة: «أمّا من لم ينطق بالشهادتين بغير سبب من الأسباب، ولكنه مصدِّق بقلبه مطمئن إلى دين الله وأحكامه، فالقول الراجح أنّه ناجٍ عند الله، وإن كان لا يعامل معاملة المسلمين لعدم العلم بإيمانه، وعدم الدلِّيل عليه»[1].

وهذا عين قول المرجئة، وكم تجرئ مثل هذه المقولات على المعاصي وانتهاك الحرمات.

ـ وجماعة أخرى؛ انطلقت منطلقاً صوفياً منحرفاً، معتمدة على الكشف والوجد والذوق، ومحتقرة للعلم وأهله، فكان ذلك سبباً في انحراف في خطاب والوعظ وفي أساليبه كما سبق معنا في بيان انحراف جماعة السياحة والتبليغ.

ـ والجماعة الثالثة؛ وهي الغالية في جانب التكفير، انطلقت من منطلق أسلافها من الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة والحكم بخلوده في النار، وهذا ما أدى إلى انحراف منهجها في الوعظ والتذكير.

ثم إنّ هذه الجماعات تشترك كلّها ـ كما سبق معنا ـ في التهوين من أمر التوحيد، وغض الطرف عن الانحراف العقدي، بل أحياناً تكون داعية إلى الشرك، وعبادة القبور.

---

(١) «تبسيط العقائد الإسلامية» لحسن أيوب، بواسطة: «مشكلة الغلو في الدين» ٢/ ٤٥٧.

* رابعاً: الإفراط والتفريط:

الإفراط والتفريط سمة بارزة في كلّ من عدل عن الجادة والسبيل، وخيار الأمور أواسطها.

والتفريط هو التساهل في الدين، والإفراط هو التشدّد في الدين، وكلاهما منهي عنه شرعاً، وموقع في الأهواء والبدع، فالتساهل إعراض، والتشدّد ابتداع[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «جماع الشر تفريط في حق، أو تعدي إلى باطل، وهو تقصير في السنة، أو دخول في البدعة؛ كترك بعض المأمور، وفعل بعض المحظور، أو تكذيب بحق، وتصديق بباطل، ولهذا عامة ما يؤتى الناس من هذين الوجهين»[(٢)].

ومن مجالات الإفراط والتفريط في مجال الوعظ، عند بعض الجماعات، ما يلي:

١ ـ الإفراط والتفريط في الولاء والبراء:

الولاء: هو النصرة والمحبّة والإكرام.

والبراء: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار[(٣)].

والولاء والبراء أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو من لوازم شهادة أن لا إله إلّا الله.

وهذه الموالاة مناطها الحقّ، فالولاء إنما هو للحق وحده، فلا يكون على أي أساس آخر، بل يوالي المتبع المؤمن من أي صنف كان، ويكون الولاء نسبياً بحسب ما التزم به المسلم من الحق[(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من كان مؤمناً وجبت موالاته من

---

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص٣٥٠.
(٢) «الصفدية»، لابن تيمية ١/ ٢٩٣.
(٣) «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» لابن تيمية، ص٩٠.
(٤) «الغلو في الدين» ص١٩٧.

أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان.....ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي، كما يقوله الخوارج والمعتزلة، ولا يجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة»(١).

والولاء والبراء لهما حدود دائرة بين الإفراط والتفريط، وكلا طرفي الحق ذميم.

وانحراف بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة في جانب الولاء والبراء أوقعها في الغلو تارة، وفي التساهل تارة أخرى، مما كان له أعظم الأثر في منهج دعوتها ووعظها.

ومن مظاهر انحراف بعض الجماعات الإسلامية في هذا الباب:

• الغلو في التعصّب للجماعة:

أكثر الجماعات الإسلامية اليوم ـ إلّا من رحم الله ـ غلت في جانب موالاة جماعتها والتعصب لحزبها، ولو كان ذلك على حساب الحقّ.

وهذا الغلو جعلها تغض الطرف عن أخطاء أتباعها، بينما يشتدّ نكيرها، ويتعالى صراخها على من فارق جماعتها، ولربما دعت في كثير من الأحيان أتباعها لمعاداة الجماعة الفلانية لا لشيء إلّا لمجرد هوى في نفسها، وتنافس بينها.

وهذا الخلل أدى في كثير من الأحيان إلى خفوت الحق والدعوة إليه؛ لأنّ هذه الجماعات مشغولة بصراعها، وتنافسها مع الجماعات الأخرى.

• موالاة أعداء الدين باسم التسامح والتقارب:

تساهلت بعض الجماعات الإسلامية في معاملتها لأعداء الدين

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٢٨/٢٢٧ ـ ٢٢٩.

والملّة، ودعت إلى ضرورة انصهار الحضارات، وتقارب الأديان.

وفي سبيل تحقيق مآربها لم تجد حرجاً من الدعوة إلى تغيير مناهج التعليم بدعوى أنها مشحونة بالكراهية تجاه الملل الأخرى ـ بزعمها ـ.

وقد سبق معنا ذكر طائفة من مقالات بعض الجماعات الإسلامية، ودعوتها إلى التقارب مع الأديان، وفتح القلوب للكفار والمارقين(١).

٢ ـ الإفراط والتفريط في باب الترغيب والترهيب:

غلّبت بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة جانب الترغيب وأهملت جانب الترهيب، مما جرّء الناس على المعاصي والآثام، وادعت هذه الجماعات أنّ الترهيب أسلوب منفِّر للناس، وأنّ أساس الدعوة جمع قلوب الناس لا تنفيرها.

وهي دعوى باطلة كما سبق بيان ذلك(٢) إذ الصواب هو الاعتدال والجمع بين الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب.

وعلى النقيض من ذلك غلت بعض الجماعات الإسلامية في جانب الترهيب فلا تكاد تسمع منها إلّا ما يقنِّط الناس من رحمة الله تعالى، كما هو شأن ورثة الخوارج من أهل الهجرة والتكفير.

* خامساً: اتباع الهوى:

أصل الضلال والانحراف هو اتباع الهوى، كما قال تعالى في حق من ذمهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

والبدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء،

(١) **انظر**: ص٩٠٢ من هذا البحث.
(٢) **انظر**: ص٢٩١ من هذا البحث.

كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ»[١].

وأهل الأهواء عامة، ومن انحرف من الجماعات الإسلامية في باب الدعوة والوعظ خاصة، يقدمون أهواءهم واستحسانهم العقلي على الأدلة الشرعية، فهم لم يأخذوا النصوص الشرعية مأخذ الافتقار لها، والتعويل عليها، بل جعلوا هذه النصوص تبعاً لآرائهم المجرّدة، وهوى أنفسهم، وهذا ما جعلهم لا يتورّعون عن استخدام أي وسيلة لبلوغ مآربهم، أو نشر دعوتهم، ولو كانت مصادمة للنصوص الشرعية.

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم»[٢].

*** سادساً: التشبّه بالكفار:**

من أسباب وقوع الانحراف والابتداع في هذه الأمة قديماً وحديثاً، تشبّه طوائف منها بغير المسلمين، كما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه، قلنا يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[٣].

---

(١) «الاستقامة»، لابن تيمية ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) «الاعتصام» ٢/ ١٧٧.

(٣) متفق عليه، البخاري ٣/ ١٢٧٤، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣١٩٧)، واللفظ له؛ ومسلم، كتاب: العلم، باب: اتباع سنن اليهود، رقم (٤٨٢٢).

فاتباع السنن باب من أبواب الأهواء والافتراق في هذه الأمة، حين تشبّهت بعض الجماعات الإسلامية بالأمم الغربية اليوم، فاستوردت منها الأفكار الضالة، والفلسفات المضلّة، بل استوردت منها بعض العقائد الفاسدة.

قال الإمام الآجري رَحِمَهُ الله: «من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعامّ منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين كما قال النبي ﷺ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية»[١].

ومن مظاهر تشبّه بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة بالكفار في مجال الدعوة والوعظ، والنصح والتذكير، ما يلي:

- استخدام بعض الجماعات الإسلامية لوسائل غربية المنشأ والمصدر في دعوة الناس ووعظهم، كالتمثيليات، والأفلام والمسلسلات التي أسموها زوراً وتلفيقاً وبهتاناً أفلاماً دينية.
- استخدام بعض قصّاص ووعاظ هذه الجماعات لأنماط غربية في مجالس وعظهم، حيث تجد هذا القاص قد جمع في مجلسه الذي يبث على الهواء مباشرة بين الرجال والنساء في اختلاط فاضح وسفور مقيت، وهذا تالله عين ما يفعله القساوسة اليوم عبر برامجهم الدينية في الفضائيات.
- تشبه بعض وعاظ وقصاص هذه الجماعات بالكفار في هيئتهم وسمتهم.

*** سابعاً: عمل بعض هذه الجماعات بمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»:**

تنطلق بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة في انتقاء وسائل دعوتها ووعظها من مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة».

ومفهوم هذه المبدأ: أنّ المقاصد إذا كانت مشروعة، والغايات شريفة، جاز للإنسان أن يتوصّل إليها بأي وسيلة متاحة، وإن كانت ممنوعة شرعاً.

---

(١) «الشريعة» للآجري، ص٢٠.

وهذا المبدأ مرفوض شرعاً وعقلاً، إذ شرعية الوسائل من شرعية المقاصد، لا انفكاك بينهما، ولا انفصال؛ لأنّ الوسائل خاضعة لحكم الشرع كخضوع الغايات والمقاصد.

قال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: «لا يتقرب إلى الله إلّا بأنواع المصالح والخيور، ولا يتقرّب إليه بشيء من أنواع المفاسد والشرور»[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس كلّ سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً ولا مباحاً، وإنما يكون مشروعاً إذا غلبت مصلحته على مفسدته، مما أذن فيه الشرع»[٢].

ومن شواهد أخذ بعض هذه الجماعات بهذا المبدأ في دعوتها ووعظها، ما يلي:

١ ـ التوسع في باب الوسائل الدعوية والوعظية دون مراعاة للضوابط الشرعية:

وإذا ما احتججت عليهم بأنّ وسائل الدعوة توقيفية ـ كما سيأتي بيانه[٣] ـ قيل لك: إنّ القصد شريف، والغاية هداية الناس، فلا ضير من استخدام أي وسيلة موصلة لهذا الغرض.

فابتدعوا بدعة الأناشيد، والتمثيليات والمسرحيات، وكذا بدعة السياحة في الأرض، كلّ ذلك تحت مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

٢ ـ محاولة تجميع الناس بأي وسيلة وصفة كانت:

حاولت بعض الجماعات الإسلامية جمع المسلمين على حساب العقيدة، ظناً منها أنّ هذا الخلاف القائم في العقيدة لا حاجة للناس فيه، فيتنازل كل منهم عن بعض الشيء، ويلتقون في منتصف الطريق، وخاصة إبان هذه الظروف العصيبة التي يشهدها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه.

---

(١) «قواعد الأحكام» ١/ ١١٢.   (٢) «مجموع الفتاوى» ٢٧/ ١٧٧.

(٣) سيأتي تفصيل هذه المسألة في المطلب الثالث من هذا المبحث، ص٩٤٨، إن شاء الله تعالى.

ولذلك يقول أحد مؤسسي الجماعات الإسلامية المعاصرة: «وأهم ما يجب أن يتوجه إليه هَمُّ المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً»[(١)]

ويقول أيضاً: «والهدف هو تجميع الناس على إعادة أحكام الإسلام، لا تفريقهم باتباع مذهب من المذاهب، وإلزام الناس به فيرضى من يرضى ويغضب من يغضب، وتبدد الجهود»[(٢)].

فالغاية هي تجميع الناس على اختلاف مشاربهم وعقائدهم، مع بقاء الخلل العقدي فيهم دون تغيير ولا نكير، فتُعَطَّل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُتْرَك اتِّبَاعُ منهج السلف لأجل هذه الغاية الشريفة ـ المزعومة ـ وهي تجميع الناس.

وكان من نتاج هذا الفكر المنحرف أن صرّح بعض قادة جماعة إسلامية معاصرة مشهورة بقوله: «إذا قبل واحد من الأقباط ـ هم نصارى مصر ـ مبدأنا، نرشِّحه فوراً على قوائمنا، ونحن لا نطلب منه بطبيعة الحال أن يكون مسلماً....»[(٣)].

ولا شكّ أنّه من الواجب أن يسبق التجمع الصحيح اتفاق على العقيدة، فهي الركيزة الأساسية التي تنطوي تحت لوائها صفوف المسلمين، منها يستهلون طريق وحدتهم، وعلى ضوئها يشقون طريقهم إلى أعلى قمم المجد والعلى، فإن أساس كل عمل في الإسلام إنما ينطلق من العقيدة ويرتكز عليها، كما يرتكز البناء على أركانه.

وإذا عرفنا ذلك فإن أية دعوة إلى الله، إذا لم ينطلق أصحابها من هذا المبدأ الأساسي، ولم تؤسس على هذا البناء الراسخ، ولم تقم على تحقيق التوحيد، وتخليصه من شوائب الشرك، والبدع، والمعاصي، فإنها دعوة

---

(١) «مجموعة الرسائل» لحسن البنا، ص٥٠٠.
(٢) لقاء المأمون الهضيبي مع مجلة المحرر العدد (٢٦٧)، في ٢٩ أغسطس ١٩٩٤.
(٣) لقاء المأمون الهضيبي مع مجلة المحرر العدد (٢٦٧)، في ٢٩ أغسطس ١٩٩٤.

سيكتب لها الفشل لا محالة، عاجلاً أم آجلاً؛ لأن البناء، لا يقوم في هذا الهواء، ولا يمكن تشييده إلّا على أرض صلبة حتى لا يتعرض للانهيار يوماً من الأيام، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].



المطلب الثالث

بيان بطلان منهج هذه الجماعات في الوعظ

لقد سبق معنا بيان ما وقعت فيه بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة من انحراف في باب الوعظ، في جانبيه الموضوعي، والمنهجي.

أمّا الجانب الموضوعي فتقرّر معنا عند بيان أسس الوعظ عند السلف[1]، أنّ دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لتقرير التوحيد، ونبذ الشرك، ولهذا دارت مواعظهم في هذا الفلك تقريراً وتأسيساً.

وبهذا يتبيّن لنا بطلان كثير من مضامين الدعوة والوعظ عند هذه الجماعات، لخلوّها من الدعوة إلى التوحيد، بل وبدعوتها في كثير من الأحيان إلى الشرك، وعبادة القبور.

وفيما تقرر معنا في السابق غنية عن إعادته ها هنا فلينظر في محلِّه.

وعليه فإنّ بيان أوجه بطلان منهج بعض الجماعات المعاصرة في الوعظ سوف يتركّز على بيان انحرافها في جانب الوسائل والأساليب.

وانحراف هذه الجماعات في الجانب المنهجي إنما نشأ في الغالب من نظرة هذه الجماعات نحو الوسائل الدعوية، على أنّها من المصالح المرسلة التي يباح فيها استحداث أي وسيلة ثبت نفعها وإن كانت مصادمة للضوابط الشرعية، فالمعيار هو حصول المصلحة والمنفعة فقط.

وللردّ على هذه الفرية سوف أسلك مسلكين اثنين:

ـ **المسلك الإجمالي**: وفيه بيان حكم الوسائل الدعوية والوعظية، هل هي توقيفية أم هي من المصالح المرسلة الاجتهادية؟.

(١) **انظر**: ص١٥٨ من هذا البحث.

ـ **والمسلك التفصيلي**: فيه بيان بطلان بعض الوسائل التي استخدمتها هذه الجماعات في الوعظ والتذكير، وهي تشمل:

بيان بطلان الأناشيد الإسلامية كوسيلة دعوية.

بيان بطلان التمثيل الديني كوسيلة دعوية.

وفيما يلي تفصيل لهذين المسلكين، وبالله التوفيق:

* أوّلاً: المسلك الإجمالي (هل وسائل الوعظ توقيفية أم اجتهادية؟)[(١)]:

إن مسألة توقيفية وسائل الدعوة والوعظ أو عدم توقيفيتها مسألة تنازع فيها طائفتان من العلماء المعاصرين.

• القول الأوّل: أنّ وسائل الدعوة والوعظ توقيفية:

وهو مذهب السلف الذي عليه جمهور العلماء المحققين قديماً وحديثاً، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومن بعدهم سماحة العلامة ابن باز، ومحدث الشام ناصر الدين الألباني رحمهم الله جميعاً.

وقبل عرض أدلة هذا القول، لا بد من بيان المقصود بتوقيف وسائل الدعوة والوعظ:

ـ **المقصود بتوقيف وسائل الوعظ:**

إنّ أي وسيلة دعوية لم يستخدمها النبي ﷺ ولا صحابته ﷺ في دعوتهم ووعظهم ـ مع وجود مقتضاها، وانتفاء موانعها ـ لا يجوز استخدامها.

ولا تعارض بين القول بتوقيف وسائل الوعظ وبين استخدام الآلات الحديثة لأنها تعدّ قوالب تنقل فيها الوسائل الدعوية والوعظية المشروعة، وليست وسائل في حدّ ذاتها[(٢)].

---

(١) يرجع في هذه المسألة لكتاب: «الحجج القوية على أن وسائل الدعوة توقيفية»، لعبد السلام البرجس.

(٢) فالمكبر «الميكروفون» ناقل للصوت، والذي هو وسيلة شرعية في الدعوة إلى الله تعالى. =

ـ أدلة القول بتوقيف الوسائل الدعوية والوعظية:

١ ـ أن الله ﷻ أكمل الدين وأتم نعمته على عباده، كما قال في كتابه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾»[1].

ولا شكّ أنّ من كمال الدين وتمامه كمال وسائل تبليغه وتمامها.

= وكان أبو بكر يكبر بتكبير الرسول ﷺ، والناس يكبرون بتكبير أبي بكر وذلك لما ضعف صوت النبي ﷺ وما زال السلف يضعون مستملياً ينقل الصوت إلى من كان بعيداً عن المكان المملي.

وهكذا «الشريط» فإنه في حد ذاته ليس وسيلة للدعوة، وما يفعل به إذا كان أجوف لا شيء فيه، إنما هو ناقل أو حافظ للمادة المسجلة فيه فالوسيلة هي إذاً المادة المسجلة «الكلام» وهو وسيلة شرعية.

فإذا كان الناقل للوسيلة مباحاً: أبحناه، وإذا كان يشتمل على محرم حرمناه.

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه الله تعالى: «ووسائل الدعوة في عصرنا وفيما قبله وبعده لا بد أن تكون هي وسائل الدعوة التي بعث بها النبي ﷺ، وبلغ بها الغاية.

ولا تختلف في عصرنا مثلاً إلا في جوانب منها مرتبطة بأصولها التوقيفية، ومنها:

١ ـ المؤسسات الإعلامية المقبولة شرعاً بكل فروعها وأجزائها هي في العصر الحاضر من وسائل الدعوة. وهي وسيلة كانت في بنية الدعوة منذ صدر الإسلام، إذ كانت الدعوة تعتمد الكلمة فالوسيلة الإعلامية هي هي، لكن دخلها شيء في أدائها، فلما كانت بالكلمة كفاحاً، كانت كذلك بالكلمة المسموعة بالواسطة وبالمقروءة هكذا.

٢ ـ المؤسسات التعليمية، والمدارس النظامية، بمناهجها وسبلها ومراحلها:

فهذه لم تتجاوز وسيلة كانت في بنية الدعوة الإسلامية منذ صدر الإسلام، إذ كانت الدعوة تعتمد التعليم، وفي حديث جبريل عليه السلام المشهور في تعليم الإسلام والإيمان والإحسان مثل رائع في طلائع الدعوة... وهكذا.

فالوسيلة التعليمية اليوم هي ما كانت عليه بالأمس، لكن داخلها شيء من النهج في الأداء والبلاغ... وهكذا.

لكن هذا التغيير مأثور بمضمار الشرع، موزون بمقياس الكتاب والسنة، فمتى اختل شيء منه، وجب إبعاده والبراءة منه، أما وسيلة يتعبد بها فلا» **انظر**: «حكم الانتماء» لبكر أبو زيد، ص١٦٠.

(١) «الاعتصام» ٢/١٨.

٢ ـ أنّ الله تعالى أوجب طاعة الرسول ﷺ، وعلّق سعادة العبد بها، ونهى عن معصيته ورتّب شقاوة العبد عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

ولا شكّ أنّ وسائل الدعوة داخلة في باب التعبّد، ولا بد لصحّتها وقبولها، من اقتفاء أثر الرسول ﷺ.

٣ ـ أن النبي ﷺ أمر بكل خير، ونهى عن كل شر، وأحل الطيبات وحرم الخبائث، كما قال تعالى في صفته: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «**لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلّب في السماء طائرٌ إلّا ذَكَّرنا منه علماً**»(١).

وزاد الطبراني فقال النبي ﷺ: «**ما بقي شيء يقرِّب من الجنة، ويبعد من النار، إلّا وقد بُين لكم**»(٢).

إذا تقرر هذا فإنا نقطع بأن النبي ﷺ بيّن لأمته وسائل الدعوة سواء بالقول، أو بالفعل، أو بهما إذ كيف يبين ﷺ آداب قضاء الحاجة ونحو ذلك، ويدع وسائل الدعوة التي لا قيام للإسلام إلا بها؟.

وبما أنه عليه الصلاة والسلام قد بيّن ذلك، فإن بيانه ﷺ هو الطريقة الشرعية التي يرشد بها الغاوي ويهدى بها التائه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٥/٣٤٦، رقم (٢١٤٣٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٥٥، رقم (١٦٤٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٦٤: «ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقري وهو ثقة».

وهي الطريقة التي أخرج بها النبي ﷺ الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم بها إلى التي هي أقوم، وسلكها من بعده صحابته الكرام وتابعوهم بإحسان، واشتدّ نكيرهم على من خالفها من الدعاة، وأحدث فيها.

فليس من سبيل في إيجاد مجتمع كمجتمعهم إلا بهذه الوسائل الشرعية والطرق السلفية، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

٤ ـ أنّ في الوسائل الشرعية غنية وكفاية عن الوسائل البدعية، إذ ما من طريق فيه مصلحة للدعوة إلا وقد سلكه الرسول ﷺ، وشرعه لأمته.

وهذا الأمر ـ وهو شمولية الوسائل الشرعية ـ في غاية الظهور والوضوح، لمن تأمل النصوص الشرعية، ونظر في السير السلفية.

فلكم أسلم بسببها من كافر، وتاب بها من فاسقٍ، واهتدى بها من ضال، واسترشد بها من غاوٍ، وإنما يهزل المسلمون، ويضعفون إذا كانت الوسائل البدعية هي السائدة بينهم؛ لأن هذه الوسائل لا تخرج إلا منحرف المعتقد، ضعيف الإيمان، متلطخاً بأوضار البدع.

وهذه الوسائل البدعية إنما يصار إليها عند ضعف التمسك بآثار النبوة، فإنه «كلما ضعف تمسك الأمم بعود أنبيائهم، ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك»[1]، وإذا تعلقت القلوب بهذه البدع فإنها تحجب عن السنن بحيث لا ترى فيها ما تراه في تلك المحدثات، ومن ثم تزهد فيها، وترغب عنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره.

بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع فإنه تعظم محبته له، ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه.

---

(١) «إغاثة اللهفان» ١/ ٢٠٠.

ولذا تجد مَنْ أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه: تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه.

ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها: لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة.

ومن أدمن على أخذ الحكمة والأدب من كلام حكماء فارس والروم: لا تبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع.

ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم: لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام.

ولهذا عظمت الشريعة النكير على من أحدث البدع، وكرهتها؛ لأن البدع لو خرج الرجل منها كفافاً لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفاً، بل لا بد أن يوجب له فساد منه نقص منفعة الشريعة في حقه، إذ القلب لا يتسع للعوض والمعوض عنه...»(١).

• **القول الثاني: أنّ وسائل الدعوة والوعظ اجتهادية:**

وهو قول أكثر الجماعات الإسلامية المعاصرة.

والقول بأنّ وسائل الدعوة اجتهادية يحتمل وجهين اثنين:

ـ **أما الوجه الأول**: أن يكون المراد من هذا القول: أن كل طريق وأسلوبٍ يوصل إلى الغاية ـ وهي إصلاح العباد ـ يصحّ للداعية والواعظ أن يسلكه، ولو ورد الشرع بالنهي عنه والمنع منه، ما دام يحقق تلك المصلحة.

وهذا القول على هذا التفسير هو ما يعرف باعتبار المصلحة التي شهد الشرع بإلغائها، وهو قول باطل، لأن في اعتبارها مُخَالَفة لنصوص الشرع بالمصلحة.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، لابن تيمية، ص٢١٧.

وفتح هذا الباب يؤدي إلى تغيير جميع حدود الشرائع ونصوصها.

وما مستند هذا القول إلا القاعدة اليهودية الحاكمة «بأن الغاية تبرر الوسيلة».

ومن أمثلة ذلك: تجويز الرقص، والغناء، والإضرار بالمسلم، والافتراء عليه، وحلق اللحى، وإسبال الثياب.... في سبيل الدعوة إلى الله تعالى!!.

ـ **أما الوجه الثاني**: أن يكون المراد من هذا القول: أنّ كل طريق وأسلوب يوصل إلى الغاية ـ وهي إصلاح العباد ـ يصح للداعية والواعظ أن يسلكه، بشرط عدم ورود إلغائه في الشرع.

والقول على هذا التفسير هو ما يعرف بالمصالح التي سكتت عنها الشواهد الخاصة، فلم تشهد باعتبارها ولا بإلغائها(١).

وهذا النوع أيضاً لا يجيزه الشرع؛ لأنّ الوسائل الدعوية والوعظية قد تمّ نصابها، وكمل بيانها، ولم يعد هناك مجال للزيادة والإضافة عليها.

● **ومن جملة ما استدلّ به أصحاب هذا القول:**

الدليل الأوّل: أنّ هذه الوسائل المستحدثة ثبت نفعها، واهتداء كثير من الناس بواسطتها.

ـ والجواب على هذه الشبهة من وجوه كثيرة، منها:

أ ـ أنّ الانتفاع بالوسائل المحدثة لا يبرر شرعيتها لأننا مقيدون بالكتاب والسنة لا بالهوى والوجد.

---

(١) وما سكتت عنه الشواهد الخاصة، فلم تشهد باعتباره ولا بإلغائه على وجهين:

أحدهما: أن لا يرد نص على وفق ذلك المعنى، بمعنى أن لا يوجد للعلة جنس معتبر في تصرفات الشرع: فلا يصح حينئذ التعليل بها، ولا بناء الحكم عليها باتفاقٍ، ومثل هذا تشريع من القائل به، فلا يمكن قبوله.

الثاني: أن يلائم تصرفات الشرع، وهو أن يوجد لذلك المعنى جنس اعتبره الشرع في الجملة بغير دليل معين، وهو الاستدلال المرسل المسمى بالمصالح المرسلة. **انظر**: «الاعتصام» ٢/ ٦١١.

فكل وسيلة بدعية ـ تمثيلاً كانت أو نشيداً أو غير ذلك ـ وإن حركت القلوب وشوقت النفوس، وذكّرت بعض الغافلين، وأرشدت بعض التائهين. . فلا خير فيها، إذ لو كانت خير لاهتدى لها السابقون الأولون، ولشرعها المصطفى ﷺ.

ب ـ أنّ المتذكر بها والمسترشد بها سرعان ما يرجع إلى غفلته، وإن واصل فعلى غير طريق قويم، وصراط مستقيم.

وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام عندما قال قائل عن السماع المحدث ـ وهي اليوم تسمى أناشيد ـ: (هذه شبكة يصاد بها العوام، فأكثرهم إنما يتخذون ذلك شبكة لأجل الطعام والتوانس على الطعام. . . . . .).

قال: وأما الصادقون منهم ـ أي: من العوام ـ فهم يتخذونه ـ أي: السماع ـ شبكة، لكن هي شبكة مخرقة يخرج منها الصيد إذا دخل فيها كما هو الواقع كثيراً.

فإن الذين دخلوا في السماع المبتدع في الطريق، ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله ورسوله، أورثتهم أحوالاً فاسدة. . .»[(١)].

ج ـ أنّ هذه المنفعة على التحقيق ليست منفعة شرعية يحبها الله ورسوله ﷺ.

فإنّ أكثر الناس حصل لهم الضلال والغواية من هذه الجهة، فظنوا أن الأناشيد ـ مثلاً ـ تثير محبة الله.

والحقيقة أنّ ما يهيجه هذا السماع المبتدع ـ ونحوه ـ من الحب وحركة القلب ليس هو الذي يحبه الله ورسوله، بل اشتماله على ما لا يحبه الله وعلى ما يبغضه أكثر من اشتماله على ما يحبه ولا يبغضه.

«وإن كان يثير حباً وحركة ويظن أن ذلك يحبه الله، فإنما ذلك من باب الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى»[(٢)].

ـ **الدليل الثاني**: أن الأمور المباحة يمكن تحويلها بالنية إلى قربةٍ يثاب

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٦٠١.
(٢) «الاستقامة» ١/ ٢٦١.

عليها، كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ مرفوعاً: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلّا أجرت بها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك**»(١).

فعلى هذا: ننوي بهذه الوسائل المحدثة ـ إذا كانت مباحة ـ نية حسنة، فنثاب عليها.

ـ والجواب أن يقال:

إنّ القول بخروج المباحات إلى المندوبات بالنية الصالحة حق، لكن الاستدلال بذلك على صحة إحداث وسيلةٍ دعوية يتقرب إلى الله بها: باطل.

إذ لو صحّ هذا الاستدلال لما كانت هناك بدعة إضافية أصلاً؛ لأنّ كل البدع الإضافية أصلها مباح ومشروع، ولكن اقترانها بوصف مخصوص أخرجها إلى حيز البدعة.

ثم إنّ الندب لا يتعلّق بذات الفعل المباح، وإنما باعتبار أنّ هذا المباح وسيلة لفعل الطاعة؛ كالأكل والشرب وغيرهما، وهذا التعليل لا يتطابق مع الوسائل الدعوية.

ـ **الدليل الثالث**: الاستدلال بقاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد».

فيقول المتعلق بها: إن هذه الأمور التي نتخذها في الوعظ والدعوة وسائل توصل إلى الغاية المنشودة بالدعوة والوعظ، وهي: هداية الناس وإصلاحهم، وما دام الغاية هذه، ـ وهي محمودة شرعاً ـ، فوسائلها تأخذ حكمها، فتكون محمودة في الشرع أيضاً.

ـ والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

أ ـ أن لفظة «الوسائل» هنا، لا تعني أي وسيلة ـ ولو محرمة ـ إذا استخدمت في مقصد حسن: أخذت حكمه، إذ لو كان الأمر كذلك للزم

---

(١) متفق عليه، البخاري ١/٤٥٣، كتاب: الجنائز، باب: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم (١٢١٣)، واللفظ له؛ ومسلم ٣/١٢٥١، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، رقم (٣٠٧٦).

إهدار النصوص الشرعية والعمل بالهوى، فتتخذ المحرمات ـ مثلاً ـ في معالجة المرضى، وترتكب المحرمات ـ المعاملة بالربا وإسبال الثياب ـ من أجل الدعوة ومصالحها. . . وهكذا.

والمعنى الصحيح للقاعدة: أنّ الوسائل بالنسبة للمقاصد الحسنة، لا بد أن تكون مشروعة ـ واجبة أو مندوبة أو مباحة ـ وقد تكون الوسيلة مكروهة، أما أنها تكون محرمة فلا[1].

ب ـ أن هذه القاعدة ليست على إطلاقها فقد تكون الوسيلة محرمة أو مكروهة، وما جعلت وسيلة إليه ليس كذلك.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله ـ عندما قرر أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة ـ:

«فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم. قيل: لا يلزم ذلك، فقد يكون الشيء مباحاً، بل واجباً ووسيلته مكروهة. . كالوفاء بالطاعة المنذورة هو واجب مع أن وسيلته وهو النذر مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه[2] مرجوح مع وجوب الوفاء به أو الكفارة. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرامٍ ولا مكروه»[3].

• **الترجيح:**

لا شك أنّ مذهب الحق الذي عليه سلف هذه الأمة أنّ وسائل الدعوة توقيفية لما تقدّم من الأدلة الشرعية الدالة على كمال الدين وتمامه، وسيلة، ومضموناً.

فأكمل الهدي هدي النبي ﷺ ولا هداية إلّا عن طريقه.

---

(١) ينظر في هذه القاعدة: «الفروق» للقرافي ٢/ ٣٢.

(٢) كمن حلف على فعل مكروه، أو ترك مندوب.

(٣) «مدارج السالكين» ١/ ١١٦.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القول بتوقيف الوسائل الدعوية؛ قد بسط فيه القول غاية البسط شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وسأنقل فتواه مختصرة لطولها ـ مقتصراً على أهم مضامينها ـ.

وحريّ بالجماعات الإسلامية أن تتأمل في هذه الفتوى فإنها نصٌّ في المسألة.

ـ سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن «جماعة» يجتمعون على قصد الكبائر من القتل وقطع الطريق، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك.

ثم إن شيخاً من المشايخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك، فلم يمكنه إلا أنه يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدُف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مباحٍ بغير شبابة.

فلما فعل هذا تاب منهم جماعة، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات، ويؤدي المفروضات، ويجتنب المحرمات.

فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه، لما يترتب عليه من المصالح؟ مع أنه لا يمكنهم دعوتهم إلا بهذا؟.

ـ فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

بعد مقدمة قرّر فيها كمال الشريعة، وتمامها، وأنّ النبي ﷺ قد أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر فهديه أفضل هدي، وأنّه لا سبيل إلى هداية الضالين، وإرشاد الغاوين إلّا عن طريق هدي الكتاب والسنّة.

ثم قال: «إذا تبين هذا فنقول للسائل: أن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي، يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية.

فلا يجوز أن يقال: أنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها

نبيه ﷺ ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم، بالطرق الشرعية التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي، بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ـ وهم خير أولياء الله المتقين، من هذه الأمة ـ تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية لا بهذه الطرق البدعية، وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية.

فلا يمكن أن يقال: أن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية.

بل قد يقال: أن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية عاجزاً عنها، ليس عنده علم بالكتاب والسنة، وما يخاطب به الناس، ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية إما مع حسن القصد ـ إن كان له دين ـ وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم، وأخذ أموالهم بالباطل. . . . .

وقول السائل وغيره: هل هو حلال؟ أو حرام؟ لفظ مجمل فيه تلبيس، ويشتبه الحاكم فيه حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه، وذلك لأن الكلام في السماع، وغيره من الأفعال على ضربين.

أحدهما: أنه هل هو محرم؟ أو غير محرم؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب؛ كسماع الأعراس وغيرها، مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله.

والنوع الثاني: أن اللهو يفعل على وجه الديانة، والعبادة، وصلاح القلوب، وتجريد حب العباد لربهم، وتزكية نفوسهم، وتطهير قلوبهم، وأن تحرك من القلوب الخشية، والإنابة، والحب ورقة القلوب، وغير ذلك مما

هو جنس العبادات، والطاعات، لا من جنس اللعب والملهيات.

فيجب الفرق بين سماع المتقربين، وسماع المتلعبين.

فإن هذا يسأل عنه: هل هو قربة وطاعة؟ وهل هو طريق إلى الله؟ وهل لهم بدّ من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم، وتحريك وجدهم لمحبوبهم، وتزكية نفوسهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، ونحو ذلك من المقاصد التي تقصد بالسماع؟.

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي: إما محرمة؟ أو مكروهة؟ أو مباحة؟ قربة وعبادة وطاعة، وطريقة إلى الله يدعوا بها إلى الله، ويتوب العاصين، ويرشد به الغاوين، ويهدي به الضالين».

ثم قال: «وإذا كان السؤال على هذا الوجه، لم يكن للعالم المتبع للرسول أن يقول إنّ هذا من القرب والطاعات، وأنه من أنواع العبادات، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذى يدعو به هؤلاء إليه، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده لا أمر إيجاب، ولا أمر استحباب، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محموداً، ولا حسنة ولا طاعة ولا عبادة باتفاق المسلمين، فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب»(١).

* ثانياً: المسلك التفصيلي:

١ ـ حكم الأناشيد الإسلامية (السماع)(٢):

استخدمت بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة الأناشيد (السماع) كوسيلة دعوية لوعظ الناس وتذكيرهم، وترقيق قلوبهم، وشحذ هممهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١١/ ٦٢٠ ـ ٦٣٥.

(٢) الأناشيد الإسلامية كانت تسمى في عهد السلف سماعاً، وقد اشتهر به الصوفية آنذاك.

ولا شكّ أنّ هذا مسلك بدعي ـ كما سبق تقريره في المسألة السابقة ـ، وفيما يلي عرض للأقوال في هذه المسألة، مقرونة بأبرز أدلتها:

- **القول الأوّل**: مشروعية الأناشيد الإسلامية؛ كوسيلة دعوية.

وهو قول أكثر الجماعات الإسلامية المعاصرة.

ومن الشبه التي تمسّك بها أصحاب هذا القول، ما يلي:

١ ـ **الشبهة الأولى**: أنّ الأناشيد تلحق بالأشعار التي كان ينشدها الصحابة على عهد النبي ﷺ، وكان يستحسنها ويستمع إليها.

ـ قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله ـ مجيباً على هذه الشبهة ـ: «إنَّ الأشعار التي كانت تنشد عند رسول الله ﷺ ليست تنشد بأصوات جماعية على شكل الأغاني، ولا تسمّى «أناشيد إسلامية» وإنما هي أشعار عربية، تشتمل على الحكم والأمثال ووصف الشجاعة والكرم، وكان الصحابة ينشدونها أفراداً لأجل ما فيها من هذه المعاني، وينشدون بعض الأشعار وقت العمل المتعب كالبناء والسير في الليل في السفر، فيدل هذا على إباحة هذا النوع من الإنشاد في مثل هذه الحالات خاصة، لا على أن يتخذ فناً من فنون التربية والدعوة، كما هو الواقع الآن؛ حيث يلقن الطلاب هذه الأناشيد ويقال عنها: «أناشيد إسلامية»، وهذا ابتداع في الدين، وهو من دين الصوفية المبتدعة؛ فهم الذين عرف عنهم اتخاذ الأناشيد ديناً»[1].

٢ ـ **الشبهة الثانية**: أنّ الأناشيد الإسلامية ثبت نفعها، وكانت سبباً في استقامة كثير من الشباب، ورجوعهم إلى الطريق السويّ.

الجواب: تقدّم معنا عند بيان حكم الوسائل الدعوية (هل هي توقيفية أم اجتهادية) أنّ المنفعة ليست هي الضابط في مشروعية الوسائل الدعوية، لأنّه في كثير من الأحيان تكون هذه المنفعة موهومة، ويكون ضررها أكبر

(١) «الخطب المنبرية» لصالح الفوزان، بواسطة: «القول المفيد في حكم الأناشيد»، ص٦٣.

من نفعها، كما أنّ لنا في الوسائل المشروعة غنية وكفاية عن اللجوء إلى هذه الوسائل المبتدعة.

• **القول الثاني**: عدم مشروعية الأناشيد كوسيلة دعوية.

وهو قول جمهور العلماء قديماً، وحديثاً، وهو الراجح بإذن الله تعالى.

وأبرز ما يستدل به لهذا القول، ما يلي:

١ ـ **الدليل الأوّل**: أنّ الأصل في الوسائل الدعوية والوعظية أنّها توقيفية ـ كما سبق بيانه ـ والأناشيد بدعة محدثة فلا يجوز استخدمها كوسيلة للدعوة والوعظ.

٢ ـ **الدليل الثاني**: أنّ أصل هذه الأناشيد صوفي بحت، فقد اشتهر الصوفية بالتغني والإنشاد على هيئة الذكر والدعاء، فأنكر عليهم السلف رحمهم الله هذا الصنيع.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «خلَّفت بالعراق شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير[(١)]، يشغلون به الناس عن القرآن»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ معلِّقاً على كلام الإمام الشافعي ـ: «وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين، فإنّ القلب إذا تعوَّد سماع القصائد والأبيات، والتذَّ بها حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغنى بسماع الشيطان عن سماع الرحمٰن»[(٣)].

٣ ـ **الدليل الثالث**: أنّ الأناشيد فيها تشبّه بالكفّار، من وجوه عديدة، منها:

---

(١) «التغبير»: شعر يزهِّد في الدنيا، ويغني به مغن فيضرب بعض الحاضرين على نطع أو مخدة على توقيع غنائه كما قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» ١/ ٢٢٩.
وقد تطوَّرت الأناشيد كثيراً عن التغبير، فقد تعددت أغراضها وكان منها الدعوة إلى الحزبية، وتقديس الأشخاص، والحماس المتهور، وأدخل فيها الدف، ولحنت تلحيناً مطرباً ليس فيه خشوع وإنابة، وغير ذلك.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ١٤٦. **قلت**: وإسناده صحيح.

(٣) «مجموع الفتاوى» ١١/ ٥٣٢.

أ ـ إيقاعها على الموازين الموسيقية التي جاءتنا من الكفّار.

ب ـ إدخالها في الدين شبيه بجعل النصارى دينهم بالترانيم الجماعية، والنغمات المطربة.

ج ـ التشبه بهم في إعراضهم عن القرآن، كما أخبر الله ﷻ عنهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولا شكّ أنّ إدمان الأناشيد يوجب الإعراض عن القرآن.

٤ ـ **الدليل الرابع**: أنّ الأناشيد الإسلامية توجب الوقوع في محاذير عظيمة، منها:

أ ـ أنها تلهي عن سماع القرآن، والاتعاظ بمواعظه، بل توجب النفور منه.

قال ابن القيم رحمه الله عن سماع الصوفية ـ وهو نظير الأناشيد ـ: «ولو لم يكن من المفاسد إلّا ثقل استماع القرآن على قلوب أهله واستطالته إذا قرئ بين يدي سماعهم، ومرورهم على آياته صماً وعمياً، لم يحصل لهم من ذوق ولا وجد ولا حلاوة، بل يصغي أكثر الحاضرين، أو كثير منهم إليه، ولا يفهمون معانيه، ولا يغضون أصواتهم عند تلاوته»[(١)].

ب ـ أنّها توجب في كثير من الأحيان الافتتان بالأصوات العذبة الجميلة، فيذهب غرض الاتعاظ، وتحلّ فتنة الصوت بالقلب فتزيده ضلالاً.

والشاهد على ذلك أنّ أكثر المفتونين بالأناشيد الدينية إنما يتتبّعون الأصوات الجميلة، دون النظر في المعاني والمضامين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما تحرّك النفوس عن مجرد الصوت، فهذا أيضاً محسوس، فإنه يحركها تحريكاً عظيماً جداً»[(٢)].

---

(١) «مسألة السماع» لابن القيم، ص٥٨، بواسطة: «القول المفيد في حكم الأناشيد لعصام مري»، ص٥٦.

(٢) «الاستقامة» ١/ ٣٧٣.

وثمة مضار كثيرة لمن تمعّن في آثار هذه الأناشيد، وقد أفتى بعدم جواز استماعها جلّة من علماء العصر؛ كالألباني، وابن عثيمين، والفوزان، وغيرهم، بل نصّوا على عدم جواز استخدامها كسبيل للدعوة والموعظة.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «الأناشيد الإسلامية لا أرى أن الإنسان يتخذها سبيلاً للعظة؛ أولاً: لأنّ أصلها موروث عن الصوفية، فإنّ الصوفية هم الذين جمعت أذكارهم مثل هذه الأناشيد.

الأمر الثاني: أنها توجب إعراض القلب عمّا فيه الموعظة الحقيقية وهو القرآن والسنة

فلا ينبغي للإنسان أن يتخذها سبيلاً إلى الموعظة[1].

٢ ـ حكم التمثيل الديني:

افتتنت بعض الجماعات الإسلامية اليوم بما يسمى بالتمثيل الديني، واتّخذت منه وسيلة لوعظ الناس وتذكيرهم، والتمثيل نوعٌ من القصص المعاصر ـ كما تقدّم بيانه ـ وفيما يلي ذكر الأدلة على تحريم التمثيل الديني مطلقاً:

● **الدليل الأول:**

إن «التمثيل» شعيرة من شعائر الوثنية اليونانية، والكنيسة النصرانية، يقوم بها أولئك تقرباً إلى آلهتهم وهؤلاء إحياء لسيرة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

وهو من الأمور المبتدعة التي لم تدخل على المسلمين إلّا منذ عهد قريب.

ومن القواعد المقرّرة والأمور المسلمة، أن مخالفة الكفار في تقاليدهم وعاداتهم مطلب شرعي، ومقصد إسلامي، فكيف بعباداتهم وشعائرهم؟.

---

(١) **انظر**: «البيان المفيد عن حكم التمثيل والأناشيد». لعبد الله السليماني، ص١٢.

(٢) «التمثيل حقيقته، تاريخه، حُكمه» لبكر أبو زيد، ص١٨.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وبكل حال: يقتضي تحريم التشبه بعلة كونه تشبهاً؛ والتشبه: يعمّ من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه؛ وهو نادر.

ومن تبع غيره في فعل، لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير، فأما من فعل الشيء، واتّفق أنّ الغير فعله أيضاً، ولم يأخذ أحدهما عن صاحبه، ففي كون هذا تشبهاً نظر، لكن قد ينهى عن هذا، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة»[(٢)].

- **الدليل الثاني:**

إنّ التمثيل لا يخلوا من حالتين:

- إما أن يكون أسطورة خيالية، لا واقع لها ولا حقيقة.
- وإما أن يكون واقعة سالفة، قام بها أشخاص معينون، على سبيل الحقيقة.

وعلى كلا الحالتين فهو حرام، بدلالة الكتاب، والسنة، وإجماع العلماء.

- أما الحالة الأولى: فهي كذب والكذب محرم؛ ووجه كونها كذباً أمور منها:

- تسمية القائمين بها بغير أسمائهم.
- الانتساب إلى غير الأب الحقيقي.
- تقمص شخصية غير شخصية الممثل؛ كقاض، أو طبيب، أو بائع...

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٤/ ٤٤، كتاب: اللباس، باب: في لباس الشهرة، رقم (٣٥١٢). وصحّحه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (١٢٦٩).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم»، ص٨٣.

• الأيمان التي تقع على أمر ماض، أو حاضر يعلم كذبه.

• التظاهر بالأمراض والعاهات، أو الجهل، أو الخبال، وقد علم ضده.

• الخروج بمظهر الصلاح الكامل، أو الفساد الكامل، أو الوسط.

فالأول إن سلم من الكذب فهو تزكية، والثاني إن سلم أيضاً من الكذب فهو هتك لستر الله.

وقد جاء ما يدل على تحريم الكذب مطلقاً في قول جماعة من الصحابة؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يصلح الكذب في جد ولا هزل»[(١)][(٢)].

- الحالة الثانية من حالات التمثيل:

إذا كان «التمثيل» لواقعة سالفة، فإن وجه تحريمه أمور؛ منها:

• الكذب: فإنّ «الممثل» يقول: هو فلان بن فلان، وليس كذلك.

• التشبع بما لم يعط: كأن يتقمص شخصية «صلاح الدين الأيوبي» فيظهر بمظهر القوة والشجاعة أو العلم والإدراك وليس هو كذلك.

• الإفضاء إلى استنقاص الأموات، وذكر مساوئهم.

• الغيبة؛ كالمحاكاة: وهي تقليد شخص لآخر في حركاته وسكناته، على وجه الانتقاص، ووجه ذلك أن «الممثل» يحاكي شخصاً في معايبه الخُلُقية أو الخَلْقية، ليبرز الواقعة للمشاهدين كما هي، وهذه المحاكاة محرّمة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «... وحكيت له ﷺ إنساناً، فقال: **«ما أحبّ**

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه ٥/ ٢٩٥، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢٣٦. **قلت:** وإسناده حسن.

(٢) تعلّق بعضهم بقاعدة: (الوسائل لها أحكام المقاصد) فجوّز الكذب هنا؛ لأنه وسيلة للدعوة إلى الله تعالى؛ والجواب: أن الوسائل لا بد من شرعيتها.

قال ابن القيم رحمه الله: «... قد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة، تكره، أو تحرم، لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه بحرام، ولا مكروه» مدارج السالكين ١/ ١١٦.

أني حكيت إنساناً، وأنّ لي كذا وكذا»[١]. وحكيت؛ أي: مثّلت، وقلّدت.

قال النووي في الغيبة المحرمة: «ومن ذلك المحاكاة، بأن يمشي متعارجاً، أو مطأطئاً، أو غير ذلك من الهيئات، مريداً حكاية هيئة من ينتقصه بذلك، فكل ذلك حرام بلا خلاف»[٢].

- **الدليل الثالث:**

إنّ التمثيل الديني يشتمل في الغالب على محاذير شرعية كثيرة منها:

١ ـ تمثيل دور الكفرة، والتلفظ بأقوال الكفر: ويحصل ذلك عندما يمثل الرجل دور أحد الكفرة، فيحاكي أفعاله ويتلفظ بأقواله، ولربما سجد للقبر، أو سب الإسلام.

ولا شك أن هذا العمل كفر مخرج من دين الإسلام، على أيّ وجه قام به.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال الإمام ابن العربي في هذه الآية: «لا يخلوا أن يكون ما قالوه من ذلك جداً، أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر، فإنّ الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة»[٣].

٢ ـ الدعوة غير المباشرة إلى أخلاق هابطة، وصفات مرذولة:

وذلك أن «الممثل» قد يخرج بصورة الحاسد، أو النمَّام أو السارق.. وغير ذلك من الصور الممقوتة، مما قد يؤثِّر في بعض المشاهدين فيعجب ببهرجته ويستحسن تصرفه ويكبر عمله ولا يلتفت إلى نتيجة «التمثيل» التي تقضي بسوء عاقبة هذا «الممثل».

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٤/ ٢٦٩، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة، رقم (٤٢٣٢)؛ وصححه الألباني في «صحيح وضعيف الجامع الصغير» رقم (١٥٣٣).

(٢) «الأذكار» ص٤٩٠.

(٣) «أحكام القرآن» ٢/ ٥٤٣.

ومن نظر إلى أوساط «المتفرجين» على هذا النوع من «التمثيل» علم أن أكثر ما يرسب في أذهانهم، أدوار المنحرفين، من النمامين، والمحتالين، مما قد يؤدي تدريجياً إلى التساهل بهذه المنكرات، ومن ثم الوقوع فيها[١].

ـ هذا هو حكم التمثيل الديني مطلقاً، أمّا إذا اقترن بنية العبادة، كمن أقامه يدعو الناس به إلى الله تعالى، ويرى أنه بذلك فعل قربة يؤجر عليها، فإن تحريمه أشدّ، والمنع منه آكد، فكما أنه معصية لله تعالى، فهو بهذه النية بدعة منكرة شنيعة.

وبيان ذلك أن الدعوة إلى الله تعالى عبادة، وكلّ عبادة في شرعنا يتوقف قبولها على اجتماع أمرين فيها، وهما: الإخلاص، والمتابعة.

وقد سلك النبي ﷺ في دعوته للخلق مسالك، وسنّ وسائل، كفيلة بهداية من شاء الله تعالى من العصاة، والكافرين، وغيرهم.

والقول بتحريم التمثيل الديني هو قول محققي أهل السنة في هذا العصر.

فقد ورد سؤال إلى الإمام ابن باز رحمه الله، وهذا نصّه: «لكل زمن أسلوب يناسبه، السلف الصالح بالدروس والمواعظ، ونحن عندنا أسلوب مؤثر وهو التمثيل المسرحي، شباب طيبون يمثلون دور العاصي للموعظة، وشارب الخمر للموعظة فقط، فأرجو من سماحتكم حثّ الشباب على ذلك، لأن أسلوب الأولين لا يناسب هؤلاء الناس.

فاستعظم الشيخ هذا فبدأ جوابه بالتكبير فقال: «الله أكبر . . الله أكبر . . الله أكبر ما أعظمها من فرية، وما أعظمها من كلمة قبيحة، أسلوب النبي ﷺ والصحابة والسلف الصالح لا ينفع للحاضرين، ولا ينفعهم إلا التمثيل والكذب، نعوذ بالله من البلاء، لقد قلت زوراً وكذباً أيها السائل. نسأل الله العافية.

(١) «إيقاف النبيل على حكم التمثيل» لعبد السلام برجس، ص٦٠ ـ ٦١.

النبي ﷺ وأصحابه ما كانوا يمثلون، ما يقولون: أنا أبو جهل، وأنا أبو فلان وأنا.. وإنما يقولون: قال الله.. قال الرسول، اتقوا الله أيها الناس.. افعلوا كذا.. دعوا كذا.. هذا حلال.. هذا حرام.. هذا ما ينفع الناس! ما ينفعهم واحد يجيء يقول: أنا أبو لهب وأنا أبو جهل، وأنا أبو بكر، وأنا محمد!!؟ يكذب، ويجيء واحد محلوق اللحية، يقول: أنا أبو بكر، وأنا عمر!!؟ أيش هذا الكلام القبيح المنكر؟؟ أعوذ بالله.

التمثيل محرَّم وكذب وزور ما يجوز نسأل الله العافية.. أعوذ بالله.. نسأل الله العافية. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]»[1].



(١) نقلاً عن شريط: «سلسلة فتاوى العلماء في الجماعات، وأثرها على بلاد الحرمين».

الخاتمة

ها أنذا ـ بحمد الله ـ ألقي عصا التسيار، متمّماً ما بدأته من البحث في منهج السلف في الوعظ.

وأختم ببيان الأمور التالية:

*** أوّلاً: خلاصة البحث:**

تناول البحث العديد من المسائل، والمفاهيم، والأصول المتعلّقة بمنهج السلف في الوعظ: كمفهوم الوعظ؛ وأنواعه، وأسسه التي تدور حول التوحيد، والنبوّة والمعاد، كما تناول البحث مصادر الوعظ عند السلف التي ترتكز على القرآن، والسنّة، وآثار السلف، ثم تطرق البحث إلى مجالات الوعظ عند السلف والتي مدارها على تعظيم الله تعالى، وحث النفوس على الجدّ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وغيرها من المجالات.

كما بيّن البحث خصائص وآداب الموعظة عند السلف، والتي تقوم على الاهتمام بالمضمون، والتأصيل العلمي، والقصد والتخوّل والإسرار بالموعظة، ثم أردف البحث بإيضاح الأساليب والوسائل التي استخدمها وعّاظ السلف في وعظهم؛ كالأمثال، والترغيب والترهيب، والقصص، ومن ذلك أيضاً: الخطابة، والتأليف والشعر.

ثم ألقى البحث الضوء على أبرز السمات والصفات التي تحلّى بها وعّاظ السلف والتي تقوم على التقوى، والعلم، وحسن الخلق.

وتناول البحث أيضاً أهم أصناف الموعوظين وسماتهم وأثر المواعظ فيهم.

وختم البحث ببيان منهج المخالفين للسلف في الوعظ قديماً وحديثاً، جماعات وأفراداً، مع بيان منشأ مخالفاتهم، وأوجه الرد على شبههم.

*** ثانياً: نتائج البحث:**

توصّل الباحث إلى جملة من النتائج، وكان من أبرزها:

١ ـ يتّسع مفهوم الوعظ عند السلف، بحيث يشمل التأديب والتعليم، فيجمع بين الجانب العلمي التقريري، والجانب الوعظي التأديبي.

٢ ـ إنّ الكتاب والسنّة هما عمدة مصادر الوعظ عند السلف رحمهم الله، ويتّضح ذلك من خلال اقتباس السلف رحمهم لمنهج وعظهم، ولأساليبه، بل ومضامينه، من هذين المصدرين.

٣ ـ للوعظ أهمية بالغة، فهو مفتاح كثير من القلوب المقفلة، وبه يسترشد الغاوون، ويتوب المذنبون، ويستفيق الغافلون.

٤ ـ إنّ الأسس التي قامت عليها مواعظ السلف رحمهم الله: هي الدعوة إلى التوحيد، والنبوّة، والمعاد، وهي نفسها أسس دعوة الأنبياء عليهم السلام، ومن هنا تتجلى أثرية مواعظ السلف، وعمق تأصيلها.

٥ ـ من معالم شمولية مواعظ السلف، أنّها تغطي جميع مجالات العبد، سواء في علاقته بربه، وتعظيمه لمولاه، أو في حثه على البدار للتزوّد لدار القرار، أو بتهذيب أخلاقه لتلين عريكته لإخوانه وخلّانه، أو بكشف حقيقة هذه الدنيا التي يعيش فيها مع بيان الغاية التي خلق لأجلها، أو بتخفيف ما يعتريه من مصائب.

٦ ـ اقتصر السلف رحمهم الله في مواعظهم على ما يبلغ المعنى ويفي بالغرض، ولذا جاءت مواعظهم خالية من كلّ تكلّف وتشدّق وسجع وإطناب، مهتمين بالمضمون، ومتخوّلين بالموعظة خشية الإملال، فلم يعيبوا أحداً، ولم يشهروا بمذنب قطّ.

٧ ـ أساليب مواعظ السلف تجمع بين أثرية المصدر، وشمولية الطرح والتناول ـ متوافقة بذلك مع تنوّع مقاصد الوعظ وأحوال الموعوظ ـ كما

تجمع بين قوة العبارة ووضوح الفكرة، وبين الواقعية في الطرح بعيداً عن التهويل والتهوين.

وهي أساليب قائمة على الحكمة وتخيّر الأنسب للموعوظ على مقتضى حاله ومكانته.

وهي تشمل الوعظ بالترغيب والترهيب، وبضرب الأمثال، وطرح السؤال، والتذكير بنعم الله، وقص القصص، التذكير بسيرة السلف الصالح.

٨ ـ الواعظ والقاصّ والمذكّر أسماء تطلق على كلّ من تولّى تذكير الناس ووعظهم، ولكن قد يستأثر الواعظ بالتخويف والترقيق، والقاصّ بسرد القصص، والمذكِّر بالتذكير بنعم الله.

٩ ـ القَصَص لا يُذَمّ لنفسه؛ لأنّ في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر.

فإذا كانت القصّة صحيحة الإسناد، ذات عبرة وعظة، وكان القاصّ صادقاً، ورعاً، متواضعاً، كان القَصَص محموداً، وإذا كانت القصة مكذوبة مختلقة، أو خلت من العبرة والعظة؛ أو كان القاصّ كاذباً، قليل الدين والعلم، كان القَصَص مذموماً.

١٠ ـ اختط السلف رحمهم الله لأنفسهم منهجاً فريداً في التأليف يجمع بين تقوى المؤلف وزهده، وبين أثرية مادة هذه الكتب التي جمعت مواعظ القرآن والسنة وآثار السلف، متحرِّين في الغالب الأعم نقل الصحيح من الأخبار، خلافاً للمتأخرين الذين عجّت كتبهم بالسفسطة، ونقل الأحاديث والآثار الواهية.

١١ ـ الشعر كالنثر، لا يُعَاب لذاته وإنما يعاب ما تضمّنه من قبيح القول، وما فيه إساءة للدين وأهله، أو فحش، أو منكر، أو كذب، أمّا إن خلا من هذه المحاذير وكان متضمّناً للدعوة إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق فهو مندوب إليه مرغّب فيه.

ولأجل هذا اعتنى السلف رحمهم الله بالشعر الوعظي نظماً

واستشهاداً، وتشجيعاً واستماعاً؛ لأنّهم أدركوا عظم أثره في النفوس، وشدة تعلّقه بالأذهان، وسعة مجالاته.

١٢ ـ الوعظ من الولايات الدينية التي يشترط فيها إذن إمام المسلمين وتعيينه، لما في ذلك من حفظ بيضة الدين، وسد الباب دون المفسدين.

١٣ ـ مدار صفات الواعظ المؤهّل عند السلف رحمهم الله على ثلاث صفات؛ أولها: تقوى الواعظ وإخلاصه وصدقه واستقامته على طاعة ربه، وثانيها: أهليته العلمية وإحاطته بالمدارك والعلوم الشرعية، وثالثها: تحلّيه بكريم الخصال التي أساسها الرفق، والصبر، والتواضع.

وكلّ هذه الصفات قد اجتمعت في وعّاظ السلف على أكمل وجه وأتمّه.

١٤ ـ المتأمّل في مواعظ السلف رحمهم الله؛ يجدها تخاطب كلّ فئة من الناس بأسلوب ـ سواء كانوا ولاة أو علماء، أو عصاة، أو مبتدعة، أو كفاراً ـ.

ولكلّ فئة ضوابط لوعظها وإن كانت تجتمع في وجوب الإخلاص والإسرار والترفّق.

١٥ ـ إنّ تأثر السلف رحمهم الله بالقرآن والمواعظ كان أكمل تأثر شمل دمع العين واقشعرار الجلد، مصحوباً بصلاح القلب واستقامة العبد على أمر الله، بخلاف ما أحدثه المبتدعة من الصعق والصراخ من غير موجب ولا اضطرار.

ومدار التأثير في المواعظ على صلاح الواعظ، وكمال علمه، وصحة قلب الموعوظ، واستعداده، وقوة الموعظة في موضوعها ومنهجها، وأسلوبها.

١٦ ـ أخرج كثير من قصّاص العصر الحاضر الوعظ عن مقصوده الشرعي، وتنكبوا منهج سلفهم، فعجّت مجالسهم بالمنكرات الفعلية وبالتشبه بالكفرة، مع انحراف في العقيدة، ونشر للفتنة، وترويج للخنا، واستحداث

طرق بدعية في الوعظ والتذكير، حيث نشأ التمثيل، ومن قبله النشيد، وغدا هؤلاء المرجفون هم الأعلام المبرّزون في مجال الوعظ، وعظمت فتنة الناس بهم.

١٧ ـ إنّ بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، قد حادت عن منهج السلف في الوعظ، ويرجع مجمل انحرافها إلى إهمال الدعوة إلى التوحيد، بل والدعوة إلى الشرك أحياناً، مع ابتداع وسائل ما أنزل الله بها من سلطان لوعظ الناس وتذكيرهم؛ كالأناشيد والتمثيل، والخروج، والسياحة، وغيرها.

كما انحرف مضمون الوعظ عند بعض الجماعات وذلك بالدعوة إلى الاعتزال وهجر المجتمعات وتكفيرها، بل شمل الانحراف المقاصد أيضاً حينما جعلت بعض هذه الجماعات من الموعظة أداة للدعوة الحزبية، والمذهبية.

١٨ ـ إنّ أسباب انحراف بعض الجماعات عن منهج السلف في الوعظ مردّه إلى الجهل بكتاب الله وسنّة رسوله، وبمنهج السلف رحمهم الله، ويرجع أيضاً إلى وجود خلل في مصادر الوعظ عند هذه الجماعات التي استعاضت بالمنامات والأحاديث المكذوبة، والركون إلى العقليات عوضاً عن الوحي، كما يعد الانحراف العقدي، والوقوع في الغلو من أبرز أسباب انحراف هذه الجماعات في مجال الوعظ.

١٩ ـ إنّ الأصل في وسائل الوعظ هو التوقيف، فلا يجوز استحداث أي وسيلة دعوية لوعظ الناس مهما توهم نفعها، أو اغتر ببريقها.

* ثالثاً: التوصيات والاقتراحات:

وبعد كتابة هذه الخاتمة التي تضمّنت أهم النتائج التي توصّلت إليها، فإنّي أوصي بعد ـ وصيتي بتقوى الله تعالى ـ بما يلي:

١ ـ الحرص على اتّباع منهج السلف رحمهم الله، واقتفاء آثارهم، لا سيما في مجال الدعوة، والوعظ، والإرشاد؛ لأنّ الخير كلّ الخير في اتباع من سلف.

٢ ـ إنّ منهج السلف رحمهم الله قد أعطي حقّه في كثير من مجالات العلوم الشرعية؛ كالعقيدة، والفقه، والتفسير، والحديث، لكن يبقى مجال الدعوة الإسلامية يفتقر إلى كثير من التأصيل، وإبراز منهج السلف في مضمون الدعوة الإسلامية، ووسائلها، وأساليبها، لذا أقترح: إقامة مؤتمرات، وندوات تعنى بتأصيل منهج السلف في الدعوة الإسلامية.

٣ ـ إنّ موضوع الرسالة قد كشف عن جانب يسير من انحراف بعض الجماعات الإسلامية في جانب الدعوة إلى الله تعالى، فلذا أقترح أن تكثّف الجهود لمزيد بيان أوجه مخالفات هذه الجماعات للمنهج القويم في الدعوة إلى الله تعالى.

٤ ـ أما عن الموضوع الذي أقترحه، والذي ظهر لي أهمية دراسته من خلال بحثي لهذا الموضوع، فكما يلي:

«وسائل وأساليب الدعوة إلى الله تعالى عند السلف»

حيث إنّ موضوع الرسالة قد تناول جانباً واحداً من جوانب أساليب الدعوة عند السلف ألا وهو أسلوب الموعظة، أما باقي الأساليب والوسائل فهي لا تزال، مجال بحث، وتتبّع، واستقصاء.

● وبعد: فبهذا أكون قد أتيت على موضوعات رسالتي، ودرست جميع المسائل المدوّنة في الخطّة المعدّة لهذا البحث.

وفي الختام أسأل الله تعالى القبول والسداد، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، إنّه ولي ذلك، والقادر عليه.

وصل اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه.





تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفهارس





تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosailiImiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

فهرس الآيات القرآنية

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة الأعراف

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء



فهرس الأحاديث النبويّة

طرف الحديث	الصفحة

حرف الألف

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث	الصفحة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

طرف الحديث	الصفحة
حدَّثَ أن رجلاً قال والله لا يغفر الله لفلان	٧١٨

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

طرف الحديث | الصفحة

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

طرف الحديث	الصفحة

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

فهرس الآثار السلفية

طرف الأثر مع قائله — الصفحة

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

طرف الأثر مع قائله — الصفحة

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

طرف الأثر مع قائله — الصفحة

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

طرف الأثر مع قائله	الصفحة
كان لأبي طلحة ابن من أم سليم فمات (أم سليم)	٤٠٥
كان للزبير بن العوام ألف مملوك (سعيد بن عبد العزيز)	٣٩٠
كان محمد بن سيرين من أشدّ الناس (ابن عون)	٦٥٦
كان محمد بن سيرين، قد أعطي هدياً (خلف بن هشام)	٣٨٧
كان معاذ لا يجلس مجلساً للذكر إلّا قال حين يجلس (يزيد بن عميرة)	٤٤١
كان من كان قبلكم (عبد العزيز بن أبي رواد)	٢٧١
كان منصور بن عمّار في قصَصه وكلامه شيئاً عجيباً (منصور بن عمّار)	٤٦٩
كان يقصّ لنا سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ (أبو شهاب)	٢٥٥
كانوا كما نعتهم الله؛ تدمع أعينهم (عبد الله بن عروة بن الزبير)	٧٩٠
كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون (الحسن البصري)	١٤٦
كفى بالموت واعظاً (ابن مسعود)	٥٢٥
كل من عصى الله خطأ (مجاهد)	٧١٤
كلّ نعمة لا تُقرِّب من الله (أبو حازم المدني)	٣٥٧
كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب (عبد الله بن أبي نوح)	٤٠٦
كم من مستدرج بالإحسان (الحسن البصري)	٢٤٥
كنّا لا نعدّ علم من لم يكتب علمه (أنس بن مالك)	٤٨١
كنا نتواعظ في أول الإسلام بأربع (غنيم بن قيس)	٧٠٤
كنا نجلس إلى أم الدرداء فنذكر الله عَزَّ وَجَلَّ (عون بن عبد الله)	٤٤٢
كنت جالساً إلى جنب الحسن البصري (سعيد بن أبي مروان)	٥٩١
كنتم معشر العلماء سرج البلاد (الفضيل بن عياض)	٧٠٦
الكيس من فيه ثلاث خصال (يحيى بن معاذ)	١٤٦
كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد (عمر بن الخطاب)	٧٥٢

حرف اللام

لا تتبع بصرك حسن (العلاء بن زياد)	٢٢٠
لا تجلس مع صاحب بدعة (الفضيل بن عياض)	٧٥٣
لا تسألوا أهل الكتاب فإنّهم لن يهدوكم (ابن مسعود)	٣٤٠
لا تلقى المؤمن إلّا يعاتب نفسه (الحسن البصري)	٤٠٣
لا تنشر بزَّك (مسروق بن الأجدع)	٢٥٦
لا خير في فضول الكلام (أبو هريرة)	٢٤٣

طرف الأثر مع قائله	الصفحة
لا شيء أزين على الرجل من الفصاحة والبيان (ابن سيرين)	٢٣٧
لا شيء أقوى على الورع من الصوم (عمرو بن عبد الغفار القهندري)	٣٠٤
لا يأمر السلطان بالمعروف إلّا رجل (سفيان الثوري)	٦٤٠، ٦٨٠
لا يحسن عبدٌ فيما بينه وبين الله (أبو حازم المدني)	٥٨٣
لا يخطئ القاصّ ثلاثاً (ميمون بن مهران)	٤٦٥
لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم (ابن مسعود)	٩٣٨
لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان (سهل التستري)	٦٧٨
لا يقصّ في المسجد (علي بن أبي طالب)	٨٥٠
لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان (أيوب السختياني)	٢١٨
لقد أدركت أقواماً كانوا آمر الناس بالمعروف (الحسن البصري)	٣٥١
لقد أعطيت هذه الأمة (سعيد بن جبير)	١٢١
لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله فما أرى أحداً يشبههم (علي بن أبي طالب)	١٥٤
لقد نغص هذا الموت على أهل الدنيا (عمر بن عبد العزيز)	١٩٨
لقي بكر بن عبد الله طلق بن حبيب (عاصم الأحول)	٧٠٤
لم تترك هذه الآية خيراً إلّا أمرت به (الحسن البصري)	٢٥٠
لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه (أنس بن مالك)	٣٧١
لم يُقَصّ على عهد رسول الله (ابن عمر)	٤٥٣
لم يكونوا يسألون عن الإسناد (ابن سيرين)	١٤٣
لم يمت رسول الله حتى ترككم على طريق ناهجة (العباس بن عبد المطلب)	٣٢
لما أخرج الله آدم من الجنة (ابن مسعود)	١٧٢
لما قدم عمر الشام (عروة بن الزبير)	٣٩٠
لن تزالوا بخير ما صلحت أئمتكم (ابن مسعود)	٦٩٠
اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا (معاذ بن جبل)	٤٤٣
لو أنّ رجلاً اتقى مائة شيء (ابن المبارك)	٢١٩
لو سخرت من كلب (ابن مسعود)	٧١٨
لو فكّر الناس في عظمة الله ما عصوه (بشر الحافي)	٢٠٥
لو كان لا يأمر بالمعروف (سعيد بن جبير)	٦٠٠
لو نادى مناد من السماء (عمر بن الخطاب)	٢٩٢
لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله (عمر بن الخطاب)	٤٤٢

طرف الأثر مع قائله	الصفحة
ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال (أبو مسلم الخولاني)	٢٢٥
ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء (أحمد بن حنبل)	٨٨١
ليس بفقيه من لم يعدّ البلاء نعمة (سفيان الثوري)	٦٤٨
لينظر العبد في نعم الله عليه (عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم)	٣٧١

حرف الميم

طرف الأثر مع قائله	الصفحة
ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة (سعيد بن المسيب)	٦٠٧
ما قيِّد العلم بمثل الكتاب (الحسن البصري)	٤٨١
ما من أعمال البرّ شيءٌ إلّا ودونه عُقَيبة (مالك بن دينار)	٦٤٧
ما من رجل يحدِّث قوماً بحديث (ابن مسعود)	٢٤٦
ما نحن لولا كلمات الفقهاء (أبو الدرداء)	٦٩٦
ما ندمت على شيء ندامتي أني (عبد الرحمٰن بن مهدي)	٦٢٥
ما يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه (ابن عباس)	٧٥٢
ما يوضع في الميزان يوم القيامة شيء أثقل من حسن الخلق (أبو الدرداء)	٢١٧
ما لي لا أبكي (عامر بن عبد قيس)	٢٦٩
متاع الغرور هو ما يلهيك (سعيد بن جبير)	٢٢٢
مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان (وهب بن منبه)	٣٢٨
مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة (شقيق البلخي)	٣٢٧
مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية (شعبة بن الحجاج)	٦٢٤
مجالس الذكر شفاء القلوب (عون بن عبد الله)	٤٣٨
مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام (عطاء الخراساني)	٤٣٤
مجلس الذكر محياة العلم (الحسن البصري)	٤٣٨
محال أن يظن النبي، أنه علّم أمته الاستنجاء (مالك بن أنس)	١٧١
مُرْ من قبلك بتعلّم الشعر (أبو موسى الأشعري)	٥١٤
من أحب المال والشرف (يزيد بن عبد الله)	٢٢٣
من أدب الاستماع، سكون الجوارح (وهب بن منبه)	٨٠٥
من أكثر ذكر الموت (أبو الدرداء)	١٩٧
من ألزم نفسه آداب السنة (ابن عطاء)	١٤٢
من السنّة أن يُوَقَّر أربعة (طاووس)	٦٩٤
مَن أمَّر السنَّة على نفسه قولاً وفعلاً (أبو عثمان النيسابوري)	١٤٢
من آيس عباد الله من التوبة (ابن عباس)	٧٢٨
من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا (أبو سليمان الداراني)	٨٨١
من تواضع لله تخشّعاً (عامر بن عبد الله)	٦٥٨
من سبّ أحداً من الأنبياء والرسل (مالك بن أنس)	١٧٩
من سره أن يأتي الله ﷻ آمناً (معاذ بن جبل)	٣٠٩
من شبّه الله بخلقه كفر (نعيم بن حماد الخزاعي)	١٦٣

حرف الياء

طرف الأثر مع قائله	الصفحة
يا شيخ! اتق الله، ولا تحدِّثَنّ بالخطأ (الشعبي)	٨٥٠
يا عبد الله العلم أفضل من العمل (مطرف)	٢١٤
يا عمرو لقد ابتدعت بدعة ضلالة (ابن مسعود)	٤٥٥
يا فتى! ما هذا جزاء نعم الله عليك (محمد بن المنكدر)	٣٧٢
يا قوم لا تطؤا عقبي (عبد الرحمٰن بن مهدي)	٥٩١
يا كعبُ خوِّفنا (عمر بن الخطاب)	٤٤٤
يا لها من نعمة ما أسبغها (عبد الله بن قرظ الأزدي)	٣٧٣
يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك (أبو جعفر الأنباري)	٣٨١
يا هذا! ما الذي أقدمك إلى بلدنا؟ (الليث بن سعد)	٨٣١
يأمر بالرفق والخضوع (أحمد بن حنبل)	٢٧٢، ٦٤١
يجيء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم (أبو أمامة)	٢١٩
اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً (الحسن البصري)	٦٥٤
يعاد ما بيننا وبينه أن يجلس على حائط (محمد بن سيرين)	٧٩٢
ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ (ابن وهب)	٢٤٦
ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه (أحمد بن حنبل)	٢٩٣

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الفرق والطوائف

فهرس المصطلحات والألفاظ اللغوية

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **الإبانة عن أصول الديانة**، تأليف: علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري أبي الحسن، دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. فوقية حسين محمود.

٣ ـ **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، تأليف: صديق بن حسن القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق: عبد الجبار زكار.

٤ ـ **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين**، تأليف: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي المطبعة الميمنية، مصر، الطبعة الأولى.

٥ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، دار الفكر، لبنان، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: سعيد المندوب.

٦ ـ **أحاديث في ذم الكلام وأهله** منتخبة من كتاب أبي عبد الرحمٰن السلمي، تأليف: أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أحمد بن الحسن المقريء، دار أطلس للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمٰن الجديع.

٧ ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تأليف: ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢١هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد عبد الله عنّان.

٨ ـ **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٩ ـ **الأحكام السلطانية**، تأليف: أبي يعلى الفراء بن محمد بن الحسين، دار الوطن، الرياض، تحقيق: محمد الفقي.

١٠ ـ **أحكام القرآن**، تأليف: أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

١١ ـ **أحكام أهل الذمة**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، رمادى للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري.

١٢ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**، تأليف: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبي محمد، دار النشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى.

١٣ ـ **إحياء علوم الدين**، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبي حامد، دار النشر: دار االمعرفة، بيروت.

١٤ ـ **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، تأليف: عبد الرحمٰن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ١٣٩٩هـ، الطبعة الأولى.

١٥ ـ **أخلاق العلماء**، تأليف: أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، دار البصيرة، الإسكندرية، طبعت ضمن كتاب الشريعة للآجري.

١٦ ـ **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، تأليف: أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، الطبعة الثانية.

١٧ ـ **الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ**، تأليف: محمود عبد الحليم، دار الدعوة، الإسكندرية، مطابع جريدة السفير، ١٩٧٩م.

١٨ ـ **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عمر القيام.

١٩ ـ **أدب الدنيا والدين**، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد الماوردي، شركة مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٩٣هـ، الطبعة الرابعة، تحقيق: مصطفى السقا.

٢٠ ـ **أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب**، تأليف: يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبي يوسف، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: سمير حلبي.

٢١ ـ **الأدب المفرد**، تأليف: محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٢ ـ **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار**، تأليف: أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٢٣ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.

٢٤ ـ **أساسيات في طرق التدريس العامة**، تأليف: د.محب الدين أبي صالح، دار الهدى، الرياض.

٢٥ ـ **أساليب الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم**، تأليف: أبي المجد سيد نوفل، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العدد رقم ٤٩.

٢٦ ـ **أساليب المجرمين في التصدّي لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك في ضوء الكتاب والسنّة**، تأليف: محمد بن عبد العزيز المسند، مؤسسة الرسالة: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٢٧ ـ **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار**، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى، تحقيق: سالم محمد.

٢٨ ـ **الاستقامة**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، دار النشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.محمد رشاد سالم.

٢٩ ـ **الإسرائيليات في التفسير والحديث**، تأليف: محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١١هـ، الطبعة الرابعة.

٣٠ ـ **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، تأليف: محمد بن محمد بن شهبة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثامنة.

٣١ ـ **أسرار البلاغة**، تأليف: عبد القادر الجرجاني، مكتبة المتنبي، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ.

٣٢ ـ **أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية**، تأليف: د. عبد الحميد الصيد الزنتاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤م.

٣٣ ـ **الأسلوب**، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، تأليف: لأحمد الشايب، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٦هـ، الطبعة السابعة.

٣٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي.

٣٥ ـ **إصلاح المساجد من البدع والعوائد**، تأليف: جمال الدين القاسمي، المطبعة السلفية، مصر،

٣٦ ـ **أصول الدعوة**، تأليف: د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة: ١٤٢٣هـ.

٣٧ ـ **أصول السنة**، تأليف: محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الأندلسي، مكتبة الغرباء الأثرية: ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم البخاري.

٣٨ ـ **الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع بيان جهود المملكة العربية السعودية في هذا المجال**، تأليف: أ. د.عبد الرحيم بن محمد المغذوي، الأمانة العامّة لجائزة المدينة المنوّرة، ١٤٢٢هـ.

٣٩ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

٤٠ ـ **الاعتصام**، تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٤١ ـ **الإعلام الإسلامي**، المرحلة الشفهية، د.إبراهيم إمام، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

٤٢ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

٤٣ ـ **الأعلام**، تأليف: خير الدين الزركلي، الطبعة الثالثة، بدون ذكر مكان الطبع، أو الناشر.

٤٤ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٤٥ ـ **الأغاني**، تأليف: أبي الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا.

٤٦ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٩هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٤٧ ـ **اقتضاء العلم العمل**، تأليف: أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبي بكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة الرابعة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٤٨ ـ **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تأليف: أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، دار الوفاء، ١٤١٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. يحيى إسماعيل.

٤٩ ـ **إلجام العوام عن علم الكلام**، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ١٤١٨هـ.

٥٠ ـ **الأمثال العربية**، دراسة تحليلية تاريخية، تأليف: د.عبد المجيد قطاش، دار الفكر، دمشق، ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى.

٥١ ـ **الأمثال العربية**، ومصادرها في التراث، تأليف: محمد أبو صوفة، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ١٤٠٢هـ، الطبعة الأولى.

٥٢ ـ **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع تأملات وتدبر**، تأليف: عبد الرحمٰن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ، الطبعة الثانية.

٥٣ ـ **الأمثال في الحديث النبوي**، تأليف: أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبي الشيخ الأصبهاني، الدار السلفية، الهند، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد.

٥٤ ـ **أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم**، تأليف: أحمد بن محمد طاحون، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

٥٥ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مكتبة المدني، جدة، تحقيق: محمد جميل غازي.

٥٦ ـ **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٨٧هـ، الطبعة الأولى.

٥٧ ـ **الأنوار القدسية**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، دار إحياء التراث العربي، بغداد، سنة: ١٩٨٤م.

٥٨ ـ **الأولياء**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

٥٩ ـ **الإيضاح والبيان في أخطاء طارق السويدان**، تأليف: أحمد بن عبد العزيز بن محمد التويجري، مكتبة الفرقان، مكتبة أهل الحديث، عجمان، البحرين، ١٤٢١هـ، الطبعة الأولى.

٦٠ ـ **إيقاف النبيل على حكم التمثيل**، تأليف: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ.

٦١ ـ **الإيمان لابن منده**، تأليف: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: د.علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.

٦٢ ـ **الإيمان؛ معالمه وسننه واستكماله ودرجاته**، تأليف: القاسم بن سلّام، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٦٣ ـ **الباعث على الخلاص من حوادث القصّاص**، تأليف: زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، دار الوراق، دمشق، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد بن لطفي الصبّاغ.

٦٤ ـ **بدائع التفسير**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

٦٥ ـ **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، تأليف: علاء الدين الكاساني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م، الطبعة الثانية.

٦٦ ـ **البداية والنهاية**، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبي الفداء، مكتبة المعارف، بيروت.

٦٧ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة.

٦٨ ـ **البرهان في علوم القرآن**، تأليف: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبي عبد الله، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

٦٩ ـ **البعث والنشور**، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عامر أحمد حيدر.

٧٠ ـ **البيان المفيد عن حكم التمثيل والأناشيد**، تأليف: عبد الله بن عبد الرحمٰن السليماني، مطابع الابتكار، الدمام، الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ.

٧١ ـ **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، تأليف: أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ١٣٩٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم.

٧٢ ـ **بيان زغل العلم والطلب**، تأليف: شمس الدين الذهبي، نشر القدسي، دمشق، ١٣٤٧هـ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري.

٧٣ ـ **البيان والتبيين**، تأليف: الجاحظ، دار صعب، بيروت، تحقيق: فوزي عطوي.

٧٤ ـ **البيان والتحصيل**، تأليف: أبي الوليد بن رشد القرطبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

٧٥ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو.

٧٦ - **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله الشافعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري.

٧٧ - **تاريخ ابن معين (رواية الدوري)**، تأليف: يحيى بن معين أبي زكريا، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٣٩٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.أحمد محمد نور سيف.

٧٨ - **تاريخ التراث العربي**، تأليف: لفؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٧ م، نقله للعربية: د.محمود فهمي حجازي.

٧٩ - **التاريخ الصغير** (الأوسط)، تأليف: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، دار الوعي، مكتبة دار التراث، حلب، القاهرة، ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم.

٨٠ - **تاريخ الطبري**، تأليف: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨١ - **تاريخ القصّاص**، وأثرهم في الحديث النبوي، ورأي العلماء فيهم، تأليف: د.محمد بن لطفي الصبّاغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

٨٢ - **التاريخ الكبير**، تأليف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبي عبد الله البخاري الجعفي، دار الفكر، تحقيق: السيد هاشم الندوي.

٨٣ - **تاريخ بغداد**، تأليف: أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٤ - **تأويل مختلف الحديث**، تأليف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبي محمد الدينوري، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٣هـ، تحقيق: محمد زهري النجار.

٨٥ - **تأويل مشكل القرآن**، تأليف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح السيد أحمد الصقر، المكتبة العلمية، د.ت.

٨٦ - **التبيان في أقسام القرآن**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الفكر.

٨٧ - **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، تأليف: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة.

٨٨ - **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد الصباغ.

٨٩ ـ **تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام**، تأليف: شيخ الاسلام محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر، دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر، قطر، الدوحة، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد.

٩٠ ـ **تحرير علوم الحديث**، تأليف: عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ.

٩١ ـ **التحرير والتنوير**، تأليف: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

٩٢ ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، تأليف: محمد عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري أبي العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٣ ـ **التحفة العراقية في الأعمال القلبية**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار النشر: المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.

٩٤ ـ **التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار النشر: مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٩هـ، الطبعة الأولى.

٩٥ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، تأليف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٩٦ ـ **تدوين السنة نشأته وتطوره**، من القرن الأوّل إلى نهاية القرن التاسع، تأليف: د. محمد بن مطر الزهراني، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

٩٧ ـ **التذكرة الحمدونية**، تأليف: بهاء الدين محمد بن الحسن بن حمدون البغدادي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى، تحقيق: إحسان عباس.

٩٨ ـ **تذكرة السامع والمتكلّم**، تأليف: ابن جماعة الكناني، دار المعالي، الأردن، ١٤١٩هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: السيد محمد الندوي.

٩٩ ـ **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ، الطبعة الثانية.

١٠٠ ـ **الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، أنواعه، مجالاته، تأثيره**، تأليف: د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

١٠١ ـ **تسلية أهل المصائب**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

١٠٢ ـ **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك**، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد الماوردي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، تحقيق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي.

١٠٣ ـ **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، تأليف: زكي مبارك، دار النشر: دار الجيل، بيروت.

١٠٤ ـ **التصوّف المنشأ والمصدر**، تأليف: د.إحسان إلهي ظهير، طبعة: إدارة ترجمان السنة، لاهور، توزيع: بيت السلام، الرياض.

١٠٥ ـ **التعريفات**، تأليف: علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

١٠٦ ـ **تعظيم قدر الصلاة**، تأليف: محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبي عبد الله، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي.

١٠٧ ـ **تفسير البحر المحيط**، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض.

١٠٨ ـ **تفسير ابن عباس: المنسوب إليه والمسمّى: (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس)**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٠٩ ـ **تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٠ ـ **تفسير البغوي (معالم التنزيل)**، تأليف: أبي الحسن محمد بن الحسين البغوي، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمٰن العك.

١١١ ـ **تفسير البيضاوي**، تأليف: البيضاوي، دار النشر: دار الفكر، بيروت.

١١٢ ـ **تفسير سفيان الثوري**، تأليف: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

١١٣ ـ **تفسير الجلالين**، تأليف: محمد بن أحمد المحلي وعبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى.
١١٤ ـ **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبي جعفر، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١١٥ ـ **تفسير القرطبي**: الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب، القاهرة.
١١٦ ـ **تفسير ابن كثير**: تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبي الفداء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
١١٧ ـ **تفسير المنار**: (تفسير القرآن الحكيم)، تأليف: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.
١١٨ ـ **تفسير النسفي**، تأليف: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.
١١٩ ـ **تفسير الواحدي**: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: علي بن أحمد الواحدي أبي الحسن، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: صفوان عدنان.
١٢٠ ـ **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، طبع في بيروت عام: ١٣١٩هـ.
١٢١ ـ **تقريب التهذيب**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عادل مرشد.
١٢٢ ـ **تقييد العلم**، تأليف: الخطيب البغدادي، دار النشر: دار إحياء السنة النبوية.
١٢٣ ـ **تلبيس إبليس**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد أبي الفرج (ابن الجوزي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي.
١٢٤ ـ **تلخيص الخطابة** لابن رشد، دار المعارف، بيروت، د. ت.
١٢٥ ـ **تمام المنة في تخريج فقه السنة**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، دار الراية، الرياض، ١٤١٧هـ، الطبعة الرابعة.
١٢٦ ـ **التمثيل حقيقته، تاريخه، حُكمه**، تأليف: بكر بن عبد الله أبي زيد، دار الراية، الرياض، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.
١٢٧ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري.

١٢٨ ـ **تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، وتحذير السالكين من أفعال الهالكين**، تأليف: محيي الدين أبي زكريا أحمد بن إبراهيم ابن النحاس الدمشقي، نشر: مكتبة عباد الرحمٰن، مصر ـ، توزيع: مؤسسة الريّان، لبنان، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

١٢٩ ـ **تنبيه المغترين**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، طبعة: مصر، ١٩٧٠م.

١٣٠ ـ **تهذيب الأخلاق**، تأليف: عمرو بن بحر الجاحظ، دار الصحابة للتراث، القاهرة.

١٣١ ـ **تهذيب التهذيب**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عادل مرشد، إبراهيم الزيبق.

١٣٢ ـ **تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق**، تأليف: محمود بن أحمد الفاريابي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.

١٣٣ ـ **تهذيب الكمال**، تأليف: يوسف بن الزكي عبد الرحمٰن أبي الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.بشار عواد معروف.

١٣٤ ـ **تهذيب اللغة**، تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب.

١٣٥ ـ **التوابين**، تأليف: أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

١٣٦ ـ **التواضع والخمول**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا.

١٣٧ ـ **التوبيخ والتنبيه**، تأليف: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، دار النشر: مكتبة الفرقان، القاهرة، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم.

١٣٨ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**، تأليف: محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.كمال رضوان.

١٣٩ ـ **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، تأليف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي.

١٤٠ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان**، تأليف: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرحمٰن بن معلّا اللويحق.

١٤١ ـ **التيسير بشرح الجامع الصغير**، تأليف: الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثالثة.

١٤٢ ـ **الثقات**، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، دار الفكر، ١٣٩٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

١٤٣ ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة السابعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس.

١٤٤ ـ **جامع بيان العلم وفضله**، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٤٥ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تأليف: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبي بكر، دار النشر: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ، تحقيق: د. محمود الطحان.

١٤٦ ـ **الجامع من السنن والآداب والمغازي والتاريخ**، تأليف: عبد الله بن أبي زيد القيرواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد أبو الأجفان، وآخرون.

١٤٧ ـ **الجرح والتعديل**، تأليف: عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبي محمد الرازي التميمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٢٧١هـ، الطبعة الأولى.

١٤٨ ـ **جمهرة الأمثال**، تأليف: الشيخ الأديب أبي هلال العسكري، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٤٩ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تأليف: أحمد عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، مطبعة المدني، مصر، تحقيق: علي سيد صبح المدني.

١٥٠ ـ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** (الداء والدواء)، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥١ ـ **جولات في الفقهين الكبير والأكبر**، تأليف: سعيد حوي، الناشر: دار السلام: ١٩٩٣م.

١٥٢ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٣ ـ **الحاوي في الطب**، تأليف: أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي.

١٥٤ ـ **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**، تأليف: أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني الملقب بقوام السنّة، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد بن محمود أبي رحيم.

١٥٥ ـ **حسن الظن بالله**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مخلص محمد.

١٥٦ ـ **الحكم بغير ما أنزل الله، وأصول التكفير في ضوء الكتاب والسنّة وأقوال سلف الأمّة**، تأليف: خالد بن علي بن محمد العنبري، مكتبة العلم، جدة، ١٤١٧هـ، الطبعة الثانية.

١٥٧ ـ **الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو**، تأليف: محمد بن سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، سنة: ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية.

١٥٨ ـ **الحكم وقضية تكفير المسلم**، تأليف: سالم البهنساوي، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.

١٥٩ ـ **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، تأليف: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

١٦٠ ـ **الحكمة والموعظة الحسنة، وأثرهما في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنّة**، تأليف: د. أحمد بن نافع بن سليمان المورعي، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.

١٦١ ـ **الحلة السيراء**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، الطبعة الثانية، تحقيق: الدكتور حسني مؤنس.

١٦٢ ـ **الحلم**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا.

١٦٣ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الرابعة.

١٦٤ ـ **حلية طالب العلم**، تأليف: بكر بن عبد الله أبي زيد، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٥هـ، الطبعة الخامسة.

١٦٥ ـ **حياة الشعر في الكوفة**، تأليف: د.يوسف خليف.دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

١٦٦ ـ **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تأليف: تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، الطبعة الأولى، تحقيق: عصام شقيو.

١٦٧ ـ **خصائص الخطبة والخطيب**، تأليف: نذير محمد كتبي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٩هـ، الطبعة الثانية.

١٦٨ ـ **الخطابة وإعداد الخطيب**، تأليف: د.توفيق الواعي، دار اليقين للنشر والتوزيع: ١٤١٧هـ، الطبعة الثانية.

١٦٩ ـ **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلّمها أصحابه**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة الرابعة.

١٧٠ ـ **الدر المنثور في التأويل بالمأثور**، تأليف: عبد الرحمٰن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٧١ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، تأليف: تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمٰن.

١٧٢ ـ **دراسات في الأهواء والفرق والبدع**، وموقف السلف منها، تأليف: د.ناصر بن عبد الكريم العقل، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.

١٧٣ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تأليف: الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٢هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان.

١٧٤ ـ **الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها**، د.أحمد أحمد غلوش، دار الكتب المصري، القاهرة، ١٤٠٧هـ، الطبعة الثانية.

١٧٥ ـ **الدعوة الإسلامية، الوسائل والأساليب**، تأليف: محمد خير رمضان يوسف، دار طويق للنشر والتوزيع: ١٤١٤هـ، الطبعة الثانية.

١٧٦ ـ **دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: د.محمد السيد الجليند.

١٧٧ ـ **ديوان أبي العتاهية**، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ.

١٧٨ ـ **ديوان أبي نواس**، تأليف: أبي علي الحسن بن هانئ الحكمي، المشهور بأبي نواس، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي.

١٧٩ ـ **ديوان الإمام الشافعي**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٦هـ، الطبعة الثالثة، جمع وتحقيق وشرح: د.إميل بديع يعقوب.

١٨٠ ـ **ذم الكلام وأهله**، تأليف: أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرحمٰن بن عبد العزيز الشبل.

١٨١ ـ **ذم الملاهي**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٧م، تحقيق: عبد القادر عطا.

١٨٢ ـ **الذهب المسبوك في وعظ الملوك**، تأليف: أبي عبد الله بن أبي نصر الحميدي، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عبد الحليم عويس، وأبي عبد الرحمٰن بن عقيل.

١٨٣ ـ **الرائد، دروس في التربية والدعوة**، تأليف: مازن عبد الكريم القريح، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

١٨٤ ـ **الرد على البكري**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد علي عجال.

١٨٥ ـ **الرد على الجهمية**، تأليف: عثمان بن سعيد الدارمي أبي سعيد، دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٦هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.

١٨٦ ـ **الرد على الزنادقة والجهمية**، تأليف: أحمد بن حنبل الشيباني أبي عبد الله، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣هـ، تحقيق: محمد حسن راشد.

١٨٧ ـ **الرد على المنطقيين**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس، دار المعرفة.

١٨٨ ـ **الرسالة القشيرية**: لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د.ت.

١٨٩ ـ **الرسالة**، تأليف: محمد بن إدريس أبي عبد الله الشافعي، القاهرة، ١٣٥٨هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

١٩٠ ـ **الرسول العربي المربي**، تأليف: د.عبد الحميد الهاشمي، دار الثقافة للجميع، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٩١ ـ **الرقة والبكاء**، لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦هـ.

١٩٢ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٩٣ ـ **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

١٩٤ ـ **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، تأليف: محمد بن حبان البستي أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

١٩٥ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٩٦ ـ **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ، الطبعة الثالثة.

١٩٧ ـ **الرياضة وأدب النفس**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بـ: الحكيم الترمذي، مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى.

١٩٨ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة.

١٩٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ١٤٠٧هـ، الطبعة الرابعة عشر، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط.

٢٠٠ ـ **كتاب الزهد الكبير**، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله البيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٦م، الطبعة الثالثة، تحقيق: عامر أحمد حيدر.

٢٠١ ـ **الزهد**، تأليف: عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي.

٢٠٢ ـ **الزهد والورع والعبادة**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: حماد سلامة، محمد عويضة.

٢٠٣ ـ **الزهد وصفة الزاهدين**، تأليف: أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم أبي سعيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مجدي فتحي السيد.

٢٠٤ ـ **الزهد**، تأليف: أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد.

٢٠٥ ـ **الزهد**، تأليف: هناد بن السري الكوفي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي.

٢٠٦ ـ **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، للحسين اليوسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، تحقيق: محمد حجي، وآخرون.

٢٠٧ ـ **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، تأليف: ابن حجر الهيثمي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ الطبعة الثانية، تحقيق: تم التحقيق والاعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز.

٢٠٨ ـ **الزينة في الكلمات الإسلامية العربية**: لأحمد بن حمدان الرازي، طبعة، القاهرة، ١٩٥٧م.

٢٠٩ ـ **سلسلة فتاوى العلماء في الجماعات وأثرها على بلاد الحرمين**: تسجيلات منهاج السنة بالرياض.

٢١٠ ـ **سلسلة (رحلة النور)** للألباني شريط رقم ٣٩ نهاية الوجه الثاني.

٢١١ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، طبعة: ١٤١٥هـ.

٢١٢ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء في الأمة**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢١٣ ـ **السنة**، تأليف: عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٢١٤ ـ **السنة**، تأليف: أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، دار الراية، الرياض، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عطية الزهراني.

٢١٥ ـ **السنة**، تأليف: محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبي عبد الله، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: سالم أحمد السلفي.

٢١٦ ـ **سنن الترمذي**، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٢١٧ ـ **سنن الدارمي**، تأليف: عبد الله بن عبد الرحمٰن أبي محمد الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

٢١٨ ـ **سنن أبي داود**، تأليف: سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢١٩ ـ **سنن ابن ماجه**، تأليف: محمد بن يزيد أبي عبد الله القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٢٠ ـ **سنن البيهقي الكبرى**، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبي بكر البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٢٢١ ـ **سنن سعيد بن منصور**، تأليف: سعيد بن منصور الخراساني، الدار السلفية، الهند، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي.

٢٢٢ ـ **السنن الكبرى**، تأليف: أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمٰن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

٢٢٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبي عبد الله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، الطبعة الحادية عشرة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون.

٢٢٤ ـ **السيرة النبوية** لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبي محمد، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

٢٢٥ ـ **سيرة عمر بن الخطاب**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد أبي الفرج (ابن الجوزي)، طبعة: مكتبة محمد أمين الخانجي: ١٣٤٢هـ، الطبعة الأولى.

٢٢٦ ـ **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

٢٢٧ ـ **شجرة المعارف والأحوال**، تأليف: العز بن عبد السلام، طبعة: دمشق: ١٩٨٩م، تحقيق: إياد خالد الطبّاع.

٢٢٨ ـ **الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح**، تأليف: إبراهيم بن موسى بن أيوب البرهان الأبناسي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: صلاح فتحي هلل.

٢٢٩ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تأليف: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، دار بن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط.

٢٣٠ ـ **شرح صحيح البخاري**، تأليف: أبي الحسين علي بن خلف بن عبد الله ابن بطال، مكتبة الرشد: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: أبي تميم ياسر إبراهيم.

٢٣١ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة**، تأليف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبي القاسم، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

٢٣٢ ـ **شرح الأربعين النووية**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض.

٢٣٣ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي**، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ، الطبعة الثانية.

٢٣٤ ـ **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، تأليف: محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

٢٣٥ ـ **شرح السنة**، تأليف: الحسن بن علي بن خلف البربهاري أبي محمد، دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

٢٣٦ ـ **شرح السنة**، تأليف: أبي الحسين محمد بن الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وزهير الشاويش.

٢٣٧ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، تأليف: ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعة الرابعة.

٢٣٨ ـ **شرح العقيدة الواسطية**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤١٧هـ، الطبعة الرابعة، تحقيق: سعد بن فوّاز الصميل.

٢٣٩ ـ **شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى.

٢٤٠ ـ **نونية ابن القيم المسماة: (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مع شرحها لمحمد خليل هراس، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر.

٢٤١ ـ **شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثالثة.

٢٤٢ ـ **الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة**، تأليف: عبيد الله محمد بن بطة العكبري، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، تحقيق: رضا بن نعسان معطي.

٢٤٣ ـ **الشريعة**، تأليف: أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، دار البصيرة، الإسكندرية.

٢٤٤ ـ **شعب الإيمان**، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

٢٤٥ ـ **الشعر الزهدي في العصر العباسي الأول**، تأليف: عبد الله بن علي بن محمد بن إسماعيل، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، ١٤٠٦هـ.

٢٤٦ ـ **الشعر والشعراء**، تأليف: ابن قتيبة الدينوري، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٦٦هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٢٤٧ ـ **الشكر**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٠هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: بدر البدر.

٢٤٨ ـ **شهيد المحراب**، تأليف: عمر التلمساني، دار الطباعة والنشر الإسلامية، د.م.د.ت.

٢٤٩ ـ **الصبر الجميل**، تأليف: سليم بن عبيد الهلالي، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١١هـ، الطبعة الثانية.

٢٥٠ ـ **الصحاح**، تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار.

٢٥١ ـ **الصحوة الإسلامية**، للشيخ محمد العثيمين.

٢٥٢ ـ **صحيح البخاري**، الجامع الصحيح المختصر، تأليف: محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. مصطفى البغا.

٢٥٣ ـ **صحيح الترغيب والترهيب**، للمنذري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٢٥٤ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثالثة.

٢٥٥ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨.

٢٥٦ ـ **صحيح سنن أبي داود**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٢٥٧ ـ **صحيح سنن الترمذي**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨.

٢٥٨ ـ **صحيح مسلم**، تأليف: مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٥٩ ـ **صفات الداعية النفسية**، تأليف: عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

٢٦٠ ـ **صفة الصفوة**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد أبي الفرج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م، الطبعة الثانية، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي.

٢٦١ ـ **الصفدية**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ١٤٢١هـ.، تحقيق: محمد رشاد سالم.

٢٦٢ ـ **الصمت وآداب اللسان**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: أبي إسحاق الحويني.

٢٦٣ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله.

٢٦٤ ـ **صيد الخاطر**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى.

٢٦٥ ـ **الضعفاء والمتروكون**، تأليف: أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر.

٢٦٦ ـ **طاعة السلطان وإغاثة اللهفان**، تأليف: أبي عبد الله صدر الدين بن إبراهيم السلمي المناوي، دار ابن حزم: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: أسعد محمد الطيب.

٢٦٧ ـ **الطبقات الكبرى**، تأليف: محمد بن سعد بن منيع أبي عبد الله البصري، دار صادر، بيروت.

٢٦٨ ـ **طبقات الحفاظ**، تأليف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي أبي الفضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

٢٦٩ ـ **طبقات الشعراني** دار القلم للجميع، بيروت، د.ت.

٢٧٠ ـ **طبقات الصوفية**، تأليف: أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٢٧١ ـ **طبقات المفسرين**، تأليف: أحمد بن محمد الداودي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.

٢٧٢ ـ **طبقات المفسرين**، تأليف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: علي محمد عمر.

٢٧٣ ـ **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، مطبعة المدني، القاهرة، تحقيق: د.محمد جميل غازي.

٢٧٤ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار النشر: دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٤هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر.

٢٧٥ ـ **عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي**، تأليف: أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي، دار الفكر، لبنان.

٢٧٦ ـ **العاقبة في ذكر الموت**، تأليف: عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الإشبيلي أبي محمد، مكتبة دار الأقصى، الكويت، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: خضر محمد خضر.

٢٧٧ ـ **العبر في خبر من غبر**، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م، الطبعة الثانية، تحقيق: د.صلاح الدين المنجد.

٢٧٨ ـ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف.

٢٧٩ ـ **العزلة**، تأليف: أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.

٢٨٠ ـ **العطر الوردي شرح لامية ابن الوردي في الحكم والأخلاق**، تأليف: مصطفى بن كرامة الله مخدوم، دار إشبيليا: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

٢٨١ ـ **العظمة**، تأليف: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبي محمد، دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٨، الطبعة الأولى، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

٢٨٢ ـ **العقد الفريد**، تأليف: أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٩١هـ، تحقيق: أحمد أمين وآخرين.

٢٨٣ ـ **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تأليف: محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي أبي عبد الله، دار النشر: دار الكاتب العربي، بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٢٨٤ ـ **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**، تأليف: أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمٰن بن محمد الجديع.

٢٨٥ ـ **العلم فضله وشرفه**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، مجموعة التحف والنفائس الدولية، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ، تحقيق: علي حسن الحلبي.

٢٨٦ ـ **العلم**، تأليف: زهير بن حرب أبي خيثمة النسائي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٢٨٧ ـ **علو الهمة**، تأليف: محمد أحمد إسماعيل المقدم، مكتبة الكوثر، الرياض، ١٤١٦هـ، الطبعة ١.

٢٨٨ ـ **علوم الحديث**، تأليف: أبي عمرو عثمان بن الصلاح، مطبعة الأصيل، حلب، ١٣٨٦هـ، تحقيق: نور الدين عتر.

٢٨٩ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩٠ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**: لأبي علي الحسن بن رشيق، دار الجيل، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

٢٩١ ـ **العمر والشيب**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. نجم عبد الله خلف.

٢٩٢ ـ **عوارف المعارف**، تأليف: عبد القهار بن عبد الله السهروردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية.

٢٩٣ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، تأليف: محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

٢٩٤ ـ **العين**، تأليف: الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي.

٢٩٥ ـ **عيون الأثر**، تأليف: أبي الفتح محمد بن سيد الناس، دار القلم، بيروت، ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم رمضان.

٢٩٦ ـ **عيون الأخبار**، تأليف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المؤسسة المصرية العامة، د.م.د.ت.

٢٩٧ ـ **الغرباء**، تأليف: محمد بن الحسين الآجري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: بدر البدر.

٢٩٨ ـ **غريب الحديث**، تأليف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبي محمد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عبد الله الجبوري.

٢٩٩ ـ **غريب الحديث**، تأليف: القاسم بن سلام الهروي أبي عبيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان.

٣٠٠ ـ **الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة**، تأليف: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ، الطبعة الخامسة.

٣٠١ ـ **غياث الأمم في التيّات الظلم**، تأليف: أبي المعالي عبد الملك الجويني إمام الحرمين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي: ١٣٧٤هـ، الطبعة الثالثة.

٣٠٢ ـ **غيث المواهب العلية في شرح حكم العطائية**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي، مطبعة السعادة، القاهرة، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، وآخرون.

٣٠٣ ـ **الفائق في غريب الحديث**، تأليف: محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبي الفضل إبراهيم.

٣٠٤ ـ **الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: حسنين محمد مخلوف.

٣٠٥ ـ **الفتاوى الهندية**: لنظام الهندي، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٠هـ، الطبعة الثالثة.

٣٠٦ ـ **فتاوى ومقالات متنوعة لعبد العزيز بن باز**، جمع د. محمد بن سعد الشويعر، دار القاسم.

٣٠٧ ـ **فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء**، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٠٨ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٣٠٩ ـ **شرح فتح القدير**، تأليف: كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، دار النشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.

٣١٠ ـ **الفتح المبين في شرح الأربعين**، تأليف: رضي الدين بن عبد الرحمٰن الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٣١١ ـ **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، تأليف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبي منصور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م، الطبعة الثانية.

٣١٢ ـ **الفرق بين النصيحة والتعيير**، تأليف: ابن رجب الحنبلي، دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٦هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: نجم عبد الرحمٰن الخلف.

٣١٣ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان**، تأليف: أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣١٤ ـ **الفروق في اللغة**، تأليف: الحسن بن عبد الله أبي هلال العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حسام الدين القدسي.

٣١٥ ـ **الفروق**، تأليف: شهاب الدين القرافي، عالم الكتب، بيروت.

٣١٦ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣١٧ ـ **فضل علم السلف على الخلف**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي، دار الهجرة، بيروت، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مروان العطية.

٣١٨ ـ **فقه الدعوة إلى الله وفقه الدعوة والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تأليف: عبد الرحمٰن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.

٣١٩ ـ **فقه الدعوة**، تأليف: د.بسام العموش، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى.

٣٢٠ ـ **الفقيه والمتفقه**، تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢١هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي.

٣٢١ ـ **الفنون**، تأليف: أبي الوفاء بن عقيل، مكتبة لينة، د.ت.

٣٢٢ ـ **فن التدريس للتربية اللغوية**، تأليف: محمد صالح سمك، مكتبة الأنجلو المصرية: ١٩٧٩م.

٣٢٣ ـ **فهرست ما رواه ابن الخير عن شيوخه**، تأليف: أبي بكر محمد بن الخير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، الطبعة الثانية: ١٣٨٢هـ، تحقيق: فرنسشكه قداره زيين.

٣٢٤ ـ **الفهرست**، تأليف: محمد بن إسحاق أبي الفرج النديم، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٣٢٥ ـ **الفوائد**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٣٢٦ ـ **فواتح الرحموت بشرح مسلّم الثبوت**، تأليف: عبد العلي الأنصاري، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، الطبعة الأولى.

٣٢٧ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، تأليف: عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة الأولى.

٣٢٨ ـ **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ، تحقيق: زهير الشاويش.

٣٢٩ ـ **قاعدة في الجرح والتعديل**: للسبكي.

٣٣٠ ـ **القاموس المحيط**، تأليف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٣١ ـ **قبول الأخبار ومعرفة الرجال**، تأليف: أبي القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البلخي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م، تحقيق: أبي عمرو الحسيني عمر عبد الرحيم.

٣٣٢ ـ **القصة والرواية**، تأليف: د. عزيزة مريدان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ.

٣٣٣ ـ **القطبية هي الفتنة فاعرفوها**، تأليف: أبي إبراهيم بن سلطان العدناني، الطبعة الثانية.

٣٣٤ ـ **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي، الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، الطبعة الأولى.

٣٣٥ ـ **قواعد العقائد**، تأليف: أبي حامد الغزالي، دار النشر: عالم الكتب، لبنان، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، الطبعة الثانية، تحقيق: موسى محمد علي.

٣٣٦ ـ **قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية**، تأليف: د. مصطفى بن كرامة الله مخدوم، إشبيليا، الرياض، ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

٣٣٧ ـ **قواعد في التعامل مع العلماء**، تأليف: عبد الرحمٰن بن معلّا اللويحق، الورّاق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.

٣٣٨ ـ **القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع**، تأليف: محمد بن عبد الرحيم السخاوي. مؤسسة الريّان: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عوّامة.

٣٣٩ ـ **القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ**، تأليف: حمود بن عبد الله بن حمود التويجري، الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٨هـ، الطبعة الثانية.

٣٤٠ ـ **القول المفيد على كتاب التوحيد**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ، الطبعة الثالثة.

٣٤١ ـ **القول المفيد في حكم الأناشيد**، تأليف: عصام عبد المنعم المرّي. مكتبة الفرقان، عجمان، ١٤٢١هـ.

٣٤٢ ـ **الكامل في اللغة والأدب**، تأليف: محمد بن يزيد أبي العباس الأزدي البصري المبرّد. مكتبة المعارف، بيروت.
٣٤٣ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**، تأليف: عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبي أحمد الجرجاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي.
٣٤٤ ـ **الكبائر**، تأليف: محمد بن عثمان الذهبي، دار النشر: دار الندوة الجديدة، بيروت.
٣٤٥ ـ **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، تأليف: أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم.
٣٤٦ ـ **الكتاب في تسلية المصاب**، تأليف:أبي الحسين علي بن أيوب بن منصور المقدسي. الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ، تحقيق: بدر عبد الله البدر.
٣٤٧ ـ **كشف اصطلاحات الفنون**، تأليف: محمد بن علي بن علي بن محمد التهانوي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.
٣٤٨ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
٣٤٩ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، تأليف: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٣٥٠ ـ **الكفاية في علم الرواية**، تأليف: أحمد بن علي بن ثابت أبي بكر الخطيب البغدادي. المكتبة العلمية، المدينة المنورة، تحقيق: أبي عبد الله السورقي، إبراهيم حمدي المدني.
٣٥١ ـ **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تأليف: أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، دار الكتب الثقافية، دمشق، ١٩٧٦م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.
٣٥٢ ـ **الكواشف الجلية عن معامي الواسطية**، تأليف: عبد العزيز المحمد السلمان. الطبعة الثانية عشرة: ١٤١٣هـ.
٣٥٣ ـ **كواشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة**، تأليف: عبد الرحمٰن بن حسن حبنكة الميداني، القلم، دمشق، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.
٣٥٤ ـ **اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: أبي عبد الرحمٰن صلاح بن محمد بن عويضة.

٣٥٥ ـ **لسان العرب**، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، صادر، بيروت.

٣٥٦ ـ **لسان الميزان**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٦هـ، الطبعة الثالثة، تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند.

٣٥٧ ـ **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢١هـ، الطبعة السادسة، تحقيق: ياسين محمد السّواس.

٣٥٨ ـ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية بشرح الدرّة المضيّة في عقد الفرقة المرضية**، تأليف: محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

٣٥٩ ـ **الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات**، تأليف: شمش السلفي الأفغاني. مكتبة الصدِّيق، الطائف، ١٤١٩هـ، الطبعة الثانية.

٣٦٠ ـ **مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة**، تأليف: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، الوطن، الرياض، الطبعة الأولى.

٣٦١ ـ **مباحث في علوم القرآن**، تأليف: مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠١هـ.

٣٦٢ ـ **المبسوط**: الأصل المعروف بالمبسوط، تأليف: محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني أبي عبد الله. إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، تحقيق: أبي الوفا الأفغاني.

٣٦٣ ـ **المجالسة وجواهر العلم**، تأليف: أبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

٣٦٤ ـ **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، تأليف: الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي، دار الوعي، حلب، ١٣٩٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

٣٦٥ ـ **مجمع الأمثال**، تأليف: أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

٣٦٦ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣٦٧ ـ **مجموع الفتاوى**، تأليف: أحمد عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس. مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

٣٦٨ ـ **المجموع شرح المهذّب للشيرازي**، تأليف: أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
٣٦٩ ـ **مجموعة الرسائل**، تأليف: حسن البنا، مكتبة الثقافة، المدينة، د.ت.
٣٧٠ ـ **مجموعة رسائل ابن رجب**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ، تحقيق: أبي مصعب طلعة بن فؤاد.
٣٧١ ـ **محاسبة النفس**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ، تحقيق: مصطفى بن علي بن عوض.
٣٧٢ ـ **المحكم والمحيط الأعظم**، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
٣٧٣ ـ **المحلى**، تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد، الآفاق الجديدة، بيروت، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي.
٣٧٤ ـ **مختار الصحاح**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.
٣٧٥ ـ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة**، تأليف: شمس الدين بن أبي بكر بن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن الموصلي، نشر: زكريا علي يوسف.
٣٧٦ ـ **مختصر منهاج القاصدين**، تأليف: أحمد بن عبد الرحمٰن بن قدامة المقدسي، عمّار، مكتبة الذهبي، القصيم، عمّان، الأردن: ١٤١٥هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد.
٣٧٧ ـ **المخصص**، تأليف: علي بن إسماعيل بن سيده، إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. خليل جفال.
٣٧٨ ـ **مداراة الناس**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.
٣٧٩ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٣٨٠ ـ **مداواة النفوس: الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، تأليف: أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.

٣٨١ ـ **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، تأليف: عبد القادر بن بدران الدمشقي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٣٨٢ ـ **المدخل إلى علم الدعوة**، تأليف: محمد أبي الفتوح البيانوني. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ، الطبعة الثالثة.

٣٨٣ ـ **المدهش**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: الدكتور مروان قباني.

٣٨٤ ـ **مذكرات الدعوة والداعية**، تأليف: حسن البنا، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ، دار الشهاب، القاهرة ـ، الطبعة الرابعة.

٣٨٥ ـ **المراسيل**، تأليف: عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي (ابن أبي حاتم). مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: شكر الله نعمة الله قوجاني.

٣٨٦ ـ **المستدرك على الصحيحين**، تأليف: محمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٣٨٧ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف**، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ الطبعة الثانية، تحقيق: مفيد محمد قميحة.

٣٨٨ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تأليف: أحمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون.

٣٨٩ ـ **مسند ابن الجعد**، تأليف: علي بن الجعد بن عبيد أبي الحسن الجوهري البغدادي. مؤسسة نادر، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عامر أحمد حيدر.

٣٩٠ ـ **مسند أبي يعلى**، تأليف: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي أبي يعلى. إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إرشاد الحق الأثري.

٣٩١ ـ **مسند البزار: البحر الزخار**، تأليف: أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محفوظ الرحمٰن زين الله.

٣٩٢ ـ **مشاهير علماء الأمصار**، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩م، تحقيق: م. فلايشهمر.
٣٩٣ ـ **مشكاة المصابيح**، تأليف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٣٩٤ ـ **مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر، الأسباب، الآثار، العلا**، تأليف: عبد الرحمٰن اللويحق. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٣هـ، الطبعة الثانية.
٣٩٥ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. المكتبة العلمية، بيروت.
٣٩٦ ـ **مصنف ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
٣٩٧ ـ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تأليف: حافظ بن أحمد حكمي، ابن القيم، الدمام، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر.
٣٩٨ ـ **معالم الدعوة في القصص القرآني**، تأليف: عبد الوهاب بن لطف الديلمي، المجتمع، جدة، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى.
٣٩٩ ـ **معالم السنن**، تأليف: أحمد بن محمد الخطابي، الحديث، بيروت، ١٣٩٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عزت الدعاس، عادل السيد.
٤٠٠ ـ **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تأليف: محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، تحقيق: محمد محمود شعبان، وصديق أحمد المطيعي.
٤٠١ ـ **معالم في الطريق**، تأليف: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثامنة.
٤٠٢ ـ **معاني القرآن الكريم**، تأليف: أبي جعفر النحاس. جامعة أم القرى، مكة المرمة، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد علي الصابوني.
٤٠٣ ـ **المعجم الأوسط**، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
٤٠٤ ـ **المعجم الفلسفي**، تأليف: يوسف كرم، وآخرين، بدون ذكر الطبعة ولا الناشر.
٤٠٥ ـ **المعجم الكبير**، تأليف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني. مكتبة الزهراء، الموصل، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

٤٠٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، تأليف: محمد فؤاد عبد الباقي، الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٨هـ، الطبعة الرابعة.

٤٠٧ ـ **المعجم الوسيط**، تأليف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٤٠٨ ـ **معجم مقاييس اللغة**، تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس ين زكريا، الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

٤٠٩ ـ **معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي**، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: سيد كسروي حسن.

٤١٠ ـ **معيد النعم ومبيد النقم**، تأليف: عبد الوهاب بن علي السبكي، الكتاب العربي، مصر، تحقيق: شلبي أبو العيون.

٤١١ ـ **المغني على مختصر الخرقي في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، تأليف: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبي محمد، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

٤١٢ ـ **مفاتح الغيب**: (التفسير الكبير)، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، الطبعة الأولى.

٤١٣ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، الكتب العلمية، بيروت.

٤١٤ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**، تأليف: الراغب الأصبهاني، القلم، دار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: يوسف علي بدوي.

٤١٥ ـ **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد، المعرفة، لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٤١٦ ـ **مفهوم الحاكمية في فكر الشهيد عبد الله عزام**، تأليف: أبي عبادة الأنصاري. نشر وإعداد مركز الشهيد عبد الله عزّام، بيشاور، باكستان.

٤١٧ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تأليف: علي بن إسماعيل الأشعري أبي الحسن، إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، تحقيق: هلموت ريتر.

٤١٨ ـ **مقدمة ابن خلدون**، تأليف: عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون الحضرمي، القلم، بيروت، ١٩٨٤م، الطبعة الخامسة.

٤١٩ ـ **مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، تأليف: عبد الله بن أبي زيد القيرواني أبي محمد، الفكر.

٤٢٠ ـ **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**، تأليف: برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح. مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين.

٤٢١ ـ **مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة**، تأليف: سعيد بن علي بن وهف القحطاني. الطبعة الأولى، سنة: ١٤١٥هـ، دون ذكر الناشر.

٤٢٢ ـ **مكارم الأخلاق**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي. مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم.

٤٢٣ ـ **الملخص الفقهي**، تأليف: د.صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

٤٢٤ ـ **الملل والنحل**، تأليف: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٤٢٥ ـ **من عاش بعد الموت**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد حسام بيضون.

٤٢٦ ـ **من هنا نعلم**: لمحمد الغزالي.

٤٢٧ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي أبي الفرج، صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، الطبعة الأولى.

٤٢٨ ـ **منطلقات الدعوة ووسائل نشرها**، تأليف: حمد حسن قريط. مركز الشريط الإسلامي، دار ابن حزم، الشارقة، بيروت، ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

٤٢٩ ـ **مناهج البحث العلمي**، تأليف: د. عبد الرحمٰن البدوي. وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م، الطبعة الثالثة.

٤٣٠ ـ **منهاج السنة النبوية**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبي العباس. مؤسسة قرطبة: ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٤٣١ ـ **منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين**، تأليف: أبي حامد الغزالي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٩٧م.

٤٣٢ ـ **منهاج اليقين في شرح كتاب أدب الدنيا والدين**، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مطبعة محمود بك، ١٣٨٢هـ.

٤٣٣ ـ **منهج الإسلام في تزكية النفس**، وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، تأليف: د. أنس كرزون، نور المكتبات، دار ابن حزم، جدة، بيروت، ١٤٢١هـ، الطبعة الثالثة.

٤٣٤ ـ **منهج البحث وإعداده**، تأليف: د. طلال المجذوب. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر: ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى.

٤٣٥ ـ **المنهج السلفي (تعريفه، تاريخه، مجالاته، قواعده، خصائصه)**، تأليف: د. مفرح بن سليمان القوسي، الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.

٤٣٦ ـ **منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام**، تأليف: أ. د حمود بن أحمد الرحيلي. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عمادة البحث العلمي، المدينة المنوّرة، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى.

٤٣٧ ـ **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**، تأليف: محمد الأمين الشنقيطي. مكتبة السنّة، القاهرة، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: سيد الحليمي.

٤٣٨ ـ **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، تأليف: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبي إسحاق، دار الفكر، بيروت.

٤٣٩ ـ **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في تاريخ مصر**، تأليف: أحمد بن علي المقريزي أبي العباس. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، الطبعة الثانية.

٤٤٠ ـ **الموافقات في أصول الفقه**، تأليف: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشاطبي، المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.

٤٤١ ـ **المورد العذب الزلال فيما انتقد على بعض المناهج الدعوية من العقائد والأعمال**، تأليف: أحمد بن يحي بن محمد النجمي، مكتبة الفرقان، عجمان، ١٤٢٢هـ، الطبعة الثانية.

٤٤٢ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**. إصدار: دار الندوة العلمية للشباب، تحت إشراف: د. مانع بن حمّاد الجهني، طبعة: دار الندوة العالمية للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ.

٤٤٣ ـ **الموضوعات**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد القرشي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: توفيق حمدان.

٤٤٤ ـ **موطأ الإمام مالك**، تأليف: مالك بن أنس أبي عبد الله الأصبحي، إحياء التراث العربي، مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٤٤٥ ـ **موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع**، تأليف: د. إبراهيم بن عامر الرحيلي. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.

٤٤٦ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، الطبع: الأولى، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود.

٤٤٧ ـ **النبوات**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس. المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٤٤٨ ـ **نزهة الأسماع في مسألة السماع**: تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، المديرية العامة للمطبوعات: ١٤١٣هـ، تحقيق: عبد الله الطريفي.

٤٤٩ ـ **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول**، إعداد: مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن بن ملوح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.

٤٥٠ ـ **نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد**، تأليف: أبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، مكتبة الرشد، السعودية، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: رشيد بن حسن.

٤٥١ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تأليف: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري. المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي.

٤٥٢ ـ **نواسخ القرآن**، تأليف: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي أبي الفرج، الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

٤٥٣ ـ **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٤٥٤ ـ **هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة**، تأليف: علي محفوظ، مصر للطباعة: ١٣٩٥هـ، الطبعة السابعة.

٤٥٥ ـ **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عبد الرحمٰن عوض.

٤٥٦ ـ **الوافي بالوفيات**، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى.

٤٥٧ ـ **الوجل والتوثق بالعمل**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان.

٤٥٨ ـ **الورع**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، الدار السلفية، الكويت، ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود.

٤٥٩ ـ **وسائل الدعوة**، تأليف: عبد الرحيم بن محمد المغذّوي، إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.

٤٦٠ ـ **الوصية الكبرى**، تأليف: عبد السلام الأسمر الفيتوري. مكتبة النجاح، طرابلس، ليبيا، ١٣٩٦هـ، الطبعة الأولى.
٤٦١ ـ **الوضع في الحديث**، تأليف: د. عمر بن حسن عثمان فلاتة. مؤسسة مناهل العرفان، مكتبة الغزالي، بيروت، دمشق، ١٤٠١هـ.
٤٦٢ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تأليف: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة، لبنان، تحقيق: إحسان عباس.
٤٦٣ ـ **وميض من الحرم، خطب ومواعظ من المسجد الحرام**، تأليف: سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم، الوطن للنشر، الرياض، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى.
٤٦٤ ـ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تأليف: أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية.

* فهرس المجلات والأشرطة السمعية *

- جريدة المسلمون: العدد (٦٣٩).
- مجلة الاستقامة: ربيع الأول ١٤٠٨هـ.
- المجلة الإسلامية الأسبوعية منابر الدعوة العدد (١٨٠٩)، الاثنين ١١ رجب ١٤٢٤هـ.
- مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (٤٩).
- مجلة حضارة الإسلام: عدد خاص بمناسبة وفاة مصطفى السباعي.
- مجلة المجلة: العدد (٨٠٦).
- مجلة المحرر: العدد (٢٦٧) في ٢٩ أغسطس ١٩٩٤..
- شريط بعنوان: (حوار في الساحة الإسلامية. واقع ومعالجات)، لطارق السويدان رمضان ١٤١٧هـ.
- الشريط رقم: (٣٩) ضمن سلسلة (رحلة النور)، لفضيلة العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- سلسلة: (فتاوى العلماء في الجماعات وأثرها على بلاد الحرمين) تسجيلات: منهاج السنة بالرياض.
- شريط بعنوان: (فتوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على جماعة التبليغ)، لفضيلة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- شريط بعنوان: (القول البليغ في ذم جماعة التبليغ)، لفضيلة العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- شريط بعنوان: (وقفات مع الشعراوي وكشك)، لفضيلة العلامة محمد ناصر الدين الألباني.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

* الفصل السادس *

المخالفون لمنهج السلف في الوعظ ٨٠٩

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة